المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة
كلية اللغة العربية
قسم الأدب والبلاغـة
٠٣٢

الضمير العائد على خلاف مقتضى الظاهر في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

مشروع رسالة علمية مقدم لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه)

الطالب : ذعار بن حميدان الحربي
الرقم الجامعي : ٣٣٢٠٨٥٢٩٧

إشراف: فضيلة الدكتور:
عيسى بن صلاح الرجبي
الأستاذ المشارك في قسم الأدب والبلاغة في الجامعة الإسلامية

العام الجامعي
١٤٣٦هـ - ١٤٣٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى والديّ اللذين حرصا على تعليمي، ورفعا في ظهر الغيب يديهما يدعوان لي، فجزاهما الله خير الجزاء.

كما أهديه إلى زوجي وأولادي الذين رغبوا بكثرة جلوسي معهم، لكن رحلة البحث كان لها حق علي، فامتزج حقها بحقوقهم، فأصبحت لهم ساعة وللبحث ساعات.

كما أهدي هذا العمل إلى جميع إخوتي وأهل بيتي، وإلى كل من علمني حرفا، أو ساعدني في مشروع علمي، وإلى كل من اشرأب عنقه ليتلذذ بشيء من أسرار ونكات هذا القرآن الكريم.

شكر وتقدير

الحمدلله على فضله العميم، وكرمه العظيم، فقد يسر لي طلب العلم النافع في طيبة الطيبة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وفي الجامعة الإسلامية منار العلم والهدى، واختار القرآن الكريم ميدانا لعملي، فيسر لي هذه الرحلة الماتعة، التي تتجول بين رياض القرآن الكريم، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تفنى نفائسه. وهذا العمل لم يكن لولا توفيق من الله سبحانه وتعالى، ومن توفيق الله أن يسر لي أسباب تمامه، فالشكر لكل من له يد، أو فكرة، أو رأي عابر فتح لي أفقا، أو دعوة، أو مودة.

وأسأل الله أن يغفر لخادم الحرمين الشرفين الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود، الذي فتح أبواب القبول لطالبي العلم وأعان المقبولين، كما أسأل الله أن يعز خادم الحرمين الشرفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود الذي أتم البناء، وقوّى الله به شوكة المسلمين، فجمعهم على كلمة سواء، يخشى حماها الأعداء الألداء.

وأشكر والديّ اللذين بثا في نفسي حب العلم وشجعاني عليه، ورفعا أكف الضراعة يدعوان لي في السر والعلن، وأشكر زوجي التي ساعدتني وأولادي، وأخوتي وأهل بيتي الذين كان لهم الأثر البالغ في تحقيق هدفي.

كما يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر لشيخي الفاضل ومشرفي القدير فضيلة الدكتور: عيسى بن صلاح الرجبي، الذي أضاء لي الدرب، وفتح ما استغلق علي، وزودني بالكتب التي أفدت منها كثيرا، فجزاه الله الجزاء الأوفى.

كما أشكر مدير الجامعة الإسلامية الأسبق، فضيلة أ.د: عبدالرحمن بن عبدالله السند ؛ الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشكر لفضيلة مدير الجامعة المكلّف أ.د: إبراهيم بن علي العبيد، وأعضاء كلية اللغة العربية، وفي مقدمتهم عميد كلية اللغة العربية فضيلة الأستاذ الدكتور: محمد بن هادي مباركي، الذي نهلنا من علمه في الدراسة المنهجية، والشكر لرئيس قسم الأدب والبلاغة فضيلة الدكتور: علي بن دخيل الله العوفي، الذي كان يشجعنا، ويأخذ بهممنا، وينير طريقنا في دراستنا وإبان رحلة البحث العلمية، والشكر موصول إلى كافة المسؤولين في الجامعة الإسلامية.

مستخلص الرسالة

الضمير العائد على خلاف مقتضى الظاهر في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

تكمن أهمية الدراسة في كونها تجمع بين التركيب والدلالة، وتجمع بين علمي النحو والبلاغة، لتكشف عن المدلول المعنوي الذي تفصح عنه قرائن السياق، وتكونت تقسيماتها من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة يتلوها الفهارس، بدأت بتمهيد فيه ثلاثة مطالب: أولها: الضمير تعريفه وأنواعه وأحواله وأغراضه، ثم أقوال النحاة والبلاغيين في مخالفته، أما الفصل الأول: فمخالفة الضمير مرجعه في العدد وفيه ستة مباحث، أولها عود ضمير المفرد على المثنى، ثم عود ضمير المفرد على الجمع، ثم عود ضمير المثنى على المفرد، ثم عود ضمير المثنى على الجمع، ثم عود ضمير الجمع على المفرد، والمبحث السادس: عود ضمير الجمع على المثنى، أما الفصل الثاني: في مخالفة الضمير مرجعه في نوع الجنس، وفيه أربعة مباحث؛ الأول: عود ضمير المذكر العاقل على غير العاقل، ثم عود ضمير المؤنث العاقل على غير العاقل، ثم عود ضمير المذكر على المؤنث، ثم العكس، أما الفصل الثالث: فعن المخالفة في الرتبة في القرآن الكريم، ومباحثه ثلاثة: عود ضمير الشأن والقصة على متأخر، ثم عود الضمير على غير الأقرب، أما الفصل الأخير: ففيه مبحثان، الأول: عود الضمير على المصدر الذي فسره فعله، والثاني: عود الضمير على مفهوم من المعنى، وفي الخاتمة أبرز النتائج ومنها: أن ضمير الإفراد يعود إلى الله وقد عطف عليه أحد من خلقه ؛كيلا يشرك بضمير الله غيره فيما يختص به الله، وقد يكون الضمير المفرد صالحا لعوده إلى أكثر من مرجع لكثافة معنوية، ويعود إلى الاثنين إذا كانا كالشيء الواحد. وقد يخاطب الواحد بخطاب الجماعة للتعظيم، وكثيرا ما تأتي ياء المتكلم بعد ناء المعظم نفسه العائدة إلى الله فيما يخص العبادة والتحذير من الشرك، ويأتي ضمير المعظم نفسه عائدا إلى الله الواحد فيما يوحي بالعظمة والجبروت، ويأتي ضمير الخطاب للمعين، وقد يأتي لغير المعين فيفيد توسيع الخطاب، ويعود ضمير العاقل إلى غير العاقل في الحِجَاج، وللتفسير، وفي خطاب الله لبعض مخلوقاته أو حديثه عنها، لأنها تعقل بقدرته وعلمه. ويأتي ضمير الشأن والقصة للتفخيم والتعظيم، لمافيه من إبهام يعقبه بيان، يستقر في الأذهان، وبالله التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل الكتاب تبيانا لكل شيء، فحفظه من الضياع أو الزيادة والنقصان ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ، الذي كان خلقه القرآن، وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فلقد اهتم رجالات العلم بكتاب ربِّهم فدرسوه من كل جانب، محاولين الوقوف على أسراره؛ فألّفوا في ذلك الكتب العظيمة في أفانين متباينة، والقرآن بحر لا تنتهي عجائبه ولا تفنى بدائعه، وفي كل نواحيه لآلي خرّد، وجواهر مكنونة، يقتنصها من رزق عونا من باريه، فرزق إخلاصا في العمل ويقظة في الذهن، وهو أبلغ من كل ما قيل وكُتب فيه، والقرآن الكريم متواتر النقل معصوم من الزلل، بلغ نظمه القمة في الفصاحة وروعة البناء وجودة السبك، حتى أدرك ذلك المؤمن العاقل، وشهد بفصاحته العدو الكافر، من ذلك أن الوليد بن المغيرة قد وقع تحت سلطان بلاغته الآسرة للنفوس، فلم يستطع إلا أن يردد: " والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى"(١).

ولقد جاء القرآن على أساليب العرب وطرائقهم ؛ ولكن بتفنن بليغ ، وإعجاز مهيب مراعاة لما تقتضيه أحوال المخاطبين مؤمنهم وكافرهم ، وإن مما لفت الانتباه فيه (ظاهرة عود الضمير على خلاف مقتضى الظاهر) ، هذه الظاهرة لفتت الانتباه لمجيئها على خلاف ما استقرت عليه قواعد العربية، فإن الكلام متى اقتضى ظاهراً ثم عُدل به عن ذلك الظاهر لزم أن يكون لذلك العدول –في الكلام البليغ – غرض بلاغي يتجاوز في اعتباره ما يقتضيه ظاهر الكلام، فالعدول إنما يسلكه المتكلم لتحقيق غرض بلاغي لم يكن ليتحقق دونه ، ومن هنا فإنَّ هذا العدول في نظم الذكر الحكيم ظاهرة أسلوبية جديرة بالبحث ارتأيت الجولان في ميدانها لما لهذا العدول من سرٍّ اقتضاه،

---

(١) الكشاف للزمخشري (٤/٦٩٤).

ولطيفة بلاغية جديرة بأن يكشف عن جمال روعتها الحجاب بعد أن يعمل فيها الفكر واللباب، ودور الباحث هو محاولة التقعيد والتنظير لهذه الظاهرة بعد جمع شواهدها من القرآن الكريم والكشف عن جمال روعتها؛ وذلك لأن هذا الموضوع لم يأخذ حقه من البحث، غير منكرٍ أن لبعض العلماء الأوائل إشارات لطيفة لبعض هذه الظواهر، جاءت في مواضع مختلفة من كتبهم ومصنفاتهم ، فلقد اتسم القرآن الكريم بأسلوبه الذي نال من البلاغة ذروتها، فحروفه مؤتلفة، ونظم كلماته يأخذ بالألباب، بلغ في الفصاحة والبيان شأوا لم يبلغ قريبا منه قائل.

ولا يزال الموثوق بهم من علماء الأمة – إلى أن يشاء الله – يستنبطون معاني التنزيل ويستثيرون دقائقه ويغوصون على لطائفه، وكتاب ربي أوسع من أن يُبلغَ منتهاه، كيف يكون ذلك وهو الحمّال الأوجه ، الذي أبهر فصحاء عصره ومن بعدهم فلم يستطع أحد أن يأتي بآية من مثله، وهذه الدرب صعبة على سالكيها؛ لأنها تتناول كتاب الله الكريم، وتدعو إلى التثبت والتروي كيلا يحمّل النص القرآني ما لا يحتمله، ويكفي هذا الميدان شرفا أنه يعايش كتاب الله حيث العجائب والنفائس، وهذه الفصاحة والبيان تدعو كل باحث لأن يقف على أسرار ألفاظه بمعانيها، وأن يغوص في أعماق كلماته، مستخرجا الدرر واللآلئ؛ لتكون علما نافعا يُجزى عليه سالكه الجزاء الأوفى .

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يتناول الأسلوب العربي في مثاله الأعلى القرآن الكريم، هذا المثال الذي طابقت ألفاظه مقتضى الحال وراعى أحوال المخاطبين في جميع مواضعه، وهذا يدعونا لأن نقف على ظاهرة عدول عن الظاهر إلى ما هو أبلغ مجتهدين في بيان أسرار ذلك ونكاته.

أسباب اختياره:

وثمة أسباب عديدة تدعو لإقامة هذه الدراسة والشروع فيها تتجلّى فيما يلي :

١- أن شواهد عود الضمير على خلاف مقتضى الظاهر في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، تغري بإقامة دراسة علمية تتبّعها وتحلّلها، وتكشف عن أسرارها، مدعّمة بكلام أهل العلم.

٢- في هذا البحث ملمح من ملامح تعانق البلاغة بالنحو وترابطهما، فعود الضمير على خلاف مقتضى الظاهر ظاهرةٌ نحوية، ودراستُها وتعليلُها أمر لا بدّ، وهو ما ستنهض به هذه الدراسة البلاغيَّة .

٣- هذه الدراسة البيانية التّطبيقية هي أبرز ردّ عمليّ على الدعاوى المحدثة القائلة بجمود بلاغتنا العربيّة الأصيلة وموتها، والرامية لإقصاء وطمس معالمها، وإحلال مصطلحات مستحدثة محلَّها، فلقد خلَّف لنا سلفنا من أهل العلم إرثاً عظيماً ومنهجاً قويماً في تحليل الآيات القرآنيَّة وقراءة النصوص، وفتحوا أبوابا من المعرفة في ميدان الدراسة البيانية الأجدر بنا الإفادة من طرائقه ومسالكه في مراتب الكلام .

٤- هذه الدراسة البيانية فيها رد على كل من قدح في بعض آيات القرآن الكريم من المستشرقين وأمثالهم؛ ظانا أن كل عدول عن المألوف من كلام العرب ينشأ عنه اضطراب أو خلل لغوي، وما علم أن وراء كل عدول عن المألوف إثارة للمتلقي، تبعثه على التأمل الكاشف عن سرّ هذا العدول، فليس للاضطراب أو الخلل طريق إلى كتاب الله العزيز.

الدراسات السابقة :

لم أقف على دراسة سابقة في هذا الموضوع بعينه، وذلك من خلال سؤال المراكز البحثية والتنقيب في فهارس بعض الجامعات، غير أنه لا يعدم بعض الإشارات إليه في بعض مؤلفات العلماء الذين لديهم نزعة بلاغية أو لغوية .

ولكن لما شرع الباحث في كتابة هذا البحث؛ عرضت له بعض الدراسات المقتضبة، التي تتناول جزءا يسيرا له علاقة في أحد مباحث البحث، وسيعرضها الباحث بإيجاز، مرتبة حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها، ثم يقدم للدراسة بفكرة موجزة، ثم يبين أوجه التشابه والاختلاف بين هذا البحث وتلك الدراسات السابقة.

الدراسة الأولى:

نون النسوة وواو الجماعة لغير العاقل في القرآن الكريم، د. سمية محمد عناية، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٢٠، السنة: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

وهدف هذه الدراسة البحث في نون النسوة واستعمالاته، وهل هو خاص في العاقل كواو الجماعة أم يستعمل لغير العاقل؟ وجعلت آيات الكتاب العزيز ميدانا للدراسة، مستعينة بآراء النحويين المبثوثة في كتبهم، فعرضت الأدلة التي عادت فيها نون النسوة إلى غير العاقل، وكذلك الضمير (هنّ)، وتناولت استعمالات واو الجماعة للمقارنة، ثم ذكرت الدراسة تخصيص واو الجماعة لجمع العاقل من الذكور، وتتساءل لماذا لا تكون نون النسوة كذلك؟ وهل لذلك حدود وقواعد؟ ثم تشير إلى أن نون النسوة يطلق عليها في كتب النحاة نون النسوة، ونون جماعة النساء، ونون الإناث، ونون الفاعلات، ثم تعرض شواهد ذلك من كلام النحاة، ثم تجد مصطلح نون الإناث يستوعب كل أنثى من كل شيء، ولا يختص بالعاقلات، ثم تروي قول نحوي -لم توافقه لمخالفة الشواهد له- يقضي بأن واو الجماعة لا تكون إلا للعاقل المذكر، ويضيف إلى ذلك الهاء المنتهية بميم الجمع ؛ وتعلل ذلك بأنهم يفسرون ماجاء على ذلك لغير العاقل بتنزيله منزلة العاقل، كما أنهم يسكتون عن نون الإناث إذا جاءت لغير العاقل، ولا يصرحون بأنها للعاقل فقط. ثم تؤكد من خلال الشواهد أن واو الجماعة تأتي لغير العاقل، وتورد تأويلات اللغويين، ثم تحصي نون النسوة للعاقلة وغير العاقلة في القرآن، وخلصت من الدراسة بأن واو الجماعة يأتي لغير العاقل، وأن نون النسوة تختلف عن نون الإناث، وأنها وردت في اثني عشر موضعا لغير العاقل، وتوصي -إذا كان الأمر كذلك- باستبدال نون الإناث بنون النسوة.

أوجه التشابه:

كلا الدراستين ميدانهما القرآن الكريم كاملا، وبدأتا بالتنظير ثم التطبيق، واتحدت الشواهد لأن الميدان واحد، وأفاد منها الباحث، واختلفت بينهما التفسيرات، وموضوع الدراسة السابقة جزء من مباحث أحد فصول رسالة الباحث.

أوجه الاختلاف:

أن الدراسة السابقة خاصة بنون النسوة وواو الجماعة، وحاولت إثبات استعمال ذلك للعاقل ولغير العاقل. أما دراسة الباحث فأوسع من ذلك، وهذا الموضوع جزء من مباحثها. وفي الدراسة السابقة كان الهدف التقعيد اللغوي، أما دراسة الباحث فتعد ذلك تلوينا بليغا وراءه أسرار بليغة، يسعى لكشف الستار عنها.

والباحث في رسالته أثبت بالأدلة أن واو الجماعة إذا عاد على غير العاقل يأتي للتفسير، وللتعظيم، وفي مواطن الحِجَاج ليجعله المناظر جسرا يوصله إلى حجته كما في حوار عبدة الأصنام، وغير ذلك مما ذكر في البحث. وأن نون النسوة تعود إلى العاقل في علم المتكلم، وذلك في المواطن التي خاطب الله مخلوقاته فيها أو أمرها؛ لأنها تعقل بقدرة الله فخوطبت بذلك، وليس ذلك للإنسان؛ لأنه لا يعقل عقلها. وقد تأتي من باب التعظيم، أو على سبيل المجاز فيما أخبرنا به الله به في القرآن وهو من كلام البشر، كما جاء في رؤيا الملك وتعبير يوسف.

الدراسة الثانية:

ضمير الشأن والفصل دراسة ومقاربة لسانية، أ.د. فوزي حسن الشايب، الرسالة(٢٤٩)، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية السابعة والعشرون، جامعة الكويت، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م

تدور هذه الدراسة حول ضميري الشأن والفصل، مع تحفظ لدى الدراسة على ما قيل في هذين الضميرين من أحكام ترى أنها تفتقد الصلة بالواقع اللغوي، لتعرض تجارب سعيا للجزم بأن ضمير الشأن والفصل ما هما إلا ضميرا غيبة عاديان، ثم تذكر ما قرره العلماء من قبل وتنقضه عن طريق التفكيك أو المخالفة الصرفية للجملة التي

قيل: إن فخامتها بضمير الشأن، فتقدم وتؤخر وتحذف، ثم ترى الدراسة أن مصطلح ضمير الشأن والقصة من صناعة البغداديين، ذوي النزعة البصرية؛ لأنها لاتجد ذلك عند روادها ابتداء من سيبويه وانتهاء بالمبرد، وبذلك تؤسس الدراسة على إلغاء جميع الأغراض التي قال النحاة والبلاغيون بها، وهذا ظاهر من عرض آراء النحاة المتضافرة بإسهاب، ثم رفضت الدراسة أن تكون لذلك التركيب مزية، وتورد تأويلا واهيا على شاهد نقضه الباحث في بحثه، وكشف عواره. وتختم بأن الفخامة ليست لضمير الشأن والقصة ولكن للإبهام والإجمال في الضمير الغائب ثم البيان والتفصيل في الاسم الظاهر، وتصف ضمير الفصل بأنه حشو، لتسقط بذلك هذين المصطلحين وما بني عليهما من أحكام وافتراضيات.

أوجه التشابه:

ليس هناك تشابه إلا في استعراض بعض آراء النحاة والمصطلحات التي أطلقت على هذا الضمير، وما يلحقها من أحكام، إلا أن غرض الاستعراض مختلف لدى الباحث الذي يجعله شاهدا على قوله، والدكتور الذي يذكره لينقضه. فقول الدكتور أن الرواد لم يعرفوا الشأن والقصة، يردّ عليه بأنهم عرفوه بالأمر والحديث والخبر، وهذه المصطلحات ضده، لأنها تنبيء عن تفخيم لما سيأتي بعد إبهامها، وكذلك تسمية الكوفيين له بالمجهول فإن هذا المصطلح يستدعي انتظارا، فبذلك حملت جميع مصطلحاتهم دلالات بليغة، وأثبت المصطلح الدقة في اختياره لما وضع له.

أوجه الاختلاف:

أوجه الخلاف كبيرة بين بحث الباحث وهذه الدراسة السابقة التي تسعى لتلغي مصطلح ضمير الشأن والقصة، وما قرر لهما من أحكام، بتأويلات واهية.

أما الباحث فقد أثبت أن هذين الضميرين ليسا كبقية الضمائر، بل لهما أحكام خاصة خالفا بها غيرهما فكسبا بدلالتهما ميزة خاصة، لا يفي بها أي ضمير، حيث التفخيم والتفسير، والتوكيد أحيانا، والإذن لحرف التوكيد الناسخ بالدخول على الجملة الفعلية، فاكتسب التركيب مزية لفظية ومعنوية، نابعة مما يضيفه الانتظار من استقرار المعنى في ذهن المنتظر، وتوكيده، يؤيد ذلك تفسير من هم أطول باعا من العلماء السابقين، وذلك أولى بالإتباع.

ومن أوجه الاختلاف أن الدراسة السابقة بنيت على التفكيك؛ وهو مفسد لقيمة كلام البليغ، التي فرضها معناه المتكون في صدره، فانتظمت الألفاظ مستجيبة لذلك. أما هذا البحث فقد أثبت فيه الباحث ما يعاضده من أقوال العلماء الإجلاء بعد التنظير والتطبيق ثم البرهان، أما الدراسة السابقة ففيها الحكم التنظيري الدخيل القائم على ذكر أقوال السابقين لهدمها من غير بينة نابعة من التطبيق الحقّ.

الدراسة الثالثة:

الضمير المشكل في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة البقرة، للدكتور محمد داود محمد داود، والأستاذ سليمان يوسف محمد عبدالله، مجلة العلوم والبحوث الإسلامية، كلية اللغات، في جامعة السودان للعلوم والتكنلوجيا، العدد الثاني، فبراير ٢٠١١م.

وقد بدأت الدراسة السابقة بتعريف الضمير في اللغة والاصطلاح، مع بيان تصنيفات الضمائر، وأقسامها في الكلام، والغرض منها، وعلة بنائها، ومرجع ضمير الغائب أو المخاطب في القرآن، فبدأت بالتنظير الموجز لكنه أوسع من التطبيق، ثم بالتطبيق الذي ميدانه سورة البقرة، وهذه السورة لم يتوفر فيها كل ما جاء في تنظير هذه الدراسة، لذا اقتصر التطبيق في سورة البقرة على ما أشكل في مرجع ضمير الغائب، واختلافات العلماء في المرجع، وأحيانا تكتفي الدراسة بالعرض، وأحيانا ترجح أحد الأقوال، وتندر النكتة البلاغية، وأغلب نتائجها نحوية، وأبرز نتيجة هي أن الضمير المشكل قد يتغير به المعنى مما قد يؤدي إلى اختلافات التشريعات أو التكاليف، والدراسة اعتمدت على المنهج الوصفي في عرض آراء النحاة والمفسرين، والاستقراء الناقص لكونه محصورا في سورة البقرة.

أوجه التشابه:

من مواطن التشابه بين بحث الباحث وهذه الدراسة أن كلا الدراستين بدأتا بالإطار النظري، ثم التطبيقي، وقد تتوافق بعض الشواهد فيقوم الباحث بمحاولة الغوص

إلى ماوراء ذلك من معنى بليغ، ولا يكتفي بالتفسير السطحي، أو الترجيح، أو الاكتفاء بنقل الآراء.

أوجه الاختلاف:

أما الفرق بين الدراسة السابقة وبين بحث الباحث؛ هو أن بحث الباحث جاء على على تمهيد ومطالب وفصول ومباحث، وهو أوسع وأكثر نتائج لكون ميدانه القرآن الكريم كله، وتحليلاته بلاغية، وقد تفتح اللمسة البلاغية بابا إلى الفقه والتشريع، أما الدراسة السابقة فمقتضبة وتعرض الآراء المختلفة على هيأة قضايا. والتطبيق فيها اقتصر على تعيين مرجع ضمير المخاطب أو الغائب، مع إشارة عابرة إلى ضمير الشأن، وقد يعقب هذا المعنى الإجمالي على نهج المفسرين. أما منهج الباحث فإنه يبين الغرض البلاغي من ذلك، وتعيين مرجح الضمير أحد مواضيع بحثه، وتعدد المراجع الصالحة فيها كثافة دلالية، وقد يكون وراء التعيين بلاغة يسعى الباحث لكشفها، كما أن بحثه يهتم بأساليب التلوين بين الضمير والضمير، أو الضمير ومرجعه، فقد يخالف مرجعه في العدد والجنس والرتبة، أو العقل أو عدمه، فمثلا قد يكون الانتقال من ضمير المتكلم المعظم نفسه إلى ضمير المتكلم الواحد، فالصيغة واحدة والاختلاف في العدد، وبذلك يخرج ما يسمى الالتفات لكونه انتقالا من صيغة كلام إلى أخرى، وقد كثر البحث فيه؛ وهو مختلف عن هذا الأسلوب.

والباحث ينظر في أحوال المرجع فقد يكون غير قريب، أو لم يذكر، أو يفسره الفعل ونحو هذا، بخلاف الدراسة السابقة التي تستعرض أقوال المفسرين في مرجع الضمير واختلافاتهم، من غير ترجيح في الأغلب، أو بيان نكتة.

الدراسة الرابعة:

الضمائر المحتملة في القرآن الكريم، للدكتور ملفي بن ناعم الصاعدي، مجلة الجامعة الإسلامية العدد ١٢٧، ص١١٣-ص١٠٨، لعام ١٤٢٥هـ، السنة٣٧.

هذه الدراسة تطبيقية لم تسبق بتنظير، وقامت على ذكر الآية المختلَفِ في مرجع ضميرها، ثم تصنيف آراء العلماء، المأخوذة من كتب التفسير، وبعضهم لديه نزعة بلاغية قلّ أن تذكر، ولم تأخذ الدراسة بقول اللغويين إلا إذا أحال إلى ذلك مفسر، ثم

يختم الأقوال دائما بعد تقسيمها بما ترجح لديه، مع ذكر الأدلة والبراهين، وقد يكون من بين الأدلة الأخذ بالقول الذي ذهب إليه أغلب المفسرين، أو نظائر هذه الآية التي تقوي الترجيح، أو بالاعتماد على السياق اللغوي. ولكن يظهر أن هدف الدراسة تعيين المرجع الراجح فحسب، لخلو كثير من الترجيحات مما وراء ذلك من غرض بليغ، ولعل ذلك لكون الدراسة مهتمة بالتفسير، وهي قيمة في بابها.

أوجه التشابه:

إن بحث الباحث تناول من ضمن رحلته في القرآن آيات من سورة البقرة أسهمت في خدمة مباحث فصول بحثه، وبعضها قد ذكرته هذه الدراسة السابقة، لكن الباحث نفذ من خلال الاختلاف إلى المعنى البلاغي المختبئ تحت ذلك، فقد يكون في تعدد احتمالية مرجع الضمير كثافة دلالية لاسيما إذا كان الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

أوجه الاختلاف:

أن الآيات التي وقفت عليها الدراسة السابقة اقتصرت على سورة البقرة، فعالجت سبعين آية؛ وهذه الآيات أكثر مما تناوله الباحث، لأن الدكتور تناول الآيات التي اختُلف في مرجع ضميرها، لكن ليس كل موضع ذكره يندرج تحت مباحث بحث الباحث.

الأمر الآخر أن الدراسة السابقة اقتصرت على تعيين المرجع الراجح بعد الأدلة، وهذا شأن تفسيري، أما دراسة الباحث فقد تجاوزت ذلك إلى الوقوف على الأغراض البلاغية التي تخدم التفسير واللسان العربي، وتكشف عن مناسبة التركيب للمعنى الذي أراده المتكلم، من خلال التلوين بين الضمائر ذات الصيغة الواحدة، وهذا التلوين في العدد والجنس والرتبة ونحوه، فيقف على المواطن التي خالفت مقتضى الظاهر، ويشمل ذلك صور المرجع الذي قد يكون مذكورا أو مفهوما، أو مفسرا، أو غير قريب.

كما أن دراسة الدكتور ميدانها سورة البقرة وتطبيقية، أما بحث الباحث فميدانه القرآن الكريم كله، وجمع بين التنظير والتطبيق ثم النفاذ من ذلك إلى اللمسات البلاغية.

خطة الدراسة :

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة يتلوها الفهارس.

التمهيد النظري:

المطلب الأول : الضمير تعريفه وأنواعه وأحواله وأغراضه .

المطلب الثاني : مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات النحوية واللغوية .

المطلب الثالث : مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات البلاغية .

الفصل الأول : مخالفة الضمير مرجعه في النوع أو العدد في القرآن الكريم وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : عود ضمير المفرد على المثنى .

المبحث الثاني : عود ضمير المفرد على الجمع .

المبحث الثالث : عود ضمير المثنى على المفرد .

المبحث الرابع : عود ضمير المثنى على الجمع .

المبحث الخامس : عود ضمير الجمع على المفرد .

المبحث السادس : عود ضمير الجمع على المثنى .

الفصل الثاني:مخالفة الضمير مرجعه في نوع الجنس في القرآن الكريم وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : عود ضمير المذكر العاقل على غير العاقل

المبحث الثاني : عود ضمير المؤنث العاقل على غير العاقل

المبحث الثالث : عود ضمير المذكر على المؤنث .

المبحث الرابع : عود ضمير المؤنث على المذكر .

الفصل الثالث : المخالفة في الرتبة في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: عود ضمير الشأن على متأخر .

المبحث الثاني : عود ضمير القصة على متأخر .

المبحث الثالث : عود الضمير على غير الأقرب .

الفصل الرابع : مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمير على ما لم يصرح بلفظه في القرآن الكريم، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عود الضمير على المصدر الذي فسره فعله .

المبحث الثاني : عود الضمير على مفهوم من المعنى .

الخاتمة : تتضمن ما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات .

منهج البحث :

اعتمد البحث – بعد عون الله وتوفيقه – على المنهج الوصفي التحليلي البلاغي مع مراعاة ما يلي :

١- جمع شواهد الدراسة من القرآن الكريم، وتصنيفها حسب المباحث، وذكر اسم السورة ورقم الآية بين معقوفتين بعد الآية. وفي الحاشية إذا وردت الآية في كلام غيري ولم يذكر اسمها، أو أشرت إليها من غير ذكر لها، أو كان تمامها في الحاشية.

٢- الإفادة من كلام أهل العلم خصوصاً ما جاء في كتب النحو واللغة والبلاغة وما جاء عند المفسرين ذوي النزعة البلاغية .

٣- كتابة الآيات بالرسم العثماني.

٤- تخريج الأحاديث النبوية إن تيسر.

٥- ضبط الأبيات وعزوها لقائلها ما أمكن ذلك.

٦- التعريف بالأعلام المغمورين .

٧- وضع الفهارس الفنية اللازمة .

التمهيد النظري:

المطلب الأول: الضمير تعريفه وأنواعه وأحواله وأغراضه .

المطلب الثاني: مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات النحوية واللغوية.

المطلب الثالث: مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات البلاغية .

التمهيد النظري:

المطلب الأول : الضمير تعريفه وأنواعه وأحواله وأغراضه .

أولا: تعريف الضمير:

مادة ضمر جذر لغوي يشتق منه كلمات ذات دلالات لغوية كثيرة، وقد أوردت المعاجم العربية معاني لغوية لما يتفرع من هذه المادة، فسيقف الباحث على بعضها تمهيدا للتعريف الاصطلاحي الذي سيبنى على دلالته هذا البحث.

فضَمَرَ الفَرَس ضُمُورًا من باب قَعَدَ، وضَمُرَ ضُمْرًا مثل قَرْبَ قَرُبْاً [1] دقّ وقلّ لحمه، وضَمَّرْتُهُ وأَضْمَرْتُهُ أعددته للسباق، وهو أن تعلفه قوتا بعد السمن، فهو ضَامِرٌ، وخيل ضَامِرَةٌ، وضَوَامِرُ والمِضْمَار الموضع الذي تضمّر فيه الخيل.

وضمير الإنسان قلبه وباطنه، والجمع ضمائر، على التشبيه بسريرة وسرائر؛ لأن باب فعيل إذا كان اسما لمذكر يجمع كجمع رَغِيف وأُرْغِفَة ورُغْفَان، وأَضْمَرَ في ضميره شيئا؛ عزم عليه بقلبه [2]. "والضمر بسكون الميم وضمها الهزال وخفة اللحم ..." [3].

والضمير : السِّر وداخل الخاطر والجمع الضمائر ، وأَضْمَرْتُ الشيء : أَخفيته والضِّمَارُ من الدَّين : ما كان بلا أجل معلوم...قال أبو عبيد[4] : المال الضِّمارُ هو

---

(١) هكذا، وأعتقد أن الصواب: قَرُبَ قُرْبَا على وزن قوله: ضَمُر ضُمْرا

(٢) المصباح المنير، للفيومي، كتاب: الضاد، مادة: ضمر (ص :١٨٨)

(٣) مختار الصحاح، للرازي، باب: الضاد، مادة: ضمر (ص: ١٨٥).

(٤) أبو عبيد: هو القاسم بن سلاّم إمام أهل عصره في كل فن من العلم، أخذ عن أبي زيد، وأبي عبيد والأصمعي، من تصانيفه: الغريب المصنف، غريب القرآن، الأمثال السائرة، مات بمكة ٢٢٣هـ. ينظر: بغية الوعاة للسيوطي ٢/٢٥٣-٢٥٤. والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص:٢٣٣).

الغائب الذي لا يُرْجى "[١]. "و الضِّمارُ : (مكان) أو واد منخفض يضْمِرُ السائرَ فيه"[٢].

وقال ابن فارس:" الضاد والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على دقة في الشيء، والآخر يدل على غيبة وتستر"[٣].

أما في الاصطلاح عرفه ابن الحاجب بقوله: "المضمر: ما وضع لمتكلّم، أو مخاطب، أو غائب تقدّم ذكره لفظا أو معنى أو حكما"[٤].

فالمضمر والضمير، اسمان لما وضع لمتكلم كأنا، أو لمخاطب كأنت، أو لغائب كهو، أو لمخاطب تارة ولغائب أخرى، وهو الألف والواو والنون، كقوما وقاما، وقوموا وقاموا، وقمن. يسميه البصريون الضمير، والكوفيون يقولون الكناية والمكنى[٥].

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور، فصل الضاد المعجمة، مادة: ضمر (٤/٤٩٣).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (١٢/٤٠٤)

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، باب الضاد والميم وما يثلثهما، مادة ضمر (٣/٣٧١)

(٤) الكافية في علم النحو لابن الحاجب (ص:٣٢).

(٥) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي (١/٢٢٣).

ثانيا: أحوال الضمير:

الضمير قسمان: بارز ومستتر:

أما البارز، فهو ما له صورة في اللفظ كتاء (قمت)، وأما المستتر، فهو بخلاف البارز كالمقدر في (قم). وينقسم البارز إلى متصل ومنفصل، وينقسم المستتر إلى مستتر وجوبا، ومستتر جوازا(١).

أما الضمائر المنفصلة فمنها ضمائر رفع وهي:

اثنتا عشرة لفظة: "أنا، نحن، أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن، هو، هي، هما، هم، هنّ .
أما ضمائر النصب فهي أيضا اثنتا عشرة، وهي: "إيَّاي، إيَّانا، إيّاكَ، إيّاكِ، إيَّاكما، إيَّاكم، إيّاكنّ، إيّاه، إياها، إيّاهما، إيّاهم، إيّاهنّ"(٢).

واتفق أهل اللغة على أن كل ضمير يحتاج إلى مرجع يبينه، فالضمير لا بد أن يعود إلى مرجع معلوم؛ لأنه معرفة لدلالته على مرجعه دلالة لا لبس فيها ولا تعمية.

قال سيبويه:" وإنما صار الإضمار معرفة؛ لأنك إنما تضمِر اسما بعد ما تعلم أن مَنْ يُحدَّث قد عرف مَن تعني، وما تعني، وأنك تريد شيئا يعلمه"(٣).

فإن كان الضمير لمتكلم أو مخاطب فإن المرجع معلوم بقرينة المشاهدة، لكن ضمير الغائب لما انتفت عنه المشاهدة احتاج إلى مرجع يبينه.

قال ابن مالك: الأصل تقديم مُفَسِّر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل"(٤).

---

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لجمال الدين عبد الله الأنصاري (١/١٠٥-١١٠).

(٢) النحو المصفى، محمد عيد (ص :١٤١).

(٣) الكتاب لسيبويه، (٢/٦)

(٤) شرح التسهيل لابن مالك (١/١٥٦)

ويتبين من قول ابن مالك أن الضمير في الأصل للأقرب؛ ولكنه قد يعود إلى خلاف الأصل والظاهر؛ إذا وجدت قرينة تصرفه عن غير الأقرب. ويشرح ابن مالك قوله الآنف، فيقول في الشرح:" إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعدا جُعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج"(١).

ويذكر صاحب الخزانة:" أن عود الضمير إلى المُبين أولى من عوده إلى البَيَان"(٢).

ومن هنا ينبغي ألا يقال: يجب تقديم المفسِّر؛ لأن الوجوب يمنع المخالفة، ولكن يقال: الأصل، وهو يعادل الظاهر، وقد يستدعي المقام خلافه؛ لبلاغة أرادها المتحدث البليغ.

ولقد أوجب أهل اللغة مطابقة الضمير مرجعه في العدد، وفي التذكير والتأنيث، وفي النوع، لكن الأسلوب العربي قد يعدل عن المطابقة لغرض منشود.

أما ضمير الحاضر سواء أكان متكلما أم مخاطبا فتفسره المشاهدة، لكن قد ينزّل الغائب منزلة الحاضر لدواعي بلاغية يفصح عنها مثل باب الالتفات، وقد يقع الخطاب من غير قرينة لفظية تدل على المخاطَب ولكن هناك قرينة معنوية ذهنية تزيل اللبس وتكشف البلاغة من هذا الأسلوب مثل ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر:١] وقد يخاطب غير معين على سبيل الإطلاق. مثل قول زهير(٣):

إِذا أَنتَ لَم تُقصِر عَنِ الجَهلِ وَالخَنا ... أَصَبتَ حَليماً أَو أَصابَكَ جاهِلُ

(١) شرح التسهيل لابن مالك (١٥٧/١)

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي، (٢٦/٩).

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص:١٠٠) .

ثالثا: أغراض الضمير:

الضمير يأتي لأغراض كثيرة يكشفها السياق، والقرائن التي تحفه، على أن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، ومنها:

١- الإحالة والربط، وتوجيه المعنى وإفهام المتلقي برجوعه إلى مرجعه.

٢- من أغراضه الإيجاز بصورتين:

أ- وأول إيجاز في قلة حروفه، كما أشار إلى ذلك ابن يعيش فقال:"لما كانت المضمرات إنّما جيء بها للإيجاز والاختصار، قلّت حروفها"[(١)].

ب- وثاني إيجازه فيما أحال إليه؛ فقد أصبح عوده إلى مرجعه بديلا عن تكرار اللفظ مرة أو أكثر من مرة؛ لأن التكرار يحدث لدى المتلقي مللا، فيُفقد المتلقي المقصود من الكلام، فمجيء الضمير يسد مسد المرجع وأبلغ من ذكره، إلا في أحوال تعرف ببلاغة إظهار المضمر[(٢)]، ويقول ابن مالك في كون الضمير للإيجاز: "...سبب وضع الضمائر طلبَ الاختصار"[(٣)]. ومن الأمثلة على مجيئة للاختصار ما ذكره الزركشي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥] فقد جاء الضمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ مقام خمس وعشرين كلمة[(٤)].

---

(١) شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش (٢/٣٢٧).

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، (٢/٨١-٨٥)، وخصائص التراكيب لأبي موسى (ص:٢٤١-٢٤٨).

(٣) شرح التسهيل لابن مالك (١/١٣١).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/٢٤).

٣- ومن أغراضه الإيناس مثل ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢]، فيزداد المخاطب ثقة بالمتكلم ليتغلب على ما أحاط به من أسباب الخوف.

٤- الافتخار مثل نحن في مقام الافتخار.

٥- والاحتراس وستأتي أمثلته في ثنايا البحث، كعود ياء المتكلم على الله بعد ضمير المعظم نفسه.

٦- التفسير، وكثيرا ما يأتي في مخالفة الضمير مرجعه في الظاهر، وقد يجتمع مع الاحتراس.

٧- التوكيد والحصر، كما في ضمير الفصل.

٨- لفت الانتباه بالتلوين بين الضمائر وأغراض أخرى تفهم من السياق.

٩- وقد يقدم الضمير فيكون مبهما؛ ليتمكن مفسرة في ذهن السامع، بعد انتظاره.

١٠- الكشف عن مرجعه الذي يفسره الفعل، أو الذي لم يذكر لأغراض بلاغية. لأن المرجع قد يحذف ثقة بأن السامع سيعرفه، أو لعدم الحاجة لمعرفته، أوسترا على المتحدث عنه، أو احتقارا لمن الكلام في شأنه، وقد وردت أمثلة ذلك في البحث.

١١- وقد يكون حضور المتحدَّث عنه في ذهن المتحدِّث والمتلقي مغنيا عن التصريح بالمرجع، لأنه موجود في الوجدان وإن خلا منه السياق، كضمير المحبوبة الذي يذكره الشعراء من غير تصريح بمرجعه، ادعاء منهم أنه لا يشاركها في هذا الضمير أحد، ولا ينصرف الذهن إلى غيرها.

وهذه الأغراض ليست على سبيل الحصر بل تتنوع الأغراض بتنوع النظم وما استدعاه، وبتنوع القرائن التي توجه النص حسبما تكون في خاطر المتحدث، ليبين كل كلام عن غرضه فيحكم بفصاحته وبلاغته.

المطلب الثاني:مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات النحوية واللغوية .

الضمير له أهميته في الكلام لما فيه من الإحالة، والربط، وقد تحدث النحاة عن أنواعه، وعن مرجعه حديثا نحويا مع بعض التعليلات، فقعدوا لذلك بقواعد أنجبها الكلام العربي.

فقال سيبويه مبينا مرجع الضمير: " وإنما صار الإضمار معرفة؛ لأنك إنما تضمِر اسما بعد ما تعلم أن مَنْ يُحدَّث قد عرف مَن تعني، وما تعني، وأنك تريد شيئا يعلمه"[١].

وذكر ابن مالك أن الضمير الغائب بحاجة إلى مرجع يبينه، بخلاف ضمير المتكلم والمخاطب؛ لدلالة قرينة المشاهدة على مرجعهما، فقال ابن مالك في التسهيل: "الأصل تقديم مُفَسِّر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل"[٢].

ويصف تمام حسان مرجع الضمير وافتقار الضمير له فيقول: "والأغلب في هذا المرجع أن يكون اسمًا ظاهرًا محدد المدلول، ومن هنا يكون تحديد دلالة هذا الظاهر قرينة لفظية، تعيّن الإبهام الذي كان الضمير يشتمل عليه بالوضع؛ لأن معنى الضمير وظيفي، وهو الحاضر أو الغائب على إطلاقهما، فلا يدل دلالة معجمية إلّا بضميمة المرجع، وبواسطة هذا المرجع يمكن أن يدل الضمير على معين"[٣].

لكن هذا الأصل قد تأتي قرينة تخالفه، فإن لم تأت قرينه وتعددت المذكورات التي يصلح عود الضمير إليها فإن ابن مالك يذكر لذلك قاعدة فيقول في الشرح :" إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعدا جُعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج"[٤].

---

(١) الكتاب (٦/٢)

(٢) شرح التسهيل لابن مالك (١٥٦/١)

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها، لتمام حسان عمر (١١١/١).

(٤)شرح التسهيل لابن مالك (١٥٧/١)

فالمفسِّر الذي صرح بلفظه قد يدخله اللبس إذا كان معه أكثر من مفسِّر، ولم تكن هناك قرينة تعين على تعيين مرجع الضمير؛ لأن جميع المفسرات صالحة لعود الضمير إليها، ولكن يزول اللبس مع وجود قرينة أو بالقول بعود الضمير على الأقرب.

وبذلك فكل ضمير يحتاج إلى مفسر، لكن هذا المفسر قد يصرح بلفظه، وقد لا يصرح بلفظه، غير أنه يفهم بقرينة علمية أو ذهنية، أو بقرينة لفظية إذا كان مفسر الضمير مصدرا مفهوما من فعل مذكور، والأشهر في المفسِّر أن يسبق الضمير؛ ولكنه قد يتأخر عنه لغرض بلاغي يفهم من السياق.

وعلى ذلك فالحكم على الضمير نابع من مفسِّره، فقد يدخله الإبهام في حالتين:

الأولى: أن يسبق الضمير أكثر من مفسر مطابق، وليس في السياق قرينة تقوي أحد المفسرات، فيكون اللبس في مرجع الضمير لعدم وجود قرينة؛ ولأنه جاء بعد أكثر من مفسر، غير أن ذلك فطن له ابن مالك في قوله السابق الذي يقول فيه: "إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعدا جُعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج"(١). وعلى هذه القاعدة سار اللغويون والمفسرون.

الثانية: أن يكون مرجعه واحدا؛ لكنه لم يطابقه بالجنس أو بالعدد أو بالعقل أو عدمه، كالضمير الذي يعود على الجماد والعجماوات، ولقد نص النحاة على المطابقة، فيذكر عباس حسن: " أن التطابق واجب بين ضمير الغائب ومرجعه"(٢).

وإذا كان التطابق هو الأصل؛ فإن في القرآن الكريم وكلام العرب شواهد خالفت الأصل فلم يطابق الضمير فيها مرجعه، وذلك لعلة بيانية وسر بليغ، أراده صاحب الكلام البليغ.

---

(١)شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٥٧/١)

(٢) النحو الوافي، لعباس حسن (٢٦٢/١-٢٦٣)

ولقد ذكر سيبويه من كلام العرب بيتا لم يطابق الضمير فيه مرجعه، ثم كشف عن سر مخالفته ، فقال: "ومثل ذلك قول الشاعر، وهو لبعض السعديين[1]:

هَل تَعْرِفُ الدارَ يُعَفِّيها المورْ والدَّجْنُ يَوْمًا والعَجَاجُ المهْمُورْ
لِكُلِّ رِيح فِيهِ ذَيْلٌ مَسْفُور

فقال: فيه؛ لأن الدار مكان، فحمله على ذلك" [2].

ففي البيت جاء الضمير ب (فيه) معطوفا على الدار؛ مستحضرا لفظة مكان، فحمل تذكير الضمير على ذلك.

وأضاف السيرافي شرحا قال فيه:" الشاهد في الشعر على أنه قال: لكل ريح فيه. والضمير يعود إلى الدار، ولم يقل (فيها)، وحمل الكلام على المعنى؛ لأن الدار والربع والمنزل عبارات مختلفة، والمعنى فيها واحد"[3].

وقد بين النحاة أن الضمير يعود على الأقرب دائما إلا إذا كان في السياق قرينة صارفة له عن الأقرب:

يقول عباس حسن: "وإنما يعود الضمير على الأقرب فى غير صورتين:

إحداهما: أن يوجد دليل يدل على أن المرجع ليس هو الأقرب؛ مثل: حضرت سعاد وضيفة فأكرمتها.

والثانية: أن يكون الأقرب مضافا إليه؛ فيعود الضمير على المضاف... إلا إن وجد دليل يدل على أن المقصود بالضمير هو المضاف إليه لا المضاف"[4].

وقد يسلم الضمير من الإبهام بأحد أمرين:

---

(١) اكتفى سيبويه بعزوه إلى أحد السعديين، ولم أجد له عزوا في كتب الأدب، وتعزوه المعاجم إلى سيبويه في كتابه، وعزاه أبو محمد السيرافي إلى حميد الأرقط، ينظر: شرح أبيات سيبويه، لأبي محمد السيرافي (٣٩/٢).

(٢) الكتاب (ص: ١٧٨/٢)

(٣) شرح أبيات سيبويه، لأبي محمد السيرافي (٣٩/٢).

(٤)النحو الوافي، لعباس حسن (٢٦١/١-٢٦٢)

١- أن يكون مفسره ومرجعه واحدا مطابقا.

٢- أن يسبقه أكثر من مفسر ولكن في السياق قرينة تقوي واحدا من المفسرات.

ومن الضمائر ما لا يحتاج إلى قرينة لفظية؛ لأن قرينة المشاهدة كافية، وذلك في ضمير المتكلم والمخاطب، أما ضمير الغائب فمفتقر إلى مرجع وقرينة تبينه، وقد قال السيوطي في هذا الشأن: "ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة[(١)]، وأما ضمير الغائب فعار عن المشاهدة فاحتيج إلى ما يفسره، وأصل المفسر الذي يعود عليه أن يكون مقدما؛ ليعلم المعنى بالضمير عند ذكره بعد مفسره، والأولى أن يكون الأقرب، نحو لقيت زيدا، وعمرا يضحك، فضمير يضحك عائد إلى عمرو، ولا يعود إلى زيد إلا بدليل، كما – فيما سيأتي تفصيله بإذن الله في موضعه مما يستقبل من فصول البحث – في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت:٢٧] فضمير ذريته عائد إلى إبراهيم، وهو غير الأقرب لأنه المحدث عنه من أول القصة"[(٢)].

ولتعيين مرجع الضمير فقد وضع أهل اللغة أصولا وقواعد تحيط بأحواله، من ذلك ما قاله ابن مالك: " الأصل تقديم مفَسِّر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل، وهو إما مُصَرَّح بلفظه، أو مُسْتَغنى عنه بحضور مدلوله حِسًا أو علما، أو بذكر ما هو له جزء أو كلّ أو نظير، أو مُصاحِبٌ بوجه ما"[(٣)].

وهناك نوع آخر يتأخر مرجعه عنه لبلاغة، وهذا خلاف الأشهر ولم يذكر ابن مالك هذا النوع ضمن ما ذكر.

---

(١) وقد ذكر السكاكي أن ضمير الكاف قد يأتي لغير المعين، ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ١٨٠).

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢٦٣/١) وينظر:تحليل (ذريته) من سورة الأنعام ص٥٧٥.

(٣) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٥٦/١)

وقد نبه ابن مالك في شرحه إلى أمور[1]، منها أن مرجع الضمير قد يكون مصرحا بلفظه، أو مفهوما غير مذكور، وقد يعود الضمير على مصدر مستخرج من فعل حواه التركيب فقال: "وهو إما مصرح بلفظه" على المفسَّر، أي المفسِّر إما مصرح بلفظ كزيد لقيته، وإما مستغنى عن لفظه بحضور معناه في الحس كقوله تعالى ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي ﴾ [يوسف:٢٦] و﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ ﴾ [القصص:٢٦] أو بحضور معناه في العِلْم كقوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر:١] أو بذكر ما صاحب الضمير كقول الشاعر[2]:

أَمَاوِيُّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الفَتى ... إذا حَشْرَجَت يوْمًا وَضاقَ بِها الصَدرُ

وهذا أشهر روايات البيت، وهو منسوب إلى حاتم الطائي وذكّر (نفس) بدلا من (يوما) وأثبت المحقق في الحاشية أن (يوما) هي الأشهر[3]، وذكر ابن مالك أن ذكر الفتى مُغْنٍ عن ذكر النفس لأنها جزؤه، فعاد إليها فاعل حشرجت والضمير المجرور بالباء، ومن هذا قولهم: من كَذَب كان شرًّا له، فأُضْمِر في كان ضمير الكذب لأنه جزء مدلول كَذَب، ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة:٨] فهو عائد إلى العدل، لأنه جزء مدلول اعدلوا...، والباحث يرى أن الضمير عائد إلى المصدر الذي دل الفعل عليه. ويستغنى أيضا عن ذكر صاحب الضمير بكونه كُلاًّ وكون المذكور جزءا، فإن الجزء يدل على الكل، كما يدل الكل على الجزء، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤] فإن الذهب والفضة بعض المكنوزات،

(١) المصدر نفسه (١/١٥٧-١٥٩)، وينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٢٦٣-٢٦٥).

(٢) من شواهد شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٥٧)، وينظر: ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره (ص:١٩٩).

(٣) ينظر: ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي (ص:١٩٩).

فأغنى ذكرهما عن ذكر الجميع حتى كأنه قيل: والذين يكنزون أصناف ما يُكْنز ولا ينفقونها، ومما ذكره ابن مالك أيضا قول الشاعر[(١)]:

ولَوْ حَلَفتْ بينَ الصَّفا أمُّ مَعْمَرٍ ... ومروتِها باللهِ بَرَّتْ يمينُها

فأعاد ابن مالك الضمير إلى مكة لأن الصفا جزء منها، وذكر الجزء مُغْنٍ عن ذكر الكل في بعض الكلام. والذي يراه الباحث أن الضمير في مروتها عائد إلى الصفا للملابسة والتلازم، وذلك كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات:٤٦] فالضمير جاء لما بين العشية والضحى من تلازم، فجاء الضمير للملابسة، لا كما ذكر العلامة ابن مالك رحمه الله، والله أعلم.

ثم يذكر ابن مالك أنه قد يستغنى عن ذكر صاحب الضمير بذكر ما لصاحبه بوجه ما كالاستغناء بمستلزِم عن مستلزَم، فمن ذلك قوله تعالى ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة:١٧٨] فعُفي يستلزم عافِيًا فأغنى ذلك عن ذكره، وأعيد الهاء من إليه عليه. ومثال هذا أيضًا قول الشاعر[(٢)]:

فإنَّك والتأبينَ عُرْوَةَ بعد ما ... دعاكَ وأيدينا إليه شوارعُ
لكالرَّجُل الحادي وقد تَلَع الضُّحى ... وطيرُ المنايا فوقهن أوَاقع

---

(١) هو من شواهد شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٥٨)، والتذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان الأندلسي (٢/٢٥٥)، و عزي إلى أبي أحمد بن جحش بن رئاب وهو يذكر هجرة بني أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيعابهم في ذلك حين دعوا إلى الهجرة، وروى بدلا من أم معمر أم أحمد، ورد هذا العزو في السيرة النبوية، لابن هشام (١/٤٧٢). والروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي(٤/١٠٦).

(٢) لم أعثر على قائله، وهو من شواهد شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٥٨)، ولسان العرب، فصل الواو، مادة: وقع، (٨/٤٠٤).

فالحادي يستلزم إبلا مَحْدُوّة، فأغنى ذلك عن ذكرهن، وأعاد ضمير فوقهن عليهن، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص:٣٢]، ففاعل توارت ضمير الشمس ولم تذكر، لكن أغنى عن ذكرها ذكر العشي وأوله وقت الزوال، فذكره يستلزم معنى الشمس فكأنها مذكورة، ويجوز أن يكون فاعل توارت ضمير الصافنات(١).

ثم أردف ابن مالك أنه قد يستغنى عن ذكر صاحب الضمير بذكر ما يصاحبه ذكْرًا أو استحضارا، كذكر الخير وحده متلوا بضمير اثنين مقصودا بهما المذكور وضده، كقول الشاعر(٢):

وَما أَدري إِذا يَمَّمتُ وَجهاً　　　أُريدُ الخَيرَ أَيُّهُما يَليني

وذكر أنه قد يعاد الضمير على المسكوت عنه لاستحضاره بالمذكور وعدم صلاحيته له كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ [يس:٨]، فهي عائد على الأيدي لأنها تصاحب الأعناق في الأغلال، فأغنى ذكر الأعناق عن ذكرها، ومثله قوله تعالى ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ [فاطر:١١] أي من عمر غير المعمَّر، فأعيد الضمير على غير المعمر، لأن ذكر المعمَّر مُذَكِّر به لتقابلهما، فكان مصاحبه في الاستحضار الذهني (٣).

أما الجامي فقد أفاد من قول ابن الحاجب في تعريف الضمير: "... أو غائب تقدّم ذكره لفظا أو معنى أو حكما"(٤)، فقسم التقدم ثلاثة أقسام على النحو الآتي(٥):

(١) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٥٨).

(٢) هو من شواهد شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٥٨)، وقائله المثقِّب العبدي، ينظر: ديوان شعر المثقِّب العبدي (ص: ٢١٢-٢١٣).

(٣) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٥٧-١٥٩) ، وينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، (١/٢٦٣-٢٦٥) .

(٤) الكافية في علم النحو (ص:٣٢).

(٥) ينظر: الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب للجامي(٢/٧٧).

١- التقدم اللفظي: وهو ما يكون المتقدم ملفوظا، إما متقدما تحقيقا مثل (ضرب زيدٌ غلامه) أو تقديرا ، مثل (ضرب غلامَه زيدٌ) .

٢- التقدم المعنوي: أن يكون المتقدم مذكورا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ، وذلك المعنى إما مفهوم بعينه كقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، فإن مرجع الضمير هو العدل من قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾فكأنه متقدم من حيث المعنى، أو من سياق الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ [النساء:١١]؛ لأنه لما تقدم ذكر الميراث دلّ على أن ثمه مورثا فكأنه تقدم ذكره معنى .

٣- التقدم الحكمي: جاء في ضمير الشأن والقصة لأنه إنما جيء به من غير أن يتقدم ذكره؛ قصدا لتعظيم القصة بذكرها مبهمة؛ ليعظم وقعها في النفس، ثم تفسيرها، فيكون ذلك أبلغ من ذكره أولا مفسرا، وصار كأنه في حكم العائد إلى الحديث المتقدم المعهود بينك وبين مخاطبك، وكذا الحال في ضمير (نعم رجلا زيد) و (ربه رجلا).

وقد فطن اللغويون إلى صفة ضمير الشأن، وأبانوا الغرض العام من مجيئه، وأنه لا يؤتى به إلا لغرض عظيم.

يقول ابن يعيش: "اعلم أنهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية، فقد يقدمون قبلها ضميرا يكون كناية عن تلك الجملة، وتكون الجملة خبرا عن ذلك الضمير وتفسيرا له، ويوحدون الضمير؛ لأنهم يريدون الأمر والحديث؛ لأن كل جملةٍ شأنٌ وحديث، ولا يفعلون ذلك إلا في مواضع التفخيم والتعظيم "(١).

ويقول الرضي: " وهذا الضمير كأنه راجع في الحقيقة إلى المسؤول عنه بسؤال مقدر، تقول مثلا: (هو الأمير مقبل)، كأنه سمع ضوضاء وجلبة؛ فاستبهم الأمر فسأل ما الشأن؟ فقيل له: (هو الأمير مقبل)، أي الشأن هذا ... ،والقصد بهذا الإبهام ثم

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٢/٣٣٥).

التفسير : تعظيم الأمر وتفخيم الشأن، فعلى هذا لا بد أن يكون مضمون الجملة المفسرة شيئا عظيما يعتنى به، فلا يقال مثلا: (هو الذباب يطير)"(١).

وبهذا يظهر أن مخالفة الأصل قد تكون أبلغ من الأصل، وأنها تأتي لغرض بليغ أراده المتكلم البليغ، كما أن مخالفة الأشهر قد تكون في تذكير فعل المؤنث الحقيقي الذي لم يفصل بينه وبين فعله بفاصل، وكذلك تأنيث فعل المذكر الحقيقي، وهذا وإن لم يكن من صلب موضوع البحث إلا أن فيه تمهيدا يصل إلى البحث بسبب، ومن هذا الباب يجد الباحث أن سيبويه قد جوز تذكير الفعل الذي فاعله مؤنث في بعض أوصافه، ومثّل لذلك بالفعل (نعم) واستشهد على صحة تمثيله بالفعل (ذهب) فذكَر - وهو يمثل لذلك بأمر هو لصيق بالبحث - أن نعم تذكّر وتؤنث، فيجوز أن نقول: نعْمت المرأة، كما يجوز قول: نعْم المرأة؛ مستشهدا بقولهم: ذهب المرأة، غير أنه ينص على أن حذف التاء أكثر(٢).

ثم يقول: وأما قولهم: هذه الدار نعمت البلد، فإنه لما كان البلد الدار أقحموا التاء، فصار كقولك: مَن كانت أمَّك، وما جاءت حاجتَك. ومن قال: نعم المرأة؛ قال: نعم البلد، وكذلك هذا البلد نعم الدار، لما كانت البلد ذُكِّرت. فلزم هذا في كلامهم لكثرته، ولأنه صار كالمثل، كما لزمت التاء في ما جاءت حاجتَ"(٣).

فدل ذلك على أن الفعل قد يؤنث وفاعله مذكر؛ لاستحضار الترادف اللغوي، ومن ذلك لفظة (بلد) و(دار) فالأولى مذكرة، والأخرى مؤنثة، فجاز التأنيث استحضارا للمرادف المؤنث، وإن كان الفاعل المذكور مذكرا.

"قال أبو علي(٤): ما جاءت حاجَتَك في موضع رفع بالابتداء، وهو استفهام، وجاءت بمعنى صارت في هذه الكلمة دون غيرها، وفيه ضمير ما، (وحاجَتَك) منتصبة

---

(١) شرح الرضي على الكافية (٢/٤٦٤-٤٦٥).

(٢) ينظر: الكتاب (ص: ٢/١٧٨)

(٣) ينظر: المصدر نفسه(ص: ٢/١٧٨)

(٤) هو أبو علي الفارسي صاحب التعليقة.

لأنها خبر صار وأنَّثَ (جاءتْ) وإن كان فاعله (ما) لأنه في معنى الحاجة، فحمل على المعنى فأنَّث، وإن كان اللفظ مذكرًا؛كما حمل على المعنى فجمع في قول الله تعالى ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ﴾، وكما قُرِئَ ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾"[1].

فتأنيث الفعل الذي فاعله مذكر، أو تذكير الفعل الذي فاعله مؤنث راجع إلى الحمل على المعنى، وقد يوافق الفعل الفاعل تذكيرا وتأنيثا وهذا الأصل والأغلب.

وذكر السيوطي أن الضمير المؤنث قد يعود في الظاهر إلى مذكر، والأصل أنه عائد إلى مضاف محذوف جاء التأنيث بسببه، فقال:" وقد يؤنث اسم الأب على حذف مضاف مؤنث فلا يمنع الصرف كقوله[2]:

سَادُوا البِلادَ وأصْبَحُوا فى آدَمٍ ... بَلَغُوا بِهَا بِيضَ الوُجُوهِ فُحُولا

أي: في قبائل آدم، أو أولاد آدم، فحذف المضاف ثم أنث آدم، فأعاد الضمير إليه مؤنثا في قوله: بلغوا بها، ولم يمنعه الصرف؛ لأنه راعى المضاف المحذوف"[3].

وذكر سيبويه أن المضاف يحذف تخفيفا، فيقع على المضاف إليه ما يقع على المضاف، لأنه صار في مكانه فجرى مجراه، وأن بعض الأسماء قد تجعل أحياء كثقيف أي: جماعة ثقيف، أو حي أو قبيلة، وجعل البيت هذا شاهدا ضمن شواهد عدة

---

(١) التعليقة على كتاب سيبويه للفارسيّ (٨٢/١). ويقصد الآية: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل:٧٣] والآية: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣١].

(٢) البيت من شواهد: الكتاب لسيبويه (٣٥٢/٣)، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١٢٥/١)، وعزي إلى ذي الخرق الطهوي، ينظر: الإبانة في اللغة العربية، لأبي المنذر (١٧٦/١).

(٣) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١٢٥/١)، والبيت من شواهده.

ذكرها، وفهم الباحث من مضمون كلامه أنه أنث الضمير العائد إلى آدم؛ لكونه جعله كالحي والقبيلة، ولذلك صرف[1].

وقد يعود الضمير على الجمع كضمير الغائب؛ لتأولهم بواحد يُفْهِم الجمعَ وهذا قليل وشاهده عند ابن مالك قول الشاعر[2]:

وإنّي رأيتُ الصّامِرين متاعَهم يموتُ ويَفْنَى فارْضَخِي من وِعائِيا

أراد يموتون، فأفرد، كأنه قال: يموت مَنْ ثَمَّ، أو مَنْ ذكرت"[3].

ومن الضمائر التي تعود على خلاف الأشهر نون النسوة، التي يسميها بعض النحاة بنون الإناث، مجوزين بهذه الإضافة مجيئها للعاقل وغير العاقل، ولكن لما كان الأغلب استعمالها للعقلاء دون غيرهم كان ذلك محل نظر الباحث، وهذا يستدعي الوقوف على أقوال العلماء في ذلك .

ومن ذلك أن بعض النحاة يسمونها "نون الإناث"[4] غير أن صاحب الهمع يمثل لها بجموع لعاقلات فيقول:"وهي لجمع الإناث مخاطبات أو غائبات نحو اذهبن يا هندات والهندات ذهبن وهي مفتوحة أبدا"[5].

---

(١) ينظر: الكتاب (٣/٢٤٧-٣٥٢).

(٢) من شواهد كتاب الألفاظ، لابن السكيت (ص:٤٩). وعزاه ابن منظور إلى منظور الدُّبيري وهو يخاطب زوجته، ينظر: لسان العرب، فصل الحاء المهملة، مادة (حظل)، (١١/١٥٥). وقوله: الصامرون، من صَمَر يَصْمُر صَمْراً وصُمُوراً أي: بَخِلَ، ينظر: لسان العرب، فصل الصاد المهملة، مادة(صمر) (٤/٤٦٧).

(٣) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٢٧) ، وينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٢٣٣)

(٤) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٢٢٣).

(٥) المصدر نفسه

وهذا التمثيل يدل على أنها للعاقل ولذلك سميت بنون النسوة، ويدل على أن قولهم: جمع الإناث، كقولهم: "الواو لجمع الذكور مخاطبين أو غائبين كاضربوا، وضربوا، ويضربون، وتضربون"(١). فجعلها لجمع الذكور، ومثل لأفعال يخاطب بها العقلاء.

ويقول السيوطي: "والأحسن في جمع المؤنث غير العاقل إن كان للكثرة أن يؤتى بالتاء وحدها في الرفع، وها في غيره، وإن كان للقلة أن يؤتى بالنون، فالجذوع انكسرت، وكسرتها أولى من انكسرن وكسرتهن، والأجذاع بالعكس ... (٢).

لكن صاحب النحو الوافي يرى غير ما سبق فقال:"إن كان المرجع جمع مؤنث سالم لا يَعْقِل فالأفضل أن يكون ضميره مفردًا مؤنثًا؛ مثل: الشجرات ارتفعت. أي: (هي). والشجرات سقيتها ... وهذا أولى من قولنا: الشجرات ارتفعن، والشجرات سقيتهن، بنون الجمع المؤنث مع صحة مجيئها... وإن كان المرجع جمع مؤنث للعاقل فالأفضل أن يكون ضميره نون جمع المؤنث، أي: (نون النسوة) في جميع حالاته، أي: سواء أكان المرجع جمع مؤنث سالما؛ مثل: الطالبات حضرن، وأكرمهن العلماءُ، أم جمع تكسير للمؤنث؛ مثل: الغواني تعلمن" (٣).

ويقول الفراء:" كلام العرب لما بين الثلاثة إلى العشرة تقول: لثلاث ليال خلون، وثلاثة أيام خلون إلى العشرة، فإذا جزت العشرة قالوا: خلت، ومضت. ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة (هن) و (هؤلاء) فإذا جزت العشرة قالوا (هي، وهذه) إرادة أن تعرف سمة القليل من الكثير"(٤).

والذي يراه الباحث أنه ينبغي أن يكون وراء هذا الاستخدام أو ذاك سرا بلاغيا، فإذا طابق الكلام مقتضى الحال فقد جيء بالأولى، لكن الأشهر أن يأتي مع جمع

---

(١) المصدر نفسهنفسه.

(٢) ينظر: المصدر نفسه(١/٢٣٤-٢٣٥).

(٣) النحو الوافي، لعباس حسن (١/٢٦٣-٢٦٤).

(٤) معاني القرآن للفراء (١/٤٣٥).

المؤنث غير العاقل التاء، أما مع جمع المؤنث العاقل فالنون، ولا يعدل عن ذلك إلا لعلة بلاغية.

وعند السيوطي أن الفراء ذكر لهذه القاعدة سرا لطيفا، وهو أن المميز مع جمع الكثرة هو ما زاد على العشرة؛ لما كان واحدا وحد الضمير، ومع القلة وهو العشرة فما دونها؛ لما كان جمعا جمع الضمير[1].

وجاء في درة الغواص: "كذلك اختاروا أيضا أن ألحقوا بصفة الجمع الكثير الهاء، فقالوا: أعطيته دراهم كثيرة، وأقمت أياما معدودة، وألحقوا بصفة الجمع القليل الألف والتاء، فقالوا: أقمت أياما معدودات، وكسوته أثوابا رفيعات، وأعطيته دراهم يسيرات... وعلى هذا جاء في سورة البقرة:﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾[2] وفي سورة آل عمران: ﴿ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾[3]كأنهم قالوا أولا بطول المدة التي تمسهم فيها النار، ثم تراجعوا عنه فقصروا تلك المدة"[4].

لكن هذه القاعدة لا تجري على قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٤]. فجاءت الصفة بالألف والتاء على جمع القلة، ولم يقل: أياما معدودة على الكثرة؛ باعتبار أن الشهر ثلاثون يوما، فلماذا قلّلت هذه الأيام وهي أكثر من العشرة؟

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٤٢/٢)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٤٦٩/٣).

(٢) [البقرة:٨٠].

(٣) [آل عمران:٢٤].

(٤) درة الغواص في أوهام الخواص للحريري (ص:٨٩).

فيرى السامرائي أنها من قبيل تنزيل الكثرة منزلة القلة، أي: هي قليلة يسيرة بالنسبة لقدرتكم وطاقتكم، وذلك من لطف الله بعباده بالمؤمنين[1].

ويرى الزجاج أن كل قليل يجمع بالألف والتاء، وقد تأتي للكثرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب:٣٥] وشكك في الخبر الذي عيب فيه على القائل[2]:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلْمعْنَ بالضَّحَى ... وأسْيَافُنا يقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

فقيل له لم قلّلت الجفنات ولم تقل: الجفان؟ وهذا الخبر - عنده – مصنوع؛ لأن الألف والتاء قد تأتي للكثرة[3]. وذكر ابن جني أن أبا علي الفارسي كان ينكر هذه الحكاية المروية[4].

وحرر أبو حيان المسألة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٢] فقال:" لأن هذا من الجمع المحلى بالألف واللام، فهو وإن كان جمع قلة، فإن الألف واللام التي للعموم تنقله من الاختصاص لجمع القلة؛ للعموم، فلا فرق بين الثمرات والثمار، إذ الألف واللام للاستغراق فيهما، ولذلك رد المحققون على من نقد على حسان... أن هذا جمع قلة، فكان ينبغي على زعمه أن يقول: الجفان وسيوفنا، وهو نقد غير صحيح لما ذكرناه من أن الاستغراق ينقله"[5].

ولعل مما يقوي هذا القول أن جمع المذكر السالم المحلى بأل يفيد العموم، حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وفيه قول النبي -ﷺ-: "قُولُوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى

(١) ينظر: معاني النحو لفاضل السامرائي (٦٧/١).

(٢) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه: ينظر: ديوان حسان بن ثابت (٣٥/١).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٧٥/١-٢٧٦).

(٤) ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني (١٨٧/١).

(٥) البحر المحيط لأبي حيان (١٦٠/١).

عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"(١).

فدل على أن جمع المذكر السالم قد شمل جميع عباد الله في السماء والأرض، فأفاد الكثرة، ولم يفد القلة.

وهذا يوجه الباحث إلى ما جاء في شرح الرضي على الكافية وفيه: "وقال ابن خروف(٢): جمعا السلامة مشتركان بين القلة والكثرة، والظاهر أنهما لمطلق الجمع من غير نظر إلى القلة والكثرة، فيصلحان لهما"(٣).

أما جمع المذكر السالم فلا يعود عليه إلا ضمير الواو، ولا يجوز عود التاء عليه على التأويل بجماعة، كما جاز عود النون بدلا من الواو إذا استدعى النظم المشاكلة، ويفصّل في تنوع الحرف أو الضمير على جمع التكسير أو جمع الجنس، وأن ذلك راجع إلى تأويل، أو على الأصل.

فيذكر السيوطي: أن جمع المذكر السالم أو ما أسماه بجمع السلامة لا يعود عليه ضمير إلا الواو، ولا يجوز أن يعود عليه التاء على التأويل بجماعة، وأما جمع التكسير لمذكر فيعود عليه الواو نحو الرجال خرجوا، والتاء على التأويل بجماعة نحو الرجال خرجت، ومنه: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ [المرسلات:١١] واسم الجمع يعود عليه الواو نحو الرهط خرجوا، والركب سافروا، أو ضمير الفرد نحو الرهط خرج، والركب سافر، وقد تأتي النون موضع الواو للمشاكلة، لحديث " اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ

(١) صحيح البخاري، كتاب العمل في الصلاة، باب من سمى قوما أو سلم في الصلاة على غيره مواجهة وهو لا يعلم، (ص:٢٩٠) رقم الحديث: ١٢٠٢.

(٢) ابن خروف: أبو الحسن علي بن محمدبن خروف الأندلسي النحوي، أخذ النحو عن ابن طاهر، صنف شرح سيبويه، وشرح الجمل مات سنة ٦٠٩هـ بإشبيلية. ينظر: بغية الوعاة للسيوطي ٢/٢٠٣.

(٣) شرح الرضي على الكافية (٣/٣٩٧).

الْأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ"[1]، والأصل وما أضلوا، وإنما عدل عنه لمشاكلة أظللن وأقللن، كما في "لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ"[2]، و"مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ"[3]، وضمير المثنى والجمع بعد أفعل التفضيل كغيره، نحو أحسن الرجلين وأجملهما، وأحسن النساء أجملهن، وقيل يجوز فيه حينئذ الإفراد والتذكير، وذكر لذلك شاهدان[4].

والجواز رأي ابن مالك، وردّه أبو حيان؛ لأن سيبويه نص على أن ذلك شاذ، اقتصر فيه على السماع، ولا يقاس عليه[5].

ومما سبق يعلم أنه يجب أن يطابق الضمير مرجعه في التذكير والتأنيث والعدد والجنس، غير أن النحاة أجازوا عدم الموافقة في مواضع:

١- يأتي ضمير جمع التكسير المذكر للعاقل واوا، وكضمير الغائبة كثيرا؛ لتأوُّلهم بجماعة[6].

٢- يأتي ضمير الغائبة ليعود على جمع غير العاقل إذا كان جمع كثرة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار:٢] أما إذا كان جمع قلة فيستخدم ضمير الغائبات

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم،كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب التأمين، (١١٠/٢) رقم الحديث: ٢٤٨٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، (ص:٣٣٢) رقم الحديث: ١٣٧٤.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الجنائز، باب ما ورد في نهى النساء عن اتباع الجنائز (١٢٩/٤) رقم الحديث: ٧٢٠١.

(٤) أحدهما: حديث لم يجده الباحث إلا في بعض كتب اللغة: "خير النساء صوالح قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده"، ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢٣٤/١).

(٥) ينظر: المصدر نفسه(٢٣٣/١-٢٣٤).

(٦) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٢٨/١)

كقوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]. وهذا هو الأغلب، وهو رأي ابن مالك(١)، والسيوطي(٢).

٣- أما مع العاقلات فالأولى إسناد الفعل إلى نون الإناث مثل: فعلن، ويجوز إسناده إلى تاء التأنيث. وله شواهد في الشعر العربي تنظر في مظانها(٣).غير أن السيوطي يرى أن النون للعاقلات مطلقا (٤).

٤- يذكر ابن مالك(٥) أن من أسرار العدول إرادة التشاكل، ومن ذلك العدول عن واو الجماعة إلى نون النسوة،كما في الحديث السابق.

٥- "واسم الجمع يعود عليه الواو، نحو: الرهط خرجوا، والركب سافروا، أو ضمير الفرد نحو الرهط خرج، والركب سافر"(٦).

٦- "ويأتي ضمير الاثنين وضمير الإناث كضمير الغائب بعد أفعل التفضيل، وهذا رأي ابن مالك(٧)، وردّه أبو حيان؛ بأن سيبويه نص على أن ذلك شاذ، اقتصر فيه على السماع، ولا يقاس عليه "(٨).

وإذا كان كل فعل يحتاج إلى فاعل لكونه ركنا في الجملة الفعليه، فهو المسند إليه بعد المسند الفعلي، وهذا الفاعل قد يكون ضميرا،كما هو الحال في الجملة الاسمية التي خبرها جملة فعلية، فيعود الضمير المسند إليه بعد المسند الفعلي إلى الاسم الظاهر الذي سبق الفعل، والمشتقات هي كالأفعال تحتاج إلى ضمير، فكثير من النحاة يرون أن

(١) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٢٩)

(٢) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٢٣٤)

(٣) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٣٠)

(٤) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٢٣٢).

(٥) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٣٠).

(٦) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، (١/٢٣٣).

(٧) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٢٨).

(٨) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، (١/٢٣٤).

المشتقات لما شابهت الأفعال احتاجت إلى ضمير "وأجمعوا[1] على أنه إذا كان صفة أنه يتضمن الضميرَ، نحو: زيد قائمٌ، وعمرو حسنٌ، وما أشبه ذلك"[2].

أي: زيد قائم هو، وعمرو حسن هو، وسيشير الباحث إلى ذلك؛ لأن في القرآن مشتقات لم توافق ما قبلها من حيث الجنس، أو العدد، وعدم موافقة المشتق لتابعه يكشف عن ضميره الذي وافق المشتق وخالف المتبوع، فاحتيج إلى معرفة سر هذا العدول بعد الاستعانة بالسياق.

أما المواضع التي يعود فيها الضمير على ما تأخر لفظا ورتبة فهي سبعة [3]:

١- أحدها أن يكون الضمير مرفوعا بنعم، أو بئس، أو ما في معنيهما، ولا يفسر إلا بالتمييز، مثل: نعم رجلا زيد، وقوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴾[4]، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾[5]، وقوله: ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠].

٢- أن يكون مرفوعا بأول المتنازعين المعْمَل والكوفيون يمنعون من ذلك، فقال الكسائي:[6] يحذف الفاعل، قال الفراء: يضمر ويؤخر عن المفسر فإن استوى العاملان في طلب الرفع وكان العطف بالواو نحو قام وقعد أخواك فهو عنده فاعل بهما.

---

(١) أي: الكوفيون والبصريون.

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين لأبي البركات الأنباري (٤٨/١)

(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص:٦٣٥-٦٣٩)، وينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٥٩/١).

(٤) من قوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٧].

(٥) من قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف:٥].

(٦) الكسائي: هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، مولى بني أسد، إمام في اللغة والنحو والقراءة، وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين، له تصانيف، منها: معاني القرآن، =

٣- أن يكون مخبرا عنه فيفسره خبره نحو: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٢٩] و[المؤمنون:٣٧].

٤- ضمير الشأن والقصة " ويَبْرز مبتدأ، واسم ما، ومنصوبا في بابي إنّ، وظنّ، ويَسْتكِنّ في بابي كان، وكاد"[١]. نحو:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[٢]، ونحو: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٣]، والكوفي يسميه ضمير المجهول، وهذا الضمير لا يثنى ولا يجمع؛ لأنه كناية عن الشأن أو القصة، فيقال: إنه أخواك منطلقان، وإنها جاريتاك حسنتان...، ولا يؤنث إلا إذا وليه مؤنث، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو مذكر شُبِّه به مؤنث نحو: إنها قمرٌ جاريتك، أو فعل بعلامة تأنيث مسند إلى مؤنث، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[٤]، فهذا وأمثاله التأنيث فيه أجود من التذكير؛ لأن مع التأنيث مشاكلة تحسّن اللفظ،... والتذكير جائز"[٥].

وقد صرح ابن مالك بأن الغرض الذي من أجله يؤتى بهذا الضمير هو: أن يستعظم السامع حديث المتكلم، فقبل الأخذ فيه يفتتحه بهذا الضمير[٦].

=

والمصادر، والحروف، والقراآت، ونوادر، ومختصر في النحو، توفي سنة: ١٨٩هـ، وقيل: ١٩٣هـ، ينظر: طبقات النحويين واللغويين لمحمد بن الحسن الزبيدي (ص: ١٢٧- ١٣٠). والأعلام للزركلي (٤/٢٨٣).

(١) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٦٤)

(٢) [الإخلاص:١].

(٣) [الأنبياء:٩٧].

(٤) [الحج:٤٦].

(٥) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١/١٦٤-١٦٥)

(٦) ينظر: المصدر نفسه(١/١٦٣).

٥- أن يجر برب مفسرا بتمييز، وحكمه حكم ضمير نعم وبئس، في وجوب كون مفسره تمييزا، وكونه هو مفردا، ولكنه يلزم أيضا التذكير؛ فيقال ربه امرأةً، لا ربها، قال ابن مالك: "وذكر ابن الأنباري أن تطابقهما في التأنيث، والتثنية، والجمع، جائز"(١)، لكن ابن هشام يرى خلاف هذا، فيرى أنه يلزم الإفراد والتذكير، فقال في المغني: "وأجاز الكوفيون مطابقته للتمييز في التأنيث والتثنية والجمع، وليس بمسموع"(٢).

٦- أن يكون مبدلا منه الظاهر المفسر له، مثل: ضربته زيدا، "قال ابن عصفور(٣): أجازه الأخفش ومنعه سيبويه. وقال ابن كيسان(٤): هو جائز بإجماع نقله عنه ابن مالك"(٥).

٧- أن يكون متصلا بفاعل مقدم، ومفسره مفعول مؤخر، مثل: ضرب غلامه زيدا، أجازه الأخفش، وأبو الفتح، وأبو عبد الله الطوال، من الكوفيين ومن شواهده قول حسان(٦):

وَلَو أَنَّ مَجدًا أخلَدَ الدّهرَ واحِداً   مِنَ الناسِ أَبْقى مَجدُهُ الدَّهرَ مُطعِما

---

(١) شرح الكافية الشافية لابن مالك (٢/٧٩٤).

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص:٦٣٨).

(٣) ابن عصفور: هو علي بن مؤمن بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي، حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس، صنف: المقرب في النحو، والممتع في التصريف - كان أبو حيان لا يفارقه، ولد سنة ٥٦٧هـ، وتوفي ٦٦٣هـ، وقيل: ٦٦٩هـ، ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (ص:٢١٨-٢١٩) وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/٢١٠).

(٤) ابن كيسان: هو محمد بن أحمد بن كيسان، كان بصريا كوفيا، يحفظ المذهبين جميع، قال أبو بكر بن مجاهد، كان ابن كيسان أنحى من الشيخين المبرد وثعلب، توفي سنة ٢٩٩هـ، ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (ص:٢٥٥).

(٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص:٦٣٩).

(٦) ديوان حسان بن ثابت (١/١٩٩). وروي بالديوان:

فَلَو كانَ مَجدٌ يُخلِدُ اليَومَ واحِداً   مِنَ الناسِ أَبقى مَجدُهُ اليَومَ مُطعِما

قال ابن مالك:" والنحويون إلا أبا الفتح يحكمون بمنع مثل هذا، والصحيح جوازه لوروده عن العرب في الأبيات المذكورة وغيرها، ولأن جواز نحو: ضرب غلامُه زيدا، أسهل من جواز: ضربوني وضربت الزيْدِين، ونحو: ضربته زيدا، على إبدال زيد من الهاء. وقد أجاز الأولَ البصريون، وأُجيز الثاني بإجماع، حكاه ابن كيسان"[1].

ولكون ضمير الشأن والقصة هو أحد مباحث هذا البحث، فإنه يتعين على الباحث الإشارة إلى ما خالف القياس به، فهذا الضمير مخالف للقياس من خمسة أوجه[2]:

أحدها: عوده على ما بعده لزومًا، إذ لا يجوز للجملة المفسرة له أن تتقدم عليه، ولا شيء منها.

الثاني: أن مفسره لا يكون إلا جملة، خلافا للكوفيين، ولم يوافقهم ابن مالك[3]. وأجاز الكوفيون والأخفش، تفسيره بمفرد له مرفوع، نحو: كان قائما زيد"[4].

الثالث: أنه لا يتبع بتابع فلا يؤكد، ولا يعطف عليه، ولا يبدل منه.

الرابع: أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو ناسخه.

الخامس: أنه ملازم للإفراد.

ومن الضمائر التي يكثر فيها العود على خلاف الظاهر (ناء المتكلمين) في حديث الواحد عن نفسه، على سبيل التعظيم، والله هو العظيم، ونون المعظم نفسه يسندها الله إلى نفسه لكونه عظيما، والأمر عظيما، أو لكون المأمور عظيما، أو المأمور به عظيما، وأمر العظماء لا يكون إلا من الأعظم؛ لأن الله فوق كل عظيم، فوجب الامتثال على كل مأمور؛ لأن في إسناد فعل الواحد إلى نون العظمة أو إضافة الاسم

---

(١) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٦١/١)

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٦٣٦-٦٣٧)

(٣) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٦٣/١)

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٦٣٧)

إليها دلالة على أنه قرار منزه عن كل سبب يصرف عن تنفيذه كالخطأ ونحوه، فوجب الامتثال من غير تأول يصرف المأمور عن الامتثال. وإذا كان الفعل يأتي مسندا إلى صورة ناء الفاعلين التي يدل لفظها على الجمع لكن معناها هنا للواحد ؛ فإن ذلك يأتي لغرض التعظيم، إذا كان الضمير للواحد المعظم نفسه، فهذا الضمير لفظه للجمع ومعناه للواحد، ولا تسند إليه إلا أفعال عظيمة، وعلى هذا النحو جاء المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر:١]...وقد يكون المسند غير ناء الفاعلين مما يدل على الجمع في لفظه لا معناه، مثل الضمير (نحن)، سواء أكان بارزا أم مستترا، و أمثال هذا كثير، وعلى ذلك فتعظيم النفس بضميرين أحدهما: على صورة ناء الفاعلين أو المتكلمين، والآخر على صورة: نحن، ويأتي هذا "للمتكلم المعظم نفسه، أو المبين كونه مشارَكا بواحد أو أكثر"(١)، وكذلك"نحن"(٢).

كما أشار النحاة إلى ألفاظ تُجمع ومراد المتحدث من الجمع التثنية؛ لأنه لما أمن اللبس جاز الجمع مع إرادة المثنى. قال ابن خالويه: "ومنه: ما يجمع وأنت تريد التثنية، وذلك إذا كان سيان من سِيين، أو ما في البدن من جارحة واحدة، ضربت رأس زيد، وضربت رؤوس الزيدين، وبقرت بطنه وبطونهما، ولا تقل: بطنيهما. قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾(٣) ولم يقل: قلباكما"(٤).

وبعد هذا العرض الذي تبين فيه ما يفتح للبحث أفقا رحبة في ميدان مخالفة الضمير لمقتضى الحال، فقد يخالف الضمير مرجعه بالجنس أو العدد أو التذكير والتأنيث، أو يوافقه وهو الأغلب، إما حملا على المعنى، أو حملا على اللفظ، ومن هنا يحسن بالباحث أن يلقي بنظرة عابرة على قول النحاة في كلمة (كل) و (مَنْ) و(ما)؛ لأنها مراجع يختلف حال الضمير باختلاف غرضها، فقد يأتي الضمير عائدا إلى هذه

(١) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٢٢/١)،

(٢) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢٣٥/١)

(٣) [التحريم:٤].

(٤) ليس في كلام العرب، لابن خالويه (ص: ٣٤٠).

الألفاظ مفردا مراعاة للفظ، وقد يثنى أو يجمع مراعاة لمعناهما، حسبما يمليه السياق، وقد يحدث تناوب بين (ما) و (مَنْ) فتستعمل الأولى للعاقل مع كونها لغير العاقل، وتستعمل (من) لغير العاقل مع كونها للعاقل، وهذا التناوب يتطلبه المعنى، ويكشف عنه التدبر والهداية، وتفصيل هذا كما يأتي:

١- كل: وهو اسم واحد في لفظه، جمع في معناه[١] ولذلك رأى ابن سيده أن الضمير يحمل مرة على اللفظ، ومرة على المعنى، وكل ذلك جاء به القرآن والشعر[٢]. وإلى هذا القول ذهب الأنباري[٣]، غير أن بعض النحاة قسم أحوال (كل) إلى ثلاث:

أ- أن تكون مضافة إلى معرفة.

ب- أن تكون مضافة إلى نكرة.

ج- أن تكون مقطوعة عن الإضافة.

وقد وقف النحاة ومن لديهم نزعة لغوية على لفظها ومعناها، وحالة الضمير العائد إليها على النحو التالي:

أ-إن كانت مضافة إلى معرفة: فإن خبر (كل) المضافة إلى معرفة يجب أن يكون مفردا؛ تنبيها على أن أصله أن يضاف إلى نكرة، كما ذكر السهيلي[٤].

وقال ابن مالك في التسهيل:"وإذا أخبر عن (كل) مضافا إلى معرفة جاز اعتبار لفظها، فيفرد الخبر ويذكّر كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) نتائج الفكر في النَّحو لأبي القاسم السهيلي (ص:٢١٦). وينظر: المخصص لابن سيده، السفر السادس عشر ومما يكون اسماً في بعض الكلام وصفة في بعضه (أَفْعَل) أفْعَى (٢١٣/٥).

(٢) المصدر نفسه(٢١٣/٥).

(٣) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين لأبي البركات الأنباري (٣٦٦/٢).

(٤) نتائج الفكر في النَّحو لأبي القاسم السهيلي (ص:٢١٦).

عَبۡدًا ﴾[1]، واعتبار معناها فيجاء به على وفق المضاف إليه، نحو: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴾[2]؛ لأن المعنى: وكلهم أتوه داخرين"[3].

ب- إن كانت مضافة إلى نكرة وهو الأصل يعتبر المعنى، فذكر السهيلي أن الأصل إضافتها إلى النكرة المفردة[4]، وقال ابن مالك:" ويلزم اعتبار المعنى في خبر (كل) مضافا إلى نكرة، لا مضافا إلى معرفة"[5].

وشرح ذلك فقال:" إذا أخبر عن (كل) مضافا إلى نكرة تعين اعتبار المعنى، نحو: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾[6]، وكل رجلين قائمان، وكل رجال قائمون و: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[7]"[8].

ج-أما إن كانت مقطوعة عن الإضافة مفردة مخبراً عنها، فحقها أن تذكر قبلها جملة لمعنى الإحاطة، وأن تكون كل ابتداء، ويكون خبرها جمعاً، لأنها اسم في معنى الجمع، ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾[9].

وقال السهيلي:"اعتمادها إذا أفردت على المذكورين قبلها، وعلى ما في معناها من معنى الجمع، واعتمادها إذا أضفتها على الاسم المفرد، إما لفظاً وإما تقديراً"[10].

(١) [مريم:٩٣].

(٢) [النمل:٨٧].

(٣) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (٣/٣٠١).

(٤) نتائج الفكر في النَّحو لأبي القاسم السهيلي ٢١٨.

(٥) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (٣/٢٩٦).

(٦) [الأنبياء:٣٥]. و[العنكبوت:٥٧].

(٧) [المؤمنون:٥٣] و[الروم:٣٢].

(٨) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (٣/٣٠٠).

(٩) ينظر: نتائج الفكر في النَّحو لأبي القاسم السهيلي(ص: ٢١٨)، والآية من سورة [يس:٤٠].

(١٠) المصدر نفسه(ص:٢١٨).

ويعرفها ابن هشام بأنها: "اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكّر، والمعرّف المجموع[1]، وأجزاء المفرد المعرّف نحو: كل زيد حسن، فإذا قلت: أكلت كل رغيف لزيد، كانت لعموم الأفراد، فإن أضفت الرغيف إلى زيد صارت لعموم أجزاء فرد واحد"[2].

ويذكر ابن هشام أن لعود الضمير إليها أحوالا بحسب إضافتها، فإن كانت (كل) مضافة إلى مفرد، وأريد نسبة الحكم إلى كل واحد وجب الإفراد، نحو: كل رجل يشبعه رغيف، أو إلى المجموع وجب الجمع كبيت عنترة[3]، فإن المراد أن كل فرد من الأعين جاد، وأن مجموع الأعين تركن، وعلى هذا فتقول جاد عليّ كل محسن فأغناني، أو فأغنوني، بحسب المعنى الذي تريده، وربما جمع الضمير مع إرادة الحكم على كل واحد"[4].

واعترض ابن هشام على من قال: إن (كل) إن كانت مضافة إلى معرفة فيجوز مراعاة المعنى أو اللفظ، نحو: كلهم قائم أو قائمون، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾

---

(١) المنكّر كقوله: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾ [الأنبياء:٣٥] و[العنكبوت:٥٧]، والمعرّف المجموع كقوله: ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم:٩٥].

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٢٥٥-٢٥٦).

(٣) قصد قول عنترة:

جادَت عَليها كُلُّ بِكرٍ حُرَّةٍ ... فَتَرَكنَ كُلَّ قَرارَةٍ كَالدِرهَمِ

ينظر: ديوان عنترة للخطيب التبريزي (ص:١٠١)، وهو من شواهد مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٢٦١) ، ورواه ب: "جادت عليه".

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٢٦١).

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾(١) قال والصواب: لا يعود إليها من خبرها إلا مفردا مذكرا على لفظها، نحو: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٢).

ولعل مقصود ابن هشام أن العبرة بخبر كل ففي الآية الأولى﴿ءَاتِى﴾ والضمير مفرد، وفي الثانية كذلك ﴿ءَاتِيهِ﴾ ضميرها مفرد.

ومما سبق تبين أن الأصل أن تأتي (كل) مضافة، ولكن قد يحذف المضاف إليه ويعوض عنه بتنوين العوض، أما الضمير العائد إليها فبحسب ما تضاف إليه، لأنها تكتسب معناها من المضاف إليه فإن كان مفردا مذكرا كانت مفردة مذكرة، وعاد الضمير مناسبا لذلك، وإن كان مثنى مؤنثا كان معناها كذلك، وهكذا.

غير أنها قد تضاف إلى جنس، ولا يعود الضمير إلى هذا الجنس، ولكن إلى معناه؛ لأنه هو المقصود، نحو: ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ قال: كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى، قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)(٣).

فجاء الفعل يدخل مسندا إلى واو الجماعة، لأن أفراد الأمة كلهم مقصودون، فكل فرد مجزي بعمله، ولكن هؤلاء الأفراد كونوا الأمة، فسموا بها في باديء الأمر، فلذلك لم يعد الضمير على اللفظ الأمة المؤنثة، فلم يقل: كل أمتي تدخل، ولكن عاد إلى المعنى المراد، لأن أفراد الأمة مختلفون في أعمالهم.

وفي باب كلا وكلتا كثر كلام النحويين حول كونهما مفردين لفظا مثنيين معنى، فممن قال بأن كلا وكلتا مفردة الفارسي(٤)، أو مثنيين لفظا ومعنى، وممن قال بأن كلا

---

(١) [مريم:٩٣-٩٥].

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٢٦٣).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، (ص:١٧٩٨) رقم الحديث:٧٢٨٠.

(٤) ينظر: المسائل الشيرازيات لأبي علي الفارسي (٤١١/١).

وكلتا مثنيتان الفراء،[1]، ولكل قول فريق، ولكل فريق حججه، "فالبغداديون والفراء زعموا أن (كلت) ههنا مفرد كلتا، في نحو قوله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ وزعموا أن (كلا) و(كلتا) مثنَّيان لفظًا ومعنًى، والألف فيهما زائدة للدلالة على التثنية، والتاء في (كلتا) للتأنيث، وأصل كل واحد منهما قبل اللواحق (كلّ) بتشديد اللام -الذي يستعمل في نحو قولك : الأمر كله بيد الله، فحذفت لامها الثانية، وكسرت كافها، ثم لو أردت المفرد المؤنث زدت التاء، فقلت: (كلت) كما قال الراجز: في كلت رجليها[2]، وإذا أردت المثنى المذكر زدت الألف الدالة على التثنية، فقلت: كلا الرجلين عندي رجل خير، وإذا أردت المثنى المؤنث زدت التاء للدلالة على التأنيث والألف للدلالة على التثنية فقلت: كلتا المرأتين عفيفة المئزر، وسيبويه -رحمه الله- وجمهور نحاة البصرة لا يرتضون هذا الكلام، وعندهم أن (كلا) و(كلتا) مفردان لفظًا مثنيان معنًى، والألف فيهما هي لام الكلمة، فوزن (كلا) فِعَل -بكسر الفاء وفتح العين، نظير رضا ومعى- وهذه الألف التي في (كلا) منقلبة عن واو، وقيل: عن ياء، ووزن (كلتا) فِعْلى مثل ذِكْرى -والتاء فيها هي لام الكلمة، وأصلها واو على ما اختاره ابن جني، واختار أبو علي أن أصلها ياء، أما الألف في (كلتا) فهي زائدة لدلالة التأنيث، قالوا: والدليل على أن هاتين الكلمتين مفردان لفظًا مثنيان معنًى أنه يخبر عنهما بالمفرد، ويعود الضمير إليهما مفردًا، ولو كانا مثنيين لفظًا ومعنًى لما جاز أن يخبر عنهما بالمفرد، ولا أن يعود إليهما الضمير مفردا، وأيضا فإنا نجد العرب جميعًا إذا أضافوهما إلى الاسم الظاهر يلزمونهما الألف في الرفع والنصب والجر، نحو: كلا الرجلين

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ١٤٢)

(٢) من قول الراجز:

أفي كِلْتَ رجليها سُلَامَى وَاحِدَهْ ... كِلْتَاهُمَا مَقْرُونَةٌ بِزَائِدَهْ

وهذا البيت نسبه أبو عمرو الشيباني إلى أبي الدهماء، ينظر: الجيم لأبي عمرو الشيباني، باب الكاف (١٥٠/٣)، وروته كتب كثيرة من غير نسبة لأحد، وهو من شواهد، معاني القرآن للفراء (١٤٢/٢)، وهمع الهوامع (١٥٢/١)، وشرح الرضي على الكافية (٨٣/١)، وخزانة الأدب للبغدادي (١٢٩/١).

مؤدب، ونحو: كلتا المرأتين صالحة، ونحو: إن كلا هذين الرجلين مستقيم، وما أشبه ذلك ولو كانا مثنيين لفظا ومعنى لوجب أن يجيئا بالياء في حال النصب والجر في لسان أكثر العرب، من غير تفرقة بين ما إذا كان المضاف إليه مضمرًا، وما إذا كان مظهرًا، كسائر المثنيات، واستمع إلى ما نقله ابن منظور عن الجوهري، قال: "كلا في تأكيد الاثنين نظير كل في المجموع..." [1].

٢- (من) و (ما) مفردان في لفظيهما، وقد يأتي الضمير عائدا إلى مفردهما فيفرد، فيكون قد حمل على اللفظ، أو يثنى ويجمع بالنظر إلى معناهما، فيكون محمولا على المعنى.

ويرى الرضي أن (مَن) لذي العِلْم[2]، ولا تفرد لما لا يعلم خلافا لقطرب[3]، وتقع على ما لا يعلم تغليبا كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾[4]، وتقول: اشتر من في الدار، غلاما كان أو جارية أو فرشا، و:(ما) في الغالب لما لا يعلم، وقد جاء في العالم قليلا، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[5]، وتستعمل، أيضا، في الغالب، في صفات العالم، نحو: زيد ما هو ؟ وتستعمل في المجهول ماهيته وحقيقته. تقول: ما هذا؟

(١) ينظر: الانتصاف من الإنصاف لمحمد محي الدين عبد الحميد (٢/٤٣٩- ٤٤٠). وينظر: لسان العرب، فصل الكاف، مادة (كلا)، (١٥/٢٢٧).

(٢) قوله: لذي العِلْم، أو العالم في هذا الموضع يقصد به العاقل.

(٣) قطرب هو: محمد بن المستنير، تلقى على سيبويه وعلى شيوخ سيبويه أيضا كعيسى بن عمر، ولكنه كان ملازما لسيبويه أكثر من غيره، وسيبويه هو الذي لقبه بهذا اللقب إذ قال له إنما أنت قطرب ليل، والقطرب دويبة لا تهدأ عن السعي في طلب الرزق، وله من التصانيف: المثلث، النوادر، الصفات، الأصوات، العلل في النحو، الأضداد، مات سنة ست ومائتين. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١/٢٤٢).

(٤) [الحجر:٢٠].

(٥) [النساء:٣].

أفرس أم بقر أم إنسان، فإذا عرفت أنه إنسان مثلا، وشككت أنه زيد أو عمرو، لم تقل: ما هو، وقلت: من هو[1]؟

ويفهم من ذلك أن من أغراض مجيء (من) لغير العاقل التغليب، وتستعمل (ما) للعاقل تغليبا، أو لكون العاقل مجهولا لم يتبين أنه عاقل، كأن يرى في ظلام ولا يعلم ما هو.

و(من) و(ما) في اللفظ مفردان صالحان للمثنى والمجموع والمؤنث، فإن عني بهما أحد هذه الأشياء فمراعاة اللفظ فيما يعبر به عنهما من الضمير والإشارة ونحوهما أكثر وأغلب، وإنما كان كذلك؛ لأن اللفظ أقرب إلى تلك العبارة المحمولة عليهما من المعنى، إذ هو وصلة إلى المعنى، وكذا في غير (من) و(ما)، تقول: ذلك الشخص لقيته وإن كان مؤنثا... وإن تقدم على المحمول على (من) و(ما) وشبههما من المحتملات ما يعضد المعنى اختير مراعاة المعنى في ذلك المحمول، كقولك: منهن من أحبها، فهو أولى من قولك: أحبه، لتقدم لفظة (منهن)[2].

والحمل على المعنى شجاعة ملكها بلغاء العرب؛ لأنه لا يميل إليها إلا من وثق من خلو كلامه من قصور في البيان، وفي ذلك قال ابن جني:" باب في شجاعة العربية: اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف"[3].

قال ابن عاشور معلقا: "كأنه عنى أنه دليل على حدة ذهن البليغ، وتمكنه من تصريف أساليب كلامه كيف شاء، كما يتصرف الشجاع في مجال الوغى بالكر والفر"[4].

---

(١) شرح الرضي على الكافية (٣/٥٥-٥٦).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٣/٥٥-٥٧).

(٣) الخصائص لابن جني (٢/٣٦٢).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/١٧٧).

وقد جمع ابن جني أساليب في قضية الحمل على المعنى، وأنه مسلك صعب لا يستطيعه إلا شجاع، فقال:" اعلم أن هذا الشَرْج غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن، وفصيح الكلام منثورًا ومنظومًا؛ كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصوير معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلًا كان ذلك اللفظ أو فرعًا، وغير ذلك"(1).

ويرى بعض النحويين أن الأولى الحمل على اللفظ؛ لأنه هو المشاهد، ولكن إذا حمل على اللفظ جاز الانتقال منه إلى المعنى، أما إذا حمل على المعنى فإنه يضعف الانتقال إلى الحمل على اللفظ؛ لأن المعنى أقوى من اللفظ.

قال ابن الحاجب: إذا حمل على اللفظ جاز الحمل بعده على المعنى، وإذا حمل على المعنى ضعف الحمل بعده على اللفظ؛ لأن المعنى أقوى، فلا يتعدى الرجوع إليه بعد اعتبار اللفظ، ويضعف بعد اعتبار المعنى القوي الرجوع إلى الأضعف(2).

لكن ابن العلج(3) خالف ابن الحاجب فقال: "إنّ الاستقراء دل على أنّ اعتبار اللفظ أكثر من اعتبار المعنى، وكثرة موارده دليل على قوّته، فلا يستقيم أن يكون قليل الموارد أقوى من كثير الموارد. قال: وأمّا ضَعْف العود إلى اللفظ بعد اعتبار المعنى فقد ورد به التنزيل ،كما ورد باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدۡ

(1) الخصائص لابن جني (٢/٤١٣).

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/٣٨٤).

(3) ذكره السيوطي قائلا: صاحب البسيط: ضياء الدين بن العلج، أكثر أبو حيان وأتباعه من النقل عنه، ولم أقف له على ترجمة. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/٣٧٠). ويستنتج حسن موسى الشاعر عصره قائلا: ابن العلْج كان من طبقة بن عصفور (المتوفى سنة ٦٦٩ هـ)... موطنه إشبيلية في الأندلس وغادرها له البسيط في النحو نقل عنه: أبو حيان النحوي الأندلسي في كتابه، والمرادي في الجنى الداني، وابن هشام في المغني، وغيرهم. ينظر: الكشف عن صاحب البسيط في النحو لحسن موسى الشاعر (ص: ١٥٠-١٥٦).

أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾ [1]" فحمل على اللفظ بعد الحمل على المعنى. وما ورد به التنزيل ليس بضعيف، فثبت أنّه يجوز الحمل على كلٍّ واحدٍ بعد الآخر، من غير ضعف"[2].

وبعد استعراض أقوال النحاة في هذا الباب، يتبين أنهم اهتموا اهتماما واضحا بشكل الجملة وتركيبها، من غير حرص على السر البلاغي وراء هذا الاستعمال إلا فيما ندر، مما ورد في بعض كتبهم من إشارات عامة عابرة، ذكر بعضها في معرض هذا الفصل.

(١) [الطلاق:١١].

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/٣٨٤).

المطلب الثالث: مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات البلاغية

تكلم البلاغيون كثيرا عن مخالفة مقتضى الظاهر وذكروا من ذلك الالتفات، وتعريفه المشهور عند الجمهور: أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة، التكلم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، فينتج عن ذلك ستة أقسام(1)، على أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً إلى الملتفت عنه. غير أن السكاكي كان قد وسع دائرة الالتفات عما عليه الجمهور، فكان مذهبه أن كلا من التكلم والخطاب والغيبة إذا كان مقتضى الظاهر إيراده فعُدل عنه إلى الآخر يعد التفاتا(2).

لكن هناك مخالفة لمقتضى الظاهر في الضمائر لا تندرج تحت التعريف السابق للالتفات، منها انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، ذكره التنوخي(3) وابن الأثير، وهو ستة أقسام:

الأول: الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين، الثاني: الانتقال من خطاب الواحد إلى الجمع، الثالث: من الاثنين إلى الواحد، الرابع: من الاثنين إلى الجمع، الخامس: من الجمع إلى الواحد، السادس: من الجمع إلى التثنية، ووجهه ما سبق فى الالتفات، وهذا القسم قريب من الالتفات، وذكر السبكي لكل نوع شاهد من غير إيضاح لما فيه من نكت، ثم زاد آخر وهو التعبير بواحد من المفرد والمثنى والمجموع، والمراد الآخر (4).

(١) ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني (٢٨٦-٢٨٧).

(٢) ينظر: المصدر نفسه٢٨٦.

(٣) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عمرو، أبو عبد الله زين الدين التنوخي: أديب دمشقي، استقر في بغداد. له كتب، منها (الأقصى القريب في علم البيان – ط) قرئ عليه سنة ٦٩٢، توفي سنة: ٧٤٨، ينظر: الأعلام للزركلي (٣٥/٧). وذكر السبكي كتابه، فقال: الأقصى القريب للشيخ زين الدين، محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخى، ينظر: عروس الأفراح للسبكي (٣٣/١).

(٤) ينظر: عروس الأفراح للسبكي (٢٩٣/١).

ومثل ذلك أنوعا ذكرها السيوطي وعدها من المجاز(١)، الأولى التعبير بواحد من المفرد والمثنى والمجموع عن آخر منها، ومما ذكره للتعبير بالمفرد عن المثنى في غير المسند إليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(٢)، أي: يرضوهما(٣).

وذكر السيوطي شواهد من القرآن الكريم والشعر، ومن شواهده ما هو لصيق بموضوع البحث؛ لأن الأمر يتعلق بمخالفة الضمير لمرجعه، ومنها ما لا يدخل في ذلك، ومن شواهده، مثال المفرد عن الجمع في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾(٤)، أي: الأناسي بدليل ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢﴾(٥)، ومثال المثنى عن المفرد ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾(٦)، أي: ألق، وأمثلة أخرى على الصيغ الأخرى(٧).

والضمير له أهميته في الجملة، لما يحمله من دلالات معنوية، فهو من الروابط التي تسهم في السبك والصياغة، ولعله يندرج تحت المعنى الذي ذكره أبو موسى بقوله: "وهذه الروابط وكيفياتها وما يقع فيها من اختيار هي التي تستخرج من ألفاظ اللغة دلالتها، وهذا هو سرّ فعلها، وكأنها المفتاح الذي إذا أصبت به مدخلا لطيفا للكلمة، أخرجت منها ما لم يخرجه غيرك ممن لم يصب منها هذا المدخل، هذه الروابط هي التي تفرغ لنا من الكلمات طعومها وألوانها..." (٨).

---

(١) أي ليست من الحقيقة.

(٢) [التوبة:٦٢].

(٣) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي(ص: ٣٠-٣١).

(٤) [المعارج:١٩].

(٥) [المعارج:٢٢].

(٦) [ق:٢٤].

(٧) ينظر: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي (ص:٣١).

(٨) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، للدكتور محمد محمد أبي موسى (ص:٥٨).

وقد أشار البلاغيون المتأخرون بوضع مصطلح التلوين، لكونه أوسع من الالتفات. ومفهوم التلوين هو في ذاته مفهوم الالتفات، ولكن بمفهومه الواسع الذي يشمل كل ألوان التحول والمغايرة في نسق التعبير، والانتقال من صيغة إلى صيغة، أو من طريقة إلى طريقة في أداء المعنى؛ ومن ثم فإن السمة الرئيسة للتلوين —وهو المرادف للالتفات– تتمثل في المغايرة ومراوحة الأسلوب بين طرفين مختلفين، وذلك لفائدة وقيمة فنية يتطلبها السياق الذي ترد فيه(١).

والتلوين بين الضمير والضمير، أو الضمير ومرجعه هو مما يندرج تحت هذا المصطلح، لكونه تحولا من صياغة إلى أخرى، وهو الأمر الذي يعني الباحث في هذا البحث.

فالتلوين ينهض في أساسه على دوران الكلام بين طرفين متقابلين أو متغايرين، يأتي الأسلوب متقلبا بينهما، وذلك إما أن يكون إظهارا وإضمارا، أو تذكيرا وتأنيثا، أو إفرادا وجمعا، أو تعريفا وتنكيرا، إلى غير ذلك، ومن ثم فإن النظر في أول هذين الطرفين يؤدي بالضرورة إلى ضم الثاني إلى الأول، وبذلك يلتحم أول الكلام بآخره، وعلى هذا يكون التلوين في أغلب صوره معيارا أصيلا في التحليل الشكلي للنص(٢).

ومن الباحثين المهتمين بالأسلوبية من يدرجونه تحت مسمى الانزياح، أو الانحراف، أو الانتهاك، أو العدول، والعدول أهم مباحث الأسلوبية(٣)، ومنهم من جعل الانزياح ليس ركنا فحسب، بل كل شيء في الأسلوبية، ويظهر ذلك من تعريفاتها، وأنها: علم الانزياحات(٤)، "فالأسلوب هو كل ما ليس شائعا، ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار العام المألوف"(٥).

---

(١) ينظر: تلوين الخطاب في القرآن الكريم، د.طه رضوان طه (ص:١٨-٢٠).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(ص:٣٨٢ -٣٨٣).

(٣) ينظر: البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب(ص: ٢٦٨).

(٤) ينظر: بنية اللغة الشعرية، جان كوهن (ص: ١٦).

(٥) ينظر: المصدر نفسه(ص:١٥).

والانزياح بابه واسع فهو يقع في علم المعاني وفي علم البيان، وهو كل خروج عن مقتضى الظاهر، ويشمل استعمال الكلمة أو التركيب في غير ما وضع له، وما هو ليس مألوفا.

ويشير الدكتور محمد عبد المطلب إلى أن العدول بابه واسع يدخل فيه الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وغير ذلك، وأن علم المعاني في تعريفه هو يجمع بين المستويين السابقين؛ فهو العلم الذي تعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال، وأبواب المعاني يمتنع فيها إجراء الكلام على الأصل، وهي أبواب تقوم أساسا على العدول في اللغة عن مستوى استخدامها المألوف(١).

وتعريف الانزياح حوله اختلافات كثيرة(٢)، ويروي الدكتور عبد السلام المسدي تعريفا للانزياح بأنه: "لحنٌ مبرر ما كان يوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقا للاشكال النحوية الأولى"(٣).

ويرى الدكتور محمد عبد المطلب أن من الأسلوبيين من يطلق على الانزياح مصطلح الانتهاك اللغوي، ويذكر أن هذه الانتهاكات تتمثل في ألوان من الأداء، مثل القلب، والتضمين، والالتفات، وهي ألوان من الأداء توفرت فيها نية جمالية، من حيث تأكيدها للمعنى، أو توضيحه، أو إبهامه وتفسيره(٤).

وعندما تحدث عبد المطلب عن العدول بيّن أنه من أهم مباحث الأسلوبية، ويتمثل في رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف، فالأسلوبيون نظروا إلى اللغة

---

(١) ينظر: البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب(ص: ٢٧٠).

(٢) ينظر: الأسلوبية النصية من خلال مفهوم الانزياح، د. جمال حضري، لا يوجد تأريخ نشر، تم الرجوع إليه: ١٢/٦/١٤٣٧هـ، http://uqu.edu.sa/page/ar/146514.

(٣) الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدّي (ص: ١٠٢-١٠٣) .

(٤) ينظر: البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبدالمطلب (ص: ٢٠٨-٢٠٩).

في مستويين: الأول: مستواها المثالي في الأداء العادي، والثاني: مستواها الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها(١).

ولا شك أن هذا العدول يحدث تأثيرا في المتلقي، مما يسهم في إيقاظ ذهنه لاستقبال ما أراده المتكلم، فيكون المتكلم بهذا العدول قد حقق هدفه في الوصول إلى التأثير في المتلقي.

ويشرح عبد المطلب المستوى العادي؛ ويبيّن أنه هو الذي يعتمد على النحو التقعيدي في تشكيل عناصره، كما يعتمد على اللغة في تنسيق هذه العناصر، وثمرة الترابط بين مايقول به النحاة وما يقول به اللغويون ظهور مثالية اللغة في استخدامها المألوف(٢).

وتراثنا العريق سبق أهل الدراسات الحديثة بوقوفه على هذه الأساليب البلاغية، فالمتقدمون منهم من تحدث عن ظاهرة العدول عن صيغة إلى أخرى، مشيرين إلى ما وراء هذا العدول من دقائق ونكات، وفي ذلك يقول ابن الأثير: " واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطّلع على أسرارها، وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهما، وأغمضها طريقا"(٣).

وأغراض التلوين قد تشترك مع أغراض الالتفات التي ذكر الزمخشري منها أغراضا عامة فقال:" وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد"(٤).

---

(١) ينظر: البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب(ص: ٢٦٨).

(٢) ينظر: المصدر(ص: ٢٦٨).

(٣) المثل السائر لابن الأثير (١٤٥/٢).

(٤) الكشاف للزمخشري (١٤/١).

وقد أشار بعض البلاغيين إلى بعض الضمائر التي تعود على خلاف الظاهر في بعض سياقاتها، وهي إشارات بسيطة مجملة، من ذلك أن القزويني عرض لجزء من هذا الموضوع عند حديثه عن تأخير المسند إليه، ويبدؤه بتعليل عام يشير فيه إلى أن تأخير المسند إليه سببه اقتضاء المقام تقديم المسند، وأن هذا من خروج المسند إليه على خلاف الظاهر. لكن هذا وإن كان عاما إلا أن ما يهم الباحث مما ذكره القزويني هو ما أدرجه تحت موضوع وضع المضمر موضع المظهر، مثل: نعم رجلا زيد، مكان: نعم الرجل زيد، وقولهم: هو زيد عالم، وهي عمرو شجاع، مكان: الشأن زيد عالم، والقصة عمرو شجاع [1].

ثم يذكر القزويني سبب مجيء الكلام على هذا النحو، قائلا: "ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى، بقي منتظرًا لعقبى الكلام: كيف تكون؟ فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن، وهو السر في التزام تقديم الشأن أو القصة"[2].

وقد سبق السكاكيُّ القزويني إلى هذا الغرض لفظا ومعنى[3]، وعلل التفتازاني هذا التمكن الذي يحدثه الضمير عندما يسبق مفسره، بكون النفوس مجبولة على التشوق إلى معرفة ما قصد إبهامه، فيتمكن المسموع بعده في ذهن السامع فضل تمكن؛ لأن ما يحصل بعد مقاساة التعب ومعاناة الطلب له في القلب محل ومكانة لما يحصل بسهولة. لذلك عظم شأن الجملة المفسِّرة[4].

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (٢/٨٠-٨٢) .

(٢) المصدر نفسه(٢/٨٢) .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ١٩٨) .

(٤) ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني (ص: ٢٨٣).

ومن المتأخرين عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، الذي تناول ضمير الشأن بإشارات موجزة عند حديثه عن الإضمار في مقام الإظهار، وتناول عدة مواضع، والذي يهم الباحث موضعان كما يأتي(1):

الموضع الأول: ضمير الشأن، فذكر أن ضمير الشأن يعود إلى ما في الذهن من شأن أو قصة، ولا يفسر إلا بجملة، وأن من أغراضه التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان. وذكر أن لهذا الضمير أربعة أحوال:

١- أن يكون بارزا متصلا في باب إنّ الثقيلة.

٢- أو بارزا منفصلا عامله الابتداء كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١].

٣- أو مستترا في باب (كاد)كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:١١٧].أي: من بعد ما كاد شأنهم المستنكر يزيغ قلوب فريق منهم، فضمير الشأن هنا مستتر، ولكن بقيت دلالته.

٤- أو واجبا حذفه، وذلك مع (أنْ) المفتوحة المخففة من الثقيلة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس:١٠].

أما الموضع الثاني: فهو الضمير في باب نعم، وبئس، وما جرى مجراهما، والغرض من الضمير المستتر في هذا الباب الإبهام به أولا؛ للتشويق واستثارة النفس، ويأتي التمييز فيزيل بعض الإبهام، ويزيد تشويقا لمعرفة المخصوص بالمدح أو الذم.

وذكر سعد الدين التفتازاني في قولهم: نعم رجلا، مكان نعم الرجل؛ أن مقتضى الظاهر في هذا المقام هو الإظهار دون الإضمار؛ لعدم تقدم ذكر المسند إليه وعدم قرينة تدل عليه، وهذا الضمير عائد إلى متعقل معهود في الذهن، مبهم باعتبار الوجود،

---

(١) البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١/ ٥٠٧-٥٠٩).

كالمظهر في نعم الرجل؛ ليحصل به الإبهام، ثم التفسير المناسب لوضع هذا الباب الذي هو للمدح العام أو الذم العام أعني: من غير تعيين خصلة، والتزم تفسيره بنكره ليعلم جنس المتعقل في الذهن،ويكون في اللفظ ما يشعر بالفاعل، ولا يلتبس المخصوص بالفاعل، في مثل: نعم رجلا السلطان، ثم بعد تفسير الضمير بالنكرة صار قولنا: نعم رجلا، مثل نعم الرجل في الإبهام والإجمال، ولا بد من تفسير المقصود وتفصيله بما يسمى مخصوصا بالمدح(١).

ويبين الشيخ محمد أبو موسى الوجه الذي من أجله أصبح هذا الضمير مخالفا لمقتضى الظاهر، فيقول: "الأصل ألا يذكر الضمير إلا وقد سبقه ما يعود عليه؛ ليكون المقصود بالكلام واضحا... ومع وضوح هذا الأصل تجد صورًا من الأساليب بنيت على خلافه، فيذكر الضمير ليفسر بمتأخر عنه في بعض هذه الصور، أو يذكر من غير مفسر؛ اعتمادًا على فهم السامع، أو وضوح المعنى أو غير ذلك"(٢).

فالشيخ يذكر صورتين من صور عود الضمير على خلاف الأصل، أحدهما: عود الضمير على متأخر، وهو ما اصطلح على تسميته بضمير الشأن، أو ضمير القصة، والصورة الثانية: أن يعود الضمير على غير مذكور لقرينة في السياق، وثقة بأن السامع سيفهم ما لم يصرح به، وحينئذ لا يلتبس على السامع المقصود، ولهذا الأسلوب أثره في النفوس.

يقول الشيخ محمد أبو موسى:" لأن الضمير حين يطرق النفس من غير أن يكون له عائد يعود عليه يصيرها إلى حالة من الغموض، والإبهام لا قرار لها معها، فتستشرف إلى اكتشاف الحقيقة المتوارية وراء الغموض المثير، فإذا جاءت الجملة المفسرة تمكن معناها، ووقع في القلب موقع القبول، وتراهم لا يبنون الكلام على هذا الأسلوب إلا في المعاني المهمة، التي يهيئون النفوس لتلقيها... "(٣).

---

(١) ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني (ص: ٢٨١-٢٨٢).

(٢) خصائص التراكيب لأبي موسى (ص: ٢٠٧).

(٣) خصائص التراكيب لأبي موسى (ص: ٢٠٧-٢٠٨).

وحذف مرجع الضمير قد يكون أبلغ من ذكره، لما في ذلك من استدعاء التأمل لدى المتلقي، مع الثقة بأن السامع سيهتدي بالقرائن الحافة، مع ما في النظم من إيجاز الحذف الذي بني عليه الكلام البليغ، يقول عبد القاهر: "رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"(١).

وقد تناول الجرجاني نوعا من الحذف وبين سببه تحت قوله: "الإضمار على شريطة التفسير، وذلك مثل قولهم: أكرمني وأكرمت عبد الله، أردت: أكرمني عبد الله، وأكرمت عبد الله، ثم تركت ذكره في الأول استغناء بذكره في الثاني. فهذا طريق معروف، ومذهب ظاهر، وشيء لا يعبأ به، ويظن أنه ليس فيه أكثر مما تريك الأمثلة المذكورة منه، وفيه إذا أنت طلبت الشيء من معدنه من دقيق الصنعة ومن جليل الفائدة، ما لا تجده إلا في كلام الفحول"(٢).

والشيخ بهذا يبين الغرض من هذا الأسلوب، علما أن أصحاب اللغة أطلقوا على الضمير في هذه الحالة مصطلح: الضمير المتنازع فيه؛ تقعيدا لما أرادوا، من غير نظرة ولو من طرف خفي إلى ما تحت هذا الاستعمال من بلاغة.

والجرجاني أيضا يبين الأثر العظيم الذي نتذوقه في الحذف، ولا شك أن المقام إذا تطلب الحذف فإن الذكر يصبح مذموما، وفي ذلك يذكر الجرجاني العيب لو لم يكن الحذف ورُجع في النظم إلى الأصل فيقول:" صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجه السمع، وتعافه النفس. وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك"(٣).

ومن المواطن التي يأتي فيها الضمير في الظاهر مخالفا لمرجعه ما يندرج تحت مصطلح الاستخدام، وهو أحد موضوعات علم البديع.

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص: ١٥١).

(٢) المصدر نفسه(ص: ١٦٣)

(٣) دلائل الإعجاز (ص: ١٦٣ – ١٦٤)

يعرفه الخطيب القزويني بقوله:" ومنه الاستخدام، وهو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم بضميره معناه الآخر. أو يراد بأحد ضميريه أحدهما، وبالآخر الآخر"(١).

فالأول كقوله(٢):

إذا نَزَلَ السَمَاءُ بِأَرضِ قَومٍ رَعَيناهُ وَإِن كانوا غِضابا

أراد بالسماء الغيث، وبضميرها النبت.

والثاني كقول البحتري(٣):

فَسَقى الغَضا وَالساكِنيه وَإِن هُمُ شَبّوهُ بَينَ جَوانِحٍ وَضُلُوع

أراد بضمير الغضا في قوله: والساكنيه؛ المكان وفي قوله: شبوه؛ الشجر(٤).

وذكر التفتازاني أن البحتري أراد بأحد الضميرين الراجع إلى الغضا وهو المجرور في الساكنيه المكان، وبالآخر وهو المنصوب في شبوه النار، أي: أوقد بين جوانحي نار الغضا، يعني نار الهوى التي تشبه نار الغضا(٥).

فمقتضى الحال أن يأتي ضمير الغائب في قوله: رعيناه، مؤنثا، وذلك لأن السماء مؤنثة، ولكن الضمير جاء مذكرا ليعود إلى المعنى الذي أراده الشاعر من لفظة السماء، وهو الغيث، الذي يسبب النبت، والباحث بهذا يرى أن الضمير لم يعد إلى النبت وإن

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (ص: ٣٣٢).

(٢) البيت عند الأغلب لمعود الحكماء، وهو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب، وهو جاهلي من الأزد. وفي بعض رواياته استبدل بالسماء السحاب، ينظر: المفضليات للمفضل الضبي (ص:٣٥٦-٣٥٩)، والصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني (ص: ٥٧). والأعلام للزركلي (٢٦٣/٧).وعزاه ابن رشيق إلى: جرير ابن عطية،ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (٢٦٦/١).

(٣) ديوان البحتري (١٤٧/١)، ويروى بالديوان: (والنازليه) بدلا من الساكنيه، وأيضا: وشَبُّوهُ بَينَ جَوانِحٍ وَقُلوبِ.

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (ص: ٣٣٢)، مع اختلاف في بعض ألفاظ رواية البيتين في المطول لسعد الدين التفتازاني.

(٥) المطول لسعد الدين التفتازاني (ص: ٦٥٤).

كان مرادا، بل عاد إلى الغيث النازل من السماء والمسبِب النبت، على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية، فالماء سبب للإنبات، وهذا المعنى كشفه الضمير المذكر، ولن يتأتى هذا الفهم لو جاء الضمير مؤنثا، فتأنيث الضمير تضييق للمعنى، وتذكيره يحمل سعة دلالية حيث المجاز والإيجاز.

يدل على ما ذهب إليه الباحث أن الاستخدام من المحسنات المعنوية، وهو إيراد كلمة لها معنيان، فيراد أحد المعنيين فيعود الضمير إليه لا إلى لفظه، ولا إلى معناه الثاني، فالسماء في البيت السابق لها معنيان، وهو السماء المعروفة، والغيث المسبب النبت، فذكر لفظ السماء وأعاد الضمير إلى معناه الأولي وهو الغيث، أو إلى المعنى الثاني وهو النبت. أما النوع الثاني من الاستخدام فهو أن يشتمل التركيب على ضميرين فيعود الضمير الأول إلى أحد المعنيين، ويعود الضمير الثاني إلى المعنى الآخر ومثاله بيت البحتري الآنف.

ومثل ذلك يقال في ضمير الغائب في قوله: والساكنيه، فالضمير لم يعد على الحالّ وهو الغضا ولكن عاد إلى المحل؛لأن الغضا لا يسكن، فدل الضمير على المحلّ الذي عبر عنه بالحالّ على سبيل المجاز المرسل، وعاد ضمير (شبوه) إلى النار.

وقد فرق ابن أبي الإصبع بين التورية والاستخدام فقال:" والفرق بينهما أن التورية استعمال أحد المعنيين من اللفظة، وإهمال الآخر، والاستخدام استعمالهما معًا"(١).

ويعرف حبنكة الاستخدام مشيرا إلى بعض أغراضه، فيقول:" أن يؤتى بلفظ له معنيان فيراد به أولا أحدهما، ويعاد الضمير عليه، أو يشار إليه باسم إشارة مرادا به المعنى الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه، ويراد بالآخر الآخر منهما، سواء أكان المعنيان حقيقيين، أم مجازيين، أم مختلفين. وهذا فن بديع يدعو إليه الإيجاز من جهة، وتقدير ذكاء المتلقي وإرضاؤه من جهة أخرى"(٢).

---

(١) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع العدواني (ص: ٢٧٥).

(٢) البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٤٠١) .

وإذا كان أهل اللغة قد ذكروا أن ضمير الخطاب والمتكلم يعرف مرجعه بالمشاهدة، فقد ذكر السكاكي نوعا من ضمير الخطاب لا يدل على معين بل يفيد العموم، فقال: "وحقُّ الخطاب أن يكون مع مخاطب معين، ثم يترك على غير معين؛ كما تقول: فلان لئيم إن أكرمته أهانك، وإن أحسنت إليه أساء إليك،، فلا تريد مخاطبا بعينه كأنك قلت: إن أُكرم أو أُحسن إليه؛ قصدا على أن سوء معاملته لا يختص واحداً دون واحد، وأنه في القرآن كثير يحمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾[1]، على العموم قصدا على تفظيع حال المجرمين، وأن قد بلغت من الظهور على حيث يمتنع خفاؤها ألبتة، فلا تختص رؤية راء دون راء، بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل في هذا الخطاب، وكذا أمثال له"[2].

ثم أشار السكاكي إلى سبب مجيء ضمير الغائب مسندا إليه فقال: "أو كان المسند إليه في ذهن السامع لكونه مذكورا، أو في حكم المذكور؛ لقرائن الأحوال ويراد الإشارة إليه"[3].

ويذكر ابن الأثير أن الفاعل قد يحذف إذا دل الفعل عليه، وليس في جميع الأحوال، ويذكر لذلك شواهد منها قول العرب: أرسلتْ، وهم يريدون جاء المطر؛ ولا يذكرون السماء؛ نظرا إلى الحال، وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجيء المطر[4].

ومن قبله أشار ابن رشيق إلى هذا النمط من التركيب تحت اسم: إضمار ما لم يجر له ذكر، وقال قبله: "وهذه أشياء من القرآن وقعت فيه بلاغة وإحكاماً لا تصرفاً وضرورة، وإذا وقع مثلها في الشعر لم ينسب إلى قائله عجز ولا تقصير، كما يظن من لا

(١) [السجدة:١٢].

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي(ص: ١٨٠)، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١/١١).

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي(ص: ١٨٠)، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١/١١).

(٤) ينظر: المثل السائر لابن الأثير، (٢/٨٦-٨٧)، وينظر: الطراز للعلوي (٢/٥٦)" وأنكر العلوي كلام ابن جني لمنع حذف الفاعل مع هذه الشواهد".

علم له ولا تفتيش عنده، من ذلك: أن يذكر شيئين، ثم يخبر عن أحدهما دون صاحبه اتساعاً، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[1]، أو يجعل الفعل لأحدهما ويشرك الآخر معه، أو يذكر شيئاً فيقرن به ما يقارّ به ويناسبه ولم يذكره، كقوله تعالى في أول سورة الرحمن: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2]، وقد ذكر الإنسان قبل هذه الآية دون الجان، وذكر الجان بعدها... ومن ذلك إضمار ما لم يذكر كقوله جل اسمه: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾[3]، يعني: الشمس..." [4].

وفي تعقبات ابن أبي الحديد على ابن الأثير يقول:" وإذا كان الفاعل بمنزلة جزء من الكلمة لم يجز حذفه، كما لا يجوز حذف الدال من زيد، ولكنه يضمر، فتارة يرجع إلى شيء متقدم في اللفظ، كقولنا زيد قام، وتارة إلى ما يدل عليه لفظ مصرح به، وإن لم يكن المضمر راجعا إلى ذلك اللفظ، كقولهم: من كذب كان شرا له، فاسم كان مضمر دل عليه لفظ كذب، والمعنى كان الكذب شرا له... وقد تقدم أن قوة العلم بالفاعل في بعض المواضع تقوم مقام ذكره أو ذكر ما يدل عليه، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾..." [5].

ثم يذكر أبو الحديد أن الضابط في ذلك ألا يزيد ذكر الفاعل في قوة العلم به على ما يحصل من قوة العلم وهو غير مذكور، ... فإن هذا الضابط، غير معتبر في شيء من المواضع إلا في الفاعل إذا لم يذكر"[6].

---

(١) [الجمعة:١١].

(٢) [الرحمن:١٣].

(٣) [ص:٣٢].

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (٢/٢٧٧-٢٧٨).

(٥) الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (٤/٢٨٠).

(٦) ينظر: المصدر نفسه(٤/٢٨١).

والذي يجعل الباحث يذكر هذا النوع من الحذف أي: حذف الفاعل؛ هو كون الفاعل ركنا في الجملة لا يستغنى عنه، وعند حذفه من التركيب فلا بد أن يشتمل الفعل على ضمير مقدر أو ظاهر، يرجع إلى هذا المحذوف، سواء أفهم المحذوف بقرينة حالية، أم بقرينة لفظية.

وقد أشار السبكي إلى الإضمار وغرضه نقلا عن عبد اللطيف البغدادى[1] فى قوانين البلاغة الذي يقول: " والإضمار أن يسكت عن أشياء اتكالا على أن السامع يأتى بها من قبل نفسه، ويضيفها إلى التى نطق بها القائل؛ لوضوحها أو لقرينة حالية"[2].

أما العدول من عدد إلى عدد فقد أشار البلاغيون إلى بعض مواطنه، ومن ذلك تعليق الزمخشري على قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ ﴾ [مريم:٤]، فبين الغرض من توحيد العظم بدلا من جمعه، فقال: "وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها"[3].

وعلق السبكي على قول الزمخشري الآنف فقال: "يريد أنه قصد الحكم على حقيقة العظم؛ فإن الحكم عليها يستلزم الحكم على أفرادها كما ذكرنا، ولو جمع لقصد

---

(١) هو: عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة: من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والادب، ومن تصانيفه: (قوانين البلاغة) و (الإنصاف بين ابن بري وابن الخشاب) ولد في بغداد ٥٥٧، وتوفي فيها: ٦٢٩هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (٤/٦٠-٦١).

(٢) عروس الأفراح للسبكي (١/٦٠٠).

(٣) الكشاف للزمخشري (٣/٤).

الحكم على الإفراد أولا، والأول أبلغ وإليه يشير بقوله: لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، يريد أن الجمع لا يدل على الجنسية، إنما يدل على أفرادها فحيث قصد الحكم على الأفراد جمع إشارة إلى اختلاف أنواعها"[1].

وبعد هذا العرض يتبين أن البلاغيين تحدثوا عن المضمر في موضع المظهر، وذكروا ضمير الشأن والقصة، وأنه لا يأتي إلا لأمر عظيم، وزاد حبنكة من أغراضه التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان، كما تحدثوا عما لا يزيد ذكره قوة علم به، فلمّا استوى الذكر والحذف حذف؛ لما في الحذف من بلاغة أولها الإيجاز، ثم عاد الضمير إلى هذا المحذوف، كماء جاء التعريج على صلاحية عود الضمير إلى أكثر من مرجع، أو إلى غير الأقرب، وقد يعود ضمير الغائب إلى معنى اللفظ المذكور، أو إلى أحد معنييه كما هو الحال في الاستخدام، فيخالف الضمير اللفظ المذكور والذي يتبادر إلى الذهن أنه المرجع إلا أن صفات الضمير التي خالفت المرجع جعلت المتلقي يرجع الضمير إلى معنى هذا اللفظ، أما ضمير الخطاب فذكروا أن الأصل أن يكون لمعين، لكنه قد يراد به التعميم فلا يأتي لمعين، وسيأتي بإذن الله التطبيق فيما يستقبل من فصول ومباحث.

---

(١) عروس الأفراح للسبكي (١/١٩٥).

الفصل الأول : مخالفة الضمير مرجعه في النوع أو العدد في القرآن الكريم:

المبحث الأول : عود ضمير المفرد على المثنى.

المبحث الثاني : عود ضمير المفرد على الجمع

المبحث الثالث : عود ضمير المثنى على المفرد .

المبحث الرابع : عود ضمير المثنى على الجمع .

المبحث الخامس : عود ضمير الجمع على المفرد

المبحث السادس : عود ضمير الجمع على المثنى .

الفصل الأول : مخالفة الضمير مرجعه في النوع أو العدد في القرآن الكريم:

المبحث الأول : عود ضمير المفرد على المثنى.

من المعلوم أن الضمير المفرد يعود إلى مرجع مفرد، والضمير المثنى يعود إلى مرجع مثنى، وضمير الجمع يعود إلى جمع ويوافق المرجع بصفاته، وهذه هي مطابقة الضمير لمرجعه وهي ما يقتضيه الظاهر، لكن هذا الظاهر قد يخالف، وقد وجدت نصوص اشتملت على ضمائر تخالف المرجع فجاءت على خلاف مقتضى الظاهر لنكت بلاغية يكشف عنها السياق أوالتأمل، فمخالفة عدد الضمير لمرجعه قد يكون نوعا من أنواع الالتفات غير أنها لا تندرج تحت تعريفه المشهور[1] مع أن السكاكي وسع دائرة التعريف، لكن توسيعه للدائرة لم يدخله في هذا الباب، باعتبار ما ساقه السكاكي من أمثلة لا تتوافق مع هذا النوع، الذي الباحث في صدد دراسته، فالباحث يجد أن المغايرة قد تكون بين الضمير ومرجعه، وقد تكون بين الضميرين الذين مرجعهما واحد وهما متباينان في العدد ويأتي ذلك لأغراض بلاغية في الكلام البليغ، فيجد لهذا الاختلاف ست صور:

الصورة الأولى والثانية: عود ضمير المفرد على المثنى والعكس.

الصورة الثالثة والرابعة: عود ضمير المفرد إلى الجمع والعكس.

الصورة الخامسة والسادسة: عود ضمير المثنى إلى الجمع والعكس.

ويتضح من ذلك أن الباحث لا يدرس الالتفات بمفهومه لدى الجمهور ولكن يدرسه بمفهوم التلوين؛ لأن صيغة التعبير واحدة، فهي إما أن تكون من ضمير متكلم مفرد، إلى ضمير متكلمين، وهكذا في الصيغ الأخرى، أي أن الصور تندرج تحت عود ضميرين مختلفين بالعدد ومتفقين بالصيغة إلى مرجع واحد، أو أن يكون المرجع يتطلب ضميرا يوافقه في الغيبة أو التكلم أو الخطاب، فوافقه بمايحتاجه من صيغة للضمير لكنه

---

(١) ينظر تعريف الالتفات عند الجمهور والسكاكي في (ص:٥٦) من هذا البحث.

خالفه في العدد، فالاسم الظاهر يتطلب ضمير الغائب، لكن قد يعود إليه الضمير مخالفا له في العدد، فتبين بذلك أن التلوين هنا ليس فيه انتقال من صيغة إلى صيغة أخرى، بل الصيغة واحدة و المرجع يتطلب هذه الصيغة لكن لم يوافق الضمير مرجعه في العدد(١)، وأول هذه الصور هي صورة عود ضمير المفرد على المثنى، وبما أن الباحث سيدرس ذلك في كلام الله المعجز فلا بد من توفيق من الله لتدبر يكشف أسرار هذا الأسلوب الشجاع، الذي أبهر كل فصحاء عصره، مؤمنهم وكافرهم، وهو أسلوب تكلم به اللسان العربي، لكن القرآن الكريم تفنن في هذا الأسلوب وفي كل أسلوب فنال المراتب السنية، والحلل البهية. يدرك ذلك بعد أن يعرف سر عدم مطابقة الكلام لما يقتضيه الظاهر بعد النظر بالسياق والقرائن الحافة في النظم، سواء أكانت لفظية أم حالية.

وأول أغراض عود الضمير المفرد إلى المثنى ما جاء لغرض التنزيه، وذلك إذا كان الضمير عائدا إلى المتعاطفين، وهذا يقع كثيرا إذا عطف لفظ النبي ﷺ على لفظ الجلالة الله جل شأنه، فضمير الإفراد يأتي حينئذ لترسيخ العقيدة، وليلفت انتباه المتلقي إلى هذه الغاية العظمى التي بها لم يطابق الضمير مرجعه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[التوبة:٦٢]، ففي هذه الآية تقدم لفظا الله ورسوله، وهذان اللفظان بمقام التثنية، سوى أن ضمير الغائب في قوله تعالى:﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ جاء للمفرد، مع أن المتعاطفين في مقام المثنى، فلم يأت الضمير للمثنى، فخالف بذلك المألوف اللغوي لغرض بلاغي، واختلف العلماء في مرجع الضمير، فمرجعه الرسول عند ابن الشجري، لأنه الأقرب(٢)، وأجاز كثير من العلماء عوده على الاثنين لكون الطاعة واحدة؛ أو على تقدير حذف خبر إحدى الجملتين، ليبين المحذوفَ المذكورُ كما سيأتي، وقد تظافرت جهود العلماء لإبراز القيمة من وراء ذلك.

(١) يعني الباحث في لفظة العدد: المفرد أو المثنى أو الجمع.

(٢) أمالي ابن الشجري (٢/٤٥).

فعلل الزمخشري ذلك قائلا: " لأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد، من يطع الرسول فقد أطاع الله، فكأن رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما"[١].

وقال البيضاوي:" وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين"[٢].

وقد ذكر الجصاص نحو ما سبق وزاد :" وقيل: إن اسم الله تعالى لا يجمع مع اسم غيره في الكناية[٣]؛ تعظيما بإفراد الذكر"[٤].

ومثل ذلك قول النيسابوري :" وإنما لم يقل: يرضوهما تعظيما لله بالإفراد بالذكر"[٥].

ويؤيد ما ذهبا إليه ما جاء في صحيح مسلم عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ –رضي الله عنه– أَنَّ رَجُلاً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ –ﷺ– فَقَالَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– " بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ. قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" [٦].

وقال القزويني معللا ذلك: " أي والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك، ويجوز أن يكون جملة واحدة، وتوحيد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مرضي واحد"[٧].

وواضح أن القزويني يرى أنه من المحتمل أن تكون الآية مكونة من جملتين، الأولى: والله أحق أن يرضوه، والثانية: ورسوله أحق أن يرضوه، فأغنى خبر إحداهما عن الأخرى،

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/٢٠٩).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٣/٨٧).

(٣) قصد في الكناية الضمير.

(٤) أحكام القران للجصاص (٤/٣٤٨).

(٥) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٣/٤٩٦).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الجمعة،باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/٥٩٤) رقم الحديث (٨٧٠)

(٧) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (٢/١٠٤). وتبعه من المتأخرين الشيخ محمد محمد أبو موسى في كتابه خصائص التراكيب (ص: ٢٧٥).

لدلالة المذكور على المحذوف، ولا أميل إلى رأي من ذهب إلى أن هناك حذفا؛ لأن عطف الجملة على الجملة لا يتفق وفعل التفضيل بل يناقضه، لكن تفضيل الاثنين المعطوفين على غيرهما وارد كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩] فلو قيل مثلا: محمد أفضل الخلق، وعلي أفضل الخلق؛ لكان في ذلك تناقض.

ولما كان رضا رسول الله -ﷺ- لا يتحقق إلا بطاعته كان ذلك رضا لله عز وجل، ومن أجله جاء الضمير موحدا، لأن الغاية واحدة، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠] وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] وفي العطف وتوحيد الضمير شمول الضمير العائد على الله النبي -ﷺ- فيكون في ذلك غاية التعظيم.

وعلى ما يظهر من أقوال العلماء فإن توحيد الضمير جاء لغرضي تشريف النبي -ﷺ- لاشتمال ضمير الواحد عليه، وعلى الله، وهذا فضل من الله ومنة، والغرض الثاني: أن في الإفراد تنزيه لله من أن يشرك معه أحد؛ لأن العبادة لله وحده.

وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦] لأن ضمير الجمع عائد إلى لفظ الجلالة والملائكة، وليس في هذا تشريك في عبادة، بل تشريك بما فيه تعظيم للمعطوف، وفي ذلك زيادة تشريف للنبي -ﷺ- وتعظيم له، وحث لأمته على الصلاة عليه، ومن صلى الله عليه فقد أغناه عن الخلق، أما الرضا في قوله تعالى: :﴿أَن يُرْضُوهُ ﴾، فهي عبادة من الخلق يفردون بها الخالق، وإن كان رضا الرسول -ﷺ- عليهم سبب لرضا الله عز وجلّ.

وقد يكون الضمير عائدا إلى الرسول -ﷺ- وحده لقرينة لفظية، فيكون عائدا إلى الأقرب، وذلك في مثل قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا

تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال:٢٠]. فقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ فصدر الآية جاء فيها الأمر بطاعة الله ورسوله، أما الضمير بعد فعل التولي فلم يأت للمثنى، وقد سبق بمتعاطفين، والظاهر أن يعود الضمير للاثنين فيقول: عنهما، لكن توحيد الضمير جاء لغرض بلاغي، وهو أن التولي قد يكون حقيقة، وذلك بالجسد وحواسه، وقد يكون مجازا وذلك بالصدود المعنوي وعدم الاستجابة، والقرينة في كون الضمير عائدا إلى الرسول-ﷺ- هي قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ وهم لا يسمعون إلا ما يبلغهم به الرسول-ﷺ- فالطاعة لله والرسول، أما التولي فإنه حينئذ يكون عن الرسول -ﷺ- والله أعلم، لأنه لا يهدي إلا من هداه الله، وحينئذ لا يكون التولي عن الله، لأن الله يقول: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ الآية[هود:٥٦]، ويقول: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٩]. ومن هنا يظهر الغرض البلاغي أن الله له الإرادة المطلقة، ولا يناسب هذه الإرادة أن يشرك بضمير التولي، أما النبي -ﷺ- فلا يملك الإرادة المطلقة؛ ولذلك جاء الضمير عائدا إلى النبي -ﷺ- لأن التولي عنه ممكن.

ويؤيد ما ذهب إليه الباحث قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور:٥٤]، فأفردت جميع الضمائر للرسول-ﷺ- الذي باشر الدعوة، وواجه المدعوين، وأقوى قرينة في ذلك قوله: ﴿ عَلَيْهِ ﴾ وتبع هذا الضمير ضمائر الإفراد من بعده، لئلا تضطرب الضمائر في تعدد مراجعها.

ويقول أبو حيان في آية الأنفال السالفة: " وإنما عاد على الرسول لأن التولي إنما يصح في حق الرسول، بأن يعرضوا عنه، وهذا على أن يكون التولي حقيقة، وإذا عاد على الأمر كان مجازا..." [1].

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٢٩٩/٥).

وأشار الكرماني إلى أن سبب إفراد الضمير أن أمر الله أمر لرسوله -ﷺ- وأن التثنية تقتضي المماثلة، والله منزه عن المثيل والشبيه فتركت[1].

ومثل ما سبق يقال في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال:٢٤]، ففي هذه الآية قد أسند الله فعل الدعوة إلى ضمير الواحد العائد على النبي -ﷺ- لأن الاستجابة توحي بأن هناك تبليغا، وهذا التبليغ لا يكون إلا من النبي - ﷺ -ابتداء، ولذلك جاء الضمير مفردا، لأن وسيلة التبليغ الدعوة، والمبلَّغ أعطي حرية الاختيار، ولو شاء الله لأطره على الحق أطرا، أو لصرفه صرفا، أما قوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ فالاستجابة تكون لله ولرسوله؛ لذلك سبقت في التركيب لفظ الجلالة؛ لئلا تشتمل على ضمير تثنية، تعظيما لله عن التشريك، وهذا أبان أن قوله: ﴿دَعَاكُمۡ﴾ مسند إلى ضمير الرسول، والاستجابة له استجابة لله كما صدّرت الآية بذلك، فأغنى ذلك عن إسناد فعل(دعا) إلى الاثنين؛ احترازا عن اللبس الذي يضر في العقيدة.

وعلل ابن عاشور سبب توحيد الضمير قائلا: " لأن الدعاء من فعل الرسول مباشرة"[2].

ومن المواضع التي عاد فيها الضمير إلى مفرد مع أن الظاهر يستدعي التثنية، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور:٤٨]، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور:٥١]. فالملاحظ أن الفعل﴿لِيَحۡكُمَ﴾[3]، في الآيتين

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني(٤٣٧/١).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٧/٩).

(٣) وفي موضع آخر أسند الفعل يحكم إلى ضمير مفرد يصلح أن يعود إلى ثلاثة مراجع، وكان في ذلك تكثيف للمعنى، ينظر مبحث عود ضمير المفرد إلى الجمع (ص:١٣٠) من البحث.

أسند إلى ضمير الواحد العائد على النبي -ﷺ- مع أنه سبق بما يستدعي التثنية، ولعل الغرض من ذلك بيان علو مكانة النبي -ﷺ- وأن الله جعله خليفة في الأرض، يباشر الحكم بين الناس بأمر الله، وفق شرع الله، فإفراد الضمير تشريف للنبي -ﷺ- وتنزيه لله عن الإشراك، فبلغ التركيب بذلك المقصود من غير إشراك في الضمير، وقد يكون الضمير لله سبحانه وحده لكون حكم النبي -ﷺ- ليس تبعا لهوى، ولكنه تنفيذ لشرع أوحاه الله إليه، فالذي يحكم هو الله، والرسول -ﷺ- ينفذ.

قال الرازي:" وأفرد الضمير في ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ بينهم وقد تقدم قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لأن حكم الرسول هو عن الله"(١).

وأضاف أبو السعود لمسات بلاغية فقال:" لأنه المباشر حقيقة للحكم، وإن كان ذلك حكم الله حقيقة، وذكر الله تعالى لتفخيمه -ﷺ- والإيذان بجلالة محله عنده تعالى"(٢).

ولما كانت الخشية والتقوى من أنواع العبادات التي يفرد بها العباد خالقهم، لكونهما لا تكونان إلا لله، فقد جاء الإظهار في موضع الإضمار منعا للبس؛ لأن الأمر يدخل في عبادة والعبادة لا تكون إلا لله وحده، فقال الله تعالى:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾ [النور:٥٢] فالطاعة لله ورسوله، أما الخشية والتقوى فليستا إلا لله، لأنهما عملان قلبيان لا يطلع إليهما إلا الله سبحانه، فامتنع لهذا الغرض العقائدي ضمير التثنية، وجاء ضمير الإفراد خشية أن يلتبس على المتلقي مرجعه.

ومما يشدّ انتباه القارئ هذا التركيب البديع، الذي تحصن عن كل لبس، وتفنن بأبدع أسلوب، فقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٦١/٨).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٨٦/٦)

ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة:٥٩]، ففعل الإيتاء مسند إلى الله ورسوله، ولما زادت كلمة ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فصل الجار والمجرور المتعاطفين، ففصل لفظة ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ عن المعطوف عليه، لأن الرسول وإن باشر العطاء مما رزقه الله غير أن هذا العطاء هو من فضل الله وحده.

وتفصيل هذه الآية أن الفعل﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ أسند إلى اثنين، والفعل ﴿حَسۡبُنَا﴾ أسند إلى فاعل وهو لفظ الجلالة، وفعل ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ أسند إلى اثنين بعد فصل بينهما. فالفعل أسند إلى الله وحده لأنه لا يملك الحسْب إلا الله؛ لأن ذلك يحتاج إلى علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ كي يؤتي المكفي خيرا، ويكفيه شرا غفل عن بابه، ولم يسند هذا الفعل إلى الرسول -ﷺ- لأن الرسول بحاجة كفاية الله له؛ لعدم قوته الخارقة، ولانعدام علمه بالغيب إلا ما أطلعه الله إليه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال:٦٤].

والضمير في قوله: ﴿فَضۡلِهِۦ﴾ عائد إلى الله، مع أن الفعل ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ مسند إلى الله والرسول، والغرض البلاغي من إفراد الضمير هو أن الفضل من الله وحده، والنبي - ﷺ - يؤتي مما آتاه الله، فهو قاسم، والفضل من الله حقيقة، وممن سواه مجاز، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ مَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ، إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ"(١).

ومن مواطن مجيء ضمير الإفراد عائدا إلى مثنى ما في قوله تعالى: ﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الكهف:٣٣] وسبق في التمهيد

(١) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني للرسول قسم ذلك قال رسول الله -ﷺ- إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي (ص:٧٦٨) رقم الحديث: ٣١١٧.

في المطلب الثاني كلام النحويين عن كلا وكلتا، حول كونهما مفردين لفظا مثنيين معنى، وممن قال بأن كلا وكلتا مفردة الفارسي[1]، أو مثنيين لفظا ومعنى، وممن قال بأن كلا وكلتا مثنيتان الفراء[2]، ولكل فريق حججه كما سطر بعض ذلك في التمهيد[3]، ومن البلاغيين الذين تناولوا ذلك السكاكي في قوله:"كل واحد من كلا وكلتا عندنا مثنى معنى، مفرد لفظا، فالألف فيهما غير ألف التثنية؛ خلافا للكوفيين -رحمهم الله- بدليل عود الضمير إليهما تارة مثنى حملا على المعنى، كقوله: كلاهما حين جد الجري بينهما قد أقلعا[4]، وكما حكي عن بعض العرب من قوله: كلاهما قائمان وكلتاهما لقيتهما، وأخرى كثيراً مفردا حملا على اللفظ كقوله: كلا أخوينا ذو رحال..." [5].

وقد روى البغدادي توجيها لعود الضمير على كلا وكلتا تارة مفردا، وتارة مثنى فذكر:" أنه لما كان فيهما إفراد لفظي وتثنية معنوية، وكانا تارة يضافان إلى المظهر وتارة إلى المضمر، جعلوا لهما حظا من حالة الإفراد وحظا من حالة التثنية. وإنما جعلوهما مع

(١) ينظر: المسائل الشيرازيات لأبي علي الفارسي (٤١١/١).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (١٤٢/٢).

(٣) ينظر: المطلب الثاني حيث تكلم النحويون عن كلا وكلتا (ص: ٥٠) وما بعدها.

(٤) الشاهد شطر بيت وجزء من الشطر الثاني، والبيت من شواهد الخصائص لابن جني (٣١٧/٣)، وعزاه إلى الفرزدق، ومن شواهد همع الهوامع (١٥٣/١) من غير عزو، ومن شواهد الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين لأبي البركات الأنباري من غير عزو (٣٦٥/٢)، ولم يجده الباحث في ديوان الفرزدق: ديوان الفرزدق، شرح: مجيد طراد. وتتمته عند بعض من استشهدوا به:

كِلاهُمَا حِينَ جَدَّ الجرْيُ بيْنَهُما قدْ أقْلَعَا وكِلا أنْفَيْهِما رَابِي

فأسند الفعل أقلع إلى الاثنين مراعاة لمعنى كلا، وأفرد رابي، والأصل أن يقول: رابيان، مراعاة للفظها، وقد يكون في ذلك ضرورة شعرية لكونها قافية، ويأتي مراعاة اللفظ في كلام البليغ لغرض بليغ، ومرت أمثلته، ومنه ما في آية الكهف، في كلام أبلغ البلغاء.

(٥) مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ١٥٢).

الإضافة إلى المظهر بمنزلة المفرد لأن المفرد هو الأصل؛ وجعلوهما مع الإضافة إلى المضمر بمنزلة التثنية؛ لأن المضمر فرع، والتثنية فرع، فكان الفرع أولى بالفرع"[1].

وهذا القول يأخذ الباحث لو سلم به إلى القول بأن الداعي لمراعاة المعنى إذا أضيفت كلا وكلتا إلى الضمير هو المشاكلة في المعنى وهي أسلوب بديعي.

ويرى بعض اللغويين والمفسرين أن سبب مجيء الضمير مفردا في قوله: ﴿ءَاتَتْ﴾ هو الحمل على اللفظ؛ لأن كلتا لفظه لفظ مفرد، ولو قيل آتتا على المعنى لجاز[2].

لكن الذي يراه الباحث أن الجنتين لما تماثلتا شكلا وإنتاجا كانتا بمثابة الجنة الواحدة بقرينة:﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف:٣٢]، فالزرع وصل الجنتين بعضهما ببعض، فصارتا جنة واحدة في عين الناظر، فعاد الضمير عليهما مفردا، واختلاط الجنتين وانعدام اليابسة بينهما أبلغ في وصفهما على أبهى هيأة وأتمها، ولذلك وحّد الجنة لحظة الدخول فقال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الكهف:٣٥] وذكر ابن عاشور أن الله "أفرد الجنة هنا وهما جنتان لأن الدخول إنما يكون لإحداها"[3]، والباحث يرى مع احتمال ما ذكره ابن عاشور، إلا أن الفعل الذي صدّرت به الآية هو الفعل الماضي، والفعل الماضي قد يصدق فيه الدخول على الجنتين لأنه زمن مضى ولا يلزم منه أن يكون الدخول في آن واحد، بخلاف الحاضر، ولكن لعل البلاغة في ذلك لأن الجنتين صارتا جنة واحدة فاختلطت ثمارها، واكتملت النعمة، ويأتي الإفراد مرة أخرى بعد هلاك الجنة، عقوبة من الله لصاحبها المتكبر فقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ

(١) خزانة الأدب للبغدادي ((١٣٢/١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٦٢/١٢)، وأسرار العربية لابن الأنباري (ص:٢١٠)، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٥٧/١)، والخصائص لابن جني (٣٣٨/٣) و مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٢٩٩)، ومعاني القرآن للفراء (١٤٢/٢).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٧/١٥).

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف:٤٢] فلما أصبح الدمار شاملا، واختلطت الجنتان بالهلاك، وأصبح الشكل واحدا، والدمار مختلطا، وهلاك الثمر الذي تعب من أجله عاما، عاد الضمير إلى الجنتين مفردا؛ لما بينهما من تخالط لا يفرق بينهما ناظر، فرسم الإفراد صورة الجنتين وقت تمام النعمة، وصورة الجنتين بعد الهلاك؛ فقال: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾، وضمير الإفراد هنا لا يعود على إحدى الجنتين، بل على كلا الجنتين، وهذا يقوي ما ذهب إليه الباحث، فلو بقيت له إحدى الجنتين لما بلغت به شدة الحسرة هذا المبلغ، وبذلك تمر الجنتان بصورتين؛ الأولى: التماثل في الشكل والإنتاج حتى اختلطتا، فكانت كالجنة الواحدة، والصورة الثانية: صورة الدمار الشامل، والاختلاط المهلك، الذي جعل الجنتين تختلطان في الحدود و الشكل والنتيجة المرة، ومن خلال هاتين الصورتين المتضادتين النابعتين من ضمير الإفراد حينما عاد إلى مثنى، والتي يدرك بها المتلقي بلاغة هذا الكلام المعجز.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٠] فلما كانت الآية واحدة؛ لأنها حمل من غير أن يمسها بشر، وولدت ولدا ليس له أب، أفردت لفظة (آية) ولم تثن لأن الحادثة واحدة. وذكر ابن عاشور أن هذه الآية التي تشير إلى تكوين نبي الله فيها تسفيه لليهود:" فإن ما جعله الله آية لها ولابنها، جعلوه مطعنا ومغمزا فيهما"(١).لكن لو كانت الآيتين منفصلتان كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ ﴾ [الإسراء:١٢] لكان ذلك داعيا إلى التثنية، لكن مجيء آية الليل مؤذن بزوال آية النهار والعكس.

ومن المواضع التي جاء ضمير الإفراد عائدا فيها إلى معطوف ومعطوف عليه، وظاهر السياق أن يأتي الضمير مثنى؛ ليعود إلى الاثنين، حسب الأشهر من قواعد اللغة، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨/٥٥).

شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[الأنعام:٩٩]، فقد أضيف الثمر والإيناع إلى ضمير الواحد، مع أنه مسبوق بما يرشح الإضافة إلى ضمير الاثنين، فقال:﴿ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ و﴿ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ ولم يثن الضمير فيقول: ثمرهما وينعهما، مع أنهما مسبوقان بقوله: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾، والبلاغة في إفراد الضمير – والله أعلم – لأنه يبعث على التفكر في عظيم قدرة الله، بإرجاع الضمير إلى أصل كل نبات، سواء أكان نخيلا أم أعنابا أم زيتونا أم رمانا، وهو (الخَضِر) الذي قال الله فيه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ الذي منه جاءت الأشجار مختلفة ومتشابهة في الشكل والثمر. والذي يذهب إليه الباحث أن هذا من باب رجوع الضمير إلى غير الأقرب في هذه الآية(١)، والذي حمل الباحث على ذكره في هذا الباب – وسيذكره في بابه إن شاء الله – توجيهات العلماء الأفذاذ –رحمهم الله– كما سيأتي، الذين جعلوه من باب عود ضمير الإفراد على المثنى كما فهم الباحث من آرائهم، لكن الباحث يرى أن الضمير عائد إلى﴿ خَضِرًا ﴾؛ للفت الأنظار إلى التأمل في أصل كل نبات، ولأن هذا المرجع يوجب التعجب بعد التأمل، وللمتأمل أن يعظم هذه القدرة، قال الله تعالى:﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ [الآية،الأنعام:٩٩]. في جميع مراحله من النشأة إلى الاستواء، وفي موطن آخر قال: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ ﴾ [الآية،الأنعام:١٤١]، وهذا بعد الاستواء والنضوج، وقدم في السورة التفكر لأنه من أعظم العبادات، وأما النعمة فمن المعين على العبادة، ويحصل به عبادة التفكر في تباين طعم الثمار ومذاقه.

---

(١) ينظر تحليل هذه الآية في مبحث عود الضمير إلى غير الأقرب (ص: ٥٤٣).

والدليل على أن الضمير عائد إلى أصل النشأة توافق سياق هذه الآية ومعناها مع سياق الآية التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام:٩٨] فإظهار القدرة العظيمة يظهر بين نظرتين؛ الأولى أصل النشأة، والثانية اكتمال الاستواء، فهي نظرة متدبرة بين البداية والنهاية، وما بينهما من أطوار النشأة حتى التمام، فكما أن هؤلاء الناس المتشابهون والمختلفون شكلا وتكوينا هم من نسل آدم -عليه السلام- الذي خلق من طين، فكذلك هذه الأشجار المختلفة والمتشابهة شكلا وإنتاجا هي من ذلك الخَضِر الذي منه خرج الحب المتراكب، ثم النبات المتباين والمتشابه، فالبداية والاكتمال يُظهر للمتأمل بديع صنع الخالق، وقدرته المتناهية، الدالة على عظمته في كون الأصل واحد، والأشكال منه بين تشابه واختلاف، فبدأت الدعوة إلى التأمل بالإنسان نفسه؛ لأن ذات كل إنسان أقرب إليه مما هو منفصل عنه، ثم إلى أصل مايرى من نبات كيف آل إلى ما آل إليه؛ لأن هذا مشهد منعزل عن ذاته، فهذا التأويل لضمير الإفراد أدل على القدرة، فسبحان من هذا صنعه.

وللعلماء في الضمير توجيه فقال الألوسي:" ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي ثمر ذلك، أي: الزيتون والرمان، والمراد شجرتها، وأريد بهما فيما سبق الثمرة، ففي الكلام استخدام"(١).

وروى الرازي، والنيسابوري، وابن عادل، والألوسي، عن الفراء في قوله تعالى : ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ أنه قال: يريد شجر الزيتون ، وشجر الرمان على تقدير مضاف محذوف(٢)، قال الألوسي: "وحينئذ لا استخدام، وأيا ما كان فالضمير راجع إليهما

---

(١) روح المعاني للألوسي (٤/٢٢٦).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٣/٨٦)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٨/٣٢٧)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري(٣/١٢٩)، وروح المعاني للألوسي (٤/٢٢٦).

بتأويله باسم الإشارة. ورجوعه إلى كل واحد منهما على سبيل البدل بعيد لا نظير له في عدم تعيين مرجع الضمير"[1].

ولعل ذكر الفراء هذا المضاف المحذوف يفهم منه أن ضمير الغائب عائد إلى جمع غير العقلاء، لأنه يعامل معاملة المفرد.

ومما يقوي ما ذهب إليه الباحث في كون الضمير عائدا إلى الخضر الذي يخرج منه الحب المتراكب ثم النخل والزرع وجميع الأشجار ما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾[الآية، يس:٣٣- ٣٥]، فحياة الأرض بإخراج الحب منها وهذا الحب علم فيما سبق أنه من الخَضِر، ومن هذا الحَبِّ نأكل، ومنه نشأت جنات من نخيل وأعناب، فالأصل في ذلك كله الخَضِر.

ومثل ذلك جاء في السورة نفسها، في آية أخرى بعد أن علم في الآية السابقة أن كل النبات خلق من ذلك الخَضِر، فجاء ضمير المفرد عائدا إليه، وظاهر السياق أنه عائد إلى المذكورين قبله وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام:١٤١]، فأفرد الضمير في كل من قوله: ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾ و﴿ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ و﴿ حَقَّهُۥ ﴾ و﴿ حَصَادِهِۦ ﴾ وجميع هذه الضمائر مسبوقة بمعطوفين، ولم يأت الضمير لهما مثنى بل جاء على الإفراد، وهذا العدول يحتاج إلى سبر لمعرفة بلاغة ذلك، لأن مخالفة الأشهر لا تأتي في الكلام البليغ إلا لغرض يشف عنه السياق الخاص أو العام، ولمعرفة ذلك فسيقف الباحث على أقوال العلماء في ذلك.

---

(١) روح المعاني للألوسي (٢٢٦/٤).

فقال الزمخشري في الضمير في قوله:﴿ أُكُلُهُۥ ﴾:" والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه، لكونه معطوفا عليه"[(١)].

ويستشف الرازي غرضا من توحيد الضمير فيقول:" وأما توحيد الضمير في قوله: ﴿ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ فالسبب فيه: أنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما جميعا"[(٢)].

أما أبو حيان فقد تعقب كلام الزمخشري الآنف، وجعل الضمير عائدا على الأقرب، فقال:" والضمير في ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾ عائد على النخل والزرع، وأفرد لدخوله في حكمه بالعطفية، قال معناه الزمخشري وليس بجيد؛ لأن العطف بالواو لا يجوز إفراد ضمير المتعاطفين. وقال الحوفي[(٣)]: والهاء في أكله عائدة على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشآت انتهى... والظاهر عوده على أقرب مذكور، وهو الزرع، ويكون قد حذفت حال النخل لدلالة هذه الحال عليها، التقدير: والنخل مختلفا أكله، والزرع مختلفا أكله"[(٤)].

وتابعه في بعض قوله ابن عادل، قائلا:" والضمير في ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾ الظاهر أنه يعود على الزرع فقط، إما لأنه حذف حالا من النخل؛ لدلالة هذه عليها، تقديره: والنخل مختلفا أكله، والزرع مختلفا أكله، وإما لأن الزرع هو الظاهر فيه الاختلاف

---

(١) الكشاف للزمخشري (٧٢/٢).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٦٣/١٣).

(٣) الحوفي: هو علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي، النحوي، الإمام، المقدم في النحو والتفسير والعربية، أخذ عن جماعة من علماء المغرب قدموا مصر، وأخذ عن أبي بكر الأدفوي، وكان نحويا قارئا. صنف: البرهان في تفسير القرآن، علوم القرآن، الموضح في النحو.ومات مستهل ذي الحجة سنة ثلاثين وأربعمائة. ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (ص:١٩٨)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١٤٠/٢).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٦٦٧/٤)، وينظر: قول الزمخشري في الكشاف للزمخشري (٧٢/٢).

بالنسبة إلى المأكول منه، كالقمح والشعير والفول والحمص والعدس وغير ذلك. وقيل: إنها تعود عليهما" (١).

وقال البيضاوي:" والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه، يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم، ولا يتشابه بعضها. ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك"(٢).

أما الضمير الآخر فقال فيه الرازي: "الضمير في قوله: ﴿ حَصَادِهِۦ ﴾ يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وذلك هو الزيتون والرمان، فوجب أن يكون الضمير عائدا إليه"(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ حَقَّهُۥ ﴾ فقد تكون من باب المجاز المرسل، فتكون كما ذكر ابن عاشور أن الحق أضيف إلى ضمير المذكور لأدنى ملابسة، أي الحق الكائن فيه (٤).

ويلاحظ أن إفراد الضمير الذي يضاف إليه لفظة (ثمر) ملازم لهذه اللفظة في جميع مواطنها في القرآن الكريم، رغم مجيء الضمير بعد مذكورين، كما في الموطنين السابقين، أما الموطن الثالث ففي قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس:٣٣-٣٥] ولعل هذا الضمير المفرد يعود كما ذكر الباحث سابقا إلى الحب في قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ وهذا الحب مخرجه من الخَضِر، كما سبق في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤٦٨/٨) .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١٨٥/٢).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (١٦٤/١٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٠/٧).

مُتَرَاكِبًا ﴾ وذلك كإعادة خلق الإنسان من عجب الذنب، وقد صار رميما، وهذا – والله أعلم –من باب عود الضمير على غير الأقرب كما يرى الباحث، وللعلماء أقوال غير هذا، ذكر بعضها فيما سلف.

وجوز الألوسي رجوع الضمير إلى جميع ما تقدم بالتأويل المذكور؛ ليشمل النخل وغيره مما يثمر"(١).

وجاء ضمير المفرد وقد سبقه معطوف ومعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥] فقال جلّ شأنه: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾، ولم يقل: وإنهما، وذلك أنه لما كانت الصلاة تشتمل على كثير من العبادات، وكان الصبر جزءا منها، عاد الضمير إلى العام، من باب الإيجاز، والصبر جزء منها، وهي سبب له، وهي الحصن من كل شر بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ففي الصلاة صبر على القضاء، وعلى العبادة، وعن المعاصي، ولذلك جاء ضمير الإفراد عائدا إلى أقرب المذكورين وهي الصلاة؛ تعظيما لشأنها، وإجلالا لقدرها. قَالَ حُذَيْفَةُ: " كَانَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى "(٢).

يضاف إلى ذلك ما أشار إليه ابن عاشور حيث ألمح إلى أن الضمير عاد إلى الصلاة تمهيدا للثناء على المؤمنين، وتعريضا باليهود(٣)، فهي كبيرة والكبير يتطلب الصبر، وذلك ما حققه الخاشعون.

والعلماء لديهم أقوال في عود الضمير مفردا، فأبو عبيدة يجعل الإفراد اقتصارا على أحد هذين الاسمين، وهو من كلام العرب(٤)، وابن قتيبة يرى أن الضمير منسوبا إلى

(١) روح المعاني للألوسي (٢٢٢/٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٣٠/٣٨) رقم الحديث: ٢٣٢٩٩. وضعفه المحقق.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٦٥/١).

(٤) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣٩/١).

أحدهما وهو لهما[1]، ورأى الثعلبي أنه كناية عن الأغلب[2]، ومنهم من ذكر له أكثر من احتمال فهو عنده قد يعود إلى الصلاة، أو الاستعانة لدلالة الفعل، أو القبلة لدلالة الصلاة عليها[3]، ومنهم من يرجعه إلى الصلاة لأنها أقرب مذكور، ومنهم من يعيدها إلى المعنى على التثنية وحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وقيل غير ذلك [4]. وعده ابن قتيبة شاهدا على اجتماع شيئين فيجعل الفعل لأحدهما، أو تنسبه إلى أحدهما، وهو لهما[5].

ويذكر الألوسي رأيه مبينا بلاغة ذلك فيقول:" الضمير للصلاة- كما يقتضيه الظاهر، وتخصيصها- برد الضمير إليها- لعظم شأنها واستجماعها ضروبا من الصبر"[6].

وبعد أن ذكر الشيخ الشنقيطي الأقوال في عود الضمير رجح عوده إلى الصلاة فقال: " والتحقيق: أنه راجع إلى الصلاة ... والظاهر أن الضمير إنما رجع لأحد المتعاطفين اكتفاء به عن الآخر؛ لأن مثل ذلك يفهم في الآخر، وهذا يكثر في القرآن، وفي كلام العرب"[7].

وبذلك يتبين أن عود الضمير إلى الصلاة لكونها أعم وأهم، ولمزيد تشريف وتعظيم، مع إرادة الصبر ضمنا، وفيها تعريض باليهود، وثناء على الخاشعين من المؤمنين.

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٧٦) .

(٢) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (١/١٨٨).

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (١/٥٩)، وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٤٦٣).

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/١٢٨)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٢٩٩).

(٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٧٦).

(٦) روح المعاني للألوسي (١/٢٥٠).

(٧) العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير لمحمد الأمين الشنقيطي (١/٤٨).

ويوحد الضمير بعد مذكورين ليس للتَّفْضيل ولكن لأن القدرة فيما عاد إليه الضمير أظهر، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس:٥]، فالملاحظ في هذه الآية تقدم الشمس والقمر، ثم عود الضمير إلى القمر دون الشمس، فقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ فهو الأقرب، والضمير مذكر؛ فكان صالحا لعوده إلى القمر دون الشمس المؤنثة، وفي توحيد الضمير ما ليس في التثنية، وذلك لأن معرفة السنين والحساب مرتبط بالقمر، فبالأهلة تعرف بداية الأشهر، وبالأشهر تعرف السنين، أما الشمس فيعرف بها اليوم وأوقاته، فلذلك عاد الضمير إلى القمر، مع أن الشمس أعظم حجما، والقمر مفتقر إليها؛ وبحركتها تكون الفصول الأربعة، ولكن لما كان تغير القمر أمام ناظري كل إنسان من غير مزيد تأمل أظهر لبيان القدرة، ولتحصل البلاغة بمخاطبة المتلقي بما هو له أبين، جاء الضمير عائدا إليه دون الشمس، التي عظمت بصفات لا ينكشف للبعض إلا بعضها.

يقول ابن خالويه:" فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ وكلاهما مقدّر؟ فقل: لما كان انقضاء الشهور والسنة، وحسابهما بالقمر معلوما كان لذلك مقدّرا، ويجوز أن يكون أرادهما فاجتزأ بأحدهما من الآخر"[(١)].

ويذكر ابن عادل أن الضمير يعود إلى القمر وحده مع إيراده للأقوال الأخرى ويعلل رأيه بقوله :" لأنه هو عمدة العرب في تواريخهم...هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدرهما"[(٢)].

ويذكر الرازي أن في القمر منافع دينية ودنيوية، فمما يعرف بالأشهر الصوم، والحج، والرضاعة، والعدة، والمواعيد، والعقود، والمداينات، والأجارات، وغيرها، وقد

(١) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ص: ١٨٠).

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٠/٢٦٧).

تعرف بحركة الشمس ومعرفة الأيام؛ إلا أن إحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام؛ لأن الأهلة اثنا عشر شهرا، والأيام كثيرة(١).

ويضيف في موطن آخر أن ضمير الإفراد قد يكون للإيجاز، ويراد به الشمس والقمر، أو للقمر وحده؛ لأن السنة تعرف بالأشهر القمرية كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٦](٢).

وبذلك يكون الراجح عنده أن الضمير للاثنين؛ لأن الشمس والقمر لهما منازل، وفيهما يعرف الحساب، ولكن الحساب بحركة القمر أيسر وأضبط، فلذلك جاء الضمير عائدا إليه، والله أعلم.

وقد يعود الضمير المفرد على المثنى لصدور الفعل منه، في مثل قوله تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ ﴾ [طه:١١٧]، لأن المسؤلية ستكون على عاتقك فتحملها يشقيك.

فالفعل يخرج أسند إلى ضمير الاثنين، العائد إلى آدم –عليه السلام– وزوجه؛ لأن الخروج مصير الاثنين، غير أن هذا الإسناد اختلف في الفعل الذي يليه، حيث أسند الفعل (تشقى) إلى ضمير الواحد، فعاد المسند إليه إلى آدم عليه السلام؛ لأن النداء من الله لآدم، فقامت عليه الحجة بذلك، ثم هو القدوة والسيد على أهله، وهو الذي سيتحمل تبعات فعله لأن زوجه تبع له، ومسؤول عنها، فالشقاوة به ألصق، ولأن أكله من الشجرة كان سببا لأكل زوجه لأنه القدوة وأحي إليه ولم يوح إلى زوجته، فكان عليه أن يتحمل ما يترتب على ذلك من مشقة وعناء، لذلك والله أعلم أسند الفعل إلى ضمير الواحد، مع أن الشقاوة واقعة عليهما جميعا.

وقد أجاب الرازي عن علة مجيء الفعل مسندا إلى الضمير المفرد فقال: "أحدها أن الرجل هو قيم أهله وأميرهم، فشقاؤه يتضمن شقاؤهم، كما أن سعادته تتضمن

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٨٣/٥-١٨٤).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٢٠٩/١٧).

سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمنًا له، الثاني: أنه إنما أسنده إليه دونهما للمحافظة على الفاصلة، الثالث: أنه أراد بالشقاء الشقاء في طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة"(١).

وأضاف القيرواني سببا آخر فقال: "لأنه خطاب له ولزوجته، إلا أنه اكتفى بذكره عن ذكرها، لأن أمرها في السبب واحد فاستوى حكمهما في استواء العلة"(٢).

فتبين أن البلاغة تكمن في الإيجاز وما يتبعها من محسن بديعي متمثل في الفاصلة وأثرها في الجرس الجاذب للأسماع.

ويستمر الإسناد إلى ضمير الواحد مع أنهما اثنان في الأفعال: ﴿ تَجُوعَ ، تَعْرَىٰ ، تَظْمَؤُا۟ ، تَضْحَىٰ ﴾ مع أن هذه الأفعال جاءت للاثنين نفيا أو إثباتا، في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه:١١٧-١٢١].

يلاحظ تنوع أسلوب التحذير مرة بإسناد الفعل إلى ضمير الاثنين، ومرات بإسناد الفعل إلى ضمير الواحد، مع أن الآخر داخل في العاقبة، وذلك أبلغ بتحذيرهما وإقامة الحجة عليهما، ولعل إسناد الفعل إلى الضمير العائد على آدم عليه السلام سببه أن آدم هو المخاطب المباشر بالتحذير، وإسناد الشقاوة إلى ضميره أبلغ في زيادة تحذيره، والتأكيد عليه، وبحذره سيبلغ الحذر زوجه، لكونه القدوة الذي ستقتدي زوجه بأفعاله.

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص:٣٣٠).

(٢) النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني (ص: ٣٢٥).

ومن هذا الباب الذي ظاهره أن يأتي الضمير على التثنية لأن مرجعه اثنان، لكنه خالف الظاهر، وعاد لأحد الاثنين لغرض بلاغي، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف:٢٥]، فالمستبقان هما يوسف الهارب عن الجريمة، وامرأة العزيز التي تريده للفاحشة، والأفعال التي أسندت إلى ضميرهما، هي: ﴿ وَٱسْتَبَقَا، وَأَلْفَيَا ﴾ بينما يرى لفظة سيد أضيفت إلى الضمير العائد إلى امرأة العزيز، مع أن العزيز سيد للاثنين بقرينة قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف:٢٣]، والبلاغة تكمن وراء هذه المفاجأة التي تمس عرض العزيز، وتدعوه إلى الانحياز إلى زوجته، ومن هنا يأتي الضمير لغرض لطيف، يشير به إلى ما يعقب الحدث من حكم جائر على يوسف رغم براهين براءته؛ وتبرئة لامرأة العزيز رغم ثبوت جريمتها؛ لأن ضميرها قربها من العزيز، وأبعد يوسف ليكون السجين البريء، وقد يكون في إضافة السيد إلى ضميرها دون ضمير يوسف تنزيه من الله ليوسف لكونه ليس عبدا للعزيز، بل عبدا لله، فيكون ذلك تشريفا له، إلا أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ لا يعاضد هذا الميل.

وهذا القول الأخير أشار إليه الرازي بقوله:" وإنما لم يقل: سيدهما؛ لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكا لذلك الرجل في الحقيقة"[(١)].

وإلى هذا القول ذهب الكرماني[(٢)]، وأبو السعود[(٣)]، وغيرهم، وروى السيوطي عن الواسطي[(٤)]، أن السيد الزوج بلسان القبط، قال أبو عمرو لا أعرفها في لغة العرب[(١)].

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٨/٤٤٥).

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١/٥٣٣).

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٤/٢٦٧)

(٤) هو أبو بكر الواسطي، ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، ونسب له كتاب الإرشاد في القراءات العشر ينظر: (٢/١٢٢)، ونُسب الكتاب لأبي العز الواسطي القلانسي في =

ومن مواطن إفراد ما حقه التثنية في الظاهر قوله تعالى: ﴿رَسُولُ﴾ في قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء:١٦]، مع أن المتحدث عنهما اثنان، هما موسى وهارون عليهما السلام؛ ولعل سبب إفراد رسول هو لاتحاد هدفهما ومنهجهما ومصدرهما، وليكونا قدوة لفرعون بفعلهما ولفظهما، فأفردا لإفراد هدفهما.

قال الزمخشري:" فإن قلت: هلّا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾(٢)؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثَمّ بمعنى المرسل؛ فلم يكن بد من تثنيته، وجعل هاهنا بمعنى الرسالة؛ فجاز التسوية فيه- إذا وصف به- بين الواحد والتثنية والجمع، كما يفعل بالصفة بالمصادر"(٣).

ولكن مع قول الزمخشري بالجواز فلا بد للباحث أن يستشف السر من وراء مجيء هذا العدول في موضع دون غيره، والقول بالجواز لا يكفي؛ لأن اختيار الكلمة المناسبة في موضع من القرآن وترك مرادفها أو ما هو في الظاهر ألصق به ينبئ عن سر لطيف، لا يتأتى لو استبدل باللفظة غيرها.

ولعل من الأسرار ما ذكره الرازي توجيها لهذا التغاير في إفراد لفظة (رسول) وتثنيتها فقال في أجوبته: الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته، ويكون بمعنى الرسالة التى هى المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر... الثاني: أنهما لاتفاقهما في الأخوة والشريعة والرسالة جعلا كنفس واحدة، الثالث: أن

=

هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري لعبد الفتاح بن السيد عجمي المصري الشافعي (٧٥١/٢) .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٣٥/٢).

(٢) [طه:٤٧].

(٣) الكشاف للزمخشري (٣٠٤/٣).

تقديره: أن كل واحد منا رسول رب العالمين، الرابع: أن موسى - عليه الصلاة والسلام -كان الأصل، وهارون - عليه الصلاة والسلام- كان تبعاً له، فأفرد إشارة إلى ذلك[1].

فهذا الإفراد للفظة رسول في هذا الموضع لا يتناسب وموضع آخر في سورة طه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ٤٧ ﴾ [طه:٤٧]. فكلمة رسول تأتي للمفرد والمثنى والجمع، ككلمة ضيف، وبشر وغيرها[2]، ومع ذلك فلماذا اختصت سورة الشعراء بالإفراد، وسورة طه بالتثنية؟

ولعل الجواب عن ذلك يكمن في كون سورة طه سابقة في النزول سورةَ الشعراء[3]، فجاءت التثنية مطابقة لمقتضى الظاهر، فلما نزلت سورة الشعراء جاء الإفراد لامتناع اللبس، وثقة من المتكلم بأن السامع على يقين بأنهما رسولان؛ لسبق الخبر في ذلك في سورة طه، فجاء التفسير في سورة الشعراء بإفراد كلمة رسول؛ لئلا يتوهم متوهم أن لكل رسول منهاجا وهدفا يتباين عن هدف الآخر، بل الشرعة واحدة، والدعوة واحدة، وهارون لموسى مؤازر.

أما في سورة الزخرف فجاء الإفراد مطابقا لمقتضى الظاهر، وذلك لأن المتحدث عنه موسى -عليه السلام- وحده فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٦ ﴾ [الزخرف:٤٦]. ويتضح من آية سورة الشعراء أن إفراد (رسول) فيه بيان مؤازرة هارون لموسى وأن موسى هو النبي، وفيها تمهيد لما سيأتي في آية سورة الزخرف من إفراد للفظة (رسول) لكون المتحدث عنه موسى -عليه السلام- وحده.

---

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ٣٦٨-٣٦٩) .

(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣١٦).

(٣) ينظر: الفهرست لابن النديم (ص:٤٢-٤٣) والإتقان للسيوطي (ص٣٩-٤١) .

وهذا الأسلوب ظاهر في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام:٧٤] فصرح الله باسم الأب المقصود في هذه الآية فقط، ولم يذكر بعد ذلك إلا بلفظة أبيه لكونه أصبح معلوما[١].

وقد يأتي الأسلوب عكس ذلك فيبدأ بالتنكير، ثم يعرفه في موطن آخر من سورة أخرى، ومن ذلك أن أول ذكر لشجرة الزقوم جاء في سورة الواقعة فقال تعالى: ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة:٥٢]، فجاءت نكرة في أول الأمر؛ لأنها لم تكن معروفة، كما ذكر ابن سيده والفراهيدي[٢]، فلما جاءت في سورة الصافات جاءت معرفة بالإضافة؛ لأنها أصبحت معلومة لديهم، فسورة الواقعة نزلت قبل سورة الصافات، وسورة الدخان[٣].

---

(١) ومواطن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء:٥٢]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء:٧٠]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الصافات:٨٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف:٢٦]، وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤].

(٢) ينظر: المخصص لابن سيده، السفر الخامس، باب: السُّكّر (٤٤٧/١)، وكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، اب القاف والزاي والميم معهما ق ز م، ز ق م، م ز ق مستعملات، مادة: زقم (٩٤/٥).

(٣) ينظر: الفهرست لابن النديم (ص: ٤٢-٤٣)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١٩٣/١)، و الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٥١/١) و (٥٥/١).

وفي موضع أخر نجد قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه:٦٦] حيث ذكرت الحبال والعصي وقال: يخيل.

ففي الآية أسند التخييل إلى ضمير مفرد، مع أن مرجعه الحبال والعصي ولفظهما اثنان، ومعنى كل واحد منهما جمع، فلم يقل: يخيلان، ولعل الداعي إلى ذلك هو اتحاد جنس ما آلت إليه الحبال والعصي، حيث آلت إلى جنس واحد تلقفه عصا موسى، ولذلك تتابعت الضمائر على هذا النحو في قوله تعالى:﴿ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾، أو لأن جمع غير العاقل يعود عليه ضمير الغائب مفردا، والأول أبلغ.

ولم يقل: إليهم، بل جاء الضمير لموسى - عليه السلام- وحده مع أن المشاهدين كثر، سواء أكان فرعون وجنده وسحرته، أم موسى وهارون وقومهما.

ولعل البلاغة في عدم قوله: يخيل إليهم: لأن السحرة وفرعون وقومه يعلمون حقيقة فعلهم، وأنه تخييل للطرف الآخر، ولما كان الطرف الآخر موسى وهارون وقومهما، وموسى هو الزعيم فناسب توجيه الضمير إليه، من باب المجاز المرسل، على سبيل خطاب الجزء وإرادة الكل؛ لأن موسى هو زعيم القوم والمتَّبع فيهم.

وقيل: إن الضمير في يخيل يعود إلى السعي أو السحر[1]. وقيل إلى العصي أو الحبال بمعنى يخيلان[2].

ومن المواضع التي عاد فيها الضمير مفردا على مثنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فيظهر في هذه الآية مجيء الفعل ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ مسندا إلى ضمير الواحد، مع أنه عائد إلى اثنين هما: ﴿ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ ولكن لما كان المذكوران من جنس واحد؛ لما بينهما من علاقة التلازم، جاء الضمير مسندا إلى الواحد.

(١) حجة القراءات لعبدالرحمن بن محمد بن زنجلة (ص: ٤٥٧).

(٢) إعراب القران لعلي بن الحسين الباقولي (٢/٥٨٥) و (٢/٦١١).

وقد جمع السمين الحلبي أقوالا تكشف سر مجيء الضمير على الإفراد فقال:"قيل: قد تقدم شيئان وهما: ﴿طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾، ولم يعد الضمير إلا مفردا، وفي ذلك ثلاثة أجوبة، أحدها: أنهما لما كانا متلازمين، بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به بدون الآخر صارا بمنزلة شيء واحد حتى كأنه قال: فانظر إلى غذائك. الثاني: أن الضمير يعود إلى الشراب فقط؛ لأنه أقرب مذكور، وثم جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها. والتقدير: وانظر إلى طعامك لم يتسنه وإلى شرابك لم يتسنه، أو يكون سكت عن تغير الطعام تنبيها بالأدنى على الأعلى، وذلك أنه إذا لم يتغير الشراب مع نزعة النفس إليه فعدم تغير الطعام أولى"(١).

ومن الذين جعلوا الضمير عائدا إلى الشراب الرازي، على أن الشراب إذا فسد فالطعام اللطيف من باب أولى(٢)، واحتمل أبو حيان عود الضمير على الشراب، وحذفت جملة الطعام لدلالة ما بعدها عليها، أو أن الضمير المفرد عائد على الاثنين لما بينهما من تلازم، وأنهما بمعنى شيء واحد وهو الغذاء (٣).

ومن هنا يظهر أن ضمير الإفراد يعود على ما ظاهره التثنية مفردا لعدة أغراض منها منع اللبس إذا عاد على اسم معطوف على لفظ الجلالة، كيلا يشرك بضمير الله غيره فيما لا يكون إلا من الله كالفضل، أو لا يقصد به إلا الله كالرضاء.

وكذلك إذا كان المثنى من جنس واحد، أو يؤول إلى جنس واحد كتحول الحبال والعصي إلى حيات فإن الضمير قد يعود مفردا مراعاة للأهم فعود الضمير على ذلك فيه دعوة لحضور الذهن ليتخيل النتيجة العظمى التي هي الغاية من اجتماع الجمع .

ومن ضوء ما تقدم يظهر أن من أول أغراض إفراد الضمير هو التوحيد الخالص، يتجلى ذلك في عدم إشراك أحد في ضمير الله، وهذا يكثر عندما يعطف لفظ

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٢/٥٦٢). واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤/٣٥٦)

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٧/٣٢).

(٣) البحر المحيط لابن حيان (٢/٦٣٥).

الرسول- ﷺ - على لفظ الجلالة، ليرسخ أهم أغراض الرسالة وهو التوحيد، وقد يعود الضمير مفردا إلى الرسول -ﷺ- بقرينة تصرفه عن عوده إلى الله، وقد يكون الضمير المفرد صالحا لعوده إلى أكثر من مرجع فيزداد السياق كثافة معنوية، وامتزاج الاثنين واختلاطهما حيث يجعلهما كالشيء الواحد مما يسوغ عود الضمير إلى هذين مفردا، كما ورد في قصة الجنتين، لحظة الكمال وبعد الهلاك، وكتوحيد الضمير الذي عاد إلى الطعام والشراب لما بينهما من تلازم، ويعود الضمير مفردا إلى الأصل وإن كان الفرع هو الأقرب، مثل الخَضِر الذي أخرج منه جنات من نخيل وأعناب وزيتون، ويعود الضمير إلى الأعم والأهم تشريفا وتعظيما، كما عاد الضمير إلى الصلاة وقد سبقت بالصبر، ويعود الضمير إلى أحد المذكورين لأن القدرة فيما عاد إليه الضمير أظهر وأبين، كما عاد إلى القمر بدلالة تذكيره، وقد سبق بالشمس . وفي مواطن عاد الضمير إلى أحد الفاعلين، لكون الفعل بمن عاد إليه الضمير ألصق، والآخر تبعا له، كما في الفعل تشقى الذي أسند إلى ضمير آدم وهو يشمل حواء، لأنه القدوة والمتحمل المسؤولية، وقد تعددت أغراض عود الضمير المفرد إلى المثنى ومن أبرزها، الإيجاز، والفاصلة، والاكتفاء[1] بضمير أحدهما عن الآخر.

(١) الاكتفاء: هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية. ويختص غالبا بالارتباط العطفي. ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١]، تقيكم الحر، إيجاز بالحذف، على سبيل الاكتفاء، إذ التقدير: تقيكم الحر والبرد، ومثله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام:١٣]، أي: وما تحرك، ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٤٨-٤٩).

المبحث الثاني : عود ضمير المفرد على الجمع .

وإذا علم أن الأسلوب العربي متنوع حسب ما يقتضيه المقام لاعتبارات بلاغية؛ فإن الضمائر ليست بمعزل عن هذا الأسلوب، ولقد عرضت في المبحث السابق أن ضمير الواحد عاد إلى المثنى؛ لغرض يكشفه السياق، فيتحقق المراد، وفي هذا المبحث توافرت الشواهد التي عاد فيها ضمير الإفراد على الجمع، ولكنني سأبدأ بضمير لفظه للجمع ومعناه للواحد المعظم نفسه، لأن مرجعه هو الله الواحد الأحد، وهذا الضمير لفظه للجمع ومعناه في هذه الشواهد للواحد المعظم نفسه وهو الله، إلا أنني سأقف على التحول من ضمير المعظم نفسه إلى ضمير المتكلم المفرد الذي جاء للمفرد بلفظه ومعناه وهو ياء المتكلم، مبينا الغرض من مجيء ضمير الواحد المعظم نفسه، والتحول عنه إلى الضمير الدال على الواحد بلفظه ومعناه وهو ياء المتكلم، فأبدأ بقول الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨].

وفي هذه الآية موضعان عاد الضمير فيهما على خلاف الظاهر:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم الذي لفظه للجماعة ومعناه للواحد المعظم نفسه نظرا للمعنى، فقد جاء ليدل على المعظم نفسه، الذي تنوعت صفاته، وتعددت أسماؤه، وهو الله سبحانه وتعالى، ثم تحول الكلام إلى ضمير المفرد المتكلم، فقال:﴿مِّنِّى﴾ وقال: ﴿هُدَاىَ﴾ وياء المتكلم عائدة إلى الله وحده، فلفظها ومعناها للمفرد، ولم يقل: منا، هدانا، فجاءت ياء المتكلم مخالفة لمقتضى الحال لنكتة بلاغية.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ والمخاطب اثنان في أصح الأقوال وهذا سيعرض له الباحث في مبحث عود ضمير الجمع على المثنى[1].

---

(١) ينظر هذا في مبحث عود ضمير الجمع على المفرد (ص:١٧٦)

أما إسناد فعل القول إلى ضمير الواحد المعظم نفسه الذي لفظه جمع ومعناه مفرد فلأن القرار يوحي بالعظمة، حيث لا يستطيع أحد أن يفاتح صاحب العظمة بقراره في هبوط آدم وزوجه، فضلا عن أن يتشفع، وفي هذا الإسناد بيان بأن الكل رأى أنهما على خطأ.

ووحد ضمير الهداية لأنها ليست إلا من الله، ولا هادي سواه، ولكنه جعل الرسل مبلغين.

قال الزركشي: " ولم يقل: منا، مع أنه للجمع أو للواحد المعظم نفسه، وحكمته المناسبة للواقع، فالهدى لا يكون إلا من الله فناسب الخاص للخاص"[1].

ويلاحظ أيضا أن ضمير الواحد المعظم نفسه قد ينتقل إلى ياء المتكلم إذا استدعى المقام ذلك، لغرض التفسير أو لأن ضمير التعظيم يفتح باب شرك فتحرز القرآن عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء:٦١] لكن أسلوب الكلام قد تحول من ناء المعظم نفسه إلى ياء المتكلم، فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥] مع أن هذه السورة الكريمة كثرت فيها الأفعال المسندة إلى ناء المعظم نفسه، حتى أصبحت تلك ظاهرة في السورة، إلا أن تغير الأسلوب من الإسناد إلى ضمير الواحد المعظم نفسه إلى ضمير المفرد بلفظه ومعناه في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ خالف الظاهرة، وخالف الظاهر، فهي مسبوقة بأفعال مسندة إلى إلى ضمائر الواحد المعظم نفسه، ومعقوبة بأفعال مسندة إلى ذلك كذلك[2]، والغاية في هذه المخالفة بليغة، لكون التوحيد يتطلب إفراد الله في العبادة لفظا ومعنى، لا سيما أن ضمير الواحد المعظم نفسه لفظه دال على الجمع ومعناه في هذه الشواهد للواحد

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/٣٣٥).

(٢) ينظر إضافة لفظة عبد إلى ناء المعظم نفسه في مبحث عود ضمير الجمع على المفرد (ص: ١٨١)

العظيم، فجاء العدول عن التعظيم إلى الإفراد في اللفظ والمعنى مفيدا التوحيد الذي هو ضد الشرك لأنه الأهم، لاسيما والمتحدث عنهم جميع عباد الله على اختلاف درجات إيمانهم.

ولما كانت وسوسة الشيطان وكيده موجها إلى كل إنسان قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ولم يقل: عبادنا، مع أنها مسبوقة ومعقوبة بما يسوغ ذلك من الأفعال الكثيرة المسندة إلى ناء المعظم نفسه في هذه السورة، لكن انتقل الكلام إلى ضمير المتكلم- الذي جاء تعظيما لله من غير إشراك – لأن أعظم هدفا يريد إبليس تحقيقه هو الشرك بالله، فعُدل عن التعظيم إلى ياء المتكلم لغرض التوحيد المنافي للشرك لمناسبة المقام لذلك، فناسب كل تعبير موضعه، وكانت مخالفة الظاهر أبلغ مما يقتضيه الظاهر، ولو قال: عبادنا؛ لكان ذلك مدخلا ييسر للشيطان هدفه؛ لدلالة الناء على غير الواحد في الظاهر، فيحدث بذلك اللبس على العامة، مع أن الناء تأتي -كما سبق- لتعظيم العظيم نفسه، فترك ذلك احتراسا مما يخلّ بالتوحيد لاسيما والحديث عن إبليس وجهوده في الضلال كثيرة وحيله متنوعة، والله تعالى أعلم.

ويعود ضمير الإفراد على المتعاطفات إذا كان لفظ الله جل شأنه أحد أولئك؛ تنزيها لله من أن يشرك في ضميره غيره، واحتراسا من اللبس المفضي إلى الشرك، يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨]، فالحال ﴿ قَآئِمًۢا ﴾ يعمل عمل فعله، وفاعله ضمير مفرد يعود على الله سبحانه وتعالى وحده، وظاهر السياق أن يأتي على القياس اللغوي فيقول: قائمين لتحتمل هذه الحال ضمير جمع تقديره(هم) يقع فاعلا لها، ولكن ترك ذلك؛ للغرض البلاغي السامي الذي يبرز التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى، والذي ذيلت الآية به، وهو قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ والجمع يناقض هذا ويحدث اللبس، والتوحيد هو رأس العقيدة وبه تقوم، وشهادة الله تغني عن كل شهادة، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٩].

ومن مواطن عود ضمير المفرد في لفظه ومعناه إلى الضمير الذي لفظه للجمع ومعناه هنا للمفرد -سبحانه- على سبيل تعظيم النفس وإفراد الضمير بعد ذلك لغرض التفسير ما جاء في قول الله تعالى في خلق آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٦-٢٩]، فيلاحظ أن قوله تعالى:﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ﴾جاء مفسرا لقوله: ﴿خَلَقْنَا﴾[1]، وأن الضمير في ﴿خَلَقْنَا﴾ أسند إلى ضمير الواحد المعظم نفسه، فلم يشترك أحد معه في الخلق، وياء المتكلم جاءت بعد ذلك ففسرت كل فعل خلق أسند إلى مثل ما أسند إليه هذا الفعل، فالتلوين بالأسلوب من ذلك الضمير -الذي لفظه للجمع ومعناه هنا للمفرد- إلى ضمير المتكلم الواحد، وكلاهما صيغتا متكلم، ففهم من الانزياح إلى ضمير الواحد باللفظ والمعنى تفسير ذلك المسند إليه الذي هو في أصل وضعه للفاعلين، وهذا الأسلوب يكشف كل أسلوب في القرآن جاء على غراره، والمتتبع لقوله تعالى: ﴿إِنِّى﴾ في هذا المعنى من سياقات الخلق، يجدها وردت في ثلاث آيات، كلها يخاطب الله بها نبيه -ﷺ- فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص:٧١]، فهذه الآيات جاءت في معرض التذكير بقصة خلق آدم عليه السلام، وأمْر الله الملائكة بالسجود، وجاءت الإضافة إلى ياء المتكلم عدولا عن ناء المعظم نفسه؛ لأن المخاطب النبي-ﷺ- وفي ياء المتكلم إظهار للطف

---

(١) ينظر: بلاغة إسناد الفعل ﴿خَلَقْنَا﴾ في مبحث عود ضمير الجمع على المفرد في البحث (ص:١٨٢-١٨٩).

الله بنبيه -ﷺ- يؤيده قوله:﴿رَبُّكَ﴾، وما تحمله اللفظة من معاني الرحمة والعناية والرعاية، أما إذا لم يخاطَب بالآية النبي -ﷺ- فإن الباحث يجد الأسلوب يختلف كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾(1). وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف:١١]، أما في الآيات التي خاطبت النبي-ﷺ- فتأتي ياء المتكلم العائدة إلى الله –سبحانه- لأنه ليس في السياق ما يستدعي أسلوب القوة، كما في الآيتين السابقتين -والله أعلم- ناهيك بأن ياء المتكلم في هذه المقامات تفسر كل آية وردت بأسلوب ضمير الواحد المعظم نفسه حيث أن معنى هذا الضمير للمفرد ولفظه للجمع، ليدل هذا التلوين على أن الخالق هو الله وحده، وفيها احتراس من أن يظن أحد أن هناك آمرين وشركاء في الخلق، كما أن مما استدعى ضمير التوحيد هو أن الأمر متعلق بسجود لغير الله بأمر من الله، والسجود عبادة لله وحده، جعله الله ابتلاء للملائكة وتعظيما لآدم، فقال: ﴿إِنِّي﴾ حيث جاء بياء المتكلم لخصوص دلالتها على الآمر، ولم يقل: إنا، لأن صورة ناء المتكلمين قد تحدث لبسا لدى أهل عصر نزول القرآن الكريم - لاسيما والشرك ظاهرة لديهم - لدلالتها على غير الواحد، فيما لا يكون إلا للواحد - سبحانه – فترك ذلك ليعلم أن الآمر هو الله وحده، بلفظ يدل على توحيده من غير لبس، فيكون ذلك ألزم وأوجب على المتلقي، وبه تقوم الحجة، ويؤكد على ذلك تاء المتكلم في قوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذا التفصيل يبين قدرة الله، وفضل هذا المخلوق الذي تزيده تاء المتكلم وياؤه مكانة، فهذا المخلوق خُلِق من جنس آخر، وهذه الروح أمرها خفي على كل مخلوق، وأضافها الله إلى نفسه بصيغة ياء المتكلم تكريما وتشريفا، ولم يقل: روحنا، لأنه هو القائل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء:٨٥]، وإضافة الروح إلى ياء المتكلم تفسر الروح إذا أضيفت إلى الناء، وأن هذه الناء ليست ضميرا للجماعة كما

(١) [البقرة:٣٤] و[الإسراء:٦١] و[الكهف:٥٠] و[طه:١١٦].

هو الظاهر، بل ضمير للواحد المعظم نفسه سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[مريم:١٧] وقوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢].

فجاء ضمير المعظم نفسه عندما كان الله يخاطب ملائكته، والملائكة خاصة وهم أعرف خلق الله بالله، وهذه العظمة تحتم على الجميع الانقياد، فلم يتخلف إلا إبليس فأُخرج، وخطاب الله لنبيه ﷺ خطاب لقومه ما لم ترد قرينة تخصيص له في ذلك، وهو خطاب للعامة، ومن البلاغة خطاب الخاصة بما يناسبهم، وخطاب العامة بما يناسبهم؛ ولذلك أمر الله ملائكته بالسجود واستعمل ضمير المعظم نفسه، ولما خاطب نبيه مخبرا عن تلك القصة جاء ضمير المتكلم الدال على الواحد والمناسب لقوم هم حديثو عهد بشرك، مع مافي ياء المتكلم من العناية والرعاية، فناسب ذلك المقام.

ولقد ذكر الجاحظ قولا لبشر بن المعتمر يقنن فيه البلاغة قائلا:" ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(١).

والقرآن الكريم خير قدوة لمتكلم، وخير سبيل لمقننٍ لبلاغة، والمخاطبون في الآيات الآنفة هم الملائكة المصطفون، وهم الخاصة، فجاء المسند الفعلي مسندا إلى ناء المعظم نفسه على وجه الاستعلاء؛ ليكون أوجب وألزم على المخاطب، ولأن المخاطب لن تلتبس عليه ناء المعظم نفسه بإشراك، ثم إن ياء المتكلم في سورة البقرة؛ وسورة الحجر؛ وسورة ص؛ ناسبت البيان والتفصيل في القصة في هذه السور، ففسرت ما أجمل في غيرها، والخطاب للنبي ﷺ وقومه تبع له والتوحيد غرض مهم، أما في سورة الأعراف

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١٣١/١) .

فلم تأت ياء المتكلم عائدة إلى لفظ الجلالة مع ما فيها من تفصيل وبيان، وهذا من التنوع في الأسلوب البليغ الذي تشرئب الآذان إلى سماعه؛ فتقوم عليها الحجة بمقتضاه، والله أعلم.

ومن مواطن ضمير الإفراد الذي جاء بعد ضمير لفظه للجماعة ومعناه للمفرد ما في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه:٨١]، ففي هذه الآية جاء قوله: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ على إسناد الفعل إلى ضمير الواحد المعظم نفسه، وهذا الضمير في أغلب استعماله للمتكلمين أو للفاعلين، لكنه هنا هو ضمير المعظم نفسه، ثم عدل عنه إلى ضمير الواحد في لفظه ومعناه في قوله: ﴿غَضَبِي﴾ فما سر هذا التباين وهذه المغايرة بين الضميرين؟

ولعل البلاغة تكمن في كون الرزق وإن كان من الله مصدره غير أن الله أوكل أمره إلى ملائكة، وأنواع الرزق كثيرة، وقد يكون ضمير المعظم نفسه وهو العظيم سبحانه، أما مخالفة الضمير في لفظة: ﴿غَضَبِي﴾ فلأن غضب الله فوق كل غضب بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ وهذه القرينة سبب للعدول من ضمير المعظم نفسه إلى ضمير المتكلم الواحد في اللفظ والمعنى؛ وذلك لإظهار عظمة المتكلم، وياء المتكلم تورث الخوف والخشية في نفوس المتلقين، يؤيد - هذا القول بعد القرينة الواردة في السياق- قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥-٢٦].

وعندما يتحدث المولى عن فعل فيه قوة فكثيرا ما يكون ضمير التعظيم حاضرا، فإذا جاء موطن يحتاج التحرس من اللبس فإن العدول إلى إفراد الضمير الدال على الواحد باللفظ والمعنى يعقبه كما في قوله تعالى سبحانه: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦] فقد بدأت الآية بما فيه معنى القوة والعظمة والقدرة الذي يتطلبه التمكين،

فجاء الفعل مسندا إلى ناء المعظم نفسه كي يأتي اللفظ مطابقا للمعنى المراد، ولما نهى الله عن الشرك؛ ومقتضى الاستجابة توحيد الله؛ جاء ضمير المتكلم المفرد في قوله: ﴿بِي﴾ ولم يقل: (بنا) لأن هذا يناقض قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ فهذه الناء تتنافى والمعنى المراد؛ فترك ذلك احتراسا؛ ليتوافق الضمير مع معنى التوحيد الذي بني البيت لتحقيقه، فوحد الضمير لعقيدة التوحيد، وهنا تظهر البلاغة، ويتبين إعجاز القرآن الكريم واحتراسه من أي مدخل لشبهة، فقامت بذلك الحجة على كل سامع.

كماجاء البيت مضافا إلى ياء المتكلم في قوله تعالى: ﴿بَيْتِيَ﴾ وما أضيف إلى الله فقد سما شرفه وعظم مقامه، ولم يقل الله سبحانه وتعالى: بيتنا؛ لأن هذا البيت هو قبلة المسلمين، يتجه المسلم إليه في صلاته ودعائه ونسكه، وكل ذلك عبادة، والعبادة لا تصرف إلا لله؛ لذلك امتنع إضافة البيت إلى ناء المعظم نفسه فخالف الأسلوب؛ لأن المطابقة تورث شبهة فيجعل العبادة لله ولغيره، وهذا يناقض قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

ومثل ذلك قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥]، فلما كان بناء البيت وجعله قبلة أمرا عظيما؛ ناسب ذلك إسناد الفعل إلى ناء المعظم نفسه، فقال: ﴿جَعَلْنَا﴾ ثم قال: ﴿وَعَهِدْنَا﴾؛ لأن هذا العهد عظيم يجب القيام به، ثم أضاف البيت إلى ياء المتكلم فقال: ﴿بَيْتِيَ﴾ وهذا التلوين هو عين البلاغة، والذي دعا إلى ذلك ما ذيلت به الآية، فالبيت يطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهؤلاء عبادات لا تصرف إلا لله وحده، فجاء العدول منعا للبس، واحتراسا من الشرك ووسائله اللفظية والفعلية؛ لأن المعنى يوجب التوحيد وضمير التعظيم قد يناقضه لكون لفظه للجمع فعدل عنه، فسبحان من قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢] .

ولما كان حق الوالدين أعظم حق بعد التوحيد وعبادة الله؛ جاء الأمر به بأسلوب المعظم نفسه، لعظم هذه الوصية، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٨] جاء المسند إليه في قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ فأسند الفعل العظيم للواحد المعظم نفسه، لعظم المأمور به، ولأن الأمر على وجه التكليف والإلزام، ومقتضاه عقاب من أخلّ به، لكن لما جاء الإيصاء بالتوحيد وهو الأهم، جاء الضمير مخالفا لسابقه فجاء مفردا في لفظه ومعناه؛ ليفيد معنى التوحيد من غير لبس؛ لأن ضمير الواحد المعظم نفسه قد يفهم منها الإشراك لا التعظيم؛ لكون لفظه للجماعة ومعناه هنا للواحد العظيم، فعدل عن ضمير التعظيم تحرسا من اللبس؛ لأن الشرك هو الذنب الذي لا يغفر إلا بتوبة، فترك كل أسلوب يحدث شبهة، أو عذرا لواقع بشرك، فقامت الحجة من غير لبس، فجاء الضمير مفردا في قوله: ﴿ لِتُشْرِكَ بِى ﴾ ولم يقل: بنا؛ لأن هذا إشراك يضاد النهي، وهذا من نفائس بلاغة القرآن الكريم التي تحرزت عن التناقض، وبلغت أعظم شأو، وقصر عن بلاغته أبلغ بليغ.

وعلى هذا النحو جاء التلوين بين ضمير اللمعظم نفسه والتوحيد في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان:١٤-١٥]. فقد جاء المسند الفعلي مسندا إلى ضمير المتكلم الدال على المعظم نفسه والمستعمل في أغلب أحواله للجماعة، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ ثم جاء التلوين منه إلى ضمير المتكلم الواحد في اللفظ والمعنى، فقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾ ثم قال: ﴿ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ثم قال: ﴿ تُشْرِكَ بِى ﴾ ثم قال: ﴿ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ ثم قال: ﴿ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾.فالفعل الأول أسند إلى ضمير الواحد المعظم نفسه، وهو الله وحده، وهذا الأمر يحمل معنى العظمة الموجبة

الاستجابة لهذه الوصية إلزاما، و لما كانت الوصية من الأمور المهمة ناسب ذلك إسناد فعل الإيصاء إلى ما أسند إليه، بينما جاءت الضمائر الأخرى للمتكلم الواحد الذي لا يحتمل الجمع لا لفظا ولا معنى لتحقيق التوحيد، ولتفسر ضمير المعظم نفسه، فالضمائر كلها لله وحده، ومجيء الضمير مفردا في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ هو لأن الحديث قبل هذه الآية كان في وعظ لقمان ابنه عن الشرك، وتكرر النهي عن الشرك في الآية التي تلي هذه الآية، فناسب ذلك الإفراد المناسب للتوحيد، وليس الغرض من ذلك أن الشكر لا يكون إلا لله بدليل وجوب شكر الوالدين في القول والفعل، وزادت بلاغة إفراد الضمير لبيان عظم حق الوالدين، وأن حقهم يتوجب بعد حق الله سبحانه ولو قال: اشكر لنا، لتوهم متوهم أن هناك سوى الله مقدما حقه على حق الوالدين، فجاء إفراد الضمير ليتأكد حق الوالدين بعد حق الله مباشرة، ثم إن إفراد الضمير هيأ لمجيء الضمائر بصيغة الإفراد في الألفاظ الآتية في الآيتين، فجاء قوله: ﴿تُشْرِكَ بِى﴾ مشتملا على ياء المتكلم؛ لأن ناء العظمة تحتمل معنى الشرك؛ لأنها تأتي في الأشهر للمتكلمَين فأكثر، فترك التعظيم الذي بدأت به الآية لانتهاء سببه، وخشية من اللبس في أعظم عبادة وهي التوحيد، أما قوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ و﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ و﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ و﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ فكل هذه الألفاظ اشتملت على ياء المتكلم ليعلم أن المصير والإنابة والمرجع لله وحده دون من سواه، وهو الذي ينبئ الخلق بأعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، بينما تأتي ناء العظمة إذا استدعى الأمر ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان:٢٣] ففي قوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جاء الضمير بهذه الصورة، والبلاغة في ذلك ظاهرة فالمقام يستدعي إظهار العظمة والقوة لأنه مقام تهديد ووعيد للكافرين المتكبرين وهكذا في مثيلاتها ، ومثل تحليل الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة يقال في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت:٨]، ولم ترد

لفظة: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلا في ثلاثة مواضع؛ في آيتي العنكبوت ولقمان الآنفتين وفي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران:٥٥] ولعل بلاغة توحيد الضمير هو أن الخطاب في آيتي العنكبوت ولقمان لعامة الناس مسلمهم وكافرهم بعد أن أوصاهم الله بالبر بالوالدين الذي يتطلب معنى الرفق، أما الخطاب في آية سورة آل عمران فهو لنبي الله عيسى -عليه السلام- فجاء ضمير المتكلم في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ لإظهار الرفق في المخاطبين، ولم يستدع المقام ناء المعظم نفسه التي تدل على القوة والعظمة في سائر مواطنها، والله أعلم.

ويأتي الضمير المفرد عائدا إلى الجمع لغرض الإحصاء والإحاطة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم:٩٣] وقوله:﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم:٩٥] فقد جاء اسم الفاعل﴿ ءَاتِيهِ ﴾ الذي هو للمفرد خبرا لقوله: ﴿ وَكُلُّهُمْ ﴾ الدال على الجمع، واسم الفاعل له ضمير مفرد مقدر، وهذا التحول له سر بليغ اقتضاه المقام، فالمقام يقتضي إحصاء الكل فردا فردا للإحاطة الدالة على العلم والعظمة، فلذلك قال﴿ ءَاتِيهِ ﴾ ولم يقل: آتوه، مع أن ظاهر الأمر يقتضي هذا، لكن العدول إلى الإفراد جاء لمعنى أعظم وأبلغ، لاستحالة إفلات أحد أو نسيانه، فاجتمع في الآية جمعهم بالجمع والإفراد، واشتملت الآية على الحالين الدالين على العظمة والإحاطة، وقوله: ﴿فَرْدًا﴾ يوحي بانعزال الفرد عن الجماعة وإن كانوا محشورين معه، وبانقطاعه عن كل تابع ومتبوع، وأن الله لم يغادر أحدا ممن في السماء والأرض، وهذا الأسلوب يصور الحدث وما يكتنفه من أهوال، كل فرد مشتغل بنفسه عن غيره، تحيط به الرهبة من كل جانب، والفرد فيها ذليل إلا أن يعزه الله، والسياق الذي استدعى هذا الأسلوب القوي، هو سوء مقالة من

قال الله فيهم: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم:٨٩]، وبلاغة هذا الإفراد ظاهرة في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم:٩٤]، وما يحوي هذا التركيب من الجبروت والكبرياء، لذلك جاءت كلمة (ودا) ذات دلالة روحية في هذا الجو الممتليء وحشة وهولا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم:٩٦].

وفي الهمع ذكر السيوطي أن (كلّ) إذا أضيفت إلى معرفة روعي في ضميرها المعنى أو اللفظ(١)، وأوجب ابن هشام كون الضمير لا يعود إليها من خبرها إلا مفردا مذكرا على لفظها(٢)، وقد وقف ابن جني على هذا الأسلوب فذكر أنه من طريق الحمل على اللفظ، أي كل واحد منهم على انفراد (٣).

ويضيف ابن عاشور نكتة بلاغية فيقول:" في ذلك تعويض بأنهم آتون لما يكرهون من العذاب والإهانة إتيان الأعزل إلى من يتمكن من الانتقام منه"(٤).

ولا شك أنه إذا جاء ضمير مُراعٍ اللفظ أو المعنى فإنه لا بد أن يكون وراء هذا الاختيار لأحد هذين المرجعين في الكلام البليغ دلالة بلاغية، يسبر أغوارها من وفقه الله لذلك، والقرآن تنوع أسلوبه، وتفنن في تراكيبه، وأعجر بنظمه، وكل أسلوب له سياق استدعاه، ومعنى مراد راعاه.

ومن مواضع عود الضمير المفرد على الجمع ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس:٨٧]، فهذه الآية فيها عدة تحولات فالتحول الأول من

(١) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/٥٩٨).

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٢٦٣).

(٣) ينظر: الخصائص لابن جني (٣/٣٣٨) .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦/٨٧).

المثنى إلى الجمع، حيث تحول ضمير التثنية إلى جمع[1]، ثم من الجمع إلى الإفراد، فعاد ضمير المفرد وهو المسند إليه بعد المسند الفعلي﴿وَبَشِّرِ﴾ وهو مسبوق بفعل مسند إلى واو الجماعة في ﴿وَٱجۡعَلُواْ﴾ ولا شك أن وراء هذا التلوين دقة في المعاني اقتضاها هذا التحول، ومنها أن البشارة لأول مبشِّر، فلا يبشر بالأمر الواحد اثنان، لأن المبشر المخبر الأول وليس الثاني، فالبشارة التي لا يكون أثرها المسعد إلا من واحد، فدخول السرور يحدث عند لحظة البشارة من أول مبشر، فلذلك –والله أعلم– عدل عن التثنية أو الجمع، أو لأن مصدر البشارة موسى – عليه السلام – وحده.

والأخير هو ما فهمه الباحث مما ذكره الرازي وجها للإفراد إذ قال: " خص موسى عليه –الصلاة والسلام– بالبشارة تعظيما لها، وتعظيما له عليه السلام"[2].

وزاد الزركشي: كون موسى هو الرسول الحقيقي الذي إليه البشارة والإنذار[3]. وذكر أبو البقاء أن هارون وزير لموسى، عليهما السلام[4].

أما التثنية فقد جاءت مطابقة للظاهر فجاءت للمختصين بالشأن، فالقبلة واتخاذها، واختيار البيوت للعبادة من شؤون الأنبياء، ولأن المذكور هنا موسى وأخاه فقد جاءت التثنية لهما لا يشاركهما بها أحد[5].

---

(١) يدرس هذا في مبحثه: عود ضمير الجمع على المثنى (ص:٣٣٨).

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ١٩١)، وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٤٢/٢). وينظر: الكشاف للزمخشري (٣٦٤/٢)، وينظر: المثل السائر لابن الأثير (١٥٩/٣)، وينظر: من بلاغة القران الكريم لأحمد البيلي البدوي (ص: ٨٩).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٣٥/٣).

(٤) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٦٨٤/٢).

(٥) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ١٩١)، وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٤١/٢). الكشاف للزمخشري (٣٦٤/٢)، وينظر: المثل
=

ويقول الطاهر ابن عاشور:" ووقع الوحي بهذا الأمر إلى موسى وهارون -عليهما السلام- لأنه من الأعمال الراجعة إلى تدبير أمر الأمة، فيمكن الاشتراك فيها بين الرسول ومؤازره"[1].

ويرى الطاهر أيضا أن إسناد الفعل إلى ضمير المثنى من باب المجاز العقلي[2]، وفاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن بالمباءة، وإنما أسند هنا إلى ضمير موسى وهارون – عليهما السلام – على طريقة المجاز العقلي، إذ كانا سبب تبوؤ قومهما للبيوت. والقرينة قوله: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ إذ جعل التبوؤ لأجل القوم"[3].

أما مجيء ضمير الجمع بعد التثنية فليكون الخطاب عاما للنبيين ولقومهما الذين اقتدوا بهما[4].

وقد يأتي الضمير صالحا للعود على جميع المتعاطفات التي تسبقه، لكنه اتسم بصفات تجعله بأحد المذكورات ألصق، إما لأنه الأقرب، أو لأنه اتحد جنسه مع جنس

=

السائر لابن الأثير (١٥٩/٣). وينظر: من بلاغة القران الكريم أحمد البيلي البدوي (ص:٨٩).

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٠/١١).

(٢) يعرف السكاكي المجاز العقلي بأنه: "هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك أنبت الربيع البقل، وشفى الطبيب المريض". مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ٣٩٣). ويعرفه القزويني بقوله: "وأما المجاز فهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو بتأول" الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (ص:٨٢ و٨٦).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦١/١١).

(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ١٩١). وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٤١/٢-٢٤٢). الكشاف للزمخشري (٣٦٤/٢)، وينظر: المثل السائر لابن الأثير (١٥٩/٣). وينظر: من بلاغة القران الكريم لأحمد البيلي البدوي (ص:٨٩).

ما عاد إليه، وذلك كالضمير في قوله تعالى:﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٤٥]. فقوله:﴿ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ جاء الضمير مفردا مذكرا وقد سبق بثلاث متعاطفات، إحداها مؤنث، لكن الضمير بعوده مفردا مذكرا دل على أنه عائد إلى أقرب مذكور، وهو المضاف أو المضاف إليه في قوله: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٖ﴾ والأقرب عوده على الخنزير؛ لأنه أقبح المذكورات في سياق التحريم؛ لأن الميتة قد تكون مما كان حلالا قبل حالتها الراهنة، والدم نجس لكنه قد يخرج من حلال، وقد يخالط اللحم فيستحيل الاحتراز منه كما روى ابن العربي(١)، والكبد والطحال دمان جاء النص بتحليلهما وهما غير مسفوحين، أما الخنزير فهو رجس كله لأنه محرم بذاته، لذلك -والله أعلم- لم يعد الضمير على جميع المذكورات مع صلاحيته لذلك مبالغة في ذم الخنزير وتقبيحه في سائر أحواله، وقد يكون الضمير عائدا على المضاف اللحم باعتبار أنه هو المتحدث عنه، وقال: رجس وهو الأصل ثم قال: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ أي: تخفيفا في حالة الضرورة-والله أعلم، لسد قدر معين من جوع مؤد إلى هلاك.

والأخير هو ما رآه أبو حيان حيث جعل الضمير عائدا إلى لحم لا إلى الخنزير؛ لأنه هو المتحدث عنه، وسيرا على مذهب النحويين. وروى قولا – يخالفه – لابن

---

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢٩١/٢) .

حزم[١] يرى أن الضمير : "عائد على خنزير لا على لحم؛ لكونه أقرب مذكور، فيحرم بذلك شحمه وغضروفه وعظمه وجلده"[٢].

وذكر الزركشي قولا يقوي عود الضمير على الخنزير، وأن عوده على المضاف غير مطرد، ولكنه الأغلب، وفي هذه الآية قال: "وللجمهور أن يقولوا: وكذا عوده إلى الأقرب ليس بمطرد فقد يخرج عن الأصل لدليل، وإذا تعارض الأصلان تساقطا، ونظر في الترجيح من خارج، بل قد يقال عوده إلى ما فيه العمل بهما أولى،كما يقول الماوردي[٣] إن الضمير يعود إلى الخنزير لأن اللحم موجود فيه"[٤].

والمصدر يعمل أحيانا عمل فعله، وبما أن مفرده قد يأتي خبرا لجمع، فإن هذا المصدر المفرد يحتمل ضميرا مفردا، يعود على هذا الجمع، سوغ مجيئه المصدر، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ [التوبة:٢٨] وذلك أن خبر المشركين قوله: ﴿نَجَسٞ﴾، وهو مفرد أخبر به عن جمع أي النجس، ولعل البلاغة من ذلك هو كون المشركين هم النجاسة بعينها، وكل نجس سواهم أقل نجاسة منهم، ولم يقل أنجاسا، كيلا يتصور تفاوت بعضها عن بعض في النجاسة، وقد

(١) ابن حزم: هو الإمام الأوحد البحر ذو الفنون والمعارف أبو محمد؛ علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي الفقيه الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيفو ومنها؛ الإيصال إلى فهم كتاب الخصال، والخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام، وكتاب المجلى في الفقه، والمحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، واختلف في كتبه بين قادح ومادح، ولد بقرطبة في سنة ٣٨٤هـ، وتوفي ٤٥٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٧٦/١٣-٣٨٦).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٣٣١/٧).

(٣) الماوردي: هو الإمام العلامة أقضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي صاحب التصانيف، له في الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب وكان حافظا للمذهب، ومن كتبه الحاوي، وله تفسير سماه النكت، توفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣١١/١٣).

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٩/٤).

يقوي هذا القول كون لفظة نجس لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع خبرا عن المشركين، ثم إنها مقصورة بإنما لتفيد الحصر.

قال الألوسي:" أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة، كأنهم عين النجاسة"(١).

ويروي النيسابوري قول الليث(٢) في لفظة: نجَس، فيقول:"وقال الليث: إنه صفة يستوي فيه الواحد وغيره: رجل نجس وقوم نجس وامرأة نجس. قلت: ويجوز أن يجعل المصدر نعتا للمبالغة في الوصف"(٣).

وقد يفرد اسم الفاعل الذي يعمل عمل فعله فيحتمل ضميرا مفردا عائدا إلى جمع في معناه، من ذلك إفراد اسم الفاعل (خالدا) على خلاف ما جاء اسم الفاعل الذي سبقه(خالدين) مع أن الاثنين يعودان إلى جمع في معناه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء:١٣-١٤]. فجمع خالدين التي لها فاعل مستتر تقديره (هم) عائد إلى اسم الموصول (من) الذي يحتمل هنا معنى الجمع، وأفرد اسم الفاعل (خالدا) الذي يحتمل ضميرا مستترا يكون فاعلا له وتقديره (هو) مع أنه يعود إلى (مَنْ) الموصولة والتي تحتمل هنا الجمع، كما ذكر الزمخشري بقوله:" فلا بد من الضمير وهو قولك: خالدين هم فيها، وخالدا هو فيها"(٤). ولاشك أن وراء هذا التلوين في الموضعين أغراضا بلاغية.

(١) روح المعاني للألوسي (٢٦٩/٥).

(٢) هو الليث بن سعد، مولده: بقرقشندة -قرية من أسفل أعمال مصر- في سنة أربع وتسعين، سمع عطاء بن أبي رباح، وابن شهاب الزهري، استقل بالفتوى في زمانه، وتوفي ١٧٥هـ، ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٠٤- ٢١٩) .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٤٤٩/٣).

(٤) الكشاف للزمخشري (٤٨٧/١).

فيرى الباحث أن في إفراد اسم الفاعل ﴿خَـٰلِدًا﴾ الذي له ضمير مستتر تقديره هو دلالة على أن سبب تخليد هذا المتعدي حدود الله هو اعتداؤه على حقوق الآخرين، لاسيما أن الآية في سياق الإرث، وهذا الاعتداء سببه القوة أو كثرة الأعوان، فكان جزاؤه أن تركه الله في النار مخلدا، مستوحشا بانفراده، فلا معين ولا نصير، فكان الجزاء من جنس العمل.

وكلمة (مَنْ) في الآية مفردة في لفظها، مجموعة في معناها، لذا صح الوجهان[(١)]، ولم يزد بعض المفسرين على هذا التوجيه[(٢)]، والصحيح أنه مع جواز الوجهين فإن وراء هذا الاختيار المتباين بلاغة تحتاج إلى ترو، ولقد وردت الآيتان في سياق تقسيم الله المواريث، حفظا لحقوق الناس من الاعتداء عليها وظلم أهلها، فقال الله بعدها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ ولذلك عظم عند الله من أطاع الله ورسوله -ﷺ- في حقوق خلقه، فجمع خالدين يوحي بكثرة الطائعين زمن التكليف، فبما أنهم أنِسوا بطاعة الله في الدنيا، واجتمعوا عليها، فقد جزاهم الله بجنس عملهم، فجمعهم في دار الأنس والألفة، وانتفاء جميع منغصاتها، فاجتمعت لهم النعم النفسية والجسدية، وكل نعيم اشتهوه، أما الكفار الذين ظلموا وتعدوا حدود الله فهم متفرقون، وإن كثروا في الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤]، فلم تزدهم تلك إلا وحشة وفرقة في النار؛ إيلاما لهم، وشدة في عذابهم، فمن شدة العذاب أصبح كل واحد منشغلا بنفسه، فاجتمع على كل واحد العذابان النفسي والجسدي، فأشغله بنفسه وعزله عن غيره، لاسيما والخلود أبدي للصنفين.

ولعل من أسباب إفراد تخليد المعذب هنا أنه عصى الله عز وجل، وعصى رسوله -ﷺ- وتعدى حدود الله في قسمة المواريث؛ اعتمادا على عظمته وعدم قدرة أحد

---

(١) كابن عطية في المحرر الوجيز (٢/٢١)، والرازي في مفاتيح الغيب للرازي (٩/٥٢٦)، والبيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/٦٤).

(٢) ينظر إلى التمهيد عند الحديث عن(من)، (ص:٥٢) وما بعدها.

على رده عن ذلك؛ لأنه ذو جمع وغلبة، فلذلك استحق هذه الوحشة في نار جاء ذكرها على التنكير تعظيما وتهويلا.

وقد قارن السامرائي بين جمع خالدا في سورة الجن، وإفرادها في سورة النساء، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢٣]، فتسائل عن ذلك ثم أجاب بقوله: "إن الوعيد بالعذاب في آية النساء أشد، وذلك لأنه عذاب بالنار وبالوحدة، والوحدة في حد ذاتها عذاب ولو كانت في الجنة، ولذا لا تجد في القرآن ذكر(خالدا) بالإفراد في أصحاب الجنة، بل لا يذكر ذلك إلا في صورة الجمع (خالدين) للزيادة في النعيم بالاجتماع المستلزم الإنس، وأما سبب زيادة العذاب في آية النساء فلأنه زاد على معصية الله ورسوله تعدي الحدود، ولم يذكر ذلك في آية سورة الجن، فاستلزم ذلك زيادة العذاب وزاد أيضا قوله: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾...ومما حسن الإفراد في آية النساء أيضا أنهم أقل من المذكورين في آية الجن، وذلك لأنهم عصوا الله ورسوله وتعدوا حدوده، فكانوا أقل من الذين عصوا الله ورسوله، ولم يذكر أنهم يتعدون حدوده، فإن أولئك أعم وأكثر فازدادوا تخصيصا، فاستخدم الإفراد للقلة النسبية أيضا إلى ما ذكرنا"(١).

وللعلماء تأويلات منها ما قاله الإمام البقاعي:" وجمع الفائزين بدخول الجنة في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تبشيراً بكثرة الواقف عند هذه الحدود، ولأن منادمة الإخوان من أعلى نعيم الجنان... وأفرد العاصي في النيران في قوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ لأن الانفراد المقتضي للوحشة من العذاب والهوان"(٢).

---

(١) من أسرار البيان القرآني لفاضل السامرائي (ص:٢٩١-٢٩٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٥/٢١٥).

وذكر أبو حيان توجيها آخر فقال:" وأفرد ﴿خَٰلِدًا﴾ هنا، وجمع في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة، وإذا شفع في غيره دخلها، والعاصي لا يدخل النار به غيره، فبقي وحيدا انتهى"[(١)].

وأشار المفسر المعاصر محيي الدين درويش إلى أنّ في هذه الآية فنّا غريبا، يطلق عليه اسم: جمع المختلفة والمؤتلفة، فقد جمع ضمير الخالدين في الجنة؛ لأن كل من دخل الجنة كان خالدا فيها أبدا، أو لتفاوت درجات الخالدين. أما أهل النار فبينهم الخالدون وغير الخالدين من عصاة المؤمنين، فساغ الجمع هناك ولم يسغ هنا؛ لأن الخالدين في النار فرقة واحدة، أما الخالدون في الجنان فهم طبقات بحسب تفاوت درجاتهم. وهذا من أسمى مراتب البيان[(٢)].

ومع عظيم وجاهة ما ذهب إليه الشيخ؛ إلا أن إدراج هذا النوع تحت جمع المختلفة والمؤتلفة قد لا يكون مسلما به، وذلك بحسب تعريف ابن أبي الأصبع لهذا النوع بأنه: عبارة عن أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح بمعان تخالف معاني التسوية، كقول الخنساء في أخيها[(٣)]، وقد أرادت مساواته بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/٥٥١).

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين الدرويش (١/٦٣٢-٦٣٤).

(٣) يقصد قولها عندما قيل لها: لئن مدحتِ أخاك فقد هجوتِ أباك، فقالت تصف صخرا، وقد أرادت مساواته بأبيها، مع مراعاة حق الوالد:

جَارَى أباهُ فأقْبَلا وهُمَا ... يَتَعَاوَرَانِ مُلاْءَةَ الفَخْرِ
حتَّى إذا نَزَتِ القُلُوبُ وقَدْ ... لُزتْ هُنَاكَ العُذْرِ بالعُذْرِ
وعَلا هُتافُ النَّاسِ أيّهُما ... قالَ المجيبُ، هُناكَ: لا أدري
بَرَزَت صَحيفَةُ وَجْهِ والِدِهِ ... وَمَضَى عَلَى غُلوائِهِ يَجْرِي

ورويت: في تحرير التحبير لابن أبي الإصبع العدواني: برقت صفيحة، وفي الديوان: برزت صحيفة. ينظر: تحرير التحبير لابن أبي الإصبع العدواني ص ٣٤٥، وديوان الخنساء (ص٦٤- ٦٥) .

حق الولد، وأتبعه بشواهد تناصر قوله[1]. والشواهد التي ذكرها محيي الدين في تفسيره هي منها، أما الآية فليست كذلك؛ لأنها وصف بين ممدوح ومذموم، والله أعلم.

والمتتبع للفظة (خالدا) يجدها ذكرت في ثلاثة مواضع، كلها في حقوق الخلق، فذكرت في الموضع السابق، أما الموضع الثاني ففي سورة النساء أيضا في سياق الحديث عن عظم جرم القتل وجزاء فاعله، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣]، والقاتل في الأغلب واحد، وقد يكون معه أعوان دفعوه إلى ذلك، فأفرد بالخلود، وتخلى عنه الجمع، فجاء بيان الجزاء ردعا لكل من هم بهذا الجرم.

أما الموضع الثالث فجاء حفظا لحق سيد الخلق -ﷺ- من شناعات المنافقين فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [التوبة:٦٣]، وقد ذكرت بعد سياق الحديث عن أذية المنافقين للنبي -ﷺ- وحلفهم إرضاء لغيره[2]، فأخبرهم الله أن كل واحد منهم مرتهن بعمله، وأن اجتماعهم على أذية النبي -ﷺ- موردهم جهنم أفرادا، كل يعزله عذابه عن غيره، ويشغله في نفسه حيث الوحشة والعذاب.

وألفاظ العموم معناها الجمع ومن ذلك لفظة (بعض) والبعض في اللغة الطائفة من الشيء[3]، والطائفة تتكون من أفراد، وهؤلاء الأفراد جماعة، وبعض الشيء أجزاؤه

---

(١) تحرير التحبير ابن أبي الأصبع(ص: ٣٤٤)، والشواهد في ما يليها من صفحات.

(٢) الآيات: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة: ٦١-٦٢].

(٣) ينظر لسان العرب، فصل الباء الموحدة، مادة: بعض (١١٩/٧)، ومختار الصحاح، باب: الباء، مادة: بعض (ص:٢٨).

ومن هنا يقف الباحث على قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٣]، فيجد أن الآية بدأت بخطاب على صيغة الجمع، ويظهر ذلك في ميم الجمع في قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، والبعض هم الطائفة كما ذكر آنفا، غير أن ضمير الرفع في قوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ جاء على صيغة الإفراد، فلم يقل: فليؤدوا الذين اؤتمنوا، وهو عائد إلى الاسم الموصول، لكن مقتضى الظاهر أن يأتي ضمير تخاطب به الجماعة، لكن البلاغة هنا في عدم المطابقة، فمجيء الضمير على الإفراد أبلغ لإلزام المؤتَمَن بالإيفاء؛ لأنه خوطب وحده، فتحذير الواحد يجعله يجدّ في تحمل المسؤلية، أما تحذير الجماعة فقد يخالفه مخالف، ويتهاون به متهاون، كما أن الأمانة تكون في الأغلب بين اثنين مؤتِمن ومؤتَمَن، وبذلك كان بتلوين الخطاب بلاغة لا تكون في مطابقة مقتضى الظاهر، واللمسة البيانية الأخرى أن ضمير الواحد جيء به للتقليل، لأن الأَولى الكتابة كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ﴾ [الآية، البقرة:٢٨٢]، ثم الرهان وأبيح ترك الكتابة والرهان إذا أمن صاحب المال الأمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٣] والحالة الأخيرة هي أقل الحالات، فجاء الضمير مفردا تنبيها لأصحاب الأموال من الاحتياط التام كيلا تضيع الحقوق بمجرد ثقة لم تكن في محلها؛ ولذلك أمر الله بكتابة الدين والإشهاد عليه مع جميع الناس، فإن كانوا على سفر وتعذر وجود الكاتب فرهان مقبوضة، وهذه حالة أقل من سابقتها، وفي أضيق الدوائر عفي عن الكتابة والرهان إذا أمن بعضهم بعضا، فناسب هذه الحالة مجيء الضمير للمفرد مع إلزام المؤتَمَن بالتقوى؛ ليكون عند حسن ظن الظان به خيرا، وهو مدعو لأداء ما اؤتمن عليه كناية عن صفة الإيفاء، وذلك بقوله

تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ وسمي الدين أمانة تأكيدا على رده إلى أصحابه، وإلزاما للوفاء به، وذلك من باب المجاز كما ذكر ابن عاشور(١).

ومن المواضع التي جاء الضمير فيها مفردا عائدا إلى جمع ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس:٨٣]، ففي الآية ضمير مفرد عاد على جمع وذلك في قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ فلم يقل: أن يفتنوهم، مع أنها مسبوقة بفرعون والملأ، ولعل البلاغة في إسناد الفعل إلى ضمير الواحد لا إلى ضمير الجمع، مع أن ظاهر النظم يقتضيه؛ هو اقتضاء المعنى ذلك، فلما كان الله ينجي المؤمنين من كيدهم، ضعف الفتنة وقللها بإسنادها إلى الواحد، على خلاف الخوف لأنه شعور فطري قد يحدث مما تراه العين أو تسمعه الأذن من أهوال من غير اختيار، فاستدعى ذلك ضمير الجمع في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾(٢) لانتشار الخوف، لكن الفتنة التي فسرت بالقتل والتعذيب قللت(٣)؛ لأن كيد فرعون هالك، لا سلطان له على مؤمن، فجاء التقليل مناسبا لهذا المعنى، وفيه بشارة لغلبة المؤمنين، فكثّر رهبتهم وقلل حقيقة فتنتهم؛ لأن الآخرة خير وأبقى، على أي فتنة تصيبهم، على تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس:٨٣] بالبطش وكثرة القتل والتعذيب، والله أعلم.

وللثعلبي رأي بهذا العدول فيقول:" أن يفتنهم بصرفهم عن دينهم، ولم يقل: يفتنوهم لأنه أخبر أن فرعون وقومه كانوا على الضلال"(٤).

وأشار الطبري في توجيهه لهذا الإفراد إلى الاكتفاء بالدليل السابق فقال:" وقال: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ فوحد ولم يقل: (أن يفتنوهم)؛ لدليل الخبر عن فرعون بذلك أن قومه

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٠/٤).

(٢) ينظر: مبحث عود ضمير الجمع على المفرد (ص:٢٧٧-٢٨٠).

(٣) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٩٨).

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (١٣٤/٥).

كانوا على مثل ما كان عليه، لما قد تقدم من قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾"[1].

وقد تتبع الشهاب في حاشيته على البيضاوي توجيه ضمير الإفراد في قوله تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ فقال:" قوله: (وإفراده بالضمير) أي بالإبدال منه، وإرجاع الضمير إليه لأنه شرط في بدل الاشتمال، ويحتمل أن يريد أنه بدل منه، وما عطف عليه، وأفرد الضمير لما ذكره وإن كان الخوف والبدلية من المجموع ففي تعبيره على كل حال تساهل لا يخفى، وقوله كان بسببه لأنهم مؤتمرون بأمره ثم إنه قيل: إن قوله: وإفراده بالضمير جار فيما إذا كان المراد بفرعون آله، بأن يرجع إليه وحده على طريق الاستخدام، وإنه ردّ على الزمخشري إذ منعه، ولا يخفى ما فيه من التكلف"[2].

وقد يكون الأمر كما أورد الشهاب، أنه جرى في الآية الفن البديعي فن الاستخدام[3]، وهو أن ضمير الجمع عاد مرة إلى فرعون باعتبار آله وجنوده، ثم عاد الضمير مفردا مقصودا به فرعون وحده، وقد يكون عود الضمير المفرد على فرعون وحده عندما ذكرت الفتنة، إضعافا لفرعون، وبشارة للمؤمنين كما ذكر الباحث من قبل.

وقد يعبر عن الواحد باللفظ الدال على الجماعة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[النمل:٣٥-٣٧]، فيرى بعض أهل اللغة والتفسير أن رسول

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٢٤٧/١٢).

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي شهاب الدين الخفاجي (٥٣/٥).

(٣) ينظر تعريف الاستخدام (ص:٦٢).

بلقيس كان واحدا[1]، بدليل قوله تعالى: ﴿جَآءَ﴾ وقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ﴾، لكن جمع المذكر السالم يكشف غير ذلك، فمجيء ضمير الغائب الواحد عائدا إلى جمع المذكر السالم ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وظاهر السياق أن يعود ضمير الغائبين على الجمع لمناسبة ذلك له، يُظْهر للباحث أن بلاغة التلوين في الضمائر تكمن في اختلاف زمن الضمير، فالجمع جاء قبل تحديد الرسول وتكليفه بإيصال الهدية، وجميع الرسل تحت أمر الملكة رهناء إشارتها، وهي فيهم صاحبة قرار نافذ فجاء الجمع؛ لبيان جبروتها ونفاذ قرارها، ولما حددت الهدية حدد الرسول وجاء الضمير على الإفراد؛ للواقع واعتبارا لما كان، والله أعلم.

وقد يكون الإفراد لعظمة مقام سليمان –عليه السلام– لأنه زعيم لا يتحدث مع هيبته إلا زعيم الرسل؛ فلذلك جاء الإفراد من باب المجاز المرسل، الذي علاقته الجزئية، فعبر بالجزء وأريد الكل.

وقد عرض الشيخ محمد الأمين الشنقيطي إلى سبب عدم مطابقة الضمير لمرجعة في هذه الآية فقال: " قوله تعالى إخباراً عن بلقيس: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ، يدل على تعدد رسلها إلى سليمان وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ بإفراد فاعل جاء، وقوله تعالى إخباراً عن سليمان أنه قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ﴾ الآية يدل على أن الرسول واحد. والظاهر في الجواب: هو ما ذكره غير واحد من أن الرسل جماعة وعليهم رئيس منهم فالجمع نظراً إلى الكل، والإفراد نظراً إلى الرئيس؛ لأن من معه تبع له، والعلم عند الله تعالى"[2].

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/٢٨٨)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٧٣)، ومعترك الأقران، في إعجاز القرآن للسيوطي (١/١٩٤).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٧٥).

ويرى أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾أن في إسناد الفعل إلى ضمير الغائب بعد الجمع ملمسا بلاغيا فيقول:" أي مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب، وقيل: للرسول ومن معه، ويؤيده أنه قرئ: فلما جاءوا، والأول أولى؛ لما فيه من تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمهما لبلقيس وقومها، ويؤيده الإفراد في قوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾"(1).

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ فقد جاء ضمير الجمع عائدا إلى سليمان – عليه السلام– وكذلك المسند إليه في الفعل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ قد جاء ضمير جمع للمخاطبين، والرسول المتلقي واحد، وبلاغة هذا ستبحث في موطنها، من مبحث عود ضمير الجمع على المفرد(2).

وأورد السيوطي رده على ابن فارس في إطلاق المفرد على الجمع في هذا الموطن، فقال:" وجعل منه ابن فارس: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ والرسول واحد، بدليل: ارجع إليهم. وفيه نظر، لأنه يحتمل أنه خاطب رئيسهم، لا سيما وعادة الملوك جارية ألا يرسلوا واحداً"(3).

ويرى ابن حيان، وابن عادل: أن الإفراد جاء للجنس ليست للرسول الواحد، واستدلا لقولهما بقوله تعالى: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ وقراءة عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – بواو الجماعة في قوله: ﴿جَآءَ﴾ وقوله: ﴿ ٱرْجِعْ﴾ (4).

ووافقهما ابن عاشور في كون الإفراد للجنس، وجوز تقدير الركب فاعلا للفعل جاء، أي: جاء الركب؛ لأن هدايا الملوك يحملها ركب في العادة(1).

---

(١)إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢٨٥/٦).

(٢) ينظر موطنه من ص: (١٨٠-١٨١).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١٩٤/١).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان(٢٣٧/٨)،واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٦١/١٥).

غير أن الباحث يرى أن دليلهما في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ ليس قويا، لأن خطاب الجماعة هنا وإن كان خطابا للرسول لمباشرته الخطاب؛ إلا أن المراد به الملكة وقومها؛ بدليل: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ ولذلك جاء الجمع، أما قراءة عبدالله بواو الجماعة فهي موافقة للفظ في جمع المرسلين، لكن الإفراد للمعنى.

ومن مواضع عود ضمير الإفراد إلى الجمع ما وجده الباحث في صدر سورة الحج حيث خاطب الله الناس، ووصف أحوالهم يوم الزلزلة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾ [الحج:١-٢]، ويلاحظ اختلاف المسند إليه في الفعلين، ﴿تَرَوْنَهَا﴾ و﴿وَتَرَى﴾ ففي الأول جاء المسند إليه واو الجماعة عائدا - حسب ما اقتضاه الحال- إلى المخاطبين، لكن الفعل الثاني جاء فيه التلوين فأسند إلى ضمير الواحد، ولم يسند إلى ضمير الجماعة سيرا على ما يقتضيه الظاهر، ولعل السر في مخالفة الضمير لمقتضى الظاهر في الفعل: ﴿وَتَرَى﴾ يفهم بعد الوقوف على أحوال الناس في ذلك اليوم، وذلك يصوره مشهدان:

المشهد الأول: ذهول كل مرضعة، ووضع كل ذات حمل حملها، حال رؤية الناس هذه الزلزلة العظيمة.

المشهد الثاني: حال الناس كحال السكارى وما هم بسكارى، ونفى السكر لما يحدثه من خيال ومشاهد غير واقعية، وبذلك أُثبت العقل لهم وأن ما يرونه حقا.

فالذين رأوا المشهد الأول ذهلوا فأصبحوا كأنهم سكارى وما هم بسكارى وهم عامة الناس.

=

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور :(٢٦١/١٩).

والذي رأى المشهد الثاني لعامة الناس وكأنهم سكارى، هو النبي -ﷺ- فلهذا الغرض جاء إفراد المسند إليه في الفعل: ﴿وَتَرَى﴾ ليضفي على النبي -ﷺ- الأمن مما حل بالناس يوم الفزع، فجاء الإفراد بشارة للنبي -ﷺ- بنجاته من هذه الأهوال المفزعة التي حلت بالناس، وعناية به -ﷺ- وتلك من أعظم النعم.

فالناس رأوا الزلزلة وما حل بكل مرضعة وكل ذات حمل فذهلوا، والنبي -ﷺ- رأى ما حل بالجميع وهو آمن من هذ الفزع بفضل من الله ورحمة.

قال النيسابوري في ذلك:" أفرد بعد أن جمع لأن الزلزلة تراها الناس جميعا، وأما السكر الشامل للناس فإنه يراه من له أهلية الخطاب بالرؤية وقتئذ ولعله ليس إلا النبي ﷺ"(١).

أما الزمخشري ووافقه الرازي(٢) فقد قال:" فإن قلت: لم قيل أولا: ترون، ثم قيل: ترى، على الإفراد؟ قلت: لأن الرؤية أولا علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعا رائين لها، وهي معلقة أخيرا بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم"(٣).

وفي رأيهما - رحمهما الله تعالى- نظر، بيانه ما ذهب إليه الباحث آنفا، ورأيهما بأن الإفراد جاء ليجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم لا يستقيم؛ لتعذر ذلك في حالة العقل التام، فكيف وقد أصابهم الذهول الذي يفقدهم التركيز والتمييز التام؟ لكن الإفراد جاء حالا لشخصية في مأمن مما حل بأولئك - والله أعلم- وهو النبي ﷺ.

ولقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزمخشري، والرازي، جماعة من المفسرين منهم أبو حيان(٤)، وأبو السعود(١).

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٦٤/٥).

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٣٤٤).

(٣) الكشاف للزمخشري (١٤٣/٣).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٤٨٢/٧.

ويرى الكرماني أن الفعل ﴿وَتَرَى﴾ بعد ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ محول على أيها المخاطب(٢)، ولعل مقصوده أن الخطاب لغير معين، ليشمل كل من يصلح خطابه.

وإلى هذا الفهم ذهب ابن عاشور فذكر أن الخطاب في ﴿وَتَرَى﴾ لغير معين، وهو مساو للجمع في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ وإنما أوثر الإفراد هنا للافتنان؛ كراهية إعادة الجمع. وعدل عن فعل المضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَتَرَى﴾ لاستحضار الحالة والتعجيب(٣).

أما الألوسي فواضح من قوله أنه تبع الزمخشري ومن وافقه في أن الإفراد في قوله: ﴿وَتَرَى﴾ لكل واحد من المخاطبين، ويذكر علة الجمع والإفراد، وأن الجمع جاء عندما كانت الزلزلة هي المشاهدة التي يراها الجميع، فناسب ذلك ضمير الجمع، وأما الحالة الثانية فهي حالة مَنْ عدا المخاطب، وما يراه من أحوال الذهول لدى كل من سواه، فناسب ذلك إفراد الضمير لمخاطبة كل واحد بذلك من غير نظر إلى حالته، بل النظر إلى المرئي لا الرائي، فقال :" على خطاب كل واحد من المخاطبين برؤية الزلزلة، والاختلاف بالجمعية والأفراد لما أن المرئي في الأول هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع، وفي الثاني حال مَنْ عدا المخاطب منهم، فلا بد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم، لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة، فإن المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئي لا في الرائي باختلاف مشاعره؛ لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها، كأنه قيل وتصير الناس سكارى إلخ، وإنما أوثر عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحال فيهم، وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد؛ قاله غير واحد"(٤).

=

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٩٢/٦)، .

(٢) أسرار التكرار في القرآن(ص: ١٨٠).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٩/١٧).

(٤) روح المعاني للألوسي (١٠٩/٩).

غير أن الألوسي ذكر بعد توجيهه السابق، أن بعضهم جوز كون الخطاب للنبي ﷺ، ولكنه رأى أن توجيهه الأول أبلغ في التهويل(١).

ولا يرى الباحث ما ذهب إليه من قال أن الإفراد جاء خطابا لكل واحد، لأن كل واحد يرى ما حل بغيره، ولو كان التأويل كما قالوا لأُثبتت الرؤية المدرِكة والتمييز لكل واحد، وأنه يدرك ما حلّ بغيره، وبذلك ينتفي الذهول المفضي إلى ما يشبه حالة السكر عن الكل، لأن كل واحد يدرك حال غيره؛ وهذا مناف لمعنى الآية.

أما ما ذهب إليه ابن عاشور من أن الغرض للافتنان وكراهية إعادة الجمع ففيه نظر، لأن هذا العدول لا يجري على كل آيات القرآن، فقد تتوالى التثنية أو الجمع في آية أو آيات من غير كراهية، ولا يعدل عن ذلك إلا أن يكون هناك غرض معنوي، ولا يكتفى بالتفنن وحده.

واختلاف التأويل منشأه من اختلافهم في وقت الزلزلة هل هي كائنة في الدنيا قبل يوم القيامة، أم هي في يوم القيامة؟ فقال بعضهم: هي في الدنيا قبل يوم القيامة.

قال الطبري: وقد روي عن النبي -ﷺ- بنحو ما قال هؤلاء خبر في إسناده نظر(٢)، ثم ذكر أن الصحاح جاءت بخلاف هذا(٣)، ثم ذكر جملة من الأحاديث تدل على أن هذه الزلزلة في يوم القيامة(٤).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ

---

(١) المصدر نفسه(٩/١٠٩).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٦/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٣) المصدر نفسه(١٦/٤٤٧).

(٤) المصدر نفسه(١٦/٤٤٧-٤٥٤).

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ"(١).

وقد يكون الضمير صالحا لعوده إلى أكثر من مرجع، فيأتي مفردا، مع صلاحية جمعه، ولكن منع من جمع الضمير كون لفظ الله أحد من عاد إليه الضمير فتحرز من ضمير الجمع منعا للإشراك، ويظهر ذلك في لفظة: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ حيث أسند الفعل إلى ضمير يصح أن يعود إلى المراجع الثلاثة التي سبقته، ولا يختل المعنى، بل يزداد كثافة، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فلقد جاء الفعل (يحكم) مسندا إلى ضمير، وهذا الضمير مفتقر إلى مرجع، وقد سبق بثلاثة مراجع كلها صالحة له، فالكتاب هو الأقرب، وسبقه ذكر النبيين، ثم لفظ الجلالة الله، والله هو الحاكم، ولمعرفة مرجع الضمير يقف الباحث على قول الرازي، رحمه الله.

فقد ذكر الرازي كلاما نفيسا فقال: "فاعلم أن قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ فعل فلا بد من استناده إلى شيء تقدم ذكره، وقد تقدم ذكر أمور ثلاثة، فأقربها إلى هذا اللفظ: الكتاب، ثم النبيون، ثم الله فلا جرم(٢) كان إضمار كل واحد منها صحيحا، فيكون المعنى: ليحكم الله، أو النبي المنزل عليه، أو الكتاب، ثم إن كل واحد من هذه الاحتمالات يختص بوجه ترجيح، أما الكتاب فلأنه أقرب المذكورات، وأما الله فلأنه سبحانه هو الحاكم في الحقيقة لا الكتاب، وأما النبي فلأنه هو المظهر، فلا يبعد أن يقال: حمله على الكتاب أولى. أقصى ما في الباب أن يقال: الحاكم هو الله، فإسناد

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج... (ص: ٨٢٤) رقم: ٣٣٤٨. وعند مسلم بلفظ آخر، رقم: (٢٢٢)، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة تسعين(٢٠١/١).

(٢) لا جرم بمعنى: حقا.

الحكم إلى الكتاب مجاز، إلا أن نقول: هذا المجاز يحسن تحمله لوجهين؛ الأول: أنه مجاز مشهور يقال: حكم الكتاب بكذا، وقضى كتاب الله بكذا، ورضينا بكتاب الله، وإذا جاز أن يكون هدى وشفاء، جاز أن يكون حاكما"(١).

ويتضح مما توصل إليه الرازي أن هذا الضمير وتعدد مرجعه أتى بالنفائس بعد التأمل، فصلاحية الضمير برجوعه إلى أحد هذه المراجع الثلاثة، أو كلها؛ نابع من الأدلة التي ساقها الرازي وهي ترجح كل مرجع، وتدل على أن السياق مُحْكم، لم تشتت هذه المراجع معناه، ولم تلبس على المتلقي شيئا منه، بل أضاف تعدد المرجع ثراء دلاليا، فالحكم يصدق على كل واحد مما سبق، فلقد استثار الضمير فكر المتلقي، فبعثه على التأمل الذي كانت زبدته استقرار المعنى في ذهن المتلقي، إثر كثافة الدلالة واتساع دائرة المعنى، التي لن تحصل لو عاد الضمير إلى الأقرب فقط. ومما يظهر للباحث أن الكتاب صار الأقرب للضمير؛ لأنه هو الحجة الخالدة والمعجزة الدائمة، والنبيون خالطوا البشر، وحكَّموا فيهم كتاب الله، لكنهم يفنون ولا يبقى سوى المنهج، أما الكتاب الذي أنزل الله فيه الحكم فهو باق، ولكل مرجع أدلته اللغوية والشرعية، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]، ويقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]، فاجتمع بذلك كثافة معنوية، وتوحيد لله جلّ شأنه، وتلك البلاغة، والله أعلم.

ومما عرض من شواهد يتبين أن ضمير المفرد قد يكون غير مطابق لمرجعه في الظاهر، أويعود إلى مرجع سبقه إليه ضمير جمع، فجاء التحول من ضمير الجمع إلى ضمير الإفراد، لأغراض منها: تأصيل التوحيد والعقيدة، فكثيرا ما تأتي ياء المتكلم بعد ناء المعظم نفسه، لأن ما أسند أو أضيف إلى ناء المعظم نفسه يوحي بالعظمة والجبروت، ولا يأتي إلا مع الأمور العظام، كقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى﴾ و﴿هُدَاىَ﴾

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣٧٥/٦).

بعد قوله: ﴿قُلْنَا﴾ومثلها: ﴿بَيْتِيَ﴾ و﴿لَّا تُشْرِكْ بِي﴾ بعد قوله: ﴿بَوَّأْنَا﴾ ومثلها إضافة العباد إلى ياء، في قوله في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ بعد قوله:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، فالتلوين من مما جاء على صورة ضمير الفاعلين في لفظه دون معناه إلى ياء المتكلم؛ لإفراد العبادة لله، أما إذا كان المتحدث عنهم ممن اصطفاهم الله فإن لفظة عبد، أو عباد تضاف إلى صورة ناء المتكلمين تعظيما لله؛ لأن هذا ضمير الواحد المعظم نفسه، فلفظها للجمع ومعناها هنا للواحد؛ وجاءت على هذه الصورة لأن اللبس يمتنع حينها؛ لكون الحديث عن خيرة الخلق، ومن هم بالله أعرف، ومنه أخشى، ويأتي الضمير مفردا عائدا إلى المتعاطفات، ومن ذلك الضمير الذي أسند إليه اسم الفاعل في قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ مع أنه مسبوق بلفظ الجلالة والملائكة وأولي العلم؛ لما في ذلك من تنزيه الله عن الشريك. كما أن ياء المتكلم تأتي لتفسر ما أسند إلى ضمير الجمع العائد على الله للتعظيم، وذلك مثل: ﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾بعد قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾، أو في مواطن مختلفة مثل: ﴿رُّوحِي﴾ و﴿رُّوحِنَا﴾، وكذلك ﴿عِبَادِي﴾ و﴿عِبَادِنَا﴾ ومثل ذلك كثير. وتبين أن ياء المتكلم في: مثل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جاءت في ثلاث مواضع كلها تحتمل معنى الرفق، أما إذا كانت في سياق التهديد والوعيد، فإنها تحتمل معنى القوة والجبروت فتأتي ناء المعظم نفسه، في مثل قوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، ويعدل عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع لغرض الإحصاء والإحاطة، ويأتي ضمير الإفراد مسندا إليه الفعل الذي لا يكون معناه إلا من واحد، وإن سبق باثنين أو أكثر، مثل البشارة التي لا يكون أثرها المسعد إلا من واحد، أما الثاني فلا يسمى مبشر. ويعود الضمير مفردا إلى المتعاطفات المختلفة بالجنس موافقا لأحدها مبالغة فيما حكم عليه به، مع صلاحيته للجميع، ويأتي الضمير المفرد عائدا إلى الجمع لغرض التقليل والتحقير مثل: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وقد سبق بفرعون وملئه، أو للتعظيم كما أفرد الضمير العائد إلى رسل بلقيس تعظيما لسليمان، ويأتي لإرادة الجنس. وجاء الإفراد ليستثني النبي -ﷺ- مما يحل بالناس في الزلزلة، كما هو في أول سورة الحج.

المبحث الثالث: عود ضمير المثنى على المفرد .

ومن سنن اللغة العربية وقواعدها أن يعود الضمير على مرجع مطابق له، ولكن الكلام البليغ قد يعدل عن هذا التطابق لغرض بليغ لا يتسنى تحققه في حال المطابقة، وهذا التغاير لم يأت في القرآن الكريم إلا لسر بليغ يكشف عنه السياق في نظر المتدبر بتوفيق من الله وإلهام.

ومن المواطن التي جاء الضمير المفرد فيها عائدا إلى مثنى وظاهر الأمر المطابقة، ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾ [النساء:١٣٥]، وظاهر الكلام أن يأتي ضمير الإفراد فيقال: (به) بدلا من ﴿بِهِمَا﴾؛ لأن الفعل ﴿يَكُنْ﴾ مسند إلى ضمير الواحد، وحرف العطف (أو) يفيد التخيير عند اللغويين، فأحد الحالين المتضادين يكون حالا لشخص واحد، ولا يجتمعان، وظاهر هذا أن يأتي الضمير مفردا، لكن الضمير جاء على التثنية لغرض بليغ؛ ليوسع الدائرة، فبعض الخلق يندرجون تحت جنس الأغنياء، وبعضهم تحت جنس الفقراء، فأراد الله الإخبار عن الجنسين؛ لأن الخصم لا يكون إلا واحدا من الجنسين، فجاء ضمير التثنية لجنسي المدعي والمدعى عليه، وجاء في سياق الحديث عن الشهادة، فلا يجوز كتمها لعاطفة أو شفقة أبدا، بل لا بد من بيانها سواء أكان المشهود له أو عليه من جنس الأغنياء، أو من جنس الفقراء، فضمير التثنية يدل على العدل التام الذي لا يستثني أحد الاثنين، فأوجب النزاهة في كل حال، من غير جنف لقرابة، أو لحال فقير وغني، فتبين بذلك أن هذا الاختيار خادم للمعنى.

وعلى ذلك لا يكتفى بالقول الذي ذكره أبو حيان وعزاه إلى الفراء حيث قال:" قال الفراء: عادة العرب إذا رددت بين اسمين بأو، أن تعيد الضمير إليهما جميعا، وإلى أحدهما أيهما شئت"(١).

وتحليل الباحث مستفاد مما قاله الزمخشري حيث يقول:" فإن قلت: لم ثنّى الضمير في: ﴿أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وكان حقه أن يوحد؛ لأن قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ في معنى إن يكن أحد هذين؟ قلت: قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ لا إلى المذكور، فلذلك ثنّى ولم يفرد، وهو جنس الغني وجنس الفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسي الغني والفقير، أي بالأغنياء والفقراء، وفي قراءة أُبي: فالله أولى بهم وهي شاهدة على ذلك"(٢).

وقد استشهد جمع من اللغويين والمفسرين – على دلالة التثنية على إرادة الجنس – بقراءة أُبي: فالله أولى بهم. بالجمع لأنه جنسان تحته عدد كبير من الأفراد، ومنهم الفراء، والطبري، والزمخشري، وأبوحيان، وغيرهم(٣).

ويقول الرازي:" إلا أنه بنى الضمير على الرجوع إلى المعنى دون اللفظ، أي الله أولى بالفقير والغني"(٤). وقيل: إن حرف العطف (أو) بمعنى الواو(٥)، وقيل عاد الضمير على المعنى، أي: الخصمان(٦).

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/٥٤٧).

(٢) الكشاف للزمخشري (١/٥٧٥)

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢٥٨، جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٧/٥٨٧)، الكشاف للزمخشري (١/٥٧٥)، البحر المحيط لأبي حيان (٤/٩٦).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي (١١/٢٤١).

(٥) رواه ابن هشام عن جماعة منهم ابن مالك، ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٥٠٩).

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/٤٠).

ومن المتأخرين من رد القول بأن (أو) كالواو في هذا السياق، ومنهم الصبان إذ يقول: وليست أو بمعنى الواو كما قيل، والمعنى: أن يكن غنيًا أو فقيرًا فلا بأس، فإن الله أولى بالغني والفقير، لكن يجوز في (أو) التي للإباحة المطابقة، وإن كان المراد أحدهما نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين وباحثهما؛ لأنها لجواز الجمع بين الأمرين تشبه الواو"[1].

وروى الألوسي وجها لحرف العطف (أو) في الآية، هو أن الغرض منه التفصيل فقال: "وقيل: إنها على بابها وهي هنا لتفصيل ما أبهم في الكلام، وذلك مبني على أن المراد بالشهادة ما يعم الشهادة للرجل والشهادة عليه، فكل من المشهود له والمشهود عليه يجوز أن يكون غنيا، وأن يكون فقيرا، فقد يكونان غنيين، وقد يكونان فقيرين، وقد يكون أحدهما فقيرا والآخر غنيا، فحيث لم تذكر الأقسام أتي -بأو- لتدل على ذلك"[2].

وقريب مما سبق قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف:٥٠]، وإذا كانت عادة العرب أن تعيد الضمير بصيغة التثنية أو الإفراد على المتعاطفين بأو، كما روى أبوحيان[3]، فإن التساؤل الذي تثيره هذه الآية، ما البلاغة وراء اختيار ضمير التثنية في قوله: ﴿حَرَّمَهُمَا﴾ مع جواز عود الضمير مطابقا للمعطوف أو المعطوف عليه؟

ولعل البلاغة تكمن في غرض أنجبه السياق وهو التيئيس، وخيبة مرادهم، لا سيما والماء من الرزق؛ لكن ذكر بلفظه لأهميته لكل مريد للحياة، فهو روح الحياة.

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (١٨٣/٣).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٥٢/١٤).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٥٤٧/٣).

قال الرازي: "وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق واللهيب بسبب شدة حر جهنم. وقوله: أفيضوا كالدلالة على أن أهل الجنة أعلى مكانا من أهل النار"(١).

ولم يقل المولى: حرمه؛ كيلا يكون لهم في الضمير المفرد بصيص أمل فيما لو عاد الضمير بتحريم أحدهما. لاسيما وضمير الإفراد صالح لأن يعود على الماء، أو على بعض الرزق؛ لكونهما مذكرين، لكن ضمير التثنية أفاد تحريم المذكورين من غير استثناء لأحدهما، وهذا يورث الخيبة والخسران لأولئك المستغيثين.

ويقول ابن عادل في اللباب: " (أو) هنا على بابها من اقتضائها لأحد الشيئين؛ إمَّا تخييراً، أو إباحة، أو غير ذلك مما يليق بهما، وعلى هذا يقال: كيف قيل: حرَّمهما فأعيد الضَّمير مثنى وكان من حق من يقول: إنَّها لأحد الشيئين أن يعود مفرداً على ما تقرَّر غير مرة؟

وقد أجابوا بأن المعنى: حرّم كلاًّ منهما. وقيل: إن (أو) بمعنى الواو فعود الضمير واضح عليه"(٢).

ومن المواطن التي اجتمع فيها عود الضمير المفرد على المتعاطفَين بأو، وضمير التثنية ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١٢](٣)، فلم يقل الله سبحانه: ولهما أخ أو أخت، بل أعاد الضمير ﴿وَلَهُۥٓ﴾ مفردا مذكرا تغليبا للذكر، كما أن في ذلك إشارة إلى قلة الكلالة، فلم يأت الضمير بصيغة التثنية لما في الإفراد من التقليل والدلالة على الندرة، فتلك حالة نادرة، وهي بالرجل ألصق كما يتضح من تعريف الكلالة، مع أن

(١) المصدر.

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٩/١٣٣).

(٣) والكلالة الرجل الذي لا ولد له ولا والد، وقال الليث الكلّ الرجل الذي لا ولد له ولا والد، كلّ الرجل يكلّ كلالة. ينظر: لسان العرب، فصل الكاف، مادة (كلل)،(١١/٥٩٠)

المرأة داخلة في الحكم، ولعل الكلالة في جنسها أقل، وترك ضميرها طلبا للإيجاز؛ ولوضوح المراد بانتفاء اللبس، ولأن لكل واحد أجل، وتثنية الضمير أو إفراده جائزان في اللغة، ولما ذكر الله حق الوارثين قال: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾ فجاء التلوين من الإفراد إلى التثنية في الضمير فقال: ﴿مِّنۡهُمَا﴾ لئلا يتوهم متوهم، أو يجنف صاحب بغي، بأن حقهما في حال اجتماعهما يقل أو يحجب أحدهما الآخر؛ فجاءت التثنية منعا للبس، ومراعاة لضعف المرأة، فحفظت بالتثنية الحقوق، ومثل ذلك الإطناب في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء:٧]، فكلمة ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَ﴾ لم ترد إلا في سياق تأكيد حق النساء، حفظا لحقوقهن ومراعاة لضعفهن، لئلا يحرمن شيئا من حقوقهن ظلما وعدوانا، ولم يرد هذا الإطناب في سياق الحديث عن حق الرجال لأنهم أهل قوامة وقوة في الأغلب.

وقد أورد الزمخشري وجهين لمرجع الضمير في ﴿مِّنۡهُمَا﴾ فهو عند بناء الفعل ﴿يُورَثُ﴾ للمجهول فالضمير عائد إلى الرجل الذي يُورَّث وإلى أخيه أو أخته، والوجه الآخر أن يعود إلى الأخ وأخته فقال:" فإن قلت: فإن جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث، فما وجهه؟ قلت: الرجل حينئذ هو الوارث لا الموروث. فان قلت: فالضمير في قوله: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ إلى من يرجع حينئذ؟ قلت: إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته، وعلى الأول إليهما. فإن قلت: إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما في حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر الأنثى، فهل تبقى هذه الفائدة قائمة في هذا الوجه؟ قلت: نعم، لأنك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سويت بين الذكر والأنثى"(١).

(١) الكشاف للزمخشري (٤٨٦/١).

وأضاف الألوسي رأيا قويا فقال:" ولعله إنما عدل عن- فله السدس- إلى هذا؛ دفعا لتوهم أن المذكور حكم الأخ، وترك حكم الأخت لأنه يعلم منه أن لها نصف الأخ بحكم الأنوثة، والحكمة في تسوية الشارع بينهما تساويهما في الإدلاء إلى الميت بمحض الأنوثة"(١).

وهذا القول له وجاهته وذلك لأن الله سبحانه قال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [النساء:١١]، فلما بين أن حق الذكر مثل حق الأنثيين وعلق هذا في الذهن، تطلب التركيب ضمير التثنية ليخرج عن هذا الحكم ميراث الأخوة لأم، فجاء ضمير التثنية لغرض تسوية الأخ بالأخت، فلكل واحد منها السدس، فإن زادو فهم شركاء في الثلث.

وفي آية من سورة الكهف قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ ﴾ [الكهف:٦١] يأتي الفعل: ﴿نَسِيَا﴾ مسندا إلى ضمير الاثنين، والناسي فتى موسى بدليل قوله: ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾ [الكهف:٦٣]، ولعل ضمير المثنى والناسي واحد جاء لأدنى ملابسة، ولمشاكلة الضمير في قوله: ﴿حُوتَهُمَا﴾؛ لأن في إسناد الفعل إلى ضمير الاثنين سلاسة في النطق، ومشاكلة لما يتلوه من لفظ، ولو جاء المسند إليه ضميرا مفردا لأصبح في الكلام ثقل يتعثر اللسان بنطقه، لكن الغرض البلاغي لا يتوقف عند هذا الحدّ بل يتعداه إلى معنى لطيف يتضح بعد المقارنة بين تركيبين:

الأول: أن الله نسب النسيان إلى موسى – عليه السلام – وغلامه، والناسي الغلام بدليل اعتراف الغلام، وسؤال موسى غلامه الغداء.

الثاني: أن الغلام نسب النسيان إلى نفسه كما في الآية.

(١) روح المعاني للألوسي (٢/٤٤٠).

ويتضح بعد ذلك أن هذا النسيان الذي حدث من غلام موسى هو نهاية النَصَب، وهو الأمر الذي كان ينتظره موسى على موعد من ربه عند مجمع البحرين، فنسب النسيان للاثنين للمنفعة المشتركة بينهما، فحقيقته خير مرتقب، بدليل قول موسى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف:٦٤]، فاسم الإشارة والمشهد الحركي يجسدان مدى الفرحة بهذه البشارة، التي هي النسيان الموصل إلى الهدف، وانتهاء النصب، لكن سبب إسناد الغلام فعل النسيان إلى نفسه لأنه ليس لديه علم مسبق بحقيقة هذا النسيان، ويرى أنه خطأ وقع به، فنسبه لنفسه لحدوثه منه، وهيبة من موسى، عليه السلام.

وللعلماء في ذلك أقوال تثري، فقال الفراء: "﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وإنما الناسي صاحب موسى وحده. ومثله في الكلام أن تقول: عندي دابتان أركبهما وأستقي عليهما، وإنما يركب إحداهما ويستقى على الأخرى، وقد يمكن أن يكونا جميعا تركبان ويستقى عليهما. وهذا من سعة العربية التي يحتج بسعتها"(١).

ويتساءل الرازي عن سبب إسناد فعل النسيان إلى الاثنين والناسي فتى موسى، فيقول: "قلنا: أضيف النسيان إليهما مجازاً، والمراد أحدهما...سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى عليه الصلاة والسلام، واستأنس بها، فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سبباً لقلة اهتمامه بتلك الأعجوبة وعدم اكتراثه لها"(٢).

وقيل معنى السكوت الترك(٣)، وقيل: أضيف النسيان لهما جميعا لسكوت موسى عنه(٤).

---

(١) معاني القرآن للفراء (١/١٤٧).

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ٣٠٢ - ٣٠٣).

(٣) ينظر: كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لابن جماعة (ص:٢٤١).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/٤)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/١٣٠).

ويوجه الألوسي حال هذا النسيان لدى الاثنين فيقول:"والظاهر نسبة النسيان إليهما جميعا وإليه ذهب الجمهور، والكلام على تقدير مضاف أي نسيا حال حوتهما، إلا أن الحال الذي نسيه كل منهما مختلف، فالحال الذي نسيه موسى -عليه السلام- كونه باقيا في المكتل أو مفقودا، والحال الذي نسيه يوشع -عليه السلام- ما رأى من حياته ووقوعه في البحر"[١].

وقد يؤمر الواحد بما يؤمر به الاثنان، وقد يؤمر الجماعة بما يؤمر به الاثنان أيضا، كما قرره أهل اللغة في قوله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ق:٢٤] .

وهذا الإسناد كثر كلام أهل اللغة والمفسرين والبلاغيين فيه، فقد اختلفوا هل المأمور واحد أو اثنان، ثم اختلفوا في تحديد المأمور، فمنهم من يرى أن الإسناد جاء مطابقا لمقتضى الحال، والأغلب على أن الأمر بهذا الإسناد قد خالف المقتضى، ويرى الباحث أن الإلقاء إذا أسند فعله إلى الاثنين كان أقوى وأشد إيلاما للملقَى، ولكن الوقوف على أقوال العلماء يزيد المستضيء نورا.

فابن قتيبة يرى أن الخطاب لخزنة جهنم، أو زبانيتها. وأوردها شاهدا لقوله: ومنه أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين[٢]، ثم يذكر أول قول الفراء: "العرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان... ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرفقة، أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه[٣].

وفي موضع آخر يروي ابن قتيبة أن هذا يقال: هو قول الملك، ويقال: قول الله جل ذكره[٤].

---

(١) روح المعاني للألوسي (٢٩٦/٨).

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ١٧٨) .

(٣) معاني القرآن للفراء(٧٨/٣).

(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٣٩).

ويذكر السجستاني: أنه قيل:أن الخطاب لمالك وحده. وعلل هذا بمثل ما علل به الفراء قوله[1]. وقال النحاس فيما يرويه عن المازني[2]: معناه ألق ألق[3]، ويستنتج الباحث مما ذكره النحاس أن الغرض من إسناد فعل الأمر ألقيا إلى ألف الاثنين هو التوكيد.

وأورد النحاس في موضع آخر اختلاف النحويين في قوله ألقيا، فقال قوم: هو مخاطبة للقرين أي يقال للقرين: ألقيا. فهذا قول الكسائي والفراء، وزعم: أن العرب تخاطب الواحد بمخاطبة الاثنين فيقول: يا رجل قوما، وقال قوم: قرين؛ للجماعة والواحد والاثنين مثل ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤]، ثم ذكر قولا يعزى إلى المازني أنه قال: العرب تقول للواحد: قوما على شرط إذا أرادت تكرير الفعل أي قم قم، فجاؤوا بالألف لتدل على هذا المعنى، وكذا (ألقيا) وقول آخر: يكون مخاطبة لاثنين. معه السائق والحافظ جميعا[4].

أما الرازي فذكر أن الخطاب لواحد وهو مالك خازن النار، ثم أورد وجوها لضمير التثنية، الأول: أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد، أي ألق ألق، وعزاه

---

(١) ينظر: غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب للسجستاني(ص: ٨٠).

(٢) المازني: أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني، أحد بني مازن بن شيبان بن ذُهْل، قرأ على أبي الحسن الأخفش كتاب سيبويه، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي، وأخذ عنه أبو العباس المبرد، والفضل بن محمد البريدي، وغيرهم، وله تصانيف كثيرة؛ منها: كتاب التصريف، وكتاب ما تلحن فيه العامة، وكتاب الألف واللام، وكتاب العروض، وكتاب القوافي.توفي٢٤٧هـ، وقيل:٢٤٩هـ، وقيل: ٢٣٦هـ.ينظر: طبقات النحويين واللغويين (ص: ٨٧-٩٣). وينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات، الأنباري (ص: ١٤٠-١٤٥). والأعلام للزركلي(٢/٦٩).

(٣) إعراب القرآن للنحاس(٣/٨٥).

(٤) ينظر: معاني القرآن للنحاس (٤/١٥١-١٥٢).

للمبرد. الثاني: قول الفراء السابق، الثالث: أنه أمر للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق:٢١] [١].

وذكر الرازي رأيا آخر وهو: أن العرب كثيراً ما يرافق الرجل منهم اثنين فكثر على ألسنتهم خطاب الاثنين فقالوا: خليليّ وصاحبيّ وقفا وأسعدا وعوجا ونحو ذلك[٢] ، أما الأصبهاني فقد ذكر خمسة أوجه للتثنية من بينها قوله: "والجواب الرابع: أنّه ثنّى لأنّ إلقاءه في النار لشدته بمنزلة إلقاء اثنين للواحد"[٣].

وجوز الزمخشري أوجها منها أن:" ألقيا خطاب من الله تعالى للملكين السابقين: السائق والشهيد: ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين: أحدهما قول المبرد: أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما، كأنه قيل: ألق ألق: للتأكيد. والثاني: أن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا: خليليّ وصاحبيّ، وقفا وأسعدا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسي، اضربا عنقه. وقرأ الحسن: ألقين، بالنون الخفيفة. ويجوز أن تكون الألف في﴿ أَلْقِيَا ﴾ بدلا من النون: إجراء للوصل مجرى الوقف"[٤].

---

(١) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٤٨٤-٤٨٥)، وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/٣).

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٤٨٤).

(٣) إعراب القرآن لأبي القاسم الأصبهاني (ص:٣٩١).

(٤) الكشاف للزمخشري (٣٨٧/٤)، وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٨/١٣٠-١٣١)، وغرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني(١١٣٢/٢).

ورغب أبو حيان بالقول المروي عن مجاهد(١) وجماعة أن الضمير للاثنين، ورغب عما سواه(٢). ورجح الألوسي ذلك(٣)، وجوز ابن عاشور أن تكون مستعملة للملكين، أو في خطاب الواحد وهو الملك الموكل بجهنم، وهي طريقة مستعملة لدى العرب(٤).

وقد عد السبكي الآية شاهدا على نوع قريب من الالتفات وليس من الالتفات لكنه جاء على خلاف مقتضى الظاهر ويصلح هو وأنواعه أن تكون من أبواب المعانى، إذا اعتبرت فيها نكتة لطيفة(٥)، ومن هذه الأنواع: :" التعبير بالمثنى عن المفرد، ووجهه إرادة التأكيد بتقسيم الشيء إلى شيئين وتسمية كل منهما باسمه، والإشعار بإرادة تكرار الفعل، وأن الفعلين امتزجا، وصار حضور أحدهما حضورا للآخر، وجعلوا منه:... ومنه: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾على أحد الأقوال الثلاثة"(٦).

وقد ينتقل الخطاب من الواحد إلى خطاب الاثنين، وظاهر الأمر أن يستمر الأسلوب على طريق واحد لكن في اختلاف طريقة النظم بلاغة لم تكن لو سار التركيب مستجيبا للظاهر، دون ما يقتضيه المعنى من دقة وإيحاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس:٧٨]، فيبتديء السياق القرآني بخطاب موسى -عليه السلام- وحده ثم يتحول الأسلوب إلى خطاب الاثنين، ليشرك مع موسى أخاه هارون -عليهما السلام- وظاهر السياق أن يستمر ضمير الخطاب مفردا، لكن الأمر خالف

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبْر، ويكنى أبا الحجاج مولى قيس بن السائب المخزومي، من الطبقة الثانية، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة، توفي في مكة ساجدا سنة ١٠٢هـ، أو ١٠٣هـ، وعمره ٨٣سنة، (١٩/٦-٢٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥٣٧/٩).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٣٣٥/١٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٩/٢٦).

(٥) عروس الأفراح للسبكي (٢٩٣/١).

(٦) المصدر نفسه(٢٩٥/١-٢٩٦).

ذلك فقال تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ بصيغة الإفراد، ثم قال: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ بصيغة التثنية، وهذا التحول له سر يسهم ببيان إعجاز القرآن الكريم وعلو شأنه، وذلك أن التثنية توحي بأن الملك سيذهب إليك، ثم إلى أخيك، وكأن في التثنية دلالة على تعاقب الاثنين على الملك، وإقصاء للمتكلمين، فاستعمال التثنية فيها إشعار للخطر المحدق بقوم فرعون بزعمهم، فالتثنية تصف شعور المتحدثين، وخطر ذهاب الملك أزمنة متتابعة، لذلك ذيلت الآية بقول الله حكاية عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولو قالوا: وتكون لك الكبرياء، لكان الأمر أهون، لأن الملك قد يكون بالتناوب، كما أن اختيار كلمة ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ توحي بحقيقة الملك بما فيه من جبروت واستعلاء؛ لتكون أبلغ في إجماع القوم على رفض ما يعتقدون أن موسى وأخاه ينشدانه؛ إغاضة لهما، وتيئيسا، ولو اقتصر التيئيس على موسى لأتيح لهارون الفرصة بما يئيس منه موسى، فجاءت التثنية لشمول الاثنين.

وهذه النكتة رآها الإمام البقاعي حيث قال:" أفردوه أولاً بالإنكار عليه في المجيء ليضعف، ويكفّ أخوه عن مساعدته، وأشركوه معه ثانياً تأكيداً لذلك الغرض وقطعاً لطمعه"(١).

وقد أشار أبو السعود إلى هذا التحول مضيفا سرا بقوله:" وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما –عليهما السلام– واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى – عليه السلام– خاصة"(٢).

ويرى الألوسي أن التثنية جاءت لمخاطبة الاثنين بالتوبيخ تعظيما للملْك، فقال:" والمراد بضمير المخاطبين: موسى وهارون –عليهما السلام– وإنما لم يفردوا موسى –عليه السلام– بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدم؛ لأنه المشافِه لهم بالتوبيخ والإنكار

---

(١)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي (١٧٣/٩).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٦٩/٤).

تعظيما لأمر ما هو أحد سببي الإعراض معنى، ومبالغة في إغاظة موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به "(١).

ويرى الطاهر بن عاشور أنهم "واجهوا موسى بالخطاب لما تقدم من أنه الذي باشر الدعوة وأظهر المعجزة، ثم أشركاه مع أخيه هارون في سوء ظنهم بهما في الغاية من عملهما"(٢).

وأردف قائلا:" ولما كانوا ظنوا تطلبَهُما للسيادة أتوا في خطاب موسى بضمير المثنى المخاطب؛ لأن هارون كان حاضرا، فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين. وإنما شركوا هارون في هذا الظن من حيث إنه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة، فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظا لنفسه"(٣).

ولاشك أن هذه التوجيهات دالة على سعة ما يستوعبه السياق، من غير خروج عن حدود النص، بل جميعها تجلي الشعور السائد على قوم فرعون، وتبرز ألفاظهم ما حملته صدورهم من حنق وغيظ.

وهناك آية كثر كلام المفسرين وتأويلهم لضمير التثنية فيها، وذلك في قوله تعالى:﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن:٢٢]، وذلك لأن ضمير التثنية يعود إلى البحرين في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرحمن:١٩]، وهما الماء العذب والماء المالح كما أثبتت البحوث العلمية، فقد عثر عليهما في بعض الأنهار العذبة، التي في ضواحي ويلز واسكتلاندا في بريطانيا(٤).

وبذلك يكون ضمير التثنية جاء للبحرين كليهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [الآية فاطر:١٢] خلافا لمن رأى عوده إلى الماء المالح

(١) روح المعاني للألوسي (٦/١٥٥-١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/١٥٠).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/١٥١).

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي (١٤/١٣٨).

فقط وهم أغلب المفسرين، ومنهم الفراء(١)، وأبو عبيده(٢)، وابن قتيبة(٣)، والرازي(٤)، والزركشي (٥)، ومنهم ابن هشام(٦)، أما الطبري فرجح خروجه من كلا البحرين(٧) فوافق قوله العلم الحديث.

وتوضيح ذلك قول الزمخشري:" فإن قلت: لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح ؟ قلت: لما التقيا وصارا كالشيء الواحد: جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه" (٨).

أما الرازي فله على قول أكثر المفسرين تحفظ، فناظر رأي من زعم أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح: "نقول الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس الذي لا يوثق بقوله، ومَنْ علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب؟ وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح وما وجدوه إلا فيه، لكن لا يلزم من هذا أن لا يوجد في الغير سلمنا، لم قلتم: أن الصدف يخرج بأمر الله من الماء العذب إلى الماء المالح؟ وكيف يمكن الجزم والأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد؟ فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم؟ ثانيهما: أن نقول: إن صح قولهم في اللؤلؤ أنه لا يخرج إلا من البحر

---

(١) معاني القرآن للفراء(١١٥/٣).

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٥/١) .

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص : ١٧٥) .

(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ١٣١) .

(٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/٣) ، وخطّأ بيت أبي ذؤيب الهذلي الذي يذكر أن الدرة فوقها الماء العذب والمالح فيقول:

فَجاءَ بِها ما شِئتَ مِن لَطَمِيَّةٍ ... يَدومُ الفُراتُ فَوقَها وَيَموجُ

وقال الزركشي معلقا: والفرات لا يدوم فوقها وإنما يدوم الأجاج. ينظر البيت في: ديوان الهذليين (٥٧/١).

(٦) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢٩٥/٣).

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٣٥/٢٣).

(٨) الكشاف للزمخشري (٤/٤٤٥-٤٤٦) .

المالح فنقول: فيه وجوه أحدها: أن الصدف لا يتولد فيه اللؤلؤ إلا من المطر وهو بحر السماء. ثانيها: أنه يتولد في ملتقاهما ثم يدخل الصدف في المالح عند انعقاد الدر فيه طالبا للملوحة، كالمتوحمة التي تشتهي الملوحة أوائل الحمل فيثقل هناك، فلا يمكنه الدخول في العذب. ثالثها: أن ما ذكرتم إنما كان يَرِد أن لو قال: يخرج من كل واحد منهما. فأما على قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ لا يَرِد إذ الخارج من أحدهما مع أن أحدهما مبهم خارج منهما، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح:١٦]، يقال: فلان خرج من بلاد كذا، ودخل في بلاد كذا، ولم يخرج إلا من موضع من بيت من محلة في بلدة رابعها: أن (من) ليست لابتداء شيء كما يقال: خرجت الكوفة، بل لابتداء عقلي كما يقال: خلق آدم من تراب، ووجدت الروح من أمر الله، فكذلك اللؤلؤ يخرج من الماء أي منه يتولد"(١).

ولكن العلم الحديث وافق ما انقدح في ذهن الرازي في القرن السادس من احتمال، وهذه الأقوال التي ترى أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح مخالفة لنص الآية، ومخالفة لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر:١٢]، الذي جعل الحلي يخرج من العذب والمالح، فظهر بذلك بطلان قولهم وإن قال به الأغلبية كما ذكر الشيخ الشنقيطي(٢).

وقد يشترك اثنان أو أكثر في إسناد فعل إليهما، وهذا محتمل، ولكن إسناد القول إلى أكثر من واحد بلفظه ومعناه قد لا يتحقق، لأنه يندر أن يتفق اثنان على جمل واحدة، وإن اتفقوا على المعنى، ومع ذلك فإن الباحث يجد في القرآن الكريم جملا أسند قولها إلى اثنين، من ذلك ما جاء في قصة ابنتي الشيخ حيث قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣٥٢/٢٩).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي(٥٠٠/٧).

خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص:٢٣]، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا﴾ فهل تكلمت البنتان في لحظة واحدة؟ وهل اتفقتا على قول واحد؟ فقالتا معا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا بالتأكيد لم يكن، ولكن ما البلاغة في مجيء القرآن بهذا الأسلوب؟!

يتبين ذلك بالنظر إلى حالة البنتين الماسة، وافتقارهما إلى من يساعدهما؛ لأن والدهما شيخ كبير، فأسند الضمير للاثنين مع أن القول صادر من واحدة لنستشف من وراء هذا الأسلوب فرح البنتين بسؤال السائل، فأجابة إحداهن بسرعة -وقد تكون الكبيرة كالعادة- من غير مقدمات وأقرت الأخرى، فأصبح الإقرار كالقول من باب المجاز، فجاء ضمير المتكلمَتين لذلك، فكأنهما قالتا بلسان واحد هذا الخبر الذي يبرز معاناتهما، وتصوير إجابة البنتين بصوت واحد يزيح الستار عن حالتهما البئيسة التي بلغت ذروتها، ويشع من خلاله نور الفأل بالنجدة المرتقبة، ولم ترقبا سؤالا آخر من موسى عن السبب بل ذيلتا قولهما بالاعتذار لأبيهما فقالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، ففيه استغلال للزمن، مع ما يحمله الخبر من غرض الاستعطاف بعد إظهار الضعف. فالجواب جاء على وجه السرعة بعد انتهاء السؤال متدفقا من البنتين رغبة في النجدة وإظهارا للحاجة.

ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس:٨٩]، فجاء الضمير المثنى عائدا إلى موسى وهارون -عليهما السلام- والدعاء حاصل من موسى وحده بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[يونس:٨٨] فما البلاغة في إشراك هارون في ضمير الداعي موسى، ومجيء الضمير مثنى ومقتضى الظاهر الإفراد؟

والبلاغة تكمن في اتفاقهما على المعنى، فقد يكون موسى -عليه السلام- تلفظ بالدعاء، وهارون -عليه السلام- أمّن، والتأمين ليس إقرارا فحسب؛ بل بحثا عن الإجابة، فاستدعى الدعاء والاعتقاد هذه التثنية في قوله: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾ مع ما في ذلك من الإيجاز.

ولا يستغنى عما يصقل هذا الاستنتاج ويقويه مما قاله العلماء، ومنهم الفراء الذي يقول: "نسبت الدعوة إليهما، وموسى كان الداعي، وهارون المؤمن، فالتأمين كالدعاء"(١).

وإلى معنى هذا القول ذهب جمع من المفسرين(٢)، واحتمل بعضهم ومنهم الزمخشري(٣) والألوسي أن يكون هارون دعا بمثل دعاء موسى حقيقة؛ ولكن اكتفي بذكر موسى في آية الدعاء؛ لكونه هو الرسول ولبيان شرفه، ويحتمل أنه لم يدع حقيقة لكن أضيفت الدعوة إليه أيضا بناء على أن دعوة موسى في حكم دعوته؛ لمكان كونه تابعا ووزيرا له(٤).

كما أشار ابن جني إلى قراءة: دَعَوَاتُكما، وقراءة إفراد الدعوة مع كونها صادرة من اثنين فقال:" قال أبو الفتح: هذه جمع دعوة، وبهذه القراءة تعلم أن قراءة الجماعة: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يراد فيها بالواحد معنى الكثرة؛ وساغ ذلك لأن المصدر جنس، وقد تقدم أن الأجناس يقع قليلها موقع كثيرها، وكثيرها موقع قليلها"(٥).

والأظهر - والله أعلم- أن موسى عليه السلام كان يدعو كما صرحت بذلك آية الدعاء، وهارون عليه السلام كان يؤمن، والتأمين ردف للدعاء، فجاءت التثنية لذلك، وقد يكون هناك من أمن مع هارون من القوم ولكن ذكرا ذين لفضلهما وبيان شرفهما،

---

(١) معاني القرآ للفراء(٤٧٨/١).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣٦٦/٢).

(٣) ينظر: المصدر نفسه(٣٦٦/٢).

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٦٣/٦).

(٥) المحتسب لأبي الفتح عثمان بن جني (٣١٦/١).

والآية ذكرت دعوتين، والقراءة التي أشار إليها ابن جني دلت على جمع الدعوات فدلّت الآية على الإيجاز.

وفي سورة الرحمن يجد الباحث آية تكررت واشتملت على ضمير الاثنين، وينظر إلى أول ذكر لها فيجده محل شاهد لعود ضمير الاثنين والمذكور جنس واحد، هو جنس الإنسان المصرح بلفظه، فقال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن:١٣]، ولا شك أن أحد مرجعي الضمير لم يذكر صراحة إلا في قوله تعالى:﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن:١٥]، ولكن المرجع المذكور هو الإنسان والأنام، في قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرحمن:٣]، وقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن:١٠]، والأنام هم الخلق(١)، ومنهم الجن والأنس، لكن الإنسان ذكر صراحة، أما الجنّ فلم يذكر، لأنه سيذكر فيما بعد، ولأن خفاؤه من السياق مناسب لاختفائه عن أنظار الإنس فناسب المبنى المعنى، لكن الذي عليه الجمهور أن الأنام الثقلان الإنس والجنّ(٢)، وهو قول الزمخشري(٣)، واختاره الألوسي(٤)، وقال ابن منظور:"الأنام ما ظهر على الأرض من جميع الخلق، ويجوز في الشعر الأنيم، وقال المفسرون في قوله عز وجل والأرض ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾هم الجن والإنس"(٥).

وقد فصل الرازي في مرجع الضمير فقال: "الأول: الخطاب مع مَنْ؟ نقول: فيه وجوه الأول: الإنس والجن وفيه ثلاثة أوجه أحدها: يقال: الأنام اسم للجن والإنس ... فعاد الضمير إلى ما في الأنام من الجنس. ثانيها: الأنام اسم الإنسان والجان لما كان منويا وظهر من بعد بقوله: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ [الرحمن:١٥]، جاز عود الضمير إليه، وكيف لا وقد جاز عود الضمير إلى المنوي، وإن لم يذكر منه شيء، تقول: لا أدري

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٤٣٦).
(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١٠/١٨).
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٤٥/٤).
(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٠٤/١٤).
(٥) لسان العرب، فصل: الألف، مادة (أنم)،(٣٧/١٢).

أيهما خير من زيد وعمرو. ثالثها: أن يكون المخاطب في النية لا في اللفظ، كأنه قال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أيها الثقلان. الثاني: الذكر والأنثى، فعاد الضمير إليهما والخطاب معهما. الثالث: فبأي آلاء ربك تكذب، بلفظ واحد، والمراد التكرار للتأكيد. الرابع: المراد العموم، لكن العام يدخل فيه قسمان بهما ينحصر الكل، ولا يبقى شيء من العام خارجا عنه، فإنك إذا قلت: إنه تعالى خلق من يعقل ومن لا يعقل،...يلزم التعميم، فكأنه قال: يا أيها القسمان: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾"[(١)].

وعلى ذلك فإن الباحث التفت إلى عود ضمير الاثنين إلى الجنسين الذين يندرجان تحت لفظ الأنام، فعاد الضمير إلى المعنى، ولم يعد إلى اللفظ، وهذا فيه من الإيجاز ما يبهر الألباب.

وفي سؤال فرعون لموسى انتقل من خطاب الاثنين إلى تعيين المفرد المسؤول، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [طه:٤٩]، ولعل القرآن يكشف ويجسد من خلال هذا الانتقال ما كان يتصف فيه فرعون من كبرياء، فقد استنكر عقيدتهما بسؤال إنكاري استهدف به الاثنين، وحدد مجيبا واحدا تعظيما لكبريائه وما يراه فيه من عظمة، فلا يجيب أحد إلا بإذنه، ولا يتحد اثنان عند حضرته إجلالا له، وقد يكون تخصيص موسى بالإجابة إشارة إلى أن فرعون هو الذي ربّى موسى، فهو أسير نعمته واختاره فرعون ظانا أن ذلك سيضعف حجة موسى ويظهر قوة فرعون، فصرّح بذلك كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٨]، ثم في نهاية المناظرة: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩]، كما أن عدم الإذن لهارون بالإجابة نابع من علم فرعون بأن هارون أفصح من موسى –عليهما السلام– فطلب الإجابة من غير الأفصح تنديدا به وطلبا للغلبة، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٩/٣٤٦).

﴿٥٢﴾ [الزخـرف:٥٢]، فجاءت حجج موسى على أكمل وجه يفحم الخصم تصديقا لقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦]، كما أن في تعيين موسى للإجابة حسن تخلص من ضمائر التثنية، فجاء الفعل المتكرر ﴿ قَالَ ﴾ مسندا إلى ضمير الواحد، ليعود مرة إلى موسى وأخرى إلى فرعون، فيكون الحوار جاريا بين موسى -عليه السلام- وفرعون بلطف ولين كما وجههما الله بذلك، رغم عتو فرعون وجبروته.

ويروي الزركشي أن تحديد موسى جاء لكونه مقصودا فقال: "ولم يقل: وهارون؛ لأن موسى المقصود المتحمل أعباء الرسالة، كذا قاله ابن عطية"(١). وإلى مثل هذا ذهب السيوطي، وأضاف وجها آخر وهو أن سبب إفراده بالنداء لإدلاله عليه بالتربية(٢).

ويذكر الزمخشري توجيها لنداء الواحد بعد خطاب الاثنين، وهو أنه أراد أن يتم الكلام فيقول: وهارون، لكنه نكل عن خطاب هارون، توقيا لفصاحته وحدة جوابه ووقْع خطابه؛ إذ الفصاحة تنكل الخصم عن الخصم للجدل، وتنكبه عن معارضته(٣).

ووافق رأي الثعلبي ما قاله الزمخشري، واختلفا في التعليل، فرأى الثعلبي أن هارون مراد في الخطاب، ولكن ذكر موسى -عليه السلام- ليتناسب مع رؤوس الآيات(٤).

ولعل ما ذكره الثعلبي من تعليل لا يكتفى به، فما أكثر الآيات التي لم تتوافق رؤوسها مع ما سبقها، لكن اللفظ يأتي لأجل المعنى، والمحسن البديعي تبع لذلك.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١٢٦/٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١١٢/٣).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٢٦/٣).

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٤٦/٦).

وذكر الشيخ الشنقيطي: أنه خص موسى -عليه السلام- لاشتراك الاثنين في شأن واحد، أو لأن موسى هو الأصل في الرسالة، أو لأن هارون -عليه السلام- كان غائبا[1].

وتوجيهات العلماء في هذا الإفراد بعد التثنية وجيهة، لتتظافر هذه التوجيهات فتدل على السعة الدلالية، والكثافة المعنوية، رغم الإيجاز في اللفظ، وتلك معجزة من معجزات القرآن العظيم.

ويخلص من هذا المبحث بجواز عود الضمير مفردا أو مثنى إلى أحد المتعاطفين أو كليهما، ومن أغراضه أنه يعود بصيغة التثنية إلى المفرد لإرادة جنس معين، أو للإحاطة بالصنفين، واجتمع عود ضمير الإفراد وضمير التثنية بعودهما إلى المتعاطفين بقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١٢]، وقد يعود ضمير الاثنين على ما هو للواحد كقوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ للملابسة والمشاكلة، ولأن حقيقة النسيان نفع ينتظره نبي الله -عليه السلام- فاشتركا بالإسناد لاشتراكهما بالفائدة، وللعلماء في ذلك تأويلات تثري. واختلف في مرجع الضمير في ﴿أَلْقِيَا﴾ فقيل: لأن عادة العرب مخاطبة الاثنين، والمقصود واحد، وقيل: لمالك وحده، وقيل:معناه التكرير لغرض التوكيد، أي: ألق ألق، وقيل: ثنّى لأنّ إلقاءه في النار لشدته بمنزلة إلقاء اثنين للواحد، وقيل: الضمير لخزنة النار والزبانية، أو عائد على السائق والشهيد. وقد ينتقل الضمير من خطاب المفرد إلى خطاب الاثنين لتصوير تفاقم الخطر وتوسعه، وقد يحمل دلالة الاحتقار، لإغاضة الاثنين كما قال تعالى على لسان قوم فرعون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ بعد قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾. أما الضمير في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] ، فبشهادة العلم الحديث وقول الطبري، والرازي، لم يخرج عن مقتضى الحال كما زعم أغلب المفسرين. وقد يسند القول لضمير الاثنين وهو لأحدهما وذلك لأن الآخر مُقرّ

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٥٤).

بما قال الأول، وشريك له بالنتيجة، كقوله: ﴿قَالَتَا﴾ والضمير للبنتين والقائلة إحداهما، وقوله: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾، والضمير لموسى وهارون -عليهما السلام- والداعي موسى وحده، أو لأن المتكلم زعيم على الآخر، والآخر تابع له، مؤتم بقوله. وقد يعين بعد ضمير المثنى أحد المسؤلَين، كقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه:٤٩]، لغرض في نفس السائل، كإظهار عظمته، أو لإظهار ضعف المسؤول، أو غير ذلك مما يكشف عنه السياق.

المبحث الرابع : عود ضمير المثنى على الجمع

الأصل في ضمير المثنى أن يكون مرجعه مثنى؛ ليطابق الضمير مرجعه، ولكن قد يخالف التركيب ذلك لأهمية المعنى المراد، لاسيما أن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذا الأسلوب وإن لم يكن هو الأشهر إلا أن العرب استعملته في بعض كلامها من ذلك قول الشماخ(١):

أقامت على رَبْعَيهما جارَتا صَفًا   كُمَيْتَا الأعَالِي جَوْنَتَا مُصْطَلاهما

"فالضمير الذي في مصطلاهما يعود إلى قوله جارتا صفا...وقد أنكر بعض النحويين هذا الاستدلال، وزعم أن الضمير من مصطلاهما غير عائد إلى الجارتين، إنّما يعود إلى الأعالي، كأنّه قال:كميتا الأعالي جونتا مصطلَى الأعالي، فهو بمنزلة: زيد حسن وجه الأخ جميل وجه الأخ. وذلك جيد بلا خلاف"(٢).

ولقد سار القرآن الكريم على نهج كلام العرب بأبلغ صوره، فجاءت آيات عدلت عن الأشهر لقيمة بلاغية لا تبرز إلا بالعدول، والباحث في صدد الوقوف على آية يستفتح بها مبحثه، يظهر فيها التلوين بين عدد المخاطبين، فالخطاب فيها لموسى وهارون -عليهما السلام- فبدأ الخطاب بضمير التثنية موافقا لمقتضى الحال، ثم تحول إلى ضمير الجمع ثم عاد إلى التثنية، ولأن المبحث حول عود ضمير المثنى إلى الجمع فالتحول الأخير هو محل الحديث، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٥- ١٦] فيلاحظ الفعل﴿ فَأْتِيَا﴾ جاء بعد قوله: ﴿مَعَكُم ﴾ فانتقل الخطاب بذلك من ضمير المخاطَبِين إلى المخاطَبَين(٣)، لكن وراء هذا الانتقال معنى عظيما، وذلك أن الله لما خاطبهما بالمعية ناسب ذلك الجمع؛ لأن من كان الله معه فهو قوي لا يضيره شيء، والجمع قوة، وجاءت التثنية بعد ذلك لكونهما اثنين لحظة التكليف، فالرسالة مناطة

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني (ص: ٣٠٨).

(٢) شرح المفصل لابن يعيش(٤/١١٥).

(٣) الانتقال من ضمير التثنية إلى ضمير الجمع سيقف عليه الباحث في موطنه (ص: ٣٠٨).

بهما دون غيرهما، فترك ضمير الجمع لأنه يوهم خلاف ذلك، وتعيين المكلفَين أبلغ وألزم لتحمل واجب التكليف.

ومن مواضع عود ضمير المثنى على الجمع ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة:٣٨]، ففي قوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ يرى أن لفظة أيدٍ جمع، وليس للواحد إلا اثنتان، والجمع قد يصدق على السارق والسارقة، لأنه وصف قد يندرج تحته جماعة من الجنسين أو من أحدهما، فيكون جزاؤهم قطع أيديهم، ولكن ضمير التثنية دل على أنه عائد إلى اثنين، والمقطوعة يدان، وليست أيدٍ، ولكن الذكر الحكيم جاء معبرا بالجمع، ويظهر للباحث في ذلك ثلاثة أغراض بلاغية:

الأول: أن من قُطعت يمينه فكأنه فقد كلتا يديه؛ لفقده أهم عضو يكتسب به.

الثاني: أن في الجمع دلالة على الترهيب والتخويف، وأن أحكام الله لا نكوف عنها، فمن قطعت يمينه لسرقة وعاد فإن حكم الله بشأنه قطع يده اليسرى، من غير هوادة ولا رأفة، فبذلك قد تقطع أيدي السارق والسارقة إذا عادا إلى السرقة مرة أخرى، ومن هنا يعلم أن الغرض من الجمع هو الردع والزجر؛ لأن تكرار السرقة بعد تنفيذ الحكم لا يجلب رأفة أو رحمة، فجاء الجمع لبيان قبح الصفة؛ لما يترتب عليها من حد أليم. فبين الجمع شناعة الجرم وعظم حدّه.

الثالث: أنهما وصفا باسم الفاعل ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾؛ لأنها صفة ثابتة لهما، ولم يستخدم الفعل الذي يفيد التجدد، واسم الفاعل استدعى مجيء الأيدي مجموعة؛ ليتناسب القوة في الوصف بالسرقة مع القوة في الزجر والردع المفهوم من جمع الأيدي، لذلك لم يقل يدَيْهما، ولم يقل: أيديهم فيعود ضمير الجمع على ما هو للجمع، بل قال: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾، فعاد ضمير الاثنين إلى من لهم أيدي وهم جماعة. ومن المعلوم أن

لغة العرب جاءت أيضا بإضافة المثنى إلى ضمير الاثنين، وهو جزء غير منفصل، وتوافرت فيه الشروط، فقال أبو ذؤيب الهذلي(١):

فَتَخالَسا نَفسَيهِما بِنَوافِذٍ كَنَوافِذِ العُبُطِ الَّتي لا تُرقَعُ

وقول الفرزدق(٢):

هُما تَفَلا في فِيَّ مِن فَمَوَيهِما عَلى النّابِحِ العاوِي أَشَدُّ رِجامِ

ويرى أبو عبيدة أن استعمال لفظة: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ مكان يديهما من مجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع الذي له واحد منه، ووقع معنى هذا الجميع على الاثنين(٣)، وتفعل هذا العرب فيما كان من الجسد، فيجعلون الاثنين فى لفظ الجميع(٤). وعده سيبويه من باب ما لفظ به مما هو مثنى كما لفظ بالجمع، وهو أن يكون الشيئان كل واحد منهما بعض شيء مفرد من صاحبه. وذلك قولك: ما أحسن رءوسهما(٥).

واكتفى الفراء بقوله: وإنما قال (أيديَهما) لأن كل شيء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافا إلى اثنين فصاعدا جمع. فقيل : قد هشمت رءوسهما ، وملأت ظهورهما وبطونهما ضربا. ومثله إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما(٦)"، وجعله الثعالبي شاهدا على جمع شيئين من اثنين، وأشار إلى أن ذلك من سنن العرب (٧).

لكن بيت أبي ذؤيب والفرزدق لم يأتيا على ما ذكر الفراء، بل أضيفت النفس بعد التثنية إلى ضمير الاثنين، وكذلك الفم في بيت الفرزدق.

---

(١) ديوان الهذليين(ص:٢٠).

(٢) ديوان الفرزدق(٢/٢٨٠).

(٣) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (ص: ١٠).

(٤) ينظر: نفسه(ص: ١٦٦).

(٥) الكتاب (٣/٦٢٢).

(٦) معاني القرآن للفراء(١/٣٠٦).

(٧)فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٢٦).

وجاء في المفصل ما نصه:"وتجعل الاثنان على لفظ الجمع إذا كانا متصلين، قال الشارح: اعلم أن كل ما في الجسد منه شيء واحد لا ينفصل كالرأس، والأنف، واللسان، والظهر، والبطن، والقلب، فإنك إذا ضممت إليه مثله؛ جاز فيه ثلاثة أوجه: أحدها الجمع، وهو الأكثر، نحو قولك: ما أحسن رؤوسهما! قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾. وإنما عبروا بالجمع، والمراد التثنية من حيث إن التثنية جمع في الحقيقة؛ ولأنه مما لا يلبس ولا يشكل؛ لأنه قد علم أن الواحد لا يكون له إلا رأس واحد، أو قلب واحد، فأرادوا الفصل بين النوعين، فشبهوا هذا النوع بقولهم: نحن فعلنا، وإن كانا اثنين في التعبير عنهما بلفظ الجمع. وكان الفراء يقول: إنما خص هذا النوع بالجمع نظرا إلى المعنى؛ لأن كل ما في الجسد منه شيء واحد فإنه يقوم مقام شيئين، فإذا ضم إلى ذلك مثله، فقد صار في الحكم أربعة، والأربعة جمع. وهذا من أصول الكوفيين الحسنة، ويؤيد ذلك أن ما في الجسد منه شيء واحد؛ ففيه الدية كاملة كاللسان والرأس، وأما ما فيه شيئان، فإن فيه نصف الدية. والوجه الثاني: التثنية على الأصل وظاهر اللفظ، نحو قولك: ما أحسن رأسيهما وأسلم قلبيهما... والكثير الجمع لما ذكرناه مع كراهية اجتماع التثنيتين في اسم واحد؛ لأن المضاف إليه من تمام المضاف. والوجه الثالث: الإفراد، نحو قولك: "ما أحسن رأسهما! "وذلك لوضوح المعنى، إذ كل واحد له شيء واحد من هذا النوع، فلا يشكل، فأتى بلفظ الإفراد، إذ كان أخف. فإن كان مما في الجسد منه أكثر من واحد، نحو: اليد، والرجل، فإنك إذا ضممته إلى مثله، لم يكن فيه إلا التثنية، نحو: ما أبسط يديهما، وأخف رجليهما! لا يجوز غير ذلك، فأما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾، فإنما جمع؛ لأن المراد الإيمان، وقد جاء في قراءة عبد الله بن مسعود (فاقطعوا أيمانهما). وكذلك المنفصل من نحو: غلام، وثوب، إذا ضممت منه واحدا إلى واحد، لم يكن فيه إلا التثنية، نحو: غلاميهما، وثوبيهما، إذا كان لكل واحد غلام وثوب. ولا يجوز الجمع في مثل هذا؛

لأنه مما يشكل ويلبس، إذ قد يجوز أن يكون لكل واحد غلمان وأثواب، وقد حكى بعضهم: وضعا رحالهما، كأنهم شبهوا المنفصل بالمتصل، وهو قليل، فاعرفه"(١).

وجوز الزجاج هذه التثنية اعتبارا بالحقيقة، وأجاز فيه الجمع اعتبارا بالمعنى، لأن الجمع ضم نظير إلى نظير كالتثنية ،وقالوا: كل شيء من شيئين فتثنيتهما جمع(٢).

وكذلك علل الجرجاني مجيء هذا الجمع في تفسيره بأن العضو الواحد إذا أضيف إلى اثنين جمع(٣)، وبعض المفسرين ذكروا أغراضا لهذا الجمع منها أمن اللبس(٤)، ومنهم من قال لغرض التخفيف؛ لأن الكلمة المثناة مضافة إلى ضمير تثنية تحدث ثقلا، ويتمكن من الخلوص من هذا الثقل بالجمع المضاف إلى ضمير التثنية.

وذكر الزمخشري أن عدم تثنية اليدين سببه الاكتفاء بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأن المقصود باليدين اليمينان، بدليل قراءة عبد الله: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم(٥).

وبعد عرض أقوال العلماء الأجلاء تبين أن منهم من يجيز التركيب دون بيان بلاغته وسبب اختياره، ومنهم من يرى أن ذلك للتخفيف أو أمن اللبس، والباحث بتأويله أضاف رأيه السابق، ويرى أن قراءة ابن مسعود –رضي الله عنه – هي قراءة شاذة ليست حجة على متواتر(٦)، أما الدليل على أن المقصود قطع اليمين فثابت في صحيح السنة.

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش، (٣/٢٠٩- ٢١٢).

(٢) إعراب القران (ص:١٨٢).

(٣) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (٢/٦٧٠).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٧/٣٢٢)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٤/٢٦٢).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/٦٣١-٦٣٢).

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٩٧)، وينظر: مقدمات في علم القراءات، محمد أحمد مفلح القضاة وآخرون (ص: ٧٤).

ولقد ذكر ابن عطية توجيها جيدا لجمع الأيدي المضافة إلى ضمير الاثنين، وعلل الجمع وضمير التثنية فقال:" جمع الأيدي من حيث كان لكل سارق يمين واحدة، وهي المعرضة للقطع في السرقة أولا، فجاءت للسراق أيد، وللسارقات أيد، فكأنه قال: اقطعوا أيمان النوعين، فالتثنية في الضمير إنما هي للنوعين"(١).

وقول ابن عطية له وجاهته، فجمْع الأيدي يرى أنه عائد إلى كل سارق، أما ضمير التثنية فهو عائد إلى الجنسين لا إلى الأفراد، ولا يخفى أن كل جنس يضم أفرادا كثر، فاجتمع بذلك الجنس والفرد.

وبمثل التوجيه اللغوي الذي قيل بجمع ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ قيل في جمع لفظة (قلوب) في الآية الآتية، حيث يقول تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤]، فبما أن مجيء الأيدي مجموعة مجاز عند بعضهم كما سبق، والمقصود به اليد اليمنى وهي واحدة، وقد تدخل اليسرى من باب التغليب، فكذلك القلب هو واحد في كل إنسان، لكن القلوب لا تكون إلا لجماعة، وتستدعي عود ضمير الجماعة على من هي لهم؛ وقد جاءت في هذه الآية مضافة إلى ضمير الاثنين، وجاء ضمير الاثنين عائدا إلى من يكون لهم قلوب، وهم الجماعة. والمبين حالهم في الآية اثنتين من أمهات المؤمنين، بدلالة السياق والمناسبة وليس لهما إلا قلبان(٢)، لكن العلماء اجتهدوا في توجيه هذا الضمير كما اجتهدوا في توجيه الضمير الذي أضيفت إليه الأيدي، فقالوا: لامتناع اللبس، وللتخفيف، ولأن المثنى أقل الجمع، ولأن ذلك من سنن العرب، لكن مع

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/١٨٩).

(٢) المخاطبتان: حفصة بنت عمر رضي الله عنهما وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وفيه خلاف، وتنظر القصة باختلافاتها في: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٨/١٨٠-١٨٨)، وينظر: صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إماطة الأذى، (ص: ٥٩٦-٥٩٧)، رقم الحديث: ٢٤٦٨. وصحيح مسلم، باب في الإيلاء واعتزال النساء... (٢/١١٠٥)، رقم الحديث: ١٤٧٩.

احتمال صواب آرائهم إلا أن الباحث سيحاول أن يستنتج القيمة البلاغية من وراء هذا الاستعمال، فالمخاطب في الآية اثنتان، وجاء الفعلان مناسبان لهما فقال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾ لكن في الآية لفظ خالف مقتضى الظاهر فاستبدل بتثنية القلب جمعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ فليس للاثنين إلا قلبان، فما البلاغة في إضافة القلب إلى ضمير المخاطبَين مجموعا؟

ولاشك أن إضافة القلوب إلى ضمير الاثنتين تحمل سرا بليغا، فلم يقل الله: قلوبكم، فيأتي الضمير مناسبا لمقتضى الجمع، ولم يقل: قلباكما: فيأتي مناسبا لمقتضى السياق، بل جاء العدول في المضاف فجاء مجموعا، وجاء المضاف إليه ضميرا للمخاطَبَين، وهذا الجمع يحمل سرا بليغا ولعل من هذا السر أن جمع القلوب جاء في سياق التوبة، وخطاب الله لأمهات المؤمنين فيه تلطف ورعاية، وبما أن المخاطبتين من أمهات المؤمنين، فقد جعل الله لهن ما لا يكون إلا للجماعة تعظيما لهنّ، وحفظا لكرامتهنّ، فحرُم بذلك تنقصهن، أو النيل منهنّ، وقد يكون جمع القلوب على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، فجمع المحلّ وهو القلب لتعدد الحالّ وتنوعه، فالزلل الذي صدر منهما، ستحلّ محله التوبة، ولما كان قلب الواحد متقلبا بما يحمله من صفات متضادة، وقد صرحت الآية بجملة من ذلك ومنها: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾، ﴿صَغَتۡ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾ وكلها أعمال قلوب وجوارح، وجَمَعت بين إرشاد وحب وتواطؤ، فلما تقلبت القلوب بين هذه الصفات والأعمال ناسب ذلك جمعه، لا سيما أن هذه التقلبات لا ينبغي أن تكون أمام مقام الرسول -ﷺ- وصادرة من زوجاته، فهذا الجمع يحمل معنى العتاب، لذلك قال الله فيهما: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾. وقد جُمعت لفظة القلوب مضافة إلى ضمير الاثنين فيما رواه عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ -ﷺ- أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ النَّبِيُّ -ﷺ-

مَعَهَا يَقْلِبُهَا؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ؛ مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ -ﷺ-: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-:إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا [(١)]".

فيلاحظ أن الجمع المضاف إلى ضمير تثنية أصله مثنى، استدعاه تحرز النبي -ﷺ- من أن يلتبس الأمر على هذه القلوب المتقلبة - المجموعة لتقلب أحوالها- فيظن برسول الله -ﷺ- ما هو منه بريء، وجمع القلوب يظهر شفقة النبي على أصحابه خوفا من أن يقع في قلوبهم ما يفسد عليهم دينهم فيهلكهم.

وقد تناول ابن عاشور هذا الجمع الذي في الآية بشيء من التوجيه شبيه بما قاله مَن قبله فقال:" وإذ كان المخاطب مثنى كانت صيغة الجمع في قلوب مستعملة في الاثنين؛ طلبا لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى، كراهية اجتماع مثنيين، فإن صيغة التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام، فلما أمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية، وهذا استعمال للعرب غير جار على القياس، وذلك في كل اسم مثنى أضيف إلى اسم مثنى فإن المضاف يصير جمعا كما في هذه الآية"[(٢)].

وليس ببعيد عما سبق قول ابن فضال القيرواني بعد أن تساءل وأجاب: "لم جمعت القلوب؟ وعن هذا أجوبة:

أحدها: أن التثنية جمع في المعنى، فوضع الجمع موضع التثنية.

الثاني: أن أكثر ما في الإنسان اثنان نحو: اليدين والرجلين والعينين والخدين، وما أشبه ذلك، وإذا جمع اثنان إلى اثنين صار جمعا، فيقال: أيديْهما وأرجلهما، ثم حمل ما كان في الإنسان منه واحدا على ذلك لئلا يختلف حكم لفظ أعضاء الإنسان.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، (٨٧١/٢) رقم الحديث :١٩٣٠.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٩/٢٨).

الثالث: أن المضاف إليه مثنى فكرهوا أن يجمعوا بين تثنيتين فصرفوا الأول منهما إلى لفظ الجمع؛ لأن لفظ الجمع أخف "[1].

وما قيل في جمع الأيدي والقلوب يقال في جمع السؤات إذا قصد بها العورة، حيث يقول تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه:١٢١]، ومن المعلوم أن لكل إنسان سوأة واحدة، لكن الجمع جاء مناسبا للعقوبة، لبيان فضاعة الأمر وخطورة مجانبة أوامر الله، وأن ورق الشجر لا يسترهما إن ستر جهة بدت الجهة الأخرى، ويصور هذا المشهد بقوله: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ ﴾ [طه:١٢١]، فلذلك جاء الجمع ليصور شدة الحرج الذي وقع بهم، ومشقة ستر عوراتهما عليهماإلا بالتوبة، فوضح من ذلك فضاعة ما حلّ بهما، قال أبو السعود: "وصيغة المضارع لاستحضار الصورة"[2] والله أعلم.

وقد يكون الجمع حقيقة لأن لكل واحد عورتين من قبل ومن دبر قال أبو حيان:" فمن قرأ بالجمع فهو من وضع الجمع موضع التثنية كراهة اجتماع مثلين...ويحتمل أن يكون الجمع على أصل وضعه باعتبار أن كل عورة هي الدبر والفرج وذلك أربعة: فهي جمع "[3].

ولقد ذكر ابن عاشور أن السوأة تستعمل في الخصلة الذميمة صراحة، وتستعمل في العورة كناية وفسرها ابن عباس –رضي الله عنه– بذلك في هذه الآية، وعلى هذا فصيغة الجمع مستعملة في الاثنين للتخفيف[4].

---

(١) ينظر: النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني (ص:٥٠٢).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم (٢٢٢/٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٥/٨).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٢٥/٥).

وفي قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن:٣٥]، فقد جاء بعد قوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن:٣٣]، بينما تأتي التثنية في قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ وما بني على ضمير الجمع بعد الاثنين فسيناقش في بابه[(١)]. فالتثنية جاءت بناء على اللفظ، ووراءها معنى بليغ وهو أن هذين الجنسين وإن كثر أفراد كل جنس فهما بمنزلة اثنين لا مشقة على الله في عذابهما، فالتثنية فيها إظهار قدرة الله وإحاطته بالجنسين، وأن عذابهما ليس متعذرا عليه، فهما اثنان، وهذا المعنى لا يحصل بضمير الجمع الذي يدل على الكثرة، ولكن ضمير الجمع مناسب في مجال التحدي لإثبات عجز كل فرد من أفراد الجنسين سواء أكان على هيأة جماعات أم جماعة أم أفرادا.

ويوجه الفراء هذا الاختلاف في الضمير بقوله: " فثني في: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ ، وفي: تنتصران للفظ، والجمع على المعنى"[(٢)].

ويرى الباحث أن هذا التوجيه مع كونه صائبا إلا أنه لم يكشف الستار عما وراء الأسلوب من معنى؛ لأن كل أسلوب أو تركيب لغوي لابد أن يأتي تلبية للمعنى المتكون لدى المتكلم، والتي تأتي الألفاظ دليلا عليه.

وللرازي جوابان في العدول إلى التثنية في هذه الآية؛ أحدهما من جهة المعنى، والثاني من جهة اللفظ، فيقول:" وأما قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾، فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما؛ لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار، فهو يرسل على النوعين، ويتخلص منه بعض منهما- بفضل الله- ولا يخرج أحد من الأقطار أصلا، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال: لا فرار لكم قبل الوقوع، ولا خلاص لكم عند الوقوع، لكن عدم الفرار عام، وعدم الخلاص ليس بعام. والجواب الثاني: من

(١) ينظر في (ص: ٣١٣).

(٢) معاني القرآن للفراء (١١٦/٣) .

حيث اللفظ، هو أن الخطاب مع المعشر، فقوله: إن استطعتم أيها المعشر وقوله: يرسل عليكما ليس خطابا مع النداء، بل هو خطاب مع الحاضرين، وهما نوعان، وليس الكلام مذكورا بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين في الأول، وعند عدم التصريح بالنداء فالتثنية أولى، كقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ﴾(١) وهذا يتأيد بقوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن:٣١]، وحيث صرح بالنداء جمع الضمير، وقال بعد ذلك: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ﴾ حيث لم يصرح بالنداء"(٢).

وقد أشار الرازي إلى هذا الالتفات بين التثنية والجمع بقوله: " كيف ثنى الضمير في قوله: ﴿عَلَيْكُمَا﴾، مع أنه جمع قبله بقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن:٣٣]، والخطاب مع الطائفتين وقال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾(٣) وقال من قبل: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾(٤) ؟

نقول: فيه لطيفة، وهي أن قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى، فقال: إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا، ولا تستطيعون لعجزكم، فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض، فهو عند افتراقكم أظهر، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان"(٥).

وقد يأتي الضمير المثنى عائدا إلى جنسين معناهما الجمع، ولفظ أحدهما الجمع وهي السماوات، كما ورد ذلك عائدا إلى السموات والأرض في عشرين موضعا من القرآن الكريم، منها ثمانية عشر موضعا جاءت فيه السماوات مجموعة، وموضعان

(١) [الرحمن:٣٥].

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٩/٣٦٣).

(٣) [الرحمن:١٣].

(٤) [الرحمن:٣٦].

(٥) مفاتيح الغيب للرازي (٢٩/٣٦٢-٣٦٣).

جاءت فيه السماء مفردة، والله قد صرح بعدد هذين الجنسين بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]، ومن تلك المواضع التي جاء فيها ضمير التثنية عائدا إلى السموات والأرض في حال جمع السماوات، قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]، فضمير التثنية هنا مناسب للإحاطة بالمذكور وحفظه، فعامل السماوات وهي جمع معاملة المفرد، وعاد ضمير الاثنين للسماوات والأرض، للدلالة على أن هذا الحفظ لا مشقة فيه فالمحفوظ جنسان، والله لا يعجزه شيء، لكن في ذلك تقريبا لذهن المتلقي، والله أعلم.

ومثل ذلك ما جاء في قوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة:١٧]، فسياق الآية يتطلب بيان القوة، فبرز فيه إثبات قدرة الله، وتصرفه التام بجميع خلقه، وأنهم في ملكه وتحت إرادته، يهلك من شاء، ويرحم من شاء، ولذلك جاء ضمير التثنية عائدا إلى السموات المجموعة، والتي عطفت الأرض عليها، وبلاغة التثنية أنها تفيد الإحاطة وتقريب الصورة في ذهن المتلقي، فليست السموات والأرض بخاف أمرها على الله، ولا يعزب فيها شيء عن قدرته، فما هما إلا جنسان تحت قبضة الله، لذلك لم يكن ضمير الجمع مناسبا في هذا السياق لدلالته على الاتساع والكثرة؛ أما ضمير الاثنين ففيه معنى التضييق والقهر، فالسموات السبع والأرضين السبع أصبحا مجرد جنسين عاد إليهما الضمير مثنى فدلّ على التضييق، فلا مفر ولا مهرب من الله إلا إليه، لاسيما والسياق فيه تهديد بمن نسبوا إلى الله ما تنزه الله عنه، فخلق عيسى –عليه السلام– مثال في قدرة الله المطلقة، فكيف صرفوا ما دلّ على العظمة إلى النقص، تعالى الله عما يقولون.

ولما اختلف السياق في آية مشابهة لهذه الآية جاء ضمير النسوة الذي يفيد الجمع مع التعظيم مع كون النظم متقاربا، لكن السياق متباين، وذلك في اليوم الآخر وقد تبينت حقيقة الأمور، فجاء ضمير الجمع مطابقا لحقيقة السماوات والأرض لكونهما جمعا، فقال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠] فالحديث هنا عن اليوم الآخر بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:١٠٩]، وبقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾[المائدة:١١٩]، وليس بين السماء والأرض حينئذ أحد بل الخلق محشورن بين يدي الواحد القهار، وتبين أن ما في السماوات والأرض تحت قهر الله، لذلك لم يقل: بينهما؛ لما قد طرأ على السموات والأرض من تغيير وتبديل، ولأن الله جمع الخلق ليوم الفصل، فلا حاجة لتقريب الصورة للأذهان، فالأمر قد قضي.

ولما جاء السياق في الآية متحدثا عن مزاعم اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم معصومون من العذاب، جاءهم الرد بأن الجميع ملك لله، تحت مشيئته، يغفر بمشيئته، ويعذب بمشيته، وأن مصير الجميع إلى الله، لا يخرج عن ملكه أحد، وهذا المعنى يقتضي معنى الإحاطة وتضييق المساحة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨]، فلم يقل: ومن فيهنّ؛ بل جاء ضمير التثنية مناسبا ومقويا ومؤكدا على هذه الإحاطة، وهذا المعنى لا يوفره ضمير الجمع الذي يوحي بالكثرة، والاتساع.

وقد وقف كثير من علماء اللغة والتفسير على هذه الظاهرة، وأولوها بتأويلات متقاربة، ومن أولئك أبوعبيدة الذي قال:" والسموات جميع فجاءت على تقدير

الواحد، والعرب إذا جمعوا جميع موات ثم أشركوا بينه وبين واحد؛ جعلوا خبر جميع الجميع المشرك بالواحد على تقدير خبر الواحد"[١].

ومثل ذلك ما قاله الفراء:" والسموات جماع والأرض واحد فقال:(ما بينهما)، فذهب إلى لفظ الاثنين، والعرب إذا وحّدوا جماعة فى كلمة، ثم أشركوا بينهما وبين واحد جعلوا لفظ الكلمة التي وقع معناها على الجميع كالكلمة الواحدة"[٢].

وقال الطبري:" وقد ذكر السموات بلفظ الجمع ، ولم يقل: وما بينهن ، لأن المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء"[٣].وإلى مثل هذ القول ذهب أبو حيان[٤].

ولما كان كل شيء يسبح الله حقيقة لا مجازا قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٤]، فجاء ضمير الجمع ﴿فِيهِنَّ﴾ بعد التصريح بالجمع والعدد، لإفادة الشمول والتعميم الذي يؤكده قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ وأهمل ذكر المشركين تحقيرا لهم لخروجهم من هذا الحكم، وأن بذاءة المشركين لا تضير الله شيئا، وفي ذلك تقبيح وتشنيع بهم لأنهم زعموا أن لله شركاء.

ويأتي الضمير نفسه في قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ [المؤمنون:٧١]، فمجيء الجمع هنا يكشف سعة الفساد، فلذلك -والله أعلم- لم يناسبه ضمير الاثنين، فلم يقل: ومن فيهما، أو بينهما؛ لأن المقام مقام بيان السعة التي سيعتريها الفساد، ويلحق الأذى بمن فيهنّ، وهذا يتحقق مع ضمير الجمع ولا يتحقق مع ضمير الاثنين، فبان بضمير الجمع شؤم الفساد وإحاطة شؤمه بكل موضع، كما أن تلوين الأسلوب يدل على براعة المتحدث، وعلو بلاغته،

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٧٩/٢).

(٢) معاني القرآن للفراء (١٥٩/١-١٦٠).

(٣)جامع البيان عن تأويل آي القرآن(٢٦٨/٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٥٠/٨).

لإتيانه باللفظ المناسب لمقتضى الحال، ثم يؤلف بينه ليدل على ما قصده هذا المتحدث، فطريقة نظمه جاءت استجابة لما قصده من معنى، وليس كل نظم يوافق مراد قائله إن لم يكن بصيرا بالأساليب اللغوية، فسبحان من تفرد بصواب كلامه، وعلو بيانه. أما الحديث عن ضمير النسوة وشواهده الأخرى فسيبحث في بابه[1].

ولم ترد صيغة ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في[المائدة:١٢٠] كما مرّ، وسيمرّ، ولعل اسم الموصول الدال على غير العاقلين استعمل فيها لأن الحديث عن ملك الله وأغلب ملك الله من غير العقلاء بالنسبة للبشر فغلّبت الكثرة، واستعمل ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ مرتين -كما سلف - في [الإسراء:٤٤]، وفي [المؤمنون:٧١] لتغليب العقلاء لأن غيرهم تبع لهم، أو لأن كل الخلق يعقل أوامر ربه وينقاد ويسبح وينزه، بطريقة تخفى على عقلاء البشر. وقد يكون غلّب من يُفقه تسبيحه على من لا يُفقه تسبيحه، وإن كان غيرهم الأكثر، أما تغليبه في آية المؤمنون فلأن الحديث عن اتباع الأهواء؛ والأهواء لا تكون إلا ممن يعقل فغلّبوا. وعلى ذلك فإن (مَا) مناسبة في موضعها، و(مَنْ) مناسبة في الموضعين. أما في حال عود الضمير إلى السماوات والأرض مثنى فلم تأت: من الموصولة الدالة على العقلاء، بل اختصت بذلك ما الموصولة الدالة على غير العقلاء على نحو من هذا التركيب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ وهذا التركيب كثيرة مواضعه، ولعل ذلك جاء لكون العقلاء لا يمثلون شيئا مقابل خلق الله الآخر، أو لأن ما الموصولة تشمل العقلاء بالتغليب.

ومرّ من قبل أقوال النحاة في من وما الموصولتين وأن الأولى للعقلاء، والثانية لغير العقلاء، وكثر استعمالهما في هذا الباب[2]، وقد يعبر بأحدهما عن الآخر لغرض يبينه السياق.

---

(١) ينظر: المبحث الثاني : عود ضمير المؤنث العاقل على غير العاقل (ص: ٣٧٦).

(٢) ينظر أقوال النحاة في من وما الموصولتين (ص:٥٢) وما بعدها.

وقد أورد الزركشي قولا يذكر فيه أن "كلمة مَا تتناول الأجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع، و مَنْ لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع فكان استعمال ما هنا أولى"[1].

وقد علق الزمخشري حول مدلول الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:١٢٠]، فقال :" فإن قلت: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء، فقيل: ومن فيهن؟

قلت: (ما) يتناول الأجناس كلها تناولا عاما. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحا من بعيد: ما هو؟

قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره، فكان أولى بإرادة العموم"[2].

ولم تعطف السماء المفردة على الأرض في حال عود ضمير التثنية إليهما إلا في موضوعين كما أشير إلى ذلك فيما سبق، ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنبياء:١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص:٢٧]، ولعله يلاحظ في هاتين الآيتين مطابقة الضمير لمقتضى الظاهر، فالمتعاطفان مفردان في لفظهما عاد إليهما الضمير مثنى، مع احتمالهما معنى الجمع لأنهما جنس، فالسماء كل ما سما[3]، والأرض كل ما سفل[4]، وقد عبر بالسماء والأرض عن الجنسين ليشمل كل سماء وكل أرض، فكان الإفراد في هذين الموضعين أبلغ من الجمع لاتساع معناه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٠٧/٣) .

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٦٩٧/١).

(٣) ينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٣١).

(٤) ينظر: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي (٢٠٣/٣).

[الذاريات:٤٧]. ولا يعقل أن يكون المقصود سماء واحدة و أرض واحدة لأن نفي اللعب والبطلان لا يصدق بهذا الفهم على جميع السموات والأرضين، ولكن لما كان الجنس أوسع من ذلك كله جاء التعبير به ليُنفى اللعب والبطلان عن كل سماء وأرض، كما أن في إفراد السماء والأرض في هذين الموضعين ملمسا بلاغيا يدل على يسر هذا الخلق على الله تعالى، بينما يأتي التلوين من الإفراد إلى الجمع ليكون مفسرا كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٣]، فكيف بالسماء التي اشتملت على السماوات السبع وكل ما سما؟! وألفاظ جمع السماوات تسهم في تفسير ما أريد به الجنس ويزيد الجنس في المعنى والإيجاز.

ولما كان الحديث عن هلاك فرعون الذي أفسد في الأرض ناسب هذا السياق – والله أعلم– الجمع الذي يبرز القوة من غير بحث عن هذا المعنى وراء ستار الجنس؛ بل أفصح عن العدد لأن السياق استدعى ذلك، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان:٣٨].فقد سبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الدخان:٣٠-٣١]، ثم قال بعدها: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان:٣٧].

وعندما أراد الله في ذكر السماء غير الجنس خصص ذلك بالصفة فقال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ [الصافات:٦].

ومما يؤيد القول بأن السماء في بعض المواطن تكون أوسع من السماوات إذا جمعت وأنهما ليستا بمعنى واحد ما جاء في قوله تعالى﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ

لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد:٢١] ففي آية آل عمران شبه عرض الجنة بالسموات والأرض مباشرة من غير أداة تشبيه، على سبيل ما يسميه أهل البلاغة بالتشبيه البليغ، وهذا يوحي بمطابقة المشبه للمشبه به، أما في آية سورة الحديد فقد ذكرت أداة التشبيه على طريق التشبيه المرسل، فقال الله: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

وقد وفق الرازي بين هاتين الآيتين فقال:" المراد بالسماء جنس السموات لا سماء واحدة، كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع"(١).

وقد ذكر بعض العلماء أن الكاف مرادا بآية آل عمران، يدل على ذلك التصريح به في آية الحديد(٢)، وقد يؤيد أقوالهم قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾. [الذاريات:٤٧]، لكن خلو الكاف من آية آل عمران ومجيئها في آية الحديد، مع استبداله بالسماوات السماء، واختلاف السياق حيث إن الجنة في آية آل عمران أعدت للمتقين وهم قلة، وطلب منهم المسارعة ولم يطلب التسابق، أما الآية في الحديد فالجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فكافة الناس مخاطبون، وهي للمؤمنين بمختلف مراتبهم فطلب منهم التسابق الذي يحمل معنى السرعة والمنافسة، فلكثرتهم ناسب ذكر ما هو أوسع فذكرت السماء التي هي كل ما علا والسماوات جزء منها، كل ذلك دل على تفاوت في المعنى - والله أعلم- ناهيك بأن قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يؤيد ما ذهب إليه الباحث .

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي،(ص:٥٠٨).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/١١٤)، دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (٢/٥٢٩)، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/٢٣٦) .

ومما سبق واستعرض من شواهد أشير إلى بعضها، واستغني عما لم يذكر لدلالة المذكور عليه، كما في الآيات الكثيرة التي يعود فيها ضمير الاثنين إلى السماوات والأرض، وتبين مما استعرض أن ضمير المخاطبِين إذا جاء للاثنين قد ينتقل إلى ضمير الاثنين لكونه الأصل، لاسيما إذا كان الغرض التكليف الذي يتطلب التعيين، منعا من اللبس، وذلك مثل مجيء الفعل﴿ فَأْتِيَا﴾ بعد ﴿مَعَكُم ﴾، والمخاطبان موسى وهارون. وقد يضاف إلى ضمير الاثنين ما هو للجماعة، والمقام يبرز أن مرجع الضمير اثنين، ففي الحديث عن السارق والسارقة قال: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ وعن حفصة وعائشة-رضي الله عنهما- قال:﴿قُلُوبُكُمَا﴾، كما أضيف السوءات إلى ضمير الاثنين فقال: ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وهما آدم وحواء، وكثر في هذه المواضع الثلاثة التأويل، ومنها أن إضافة المثنى إلى ضمير المثنى تسبب ثقلا فعدل إلى الجمع للتخفيف، ومنها أن المجموع ليس في الإنسان منه إلا واحد فامتنع اللبس بجمعه، وأصبح الجمع كالإفراد، وقيل التثنية جمع. فذكر الباحث توجيهه في كل موطن-والله أعلم- فذكر أن جمع الأيدي فيه دلالة على أن من فقد يمينه فكأنما فقد كلتا يديه لأهميتها، ولأن من عاد إلى السرقة فسيكون عرضة لقطع الأخرى بلا رأفة، وفهم من استعمال اسم الفاعل الدلالة على الثبوت والاستمرار، فلما كثرت سرقاته سمي سارقا، ولم يستعمل الفعل: سرق، أونحوه، فكان في الجمع ردع وزجر. أما القلوب فجمعت لتقلبها، أو تعظيما من الله لزوجتي رسول الله- ﷺ- ورضي عنهما، فجعل لهما ما لا يكون إلا للجماعة، لاسيما أن الجمع جاء في سياق التوبة. وجمع السوءات لبيان عظم العقوبة وأنه لاشيء يسترها سوى التوبة.

وتبين بشواهد مستفيضة أنه كثيرا ما ترد السماوات معطوفة عليها الأرض ويعود عليهما ضمير الاثنين، والسماوات جمع في لفظه ومعناه، ولعل ذلك يأتي إذا أريد التضييق والإحاطة بمن جاء السياق في شأنهم، كما يدل على أن هذين الجنسين متصرف الله بأمرهما. على خلاف ضمير الإناث الذي يوحي بالاتساع والكثرة. كما تبين أن صيغة ﴿وَمَافِيهِنَّ﴾ لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في[المائدة: ١٢٠]. ووردت ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ مرتين في [الإسراء: ٤٤]، وفي

[المؤمنون:٧١]، ولم تأت مَن الموصولة إذا عاد ضمير الاثنين إلى السماوات والأرض؛ بل تأتي ما الموصولة على نحو ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ وذلك في مواطن كثيرة. إما لأن مَا الموصولة تشمل جنس العقلاء وغير العقلاء، أو لأن غير العقلاء أكثر.

ولم تعطف السماء المفردة على الأرض في حال عود ضمير التثنية إليهما إلا في موضوعين في [الأنبياء:١٦] و[ص:٢٧] ، فكان الإفراد في هذين الموضعين أبلغ من الجمع لاتساع معناه بدلالته على الجنس، وإذا أريد غير الجنس أتت القرينة كالوصف في قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ [الصافات:٦]، والله أعلم.

المبحث الخامس : عود ضمير الجمع على المفرد

تعد ظاهرة عود ضمير الجمع على المفرد الظاهرة الأبرز التي كثرت شواهدها في القرآن الكريم، وفي كل موضع من مواضعها يكون الداعي إلى هذا التلوين سر بلاغي اقتضاه المقام، وهذه الظاهرة لم يخل كلام العرب منها، ولاريب أن القرآن جاء على سنن كلام العرب، ولكن بأبهى صورة وأجمل حلة، ومن أكثر شواهده ما جاء بضمير المعظم نفسه سبحانه، وهذا الضمير لا يخفى على أحد أثره في المتلقي والمكلف، وله في القرآن الكريم أمثلة مستفيضة في مواطن متباينة، والعرب استعملوا في أشعارهم الجمع محل الإفراد لامتناع اللبس فضلا عن التلوين بين الضمائر، ومن ذلك قول امريء القيس(1):

يُزلّ الغُلامَ الخِفَّ على صَهَواتِهِ ... ويُلْوي بأَثْواب العَنيفِ الْمُثَقَّلِ

فليس لهذا الحصان إلا صهوة واحدة، وإذا استعمل الجمع محل الإفراد فلا غرو أن يعود ضمير جمع على مفرد، لسبب بلاغي يزيح السياق الستار عنه، ويتجلى للمتلقي من غير خفاء.

وأما تعظيم النفس فوارد في أشعار العرب، ومن ذلك قول امريء القيس، حين رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده(2):

أجارَتَنا إنَّ الخُطُوبَ تَنوبُ ... وإني مُقِيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ

---

(1) ديوان امريء القيس (ص: 57).

الشرح: إن هذا الفرس يُزل ويُزلق الغلام الخفيف عن مقعده من ظهره ويرمي بثياب الرجل العنيف الثقيل، يريد أنه يزلق عن ظهره من لم يكن جيد الفروسية عالِمًا بها ويرمي بأثواب الماهر الحاذق في الفروسية لشدة عدوه وفرط مرحه في جريه، وإنما عبر بصهواته ولا يكون له إلا صهوة واحدة؛ لأنه لا لبس فيه، فجرى الجمع والتوحيد مجرى واحدًا عند الاتساع؛ لأن إضافتها إلى ضمير الواحد تزيل اللبس. المرجع نفسه. وهذا البيت من شواهد: المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي (2/174). وخزانة الأدب للبغدادي (3/247)، وينظر: شرح القصائد العشر للتبريزي (ص: 41).

(2) ديوان امريء القيس(ص: 83).

أجارَتَنـــا إنّـــا غَرِيبَـــانِ هَهُنَـــا وَكُـلُّ غَرِيـبٍ للغَرِيـبِ نَسِـيبُ

فلم يقصد بنون الجمع إلا نفسه، يدل على ذلك المثنى (غريبان).

ومثل ذلك الحارث بن حلزة اليشكري في أول معلقته، حيث قال(1):

آذَنَتْنَـــا بِبَينِهـــا أسْمَـــاءُ رُبَّ ثَـــاوٍ يُمَـــلُّ مِنْـــهُ الثَّـــوَاءُ

فمن المؤكد أن الضمير عائد إلى ذاته؛ لأنه لا يعقل أن يشرك معه أحدا في حبه لمحبوبته، والتألم لفراقها.

وإذا كان هذا الأسلوب مستعملا لدى العرب فإن القرآن الكريم جاء به متنوعا، وبأساليب متباينة، تصغي إليه آذان البلغاء فيكبرونه، وتكلّ عن مثله الألسن وتقصر دونه، ومما يلاحظ مجيئه على هذه الظاهره ما جاء في آيات الهبوط، حيث جاء الفعل (قال) الذي يسبق الأمر بالهبوط مسندا إلى ضمير على صورة ناء الفاعلين وهو في لفظه للجمع وفي معناه لله الواحد المعظم نفسه، جاء في سورة البقرة في موضعين متتابعين، لكنه أسند إلى ضمير الواحد في سورتي الأعراف وطه على النحو اللآتي:

في سورة البقرة قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦].

وقال أيضا: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨].

وفي سورة الأعراف قال: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:٢٤].

وكذلك في سورة طه قال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه:١٢٣].

وبعد النظر والتأمل وجد الباحث أن الفعل ﴿قُلْنَا﴾ فيه معنى العظمة، والقرار الصارم الذي يجب إنفاذه من غير تردد؛ لاشتماله على معنى العقاب بالذنب، وهذا الإسناد فيه روح الغضب، وقد تطلّب المقام إسناد فعل القول إلى ضمير المعظم نفسه؛

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة اليشكري (ص: ٦٦)، و(ص: ٧٥).

الشرح: أعلمتنا أسماء بمفارقتها إيانا، أي: بعزمها على فراقنا، ورب مقيم يمل إقامته، أما أسماء وإن طالت إقامتها فلن أملها. ينظر المرجع نفسه (ص: ٧٥).

فقال: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]؛ لأنه جاء قبل إعلان التوبة، وقبول الله لها، وذلك في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧]، فناسب ذلك المجيء بلفظ العظمة المناسب لعظم العقاب، وللمشاكلة أسند الفعل في قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ علما أنه جاء بعد آية قبول توبة آدم -عليه السلام- مشاكلة وتوكيدا للآية التي سبقتها وهي قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فجاء التعبير على نسق واحد، كيلا يورث اختلاف الإسناد ثقلا بالتأليف، أما موضعا إسناد فعل القول لضمير الواحد عندما أُمر آدم وزوجه بالهبوط فجاءا في آيتي الأعراف وطه في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:٢٤] وسبقها قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]، وأما آية طه فقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه:١٢٣]، فسبقها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

فقد سُبقت آية الأعراف بإلتجائهما إلى الله، وسؤاله المغفرة، ولم يخيب الله طلبهما، أما آية طه فقد سُبقت بقبول الله توبة آدم عليه السلام؛ فناسب ذلك إسناد فعل القول إلى ضمير الواحد في الموضعين لطفا بهما ورحمة، فلما جاء العفو لانَ فعل القول فأسند إلى ضمير الواحد؛ ليناسب قبول التوبة، خلافا للموضع في سورة البقرة الذي أسند فيه فعل القول إلى صورة ناء الفاعلين العائدة لله الواحد تعظيما؛ لأنه قبْل العفو، فناسب كل تعبير مقامه، كما أن ضمير المتكلم ناسب خطابه لآدم ونداءه له؛ ليستحضر المتلقي القصة وكأنه يرى أحداثها رأي العين، أما ضمير الغائب فجاء ليستذكر المتلقي القصة ويستدعي أحداثها.

ولكن عند النظر في المتشابه نجد اختلافا في الأسلوب، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن

مِنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١-١٢] وبعد عدة آيات يأتي قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٤] فانتقل من إسناد الفعل إلى ضمير المعظم نفسه- الذي لفظه للجمع ومعناها هنا للواحد سبحانه- إلى إسناده للواحد، وذلك في الأفعال في قوله: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾، و﴿ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾، و﴿ قُلْنَا ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ فعاد ضمير الواحد إلى ضمير الواحد الدال على المعظم نفسه، ومرجع الضميرين هو الله الواحد الأحد، وظاهر السياق أن يقول: قلنا ما منعك، لكن لما كان إبليس أول المتكبرين، بنى الله الحوار على لفظة قال، مسندة إلى الواحد، ولم يقل: قلنا، وفي ذلك احتقار لإبليس، وتوبيخ له، وأن عقابه هين على الله، فعدل عن صورة ناء الفاعلين لئلا يتسلل إلى المتلقي أدنى تعظيم لإبليس، ظانا أن في الإسناد إلى ضمير الجماعة دلالة على الاستعانة بالآخرين، أو أن في صيغة التكلم معه روح العناية، فجاء الالتفات من التكلم إلى الغائب لدلالة الالتفات على الغضب والصدّ عن هذا المتكبر، فاجتمع بذلك فن الالتفات ودلالته، وفن التلوين حيث الانتقال من إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة إلى ضمير الواحد؛ لبيان جبروت الله وحده أمام من تكبر.

وقد أشار السامرائي إلى نكتة من الإسناد في إرشاد آدم ليسكن في الجنة، فعقد مقارنة بين قصة آدم في البقرة وآل عمران، فقال:" فقد أسند القول في البقرة إلى نفسه ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ﴾(١)، وهذا يقوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم، فإن الله سبحانه يظهر نفسه في مقام التفضل والتكريم، في حين جمع بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول

---

(١) [البقرة:٣٥].

واحد في الأعراف وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغالب: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ... ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(١) فلم يفرد آدم بقول"(٢).

وقال الكرماني: "وزاد في البقرة ﴿ رَغَدًا ﴾(٣) لما زاد في الخبر تعظيما بقوله: ﴿ وَقُلْنَا ﴾(٤) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها ﴿ قَالَ ﴾"(٥).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٣٤-٣٥]، فلا شك أن الأمر عظيم، والمأمورون هم الملائكة. وبذلك عادت ناء المعظم نفسه إلى الله وحده جلّ شأنه تعظيما لذاته، فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾، ﴿ وَقُلْنَا ﴾ علما أن القصة بدأت بصيغة الإفراد فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠] فاختلف الإسناد في آيتي [البقرة:٣٤-٣٥] فأسند الفعل إلى ناء المعظم نفسه، بدلا من ضمير الواحد، فجاء التلوين من ضمير الإفراد في (قال)، إلى بلاغة ضمير المعظم نفسه في (قلنا)؛ وفي الإسنادين تفسير لمرجع الضميرين فكلاهما عائد إلى الله، ولا يشترك معه ملك مقرب ولا نبي مرسل، لأن المأمورين هم الملائكة لقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ فعلم أن القائل هو الله لقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ

(١) [الأعراف:١٨-١٩].

(٢) التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص:٢٩٥).

(٣) [البقرة:٣٥].

(٤) [البقرة:٣٥].

(٥) أسرار التكرار في القرآن، أبو القاسم برهان الدين الكرماني (ص: ٧١).

رَبُّكَ ﴾ وهذا يفسر كل ضمير جمع أسند إلى فعل الله، أما إسناد الفعل إلى ضمير الواحد فقد ناسب الحال الذي فيه تساءل الملائكة عن سبب جعل الخليفة في الأرض، لكون الله وحده المتصرف، والملائكة عبيد مسبحون ومقدسون، فناسب المقام الإفراد لتفرد الله بعلم الغيب، وأن هذا الخليفة آدم الذي سينبؤهم بما يجهلون، فأبهر ذلك الملائكة، وأيقنوا أن الله يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما يبدون وما يخفون، فهيأ ذلك لأسلوب التفخيم الدال على العظمة، الذي جاء في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ فأسند حينئذ الفعل إلى ضمير المعظم نفسه حيث التفخيم والتعظيم المناسب للمقام.

وقال أبو حيان:" وفي قوله: قلنا التفات، وهو من أنواع البديع، إذ كان ما قبل هذه الآية قد أخبر عن الله بصورة الغائب، ثم انتقل إلى ضمير المتكلم، وأتى بنا التي تدل على التعظيم وعلو القدر وتنزيله منزلة الجمع، لتعدد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، وحكمة هذا الالتفات وكونه بنون المعظم نفسه أنه صدر منه الأمر للملائكة بالسجود، ووجب عليهم الامتثال، فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم؛ لأنه متى كان كذلك كان أدعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به، من غير بطء ولا تأول لشغل خاطره بورود ما صدر من المعظم"(١).

ومن عادة الملوك تعظيم الزعماء في الرسائل والخطاب، وفي سورة النمل جاء التلوين بين الضمائر مصورا ذلك، فعاد ضمير المفرد على الجمع وضمير الجمع على المفرد، ومن مواضع عود ضمير الجمع على المفرد، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[النمل:٣٥-٣٧]، ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم ﴾ جاء ضمير الجمع عائدا إلى سليمان -عليه السلام- بدليل قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (١/٢٤٥-٢٤٦).

[النمل:٣٠]، لغرض التعظيم الذي حتمه عليها الفزع المصاحب لرسالة سليمان، وكذلك يجد الباحث أن المسند إليه في الفعل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ قد جاء ضمير جمع للمخاطبين، ليفسر الضمير المفرد في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾، فاتضح بواو الجماعة العائد إلى الرسول ورفاقه، وقد يشمل بلقيس وقومها بدلالة قوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾، فصور الجمع قوة سليمان وعظمته حيث لم يوهنه الجمع.

قال البيضاوي في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾:" خطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب"(١).

ومن الألفاظ التي تضاف إلى ناء المتكلمين وهي لله وحده على سبيل التعظيم لفظ العبودية، فالمتتبع للفظة (عبدنا) (٢) في القرآن الكريم يجدها ذكرت في خمسة مواضع جميعها في سياق الحديث عن نبي، أما لفظة (عبادنا) فقد وردت إحدى عشرة مرة منها ثمان مرات في سياق الحديث عن نبي، وواحدة في قصة العبد الصالح الخضر على اختلاف في نبوته، أما مع غير الأنبياء فقد ذكرت مرتين في قوله تعالى:﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣] وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] ففي الآية الأولى يظهر أن هؤلاء العباد قد دخلوا الجنة وتجاوزوا حياة التكليف أما الآية الأخرى فهم مصطفون لا خطر عليهم، وعلى ذلك فإن الباحث يستنتج أن إضافة لفظة عباد أو عبد إلى ناء المعظم نفسه لم ترد إلا في الحديث عمن لا يلتبس عليهم الإسناد بإشراك لأن الأنبياء والمصطفين من العباد هم أعرف الناس بربهم جل شأنه وأخشاهم له قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨] ، أما مع عامة الناس فتضاف لفظة

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/١٦٠).

(٢) ينظر: إضافة عبد إلى ياء المتكلم في مبحث عود ضمير الجمع على المفرد (ص: ١٩٣-١٩٤).

عباد إلى ياء المتكلم احتراسا من اللبس الناشئ من اختلاف أفهام العامة؛ لأن الأمر يتعلق في العقيدة التي هي أهم المهمات، فأضيفت إلى ياء المتكلم مراعاة لأحوال عامة المتلقين.

وفي سورة الرحمن يأتي قوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن:٨]، فقد سبقت بقوله: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرحمن:٣]، فتبين أن ضمير الجمع عائد إلى أفراد الجنس، فكل فرد ملزم مكلف بالعدل، ولا يخفى على الله شيء.

وتأتي أفعال الربوبية كالخلق والتدبير والقضاء مسندة إلى ضمير المعظم نفسه، سواء أكانت إنشائية، أم خبرية، وظاهره أنه يعود لأكثر من واحد، لكن حقيقته لله وحده على وجه الاستعلاء؛ الموجب إلزام المأمور بتنفيذ ما كلف به من غير تردد إن كان أمرا، أو بيان العظمة والقدرة الباهرة إن كان خبرا، والقدرة تستوجب طاعة العبد، ومن تلك المواطن قول الله تعالى في خلق آدم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر:٢٦-٢٩]، فيلاحظ أن مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنِّي﴾ هو مرجع الضمير في قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾ فكلاهما لله، وكلاهما صيغتا متكلم[1]، والسر البليغ في ذلك والله أعلم أن قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ جاء مستفتحا الجملة الخبرية التي سبقتها أخبار كثر فيها ضمير المعظم نفسه، لأن عظمة الأفعال تستوجب تعظيم الفاعل وأن يقدر قدره، وهذه الأفعال دالة على القدرة والنعمة، فجاءت هذه الآيات التي الباحث في صدد تحليلها متناسبة مع ما سبقها، فأسند الفعل﴿خَلَقْنَا﴾ إلى ناء المعظم نفسه على وجه

(١) ينظر: ياء المتكلم في قوله:﴿إِنِّي﴾ في مبحث عود ضمير الإفراد على الجمع في البحث (ص: ١٠٣)

الاستعلاء لما لهذه العظمة من القوة الظاهرة، فمن خَلَق من عدم قادر على الإحياء من بعد وجود لاسيما والسورة مكية، ففي هذا الإسناد تعظيم للخالق وتكريم للمخلوق.

يقول العكبري: " النون من حروف الزيادة لشبهها بالواو، وقد زيدت أولا للمضارعة نحو نذهب، وتدل على المتكلم ومن معه اثنين كانوا أو جماعة، وتكون للواحد العظيم لأن الآمر إذا كان مطاعا توبع على الفعل"(١).

أما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف:١١]، فإن حرف العطف (ثم) يعطي دلالة على أن المقصود آدم؛ لأن السجود لآدم كان قبل أن يكون لآدم ذرية، وقد رأى الدكتور عبد العظيم المطعني أن حرف العطف الذي أفاد الترتيب والتراخي دلّ على أن في التعبير تجوزا، أي خلقنا أباكم ثم صورناه، والمجاز فيها مرسل والعلاقة المصححة هي السببية. إذ وجود المخاطبين مسبب على وجود المراد بالحديث وهو آدم (٢).

وما ذهب إليه الدكتور المطعني هو ما رآه ابن قتيبة من قبل حيث فسر الآية بقوله:" أراد: خلقنا آدم وصوّرناه، فجعل الخلق لهم، إذ كانوا منه"(٣).

ولقد ذكر الباقلاني مثل ما ذهب إليه ابن قتيبة وزاد تأويلا لحرف العطف فقال:"لأنّه تعالى لم يرد به الترتيب والتراخي، وإنما جعل ثم ها هنا بمعنا واو الجمع،

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري (٢/٢٦٠).

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (٣٤٨/١)، وينظر: المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (ص: ٧٦).

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ٩٨)، وينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ١٣٧).

فكأنه قال: خلقناكم وصوّرناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، وواو الجمع لا توجب الترتيب ولا تراخي ولا تعقيب، ومثل هذا شائع في اللغة"(١).

لكن الباحث يرى خلاف ما ذهبوا إليه- رحمهم الله وغفر لهم — فيرى أن هذا التعبير جاء على حقيقته من غير تجوز، وذلك منبئ عن قدرة الله التي تدل على عظمته، فجميع ذرية آدم -عليه السلام- خلقوا وصوروا في ظهر آدم قبل أن تحملهم الأرحام.

فالذرية أصلها في الظهر قبل أن تكون في الرحم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢].

ويؤيد هذا القول الحديث الذي رواه العِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ "(٢). قال عنه شعيب الأرنؤوط في الحاشية: حديث صحيح لغيره دون قوله: "وكذلك أمهات النبيين ترين"(٣).

وما رواه عَبْدُ اللهِ بْنُ شَقِيقٍ(٤)، عَنْ رَجُلٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى جُعِلْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ: "وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ "(٥). مذيل بحكم شعيب الأرنؤوط في الحاشية، أن إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الصحيح.

---

(١) الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني (٢/٦١٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٧٩/٢٨) رقم الحديث: ١٧١٥٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه(٣٧٩/٢٨)، رقم الحديث: ١٧١٥٠.

(٤) عبد الله بن شَقِيق الْعقيليّ البصري، كنيته أبو عبد الرحمن، روى عن أبي هريرة وابن عباس وعائشة — رضي الله عنهم- وغيرهم، وممن روى عنه خالد الحذاءَ بُدَيْل بن ميسَرَة ، مات سنة ١٠٨هـ. ينظر: رجال صحيح مسلم لابن منجوبة (٣٦٨/١).

(٥) المصدر نفسه(١٧٦/٢٧) رقم الحديث: ١٦٦٢٣.

وقد روى أبو جعفر النحاس جملة من تأويلات هذه الآية، ثم رجّح ما رواه مجاهد فقال: " معنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم في ظهر آدم قال أبو جعفر: وهذا أحسن الأقوال يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود لآدم بعد، ويقوي هذا وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم"(١).

وذكر الأصبهاني في إعرابه:" أنّ الترتيب وقع في الإخبار. كأنّه قال: ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة، كما تقول: أنا راجل ثم أنا مسرع، وهذا قول جماعة من النحويين منهم: علي بن عيسى(٢) والسيرافي(٣) وغيرهما، وقال الأخفش: (ثم) هاهنا بمعنى (الواو)، وأنكره الزجاج"(٤).

(١) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس (١٢/٣)، وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٠/٧٩-٨٠). وقد قرئت (ذريتهم وذرياتهم) فقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: من ظهورهم ذريتهم واحدة، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: ذرياتهم جماعة، ينظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسيّ، وينظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ص: ١٦٧).

(٢) هو علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني، وكان يعرف أيضا بالإخشيدي وبالوراق، وهو بالرماني أشهر؛ كان إماما في العربية، علامة في الأدب في طبقة الفارسي والسيرافي، معتزليا، ولد سنة ٢٧٦هـ، وأخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد، وصنف التفسير، وشرح كتاب سيبويه، وشرح الموجز لابن السراج، وتوفي سنة ٣٨٤هـ. ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (ص:٢١٠-٢١١)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/١٨٠-١٨١).

(٣) السيرافي: هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان، القاضي أبو سعيد السيرافي، ولي قضاء بغداد، قرأ النحو على ابن السراج، واللغة على أبي بكر ابن مجاهد وابن دريد، له تآليف منها: شرح كتاب سيبويه وأحسن فيه، شرح الدريدية، ألفات القطع والوصل، الإقناع في النحو لم يتم فأتمه ولده يوسف.مات سنة ٣٦٨هـ، ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (ص:١١٥-١١٦)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١/٥٠٧-٥٠٨).

(٤) إعراب القرآن لأبي القاسم الأصبهاني(ص: ١٢٧).

ومنهم من صرح بأن الجمع قصد فيه آدم تعظيما، ذكر ذلك ابن عادل[(١)]، ونحا هذا المنحى الألوسي[(٢)]. لكن رأي الباحث هو ما سبق الإشارة إليه، لأن المقام مقام قدرة وقد وجد أدلة تقوي ذلك، والله أعلم.

وكثيرا ما يجد الباحث الأفعال ﴿ قُلْنَا ﴾ و﴿ فَقُلْنَا ﴾ و﴿ وَقُلْنَا ﴾ وأمثالها، تتبعها أخبار أو أحداث، فأسس الإسناد إلى ضمير المعظم نفسه مجيء جمل خبرية أو إنشائية، كثيرا ما تبنى ألفاظها على ضمير المعظم نفسه، لما في هذا القول من العظمة.

وقد ذكر أبو حيان أن الأمر في القرآن الكريم اشتمل في بعض أساليبه على نون المعظم نفسه العائدة إلى الله "التي تدل على التعظيم وعلو القدر وتنزيله منزلة الجمع، لتعدد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة" ثم يردف بلاغة الاتيان بهذه النون فيذكر أنه "وجب عليهم الامتثال، فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم؛ لأنه متى كان كذلك كان أدعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به، من غير بطء ولا تأول لشغل خاطره بورود ما صدر من المعظم. وقد جاء في القرآن نظائر لهذا، منها: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴾[(٣)]، ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ ﴾[(٤)]، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا ﴾[(٥)]، ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾[(٦)]، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ ﴾[(٧)]، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ ﴾[(٨)] فأنت ترى هذا الأمر وهذا النهي كيف تقدمهما الفعل المسند إلى المتكلم المعظم نفسه؛

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٧/٩).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٣٢٧/٤).

(٣) [البقرة:٣٥].

(٤) [البقرة:٣٦].

(٥) [الأنبياء:٦٩].

(٦) [الإسراء:١٠٤].

(٧) [النساء:١٥٤].

(٨) [النساء:١٥٤].

لأن الآمر اقتضى الاستعلاء على المأمور، فظهر للمأمور بصفة العظمة، ولا أعظم من الله تعالى"(١).

والأفعال والأسماء المسندة أو المضافة إلى نون المعظم نفسه كثيرة جدا، ليس بوسع الباحث حصرها، لكنها كلها تقتضي الاستعلاء، وتستدعي التعظيم، ولا يأتي ضمير المعظم نفسه إلا لأمر عظيم، وهو العظيم في كل زمان وعلى كل حال، فيأتي خبرا لأمر كان على وجه التكليف، ظاهره أنه يعود لأكثر من واحد، لكن معناه لله وحده على وجه الاستعلاء؛ الموجب إلزام المأمور بتنفيذ ما كلف به من غير تردد، ويرى هذا الإسناد كثيرا في الأفعال المبينة قدرة الله وعظمته، والضمائر التي تأتي في سياق الحديث عن أحداث اليوم الآخر، كالحديث عن النشر والحشر والجزاء، لتبني في قلب المخاطب الخشية، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه:١٠٢]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٧]، وقوله: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [مريم:٨٥]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل:٨٣]، وما يتعلق بذلك من أحداث يوم القيامة كثير لا يسع المجال لحصره؛ هذا ليهيء المتلقي لتعظيم الخبر الملقى وإعداد العدة له، والضمير إما أن يكون على صورة ناء الفاعلين أو المتكلمين، أو الضمير (نحن) وكلها تعود إلى الواحد المعظم نفسه، ويسند إليها الفعل الذي لا يكون إلا من الله ومن ذلك مجيئه في الرزق الذي لا يكون إلا من الله فقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١] وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١] وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه:١٣٢] وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف:٣٢].

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٢٤٥-٢٤٦).

وجاءت في بعض مواطن الحديث عن الخلق وما يكفل استمراره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة:٥٧]، وقال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الواقعة:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة:٧٣]، وقال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الواقعة:٦٩]، وقال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ [الواقعة:٧٢].

وكذلك في تعظيم القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف:١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإنسان:٢٣].

وكذلك في كون الله هو الأعلم قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ [مريم:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [طه:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٦] وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [ق:٤٥].

وجاء أيضا في بعض مواطن الهلاك ورجوع الناس إلى الله وأن الله هو الوارث قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الإسراء:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم:٤٠]، وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾

[ق:١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة:٨٥] [ق:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣] [القصص:٥٨]، وقوله -سبحانه - تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [فصلت:٣١]، وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الواقعة:٦٠]، وقوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج:٤١]، وقوله: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان:٢٨].

فالخلق والرزق وإنزال القرآن الكريم، والتصريح بأن الله هو الأعلم ثم إماتة الخلق، كلها من أفعال الربوبية التي تدل على عظمة الفاعل لذلك جاء ضمير المعظم نفسه، ومن عظمته أن له ملائكة موكلين بأعمال، والله هو المتصرف وحده.

وكذلك يجد الباحث الضمير(إنّا) العائد إلى الله تعظيما، يأتي في مواضع منها، قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة:١١٩]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء:١٦٣]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الكوثر:١].

ويقف الباحث على ما ذكره السامرائي في آية سورة الكوثر ليتبين بما قاله سواها، فقد قال -حفظه الله-: " لقدأسند الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه فقال: ﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾، وجعله مسندا إلى الضمير المتقدم المؤكد بإنّ﴿ إِنَّآ ﴾ ،وبناء الفعل على الاسم المتقدم كثيرا ما يفيد الاختصاص، وقد يفيد الاهتمام دون الاختصاص... وهنا يفيد الأمرين معا، فهو يفيد الاختصاص والاهتمام معا، وقد أكد ذلك بإنّ فقال: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ولم يقل: نحن أعطيناك. إنّ إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المفيد

للتعظيم وتوكيده يفيد أنه لا يستطيع أحد أن ينزع هذا العطاء منه ويسلبه إياه، وكيف يمكن أحدا أن ينزعه منه والله هو الذي اختصه بهذا العطاء الكثير[1]"؟!

ومن مواطن تغاير الضمائر في العدد مع اتحاد المرجع ما جاء إجابة لموسى –عليه السلام– عندما اختار سبعين رجلا من قومه فقال الله قاصا علينا قوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦]، ففي هذه الآية جاءت جميع الضمائر على صيغة الإفراد سوى الضمير الأخير فقد جاء على صيغة الجمع؛ وذلك في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مع كون جميع الضمائر على صيغة المتكلم، فاختلفت في العدد واتحدت في المرجع، إلا أنه التفت عن صيغة الإفراد التي كثرت في الآية إلى صيغة جمع واحد، ولعل السر في ذلك – والله أعلم – أن ضمائر الإفراد جاءت إجابة لسؤال عباد الله الذي جاء على لسان نبيهم موسى –عليه السلام– فجاءت ضمائر الإفراد ومنها ياء المتكلم لتظهر معنى اللطف وإظهار الشفقة والرحمة بالمجابين عن سؤالهم ومنهم نبي الله، كما أن ياء المتكلم تفيد كمال التصرف، فالعذاب عذابه وحده وهو أدرى بمن يصيب، والرحمة رحمته وهو أعلم بسعتها، والعباد عباده، فله كمال التصرف، فتأتي الياء ليطمئن المجابون؛ ولأن الإفراد وضمير المتكلم هو الأصل، ثم ينتقل إلى ضمير التعظيم بعد أن سبقه ما يفسره، ويذهب عنه التباسه بشرك، والله أعلم وفيه تعريض بمن لم يؤمن بالآيات بعد إضافتها لضمير المعظم نفسه.

ويتلون الضمير من صيغة الإفراد إلى صيغة الجمع والمرجع هو الله وحده؛ ليفسر ضمير الإفراد ضمير الجمع، وأنه لا شريك لله سبحانه، بل صفاته كثيرة وملائكته مستجيبون لعظمته، ولقد اجتمع الاثنان في قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ

(١) على طريق التفسير البياني، د. فاضل صالح السامرائي (١/٧٧).

ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٦] فجاء في صدر الآية إضافة الآيات لياء المتكلم فقال: ﴿ءَايَٰتِىَ﴾ وذيلت الآية بالانتقال إلى ضمير على صورة ضمير المتكلمين وهو ضمير الواحد المعظم نفسه، فضمير الإفراد يفسر ما جاء على صورة الجمع، وأن مرجع الضميرين هو الواحد الأحد سبحانه.

بينما يعدل عن ضمائر الإفراد إلى الضمير (نا) في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ليبين أن المقام مقام عظمة وإكبار، وحال الناس مع آيات الله متباينة؛ وليبين أن هذا الضمير الذي ظاهره أنه للجماعة ليس إلا له سبحانه لا شريك له، تفسره الضمائر التي سبقته، وجاء ضمير المعظم نفسه لتعدد صفاته سبحانه، التي تناسب كل حال من حالات البشر المتباينة مع آيات الله –سبحانه- فالإيمان بآيات الله هو سبب الرحمة، والتكذيب بآياته سبب العذاب، ومن هنا نالت الآيات التعظيم.

وفي المعجم المفهرس ذكر أن لفظة (آياتنا) وردت في اثنين وتسعين موضعا[(١)] بينما لم ترد لفظة (آياتي) إلا في أربعة عشر موضعا[(٢)]. ووردت لفظة (أرسلنا) في ثمان وخمسين موضعا[(٣)]،ومن خلال تتبع الباحث لمواضعها وجدها ذكرت في واحد وستين موضعا، تارة بلفظة (أرسلنا)، وأخرى بلفظة (وأرسلنا) وثالثة بلفظة (فأرسلنا)، وجاء الفعل (نرسل) في أربعة مواضع[(٤)]، بينما لم ترد لفظة (أرسلتُ) عائدا ضميرها إلى الله في أي موضع، أما الاسم (رسولنا) فقد جاء مضافا إلى ضمير العظمة في أربعة مواضع[(٥)] بينما جاء الاسم (رسلنا) في سبعة عشر موضعا[(٦)]، بينما لم ترد (رسلي)

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمود فؤاد عبد الباقي (ص: ١٠٦) .

(٢) المصدر نفسه(ص: ١٠٨) .

(٣) المصدر نفسه(ص: ٣١٣) .

(٤) المصدر نفسه(ص: ١١٤) .

(٥) المصدر نفسه(ص: ٣١٦) .

(٦) المصدر نفسه(ص :١١٩) .

مضافة إلى ياء المتكلم إلا في أربعة مواضع[1]، وورد لفظ (رسولنا) مضافا إلى ضمير المتكلم للمعظم نفسه في أربعة مواضع[2]، وقد جاء (رسولي) مضافا إلى ضمير المتكلم المفرد في موضع واحد [3]، وجاء (رسوله) مضافا للضمير الواحد العائد إلى الله في أربعة وثمانين موضعا[4]، وورد الفعل(أرسل) في ستة مواضع الفاعل له هو الله [5]، أما سابع هذه المواضع فالفاعل فيه فرعون وهذا لا يدخل في مجال البحث، ووردت لفظة (أرسلناك) في ثلاثة عشر موضعا[6] وفي موضعين جاءت (أرسلناه) [7].

واتضح للباحث أن ضمير الجماعة في هذه المواطن وأشباهها يفسرها الضمير المفرد وأنها كلها عائدة إلى الله وحده لا شريك له، فضمير الإفراد حقق التوحيد، وضمير المعظم نفسه أظهر القدرة الباهرة.

ومن هنا يتبين أن إرسال الرسل لا يأتي فعله مسندا لضمير المتكلم إلا دالا على التعظيم مع التوحيد، فلذلك كثر الفعل: (أرسلنا) لما فيه من قوة وقهر، ولم يسند فعل الإرسال إلى ضمير المفرد العائد إلى الله إلا في ثلاثة مواضع كلها في الحديث عن نبينا محمد -ﷺ- وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾ [التوبة:٣٣]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨ ﴾ [الفتح:٢٨]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩ ﴾ [الصف:٩]، ومواطن إسناد الفعل إلى ضمير الواحد مفسرة لكل

(١) المصدر نفسه(ص :٣١٩) .

(٢) المصدر نفسه(ص: ٣١٦) .

(٣) المصدر نفسه(ص: ٣١٨) .

(٤) المصدر(ص: ٣١٦).

(٥) المصدر(ص: ٣١٢) .

(٦) المصدر(ص: ٣١٤) .

(٧) المصدر نفسه(ص: ٣١٤) .

موضع أسند فيه فعل الإرسال إلى ضمير المعظم نفسه، وأنه لم يُرَد به سوى الله وحده، والدليل على ذلك أن المدعوين فهموا أن فعل الإرسال وإن أسند إلى ضمير الجمع فهو دال على العظمة، إذ لا يراد به إلا الله وحده، ولا أدل على ذلك من إسنادهم فعل الإرسال إلى ضمير المخاطب إثباتا لهذا الفهم المشعر بالوحدانية، فقال الله حكاية عنهم: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤] وقال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص:٤٧]، فلم يقولوا (أرسلتم) بل قالوا: (أرسلت) لذلك الغرض.

وبعد هذا العرض يتبين للباحث أن ما جاء ظاهره ضمير جمع وهو عائد إلى الله وحده إنما جاء تعظيما لله، لأن الله خلق ملائكته وأوكل لكل ملك عملا يتولاه، فللموت ملك، وللمطر ملك، وهناك حفظة، وهناك خزنة، وغير أولئك، وكل ذلك دال على عظمة الواحد الأحد، الغني الحميد.

ومثل ذلك يقال في لفظة (عبد) فقد جاءت في القرآن بصيغ مختلفة تدل على الإفراد من ذلك لفظة (عبده) وردت سبع مرات(١)، بينما ترد في حالة إضافتها إلى ياء المتكلم مثل:(عبادِ) في أربعة مواطن(٢)، وجاءت (عبادي) مضافة إلى ياء المتكلم في سبعة عشر موضعا(٣)، ووجاءت على لفظة (اعبدوني) في ثلاث مواضع(٤)،وجاءت مضافة إلى كاف الخطاب العائد إلى الله (عبادك) في سبعة مواضع(٥)، وأضيفت إلى

(١) المصدر نفسه(ص: ٤٤٣) .
(٢) المصدر نفسه(ص: ٤٤٣) .
(٣) المصدر نفسه(ص: ٤٤٤) .
(٤) المصدر نفسه(ص: ٤٤٣) .
(٥) المصدر نفسه(ص: ٤٤٣) .

الهاء العائدة إلى الله (عباده) في أربع وثلاثين[1]، أما إضافتها إلى نون المعظم نفسه فجاءت على صور منها: (عبدنا) في خمسة مواضع[2]، وعلى لفظة(عبادنا) في اثني عشر موضعا[3].

ومن هذا يظهر أن العبادة لما كانت لله وحده لا شريك له كثر مجيئها مسندة أو مضافة إلى الضمير المفرد العائد إلى الله وحده، حتى ترسخ في نفوس الخلق إفراده، وليفسر ضمير الإفراد الضمير الذي ظاهره الجمع، أما مواضع إسناد لفظ العبودية إلى نون المعظم نفسه فللباحث فيه تأويل ينظر في محله[4].

وفي قصة إبراهيم – عليه السلام– في مكة، يجد الباحث كثرة التلوين بين ضمير الإفراد والجمع، أي من صيغة المتكلم إلى صيغة المتكلمين، فتارة يأتي التلوين من الإفراد إلى الجمع، وتارة العكس، وسيورد الباحث مواطن التلوين لكثرته في هذا المقام، من غير نقلها إلى مباحثها كيلا تتشتت الفائدة، فحينما دعا إبراهيم – عليه السلام– ربه بالأمن والتوحيد، اشتمل دعاؤه على صيغة المتكلم، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]، فيلاحظ أن ياء المتكلم هو الضمير الحاضر في ﴿رَبِّ﴾، ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾، ﴿وَبَنِىَّ﴾، ﴿تَبِعَنِى﴾، ﴿مِنِّى﴾، ﴿عَصَانِى﴾؛ ولعل ذلك لأن إبراهيم هو القدوة، والمسؤول بالرعاية، فقد دعا لنفسه أولا، وهذا يقتضي حضور ياء المتكلم؛ لأن صلاح القدوة صلاح للمقتدي، ولشفقته على نفسه، ثم دعا لأبنائه بصيغة الجمع وهما اثنان توسعا، أو كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؛ وقد استدعى ياء المتكلم كون الأبناء أبناءه، وبما أنه هو

(١) المصدر نفسه(ص ٤٤٤).

(٢) المصدر نفسه(ص: ٤٤٤) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ينظر المبحث الذي تطرق لبلاغة ذلك في (ص: ١٨١) .

الرسول والقدوة فإن هذا استدعى ضمير المتكلم في قوله: ﴿ تَبِعَنِي ﴾، ﴿مِنِّي ﴾، ﴿عَصَانِي ﴾، فياء المتكلم هنا تأسيس للاقتداء به، ولانفراده بما أوحى الله إليه، لكن أسلوب التلوين يحدث في الانتقال من ياء المتكلم إلى ناء المتكلمين، حينما ترك زوجه وابنها في مكة، حيث لا ماء ولا زرع فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾[إبراهيم:٣٧-٣٨]، وعلل أبو حيان مجيئ ضمير الجماعة بتقدم ذكر إبراهيم -عليه السلام- وذكر بنيه في قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي ﴾، ﴿وَبَنِيَّ ﴾(١)، لكن الألوسي تعقب هذا القول بأن ذلك يقتضي ضمير الجماعة في ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾ إلخ، مع أنه جيء فيه بضمير الواحد(٢).

أما ابن عاشور فعلل إضافة الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه بكون الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه. ولعل إسماعيل – عليه السلام – حاضر معه حين الدعاء كما تدل له الآية الأخرى ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧]، إلى قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة:١٢٨]، وذلك من معنى الشكر المسؤول هنا(٣).

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤٤٦/٦).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٢٣/٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦٢/١٢).

ولعل ما ذهب إليه ابن عاشور له وجاهته، لأن ذلك يقويه قول الله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، فذكْر البيت دلّ على أن هذا الدعاء كان بعد بناء إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام– البيت.

والملاحظ أن الفعل (يقيموا) أسند إلى واو الجماعة، واللذان أسكنهما إبراهيم – عليه السلام– بمكة اثنان؛ هاجر وابنها إسماعيل، وهاجر أيضا ليست من ذرية إبراهيم، بل هي أمة لسارّة وهبتها لإبراهيم[(١)]، فما سر الإسناد إلى ضمير الجماعة بدلا من ضمير الاثنين، أو الواحد؟ ولعل الإجابة تكمن في تفاسير أهل العلم، فقد ذكر الرازي أن المقصود إسماعيل ومن ولد[(٢)].

ويذكر أبوحيان سببا لإسناد الفعل (يقيموا) إلى واو الجماعة، فيقول: "دلالة على أن الله أعلمه بأن هذا الطفل سيُعَقَّب هنالك، ويكون له نسل"[(٣)]، وذلك لأن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم التي نزلت على زمزم، وعقدت شراكة بينها وبين أم إسماعيل[(٤)].

وبذلك يظهر أنه من باب المجاز المرسل والعلاقة المصححة اعتبار ما سيكون، ففيها إنباء عن زواج إسماعيل في مكة، وإنجاب ذريته.

أما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ حيث أضاف الرب إلى ضمير المتكلمين، وأسند الفعلين إلى هذا الضمير ووراءه بلاغة، كشفها الألوسي، واكتفى أبوحيان من قبل بقوله: "كرر النداء للتضرع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة رب إلى ياء المتكلم، وبين إضافته إلى جمع المتكلم"[(٥)].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٩/١٠٤).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(١٩/١٠٤).

(٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٦/٤٤٦-٤٤٧).

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (٧/٢٢٣).

(٥) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٦/٤٤٩).

لكن الألوسي كشف عن البلاغة والقرينة فقال: "وضمير الجماعة- كما قال بعض المحققين- لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن، بل بجميع خفايا الملك والملكوت، وقد حققه - عليه السلام- بقوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨﴾ لما أن علمه تعالى ذاتي فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلوم دون معلوم"[1].

ويرى الباحث أن إسناد الفعلين إلى ضمير الفاعلين فيه دلالة على أن إبراهيم قد تحمل المسؤلية، فهو بمثابة الرأس لمن أرسل فيهم، فلذلك كان حريصا عليهم، يتكلم بلسانه عنهم، فيأتي بضمير الجماعة شفقة عليهم، فلم يكن همه قاصرا على نفسه، وهذا هو خلق الأنبياء العظيم، عليهم السلام.

ثم يعود السياق إلى ياء المتكلم فيقول سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم:٣٩]، ولعل ياء المتكلم في هذه الآية سببها إظهار الشكر لله الذي خصه به بعد سن اليأس، فلا مجال لناء المتكلمين لأنه هو المرزوق، وهو السائل بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات:١٠٠]، فالإجابة استوجبت الشكر على المنعَم عليه، ولأن ضمير المتكلمين قد يحتمل تعظيم النفس وهذا لا يستقيم مع الشكر، الذي وجب بعد سد حاجته في الولد، مما يشعر أن الذي احتاج إلى الرزق فقير، والرازق هو الغني وحده.

ويذكر الألوسي البلاغة من ياء المتكلم فيقول: " ووحد -عليه السلام- الضمير في رب وإن كان عقيب ذكر الولدين لما أن نعمة الهبة فائضة عليه -عليه السلام- خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم"[2].

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٢٧/٧).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٢٩/٧).

ثم يأتي التلوين من الإفراد إلى ضمير المتكلمين فيقول: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم:٤٠]. فقال الألوسي بذلك: "وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته -عليه السلام- لذريته أيضا حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للإشعار بأنه المقتدى في ذلك، وذريته أتباع له، فإن ذكرهم بطريق الاستطراد"(١).

ويرى الباحث أن سبب مجيء ياء المتكلم في قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إضافة إلى ما ذكره الألوسي هو لأهمية الصلاة؛ وليجعل من نفسه قدوة لمن يعول، ثم إن العطف بقوله:﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أغنى عن مجيء ناء المتكلمين في رأس الآية، ولما دعا لنفسه ولذريته ذيل الآية بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لأن ضميره وذكره لذريته هيأ لهذه الإضافة، فجاء لذلك ضمير المتكلمين. وقد يكون في ضمير المتكلمين معنى الإلحاح والشفقة بالداعي والمدعو لهم، وختمت الآية بإضافة﴿دُعَآءِ﴾ إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا(٢)، والتي عوض عنها بالكسر؛ لأن حقيقة الدعاء جاء على لسان إبراهيم عليه السلام.

ثم يستمر ضمير المتكلمين متبوعا بياء المتكلم في خاتمة دعائه، فيقول: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم:٤١]، ولعل البدء بضمير المتكلمين هو من تعظيم الرب سبحانه، فهو ليس ربا له وحده، بل له ولذريته، وللمخلوقات كلها، فقدم التعظيم بين يدي الدعاء وهذا أحرى بالإجابة، أما ياء المتكلم في قوله: ﴿ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ فلحرصه على نفسه أولا، ولبره بوالديه ثانيا، ولم يقل: لنا ولوالدينا، لأن تخصيص نفسه ووالديه من أحق الحقوق عليه، وهو كقوله:

---

(١) ينظر: المصدر نفسه(٧/٢٢٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢/٢٦٦).

﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ فبدأ بخوفه المفرط على نفسه من عبادة الأصنام، وختم بدعائه الملح لنفسه ولوالديه، فكان أول دعاء له مشتملا على صيغة ياء المتكلم في أكثر من كلمة، وختم آخر أدعيته بياء المتكلم؛ سائلا الله المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين، فذكر الخاص قبل العام فيه معنى الحرص والشفقة على نفسه وعلى أصله، وذكْر المؤمنين بعد ذلك من الإطناب، فهو ووالداه داخلون بدائرتهم، على سبيل ذكر العام بعد الخاص، فيكون بذلك قد دعا له ولوالديه مرتين، ودعا لعامة المؤمنين مرة واحدة، واختلف في المقصود بالوالدين على أقوال منها أنه آدم وحواء، وقيل لوالديه القريبين(١)، وذكر الزمخشري أن الدعاء لوالديه وإن كانا كافرين هو من مجوزات العقل، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف(٢)، وقيل بشرط الإسلام، وقيل غير ذلك مما يبحث عنه في مظانه(٣)، والله تعالى أعلم.

ويذكر الدكتور عادل الرُّوَيْني أن إبراهيم عليه السلام دعا لنفسه ثم لوالديه لأنهما أقرب الناس إليه، وأحقهم بشكره، ثم دعا للمؤمنين سواء أكانوا من ذريته أم كانوا من غيرهم، ليكشف عما تتسم به شخصية إبراهيم -عليه السلام- من رحمة وحلم وشفقة، وهذا يظهر في أدعيته الجماعية العامة، التي تلتمس فيها روح الأخوة الإنسانية، ثم يذكر أن ضمير الجمع﴿ رَبَّنَا ﴾ إشعار باشتراك كل المؤمنين في الدعاء بالمغفرة لهم(٤).

فهذا التلوين بين الضمائر والذي هو أوسع من مفهوم الالتفات أحدث دلالات معنوية تجعل الآيات متماسكة، وكل ضمير يأتي في السياق الذي يناسبه، ولا يمنع ذلك من الانتقال إلى الضمير الذي قد انتقل منه إذا دعا السياق لذلك، لذلك أضيف الرب

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٦/٤٥٠).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٥٦٢).

(٣) ينظر: المصدر نفسه(٢/٥٦٢)، ومفاتيح الغيب للرازي (١٩/١٠٧).

(٤) ينظر: تأملات في سورة إبراهيم تفسير بلاغي تطبيقي، د. عادل أحمد صابر الرُّويني (ص:٢١٧).

تارة إلى ياء المتكلم وتارة إلى ضمير الجماعة، ثم الرجوع إلى ياء المتكلم وهكذا؛ تبعا للمعنى المراد؛ ليدل ذلك على أن اختيار الضمير جاء لعناية فائقة، لايغني غير المذكور عن المذكور.

ولا يخفى فإن التلوين في الخطاب القرآني يتصل بنحو الجملة؛ لأن العلاقات النحوية والدلالية تنشأ في النص نتيجة المغايرة بين الأساليب، ومن ثم يتجلى ارتباط النص وتماسك أجزائه من خلال التلوين الذي يعد أكثر الظواهر استجابة لالتحام النص شكليا ودلاليا، إذ إنه يمثل طريقة من طرائق التماسك النصي، حيث تتصل معاييره اللغوية –في أغلبها- بالسبك والإحالة والربط والتصرف في العبارة والعلاقات المعجمية، وذلك عناية بالمعنى المقصود الذي تبرزه كل صورة من صور التلوين في موقعها من السياق الذي ترد فيه(1).

وجاء ضمير الجمع عائدا إلى واحد على لسان خليل الله إبراهيم بعد تدميره أصنام قومه، فقال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣].

فضمير المفعول في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾، قد يعود إلى جميع الأصنام المكسرة والصنم القائم، وقد قال به جمع من المفسرين(2)، وليس في ذلك مخالفة للظاهر سوى عود ضمير العقلاء على غير العاقل(3)، أو يعود إلى كبيرهم الذي لم يكسر وهو شاهد بزعمهم على ما حدث، فإن عاد الضمير إلى كبيرهم فهو عود إلى خلاف مقتضى الظاهر؛ ليكون باطن ضمير الجمع السخرية بدلا من التعظيم، فهو الكبير المهان، الذي هو والأصنام المكسرة سواء في العجز عن النطق، وفي هذا قلب لمعنى الضمير، كما أن في ضمير الجمع إذا كان عائدا على الصنم الكبير نجاة لإبراهيم لما في ذلك من إبعاد

---

(١) ينظر: تلوين الخطاب في القرآن الكريم، د.طه رضوان طه (ص:٤٧).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٠٠/١٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٧٤/١٧).

(٣) وهذا سيدرس بإذن الله في مبحث عود ضمير المذكر العاقل (ص:٣٥٤).

التهمة عنه، فكان في مخالفة الظاهر بلاغة خفية، تحقق حكم إبراهيم ومكانة هذه الأصنام لديه.

وروى الطبري قولا يفهم من إسناد فعل التكسير إلى الصنم الكبير وأن ذلك:" غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار ، وهو أكبر منها، فكسرهن"[(1)]. وقال البقاعي قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾: "أي عن الفاعل ليخبروكم به"[(2)].

ومن مواطن إتيان ضمير الجمع للواحد ما جاء في قوله تعالى:﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[الشعراء:١٦-٢٢].

فمن الملاحظ أن الحوار في هذه الآيات بين موسى -عليه السلام- وفرعون، ولقد جاء الحوار متلونا بخطاب موسى فرعون بضمير المفرد، في ألفاظ عدة، مخاطبا فرعون بقوله: ﴿أَرْسِلْ﴾، ﴿تَمُنُّهَا﴾، ﴿عَبَّدتَّ﴾ بينما يأتي التلوين من ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع في خطاب موسى لفرعون؛ بعد أن ظهرت روح الكبرياء في حديث فرعون عن نفسه حيث قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾،فحديث فرعون عن نفسه بهذه النبرة حمل موسى لأن ينتقل من الخطاب المفرد إلى ضمير الجمع، كما تتشوق لذلك نفس فرعون، فأجابه قائلا: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ فيأتي ضمير الجمع في: ﴿مِنكُمْ﴾، ﴿خِفْتُكُمْ﴾،كما خاطب فرعونُ موسى -عليه السلام- بنقيض ذلك مستحضرا ضمير المخاطب الواحد في خطابه لموسى - عليه السلام - وضمير العظمة

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٦/٣٠٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي (١٢/٤٤١).

لنفسه قائلا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾، ﴿وَلَبِثْتَ﴾، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ﴾ ثم يلاحظ أن هذه الطريقة لم تغظ موسى الذي تكلم عن نفسه بصيغة الإفراد، في قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ﴾، ﴿وَأَنَا۠﴾، ﴿لِى﴾،﴿رَبِّى﴾،﴿وَجَعَلَنِى﴾؛ امتثالا لأمر الله القائل: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤]،فظهر من خلال التلوين روح التواضع الذي يحمل رسالة لا ينبغي أن يعيق قبولها أي سمة من كبر؛ أو سوء أسلوب من المدعو، لأن الدعوة عبادة لله، تتلاشى أمامها زلات المدعو على الداعي ابتغاء وجه الله، فبنى موسى جوابه السابق على ما يخلو من روح العظمة حيث ضمير الواحد: ﴿فَعَلْتُهَآ﴾، ﴿وَأَنَا۠﴾، ﴿لِى﴾،﴿رَبِّى﴾،﴿وَجَعَلَنِى﴾ إلا ماجاء مرادا به التثنية التي هيأ لها التوجيه الرباني بقوله: ﴿فَقُولَآ﴾، ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّا﴾، ﴿مَعَنَا﴾ مراد به موسى ومعه هارون -عليهما السلام- ثم ما يلبث موسى -عليه السلام- إلا أن يعود إلى صيغة الإفراد مخاطبا بها فرعون قائلا: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢]؛ لأن ضمير الجمع لا مكان له في هذا المقام الإنكاري(١)، فموسى أصبح رسولا يوحى إليه، وتلك هي القوة التي لا تضاهى فهيأ قوله: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى خطاب فرعون بصيغة الإفراد، لأن الله مع موسى كما وعده، فالتلوين بين الضمائر جاء خدمة لما يجول في النفوس لتكشف أسرارها، وتبين

---

(١) ويرى الفراء أن الجملة خبرية مفادها إقرار موسى بهذه النعمة، ينظر: معاني القرآن،(٢/٢٧٩)، وذكر أبو جعفر النحاس أن الأخفش يرى أن حرف الاستفهام محذوف، وأنكر أبو جعفر ذلك لاتفاق النحويين على عدم جواز حذف حرف الاستفهام إلا في الشعر وجوز الفراء حذفها في أفعال الشك، ويذكر أن الضحاك يرى أن المعنى أنك تمن عليّ بما لا يجب أن تمنّ به، أي يكون هذا على التبكيت له والتبكيت يكون بغير استفهام وباستفهامينظر: إعراب القرآن للنحاس(٣/١٢١)، واستشهد ابن جني بهذه الآية على ما حذفت فيه همزة الاستفهام أراد: أوتلك نعمة؟ ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني (١/٥٠).

عن أغوارها، ولما لم ينتفع فرعون بتعظيم موسى له لزعامته، ورغبة موسى باهتداء قومه، بين أن الله جعله من المرسلين، ثم أعاد الضمير المفرد المناسب لخطابه فرعون. فموسى تواضع مع كونه قد أُوتي حكمة وجعل من المرسلين، فكيف بفرعون الذي لم ينل من ذين أي شرف، لاسيما والمقام مقام مواجهة بدأ عدوانها فرعون، ولم يزد اللين فرعون إلا تكبرا. فتلون هذه الضمائر بين صيغ الإفراد والجمع تصور الحالة النفسية التي يشعر بها المدعو ونظرته للداعي، "وسورة الشعراء جاءت تصور التحدي بين موسى وفرعون مفصلا حتى لحظة الغرق، بخلاف سورة الأعراف التي بنيت على الاختصار والمواجهة بين موسى وملأ فرعون، ويظهر فيها اختفاء فرعون لاكتفائه بجنوده، وإظهار لغطرسته"(١).

ويضاف إلى ما سبق أن اختلاف ضمير الفعل الذي جاء على لسان موسى عليه السلام موجها إلى فرعون في قول موسى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ ثم تحوله إلى ضميري الجمع في قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ سببه أن إرسال بني إسرائيل قرار فردي لا يصدر إلا من فرعون، على خلاف الفرار والخوف الذي سببه فرعون وجنده وأهل القتيل، فالفرار صادر من موسى عليه السلام، ولفظة الفرار تصور مشهد المطاردة، كما قال تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر:٥١]، وهذه المطاردة كانت من جنود فرعون بأمر من فرعون، ومن هنا يظهر أن ضمير الجمع صور المشهد المفزع الذي جاء إثر قتل موسى عليه السلام القبطي، وتباينت الضمائر وتغيرت من إسلوب إلى أسلوب لتتكاتف وتتظافر على تصوير الجو المتغطرس لدى فرعون، ناهيك بأن ضمير الجمع الذي جاء على لسان موسى -عليه السلام- مع ما فيه من لين في الدعوة؛ ليتألف به قلب فرعون؛ ليستجيب لما أراده فرعون لنفسه من التعظيم الذي تجلى على لسانه من غير تفريط من موسى في الهدف، فجاءت الضمائر ملونة على لسان موسى -عليه السلام- لتحمل دلالة كثافية تصور مشهد الدعوة والتذكير بالذنب لإذلاله بالعقوبة.

---

(١) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص:٣٣٣-٣٣٤).

وقد تعرض الزمخشري لاختلاف الضمائر في هذه الآيات فقال:" فإن قلت: لم جمع الضمير في ﴿مِنكُمْ﴾ و﴿خِفْتُكُمْ﴾، ؟ مع إفراده في ﴿تَمُنُّهَا﴾ و﴿عَبَّدتَّ﴾؟ قلت: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ وأما الامتنان فمنه وحده، وكذلك التعبيد"[1].

وقد كشف قول الزمخشري هذا كون ضمير الجمع في هذه الآية جاء مضيفا دلالة أخرى؛ حيث فسر آية القصص، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠]، وهذا يكشف عما في ضمير الجمع من إيجاز، جاء تفصيله في سورة أخرى.

وإلى مثل قول الزمخشري ذهب أبو السعود فقال:" وتوحيد الخطاب في ﴿تَمُنُّهَا﴾ وجمعه فيما قبله لأن المنة منه خاصة، والخوف والفرار منه، ومن ملئه"[2].

وبما أن الضمير في أغلب أحواله يطابق اللفظ الذي يعد مرجعا له، ولا يخرج عن ذلك في الكلام البليغ إلا للطيفة يستدعيها المقام ولا تتحقق بغير هذا الخروج، ومن المقامات التي تستدعي ذلك رجوع الضمير إلى معنى اللفظ لا إلى اللفظ نفسه، فيأتي الضمير غير مطابق للفظ لكنه مطابق لمعناه، فيكون الضمير مفسرا للفظ دالا على معناه، وبذلك يضيف بلاغة يكشف عنها للمتأمل السياقُ، وقد وقع مثل ذلك كثيرا في كلام العرب وفي القرآن الكريم.

فكلمة حزب؛ وردت في سبع مواضع في القرآن الكريم، وهي مفردة في لفظها، جمع في معناها؛ لأن الحزب يتكون من أفراد، فجاء الضمير عائدا إلى المعنى في جميع مواطنه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ

(١) الكشاف للزمخشري (٣/٣٠٦).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٦/٢٣٩).

﴿فَرِحُونَ﴾[المؤمنون:٥٣]، وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم:٣٢]، وإذا كانت هاتان الآيتان مشتملتين على كلّ، الذي يوحي بتعدد الأحزاب لتكون جمعا بإضافة كلّ إليها، فإنه قد جاءت من غير إضافة كلّ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة:٥٦]، وقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة:١٩]، فالضمير (هم) في الآيتين جاء لما يشتمل عليه الحزب من أفراد، فالغلبة أو الخسارة ينالها كل فرد، كلٌ حسب حزبه.

ونظير هذا في القرآن الكريم كثير فكلمة (أمة) في بعض مواضعها عاد الضمير إلى لفظها مفردا، وفي مواطن أخرى عاد الضمير إلى معناها مجموعا، وقد يشترك إفراد الضمير وجمعه في موطن واحد من مواطنها، فمن المواطن التي عاد الضمير على (أمة) مفردا ومجموعا في موضع واحد قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾ [البقرة:١٣٤]، فالضمير﴿لَهَا﴾ عاد إلى لفظها، أما واو الجماعة في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فقد عاد إلى معناها، فجاء الضمير بصيغة الجمع مع أنه مسبوق بضمير مفرد، وعائد إلى مفرد في لفظه، لكن ضمير الجمع عاد إلى معناه، فالأمة تشتمل على قبائل وأجيال تضم أفرادا، فجاء الجمع مراعاة للمعنى، لأن كلّ فرد مسؤول، ومرتهن بعمله، مع ما في الفاصلة القرآنية من محسن بديعي يكسو الأسلوب حليا، يقوي المعنى ويوسعه، وهذا لا يتأتى لوقال: ولا تسألون عما عملت. وإذا كانت الأمة لا تعاقب بفعل أفرادها إذا أدت ما كلفها الله به من واجب، وإن خالفها في ذلك بعض أفرادها، فإذا كان الأمر كذلك؛ فعدم سؤال الأجيال المتأخرين عن أعمال الأمم السابقة من باب أولى.

ومن المواطن التي عاد الضمير فيها على الأمة مجموعا فقط ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فالأمة مع كونها مفردة في لفظها لم يعد الضمير إلى

لفظها بل إلى معناها فجاء واو الجماعة في الأفعال: ﴿يَدْعُونَ﴾ و﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ و ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾، ثم يأتي ضمير الجمع ﴿هُمُ﴾ مذيلة به الآية، فتكاتف هذه الضمائر وترادفها من غير مجيء لضمير مفرد -كما في بعض المواطن- يشعر بأن الدعوة إلى الخير؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤلية الجماعة؛ لأن الواحد قد يعجزه ذلك فيضعف، فينتشر بذلك المنكر، وتفسد الأرض، فجاء ضمير الجماعة ليوقظ ضمير الجماعة تجاه هذه المسؤلية العظيمة، لا سيما أن الفساد قد يكون في مواضع مختلفة لا يقدر عليه القلة فكيف بالواحد؟ والدعوة فرض كفاية بدلالة ﴿مِّنكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فالمعروف فيه كثافة معنوية، فدلّ على أن يكون ما يؤمر به معروفا، وأن النهي عن المنكر من المعروف، على أن يكون الأسلوب معروفا متحليا بالرفق، وتلك الحكمة.

وعاد الضمير مفردا إلى الأمة ليصور معنى القهر والاستسلام، كما في قول تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية:٢٨]، فأسند الفعل﴿تُدْعَىٰ﴾ إلى ضمير الواحدة، وكل أمة تتكون من أفراد، ولعل ذلك دال على عظمة الواحد الأحد الذي يستسلم لأمره كل سامع يوم القيامة بعد انتهاء زمن الاختيار في الدنيا، فكل أمة تجثو جثو رجل واحد، وفي ذلك إشارة إلى أنهم مقهورون مجبورون لا اختيار لهم، وأما إضافة الكتاب إلى ضميرها، فلعل الغرض منه هو لأن كل أمة لها كتاب واحد تتبع به نبيها، بينما يأتي التلوين بإسناد فعل الجزاء إلى واو الجماعة فقال: ﴿تُجْزَوْنَ﴾ ولعل ذلك لإرادة مجازاة كل فرد بعمله؛ لأنهم بأعمالهم متباينون، ففي عود ضمير الإفراد على الأمة دلالة على امتثالها للأمر بلحظة واحدة، من غير إشارة إلى أفرادها؛ لأنه لا تفاوت بينهم في هذه اللحظة، أما التلوين بواوا لجماعة بإسناد واو الجماعة إلى الفعل﴿تُجْزَوْنَ﴾ فليعود على الأفراد وليس على الأمة؛ لأنهم متابيينون بأعمالهم، ومختلفون في جزائهم، والله أعلم.

وذكر الرازي وأبو حيان والألوسي أن كتابها هو صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة، وأفرد على إرادة الجنس وإلا فلكل واحد من كل أمة صحيفة فيها أعماله، وأضيف لضميرهم لأدنى ملابسه، وزاد أبو حيان والألوسي قول من قال: كتاب نبيها، تدعى إليه؛ لينظر هل عملت به أو لا، وقيل غير ذلك(١).

وقال ابن عاشور: "كتاب تسجيل الأعمال لكل واحد، أو مراد به الجنس، وتكون إضافته إلى ضمير الأمة على إرادة التوزيع على الأفراد؛ لأن لكل واحد من كل أمة صحيفة عمله خاصة به"(٢).

ولما كان المورد يجمع أمة من الناس، وهذه الأمة تتكون من أفراد قد لا تجمعهم علاقة، ولكلٍ ماشيته التي سيتولى سقيها، ثم يصدر ويترك المكان لغيره، فقد جاء التعبير القرآني ملائما لهذه الصورة، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص:٢٣]، فلم يقل المولى جلّ شأنه: تسقي، لأن هذا الجمع لم يجمعهم سوى الماء، ولكلٍ ماشيته ووقت سقيها، بقرينة: ﴿تَذُودَانِ﴾، وقولهما: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ فكثرة الرعاء تدل على كثرة الساقين، وهؤلاء الساقون كوّنوا هذه الأمة.

وتجدر الإشارة إلى أن لفظة (أمة) متعددة المعاني(٣)، فهي تأتي بمعنى الملة والطريقة والشريعة كما في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف:٢٢]، وبمعنى البرهة من الزمن كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف:٤٥]، وبمعنى

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٦٨٠)، والبحر المحيط لأبي حيان (٩/٤٢٥)، وروح المعاني للألوسي (١٣/١٥٣).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٣٨٢).

(٣) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي(٢/١٧٣).

القدوة التي عرفت بالخير كما في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل:١٢٠]، وبمعنى الجماعة من الناس كما في قوله: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص:٢٣] ومن هنا يتبين أن واو الجماعة في الفعل ﴿يَسْقُونَ ﴾ جاء ليبين معنى هذه الأمة، في هذا المشترك اللفظي.

وأول من أشار إلى الاشتراك اللفظي سيبويه بقوله:" اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة"(١).

ويذكر صبحي إبراهيم الصالح أن أدق ما يحد به المشترك تعريف أهل الأصول فهو عندهم "اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة. ومثلوا له بعين الماء، وعين المال، وعين السحاب، وإن شئت أن تختصر تعريفه أمكنك أن تقول: "المشترك هو ما اتحدت صورته واختلف معناه" (٢).

ومرجع الضمير إما أن يكون إلى اللفظ أو يكون إلى المعنى، وإذا كان من المسلم به أن المعنى يسبق اللفظ في ذهن المتكلم، فإن اللفظ يسبق المعنى إلى ذهن السامع، ولذلك فالأغلب أن يعود الضمير على اللفظ مراعاة لأول ما يصل المتلقي، وقد يعود إلى المعنى.

ومن المواطن التي اجتمع فيها الضمير المفرد وضمير الجمع عائدين على لفظ أمة الدالة على الأمة الواحدة ما أتى عند الحديث عن الأجل حيث قال الله في غير موضع: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجر:٥]، وقال: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ

---

(١) الكتاب(١/٢٤).

(٢) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح(ص:٣٠٢).

أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٣]، ولعل البلاغة في التلوين بين الضميرين هو أن في الآية أجلين، الأجل الأول أجل الأمة الذي ينتهي بموت آخر حي ينتمي إليها، وهو الأجل الأطول، أما الأجل الثاني فهو أجل كل فرد من أفراد هذه الأمة وهو الأجل القصير، فلذلك جاء الضمير مرة عائدا على اللفظ وهو الأمة، ومرة عائدا على المعنى وهم الأفراد، فلما كان الأجل مكتوبا على كل حي، فإن الأمة سياتي عليها زمن وقد فنيت ومثال ذلك الأمم التي فنيت سواء أكانت قبل الإسلام أم بعده، ولما كان كل فرد في الأمة له أجلا خاصا يختلف عن أجل الآخرين؛ جاء قوله: يستأخرون، لأن لكل واحد أجل خاص به، أما إفراد الضمير الأول العائد إلى الأمة فذلك دعا إليه كون الأمة لها أجل واحد ينتهي بانتهاء حياة آخر فرد ينتمي لها.

أما إذا سبق لفظ أمة بلفظ كلّ الذي يفيد أكثر من أمة، حيث معنى العموم، فإن السياق يختلف فلا يأتي الضمير حينئذ عائدا إلى الأمة إلا بضمير الجمع، لأنها أصبحت بمعنى أمم وذلك كما في قوله تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف:٣٤]، وقوله:﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس:٤٩]، ولذلك قال:﴿أَجَلُهُمْ﴾ ولم يقل: ﴿أَجَلَهَا﴾ لأنها لم تصبح أمة واحدة بل أمما فأصبحت آجالها متفاوتة. أما في غير الأجل ففي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨]، ونظير ذلك قوله تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٣٤] وقوله:﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧] فلم يقل: عملها، ولم يقل: لتذكر، ولم يقل: هي ناسكته، وهذا ما أضافه لفظ العموم، الدال على تعدد الأمم.

ويأتي أيضا ضمير الجمع عائدا إلى الأمة التي وقعت مضافا إليه بعد كل في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس:٤٧] فقال: ﴿رَسُولُهُمْ﴾ ولم يقل: رسولها؛ لأن كل فرد مكلف ومجزي بعمله، ولا يحمل أحد ذنب غيره، ولأن الأمة قد سبقت بلفظ العموم الذي يفيد تعدد الأمم وبالتالي تغليب ضمير الجمع.

بينما يجتمع ضميرا التوحيد و الجمع عند عدم إضافة لفظ العموم إلى أمة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٤] فقال: ﴿رَّسُولُهَا﴾ ولم يقل: رسولهم، فعاد الضمير إلى اللفظ، ثم يتحول الضمير إلى الجمع مراعيا المعنى فقال: ﴿كَذَّبُوهُ﴾، ﴿بَعْضَهُم﴾، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾. ولم يقل: كذبته، بعضها، جعلناها، على نسق إفراد ضمير رسول، ولعل إفراد ضمير الرسول سببه أن لكل أمة رسولا واحدا فجاء الإفراد لذلك، أما ضمير الجمع ففيه دلالة على موقف أفراد الأمة من رسولهم، فجاء الجمع لتشنيع المكذبين، بقرينة قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

ويختلف السبب - والله أعلم - في قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف:٣٨]، فقد أسند الفعل ﴿خَلَتْ﴾ إلى ضمير المفرد مع أن الأمة مفردة في لفظها جمع في معناها، فكيف وقد جاء اللفظ على صيغة جمع التكسير، ناهيك بأن الضمير يعود على جمع التكسير مفردا مؤنثا، ولكن وراء هذه القاعدة النحوية بلاغة لا تتوارى عن متأمل، ولعل البلاغة في عدم مجيء الفعل مسندا إلى واو الجماعة نابع من كون الأمم أصبحت ظرفا يدخل في ظرف، فالظرف الأول الأمم التي تدخل فيها الأمة الداخلة، والظرف الثاني النار، ولا يستقيم المعنى لو قال: خلوا، لأن

عود الضمير على المعنى في هذا المقام يفسد الصورة الظرفية. ولعل قوله: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ من باب المجاز المرسل على سبيل ذكر الحالّ مع إرادة المحلّ، وهو النار.

كما أن ضمير الجمع ترك في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ فلم يقل المولى جل شأنه: لَعَنُوا، فيرجع إلى المعنى ولعل ذلك ترك لما يحدثه من لبس، فلو جاء واو الجماعة لتغير المعنى، ولا احتمل أن يكون اللاعنون ليسوا من هذه الأمة المدخول فيها أو أن بعض أفرادها لم يلعَنوا، فلذلك عاد الضمير إلى الجنس مفردا ليستوعب جميع أفراد الأمم، فبذلك لم تسلم أمة من اللعن ولا أفرادها.

ولما زال موطن اللبس وتحقق المقصود، جيء بضمير الجماعة مفسرا، فجاء في الكلمات: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ و﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ و﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ و﴿أَضَلُّونَا﴾ و﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾ لتصور الجدل والصراع اللفظي بين الأتباع والمتبوعين سواء أكانوا في الأمة الواحدة، أو من الأمم الأخرى، ولذلك جاء ضمير الجمع مناسبا لاكتمال الجمع الذي أكده الحال جميعا، فلعنوا جماعة وأفرادا، فأحاطت اللعنة بهم من كل جانب.

قال الزمخشري:" حتى إذا اداركوا فيها أي تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار، قالت أخراهم منزلةً وهي الأتباع والسفلة؛ لأولاهم منزلةً وهي القادة والرؤوس"(١).

غير أن ابن عاشور يحدد ذلك بصورة أدق فيقول:" والمراد: بـ ﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾: الآخرة في الرتبة، وهم الأتباع والرعية من كل أمة من تلك الأمم، لأن كل أمة في عصر لا تخلو من قادة ورعاع، والمراد بالأولى: الأولى في المرتبة والاعتبار، وهم القادة والمتبوعون من كل أمة أيضا"(٢).

وعلى ضوء ما قاله هذان العالمان الفاضلان يتبين أن ضمير الجماعة هو الأنسب للدلالة على الجمع والإحصاء من غير تخلف أحد، وهذا ما أكده التوكيد، ولأن أطراف

(١) الكشاف للزمخشري (١٠٣/٢).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٣/٨-٩٤).

اللوم والتخاصم قد يكونون من أفراد الأمة الواحدة أتباعا كانوا أو متبوعين، ضالين أو مضلين، وقد يكون على نطاق أوسع وذلك أن يكون بين كل تابع ومتبوع في أي أمة كانوا، فجيء بضمير الجمع للإحصاء والاتساع، والله أعلم.

أما (كلّ) فيعود إليها الضمير على حالتين: الأولى يعود مفردا مراعاة للفظ. والثانية يعود جمعا مراعاة للمعنى، فلفظ (كلّ) لفظه مفرد ومعناه جمع[1].

ومن الآيات التي عاد فيها الضمير على لفظة(كلّ) مفردا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾[الإسراء: ٨٤]، وبما أن الضمير تارة يعود على اللفظ فيفرد، وتارة يعود على المعنى فيجمع، وأن مواضع عوده على المفرد لا تصلح أن يستبدل بها عوده على الجمع، وكذلك العكس؛ لأن كل معنى لطيف يختار له التركيب المناسب، وهذا يدعو الباحث للوقف على السر وراء اختيار ضمير الإفراد عائدا على كل في هذا الموضع.

والجواب عن ذلك هو ماذكره الزركشي في تعليله لذلك في الآية السالفة حيث قال:" فلأن قبلها[2] ذكر فريقين مختلفين مؤمنين وظالمين، فلو جمعهم في الأخبار وقال كل يعملون لبطل معنى الاختلاف، وكان لفظ الإفراد أدل على المراد، والمعنى كل فريق يعمل على شاكلته"[3].

فضمير الإفراد جاء مناسبا لهذا التباين، بينما جاء ضمير الجمع في قوله: ﴿ فَرَبُّكُمۡ ﴾ لأن الجميع وإن اختلفت مذاهبهم ونعوتهم وأعمالهم تبعا لاختلاف عقولهم وأفهامهم؛ إلا أن لهم ربا واحدا، هو المتصرف فيهم، ولذلك جاء ميم الجمع مناسبا خادما لهذا المعنى.

---

(١) ينظر: الحديث عن كلّ في (ص: ٥٠) وما بعدها.

(٢) أي: كلّ.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/٣٢٣).

وقد يترك إعادة ضمير الجماعة على (كلّ) دفعا للتوهم، ويختار بدلا منه ضمير التوحيد، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق:١٢-١٤].

قال الزركشي في ذلك:" فلأنه ذكر قرونا وأمما وختم ذكرهم بقوم تبع، فلو قال كل كذبوا؛ لعاد إلى أقرب مذكور، فكان يتوهم أن الإخبار عن قوم تبع خاصة، فلما قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ﴾(1) علم أنه يريد كل فريق منهم كذب؛ لأن إفراد الخبر عن (كلّ) حيث وقع إنما يدل على هذا المعنى"(2).

ونظير ذلك قوله تعالى:﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾[ص:١٣-١٤]، ولعل المضاف إليه المحذوف بعد (كلّ) لما قدّر بما يصلح أن يعود عليه الضمير مفردا كأن يقدّر بما كل هؤلاء الأمم إلا كذب(3)، أوكلّ حزب، أو بكلّهم كما هو رأي سيبويه(4)، وعلى ذلك جاز عود الضمير مفردا.

والباحث يلتمس وراء هذا الإفراد في الضمير مع عوده على ما معناه الجمع وإن كان لفظه مفردا؛ ملمسا بلاغيا يكشف-والله أعلم- أن هذه الأمم التي كذبت الرسل، مع ما تشتمل عليه كل أمة من قبائل تضم أفرادا كثر، إلا أنهم لما كذبوا قلل الله عددهم، ووحد ضميرهم لتوحيد موقفهم تجاه الرسل، فلم يجمع الضمير العائد عليهم

(١) الصواب أن الآية هكذا: ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أما قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ﴾ فلم ترد بعد ذكر تبع، ينظر: الشاهد الذي يلي هذا.وقد ذكر السهيلي هذا الشاهد من غير خطأ فيه، مع هذا التأويل في: نتائج الفكر في النّحو لأبي القاسم السهيلي (ص: ٢١٩).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٢٣/٤).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري (٣٢/٢٠).

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز(١٥٩/٥).

تقليلا لشأنهم، لأن الكثرة المكذبة لا تضر الله شيئا، فالكثير من كان الله معه وإن قلّ عدده، والقليل من تخلى الله عنه وإن كثر عدده، ولهذا قال تعالى:﴿كَذَّبَ﴾ ولم يقل:كذبوا، مع أنه أشير إلى تكذيب كلّ هذه الأمم، بما أفاده القصر بطريق النفي والاستثناء، ودلالة لفظ كلّ على معنى العموم، واكتفى الزمخشري، وأبو حيان، وأبو السعود، والألوسي وغيرهم بأن الإفراد جاء باعتبار لفظ الكلّ أو كلّ واحد منهم(1).

ومما يعزز القول بأن الإفراد جاء لتقبيحهم وتقليل شأنهم؛ ما استنتجه بعض المفسرين من جمع الرسل مع أن كل حزب كذب رسوله، ذلك لأن من كذب رسولا واحدا كان بمثابة من كذب الرسل؛ لأنهم متفقون على هدف وإن اختلفت الطرق والشرائع(2) .

ومن المواطن التي جاء الضمير عائدا إلى اللفظ ثم إلى المعنى ما في قوله تعالى: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزمر:٧٠]، ففي هذه الآية عاد الضمير مفردا في قوله:﴿عَمِلَتْ﴾ مراعاة للمضاف لأن النفس مفردة، وتوفية كل نفس هي توفية للجميع، لذلك جاء ضمير الجمع في قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من باب توكيد معنى كل، لاسيما أن كلّ تفيد العموم الذي ليس بالضرورة أن يفيده واو الجماعة، إضافة إلى ما في الضميرين من معنى الإحصاء والإحاطة، التي تشمل كل نفس حتى الأنبياء عليهم السلام، بدلالة قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف:٦].

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣٨٢/٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٥٣٢/٩)،وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٢٨/٨)، وروح المعاني للألوسي (٣٢٧/١٣).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٣٢/٢٨)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٣٤٤/١٦)، والمثل السائر لابن الأثير(٩/٣)، وروح المعاني للألوسي (١٦٤/١٢).

كما أن قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بليغة في معناها ثم في محلها، فقد جاءت فاصلة متفقة مع الفواصل السابقة والتالية، وهذه حلية بديعية. وفي إسناد الفعل إلى واو الجماعة دلالة تفيد بأن الله علم ما فعله كل واحد، لذلك فالحكم سيكون حقا لا ظلم فيه، وهذا المعنى لا يتأتى لو قيل: وهو أعلم بما تفعل، لأنها ليست نفسا بل خلقا كثر لا يحصيهم إلا من أحصى فعلهم.

فاجتمع بإسناد الفعل ﴿عَمِلَتْ﴾ إلى ضمير الواحدة، وإسناد الفعل (يفعل) إلى واو الجماعة، إحاطة الله بفعل الجميع ومجازاة كل نفس بما كسبت.

كما أن الباحث يرى أن الجمع بين المسند الفعلي﴿عَمِلَتْ﴾ المسند إلى ضمير الواحد، وكذلك ﴿يَفْعَلُونَ﴾ المسند إلى واو الجماعة؛ فيه نكتة بلاغية تدل على سعة علم الله سبحانه، فمن يعلم ما يفعله سائر الخلق هو بالتأكيد يعلم ما عملته النفس الواحدة. ومجيء الإفراد أولا ثم الجمع بعد ذلك مناسبا لمراحل الحساب، فكل نفس تموت يبتدأ بحسابها منفردة، ثم الحساب الآخر لسائر الأنفس يوم الجمع، فبذلك يتضح أن هذا التدرج من ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع يجسد صور الحساب بمشاهده المختلفة، بدءا من خروج الروح، ثم ما بعد البعث، يوم يجتمع الأولون والآخرون ليوم الفصل.

وفي حاشية الصبان ذكر رأيه في الجمع بين ضمير الإفراد وضمير الجمع في هذه الآية فقال: " فأفرد أولًا وجمع ثانيًا؛ لدلالة كل نفس على متعدد، ففي مفهوم الخبر تفصيل"[(١)].

والمتتبع للفظة نفس في القرآن الكريم يجد أن ظاهرة العدول اللغوي تتضح في أكثر مواطنها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾** ﴾ [البقرة:٤٨]، وقوله: ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا**

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (١٢٣/١).

تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة:١٢٣]، وبالنظر إلى الآيتين يجد الباحث أن الضمير الأول في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾ في الآيتين، ثم جاءت الإحالة إلى ضمير الغائبين المتمثل في الضمير ﴿هُمۡ﴾ وواو الجماعة في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، ولعل ضمير الإفراد يرسم الصورة الأولية لهذه النفس التي تحاول أن تفدي نفسها فلا يقبل منها، ثم يأتي الانتقال إلى الصورة الثانية التي هي أعظم من الأولى لكنها غير نافعة شفاعتها، ثم تأتي الإحالة إلى الصورة الثالثة التي ترسم صورة الجماعة بضمير الجماعة فجماعة النفوس الظالمة لا ينصر بعضها بعضا، ولا ينصرهم أحد من غيرهم، فينقطع أمل هذه النفوس من جميع سبل النجاة. فمجيء ضمير الجمع دفع توهم انتفاع النفس بالجماعة بعد انقطاع أملها من الفداء والشفاعة، والذي هيأ للتلوين من ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع هو ذكر نفس نكرة في الموضعين، و"كلاهما نكرة في سياق النفي فتعم"(١) فما زادها الجمع إلا ذلا ويأسا.

وذكر الألوسي أن ضمير الجماعة "راجع إلى ما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق النفي من النفوس الكثيرة، فيكون من قبيل ما تقدم ذكره معنى بدلالة لفظ آخر، وإما إلى النفس المنكرة؛ من حيث كونها لعمومها بالنفي في معنى الكثرة... وأتى به مذكرا لتأويل النفوس بالعباد والأناسي، ...وعوده إلى النفسين بناء على أن التثنية جمع ليس بشيء"(٢).

واختلف المفسرون في توجيه الضمير فالزمخشري يرجع الضمير في الموضعين للنفس الثانية العاصية ويجوز عوده على الأولى، أي لا تُقبل شفاعتها في غيرها. ولا يؤخذ منها

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣٠٨/١).

(٢) روح المعاني للألوسي (٢٥٣/١).

عدل إذا أرادت أن تبذله لخلاص غيرها[1]. أما ابن عاشور فأرجع الضميرين بالآية الأولى إلى النفس المجرورة بعن[2].

وذكر أبو حيان أن الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ في الآية الأولى عائد على نفس المتأخرة؛ لأنها أقرب مذكور، أي لا يقبل من النفس المستشفعة شفاعة شافع، ويجوز أن يعود الضمير على نفس الأولى، أي ولا يقبل من النفس التي لا تجزي عن نفس شيئا شفاعة، هي بصدد أن لو شفعت لم يقبل منها، وقد يظهر ترجيح عودها إلى النفس الأولى، لأنها هي المحدث عنها في قوله: لا تجزي نفس عن نفس، والنفس الثانية هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة[3].

أما السيوطي فعلق على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ قائلا:" الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع في الأولى إلى النفس الأولى، وفي الثانية إلى النفس الثانية، فبيّن في الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تُقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عَدْل، وقدمت الشفاعة لأن الشافع يقدم الشفاعة على بَذْل العدْل عنها. وبيّن في الثانية أن النفس المطلوبة بجُرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، وقدم العدل لأن الحاجة إلى الشفاعة إنما تكون عند ردّه، ولذلك قال في الأولى: لا يقبل منها شفاعة، وفي الثانية: ولا تنفعها شفاعة، لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له"[4].

والأقرب –والله أعلم– ما رجحه المطعني في كون الضميرين في الآية الأولى راجعين إلى النفس الأولى؛ لأن الحديث عنها؛ ولأن الضمير في: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ لا

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/١٣٧)، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (٢/١٨٩– ١٩٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٤٦٩).

(٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٣٠٨).

(٤)معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/٦٧).

يصح رجوعه إلا إليها؛ لأنه لو أراد النفس الثانية العاصية لقال: ولا يقبل فيها شفاعة، وهذا يرجح عود الضمير في: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ إليها هي أيضاً. ويكون المعنى – والله أعلم –: أن النفس المؤمنة لا تجزي عن سواها شيئاً، وإذا شفعت في غيرها فشفاعتها مردودة، وإذا استبدلت بالشفاعة المردودة العدل فإنه كذلك لا يؤخذ منها، ويكون ذلك كله تأكيداً لانفصام الروابط التي كانت بين الناس في الحياة الدنيا، أما في الآية الثانية؛ فإن الضميرين لا يحسن عودهما إلا على النفس الثانية العاصية. ويكون المعنى: أن النفس العاصية يوم القيامة لا يجزي عنها أحد شيئاً مهما كانت الروابط، وإذا أراد أن يفدى نفسه فلا يُقبل منه فدى، وإذا تشفع بغيره فلا تنفعه شفاعة (1).

وأما الآية التي جاءت في سياق تحريم الربا وحكْم الله فيه، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١].

فمن المفسرين أبو حيان الذي صرح بأن الضمير في ﴿كَسَبَتْ﴾ جاء مفردا ليعود على اللفظ، واختتمت الآية بالفعل المسند إلى واو الجماعة على المعنى؛ لأجل فاصلة الآي(2).

وجعل الفاصلة سببا معزولا عن المعنى لا يستقيم عند البلاغيين، ولعل من اكتفى بالتعليل بأن ذلك لأجل الفاصلة، لا يقصد أن ذلك بمعزل عن المعنى، وقد قرر الشيخ الجرجاني أن جمال اللفظ بما يقع في القلب من مزية، فقال:" قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية، وأنها من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع

---

(1) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (٢/١٩٣-١٩٤).

(2) البحر المحيط لأبي حيان (٢/٧٢٠).

بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك"(١).

وقد شرح أبو موسى مراد الجرجاني بقوله: " ليس معناه إهمال رنين البيان ونغمه، وأنه لا يدخل في البلاغة، وإنما هو توجيه إلى استكشاف هذا الرنين، وهذا النغم، وأن فائدته ليست هي التي تسمعها الآذان، وإنما في مخامرته للنفس، وإيقاظه شجوها، وحنينها"(٢).

والذي قرره البلاغيون أن الفاصلة ليست غرضا، لكنها قد تكون تبعا لغرض معنوي أبعد من الاكتفاء بكون هذا للفاصلة، ذلك أن توفية كل نفس حقها من تمام العدل وانتفاء الظلم، لذلك جاءت كلمة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بمثابة التأكيد، فهم لا يظلمون أفرادا ولا جماعات، وهذا غاية العدل وكماله، كما أن الإفراد مناسب لحالة الخلق، فبما أن الناس يموتون أفرادا جاء ضمير الإفراد مناسبا لحالهم، لأن من مات بدأ حسابه، أما الجمع فهو مناسب ليوم الجمع الذي ينتفي فيه الظلم، فالعدل ظاهر في شأن الفرد والجماعات.

ويقول الألوسي في هذه الآية: " وهم لا يظلمون جملة حالية من كل نفس، وجمع باعتبار المعنى، وأعاد الضمير أولا مفردا اعتبارا باللفظ، وقدم اعتبار اللفظ لأنه الأصل؛ ولأن اعتبار المعنى وقع رأس فاصلة فكان تأخيره أحسن، ولك أن تقول: إن الجمع أنسب بما يكون في يومه، كما أن الإفراد أولى فيما إذا كان قبله"(٣).

وبمثل ما سبق يقال بهذا التلوين بين الضميرين، حيث التحول من الضمير المفرد إلى ضمير الجماعة بعد (كل نفس) جاء في غير موضع ومنه قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [آل

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص:٦٤).
(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني لأبي موسى (ص:٩٤).
(٣) روح المعاني للألوسي (٢/٥٣).

عمران:٢٥]، وقوله: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [آل عمران:١٦١]، وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس:٣٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس:٥٤][1].

وتأتي النفس بمعنى متعدد مفيدة العموم بمجيئها نكرة في سياق النفي،في مثل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود:١٠٥]، فلقد جاءت لفظة نفس مفيدة العموم لمجيئها في سياق النكرة، وقد صرح البلاغيون أن النكرة في سياق النفي تفيد العموم[2]، وجاء ضمير الجمع العائد على كلمة الأنفس داعما فنا بديعيا، يسميه البلاغيون اللف والنشر[3]، فقد جاء اللف في كلمة نفس

(١) ولمزيد من الآيات المنتمية لذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل:١١١]، وقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٧]، وقوله: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزمر:٧٠]، وقوله: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [آل عمران:٢٥]، وغيرها.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة(٦٠٦/٤).

(٣) اللف والنشر: وهوذكر متعدد على التفصيل، أو الإجمال...ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين، ثقة أي الذكر بدون التعيين لأجل الوثوق بأن السامع يرده إليه أي ما لكل من آحاد هذا المتعدد إلى ما هو له لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية.مختصر المعاني، مسعود بن عمر التفتازاني (٢٢٨/٢-٢٢٩). ومن أوائل من تنبه =

النكرة التي تدل على عموم الأنفس، ثم أعقب ذلك بالنشر، وناسب ذلك مجيء ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ على سبيل الجمع مع التفريق والتقسيم[١].

ووجه الزمخشري الضمير فقال: " ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا؛ لأن ذلك معلوم؛ ولأن قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ يدل عليه، وقد مر ذكر الناس في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾"[٢].

أما ابن عطية فقد قال:" وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ عائد على الجميع الذي تضمنه قوله: نفس إذ هو اسم جنس يراد به الجمع"[٣].

وهذا القول هو جزء مما رآه الزمخشري وهو الصواب لما تحمله كلمة نفس من اتساع دلالي، ولأنها الأقرب والأنسب لعود الضمير إليها.

والمتتبع للفظة نفس في القرآن يجدها في جلّ مواطنها إما مضافة إليها كل لتفيد كل نفس، أو نكرة في سياق النفي لم تدخل كل عليها، والإحالة في الضمائر تكشف دلالة ذلك على العموم، وقد مرّ نظير هذا ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٧]، ففي هذه الآية قال: ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ ولم يقل: ما أخفي لها، ولعل سبب مجيء ضمير الجمع عائدا على نفس النكرة إفادة السياق العموم، لأن النكرة في سياق النفي تفيد ذلك، وعلى ذلك فليس هناك نفس تعلم ما أخفي لها، وهذا المعنى لا يتحقق لو عاد الضمير مفردا على

=

له المبرد بقوله: " والعرب تلف الخبرين المختلفين ثُمّ ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأنَّ السامع يردّ إلى كلّ خبره " الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (١/١٠٧).

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة(٤/٦٠٦).

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/٤٢٩)، مفاتيح الغيب للرازي (١٨/٣٩٨).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٢٢١).

نفس، لما يحدثه من لبس قد يوهم أن هناك نفسا تعلم ما أخفي لها، فترك ضمير الإفراد لهذا الغرض، والله أعلم.

بينما يجد الباحث ضمير الإفراد وحده يعود على (نفس) في مواطن منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وضمير الإفراد أبلغ من ضمير الجمع في هذا الموطن؛ لذلك جاءت الضمائر في: ﴿ وُسْعَهَا ﴾ و﴿ لَهَا ﴾ و﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ وكذلك المسند إليه في الفعلين: ﴿ كَسَبَتْ ﴾ و﴿ ٱكْتَسَبَتْ ﴾ لما في الإفراد من إظهار التباين بين الناس، فوُسْع الناس وطاقتهم ليست واحدة، وكل واحد مرتهن بعمله، لا يُعذب أحد بذنب غيره، ولا يؤجر أحد بحسنة غيره، إلا ما كان له به سبب، فضمير الإفراد يجسد صور التباين بين الناس، وعظمة الله الذي علم عملهم، وقدّر قدرتهم، وقضى بالعدل(١).

والنكرة في سياق النفي تنتقل إلى معنى العموم كما هو معلوم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يس:٥٤]، فنفس في هذه الآية نكرة أفادت العموم، فلذلك لم يقل الله: تجزى، بل قال تجزون، فأسند الفعل إلى واو الجماعة، وهذه الآية اشتملت على الالتفات من الغائب إلى المخاطب، والذي يهمّ الباحث هو التلوين في عود ضمير الجماعة المخاطبين

---

(١) وكقوله تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٢]، غير أن الآيتين الأخيرتين وإن جاءتا بضمير الإفراد العائد على نفس، إلا أنهما اختتما بضمير جمع، ولعل ضمير الإفراد المتصل بلفظ وسع في جميع الآيات سببه اختلاف الطاقة من شخص لآخر فجاء الإفراد، أما الحساب فالكل محاسب والعدل قائم بينهم، لذلك اشتمل ختم الآيتين على ضمير جمع، والله تعالى أعلم.

إلى ﴿نَفْسٌ﴾ وهي مفرده في معجمها، غير أن الذي سوغ ذلك هو السياق الذي نقلها إلى معنى العموم.

وقد أشار السامرائي إلى أن قوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ يفيد العموم، فالظلم منفي عن أن يوقع بكل نفس على جهة العموم، وهو كذلك، فإنها لاتظلم أبدا؛ ليأمن المؤمن بذلك ، أما ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ فمختص بالكافر لييأس، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يفعل، فإن لله فضلا مختصا بالمؤمن وعدلا عاما، وفيه بشارة(١).

ثم يذكر السامرائي أنه لو قال الله: "ولا تجزى إلا ما كانت تعمل؛ لاحتمل أن يكون المعنى أنه لن تجزى أي نفس إلا بمقدار ما كانت تعمل، وهذا المعنى غير صحيح ولا مراد، إذ قد تجزى نفس بأضعاف ما كانت تعمل وهي نفوس المؤمنين على العموم، فالتفت إلى المخاطبين ليخبرهم بما أخبر، ويحذرهم من مغبة أعمالهم"، ورجح السامرائي هذا المعنى؛ لكون الآية وقعت في سياق الكلام عن الكفار(٢).

ويأتي الخطاب موجها إلى النبي -ﷺ- بصيغة الإفراد ثم يتحول إلى صيغة الجمع، ولا شك أن وراء هذا التحول نكتة لا تعز على متأمل وقد يخفى عليه نكت أخر، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١]، فالفعلان تكون وتتلوا أسندا إلى ضمير المخاطب المستتر أنت، ولكن اختلف الأسلوب بالانتقال من ضمير المخاطب الواحد إلى ضمير المخاطبين فقال المولى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بعد الفعلين: ﴿تَكُونُ﴾ و﴿تَتْلُوا۟﴾ ولعل في ذلك إشارة إلى أن أمر الله لنبيه أمر لسائر عباده، إلا ما

(١) ينظر: على طريق التفسير البياني، د. فاضل صالح السامرائي (٢/١٩٤-١٩٥)، و(٢/١٩٨).
(٢) ينظر: المصدر(٢٢/١٩٨-١٩٩).

خص الله فيه نبيه -ﷺ- فالشرع واحد، والتكليف واحد، والقدرات متباينة، مع ما في ضمير الجمع من الجمع بين اتساع دائرة الخطاب، والتعظيم لسيد الأنام ﷺ.

وقد ذكر ذلك الإمام الرازي فقال: "فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ فأفرد ثم قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فجمع والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: قال ابن الأنباري: إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي -ﷺ- في الفعلين الأولين، وقال غيره: المراد بالفعل الثالث أيضا النبى -عليه الصلاة والسلام- وحده، وإنما جمع تفخيما له وتعظيما كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾(1) على قول ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾(2) والمراد به النبى عليه -الصلاة والسلام- كذا قاله: ابن عباس والحسن وغيرهما، واختاره ابن قتيبة والزجاج"(3).

ويتوسع الرازي في تفسيره ويرى أن دلالة الإفراد في الموضعين خاص بالنبي -ﷺ- وعام لسائر عباد الله، مثله مثل ضمير الجمع؛ لأن خطاب رئيس القوم خطاب لأتباعه(4).

وعلل ابن عاشور تخصيص الخطاب للنبي -ﷺ- في أول الآية بأنها بدأت بما هو من شؤون النبي -ﷺ- كقيام الليل، ثم بما هو من شأن النبي -ﷺ- بالنسبة للناس ويمثل ذلك في تلاوة القرآن، وأسند الفعل الثالث إلى ضمير الجمع لأن العمل من شأن

---

(١) [البقرة:٧٥].

(٢) [المؤمنون:٥١].

(٣) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص:١٨٩). وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٤١/٢)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١٧٧/١).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٧٣/١٧).

الجميع ليفيد العموم، أما التخصيص في أول الآية فناسب تقديم ذكر الشأن، والشأن العمل المهم والحال المهم (١).

ويلحظ الترتيب الزمني للمذكوات مع ما في ذلك من إطناب، فكل ما تلا الشأن من تلاوة وعمل هو من الشأن، وذلك ذكر الخاص بعد العام، وهذا الترتيب يتمثل في البدء في أي شأن يكون فيه، وهذه حال ملازمة لكل إنسان، ثم تأتي بعد ذلك التلاوة وهي شأن متأخر لم تأت إلا بعد النبوة، ثم العمل الذي لم يأت إلا بعد الوحي، فالوحي خاص بالنبي، فجاء الخطاب بالتلاوة خاصا به باعتبار السبق، أما العمل فهو شأن الجميع فجاء الخطاب للكل، وبما أن العمل بما يقتضيه الشرع واجب على المكلفين؛ وإن كان الخطاب في ظاهره خاص بالرسول -ﷺ- لكونه القدوة، فإن ذلك سبب لانتقال الضمير من الإفراد إلى ضمير الجمع لإفادة العموم، لأن التبليغ من النبي -ﷺ- والعمل مناط بكل مكلف.

ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب:١-٢]، وأول ما يتبادر إلى الناظر التلوين بين الضمائر، فالمسند إليه في الفعلين ﴿ٱتَّقِ﴾ و﴿تُطِعِ﴾ هو الضمير المستتر العائد إلى النبي-ﷺ- وقد جاء على الإفراد، ثم تحول عنه إلى ضمير الجماعة في﴿تَعْمَلُونَ﴾ .

ولقد وقف العلماء على ذلك فرأى ابن قتيبة أن الخطاب للنبي -ﷺ- والوصية والعظة للمؤمنين، مستدلا بتحول الخطاب إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾(٢)، ووافقه ابن فارس(٣).

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/١٩٩).

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ١٦٧).

(٣) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني(ص: ١٦٠).

ويذكر الطبري أن الكلام رجع إلى خطاب الجماعة، وقد ابتدأ بخطاب النبي ﷺ وصدّر هذا بأنواع الخطاب فقال:"وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيح، أن يخرج المتكلم كلامه على وجه الخطاب منه لبعض الناس وهو قاصد به غيره، وعلى وجه الخطاب لواحد وهو يقصد به جماعة غيره، أو جماعة والمخاطب به أحدهم؛ وعلى هذا الخطاب للجماعة والمقصود به أحدهم"(1).

وإلى هذا الرأي ذهب الرازي فذكر أن الخطاب للنبي -ﷺ- والمراد غيره(2) وكذلك الزركشي وعده من باب إطلاق الخاص وإرادة العام(3)، وعند السيوطي من باب خطاب العين والمراد به الغير(4)، وهو أحد علاقات المجاز المرسل، مع ما يكتنف السياق من إيجاز حذف بليغ أغنى المذكور عما لم يذكر، وتلك هي الشجاعة اللغوية، وعلى هذا فقد شمل هذا الأسلوب أغراض منها التعظيم والتعميم والإيجاز.

وربما أن الأمر للنبي-ﷺ- القدوة وهو لغيره من باب أولى، فرضا الله مناط بتقواه، ولما كان النبي -ﷺ- هو الأسوة كان الامتثال منه أولا سبيل اقتداء لأمته، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١]، ولما كان العمل هو ثمرة هذه التقوى أسند إلى واو الجماعة؛ ليتحمل المسؤلية كل مكلف فقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: تعمل؛ كما يستدعي ذلك ظاهر السياق، ولكن المعنى استدعى الإسناد إلى ضمير المخاطبين، والله أعلم.

ويأتي التلوين من خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٢-

(١)جامع البيان عن تأويل آي القرآن(٢/٤٠٤- ٤٠٥).

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة غرائب آي التنزيل(ص: ١٩٣) .

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٢/٢٤٢) و(٢/٢٧٠-٢٧١).

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/١١٣).

١١٣]، فالخطاب في ظاهره للنبي -ﷺ- وهو الذي قال الله عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم:٤]، فيلاحظ أن الله لما أمر بالاستقامة خاطب نبيه -ﷺ- لأنه القدوة، والأمر يفيد العموم ليشمل جميع المكلفين، ثم يأتي العطف بالواو الذي يفيد الاشتراك للدلالة على سرعة استقامة من تاب، ثم يأتي ضمير الجمع محدثا التغاير والتحول في الكلمات في قوله: ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ و﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ و﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ و﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ و﴿ وَمَا لَكُم ﴾ و﴿ لَا تُنصَرُونَ ﴾. فجاء ضمير المخاطبين في جميع الكلمات الآنفة على صيغة الجمع لئلا يباشر النبي -ﷺ- ببعض الأفعال التي لن تصدر منه، فلم يأت ضمير المخاطب الواحد احتراسا من أن يظن أن الضمير عائد إلى النبي -ﷺ-لأنه أعلم الناس بالله وأخشاهم له، وهو قدوتهم المزكى عند الله، لكن هذا الخطاب هو تحذير لأمته من أن تعدل عن الاستقامة.

وما أحسن ما ذهب إليه أبوحيان من توجيه لهذا التغاير في الضمائر حيث قال:"وانظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات، حيث جاء الخطاب في الأمر، ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، موحدا في الظاهر، وإن كان المأمور به من حيث المعنى عاما، وجاء الخطاب في النهي: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ موجها إلى غير الرسول -ﷺ- مخاطبا به أمته. فحيث كان بأفعال الخير توجه الخطاب إليه، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أمته، وهذا من جليل الفصاحة"(١).

وقوله: ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾...﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾، إطناب على طريقة التفصيل بعد الإجمال، وهو تفصيل للمراد من الاستقامة، فلم يوحد الخطاب، بل أسندت الأفعال إلى ضمير المخاطبين، وفي الآية الثالثة عاد الخطاب إلى الإفراد، لأن الموطن موطن تأس واقتداء، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٢٢٢/٦).

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤] يؤيده الحديث "...وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي ..."(١)، وقد يكون الأمر المباشر للنبي -ﷺ- لأجل التعظيم، والنهي غير المباشر من باب التعظيم أيضا، وقد أشار ابن عطية إلى المعنى الأول حيث قال:" وقوله: أمرت مخاطبة تعظيم"(٢).

ويرى العلوي أن أمر الله لنبيه -ﷺ- بما لن يتركه، أو نهيه عن شيء لن يفعله، أن ذلك من قبيل ما اصطلح البلاغيون على تسميته بالإلهاب والتهييج، وهو "كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهى ممن هذه حاله على جهة الإلهاب، والتهييج له على الفعل، أو الكف لا غير"(٣).

قال ابن عاشور:" انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي -ﷺ- وهذا الخطاب يتناول جميع الأمة بقرينة أن المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين"(٤).

وقد علق ابن عاشور على الآية التي سبقت الآنفة بقوله: "وقد جمع قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: ١١٢]، وقوله: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أصلي الدين، وهما: الإيمان والعمل الصالح"(٥).

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة...، (ص: ١٥٩). رقم الحديث: ٦٣١.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢١٢/٣).

(٣) الطراز للعلوي (٩٣/٣) و(٢٠٣/٣).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٤٢/١١).

(٥) المصدر نفسه(٣٤١/١١).

[الروم:٣٠-٣١]، فبدأت الآية في فعل الأمر﴿ فَأَقِمْ ﴾ المسند للمخاطب الواحد وهو النبي -ﷺ- ثم انتقل الضمير من الإفراد إلى ضمير الجمع فقال: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ فجاء الحال والأفعال الثلاثة للجماعة، ولم يقل: منيبا، اتق، أقم، ولا تكن؛ لأن الدين فيه روح الجماعة، والنبي -ﷺ- هو القدوة في كل شيء.

وقد اختلف أهل اللغة والمفسرون بتوجيه الآية، فروى النحاس قولا يستنبط منه أن الآية وإن خاطبت النبي -ﷺ- بصيغة الإفراد فهي عامة لسائر أمته، فقال أبو جعفر النحاس:" قال محمد بن يزيد(١): لأن معنى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾: فأقيموا وجوهكم. وهو قول أبي إسحاق(٢)، واحتج بقوله جل وعز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [الطلاق:١]، وقال الفراء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين"(٣).

(١) هو المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبو العباس المبرد، إمام العربية ببغداد في زمانه، أخذ عن المازني وأبي حاتم السجستاني، روى عنه إسماعيل الصفار ونفطويه والصولي، وله من التصانيف: معاني القرآن، الكامل المقتضب، والمقصور والممدود، والاشتقاق، وما اتفق لفظه واختلف معناه، طبقات النحاة البصريين وغيرها، توفي سنة ٢٨٥هـ، ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢٦٩/١-٢٧٠) و البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (ص:٢٨٦) ووفيات الأعيان لابن خلكان(٣١٣/٤-٣٢١) .

(٢) أبو إسحاق: هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، حسن الاعتقاد، مال إلى النحو، فلزم المبرد، وله من التصانيف: معاني القرآن، الاشتقاق، خلق الإنسان، فعلت وأفعلت، مختصر النحو، خلق الفرس، شرح أبيات سيبويه، توفي سنة ٣١١. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٣١١/١-٤١٣).

(٣) إعراب القرآن للنحاس(١٨٥/٣).

وبمثل هذا جاء قول الرازي:" فأقم وجهك مع النبي والمراد جميع المؤمنين"[1]. وقال البيضاوي مثل ذلك بشمولية الخطاب لأمة محمد -ﷺ- وذكر أن التخصيص كان غرضه التعظيم[2].

ووافق أبوحيان المفسرين بقوله:" فأقم وجهك، المراد به: فأقيموا وجوهكم، وليس مخصوصا بالرسول وحده، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع، أي: فأقم أيها المخاطب، ثم جمع على المعنى، لأنه لا يراد به مخاطب واحد. فإذا كان هذا، فقوله: منيبين، وأقيموا، ولا تكونوا، ملحوظ فيه معنى الجمع"[3].

وأول انتقال من الإفراد إلى الجمع يظهر في الحال﴿ مُنِيبِينَ ﴾ ولم يتقدم في الجملة صاحب حال مطابقا للحال، خلافا للحال ﴿حَنِيفًا﴾ التي هي حال من الضمير في ﴿ فَأَقِمْ ﴾ ، فدل ذلك على بلاغة إيجاز الحذف، وأن تقدير الكلام ترشد إليه الجملة التي خوطب بها النبي -ﷺ- وأن خطاب النبي -ﷺ- خطاب لأمته وليس لصحبه فحسب، فهو امتداد بالخطاب إلى ما شاء الله، "ودخول الأمة في الخطاب الخاص بالنبي -ﷺ- هو مذهب الجمهور، وعليه مالك وأبو حنيفة، وأحمد، رحمهم الله تعالى خلافاً للشافعي رحمه الله"[4] كما أن ذكر الإنابة والتقوى، وإقامة الصلاة، والنهي عن الشرك، من باب الإطناب بطريق الخاص بعد العام تعظيما لأمر ذلك، وبيانا على أهميته، وهذا الخاص هو من العام الذي تضمنته إقامة الوجه.

ومما يدل على أن أمة محمد -ﷺ- معنية في خطاب الله لنبيها لكونه القدوة التصريح في تحول الضمير إلى خطاب الجماعة بعدما أفرد النبي-ﷺ- بالخطاب لكونه القدوة، هذا التصريح في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٩٩/٢٥).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢٠٦/٤).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣٨٩/٨).

(٤) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي(ص: ١٨١).

تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة:١٤٤]، وبالتحديد في قوله: ﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾، فلم يقل: فولوا وجوهكم، لكنه خص النبي -ﷺ- ثم لون الخطاب إلى الجماعة ليعم المسلمين قاطبة، فقد جاء ضمير الإفراد خاصا بالنبي -ﷺ- وجاء ضمير الجمع عاما لأمته، وهذا أسلوب جديد يفسر كل أسلوب طوي آخر الكلام في أوله، أو أوله في آخره، كما في المواضع السابقة التي يتحول فيها ضمير الإفراد الذي ظاهره أنه خاص بالنبي -ﷺ- إلى ضمير الجمع؛ ليفسر ضمير الجمع ضمير الإفراد، وأن الضميرين تدخل فيهما أمته -ﷺ- غير أن الآية هنا وضحت هذا الطريق، فقال تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ ﴾ثم: ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ والقرآن يفسر بعضه أساليب بعض، ويتنقل بين الأساليب البلاغية بكل بلاغة وإعجاز، يعز على أهل اللغة محاكاته، وإن تيسر لأحد منهم في موضع، فإن ذلك ليس له في كل موضع، على خلاف القرآن الذي تفوق في كل موضع.

وإذا كان خطاب الله لنبيه -ﷺ- موجها إليه بالوحي، عاما لأمته في أمور دينهم، فكذلك الحال في أمور دنياهم؛ إلا أن يأتي دليل مخصص ،كما نبه إلى ذلك الشيخ الشنقيطي في استنباط لطيف يدل على أن خطاب النبي -ﷺ- خطاب لأمته إلا بدليل يخصصه بالخطاب، وذلك في مثل "قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأحزاب:٥٠]. أي: هذا الحكم يخصك دون أمتك. والخطاب أوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾فلو لم تكن الأمة داخلة حكما تحت اسم (النبي) لما كان لقوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فائدة، ولما كانت إليه حاجة"[1].

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير(١/٤٨٧).

وعود ضمير الجمع على ذات النبي -ﷺ- ظاهرة قرآنية تحتمل التعظيم، واتساع الخطاب ليشمل من هو تابع، لأن خطاب القائد خطاب لقومه، وقد جاءت هذه الظاهرة في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال:٧٠]، فالمخاطب النبي -ﷺ- ثم يأتي التلوين بانتقال الضمير من صيغة الإفراد إلى صيغة الجمع، لكن جمع الأيدي قرينة دالة على أن المخاطب هو النبي -ﷺ- تعظيما، ثم عموم المسلمين المشاركين في القتال، فجمع الإيجاز أكثر من معنى، وتعظيم النبي -ﷺ- ظاهر من حيث تخصيصه بالخطاب، لكن السياق قد يكشف أن الآية التي سبقت هذه كانت خطابا للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال:٦٩]، ولما جاء الحديث عن القرار المتخذ في حق الأسرى جاء الخطاب خاصا للنبي -ﷺ- لأن أمر الأسرى من شأن القائد، وقد توحي ميم الجمع بتعظيم النبي -ﷺ- وجمع الأيدي مضافة إلى ميم الجمع قد يكون فيها تزكية للمؤمنين؛ لامتثالهم أمره -ﷺ- جعلهم الله أيد له. ومما يقوي أن الميم للتعظيم، كاف الخطاب في الآية التالية التي يقول الله فيها: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٧١]، فلم يقل: خيانتكم؛ لأن في المقام من هو أعظم وهو الله تعالى، مع احتمال عود ميم الجمع في اللاية التي سبقتها على الكل وإفادة العموم، أي: " مَنْ في ملكتكم ووثاقكم، فالأيدي مستعارة للمِلك"(١).

ومن المواطن التي جاء الخطاب فيها خاصا للنبي -ﷺ- في لفظه، عاما لأمته في معناه؛ ما يخص الشأن الأسْري، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٦/٨).

يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾ [الطلاق:١]، فبما أن النبي -ﷺ- زعيم أمته فقد جاء الخطاب له على سبيل التعظيم، مع اندراج أمته في الأمر؛ لأن هذا حكم شرعي على الأمة، وتوجيه رباني يحفظ البيت من الشتات.

ومما يدل على أن الآية عامة لسائر الأمة حديث أَبِي الزُّبَيْرِ(١)؛ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَيْمَنَ(٢) مَوْلَى عَزَّةَ يَسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ؛ وَأَبُو الزُّبَيْرِ يَسْمَعُ ذَلِكَ؛ كَيْفَ تَرَى فِى رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا؟ فَقَالَ: طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ وَهْىَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَسَأَلَ عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهْىَ حَائِضٌ. فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ -ﷺ-: لِيُرَاجِعْهَا. فَرَدَّهَا وَقَالَ: إِذَا طَهَرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ لِيُمْسِكْ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَقَرَأَ النَّبِىُّ -ﷺ- يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِى قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ "(٣).

والقراءة "فِى قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ" وإن كانت قراءة شاذة، إلا أن القراءة المتواترة والمناسَبَة كافيتان للدالة على شمول الحكم سائر الأمة، وأن ضمير الجمع إنما عاد إليه ليجمع بين التعظيم وكونه يمثل أمة، وأن أمته تبع له في الخطاب.

---

(١) أبو الزبير: محمد بن مسلم بن تدْرس القرشي، المكي، مولى حكيم بن حزام، مات سنة ١٢٨هـ ينظر: رجال صحيح مسلم لابن منجوبة (٢/ ٢٠٧).

(٢) عبدالرحمن بن أيمن المخزومي المكي، مولى عزة، روى عن الزهري في الطب، وروى عنه بشر بن المفضل. ينظر: رجال صحيح مسلم لابن منجوبة (١/ ٤٠٤).

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، رقم (١٤٧١) ، (٢/ ١٠٩٣). وقال المحقق: (قبل عدتهن) هذه قراءة ابن عباس وابن عمر، وهي شاذة لا تثبت قرآنا بالإجماع ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا، وعند محققي الأصوليين.

وقد رأى الفراء أن الآية خطاب للنبي -ﷺ- وفعل للجميع، فهذا الضمير من الذهاب بالواحد إلى الذين معه، في كثير من الكلام، وهي ظاهرة في كثير من كلام العرب(١).

وعد ابن رشيق هذا الضمير في باب الإحالة والتغيير من طريق مجيء الخصوص في معنى العموم(٢)، وهذه الطريق إحدى طرائق المجاز المرسل، فالخصوص في ذكر النبي -ﷺ- والعموم في إرادة كل مكلف.

وفسر الزمخشري سبب هذا الخصوص، وحمَله على التعميم فقال:"خص النبي -ﷺ- بالنداء وعم بالخطاب؛ لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت؛ إظهارا لتقدمه واعتبارا لترؤسه، وأنه مَدَرَةُ قومه ولسانهم(٣)، والذي يصدرون عن رأيه، ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادا مسد جميعهم"(٤).

وقد ذكر الرازي لمجيء الضمير للجمع غرضين فقال:" أفرد سبحانه النبي -ﷺ- أولا بالخطاب؛ لأنه إمام أمته وقدوتهم؛ إظهارا لتقدمه ورياسته، وأنه وحده في حكم

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٣٧١/١) و(٢٩٤/٢) و(٤٢/٣). وينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٧٠).

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (٢٧٩/٢).

(٣) ويظهر للباحث أن المقصود بمدرة القوم عظيمهم وسيدهم، ومنه قول ابن حيان: " مَدَرَة القوم وَمُقَدِّمهم يخاطَب بشيء، فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا". البحر المحيط لأبي حيان (٤٨١/٣). وقال ابن فارس: الميم والدال والراء أصل صحيح يدل على طين مُتَحَبِّبٍ، ثم يُشَبَّه به. فَالْمَدَرُ معروف، والواحدة مَدَرَةٌ، وربما قالوا: سميت البلدة مَدَرَةٌ... ويقال: رجل أَمْدَرُ: عظيم الجنبين. معجم مقاييس اللغة، باب الميم والدال وما يثلثهما، مادة: مدر، (٣٠٥/٥).

(٤) الكشاف للزمخشري (٥٥٢/٤).

كلهم، وساد مسدّ جميعهم، الثاني: إن معناه: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء"[(1)].

وقال ابن عاشور:" توجيه الخطاب إلى النبي -ﷺ- أسلوب من أساليب آيات التشريع المهتم به، فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يُذكر بعده النبي -ﷺ- مثل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال:٦٥]؛ لأن النبي -ﷺ- الذي يتولى تنفيذ الشريعة في أمته وتبيين أحوالها. فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملا على ما يفيد ذلك، مثل صيغة الجمع في قوله هنا: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وإن كان التشريع خاصا بالرسول-ﷺ- جاءت بما يقتضي ذلك نحو: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] "[(2)].

وأما أبو السعود فذكر نكتة أخرى فقال:" وتخصيص النداء به – عليه الصلاة والسلام- مع عموم الخطاب لأمته أيضاً؛ لتشريفه وإظهار جلالة منصبه، وتحقيق أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه -الصلاة والسلام- إياهم وتغليبه عليهم[(3)].

ومن المواقف الأسْرية التي تصلح الشأن، والتي عاد فيها ضمير الجمع على مخاطب واحد هو نبي الأمة -ﷺ- ليتسع حكم الخطاب فيشمل أمته، حيث قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [التحريم:١-٢]، فالآيات تظهر لطف الله بنبيه وبخلقه، فمن اللطف تشريفه بندائه بلفظ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثم إن الاستفهام خرج

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٥٢٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/٢٦٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/٢٦٠).

عن معناه الحقيقي إلى غرض مجازي، هو التنبيه[1]، وإظهار اللطف بدليل تذييل الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ولكن الملاحظ أن الضمائر في الآية الأولى جاءت على صيغة الإفراد، فالكلمات ﴿تُحَرِّمُ﴾ و﴿تَبۡتَغِي﴾ و﴿أَزۡوَٰجِكَ﴾ فمنها ما أسند إلى ضمير المخاطب المفرد، ومنها ما أضيف إلى كاف الخطاب، ولكن تأتي الإحالة في الآية الثانية إلى ضمير المخاطبين فقال تعالى: ﴿لَكُمۡ﴾ و﴿أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ و﴿مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ ليتسع الخطاب بعد الخصوص الذي يبين عن عظمة النبي -ﷺ- في مقام تنبيه لا عتاب فيه ولا لوم، ويأتي ميم الجمع المؤكد هذه العظمة، وأن خطاب الله له خطاب لأتباعه، وفي هذا من الإيجاز ما هو بيّن جليّ.

وفي سورة هود يطالعنا ضمير الجمع بعد آيتين اشتملتا على ضمائر المخاطب المفردة العائدة على النبي -ﷺ- فقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ ﴾ [هود:١٢-١٤]، فبعد جملة من ضمائر خطاب الواحد التي تتحدث عن أمور خاصة تتعلق بالوحي الذي هو مرتبط بالنبي -ﷺ- ارتباطا مباشرا، فلذلك جاء ضمير الإفراد، بينما يأتي الانتقال إلى ضمير الجمع في الآية الرابعة عشرة ولعل البلاغة من وراء ذلك أن همّ الدعوة همّ جماعي لا يقوم على الفرد الواحد فحسب، ولكن كل مسلم عليه نصيب وافر من ذلك، بدليل أن الله عقد خيريتهم على ذلك.

---

(١) أشار إلى هذا المعنى الرازي في مفاتيح الغيب(٣٠/٥٦٩).

غير أن الفراء يرى أن ضمير الجمع في﴿لَكُمْ﴾ هو عائد إلى النبي -ﷺ- بخلاف قوله: في الضمير في:﴿فَاعْلَمُوا﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهي عنده لكفار مكة(١)، ووافقه على هذا القول ابن قتيبة(٢)، والسيوطي(٣).

غيرأن الرازي أجاب عن مجيء الجمع بعد الإفراد بثلاثة أوجه(٤):

الأول: الخطاب للنبي عليه -ﷺ- في الكل، ولكنه جمع في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ و﴿فَاعْلَمُوا﴾؛ تفخيما له وتعظيما، وعضَد قوله هذا بقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾ [القصص: ٥٠].

الثاني: أن الخطاب الثاني للنبى -ﷺ- وأصحابه؛ لأنهم جميعا كانوا يتحدونهم في القرآن.

الثالث: أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين(٥)، والضمير في ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾ لمن استطعتم، يعني فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المظاهرة على معارضته لعجزهم؛ فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله، وهذا وجه لطيف. وبمثل هذا روى الألوسي قولا مرويا عن الضحاك(٦) (٧).

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (١١/٢).

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ١٧٧).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/١١-١١٢)، والنكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني (ص: ٣٠٥).

(٤) وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لابن يعقوب الفيروزآبادي (٢٤٨/١) .

(٥) أي الآية الرابعة عشرة خطاب للمشركين بدعاء من استطاعوا .

(٦) الضحاك: هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم: مفسر. كان يؤدب الأطفال، له كتاب في التفسير، توفي بخراسان سنة ١٠٥. ينظر الأعلام للزركلي (٢١٥/٣).

(٧) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٢٣/٦).

والذي يذهب إليه الباحث أن الخطاب في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ هو عائد إلى النبي -ﷺ- تعظيما، دعت إليه الغلبة له عليهم، وعجزهم عن التحدي، أو إلى النبي -ﷺ- وصحبه تعميما، وليس المخاطب به المشركون الذي يدْعون غيرهم لمعارضة القرآن. ويقوي هذا القول أن القرآن يفسر بعضه بعضا وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ﴾ [القصص:٥٠]، كما ذكر الرازي آنفا، مع أن اختلاف أقوال المفسرين في مرجع الضمائر في الآية الرابعة عشرة يوسع دلالة النص فيما لا يتخالف ودلالة التركيب، إضافة إلى أن ميم الجمع في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ قد يكون دعا إليه غرض بلاغي لطيف؛ وهو أن عدم استجابة المشركين وإذعانهم للحق لايفضي إلى ضعف محمد ﷺ فناسب ذلك مجيء ميم الجمع الدال على كمال العظمة، التي تدفع كل وهم يزعم النقص في النبي -ﷺ- وأتباعه، والله أعلم بمراده.

أما اختلاف الآية السابقة وآية القصص من حيث ضمير الجمع والإفراد هنا حيث قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠]، فقد أجاب الفيروزآبادي عن سبب ذلك فقال: "جمْع الخطاب هاهنا[١]، وتوحيده فى القصص؛ لأن ما فى هذه السورة خطاب للكفار، والفعل لمن استطعتم، وما فى القصص خطاب للنبى -ﷺ- والفعل للكفار"[٢].

وخلاف هذا الأسلوب جاء مساقا على لسان قوم نوح - عليه السلام- فقد خاطبوه بصيغة الإفراد ثم انتقلوا إلى الخطاب بضمير الجمع فقال الله عنهم: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) يقصد في قوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٤].

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص:١٩٩).

[هود:٢٧]، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ ،﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾، ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، فتكرر كاف الخطاب ثلاث مرات، وبما أن الخطاب موجه إلى نوح -عليه السلام- فقد انتقل الخطاب إلى صيغة الجمع، وهيأ لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ فذكْر أتباع نوح -عليه السلام- جعل مجيء ضمير الجمع مناسبا، مع أن الخطاب كان مع نوح -عليه السلام- فحسب، والغرض من ذلك ليس التعظيم ولكن التأكيد على انعدام الأفضلية بزعمهم عن المخاطَب وأتباعه، يوضح ذلك الإطناب بطريق التكرار، ثم بذكر العام بعد الخاص من ذكر نوح مرتين، الأول في الخطاب المنفرد، والثاني في الخطاب الجماعي ونوح أحد أولئك، فظهر من قولهم تعميم الرفض واستصغار التابع والمتبوع؛ لأن الكلام مبني على التنقص بقرائنه التي تشعر بذلك.

وقد وجه الألوسي مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ فقال: "خطاب له عليه السلام ولمتبعيه جميعا على سبيل التغليب[1] أي: وما نرى لك ولمتبعيك"[2].

ومن الآيات التي عاد فيها ضمير الجمع على مفرد ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:١٠٠-١٠١]، الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى الذكر وهو القرآن عند الجمهور كما ذكر الألوسي[3]، وهذه الآية التي تصف حال المعرض وجزاءه يوم القيامة، فقد جاء الضمير المفرد في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ والمسند إليه في الفعل: ﴿يَحْمِلُ﴾، لكن الضمير الذي هو معمول اسم الفاعل﴿خَـٰلِدِينَ﴾ والذي يقدر ب(هم)، وضمير الجماعة في: ﴿لَهُمْ﴾ كشف عن التلوين من ضمير الإفراد إلى ضمير الجماعة .

---

(١) أي غلّب المخاطبين على الغائبين.

(٢) روح المعاني للألوسي (٦/٢٣٨).

(٣) المصدر نفسه(٨/٥٦٨).

وقد كثر من وجّه سبب العدول بأن ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ يَحْمِلُ ﴾، وحمل الضمير الأول على لفظ ﴿ مَّنْ ﴾ فوحّد، و ﴿ خَالِدِينَ ﴾ على المعنى فجمع(١).

أما البقاعي فقد ذكر أن الجمع للمعنى، وأضاف تعليلا فقال:" وجمع هنا حملاً على المعنى بعد الإفراد للفظ، تنبيهاً على العموم؛ لئلا يغفل عنه بطول الفصل، أو يظن أن الجماعة يمكنهم المدافعة"(٢).

وقد جاءت لفظة ﴿ خَالِدِينَ ﴾ في أربعة وأربعين موضعا،كلها في جانب حقوق الله على عباده، فمنها ما جاء في سياق جزاء المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتقربوا إلى الله بأفعال العبادة، ومنها ما هو جزاء للكافرين بأوصافهم، سواء أكان تكذيبا أم كفرا أم شركا أم صدّا، وما في معنى هذا السياق.

ويستثني الباحث من القاعدة فيما سبق آية في سورة آل عمران: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٦]، فقد جاءت في معاملة الخلق، والنكتة في ذلك أنها جاءت بعد عدة أوصاف لا تجتمع في شخص واحد، فجاء بناء على ذلك جمع الحال المتضمنة ضميرا مستترا يقدر ب(هم) يقع فاعلا لها، وهذه الأوصاف منها ما هو في حق الله كالعبادة وطاعة الله ورسوله -ﷺ- وأغلبها في معاملة الخلق كالإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، والاستغفار عند فعل الفاحشة أوظلم النفس

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٩٠٤/٢)، وروح المعاني للألوسي (٥٦٨/٨)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٨٠/١٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣٨١/٧)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٤١/٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٩/١٦).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٣٤١/١٢).

وعدم الإصرار على ذلك، فهيأت هذه الأوصاف لمجيء الحال بصيغة الجمع وإن غلب عليها حقوق الخلق.

أما لفظة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ التي جاءت في موضع رفع، ووردت في أربعة وعشرين موطنا، فهي اسم فاعل له معمول، وفاعله ضمير مستتر تقديره (هم) كذلك، فقد جاءت على غرار سياق لفظة ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وعلى نهج ماسبق، فتأتي عند الحديث عن المؤمنين في سياق إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وتقربهم إلى الله في أنواع العبادات، أما في سياق الحديث عن الكافرين وأشباههم، فتأتي عند ذكر كفرهم وصدهم وتكذيبهم ونحو ذلك، فالجمع جاء في سياق حقوق الله على خلقه، سواء أكان المتحدث عنه مؤمنا أم كافرا.

ويشير الباحث إلى أن آية الربا في سورة البقرة جمعت بين حق الله وحق خلقه، فهي وإن كانت معاملة بين الخلق أنفسهم، إلا أنها حرب لله ورسوله، فتحليلهم لما حرم الله هو افتراء على الله، وعلى هذا فالآية تندرج تحت هذا التقعيد الذي يفيد أن الجمع للفظة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ سواء أكان على النصب أم على الرفع لم يأت إلا في جانب حقوق الله ومجموع ذلك في النصب والرفع ثمان وستين مرة، استثني منها موضع واحد سبق التنويه إليه، والله أعلم.

أما في سياق معاملة الخلق فيأتي الإفراد لهذه الحال، وجاء ذلك في ثلاث آيات قد درست في موطنها في أحد مباحث البحث[1].

ويأتي الإفراد بعد (مَنْ) الموصولة حملا على اللفظ، والجمع حملا على معناها وقد قال بذلك جمع من أهل اللغة والتفسير[2]، ولكن هل يتوقف الباحث عند هذا الحدّ؟

(١) وهذه الآيات درست في مبحث عود الضمير المفرد على الجمع (ص:١١٦-١١٩).

(٢) ذُكر هذا السبب في الكتاب لسيبويه (٦٥/١)، والكامل في اللغة والأدب للمبرد (٢٩٢/١)، وفي إعراب القرآن للنحاس(٧٤/١)، والخصائص لابن جني (٣١٧/٣)، المقتضب =

أم أنّ البلاغة أبعد من هذا؟ والجواب عن ذلك بعد أن يقف الباحث على قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة:١١٢]، ففي هذه الآية يُرى التحول والانتقال من الإفراد إلى الجمع في الضمير العائد على (مَنْ) الموصولة، فيلاحظ الإفراد في الضمائر﴿وَجْهَهُۥ ، وَهُوَ ، فَلَهُۥٓ ، رَبِّهِۦ ﴾ بينما يأتي الانتقال إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ ، يَحْزَنُونَ ﴾ مع أن المرجع واحد وهو (مَنْ) ولعل السر في ذلك راجع إلى أن الأجر لما كان مختصا بصاحبه سوغ ذلك مجيء ضمير الإفراد، أما الخوف لما كان لا يختص بواحد، بل في الغالب يتعدى إلى غير الجاني، فيصل الأذى إلى أعداد كبيرة سوغ ذلك مجيء ضمير الجمع عند ذكر الخوف، وذيل بما يترتب على نتيجة الخوف من حزن، ونفي الحزن بصيغة الجماعة دال على الاجتماع الذي ينفي الوحشة، والأنس الذي جلبه انعدام الخوف والحزن.

ويؤيد هذا القول الحديث الذي روته زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْها- أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ، قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"[1].

=

للمبرد (٢٥٣/٣)، والكشاف للزمخشري (١٧٧/١)،والبحر المحيط لأبي حيان (٦٤/٥/١).

(١) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (ص: ٨٢٤) رقم الحديث:٣٣٤٦. وينظر: صحيح مسلم،كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، برقم(٢٨٨٠)، (٢٢٠٧/٤).

وقد سار ابن عاشور على نحو ما ذكره اللغويون والمفسرون من قبل، وزاد تعليلا فقال:" وجمع الضمير في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ اعتبارا بعموم (مَنْ) كما أفرد الضمير في قوله ﴿وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ اعتبارا بإفراد اللفظ، وهذا من تفنن العربية لدفع سآمة التكرار"(١).

وهذا التعليل من الشيخ رحمه الله وإن كان مقبولا إلا أنه ليس الغايةَ من هذا التحول، بل يدخل ضمن الأغراض البلاغية، ولكن الغرض الأسمى هو أبعد من التفنن ودفع السآمة، بل هو راجع إلى ما يحمله التحول من إيحاءات دلالية، لعل فيما ذهب إليه الباحث شيء من التوفيق للإيضاح.

وهذا الأسلوب تكرر في القرآن في مواطن، فيفرد الفعل المناط بالفرد، ويجمع الضمير وإن كان مرجعه مفردا لأنه لايقتصر على هذا المفرد بل يشمل غيره، يظهر ذلك في الآيات الآتية، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام:٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف:٣٥]، فالأفعال﴿ تَبِعَ﴾ و﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَعَمِلَ﴾ و﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ و﴿ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ في الآيات السابقة أسندت إلى ضمير المفرد، ثم انتقل منه في جميع الآيات إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ واختتمت الآيات على هذا النحو بقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فالاتباع في

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١/١٠١-١٠٢).

سورة البقرة، والإيمان والعمل الصالح في سورة المائدة، والإيمان والإصلاح في سورة الأنعام، والتقوى والإصلاح في سورة الأعراف، جاءت أفعالها مسندة للمفرد حثا للأفراد، ولعل في الجمع بشارة بكثرة المتبعين الدالة على سعة رحمة الله، فبديء بإسناد الفعل لضمير المفرد لأن كل مكلف مرهون بعمله، ومن الفرد تتكون الجماعة، مع تباين طاقاتهم، أما تكرير ضمير الجمع في جميع الآيات السالفة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فكما أن فيها بشارة بكثرة المستجيبين تستحث همم الأفراد للحاق بأولئك، ففيها إشارة إلى أن الخوف والحزن لا يختصان بالمسيء، لكنهما يتجاوزانه فيصل أذاهما إلى المتبع، والمهتدي، والمؤمن، والعامل، والمصلح، بل وإلى العجماوات. وقد سبق ذكر دليل ذلك، ويضاف إليه "ما رواه أبو قَتَادَةَ بْنُ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ(١) أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ؛ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"(٢).

ففي هذا الحديث المتفق عليه دليل على أن أذى الفاجر لا يقتصر عليه، بل ينال العبادَ والبلاد والشجر والدواب.

---

(١) المشهور أن اسمه الحارث، وقيل: النعمان. وقيل عمرو، اختلف في شهوده بدرا، واتفقوا على أنه شهد أحدا وما بعدها، توفي بالكوفة في خلافة عليّ سنة ٤٠هـ، وقيل في المدينة سنة ٥٤هـ، واختلف في السنة. ينظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني،(٧/٢٧٢-٢٧٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، (ص: ١٦١٩) رقم الحديث: ٦٥١٢. وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه (٢/٦٥٦) رقم الحديث: ٩٥٠.

بل قد ذكر الطبري أن تفسير مجاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، "البهائم تلعن عصاة بني آدم، حين أمسك الله عنهم بذنوب بني آدم المطر، فتخرج البهائم فتلعنهم"(١).

وذكر ابن القيم في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١] قول عطية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم، فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر(٢).

ويأتي ضمير الإفراد مصورا القلة، ويأتي ضمير الجمع مصورا الكثرة، ففي آية تحريم الربا قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥]، فبدأ الحديث عن حال آكلي الربا، ثم جاء إفراد الضمير للمتعظ المنتهي في كلمات منها: ﴿جَآءَهُۥ﴾، ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾، ﴿فَلَهُۥ﴾؛ لأن الأفراد مختلفون بأعمالهم، وبحسابهم، وأمرهم إلى الله، وقد يكون فيه إشارة لقلة المنتهين، وذلك لأن ترك الربا من صفات المؤمنين وهم قلة وقال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨]، وانتقل من ضمير الإفراد إلى ضمير الجماعة للعائدين إلى الربا بقوله ﴿هُمْ﴾، ولعل في ذلك بيانا بأن كثرة الضالين لا تنفعهم، وأن هذه الكثرة سببها إنغماسهم بها في معاملاتهم، وتأصل شبهتهم بعقولهم إذ قالوا: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/٧٣٤).

(٢) التفسير القيم لابن القيم (ص: ٢٦٣).

ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥](١)، ولعل اسم الإشارة "وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الشر والفساد"(٢)؛ لأنهم استحلوا ما حرم الله وقد بين الله لهم.

ويذكر أبو حيان أن ذلك من قبيل الحمل على المعنى بعد الحمل على اللفظ(٣) وبمثل هذا قال أبو السعود(٤)، ولكن لا بدّ أن يكون وراء كل حمل فائدة جاءت في محلها، فالإفراد إشارة إلى هواهم، والجمع يدل على كثرة العائدين إلى الربا، لأنهم أشربوا هذه المعصية وأنِسوا بها فلم يستطيعوا الانتهاء عنها، فالفرد منهم معذب بعمله وكذلك جمعهم مخلد بالعذاب.

وأشار ابن عاشور إلى الاختلافات في مرجع الهاء في قوله: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وذكر أنهم فرضوا فيه احتمالات يرجع بعضها إلى رجوع الضمير إلى (من جاءه) وبعضها إلى رجوعه إلى ما سلف، والأظهر أنه راجع إلى (من جاءه) لأنه المقصود(٥).

وكثيرا ما يأتي ضمير الإفراد عائدا إلى من الموصولة في مواطن التكليف ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:١١](٦)، فإن من الموصولة عاد إليها الضمير بصورتين الأولى صورة الإفراد وتتمثل بقوله: ﴿يُؤْمِنۢ﴾ و﴿وَيَعْمَلْ﴾ و﴿يُدْخِلْهُ﴾ وهذا

(١) وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٥٢/٢).
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢٦٢/١).
(٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٧٠٩/٢).
(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢٦٦/١).
(٥) وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٥٧/٢).
(٦) استدل أكثر النحويين بهذه الآية على جواز مراعاة اللفظ أولا ثم مراعاة المعنى، ثم مراعاة اللفظ . ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤١٠/٨-٤١١)و (٢٠٤/١٠) وأورد وجها للمخالفين، وروح المعاني للألوسي : (٣٣٧/١٤) وأورد وجها للمخالفين.

الإفراد يوحي بالتكليف الذي سيسأل عنه الفرد ويجازى به، فلذلك آثر السياق ضميره الخاص، ولما كان دخول الجنة يحتاج إلى أنس مع الآخرين، وذلك من تمام الإكرام جاء الفاعل المستتر لاسم الفاعل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ وهو الضمير (هم المستتر) فجمع الله له بين النعيم الخاص الذي استعمل له ضمير الإفراد، وهو عام في حق كل مكلف، ثم أُتبع ضمير الإفراد بضمير جمع؛ ليهنأ هذا المؤمن بالأنس مع أهل الجنة الآخرين.

قال الإمام البقاعي:" ولما أفرد الشرط والجزاء إجراء على لفظ (من) إشارة إلى أنه لا يشترط في الإيمان ولا في جزائه مشاركة أحد، وأنه لا توقف للقبول على شيء غير الوصف المذكور، جمع الحال بشارة بأن الداخلين كثير، وأن الداخل إلى دار الكرامة لا يحصل له هوان بعد ذلك أصلاً...ولما أعلم أن الخلود لكل الداخلين إلى الجنة رجع إلى الأسلوب الأول؛ تنصيصاً على كل فرد؛ إبلاغاً في عظمة هذا الجزاء ..."[(١)].

وكثير ما يؤول المفسرون هذا التغاير بين الضماير بأن الجمع باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد باعتبار لفظها[(٢)]، والصواب أن لا يقتصر على هذا التعليل الذي لا ينفذ من خلاله إلى فائدة بلاغية، لأن العدول عن إسلوب لا يأتي لمجرد العدول، ولكن وراءه فائدة تحتاج إلى سبر يكشف ستارها؛ لتبرز بجمالها لكل متأمل.

ويجد الباحث أن الزمخشري قد تجاوز هذا التعليل الذي يلجأ إليه كثير من المفسرين وتبعه الألوسي الذي شرح مراد الزمخشري من غير إسناده له فقال في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ "وإفراد ضمير ﴿لَهُۥ﴾ باعتبار اللفظ أيضا، وفيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزقه الله تعالى المؤمنين من الثواب، وإلا لم يكن في الإخبار بما ذكرها هنا كثير فائدة كما لا يخفى"[(٣)].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٠/١٧٠-١٧١).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٤/٣٣٧).

(٣) المصدر نفسه(١٤/٣٣٧)، وينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٥٦١) ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٨/٢٦٤).

ويأتي ضمير الجمع عائدا على نكرة في سياق الشرط ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾[الزخرف:٣٦-٣٨]، فلفظ ﴿شَيْطَٰنًا﴾ عاد إليه الضمير مرة مفردا في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ ومرة جمعا وذلك في قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ كما أن ضمير الإفراد أيضا عاد إلى الاسم الموصول مرة مفردا في قوله: ﴿ لَهُۥ﴾ ومرة جمعا في محل نصب مفعول في قوله: ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ وقد سبق نظائر هذا، وحاول الباحث بيان ما استطاع بيانه من أسرار، وأسرار كلام الله تحمل أعظم بلاغة وأسمى بيانا.

أما ضمير الإفراد وضمير الجمع في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ و﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ فمرجعه واحد وهو ﴿شَيْطَٰنًا﴾ ولكن هذا اللفظ نكرة جاءت في سياق الشرط فأفادت التعميم. أو لعل ضمير الإفراد صور صورة العاشي وقد قُيض له شيطان واحد، وضمير الجماعة جاء فوسع الدائرة؛ فصور العاشين الذين قُيض لهما شياطين؛ ولكل عاش شيطان؛ لأن الجمع يتكون من أفراد، وضمير الجماعة دال على خطورة الأمر وفداحته.

وقد ذكر الطبري – رحمه الله تعالى- أن ضمير الجمع عاد إلى الشيطان؛ لأن الشيطان وإن كان لفظه واحد إلا أنه في معنى الجمع(١).

وقال الزمخشري:" فإن قلت: لم جمع ضمير (من) وضمير الشيطان في قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾؟ قلت: لأن (من) مبهم في جنس العاشي، وقد قُيض له شيطان مبهم في جنسه، فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين: جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا"(٢).

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٠/٥٩٥).
(٢) الكشاف للزمخشري (٤/٢٥٢).

وقد قال ابن المنيّر في الانتصاف الذي تتبع به الكشاف:" قال محمود [(١)]: «يقال عشى بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة ... » قال أحمد[(٢)]: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما: الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم[(٣)]، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم، والنكرة في سياقه تعم. وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنبارى شارح كتابه ردا عنيفا. وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكّرا في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدا لوجهين، أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا، فكيف بالعاشى عن ذكر الله، والآخر: يؤخذ من الآية: وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعا في قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ فإنه عائد إلى الشيطان قولا واحدا ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأي سكتة. والنكتة الثانية: أن في هذه الآية ردا على من زعم أن العود على معنى مَنْ؛ يمنع من العود على لفظها بعد

---

(١) يعني الزمخشري.

(٢) أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنيِّر (٦٢٠هـ - ٦٨٣هـ) قاضي الإسكندرية وعالمها، إمام في الفقه والعربية والتفسير والقراءات والبلاغة، له الانتصاف فيما تضمنه الكشاف. ينظر: معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض (١/ ٦٦).

(٣) إمام الحرمين هو: الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي، عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين، الشافعي، صاحب التصانيف، ولد في أول سنة تسع عشرة وأربع مائة. له كتاب: نهاية المطلب في المذهب.توفي سنة ثمان وسبعين وأربع مائة، ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/١٧-٢٠)، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (٣/١٦٧-١٧٠).

ذلـك، واحـتج المـانع لـذلك بأنـه إجمـال بعـد تفسـير، وهـو خـلاف المعهـود مـن الفصاحة"[1].

واستدرك ابن عادل والألوسي على قول ابن المنيّر أن الضمير في ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ عائد إلى الشيطان قولا واحدا، وذكرا أن قوله خلاف الصواب، وأبو حيان يرى أن الضمير عائد إلى (من) على المعنى، وهو أولى عنده من عوده إلى الشيطان، وأن ابن عطية ذهب إلى هذا القول من قبل، وعلل الألوسي رأيهما بأنهما يختاران ذلك لتناسق الضمائر[2].

ولقد وجد الباحث أن رأي ابن عطية لا يخالف الجمهور، فقد بين أن الضمير في قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ عائد على الشياطين. وفي: ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ على الكفار[3].

أما أبوحيان فهو الذي يرى أن ضمير النصب في ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ عائد على مَنْ على المعنى، أعاد أولا على اللفظ في إفراد الضمير، ثم أعاد على المعنى، والضمير في يصدونهم عائد على شيطان وإن كان مفردا، لتناسق الضمائر في ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾، وفي ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾، وفي ﴿وَيَحْسَبُونَ ﴾، لمدلول واحد، وذكر رأي ابن عطية الآنف[4].

وكذلك رأى ابن عاشور أن الضميرين في ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ ويصدون، عائدان إلى ﴿شَيْطَٰنًا﴾ "لأنه لما وقع من متعلقات الفعل الواقع جواب شرط اكتسب العموم؛ تبعا لعموم (مَنْ) في سياق الشرط، فإنها من صيغ العموم، مثل النكرة الواقعة في سياق الشرط؛ على خلاف بين أئمة أصول الفقه في عموم النكرة الواقعة في سياق الشرط،

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنيّر الإسكندري(٤/٢٥٠).

(٢) ينظر: واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٧/٢٦٢)، روح المعاني للألوسي (١٣/٨٢).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٥٥).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/٣٧٣-٣٧٤).

ولكنه لا يجري هنا؛ لأن عموم ﴿شَيْطَٰنًا﴾ تابع لعموم (مَنْ) ، إذ أجزاء جواب الشرط تجري على حكم أجزاء جملة الشرط، فقرينة عموم النكرة هنا لا تترك مجالا للتردد فيه؛ لأجل القرينة، لا لمطلق وقوع النكرة في سياق الشرط. وضمير النصب في (يصدونهم) عائد إلى (مَنْ) لأن (مَنْ) الشرطية عامة فكأنه قيل: كل من يعشو عن ذكر الرحمن نقيض لهم شياطين لكل واحد شيطان. وضميرا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ عائدان إلى ما عاد إليه ضمير النصب من (يصدونهم) ، أي: ويحسب المصدودون عن السبيل أنفسهم مهتدين"[(١)].

وفي الآية الأخرى يلاحظ عود ضمير المفرد على ضمير الجمع وذلك في قول الله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ بعد قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ فعاد ضمير المفرد إلى جمع، وقد وجه الألوسي ذلك بقوله:" وأفرد الضمير في جاء وما بعده لما أنّ المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين لقرينه؛ لتهويل الأمر، وتفظيع الحال، والمعنى يستمر أمر العاشين على ما ذكر حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة قال مخاطبا له: يا ليت بيني وبينك..."[(٢)].

وفي آية أخرى رأى بعض أهل اللغة والتفسير أن ضمير الجمع عاد على الشيطان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فرأى العكبري أن سبب ضمير الجمع هو أن الشيطان جنس، واحتمل أيضا أن يكون الضمير عائدا إلى الأولياء[(٣)].

أما الفراء فقد رأى حذفا في الآية تقديره: الشيطان يخوفكم بأوليائه، قياسا على قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥]، معناه: لينذركم يوم التلاق. وقوله:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٢٥٣).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٣/٨٢).

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن(١/٣١١).

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ [الكهف:٢]، المعنى: لينذركم بأسا شديدا، فالبأس لا ينذر، وإنما ينذر به[١].

وجمع ابن عادل ثلاثة توجيهات لمرجع الضمير[٢] :

الأول: وهو الأظهر[٣] -: أنه يعود على ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي: فلا تخافوا أولياء الشيطان، هذا إن أريد بالأولياء كفار قريش؛ وقد رأى هذا القول ابن عطية من قبل[٤]، واختار هذا القول الدكتور حسن محمد باجودة وذكر أن معنى الكلام: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه، فالمفعول الأول محذوف لدلالة المذكور عليه[٥]، وهذا التقدير ذكره الفراء من قبل.

الثاني: أنه يعود على (الناس) من قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إن كان المراد بأوليائه المنافقين، وهذا أحد آراء الزمخشري[٦]، واحتمل البيضاوي عوده على الناس أو على الأولياء إذا قدر الحذف ب: أويخوفكم أولياءه[٧].

الثالث: أنه يعود على (الشيطان) كما ذكر الكرماني وغيره[٨].

والباحث يرى أن الأصل في مرجع الضمير كما قال ابن مالك في التسهيل: الأصل تقديم مُفَسِّر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل"[٩]. ولكن تعدد آراء أهل اللغة والمفسرين في مرجع ضمير الجمع هنا واختلاف آرائهم وتوجيهاتهم تدل

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٢٤٨/١)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤٤٠/٣).
(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٦٥/٦).
(٣) القول لابن عادل في اللباب في علوم الكتاب(٦٥/٦).
(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٤٤/١).
(٥) ينظر: تأملات في سورة آل عمران، د.حسن محمد باجودة (ص:٥٢٠).
(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٤٣/١).
(٧) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤٩/٢-٥٠).
(٨) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (٢٧٤/١).
(٩) شرح التسهيل لابن مالك (١٥٦/١)

على التنوع لا التضاد، فبذلك يتسع النص بتوسع دائرة الاحتمال، وكل ذلك دال على احتقار من عاد الضمير إليه، والتهوين منه، سواء أكان الشيطان أم الناس أم الأولياء؟ فجمعهم جمع تحقير لا تعظيم فيه، ثم يأتي بعده فعل أمر أسند إلى ضمير المخاطبين، مفعوله ضمير الواحد سبحانه وتعالى، فقال: ﴿وَخَافُونِ﴾ فخوفك من الواحد القوي ينجيك من أولئك، وتلك حقيقة الإيمان والتوحيد الخالص.

وقد أشار ابن عطية بطرف خفي إلى قريب من هذ المعنى فقال:" والضمير في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ لكفار قريش وغيرهم من أولياء الشيطان، حقر الله شأنه، وقوى نفوس المؤمنين عليهم، وأمرهم بخوفه هو تعالى، وامتثال أمره من الصبر والجلد، ثم قرر بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تقول إن كنت رجلا فافعل كذا"(١).

ويأتي ضمير الإفراد عائدا على (من) الموصولة في سياق الحديث عن المكلف الذي أسرف على نفسه وأهلكته سيئته، ثم يعقب ذلك ضمير الجمع الدال على حال كل من هذا حاله، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾[البقرة:٨١]، فأخبر الله عن حال الفرد المكلف فأفرد الضمير، ليرتدع كل من هذا نهجه، ثم جاء الضمير جمعا ليبين هوان هذا الجمع، وأن جمعهم في النار خالد، لا حول له ولا قوة. وهذا النهج أبرز صورتين؛ صورة المسيء المفرد، وصورة جمعهم في النار، ليعي الحالين فيرتدع، ولا يقتدي بضال النار مآله، مهما كثر جمعه، وهذا من أبلغ أساليب الردع والزجر.

وأتى ضمير الجمع عائدا إلى الواحد - سبحانه - على لسان المستغيث بربه، فقال الله عنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون:٩٩] فواو الجماعة يصف حال المستغيث الذي نادى ربه تعظيما ليحقق بغيته، وقد يحتمل واو

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧٩/١).

الجماعة معنى آخر يدل على أن المستغيث نادى ربه واستغاث بكل من يتوقع منه الإغاثة مما بلغ به من الضنك والشدة، التي أفقدته التركيز فنادى ربه واستغاث بغيره.

وقد أجاب أهل اللغة والمفسرون عن هذا الجمع العائد إلى مفرد في الظاهر من عدة أوجه[1]:

الأول: وهو أن ضمير الجمع عائد إلى المخاطب الواحد -سبحانه وتعالى- لغرض التعظيم، قال به ابن فارس[2]، والثعالبي[3]، والثعلبي في تفسيره[4]، والألوسي[5] .

الثاني: أن النداء استغاثة بالرب، وقوله: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ خطاب للملائكة، رواه الثعلبي عن بعضهم[6]، وذكر الألوسي جواز ذلك، ونقل قول من قال: إن الكلام على تقدير مضاف، أي يا ملائكة ربي، ارجعوني[7].

الثالث: أنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعني، ارجعني، ارجعني، عزاه الألوسي للمازني[8].وأجاز البقاعي جميع الأوجه الثلاثة[9].

وقد علل الطبري هذ التحول بقوله:" وقيل: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، فابتدأ الكلام بخطاب الله تعالى، ثم قيل: ﴿ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] ، فصار إلى

(١) ينظر: النكت في القرآن الكريم(ص: ٣٥٣) ، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١٧٦/١)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١٨٥/١٣)، وروح المعاني للألوسي (٢٦٢/٩).

(٢) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني(ص: ١٦٣)، .

(٣) ينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي (ص: ٢٢٧) .

(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٥٥/٧) .

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٦٢/٩) .

(٦) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٥٦/٧) .

(٧) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٦٢/٩) .

(٨) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٦٢/٩) .

(٩) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١٨٥/١٣).

خطاب الجماعة، والله -تعالى ذكره- واحد. وإنما فعل ذلك كذلك؛ لأن مسألة القوم الرد إلى الدنيا إنما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحهم، كما ذكر ابن جريج(١) أن النبي -ﷺ- قاله(٢). وإنما ابتدئ الكلام بخطاب الله جل ثناؤه؛ لأنهم استغاثوا به، ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع والرد إلى الدنيا"(٣).

وذكر الرازي الاختلافات في تأويل الجمع فقيل: الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع، وأصحاب هذا القول يجعلون ذكر الرب للقسم، أي: بحق الرب ارجعون، وقيل: إن الجمع لله تعظيما؛ لأن رب بمنزلة يا رب(٤).

وقد كثرت الآيات التي اشتملت على العدول في الضمائر التي تعود على (مَنْ) الموصولة، وكثر تعليل ذلك بأن الإفراد حمل على لفظ (من) الموصولة، وأن الجمع حمل على معناها(٥)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة:٨]، فأسند الفعل ﴿يَقُولُ﴾ إلى ضمير الواحد، ثم تلاه الفعل

---

(١) ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي المكي الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ الحرم، صاحب التصانيف، حدث عن: عطاء بن أبي رباح وغيره، توفي تقريبا سنة ١٥٠هـ ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، دار الرسالة (٦/٣٢٥-٣٣٤).

(٢) لعل الطبري يشير إلى حديث ذكره بعض المفسرين وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: "زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا؟ قال: إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلى الله تعالى وأما الكافر فيقولون له: نرجعك؟ فيقول: رب ارجعوني". ينظر: روح المعاني للألوسي (٩/٢٦٢)، واستأنس به الألوسي. وذكر الرازي الحديث كاملا في مفاتيح الغيب للرازي (٢٣/٢٩٤).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٧/١٠٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ،(٢٣/٢٩٣).

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/٣٨٢)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/٤٦٩)، وحاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية بن مالك (١/٢٢١)، والبحر المحيط لأبي حيان (٩/١٢٩).

المسند إلى ناء الفاعلين، وهذا ليس على سبيل التعظيم ولكن دلالة على القول الجماعي المتفق عليه، وإن جاء على لسان الواحد، ثم أعقب بضمير لجماعة الغائبين، وكان القياس أن توحد الضمائر أو تجمع، ولكن يجد الباحث في هذا العدول ملمسا بلاغيا، لا يستشف لو جاءت الضمائر على خلاف ما جاءت عليه في هذا السياق، فالآية تصور الواحد والجماعة، فبما أنّ الله بسعة علمه مطلع على جميع أحوال خلقه أفرادا وجماعات، وبما أن الشرع لا يحاسب أحدا بقول غيره، فقد أسند القول لضمير الواحد، وهذا منتهى العدل والحكمة، ثم يأتي قول هذا الواحد وكأنه مطلع على قلوب الآخرين، فيصرح بإيمانهم بقوله: آمنا، فهيأ ذلك لأن يأتي ضمير الجمع ﴿وَمَاهُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: وما هو بمؤمن؛ ليكشف الستار عن هذا القول الذي فقد البرهان، لأن الإيمان عمل قلبي ولا يعلم ما في قلوب الآخرين إلا الله؛ فأنى للواحد أن يحكم بإيمان الآخرين؟ وفي ضمير الجماعة بيان على أن هذا القول قول جماعي يأتي على ألسنة متفرقة، بعد أن اتفق عليه المنافقون. فهذا العدول رسم صورتين، صورة المنافقين فرادى وصورتهم جماعات، وعاقبة أمرهم، فتبين عوار منهجهم، وخسة طبعهم، لذلك قال: آمنا، ولم يقل: آمنت، لأنه يخفي اعتقاده، ويفصح عن اعتقاد غيره، فكيف حكم المتكلم على غيره بإسناد الفعل إلى ناء المتكلمين؟

قال بديع الزمان النورسي:" فإن قلت: لِمَ أفرد ﴿يَقُولُ﴾ وجمع ﴿ءَامَنَّا﴾ مع أن المرجع واحد؟ قيل لك: فيه إشارة إلى لطافة ظريفة هي: إظهار أن المتكلم مع الغير متكلم وحده فـ ﴿يَقُولُ﴾: للتلفظ وحده، و﴿ءَامَنَّا﴾ لأنه مع الغير في الحكم. ثم إن هذا حكاية عن دعواهم، ففي صورة الحكاية إشارة إلى رد المحكيّ بوجهين، كما أن في المحكيّ إشارة إلى قوته بجهتين؛ إذ ﴿يَقُولُ﴾ يرمز بمادته إلى أن قولهم ليس عن اعتقاد وفعل، بل يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. وبصيغته يومئ إلى أن سبب استمرار مدافعتهم وادعائهم مراءات الناس لامحرك وجداني. وفي الدعوى إيماء منهم بصيغة

الماضي إلى: إنّا معاشر أهل الكتاب قد آمنا قبل، فكيف لانؤمن الآن؟ وفي لفظ (نا) رمز منهم إلى: إنّا جماعة متحزبون لسنا كفرد يَكذِب أو يُكذَّب"[1].

ثم أردف النورسي أمرا آخر فقال:" فإن قلت: لِمَ لم يقل: وما آمنوا؛ الأشبه بآمنا؟ قيل لك: لئلا يُتوهم التناقض صورة، ولئلا يرجع التكذيب إلى نفس (آمنا) الظاهر إنشائيته المانعة من التكذيب. بل ليرجع النفي والتكذيب إلى الجملة الضمنية المستفادة من (آمنا)، وهي (فنحن مؤمنون). وأيضا ليدل باسمية الجملة على دوام نفي الإيمان عنهم"[2].

وقد تنبه القزويني من قبل إلى العدول من الفعل إلى الجملة الاسمية فقال:" وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، في جواب: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فلإخراج ذواتهم من جنس المؤمنين مبالغة في تكذيبهم، ولهذا أطلق قوله: مؤمنين، وأكد نفيه بالباء"[3].

وأضاف ابن عادل سببا في العدول عن الفعل إلى الجملة الاسمية التي ختمت بها الآية فذكر:" أنه عدل عن ذلك ليفيد أن الإيمان منتف عنهم في جميع الأوقات، فلو أتى به مطابقا لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، فقال: وما آمنوا؛ لكان يكون نفيا للإيمان في الزمن الماضي فقط، والمراد النفي مطلقا أي: أنهم ليسوا ملتبسين بشيء من الإيمان في وقت من الأوقات"[4].

أما ابن عاشور فقد ذكر تأويلا بليغا لذلك فقال: "وفي التعبير (بيقول) في مثل هذا المقام إيماء إلى أن ذلك غير مطابق للواقع؛ لأن الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلق

---

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز لبديع الزمان النورسي (ص: ٩٠).

(٢) المصدر نفسه(ص: ٩١).

(٣)الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١٣٤/٢).

(٤) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٣٢/١).

الغرض بذكر نصه وحكي بلفظ ﴿يَقُولُ﴾ أومأ ذلك إلى أنه غير مطابق لاعتقاده، أو أن المتكلم يكذبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾"(١).

ونظير الآية السالفة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت:١٠]. والمتتبع لفعل (آمنا) المسند إلى ضمير الفاعلين يجده في أغلب مواضعه جاء على ألسنة جماعة، ولم يأت على لسان الواحد إلا في ثلاثة مواطن، الموطنين السابقين وهما باطلان لأن فيهما تم إفصاح المتكلم عن إيمان غيره، ولا يعلم حقيقة إيمان الآخرين إلا الله وحده، فكشف بذلك بطلان قولهم.

أما الموضع الثالث فقد جاء أمرا من الله لنبيه -ﷺ- ومن أصدق من الله قيلا، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران:٨٤]، فإسناد الفعل إلى ناء الفاعلين جاء حقا؛ لأنه وحي من الله -سبحانه وتعالى- المطلع على السرائر، بخلاف ما وقع على لسان الإنسان الواحد المتحدث عن عقيدة غيره، من غير وحي من الله جلّ شأنه، بل قد أوحى الله إلى نبيه توجيه الأعراب عندما حكموا على أنفسهم بالإيمان فقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، فإذا كان هذا الحكم ردا على الجماعة المتحدثة عن نفسها، فكيف بالواحد الجازم بإيمان غيره؟ في بيئة تسلل النفاق إلى قلوب بعض المدعين أنهم من الصفوة.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٩/١).

وقد ينتقل من ياء المتكلم العائدة إلى الله -جل شأنه- المشعرة بالرأفة والرحمة، إلى ضمير المعظم نفسه على صيغة الجمع كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ ﴾ [العنكبوت:٥٦-٥٧]، فمرجع ضمير المتكلم والمعظم نفسه واحد، فالعباد عباده والأرض أرضه، وهم أولى بها من غيرهم، فتأتي ياء المتكلم لتصور هذه العناية الربانية، وما في الإضافة من دلالة القرب واللطف والحضور الذي تبرزه ياء النداء وتعاضدها ياء المتكلم، في زمن التكليف، ولكن هذا الضمير يتحول إلى جمع في موطن الحساب؛ لأنه موطن تكثر فيه صفات الرب فهو الرحمن الرحيم وهو شديد العقاب، يحكم بالعدل، فالضميران مرجعهما واحد لكن اختلف عددهما فجاء الإفراد في ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ و﴿أَرۡضِي﴾ وجاء ضمير الجمع في ﴿إِلَيۡنَا﴾ وهو ضمير المعظم نفسه في هذا اليوم العظيم، والمتعدد الأفعال، وتأتي ضمائر المعظم نفسه في القرآن: "ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه، ويراد بها الواحد المعظم نفسه، الذي يقوم مقام من معه غيره؛ لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى، فصار هذا متشابها؛ لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع"[1]. وفي هاتين الآيتين نجد أن كل ضمير ناسب المقام الذي سيق فيه، وتلكم هي البلاغة.

ومثل هذا العدول يظهر في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ

(١) الإكليل في المتشابه والتأويل، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤).

إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ فتصور الآيات حال أهل جهنم واستغاثتهم بالله، وإعراض الله عنهم وتوبيخه لهم، وتذكيرهم باستهزائهم بعباد الله؛ ليكون ذلك أبلغ في العذابين النفسي الذي هو ثمرة الحسرة، والجسدي الذي هو ظاهر عليهم، ولكن تظهر بعد الألفاظ مضافة إلى ياء المتكلم في الآيات المتعاقبة، ثم الانتقال إلى ناء المعظم نفسه مع كون المرجع لهذه الضمائر هو الله الواحد سبحانه، وهذه الكلمات هي: ﴿ءَايَٰتِي﴾ و﴿عِبَادِي﴾ و﴿ذِكْرِي﴾ و﴿إِنِّي﴾ مما يوحي بعظمة المضاف إلى ياء المتكلم العائدة إلى الله سبحانه، كما أن في ياء المتكلم إظهار اللطف، وتشريف أولئك العابدين بهذه الإضافة، فتعظيم عباد الله لهذه الآيات والذكر زادهم شرفا ورفعة وقربة من ربهم، فصورت ياء المتكلم ذلك أيما تصوير، ونال الخزي من صدّ وأعرض، لذلك يشتد الخطاب في حقهم، ويحضر ضمير المعظم نفسه – عدولا عن ياء المتكلم– ليصور فداحة الأمر وعظم الخطب فيأتي ضمير المعظم نفسه متصلا بكلمتي: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ و﴿إِلَيْنَا﴾، وتجدر الإشارة إلى ضمير: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ﴾ هذا الضمير الذي هو فاتحة جزاء عباد الله وما يتضمنه من لطف ورحمة بأولئك، وهو الأسلوب الذي عدل عنه في الآية التي تسبق ذلك: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ حيث يأتي الالتفات إلى ضمير الاسم الظاهر العائد إلى الله تصويرا لإعراض الله عنهم، فلم يقل: قلت؛ إبعادا لهم، وانصرافا عنهم، فيأتي بذلك كل أسلوب بليغ في موطنه، ومخالفة المألوف وما يقتضيه الظاهر أسهمت في رسم الصورتين المتضادتين، صورة الرحمة والجبروت.

وقد جاءت لفظة: (إلينا) في ثمانية مواطن، كلها تصور العظمة والجبروت بضميرها العائد إلى الله، والله واحد، لكن سياق الحديث يتحدث عن رجوع عامة الناس إليه مسلمهم وكافرهم، أو لأهل الكفر خاصة، فناسب تلك المواطن ضمير الجبروت والعظمة: وذلك في الآيات التالية: ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس:٧٠]، وقوله تعالى:﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القصص:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٥٧] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥].

بينما يجد الباحث أن لفظة (إليّ) العائد ضميرها إلى الله، ليصور الرجوع إليه بشفقة ورحمة، قد جاءت في أربعة مواطن كلها تتجلى فيها الشفقة والإحسان، الأولى: في حق نبي الله عيسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران:٥٥] والثلاث الآيات الأخرى عند الوصية بالبر بالوالدين، فجاء هذا الضمير مناسبا لهذا البر والإحسان -والله أعلم- قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان:١٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا

مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان:١٥].

وقد يأتي ضمير الإفراد ليصور القلة، ويأتي ضمير الجمع ليصور الكثرة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧]، فقد جاء الضميران (هو) و(هم) الأول مرجعه اسم الشرط في: ﴿وَمَن يَهْدِ﴾ والثاني مرجعه اسم الشرط في: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وهذا التلوين بين الضميرين يستدعي مزيد تأمل، ويكشف عنه أسلوب القرآن العام في تقليل الخير وتكثير الشر، وتقليل أهل الإيمان وتكثير أهل الفسق، من ذلك ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ ﴾ [المائدة:١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود:٤٠]، وقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقوله: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ:١٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ ﴾ [ص:٢٤]. فتبين بذلك أن هذين الضميرين قد توافقا على تصوير الحالين بما يتوافق مع معنى هذه الآيات من حيث القلة والكثرة.

ويضاف إلى ماسبق أن سبيل الهداية واحد وهو الصراط المستقيم، أما الضلال فله سبل كثيرة تفرّق ولا تجمع، وتبعد ولا تقرب، فوحد ضمير المهتدين لأن سبيلهم واحد، وجمع ضمير أهل الضلال لكثرة سبلهم، والله أعلم.

يقوي هذا ما روي عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ -ﷺ- فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ: هَذِهِ

سَبِيلُ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]"[١].

وهذا أسلوب له نظير في موضع آخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٨]. وذكر الزمخشري أن هذا التغاير بين الضمائر في هذه الآية سببه أن الأول حمل على اللفظ، والثاني حمل على المعنى[٢].

وقد أرجع أبوحيان هذا التغاير للحمل على اللفظ في الموضع الأول، والحمل على المعنى في الموضع الثاني، وحسّن الأخير كونه فاصلة رأس الآية، فقال:" ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾، حمل على لفظ مَنْ، و﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، حمل على معنى مَنْ، وحسّنه كونه فاصلة رأس آية"[٣].

إلا أنه علق على الآية السالفة من سورة الإسراء فقال:"وحمل على اللفظ في قوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾؛ فأفرد ملاحظة لسبيل الهدى وهي واحدة، فناسب التوحيد، وحمل على المعنى في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ لا على اللفظ ملاحظة لسبيل الضلال، فإنها متشعبة متعددة، فناسب التشعيب والتعديد الجمع"[٤].

---

(١) مسند الإمام أحمد، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (٤١٧/٢٣-٤١٨) رقم الحديث: ١٥٢٧٧. وحُكم عليه في الحاشية أنه حسن لغيره. وينظر: سنن ابن ماجة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (٦/١) رقم الحديث: ١١، وذيل له بعبارة "قال الشيخ الألباني: صحيح".

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٧٩/٢).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٢٢٧/٥).

(٤) المصدر(١١٥/٧).

وذهب صاحب التحرير والتنوير في توجيه الضميرين في الآية السالفة من سورة الأعراف إلى ما ذهب إليه أبوحيان في الآية نفسها، من الحمل على اللفظ في الأولى، والحمل على المعنى في الثانية لرعاية الفاصلة، وأنّ (مَنْ) الأولى ليست بمفردة؛ لدلالة (مَنْ) الثانية على الجمع(1).

وإن كان الأغلب في آيات القرآن إفراد الضمير بعد ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾(2)، وقد ورد ذلك في عشرة مواطن، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف:17]، ولعل في الإفراد في مثل هذا الموضع بلاغة تُظهر حفظ الله لمن هداه، فلا يستطيع الخلق على إضلاله، وأفرد الضمير في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ﴾ لأن الإفراد في نفي الولاية عن الواحد، فمن عجز عن هداية الواحد فأنى له أن يهدي غير الواحد، فلذلك - والله أعلم - لم يقل: فلن تجد لهم.

وبذلك يرى الباحث أن جمع الضمير بعد﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ في موضعين هو إشارة إلى كثرتهم، وأما المواضع العشرة التي جاء الضمير بعد﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ مفردا

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (357/8).

(2) وذلك في الآيات الآتية التي يقول الله فيها: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88)﴾ [النساء:88]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)﴾ [النساء:143]، وقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ﴾ [الأعراف:186]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)﴾ [الرعد:33]، وقوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (17)﴾[الكهف:17]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)﴾ [الزمر:23]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)﴾ [الزمر:36]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)﴾ [غافر:33]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ [الشورى:44]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:46].

ليبين أن كثرتهم إلى هوان، وأن الواحد منهم لن يستطيع أحد من الخلق أن يكون له وليا، فإذا نفيت عن الواحد فهي عن غير الواحد أنفى، فأحاط بهم الضلال جماعة وأفرادا.

ويقوي هذا؛ الحديث الذي رواه حَنَشٌ الصَّنْعَانِيُّ(1)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-:"... وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ..." (2).

ويكثر توحيد ضمير المكلف في الدنيا لما في الإفراد من إلزام كل فرد بما أمر به، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف:٥-٦]. فيلاحظ أن الآية صورت مشهدا في الدنيا مستهلا باستفهام إنكاري، وجاء ضمير الإفراد بليغا في هذا المشهد، ومشهد يوم القيامة يجمع كل مشاهد الدنيا فجاء ضمير الجمع بليغا في هذا الموطن. وذلك أن ضمير الإفراد الذي أسند إليه الفعلان (يدعو ويستجيب) قد صور لنا مشهد من مشاهد عبادة غيره، فحقر شأنها وجعلها من أضل الضلال، فالصورة الأولى صورة داع ومدعو من دون الله، وهي صورة فردية دنيوية، صالحة لكل من نهج هذا المنهج، وتحمل معنى إحاطة الله بفعل كل فاعل، ثم ينتقل الضمير إلى الجمع؛ بعد أن بين حالة الداعي الواحد والمدعو الواحد، فيكشف غفلة المعبودين عن دعوة من عبدهم، فأثبت بالضميرين العجز

(1) حنش الصنعاني: هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة السبئيّ الصنعانيّ: تابعيّ، شجاع، من القادة، كان من أصحاب علي وشهد معه الوقائع، غزا الأندلس مع موسى بن نصير، ابتنى جامع سرقسطة بالأندلس، وأسس جامع قرطبة، وتوفي بسرقسطة سنة ١٠٠هـ. ينظر الأعلام للزركلي (٢/٢٨٥-٢٨٦).

(2) مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (٤/٤٠٩-٤١٠)، رقم الحديث: ٢٦٦٩. وحكم عليه في الحاشية أن إسناده قوي.

لأفرادهم وجماعاتهم، فضمير الجمع العائد على المعبودين، وفيهم العاقل وغير العاقل، بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ يحمل بلاغة عظيمة منها بيان عجزهم وغفلتهم حال جمعهم وتذكيرهم، وحال كونهم عقلاء، فكيف بحالهم وهم أفراد أو غير عقلاء، لا شك أنهم أضعف من أن يتعلق بهم من دون الله القوي المتين.

ثم تعود الآية إلى الانتقال من ضمير الداعي الواحد إلى ضمير كل من دعا أحدا سوى الله فيقول: ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ فبين خسارة جمعهم في الدنيا قبل الآخرة لغفلة المدعوين عنهم، وينتقل من مشهدهم في الدنيا إلى مشهدهم يوم الحشر فيأتي ضمير الجمع في قوله: ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ منتقلا إلى جميع صور العابدين، والمعبودين من دون الله، مفيدا التعميم، وأن الثمرة مرة، فالمعبودون كفروا بمن دعاهم من دون الله، وأصبحوا لهم أعداء، فأين نفعهم المرجو في أحلك ظرف؟ وبذلك يتبين بلاغة ضمير المفرد في الدنيا؛ لأنه أبلغ في التحذير، وأنسب لردع الفرد من أن ينساق في ركاب المشركين، ولأن الأفراد تختلف أزمانهم وأماكنهم، أما في الآخرة فالناس قد جمعوا، فأصبح الحكم على الكل، فلذلك جاء الجمع، والله أعلم.

وقد أرجع كثير من المفسرين الجمع فيهما إلى اعتبار معنى مَنْ، كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها، ذكره أبو حيان[(١)]، وابن عادل[(٢)] والألوسي[(٣)].

وذكر الزمخشري توجيها لاسم الموصول (مَنْ) وللضمير(هم) فقال :" وإنما قيل مَنْ، وهُمْ؛ لأنه أسند إليهم[(٤)] ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة؛ ولأنهم

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤٣٣/٩).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٨٠/١٧).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٦٥/١٣).

(٤) الضمير يعود إلى الأصنام.

كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة. ويجوز أن يريد: كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان ..."[1].

ويحسن ذكر ما قاله ابن عادل من إشارات تفسيرية أوجزت ما بسطه بعض المفسرين، فقال:" قوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ﴾ يجوز أن يكون الضميران عائدين على مَنْ في قوله: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ﴾ وهم الأصنام ويوقع عليهم من معاملتهم إياها معاملة العقلاء؛ ولأنه أراد جميع من عبد من دون الله وغلب العقلاء، ويكون قد راعى معنى مَنْ فلذلك جمع في قوله: ﴿وَهُمۡ﴾ بعدما راعى لفظها فأفرد في قوله: يستجيب وقيل: يعود على مَنْ في قوله: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ ﴾ وحمل أولا: على لفظها، فأفرد في قوله: ﴿يَدۡعُواْ ﴾، وثانيا: على معناها فجمع في قوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾"[2].

وإن كان الأصل في ضمير المخاطب أن يأتي للمعَين المشاهِد فإنه قد يأتي لغير معين ثم ينتقل منه إلى ضمير المخاطبين[3]، وذلك إذا اتسعت دائرة الخطاب فأفادت التعميم، ويأتي ذلك في أمر يهم كل أحد، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ ﴾[الإسراء:٢٣-٢٥]،، فالملاحظ في الآية أنها بدأت بضمير مخاطب واحد، ولا يصلح أن يكون هذا الخطاب للنبي -ﷺ- لأنه فقد أباه وهو في بطن أمه، وفقد أمه في طفولته، وهذه الحال لا تتوافق مع القرينة اللفظية في قوله: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾ لكن الخطاب جاء للواحد ليكون

(١) الكشاف للزمخشري (٢٩٥/٤).

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٨٠/١٧).

(٣) ينظر آخر البحث حيث ذكرت آيات المخاطب فيها غير معين (ص:٦٣٥) .

ذلك أوجب على كل أحد، بخلاف الأمر الذي يوجه للجماعة، فقد يكفي بفعله بعض أفراد الجماعة وقد لا يكفي، بعكس خطاب الواحد بالأمر فهو يجعل القيام به واجبا على كل عين من غير احتمال آخر، لذلك جاءت ضمائر الإفراد في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ و﴿عِندَكَ﴾ و﴿فَلَا تَقُل﴾ و﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ و﴿وَقُل﴾ و ﴿وَٱخْفِضْ﴾ و﴿وَقُل﴾ و﴿رَبَّيَانِي﴾، بينما يجد الباحث أن الضمير انتقل من المفرد المخاطب إلى ضميرين للجمع أحدهما في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أما الآخر فهو انتقال إلى ضمير المخاطبين، وذلك في قوله: ﴿رَّبُّكُمْ﴾ و﴿نُفُوسِكُمْ﴾ و﴿تَكُونُواْ﴾ وضمائر الجمع هنا ضمائر مفسرة لضمائر الإفراد، وأن الأمر للكل جاء خطابا للمفرد غير المعين للإلزام المؤكد، وأريد به التعميم لمكانة الأبوين واستحقاقهما البر، وإن كانا غير مسلمين، بل وإن كانا يجاهدان ابنهما ليشرك بالله، فلهم الطاعة في غير معصية الله كما في آية سورة العنكبوت[1]، فما أعظم العدل، فصدهم عن الله لم يجعل الله يسقط حقهما سبحانه وتعالى.

وذكر الجرجاني سببا لنزول هذه الآيات فقال:" نزلت في سعد بن أبي وقاص، كان قد أسلم وله أم مشركة تشتمه وتطرده عن بيتها، ويعود عليها بالجميل أخرى"[2].

ووجه ابن عاشور الضمير وسبب إفراده بقوله:" والخطاب لغير معين، فيعم كل مخاطب بقرينة العطف على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وليس خطابا للنبي -ﷺ- إذ لم يكن له أبوان يومئذ. وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع لأنه خطاب يختص بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾فكان الإفراد أنسب

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٨].

(٢) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (١١٠١/٣).

به، وإن كان الإفراد والجمع سواء في المقصود؛ لأن خطاب غير المعين يساوي خطاب الجمع"(١).

ثم قال رحمه الله:"والخطاب ب﴿ عِندَكَ ﴾لكل من يصلح لسماع الكلام، فيعم كل مخاطب بقرينة سبق قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقوله اللاحق: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾"(٢).

وقد ذكر ابن عاشور توجيها في تغير الأسلوب من ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع فقال:"وغيّر أسلوب الضمير فعاد إلى ضمير جمع المخاطبين لأن هذا يشترك فيه الناس كلهم، فضمير الجمع أنسب به"(٣).

ويرى الباحث أن التغيير جاء لأغراض أوسع، ومنها أن ضمير الجمع هنا يفسر ضمير الإفراد في صدر الآية؛ ليدل على أن ضمير الإفراد لغير المعين تعميم كضمير الجمع؛ ولأن سعة علم الله يناسبها التعبير بكثرة المعلومين، وضمير الجمع العائد على المعلومين يدل على سعة علمه –سبحانه– وضمير المخاطب قوّى معنى المشاهدة التي هي من دواعي العلم بالشيء المشاهد.

ومن يتتبع أفعال الآيات التي تعقب ما سبق يجدها تتنقل بين ضمائر المخاطب المفردة، وبين ضمائر المخاطبين، ولا شك أن وراء هذا الاختيار أغراضا بلاغية، فمن الأوامر التي خوطب بها الجماعة، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ [الإسراء:٣١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الإسراء:٣٣] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤/٥٥-٥٦).

(٢) المصدر نفسه(١٤/٥٦).

(٣) المصدر(١٤/٦١).

[الإسراء:٣٤] ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء:٣٥] فقد عدل من الإفراد إلى الجمع على صيغة المخاطب في كلٍ لئلا يتوهم متوهم أن ضمائر الإفراد لو جاءت في هذه الأفعال يقصد بها النبي-ﷺ- فترك الإفراد إجلالا للنبي-ﷺ- وتنزيها له، فهذه الأفعال لا تصدر ممن قال الله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم:٤]، وفيها تعريض بمن تصدر منهم هذه الأفعال، فجاء الأمر بتكاليف تصْلح أحوال المجتمع الاجتماعية، أما إفراد الضمير للمخاطب في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢ ﴾ [الإسراء:٢٢]، ليشمل الخطاب النبي -ﷺ- وأمته، وسائر الناس، تعظيما الله سبحانه، ولأن من أشرك بالله فقد حبط عمله كائنا من كان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ ﴾ [الزمر:٦٥].

ولقد ذكر ابن عاشور غرضا للانتقال من ضمير المفرد إلى ضمير الجمع والعكس في آيات سورة الإسراء من الآية [الإسراء:٢٣-٣٩]، وكأنه أراد تعميمه لكثرة هذا الانتقال فقال:"والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ ﴾ [الإسراء:٢٥]، الآية إلى الخطاب بالإفراد بقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الإسراء:٢٦]، تفنن لتجنب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدة مرات، والمخاطب غير معين فهو في معنى الجمع"[(١)].

ويأتي الانتقال من ضمير المفرد الغائب إلى ضمير الجماعة الغائبين، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ ﴾ [البقرة:١٧]، فجمع ضمير﴿ بِنُورِهِمْ ﴾ إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر إذ مقتضى الظاهر أن يقول ذهب الله بنوره وتركه، كما ذكر ابن

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٢/١٤).

عاشور[1]، ولعل هذا المفرد هو النبي -ﷺ- فهو الذي أضاء الله به ما حوله، فجاء الضمير المفرد في هذه الآية وهو المسند إليه الفعل: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ ثم الضمير في قوله: ﴿حَوْلَهُۥ﴾ ومرجع هذين الضميرين هو الاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِى﴾ وضمير المفرد يناسب الأفعال التي أسندت إليه في الواقع، فالإفراد ناسب مستوقد النار؛ لأن الذي يشعل النار في الأغلب واحد، لا يشاركه بذلك أحد، فإذا أضاءت اجتمع رفاقه حولها، ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ مهد لذكر الجماعة، فجاء ضميرهم في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ فأضيف النور للجماعة للملابسة واستفادتهم منه بوقت محدود، ولم يقل: بنوره، لأن النور يعم وليس حكرا على صاحبه، ومجيء الجمع دليل على أن ذهاب النور خاص بفئة معينة، ليس منهم المفرد الذي أضاء النار؛ لأن صورة هذا الواحد الذي استوقد النار وأضاء للآخرين هي صورة رمزية تناسب شخصية واحدة هي شخصية النبي ﷺ -كما سبق وسيأتي الدليل- الذي نال النور بوحي من الله تعالى، فعدل عن ضمير الإفراد تنزيها وإجلالا، وتحرزا من لبس، فنوره باق، وإن سلب من تلك الفئة، ثم صورة النار التي فيها منافع ومن منافعها الإضاءة، ودلالة نورها على نارها لاتقائها، لكن الآية سلبت النور منهم، وأبقت النار من غير علامة، فكان وقوعهم فيها محتملا، لذلك قال الله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بنارهم، والله أعلم، ولم يقل: بضوئهم بعد قوله: أضاءت"لأن النور أعم من الضوء، إذ يقال على القليل والكثير، وإنما يقال الضوء على النور الكثير"[2].

وهذا فيه معنى أن حظوظ الناس في الإفادة من هذا النور، أو عدم الانتفاع به متفاوته، ولذلك فلفظة النور لكونها تصدق على الكثير والقليل هي الأنسب في الاستعمال.

(١) ينظر: المصدر نفسه(١/ ٣٠٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٣/ ٤٠٢).

ومن هنا يستطيع الباحث أن يحصر الأصناف التي ذكرها الله في صدر سورة البقرة قبل هذا المثل؛ وهم المؤمنون ووصفهم بالمتقين، والكافرون وقد صرح بذكرهم، والمنافقون وقد ذكر صفاتهم؛ ثم أعقب وصفهم بهذا المثل، فهو مضروب لهم؛ لأنهم دخلوا في الدين ظاهرا وخرجوا منه باطنا وعلى ذلك فإن الضمائر كالآتي:

ضمير الإفراد الذي أسند إليه الفعل: استوقد: هو للنبي -ﷺ- يدل على ذلك -والله أعلم- الحديث المروي عن أبي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: " إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ؛ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا"[(1)].

ويعزز هذا القول كونه -ﷺ- شُبه بالصيب في الآية الثانية بقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:١٩]، يؤيد هذا الحديث الذي رواه أَبو مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ:" مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ..." الحديث[(2)].

أما ضمير الإفراد في قوله: ﴿حَوْلَهُۥ﴾ فهو عائد إلى النبي -ﷺ- والذين حوله هم المؤمنون فنوره ونورهم باق، والذي ذهب بالنور هو الله، وهوالقائل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤]، وهم الذين جاء ذكرهم في أول السورة فقال تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (ص: ١٦١٣) رقم الحديث: ٦٤٨٣. وينظر: صحيح مسلم،كتاب: الفضائل،باب:شفقته ﷺ على أمته (٤/١٧٨٩) رقم الحديث: ٢٢٨٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، بَاب فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ،(ص:٣٢) رقم الحديث: ٧٩. وينظر: صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه و سلم من الهدى والعلم (٤/ ١٧٨٧) رقم الحديث: ٢٢٨٢.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢]، أما ضمائر الجمع فهي للمنافقين الذين سلب نورهم، والله أعلم.

وللعلماء بذلك أقوال منها ما يقوي ما ذهب إليه الباحث، ومن ذلك: ما جعله الفراء تعليلا لجمع الضمير بقوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ فقال: "لأن المعنى ذهب إلى المنافقين فجمع لذلك، ولو وحد لكان صوابا"(١).

ورجح الجرجاني كون الآية نزلت في المنافقين الذين أخلصوا ثم ارتابوا، وأن قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ في المنافقين دون المستوقد، وروى قولا يذكر أن الضمير عائد إلى المستوقد وأصحابه(٢).

ولدى الزمخشري تأويلات لذلك؛ فقال: " فإن قلت: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ قلت: وضع (الذي) موضع (الذين)، كقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾(٣) والذي سوغ وضع (الذي) موضع (الذين)، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران:

أحدهما: أن (الذي) لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة، وتكاثر وقوعه في كلامهم، ولكونه مستطالا بصلته، حقيق بالتخفيف، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين.

والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون. وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة. ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع، والواحد فيهن واحد. أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد نارا. على أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد؛ إنما شبهت قصتهم بقصة

(١) معاني القرآن للفراء(١/١٥).
(٢) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (١/١١٣-١١٤).
(٣) [التوبة:٦٩].

المستوقد. ونحوه قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة:٥] ، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد:٢٠] "(١).

مع أن الزمخشري في موضع آخر أول ما بدأ قوله به عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ بتأويلين: الأول: أي كالخوض الذي خاضوه، والثاني: كالفوج الذي خاضوا(٢)، وبهذين التأولين يتبين أن الاسم الموصول جاء في محله، لا كما ذكر الزمخشري في رأيه الذي سبق هذا.

وقد ذكر ابن عادل أن (الذي) في الآية هو موصول للمفرد المذكر، ولكن المراد به - هنا – جمع؛ ولذلك روعي معناه في قوله: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ فأعاد الضمير عليه جمعا، والأولى أن يقال: إن (الذي) وقع وصفا لشيء يفهم الجمع، ثم حذف ذلك الموصوف للدلالة عليه.والتقدير: ومثلهم كمثل الفريق الذي استوقد، أو الجمع الذي استوقد؛ ويكون قد روعي الوصف مرة، فعاد الضمير عليه مفردا في قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ و﴿ حَوْلَهُۥ ﴾، والموصوف أخرى فعاد الضمير عليه مجموعا في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَتَرَكَهُمْ ﴾ (٣) .

أما الألوسي فقد ذهب إلى بعض ما ذهب إليه الزمخشري فقال:" و(الذي) وضع موضع (الذين) إن كان ضمير بنورهم راجعا إليه، وإلا فهو باق على ظاهره، إذ لا ضير في تشبيه حال الجماعة بحال الواحد، وجاز هنا وضع المفرد موضع الجمع، وقد منعه الجمهور، فلم يجوزوا إقامة القائم مقام القائمين؛ لأن هذا مخالف لغيره؛ لخصوصية

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/٧٢-٧٣).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٢/٢٨٨).

(٣) ينظر:اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١/٣٧٢)،و الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (١/١٥٦).

اقتضته، فإنه إنما وضع ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجمل، فلما لم يقصد لذاته توسعوا فيه، ولأنه مع صلته كشيء واحد "(١).

ولكن الباحث يخرج من هذه الآية بالقول إن ضمير الإفراد عائد إلى النبي -ﷺ- بصورته الرمزية، وضمير الجمع عائد إلى الذين لم ينتفعوا بنوره، للأدلة الصحيحة التي سبق إيرادها.

ويعود ضمير الجمع والمذكور واحد له أتباع على سبيل الإيجاز، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:٨٠]، ثم رد عليه قومه: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف:٨٢]، فلم يقولوا: أخرجوه وهو المتكلم، ولم يحدث حوار أو جدال بينهم وبين من اتبع لوطا، لكن ضمير الجمع جاء ليكشف حنقهم وغيظهم على لوط وأتباعه، فالضمير لم يقتصر على لوط لنعلم أن هناك أتباعا للوط يشملهم الإخراج، وهذا الضمير أضاف أسلوبا فيه من الإيجاز ما فيه، وعُلم أنهم قصدوا لوطا ومن آمن معه بقرينة قولهم: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف:٨٣] لكن الباحث يستشف من قولهم: أخرجوهم مدى ما وصلت إليه نفوسهم من الغضب الذي جعل الأمر بالإخراج لا يقتصر على لوط - عليه السلام- الذي دعاهم؛ ولكن تجاوزه ليشمل حتى أتباعه نكاية بالجميع؛ وجاء العطف بالواو في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ للسرعة المصورة حالتهم النفسية ومدى ما وصل بهم الغيظ، كما ألمح أبو حيان إلى ذلك(٢)، ولعل سبب غيظهم همزة الاستفهام التي جاءت لغرض الإنكار والتي استفتح بها لوط، ثم أعقبوا جوابهم بالجملة الخبرية ﴿ إِنَّهُمْ

(١) روح المعاني للألوسي (١٦٦/١).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٠١/٥).

﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ التي خرجت عن غرضها الحقيقي إلى غرض السخرية كما أشار الرازي إلى هذا الغرض(1).

فهذا الجو النفسي المتلاطم بأمواج الغيظ هيأ مجيء الضمير في قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ فلم يخصوا الآل، ولا الأهل؛ ليوسعوا دائرة الإخراج على كل تابع متطهر بقرينة: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فلم يخرجوه وحده؛ ليؤذوه مرتين؛ مرة بنفسه، ومرة بأتباعه المتطهرين، ويرى ابن عاشور أن هذا الضمير عائد على محذوف علم من السياق، وهم لوط -عليه السلام- وأهله(2).

بينما تأتي الآية المشابهة لهذه الآية بأسلوب آخر، وذلك أن قوم شعيب عندما أمروا بإخراج شعيب صرحوا بذكره، وذكر من آمن معه، ولم يكتفوا بضمير جمع يعود إلى شعيب فقال الله في خبرهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

وقد ذكر الطبري أن ضمير الجمع جاء ولم يذكر إلا لوط ليشمل لوطا وأهله، أو لوطا ومن كان على دينه من القرية، فاكتفى بذكر لوط في أول الكلام عن ذكر أتباعه، ثم جمع في آخر الكلام(3).والأهل هم الأتباع وغير المتبع ليس من الأهل لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، فخرجت بذلك امرأة لوط -عليه السلام- وهلكت مع الهالكين.

وآية سورة النمل تفسر المقصود بآية الأعراف، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦]، فالحوار بين لوط -عليه السلام- وقومه، ولم يجر ذكر لأتباعه،

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٤/٣١١).

(2) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨/١٨٢).

(3) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/٣٠٦).

لكن المدعوين أمروا بإخراج آل لوط الذين ليسوا طرفا في الحوار، ولم يخصوا لوطا – عليه السلام – الذي هو طرف في الحوار، بل قالوا كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ فالضمير الذي في قوله: ﴿ أَخۡرِجُوهُم ﴾ من آية سورة الأعراف، يفسره التصريح في آية سورة النمل في قوله: ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ ﴾ وسورة النمل نزلت قبل سورة الأعراف، فأضمر في الثانية ما صرح به في الأولى، كما ذكر ذلك أبو حيان(1)، ولعل ذلك من باب الإيجاز، ولأن القرآن يفسر بعضه بعضا، فيفصل في موضع ما أجمل في موضع، ويجمل في موضع ما فصل في موضع.

ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس:٨٣]. ويلاحظ في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَلَإِيْهِمۡ ﴾(2) والأقرب أن الضمير عائد على فرعون(3) ويقوي هذا القول أن قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمۡ ﴾ لم ترد إلا في هذا الموضوع بعد ذكر فرعون مباشرة، أما في المواضع الأخرى فترد لفظة: ﴿ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وذلك في ست سور(4)كلها عائدة على فرعون.

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٠١/٥).

(٢) ينظر: مبحث عود ضمير المفرد على الجمع عند تناوله للإفراد في قوله: يفتنهم، (ص: ١٢١- ١٢٢).

(٣) ومن المفسرين من يرى أن الضمير عائد إلى الذرية كابن عطية الأندلسي، ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٣٦/٣).

(٤) معاني القرآن للفراء(٢/ ٣٩٠-٣٩١).

وقد وقف الزمخشري على مرجع الضمير وتأويل ذلك فقال: "فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾؟ قلت: إلى فرعون، بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر. أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية"(١).

ويوجه الفراء مثل هذا التنوع في الأسلوب فيشير إلى أن ذلك من سعة اللغة ويقول:"أن يذهب بالرئيس: النبي والأمير وشبهه إلى الجمع لجنوده وأتباعه، وإلى التوحيد لأنه واحد في الأصل"(٢).

وبذلك يكون ضمير الجمع في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ قد عاد على مفرد، وهذا على سبيل المجاز المرسل؛ لأن فرعون له حاشية وجنود وملأ ويكتفى بذكره ويراد ذكر من معه، فبذلك كانت علاقة المجاز المرسل الكلية حيث ذكرهم وأراد فرعون، وفي ذلك من الإيجاز البليغ ما ليس في التفصيل.

يقول الفراء:" وإنما قال ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر بخوف أو بسفر أو قدوم من سفر ذهب الوهم إليه وإلى من معه، ألا ترى أنك تقول: قدم الخليفة

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣٦٣/٢).

(٢)﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٣]، وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس:٧٥]، وقوله: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [هود:٩٧]، وقوله: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٦]، وقوله: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٣٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزخرف:٤٦].

فكثر الناس، تريد: بمن معه، وقدِم فغلت الأسعار؛ لأنك تنوي بقدومه قدوم من معه. وقد يكون أن تريد بفرعون آل فرعون وتحذف الآل"[(١)].

وقد جمع النحاس أقولا لتوجيه ذلك فقال:" على خوف من فرعون وملائهم ولم يقل: وملائه ففي هذا ستة أجوبة: منها أن فرعون لما كان جبارا خبر عنه بفعل الجميع، ومنها أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره؛ فعاد الضمير عليه وعليهم، وهذا أحد جوابي الفراء. ومنها أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود، وجواب الفراء الآخر أن يكون التقدير على خوف من آل فرعون مثل وسأل القرية. وهذا الجواب على مذهب الخليل وسيبويه خطأ، لا يجوز عندهما: قامت هند وأنت تريد غلامها. والجواب الخامس: مذهب الأخفش سعيد[(٢)] أن يكون الضمير يعود على الذرية، أي: وملأ الذرية. والجواب السادس: كأنه أبينها يكون الضمير يعود على قومه أن يفتنهم"[(٣)].

غير أن الرازي قال الجمع للتعظيم، أو من باب حذف المضاف آل أي: آل فرعون[(٤)] وإلى قول الرازي يذهب الألوسي، ويوجه القول بالتعظيم بأنه من تنزيله منزلة المتعدد، ويشير من طرف خفي إلى أن هذا التعظيم هو زيادة في مدح المؤمنين مع عظم خوفهم من فرعون وبطشه[(٥)].

ويأتي ضمير الجمع عائدا إلى فرعون الذي عبر الله عنه بلفظ (عدو) فقال تعالى: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

---

(١) معاني القرآن للفراء(١/٤٧٦-٤٧٧).

(٢) الأخفش سعيد: هو سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط، وهو أحد الأخافش الثلاثة المشهورين، كان مولى بني مجاشع. سكن البصرة، وقرأ النحو على سيبويه، قال المبرد: وهو أحفظ من أخذ عنه، وكان معتزليا، روى عنه أبو حاتم السجستاني، وصنف: الأوساط في النحو، معاني القرآن، المقاييس في النحو، والأصوات، وغير ذلك، توفي: سنة ٢١٠، ٢١٥، أو ٢٢١هـ. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١/٥٩٠-٥٩١).

(٣) إعراب القران للنحاس (٢/١٥٥).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٧/٢٨٩) .

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٦/١٥٨).

مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه: ٣٩-٤٠]، فالملاحظ أن ضمير الجمع في قوله: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ عائد إلى الآخذ الذي قال الله في وصفه: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ والعدو هو فرعون، وتصدق كلمة عدو وصفا للواحد والاثنين والأكثر لأنها مصدر، كما ذكر ذلك ابن قتيبة واستشهد له بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤][(١)]، وإن كان ظاهر المعنى أن المخاطب واحد؛ فإن موضعين من القرآن الكريم يبينان المخاطب في صيغة الجمع بقوله: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ وذلك في السورة نفسها في قوله: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ [طه:٤٠]، وفي سورة القصص حيث قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص:٨]، ثم ذكر الله قول أخته لما عرفته قالت: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص:١٢]، فتبين بذلك أن ضمير الجمع جاء عائدا إلى مستحضر بالذهن، ورد التصريح به في سورة القصص وهم ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ وكني عنه في سورة طه، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا، فانتقل من ضمير المفرد إلى ضمير الجمع من غير ذكر الآل طلبا للإيجاز وسيرا على التفنن بالأساليب، وتحقيرا لأمر فرعون وكيده الذي سينجي الله موسى - عليه السلام – منه، بل ويسخِّر فرعون له مربيا، وسورة طه نزلت قبل القصص[(٢)]، ولكن القرآن يتنوع أسلوبه فتارة يجمل ثم يفصل، وفي مواضع يفصل ثم يجمل في مواقع أخر، كما أن هذا التفصيل ناسب وجوده

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٧٤).

(٢) الفهرست لابن النديم(ص: ٤٢).

في سورة القصص لأنها بدأت بنبأ موسى -عليه السلام- وفرعون ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [القصص:٣]، فذكرت صورا من إفساد فرعون، ثم تناولت السورة بالتفصيل وحي الله لأم موسى، وحادثة إلقائها موسى في اليم وما تبعها، ثم حادثة قتل موسى للرجل وهروبه، ثم الأحداث التي وقعت على ماء مدين وما تبعها من عقد الرعي ثم الزواج، ثم الوحي وإرساله إلى فرعون وما جرى في ذلك، ثم اختتمت بقصة قارون، فخطاب للنبي ﷺ. فهذا التنوع والتفصيل لم يرد إلا في هذه السورة، فلذلك أصبح من المناسب التصريح بمن التقط موسى -عليه السلام- فقال الله: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ لأن التفصيل يقتضيه السياق ونهج السورة، بينما لا يجد الباحث هذا في سورة طه، بل يجد الإيجاز في قوله: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾؛ لأنها صدرت بخطاب للنبي محمد -ﷺ- واختتمت بخطاب له أيضا، وجاء في ثناياها قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل، وقصة آدم وإبليس بإيجاز، مقارنة بسورة القصص التي اقتصرت على ما ذكر من موضوعات مفصلة ذات وحدة موضوعية، ومن مواضع التفصيل في نفس الآية من سورة القصص ذكرها البيت منكّرا لتبعد الشبهة عن أن تكون في البيت أمه(١) فجاء قوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ ﴾ مع ما فيه من تحديد يوحي بالتفصيل، أما الإيجاز فجاء في سورة طه بقوله: ﴿ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ من غير تحديد، وتلك ظاهرة، والله أعلم.

وقد تتسع دلالة ضمير الجماعة في قوله: ﴿ أَدُلُّكُمْ ﴾ فيصور مشهد الباحثين عن المرضعات، والمرضعات الآتي رفض موسى – عليه السلام – الرضاع منهن، يدل على ذلك القرينة اللفظية﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ حيث وزن الكثرة مفاعل، مما يسهم في تجسيد صورة البحث السريع وبجهات متباينة عن المراضع، وامتناع موسى عن ذلك،

(١) ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١/٤٠٢).

والخطر الذي يهدد حياة الصغير، فيأتي الحل كالبشارة التي سرّ بها فرعون؛ ليتحقق الوعد.

وقد يأتي ضمير الجمع ليشاكل ما قبله، وأغراض بلاغية أخرى وذلك في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ ﴾ [الفجر:٦-١١]، فيلاحظ أن الله -سبحانه وتعالى- لما ذكر ثمود وهي قبيلة لم يجعل الضمير يعود عليها إلا جمعا فقال:﴿ جَابُوا ﴾ حملا على المعنى، لأن ثمود قبائل وجماعات وأفراد، فعاد واو الجماعة ليظهر حركة أفرادهم، ويصور مشهد تنقيبهم وخرقهم وتقطيع الصخر بالواد؛ لاتخاذ البيوت منه(١).

وقال ابن عاشور:" ووصف باسم الموصول لجمع المذكر في قوله: ﴿ الَّذِينَ جَابُوا ﴾ دون أن يقول التي جابت الصخرة بتأويل القوم فلما وصف عدل عن تأنيثه تفننا في الأسلوب"(٢).

ثم لما ذكر فرعون وهو علم على فرد أعاد الضمير إليه جمعا فقال:﴿ طَغَوْا ﴾ وذلك لأن المعنى أصبح معلوما لما دلت عليه المشاكلة، كما أن التعبير اتسم بإيجاز بليغ، لم يقصّر بالمعنى ولم يخلّ به، ولكن بلغ الغاية المنشودة، ففرعون بطغيانه وتعذيبه له جنود يهتدون بأمره، وينفذون مراده، فكل طغيان على أيد جنوده بأمر منه، لذا كان الإيجاز منطويا تحته معنى بليغ.

والمشاكلة ظاهرة في السورة من ذلك حذف ياء الفعل في قوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفجر:٤]، كما ذكر الفراء والعلة مشاكلتها رؤوس الآيات، والعرب قد تحذف

---

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٢٦، وغريب القرآن للسجستاني(ص: ١٧٨).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٢٨٢-٢٨٣).

الياء وتكسر الحرف الذي قبلها[1]، وذكر ذلك ابن سنان الخفاجي؛ وزاد ظاهرة ثانية وهي حذف ياء المنقوص في قوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ طلبا للموافقة في الفواصل[2]، والمعنى أن تسكين الراء والدال يظهر بلاغة بديعية في السجع، الذي يسمى بالقرآن الفاصلة[3].

وقد ذكر النحاس أن ابن عباس -رضي الله عنه- قال:﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: ذي الجنود[4]، وحينئذ يكون الضمير جاء موافقا لمقتضى الحال، أما الرازي فذكر ثلاثة معان، الأول: كثرة الجنود، والثاني: أنه كان يعذب الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا، والثالث: أي: ذي الملك والرجال، والرابع: أنها ملاعب يلعبون تحتها[5].

ثم يعلل الرازي مجيء ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿طَغَوْا﴾ بأن هذا الجمع وهذه القوة والعظمة لم تمنع عنهم ورود هلاك عظيم بهم، واحتمل أن يعود ضمير الجماعة إلى فرعون خاصه لأنه يليه، ولكنه رجح عوده إلى جميع من تقدم ذكرهم وهم عاد وثمود وفرعون[6]. ومال أبو حيان إلى ما رجحه الرازي[7]، والمرجَّح هو أحد الأقوال التي ذهب إليها الزمخشري من قبل[8]، وأجاز ابن عاشور القول بأن الضمير عائد إلى فرعون وجاء

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص: ١٧٣).

(٣) سماها بذلك الرماني، ينظر: النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف – مصر، ط٣، ١٩٧٦م، (ص: ٩٨).

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٥/١٣٨).

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣١/١٥٤).

(٦) ينظر: المصدر نفسه(٣١/١٥٤).

(٧) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٠/٤٧٣).

(٨) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٧٤٨).

على الجمع لأنه أريد به هو وقومه كما فُهِم من تفسيره، وأجاز القول بأنه عائد إلى عاد وثمود وفرعون[1].

والراجح لدى الباحث أن واو الجماعة في ﴿طَغَوۡاْ﴾ عائد إلى فرعون، وهذا أحد أقوال الرازي المرجوحة لديه، وهو الراجح لدى الباحث لسببين:

الأول: أن فرعون هو الأقرب، وهو ملك أُريد بضمير الجمع العائد إليه جنوده وقومه، أو عظمته، التي لم تمنعه من عذاب الله، فكانت إهانته بذلك.

الثاني: نهج الآيات وأسلوبها، فعاد إرم جاء بعدها وصفها بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ وثمود جاء وصفهم بقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ وعلى ذلك فوصف فرعون جاء بعده بقوله تعالى: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١﴾ فكل قوم تبعهم وصفهم، وهذا النهج حجة في التفسير، ويقوي القول بأن واو الجماعة في الفعل: ﴿طَغَوۡاْ﴾ عائد إلى ما رجح الباحث. ووصْفهم بهذه العظمة التي أُهلكت هو إفراد لله بالعظمة والجبروت والكبرياء الأزلية؛ لأن العظمة التي لم تمنع عن صاحبها العذاب هي إسفاف به، وتحقير وهوان، والله أعلم.

ويأتي ضمير الجمع عائدا إلى زعيم القوم بصيغة الجمع لأن قومه مرادون بذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩﴾ [طه: ٢٤-٢٩]، فالذهاب إلى فرعون، وجاء في السياق ضمير الجماعة الذي أسند إليه الفعل يفقه، بقوله: ﴿يَفۡقَهُواْ﴾؛ لأن الخطاب وإن كان لزعيم القوم إلا أن قومه داخلون بذلك، ومما يدل على أن واو الجماعة مقصود به قوم فرعون قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٢٨٣-٢٨٤).

رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء:١٠-١٣] وفي القصص قال: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٣٢] فقوله تعالى: ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ وقوله: ﴿ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ دل على أن المصرح بهم هنا فسروا ضمير الجماعة في قوله: ﴿ يَفْقَهُوا۟ ﴾، فتنوعت بذلك أساليب القرآن، فترك التصريح للإيجاز؛ ولأن خطاب سيد القوم خطاب لقومه فهم مؤتمون بأمره، كما أن واو الجماعة يحتمل معنى تعظيم فرعون؛ وذلك لتهيئته لقبول الدعوة، استجابة لأمر الله وتوجيهه لموسى وهارون –عليهما السلام– بقوله: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه:٤٤]، فواو الجماعة يناسب فرعون وملأه المحيط به، فهو يرسم للسامع صورة رئيس القوم المخاطب، وحاشيته تحيط به، وشعبه يأتم بقوله، وبإيمانه يؤمن أتباعه.

وقد صور الله –سبحانه وتعالى– هيبة الملك في مجلسه، بأسلوب التلوين بين الضمائر في مثل قصة رؤيا الملك، التي عجز القوم عن تعبيرها، وهذا جار على لسان الناجي من السجن الذي تذكر يوسف المعبّر – عليه السلام– وكان قد أوصاه من قبل، فقال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف:٤٥-٤٦]، فالسائل عن التعبير هو الملك صاحب الرؤيا، فاستعمل الناجي ضمائر المخاطبين والمخاطَب واحد، فقال، ﴿ أُنَبِّئُكُم ﴾ و﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ و ﴿ أَفْتِنَا ﴾ فمن الواقع أن يكون ضمير المخاطبين وواو الجماعة في الكلمتين الأوليتين للملك؛ لأنه صاحب الرؤيا، وهو الذي يملك قرار الإرسال دون غيره، ولما خاطب الناجي الملكَ قال: ﴿ أَنَا۠ ﴾ ولما خاطب

يوسف قال: ﴿أَفْتِنَا﴾ لكونه قادم من الملك، ومن الواضح أنه قلل نفسه لما كان بين يدي هيبة الملك، إذ لا يحق له تعظيم نفسه، بل قد يهلكه ذلك التعظيم، ولما كان المخاطَب يوسف المسجون -عليه السلام- فإن السائل أتى بناء المتكلمين إظهارا لعظمته، أو لأنه رسول الملك، لينال السؤال اهتمام المسؤول، لا سيما أنه وصف يوسف بالصدّيق.

وذكر الألوسي أنه خاطب يوسف بوصفه صديقا، وذلك من باب براعة الاستهلال، وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمستفتي أن يعظم المفتي، فلذلك قال أفتنا ولم يقل: نبئنا(١).

ووقف الألوسي على العدول عن (أفتني) إلى إسنادها إلى ناء المتكلمين، والمتكلم واحد فقال:"ولم يقل: أفتني مع أنه المستفتي وحده إشعارا بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه في ذلك معبر وسفير، ولذا لم يغير لفظ الملك"(٢).

والذي يجعل الباحث يرى أن ضمير الجمع للملك وليس للملأ ، لأن الملأ ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤]، ومما لا شك به أنهم لا يريدون من ينقض قولهم فيحل محلهم حيث القرب من الملك، لذلك كان الناجي حريصا على التعبير؛ ليكسب حضوة لدى الملك؛ وليبطل ما ذهب إليه الناس، فذيلت الآية بقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، رد على قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

وقد ذكر الألوسي لطيفة في قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ وذلك أن الناجي من السجن لم يصرح بيوسف، ليكون هو المرسل إليه لا غيره، ثم ذكر تعليلا لمجيء ضمير الجمع

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٦/٤٤٣).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٦/٤٤٣-٤٤٤).

مضمونه أنه أراد الملك وحده؛ لكن خاطبه بذلك على سبيل التعظيم كما هو المعروف في خطاب الملوك، ويؤيده ما روي أنه لما سمع مقالة القوم جثى بين يدي الملك[(١)].

وذكر الرازي أن الخطاب قد يكون للملك والجمع، أو للملك وحده على سبيل التعظيم[(٢)]، وبمثل هذا ذكر ابن عادل[(٣)]، لكن ابن عاشور رأى أن هذه الضمائر ضمائر جمع المخاطب في ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ وفي ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ مخاطب بها الملك على وجه التعظيم[(٤)].

ويأتي ضمير الجمع عائدا بعد ضمير المفرد للبشارة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[البقرة: ٢٠١-٢٠٢]، فالملاحظ أن اسم الموصول (مَنْ) عاد إليه الضمير المسند إليه مفردا بعد المسند الفعلي ﴿يَقُولُ﴾، فعاد إلى لفظ الاسم الموصول، فلم يقل: يقولون، ثم تغير الضمير إلى الجمع في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾ فعاد الضمير إلى معنى (من) الموصولة، ولعل الغرض يتبين بعد معرفة السياق العام لهاتين الآيتين، وذلك أن هاتين الآيتين جاءتا في ثنايا آيات الحج، وبعد آية الانتهاء من النسك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٠٠]، فجاء ضمير الجمع بشارة للحجاج، وإعلانا لسعة رحمة الله في ذلك اليوم، ليوقظ روح التفاؤل في نفوس الحجاج بعظم ثواب الله لهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٦/٤٤٣).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٨/٤٦٤).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١١/١٢١).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢/٧١).

﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠﴾ [البقرة:٢٠٠]، فيلاحظ أن جميع الضمائر التي عادت إلى الاسم الموصول(من) عادت مفردة؛ فالآيتان بدأتا بقوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾ ففي الأولى جاء الضمير للجماعة بعد الإفراد، لغرض التكثير بشارة من الله للسائلين الله الحسنة في الدنيا والآخرة، أما هنا فجميع الضمائر مفردة لتقليل الذين ليس لهم في الآخرة خلاق؛ لأن يوم الحج يوم مغفرة، وعتق، والله أعلم. وجاء الإفراد أيضا لأن كلا رهين عمله، مع أن الدعاء جاء بصيغة التعظيم بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ لكنه لم ينفع الداعي نفسه، فكيف ينفع غيره؟ وخص به من سأل الله لأجل الدنيا دون الآخرة، بخلاف الآية التي تبعتها في المصحف فهي بحق المؤمنين، فعاد الضمير بصيغة الجمع؛ لكثرة أهل الثواب بعد الفراغ من الحج؛ ولأن الله يقبل دعاء بعضهم لبعض، لذلك جاء دعاؤه على صيغة الجمع، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾، ولم يقل: ربي آتني، ويستأنس الباحث برأي الطبري في أن الدعاء الأول في حق من حجوا للدنيا والمسألة، لا يريدون الآخرة، ولا يؤمنون بها(١)،أما أهل الدعاء الثاني فهؤلاء النبي -ﷺ- والمؤمنون(٢)، وذكر أن النصيب هو الأجر(٣)، وجوز الزمخشري أن يكون اسم الإشارة أولئك للفريقين(٤)، لكن الباحث يميل إلى أحد قولي الرازي في أن اسم الإشارة خاص في الفريق الثاني، والدليل عليه أنه تعالى ذكر حكم الفريق الأول حيث قال: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ (٥)، وإلى نحو هذا التوجيه ذهب ابن عاشور(٦).

وذكر الرازي أيضا أن الذين يقتصرون في الدعاء على طلب الدنيا مختلف فيهم فقال قوم: هم الكفار، وأنه روي عن ابن عباس أن المشركين كانوا يقولون إذا وقفوا:

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٥٤٣/٣) .

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٥٤٦/٣) .

(٣) ينظر: المصدر نفسه(٥٤٨/٣) .

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢٤٨/١) .

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣٣٨/٥) .

(٦) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤٤/٢) .

اللهم ارزقنا إبلا وبقرا وغنما وعبيدا وإماء، وما كانوا يطلبون التوبة والمغفرة، وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والمعاد[1].

وذكر السيوطي أسبابا لنزول الآيات من بينها ما يروى عن ابن عباس أنه قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاء وحسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا فأنزل الله فيهم ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ ويجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢]"[2].

ويأتي ضمير الجمع عائدا إلى مفرد، لغرض التكثير والحث عليه، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٣] فقد عاد ضمير الجمع في ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ إلى المفرد حثا على التأخر لما فيه من مزيد أجر، يتجلى ذلك في القرينة اللفظية: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟﴾.

بينما يلاحظ ضمير الإفراد في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عاد إلى لفظ اسم الموصول (من) في سياق المتعجل والمتأخر؛ للتخفيف على الحاج ورفع الحرج عنه، لكن واو الجماعة الذي جاء مسندا إليه الفعل ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾، يبين الفعل الأكثر ثوابا وتقوى، ليأخذ بهمم الحجاج لفعله، رغم ما قبله من تيسير.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥/٣٣٦) .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي(ص: ٢٩).

بينما يشير الفراء إلى فهم من نظم الآية فيقول:" لا يقولن هذا المتعجل للمتأخر: أنت مقصر، ولا المتأخر للمتعجل مثل ذلك، فيكون قوله:﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾أي فلا يؤثمن أحدهما صاحبه"(١).

وقد تأتي الحال المفردة لجمع كما في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ ﴾[الحج:٥]، وقال في موضع آخر:﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا ﴾ [غافر:٦٧]، ففي الموضعين جاءت﴿ طِفۡلٗا ﴾ حالا من ضمير الجمع، وضمير الجمع يقتضي جمع الحال، و﴿ طِفۡلٗا ﴾ مصدر طَفِل، ويرى الباحث أن في الإفراد واختيار﴿ طِفۡلٗا ﴾ حيث الحالة التي لا يملك فيها أدنى حول ولا قوة، وهي حالة ضعف يمر بها جميع الناس، للدلالة على يسر الخلق، وأن خلق الناس كلهم كخلق طفل، يجلي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨ ﴾ [لقمان:٢٨] وهنا جَمَعَ مع الخلق البعث، فقال كنفس، وهناك أفرد الحديث عن الخلق فجعل خلقهم كخلق طفل واحد، وكل ذلك دال على يسر خلق الناس على الله وكذلك بعثهم.

بينما يجد الباحث ﴿شُيُوخٗا﴾ جاءت جمعا ولم تشاكل الإفراد في﴿ طِفۡلٗا ﴾ وذلك -والله أعلم- لأن مرحلة الشيخوخة تختلف من شخص لآخر، وهي أطوار وأحوال وأعمار متباينة، بخلاف مرحلة الطفولة فقد أضافت دلالة إعجازية، فخلق الجميع كخلق الواحد في أبسط حالاته وأضعفها، مع اتفاق في أطوار الخلق في البطن، والتشابه الكبير في الأغلب بين الأطفال لحظة الوضع لاسيما بعد اتفاق ألوانهم، لذلك جاء الإفراد هنا والجمع هناك.

---

(١) معاني القرآن للفراء (١/١٤٨)، والبرهان في علوم القرآن(٣/٤).

وذكر ابن جني أن المقصود (أطفالا) وأورد علة لاختيار المفرد فقال:"وحَسَّن لفظ الواحد هنا شيء آخر أيضًا؛ وذلك أنه موضع إضعاف للعباد وإقلال لهم، فكان لفظ الواحد لقلته أشبه بالموضع من لفظ الجماعة؛ لأن الجماعة على كل حال أقوى من الواحد، فاعرف ذلك"(١).

وفي موضع آخر قال نحوا مما سبق فقال:" وحسُن لفظ الواحد هنا؛ لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان، وتحقير لأمره، فلاق به ذكر الواحد لذلك، لقلته عن الجماعة، ولأن معناه أيضا تخرج كل واحد منكم طفلا"(٢).

وأردف مستهجنا قول بعض المؤولين، فقال:" وهذا مما إذا سئل الناس عنه قالوا: وضع الواحد موضع الجماعة اتساعا في اللغة، وأنسوا حفظ المعنى ومقابلة اللفظ به؛ لتقوى دلالته عليه، وتنضم بالشبه إليه"(٣).

أما النحاس فقد روى أن طفلا بمعنى أطفال، وفيه معنى: ويخرج كل واحد منكم طفلا(٤)، وذكر أبو الحسن القيرواني أنه إستغناء بالواحد عن الجمع(٥)، وذكر نحوا من قوليهما ابن عادل، وأضاف احتمالية كونه مرادا به الجنس، وذكر قولا للمبرد يقضي أن طفلا مصدر يلزم الإفراد والتذكير (٦)، وذكر الرازي أن سبب التوحيد إرادة الجنس، أو الدلالة على أن يخرج كل واحد منكم طفلا(٧)، وعلل ابن عاشور التوحيد بأن المقصود به الجنس وهو بمنزلة الجمع(٨).

---

(١) المحتسب لأبي الفتح بن جني (١/٢٠٢).

(٢) المصدر نفسه(٢/٢٦٧).

(٣) المصدر نفسه(٢/٢٦٧).

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(٣/٦٢).

(٥) ينظر: النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني(ص: ٣٠٥).

(٦) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٤/٢١).

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٣/٢٠٥).

(٨) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/١٤٦).

ولما ذكر الله الأصناف الذين يجوز للمرأة أن تبدي زينتها عندهم، ذكر من هم الطفل بصيغة الإفراد خلافا لمايقتضيه السياق في الظاهر، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١].

فقبل البدء بالتحليل البلاغي لا بد من الوقوف على المقصود بالطفل، ومن ضوء القرآن يتبين أن الطفل مصطلح يطلق على المولود لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج:٥]، حتى يبلغ الحلم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ [النور:٥٩]، وهذه المرحلة العمرية الطويلة، يختلف فيها إدراك الطفل تبعا لنموه العقلي، فكلما إزداد نموا إزداد وعيا، لذلك فإن الذين لم يظهروا على عورات النساء سيكونون أول فئة في هذه المرحلة العمرية، وهم قلة مقارنة بمراحل الطفولة الأخرى حتى سن الحلم، فجاء المفرد: ﴿الطِّفْلِ﴾ متبوعا بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾؛ ليناسب هذه الفئة، فضمير الجمع العائد على المفرد دلّ على أن المقصود الجنس الموصوف بعدم ظهوره على عورات النساء، لكنه ليس شاملا لكل طفل، بل ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، فجاء الإفراد ﴿الطِّفْلِ﴾ تقليلا لهذه الفئة، ودعوة للنساء لأخذ الحيطة؛ لأن الأغلب في المراحل العمرية للأطفال أن يكونوا فيها مدركين للعورات لا سيما بعد عمر التمييز، فكيف بمن دنا من الحلم، فالفئة غير المطلعة قليلة؛ لذا ناسب الإفراد هذه القلة، وفي إفراد مرجع ضمير الجمع دلالة على أن هذا الصنف من الأطفال وإن كثر عددهم فهم

بمثابة الواحد؛ لكونهم غير ظاهرين على عورات النساء، فلا فطنة لهم ولا قدرة، ويجد الباحث الطفل يجمع في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٩] فقد جمع الأطفال لأنهم قد بلغوا الحلم فأصبحت لكل واحد منهم فطنة وقدرة، وصفات تميزه، والله أعلم.

قال الإمام الرازي:" الطفل اسم للواحد لكنه وضع هاهنا موضع الجمع لأنه يفيد الجنس، ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع"(١).

ثم روى للطفل عدة حالات فإما أن يقصد بهم الذي لم يتنبهوا لعورات النساء وهؤلاء لا عورة للنساء معهم، أو الذين لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النساء، فإن تنبه الطفل لصغره ولمراهقته لزم المرأة أن تستر، مع اختلافهم في المستور(٢).

وقد يأتي ضمير الجمع عائدا إلى مفرد في لفظه ولكنه استقى معنى الجمع مِن مَنْ الموصولة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[يس: ٢٠-٢١]، ففي هذه الآية يلاحظ المسند إليه بعد الفعل ﴿يَسْـَٔلُكُمْ﴾، وذلك ضمير الغائب هو، ثم الانتقال إلى ضمير الجماعة الغائبين هم في قوله: ﴿وَهُم﴾ فأفرد ثم جمع، أفرد الضمير موافقة للفظ الاسم الموصول، ثم جمعه موافقة لمعناه، ولعل وراء الإفراد بلاغة رسمت منهج الواحد من الرسل، ثم جاء الجمع ليفصح هذا الرجل عن عقيدته وهي الإيمان بجميع الرسل، ولينزه الجميع ويصفهم بالهداية التي هي ثمرة الإخلاص، وذلك صانهم من كل غرض دنيوي، وكل ذلك تهيأة لهم كي يقبلوا قوله ويستجيبوا لأمره بالاتباع، فختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها وهو ما يسمى بالإيغال، فقال:﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وفائدته تأكيد المعنى وتقريره وتوضيحه، وذلك ما أشار إليه الدكتور عبد

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٣/٣٦٦-٣٦٧).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٢٣/٣٦٧).

العظيم المطعني(١). وفي الآية التفات من التكلم إلى المخاطب بينه بعض أهل البلاغة في كتبهم(٢)، ولم يتعرض أهل البلاغة- فيما أعلم- للانتقال من ضمير الغائب الواحد إلى ضمير الغائبين لأنه لا يندرج تحت تعريف الالتفات لديهم.

وقد استوقف هذا الانتقال الإمام البقاعي فقال: "ولما كان أفرد الضمير نظراً إلى لفظ مَنْ؛ دلالة على وجوب الاتباع لمن اتصف بهذا الأمر الدال على الرسالة وإن كان واحداً، جمع بياناً للأولوية بالتظافر والتعاضد والاتفاق في الصيانة والبعد عن الدنس، الدال على اتحاد القصد، الدال على تحتم الصدق فقال: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ثابت لهم الاهتداء لا يزايلهم، ما قصدوا شيئاً إلا أصابوا وجه صوابه، فتفوزوا بالدين الموجب للفوز بالآخرة، ولا يفوتكم شيء من الدنيا، فأتى بمجامع الترغيب في هذا الكلام الوجيز"(٣).

ويأتي ضمير الجمع عائدا إلى المفرد كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر:٣٣]، ففي هذه الآية يلحظ أن الضمير (هم) عاد إلى اسم موصول يستعمل في وضعه اللغوي للمفرد المذكر، فعاد ضمير الجماعة إلى مفرد، والمسند إليه جاء ضميرا مستترا تقديره هو، أسند إليه الفعل ﴿جَآءَ﴾،﴿وَصَدَّقَ﴾، وهذا يجلب تساؤلا حول البلاغة من وراء عود ضمير الجمع ﴿هُمُ﴾ إلى المفرد، ولعل أول ما يمكن أن يفهم هو البشارة من الله عز وجل بأن الذين جاءوا بالصدق والذين صدقوا به كثر، ولذلك جاءت ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وجمع

(١) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المطعني (٢٣٤/١)، وينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢٤٩/٣-٢٥٠)، وتحرير التحبير للعدواني (ص: ٢٣٦)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٢٧٨/١).

(٢) ينظر: خصائص التراكيب لأبي موسى (ص: ٢٥)، والبلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٤٨٥/١).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١١٠/١٦).

المذكر السالم المعرف بأل بإفادة الكثرة، كما في الحديث الذي رواه ابن مسعود -رضي الله عنه- في التحيات[١].

وعندما ينظر الباحث إلى أقوال العلماء يجد الفراء يميل إلى القول بأن (الذي) في تأويل جمع مستدلا بقراءة عبد الله(والذين جاءوا)[٢]، وكذلك أبوعبيدة[٣]، وتبعهما السيوطي[٤]، وذكر هذا القول الطبري ورأيه سيأتي[٥]، أما ابن جني فيرى أن (الذي) هنا للجنس فعاد الضمير إلى معناها دون لفظها، وذكر مذهبا آخر وهو حذف النون من الذي[٦].

وبعد أن ذكر أبو جعفر الطبري تأويلات الآية قال: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله -تعالى ذكره- عني بقوله: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر:٣٣]، كل من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله -ﷺ- من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائنا من كان من نبي الله وأتباعه... ومن الدليل على صحة ما قلنا أن ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود: (والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به) فقد بين ذلك من قراءته أن الذي من قوله: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ [الزمر:٣٣]، لم يعن بها واحدا بعينه، وأنه مراد بها جماع ذلك صفتهم، ولكنها أخرجت بلفظ الواحد، إذ لم تكن مؤقتة"[٧].

(١) ينظر: الحديث (ص:٣٨-٣٩) من هذا البحث، والذي يشير مضمونه إلى أن جمع المذكر السالم إذا عرف بأل فقد أفاد العموم.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(٤١٩/٢).

(٣) ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني(١٨٥/١).

(٤) همع الهوامع(٣٢٢/١).

(٥)جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٢٠٦/٢٠).

(٦) ينظر: معاني القرآن للفراء(٤١٩/٢).

(٧)جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٠٦/٢٠).

وللزركشي تفسير للآية قال فيه:"﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾يعني محمدا، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يعني أبا بكر، ودخل في الآية كل مصدق ولذلك قال:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾"[1].

وللزمخشري تأويل لا يخلو من لمسات بيانية، فذكر أن الذي جاء بالصدق وصدّق به هو النبي -ﷺ- وأراد به إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2]، فلذلك قال :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، أجاز إرادة الفوج أو الفريق[3].

وجمع الرازي جميع التأويلات فقال:"وفيه قولان الأول: أن المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد، والذي صدّق به هو أبو بكر، وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب -عليه السلام- وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم. والثاني: أن المراد منه كل من جاء بالصدق، فالذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدّق به الأتباع، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾"[4].

---

(١) البرهان في علوم القرآن(١/١٦٠) ، وينظر: ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٠/٢٠٤-٢٠٦)، والكشاف للزمخشري (٤/١٢٨)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/٩٤)، و(٤/١٦٠)، ومفحمات الأقران في مبهمات القرآن للسيوطي (ص:١٠)، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/٣٧٥)، ودرج الدرر في تفسير الآيات والسور (٢/٨٨٥)، والكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٨/٢٣٦)، ومفاتيح الغيب للرازي (٢٦/٤٥٢).

(٢) الكشاف للزمخشري (٤/١٢٨).

(٣)[المؤمنون:٤٩].

(٤) مفاتيح الغيب للرازي (٢٦/٤٥٢).

ويرى ابن عاشور أن هذا الوصف إذا أريد به أصحاب محمد -ﷺ- وهم جماعة فلا تقع صفتهم صلة (للذي) لأن أصله للمفرد، فتعين تأويله بفريق وقرينته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وإنما أفرد عائد الموصول في قوله: ﴿وَصَدَّقَ﴾ رعيا للفظ (الَّذِي) وذلك كله من الإيجاز[1].

ومقصود ابن عاشور أن التقدير: الفريق الذي، فجاز بذلك وقوع وصف الجماعة صلة للاسم الموصول الذي هو في الأصل للمفرد، لأن الفريق يتألف من أفراد، فعاد الضمير الى المعنى.

ومثل ما قيل في اسم الموصول والضمائر المفردة التي عادت إليه، ثم انتقالها إلى ضمير الجمع والمرجع واحد، يقال في دلالة الاسم الموصول(الذي) وعود الضمير المفرد إليه، ثم الانتقال إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]، مع أن للباحث إضافة يسيرة يلتمسها تحت دلالة واو الجماعة العائد إلى (الذي) الذي هو في الأصل للمفرد، فواو الجماعة تثبت عجزهم في حال اجتماعهم، فإذا أثبت لهم الضعف في حال الجمع، فهم فيما سواه أضعف، ومن هنا يتبن ما في واو الجماعة من إيجاز بليغ.

ويعامل الجنس معاملة الجمع وهو في لفظه مفرد، لكن معناه الجمع، فقد يأتي الضمير عائدا إلى المعنى لا إلى اللفظ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٧).

تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف:١٥-١٦]، فقد ذكر الله الإنسان وأعاد عليه الضمير مفردا في أكثر من عشرين ضميرا، كلها عادت مفردة إلى الإنسان، مثل قوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ و﴿حَمَلَتْهُ﴾ و﴿أُمُّهُۥ﴾ و﴿وَوَضَعَتْهُ﴾، ولكن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ عدل فيه عن الحديث عن ضمير المفرد إلى ضمير الجماعة مع اتحاد مرجع الضميرين، فضمير الجماعة في قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾ هو ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الذي عادت الضمائر إليه مفردة، فما سر هذا الانتقال؟

ولعل من أسراره ما قال أبو حيان:" والمراد بالإنسان الجنس، ولذلك أشار بقوله: أولئك جمعا"(١).

وقد وردت لفظة الإنسان في القرآن الكريم في مواضع وعادت إليها ضمائر الإفراد ثم جاء التلوين من المفرد إلى ضمير الجمع، والمرجع لجميع الضمائر واحد، ومن مواضع ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾[العاديات:٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ [العاديات:١١]، وفي سورة التين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٤-٦].

وفي سورة الأحقاف أيضا يذكر المولى قصة عاقٍّ لوالديه وهما يدعوانه إلى الخير، ثم يعيد ضمير الجمع ليفيد أن الحكم ليس محصورا على ذلك العاق، بل يفيد التعميم وهذا ما أضافته دلالة ضمير الجمع فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٤٤١/٩)، وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٢٦)

فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[الأحقاف:١٧-١٨] فلقد عادت الضمائر المفردة على المتحدث عنه، ثم عدل عن هذه الصيغة إلى صيغة الجمع في الآية التالية، فصورة الواحد تدل على التكليف وأن كلا امريء بكسبه رهين، وبضمير المفرد والجماعة أحيط بالعاق من الفرد والجماعة، وفي ضمير التكثير مزيد تحذير، لعظم حق الوالدين، مع ما في هذا الأسلوب من الإيجاز، فسبحان من لا تخفى عليه خافية.

وجاء ضمير الجمع دالا على البعث في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[الأنعام:٦١-٦٢]، فيلاحظ الباحث أن الآية بدأت بخطاب الكل بقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ لأن الحفظة على الكل، ولما جاء الحديث عن الموت تحول إلى الضمير المفرد، فجاء مرجع الضمير المفرد في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ هو المفرد في قوله: ﴿أَحَدَكُمُ﴾ وجاء هذا الإفراد -والله أعلم- لأن حالات الناس في الموت متفاوته، وأسباب موتهم متباينة، وأوقاتهم مختلفة، وذكر حالة الواحد أبلغ في الوعظ، وأدل على القدرة حيث الإحاطة بالكل لقرينة في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، وأن الموت عازله عن قومه، ولا حول ولا قوة له ولا لهم، ليصبح الميت بما عمل رهين، ثم أعقب ذلك بضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ تأكيدا على يوم الجمع حيث يبعث الناس ولا يغادَر منهم أحد.

ففي الوفاة عاد الضمير مفردا، لأنه سيحاسب بقبره منفردا، أما يوم الجمع فجاء ضميره بصيغة الجمع.

قال الألوسي: "﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ عطف على ﴿ تَوَفَّتۡهُ ﴾ والضمير -كما قيل- للكل المدلول عليه بأحد، وهو السر في مجيئه بطريق الالتفات، والإفراد أولا والجمع آخرا لوقوع التوفي على الانفراد والرد على الاجتماع"(١).

وأغلب المفسرين كما ذكر الألوسي جعلوا ﴿ رُدُّوٓاْ ﴾ معطوفا على ﴿ تَوَفَّتۡهُ ﴾ ليكون الضمير للعباد، ولكن منهم من أعاد واو الجماعة إلى الرسل، أي: أنهم يموتون كما يموت بنو آدم، والأول هو الذي عليه غالب المفسرين(٢). وأشار الثعلبي وأبو حيان إلى الرأيين في تفسيريهما(٣)، ورجح أبو حيان ما ذهب إليه أغلب المفسرين.

وأشار الرازي إلى لطيفة استقاها من معنى الرد فقال: "واعلم أن قوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مشعر بكون الروح موجودة قبل البدن، لأن الرد من هذا العالم إلى حضرة الجلال: إنما يكون لو أنها كانت موجودة قبل التعلق بالبدن، ونظيره قوله تعالى: ﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر:٢٨]"(٤).

وفي قصة الخضر مع موسى – عليهما السلام- تطالعنا ضمائر متباينة في عددها والمرجع واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ ﴾ [الكهف:٧٩-٨١].

فقد أسند الخضر الفعل إلى تاء المتكلم في قوله: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ وقد طابق مقتضى الحال من وجهين:

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤/١٦٧-١٦٨).

(٢) ينظر: المصدر (٤/١٦٨).

(٣) ينظر: الكشف والبيان في عن تفسير القرآن (٤/١٥٥) والبحر المحيط لأبي حيان (٤/٥٤٠).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي (١٣/١٦).

الأول: أنه واحد، فجاء ضمير المتكلم موافقا لهذا الواحد.

الثاني: أن السياق يصرح بأن إعابته للسفينة إرادة منه بقصد، ولم يقل: عبتها، وقد ذكر هذه اللطيفة ابن عاشور[1]، ولما كان ظاهر الأمر شرا وباطنه خيرا خفيا على الرائي، أتى بتاء المتكلم تأدبا مع الله؛ كيلا يتوهم متوهم أن ضمير المتكلمين لله –سبحانه وتعالى– مع كون الله هو الآمر، بدليل قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ [الكهف:٨٢]؛ ولأن الله لا يشرك في ضمير أحد، فكيف يشترك بضميره غيره؟ تعالى الله وتقدس.

أما تحول إسناد الفعلين﴿فَخَشِينَآ﴾ و﴿فَأَرَدْنَآ﴾ إلى إسنادها إلى ناء الفاعلين بدلا من تاء المتكلم فقد جاء مخالفا لمقتضى الحال لغرض بلاغي يجليه السياق، وذلك أن هذا جاء بيانا لفعل عظيم، وهو قتل الغلام من غير سبب ظاهر، وهذا يستدعي خطرا على الفاعل فأسند الخضر الفعلين إلى ناء المعظم نفسه، بيانا لمنعته وأنه فعَل الفعل بوحي، فهو نبي عظيم، أمن من الثأر بذلك.

أما إسناد الإرادة إلى الرب في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢] فلكون الإرادة متعلقة بأمر غيبي سيحصل في المستقبل، ويتمثل في بلوغ الغلامين الأشد، واستخراجهما الكنز، والآجال علمها عند الله، وهذه الرعاية من معاني الربوبية فاستدعى ذلك اختيار لفظة (ربك).

قال الكرماني معللا قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، ثم ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ ثم ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾: "لأن الأول في الظاهر إفساد فأسنده إلى نفسه، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله عز وجل، والثاني إفساد من حيث القتل؛ إنعام من حيث التأويل فأسنده إلى نفسه وإلى الله عز وجل"[2].

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١١٨/١٥).

(٢)أسرار التكرار في القرآن للكرماني (ص: ١٧٠).

وذهب إلى مثل هذا المعنى ابن جماعة فذكر أن هذا حسن أدب من الخضر مع الله تعالى، ففي الأولى: فإنه لما كان عيبا نسبه إلى نفسه، وفي الثانية: كأنه قال: أردت أنا القتل وأراد الله سلامتهما من الكفر وإبدالهما خيرا منه، وأما الثالثة: فلما كان خيرا محضا نسبه إلى الله[1].

ويرى الباحث أن تأويل الكرماني وابن جماعة -رحمهما الله- في الثانية فيه نظر: لأن العبد لا يشرك في ضمير الله أحدا، فكيف يشرك الله في ضمير غير الله؟! إضافة إلى أن الخشية أسندت إلى ناء المتكلمين وهي تكون من العبد ولا تكون وصفا لله أبدا.

وما أحسن ما لمسه ابن عاشور بقوله:" وضميرا الجماعة في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ عائدان إلى المتكلم الواحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم؛ لأن المقام مقام الإعلام بأن الله أطلعه على ذلك، وأمره فناسبه التواضع"[2].

وأكثر المفسرين على أنه أسند الفعل الأول إلى تاء المتكلم تأدبا مع الله كيلا يسند ما ظاهره عيب إليه[3]، وزاد ابن عطية فائدة في الثالثة فقال: "وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى؛ لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب"[4].

وأضاف الرازي لطيفتين فقال:" ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما

(١) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ٢٤٣).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/١١٨-١١٩).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٥٣٧)، مفاتيح الغيب للرازي (٢١/٤٩٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٢/٥٥٢)، والبحر المحيط لأبي حيان (٥/٢٢٤)، و(٧/٢١٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/١١٨-١١٩).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٥٣٧).

ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى"(١).

وأخيرا فإن الباحث يجد أن الأصل أن يعود ضمير الواحد إلى الواحد، لكن التلوين من ضمير الإفراد إلى ضمير الجماعة، يكون لأغراض منها أن الفعل قد يسند إلى ضمير الجماعة خلافا للظاهر تعظيما للنفس أو للمخاطب، وتلك الظاهرة هي الأبرز لكثرة شواهدها في القرآن الكريم، وأكثر مرجع لها هو لفظ الجلالة أو أحد أسمائه سبحانه؛ لأنه هو صاحب العظمة المطلقة سبحانه، ويأتي هذا الإسناد في الأفعال الجليلة أو الأوامر العظيمة كأمر الملائكة بالسجود حيث قال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ونحوه، أو في أحداث اليوم الآخر. وتترك ناء العظمة منعا للالتباس المفضي إلى الشرك، فلفظة (عبدنا) مثلا جاءت في القرآن الكريم في خمسة مواضع، جميعها في سياق الحديث عن نبي، أما لفظة (عبادنا) فقد وردت إحدى عشرة مرة؛ منها ثمان مرات في سياق الحديث عن نبي، وواحدة في قصة العبد الصالح الخضر، أما مع غير الأنبياء فقد ذكرت مرتين في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر:٣٢]، ففي الآية الأولى يظهر أن هؤلاء العباد قد دخلوا الجنة وتجاوزوا حياة التكليف، أما الآية الأخرى فالعباد مصطفون لا خطر عليهم، ولا يلتبس عليهم الإسناد بإشراك لأن الأنبياء والمصطفين من العباد هم أعرف الناس بربهم جل شأنه وأخشاهم له، أما مع غير أولئك فتضاف إلى الياء.

ومن الملاحظ في قصة هبوط آدم وزوجه إسناد فعل القول إلى صورة ناء الفاعلين التي لفظها للجمع ومعناها للواحد -سبحانه- المعظم نفسه، أو إلى ضمير الواحد، فجاء قوله: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ ﴾ [البقرة:٣٦]، وقوله: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ ﴾ [البقرة:٣٨]. في المقام الذي قبل طلب التوبة، وناسبه إسناد الفعل إلى ناء المعظم نفسه، إما لإظهار

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢١/٤٩٣).

القوة حيث العظمة والجبروت والأمر النافذ، أو مشاكلة لما سبق من إسناد، بينما يأتي التلوين بالانتقال من ضمير الجماعة إلى ضمير الواحد في سورتي الأعراف، وطه، فقال: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ ﴾ [الأعراف:٢٤]، وكذلك في سورة طه قال: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا ﴾ [طه:١٢٣]، وذلك لأن في إسناد الفعل إلى ضمير الواحد معنى الرفق واللطف لمناسبته لمقام طلب التوبة التي سبقت هذا الإسناد. ويأتي ضمير المتكلم جمعا إذا كان المتحدث عنه زعيما، وكذلك يأتي التعظيم في ضمير خطابهم، كما جمعت ملكة سبأ ضمير سليمان بقولها: ﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم ﴾ بعد قولها: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ ﴾. وكبعض خطابات موسى -عليه السلام- لفرعون، ويعود ضمير الجمع إلى المفرد إذا أريد به الجنس، فيعود الضمير بصيغة الجمع إلى المعنى، كقوله: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ ﴾ بعد قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾، وكعود ضمير الجماعة إلى أمة، وحزب، ونحوه، وهذا يحيي روح التأمل لدى المتلقي؛ لأن رجوع الضمير إلى المعنى يفسر اللفظ ويبينه.

ويأتي ضمير الجمع وقد سبق بذكر النبي -ﷺ- لأغراض منها التعظيم، أو إشراك أمته بما خوطب به؛ ليفيد التعميم وتوسيع الخطاب. ويلتفت إلى خطاب الجماعة بعد خطاب النبي -ﷺ- في موطن نهي عن فعل لا يكون من مثله -ﷺ- فعدل إلى العامة تقديرا للنبي-ﷺ- وإجلالا.

ويلاحظ الباحث أنه عند الحديث عن الأجل فإن الضمير يعود إلى الأمة مفردا ثم بصيغة الجماعة، كما في قوله: ﴿ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٣]، والإفراد إشارة إلى انتهاء أجل الأمة بانتهاء آخر رجل منها فلا تفاوت حينئذ، أما ضمير الجمع فيعود على الأفراد لما بينهم من اختلاف في آجالهم، أما إذا أضيفت كلّ إلى أمة كما في قوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف:٣٤]، فإنه لا يعود الضمير إلا بصيغة الجمع، لأن بين الأمم تفاوت في آجالها.

وأتى ضمير الجماعة عائدا إلى الواحد كما في قول إبراهيم: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ فهو عائد إلى إسماعيل بدلالة قوله: ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ وفيها إشارة إلى زواج إسماعيل وإنجابه الذرية، ويشمل هاجر تغليبا، أو على سبيل المجاز المرسل واعتبار ما سيكون، والله أعلم. وقد يأتي للسخرية كقول إبراهيم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أما كلّ فتارة يعود الضمير إلى لفظها فيفرد، وتارة إلى معناها فيجمع، وأن مواضع عوده على لفظها مفردا لا يصلح أن يستبدل به عوده على المعنى ليجمع، وكذلك العكس.

وتأتي ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو ﴿خَٰلِدُونَ﴾ في موطن نصب أو رفع عائدة إلى مرجعها جمعا ثمان وستين مرة، وذلك إذا كان الحديث في سياق حق من حقوق الله، كالإيمان بالله وعمل الصالحات، أو في الكفر والشرك والتكذيب والصدّ ونحوه. ولم يخرج عن ذلك إلا آية [آل عمران:١٣٦]، فهي في سياق حقوق الخلق، واشتملت على الاستغفار، ولعل مجيء الجمع كان لتعدد الأوصاف التي قد لا تجتمع في واحد، فتعدد بذلك المخاطبين، أما إذا كان الحق لآدمي كقتله أو أكل ماله أو أذيته فإن الحال تأتي مفردة؛ ولعل النكتة في ذلك هو كون هذه الأفعال لا يجرؤ عليها في الأغلب إلا من كان في منعة من قومه أو جنده فجعل الله من عقابه الخلود منفردا، فتخلت عنه منعته.

ويأتي ضمير الجمع بعد ضمير المفرد لغرض البشارة بكثرة من تقبل منهم في سبل الخير ونحوه، كما في دعاء الفريقين بعد انقضاء نسك الحج. أوللحث على الكثرة كقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الحث على عدم التعجل في الحج، والله تعالى أعلى وأعلم.

المبحث السادس : عود ضمير الجمع على المثنى .

إذا سُلّم بعد الوقوف على كلام العرب أن القرآن الكريم نزل موافقا لسنن العرب اللغوية، فإنه سيدرك بعد التأمل انفراد القرآن الكريم باستعمال اللغة، وأن كل عدول عن الظاهر ما جاء إلا لغرض يدرك بالتأمل، فإذا كان كلام البليغ من العرب ليس بليغا في كل مناسباته، فإن القرآن بليغ في حرفه، ولفظه، وتركيبه ونظمه، في كل موطن، وذلك هو المعجز الذي قصرت عنه الألسن، وكلت دونه التحديات.

ومن كلام العرب الذي عاد فيه ضمير الجمع على المثنى ما جاء في معلقة النابغة الذبياني حيث قال:

فَبَــثَّهُنَّ عَلَيــهِ وَاســتَمَرَّ بِــهِ صُمعُ الكُعوبِ بَريئاتٌ مِنَ الحَرَدِ[1]

فجاءت نون النسوة وهي في أغلب إستعمالاتها للعاقل، وتستعمل لغير العاقل تعظيما، وهي للجمع بلا خلاف، ولم يذكر النابغة إلا كلبين، أحدهما اسمه واشق والآخر ضمران، فإن قيل: بث مجموعة من الكلاب ولكن لم يذكر إلا صاحب الجهد، قال الباحث: فما باله ذكر واشق وقد جبن لما رأى ما فعل بضمران.

ولعل البلاغة في قول النابغة نابعة مما يدور في القصيدة من الرمزية التي ترمز إلى ما تسلط به الوشاة عليه، فأوغروا صدر النعمان عليه فأصبح مطاردا، والجمع دال على الكثرة وإن كان المبرَّز اثنين.

وقد برر علماء اللغة عود ضمير الجمع إلى المثنى في بعض التعبيرات بكون أول الجمع اثنين، ومن ذلك قول الاثنين: نحن فعلنا، فاستعمل (نحن) على لسان الاثنين فأكثر.

وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

---

(١) ديوان النابغة الذبياني (ص:١١).

تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ [فصلت:٣٧]، فضمير الجمع في خلقهن[1] عائد إلى الشمس والقمر وهما اثنان، ولعل في ذلك إشارة لتعلق الناس بهما لأن فيهما الحساب، والشمس ضياء، والقمر نور، وهما متغيران في منازلهما، وفي شروقهما وغروبهما، فقد يكون ذلك سببا لجمعهما كما جمع الله المشارق والمغارب، ويرى الطبري وغيره أن الضمير للأربع[2]، وعلل النحاس ضمير الجمع بأن الاثنين جميع، ثم أجاز كون المعنى واسجدوا لله الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، وأجاز أيضا عوده على معنى الآيات[3]، وذكر الأخير الزركشي[4] وبه قال أبو الحسن القيرواني[5]، وقال أبو عبيدة: أي خلق الليل والنهار والشمس والقمر[6]، وحينئذ فيكون الجمع جاء موافقا لمقتضى الحال في جانب، ولكنه مخالف بالنظر إلى عوده إلى غير الأقرب، لكن الأظهر لدى الباحث أن الضمير عائد إلى الشمس والقمر بدليلين، الدليل الأول: أنه عهد عن الناس في شركهم السجود للشمس والقمر[7]، من ذلك قوله: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل:٢٤]، ولم يرو سجود لليل أو نهار، والدليل الآخر دليل لغوي قرره علماء اللغة وذلك أن الضمير يعود إلى الأقرب، ولا يصح غيرهما إلا بدليل.

قال ابن مالك في التسهيل: الأصل تقديم مُفَسِّر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل"[8].

---

(١) في الآية عود ضمير العاقل على غير العاقل وسيبحث في موطنه (ص: ٣٩٢).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٤٣٦/٢٠)، ومفاتيح الغيب للرازي (٥٦٦/٢٧).

(٣) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٩٧/٢).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي(٣٦٧/٣).

(٥) ينظر: النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني(ص: ٤٣٥-٤٣٦).

(٦) معاني القرآن للنحاس(٢٧١/٦-٢٧٢).

(٧) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٤٣/١٧) والكشاف للزمخشري (٢٠٠/٤)، ومفاتيح الغيب للرازي (٥٦٦/٢٧).

(٨) شرح التسهيل لابن مالك (١٥٦/١)

ويتبين من قول ابن مالك أن الضمير في الأصل للأقرب؛ ولكن قد يعود على غير الأقرب بقرينة، ويشرح ابن مالك قوله الآنف فيقول في الشرح:" إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعدا جُعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج"(١).

وقد جمع الألوسي جميع الاحتمالات في مرجع الضمير والتي ذكرت من قبل، ثم أتى بوجه لمجيء ضمير الجمع بدلا من التثنية، فقال:" الضمير قيل للأربعة المذكورة، والمقصود تعليق الفعل بالشمس والقمر، لكن نظم معهما الليل والنهار؛ إشعارا بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار ضرورة أن الليل والنهار كذلك، ولو ثني الضمير لم يكن فيه إشعار بذلك... وقيل: الضمير للشمس والقمر والاثنان جمع، وجمع ما لا يعقل يؤنث، ومن حيث يقال شموس وأقمار لاختلافهما بالأيام والليالي ساغ أن يعود الضمير إليهما جمعا "(٢).

ومن المواطن التي انتقل الضمير فيها من التثنية المطابقة للمرجع إلى ضمير الجمع؛ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٥- ١٦].

فيلاحظ الفعل﴿ فَأْتِيَا﴾ جاء بعد قوله: ﴿مَعَكُم ﴾ فانتقل الخطاب بذلك من التثنية إلى الجمع ثم من الجمع إلى الاثنين(٣)، وقبل الوقوف على البلاغة التي استدعت ذلك ، فلا بد من الوقوف على ما صورته الآيات من الحالة النفسية المحيطة بموسى – عليه السلام- بعد المقارنة من خلال المتشابه في مواطن ذكرها.

فسورة الشعراء بنيت على التحدي بين موسى وفرعون، والتفصيل في القصة مع إظهار الحدة، أما سورة الأعراف فبنيت على الإيجاز والمواجهة بين موسى –عليه

---

(١) المصدر نفسه(١/ ١٥٧)

(٢) روح المعاني للألوسي (١٢/ ٣٧٧)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٧/ ١٤٣).

(٣) الانتقال من ضمير الجمع إلى ضمير التثنية سبق الوقوف عليه في موطنه (ص: ١٥٥).

السلام- وملأ فرعون، واختفاء فرعون كثيرا لإظهار الغطرسة، يظهر ذلك من خلال النظر في آيات السورتين المتقاربة، وقد عقد الدكتور الفاضل فاضل السامرائي مقارنة(1)، بين فيها بعض الاختلافات في نظم وتركيب الآيات في السورتين ومما ذكره أن في سورة الأعراف قول الله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ [الأعراف:١٠٩]، فالقول للملأ. ثم يقول: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [الأعراف:١١٠]، ثم يقول: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[الأعراف:١١١]،ثم قوله: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١٢]، ثم يقول:﴿ قَالُوٓاْ ﴾ [الأعراف :١١٣]، ثم قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٤]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٤]، إلى غير ذلك.

أما سورة الشعراء فمبنية على التحدي، يتجلى ذلك في قوله: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴾[الشعراء:٣٤]، فالقول لفرعون، ثم قوله: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ [الشعراء:٣٥]، وقوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٣٦]، وقوله: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٣٧]، وقوله: ﴿ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ ﴾ [الشعراء:٤١]، وقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ [الشعراء:٤٩]، إلى غير ذلك .

ناهيك بأن موسى -عليه السلام- لما أرسله الله تعالى إلى قوم فرعون صور لنا الله حالته النفسية المضطربة في سورة الشعراء حيث رأى موسى – عليه السلام- أن أمامه ثلاث عقبات كؤود، بل قد تهلكه الأخيرة، فالعقبة الأولى: الخوف من التكذيب، والثانية: ضيقة الصدر وعقدة اللسان، والثالثة: خشيته من الانتقام منه في قتله للقبطي.

فلما ترادفت هذه العقبات أحدثت وجلا لدى موسى -عليه السلام- ورهبة مفرطة، فآزره الله بأخيه -عليه السلام- وأضاف بشارة مطمئنة بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم ﴾.

---

(١) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص: ٣٣٢- ٣٤٣).

ولم يقل: معكما، مراعاة لحال المخاطب الذي يحتاج إلى التعظيم الذي تتهاوى أمامه جبروت الطغاة، فجاء ضمير الجمع مناسبا للظروف المتكالبة، يتجلى هذا بالوقوف على السياق في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٠-١٦]، فالموقف موقف تحدي والتحدي يحتاج قوة، ومن كان الله معه فهو القوي، فلذلك جاء ضمير الجمع .

ومن المتشابه الذي لم يأت على هذا النحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦]، فما السر وراء مجيء التثنية في قوله: ﴿مَعَكُمَآ﴾ في سورة طه؟

وتلك الحالة لم تأت في سورة طه، فجاء ضمير التثنية مناسبا للمقام في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦] فموسى – عليه السلام- لم يذكر في هذا المقام ظروفا تكدر صدره، وعقبات قد تحول بينه وبين مراده كما ذكر في سورة الشعراء، فما احتاج السياق لمخالفة الظاهر، بل جاء الضمير على سنن اللغة بصيغة التثنية، وهذا الجواب يكمن في الرجوع إلى الأحداث النفسية في السورتين ليتبين بذلك سبب التغاير.

أما قوله تعالى في الشعراء : ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ جاء مطابقا لمقتضى الحال وتلك هي البلاغة(١)، فقد بدئت بضمير العظمة، ثم اختتمت المعية بميم الجمع؛ لأن من كان الله معه فهو الغني المنصور، فالجمع جاء للإيناس وإعادة الثقة التي ينتفي الخوف بثبوتها بعد أن ذكر موسى – عليه السلام- ضيق صدره، وانحباس لسانه، وذنبه وخوفه من أن

(١) بلاغة الكلام هي: "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته" الإيضاح، للقزويني (ص:١/٤٤).

يقتل بسبب ذلك، هذه الأمور استدعت ميم الجمع ليطمئن الله -جلّ جلاله- موسى - عليه السلام - بمعية ربه.

وعد سيبويه هذا الجمع مما قصد به التثنية فأدرجه تحت باب ما لفظ به مما هو مثنى، وذكر ورود ذلك عن العرب، وأن المثنى يعد جمعا فيقول الاثنان: فعلنا، كما يقوله الثلاثة(1).

وقد رأى البيضاوي أن ضمير الجمع عائد إلى موسى وهارون عليهما السلام، وفرعون(2).وأضاف ابن عاشور أنه عائد إلى موسى وهارون وقوم فرعون(3). وذكر الشيخ الشنقيطي أن الجمع للتعظيم(4).

ولما كانت الجن والإنس قبائل تضم كل قبيلة أفرادا كثيرة فقد جاء ضمير الجمع عائد إلى معناهما فقال الله:﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ﴾ [الأنعام:١٣٠] وذلك لأن الموضوع موضوع إرسال رسل، والاتباع واجب على كل مكلف من الجنسين، فجاء الضمير عائدا إلى المعنى لا إلى اللفظ للتعميم.

وضمير الجمع عائد إلى الجن والإنس، والأقرب أنه عاد إلى الأنس حقيقة لأن الرسل منهم، وعاد إلى الجن مجازا لأن منهم مبلغون عن رسل الأنس - والله أعلم — وقد وقف العلماء على ذلك.

ففي معاني القرآن يتساءل الفراء عن قوله تعالى:﴿ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ والرسل من الإنس خاصة، ثم يجيب بأن هذا كقوله: ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ ﴾ [الرحمن:١٩] ثم

---

(١) ينظر: الكتاب(٦٢٢/٣).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١٣٤/٤).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٣/١٩).

(٤) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي(٨٧/٦).

قال: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن:٢٢]، وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح دون العذب.فكأنك قلت: يخرج من بعضهما، ومن أحدهما[1]، وقد أثبت العلم الحديث أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الملح والعذب[2].وذكر الرازي مثل قول الفراء هذا، وزاد وجهين آخرين فقد يكون المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبى –عليه الصلاة السلام– ثم ولوا إلى قومهم منذرين كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف:٢٩]، فيكونون بذلك هم المنذرين، وأطلق عليهم رسل من باب المجاز، وأما الوجه الآخر فيعزوه إلى الضحاك ومقاتل وهو أنه بُعث إليهم رسول[3].

ويأتي الضمير عائدا إلى الإفراد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات:٩].

ومما ذكر في سبب نزول هذه الآية ما روي عن أنسٍ رضي اللهُ عنه أنه قالَ: "قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ –ﷺ– وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ –ﷺ– فَقَالَ إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣٥٤/١)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ١٧٥).

(٢) ينظر: بيانه في هذا البحث في (ص:١٤٥).

(٣) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ١٣١)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤٣٥/٨).

أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾"(١).

فمن اللافت للذهن أن بعض ضمائر الآية عادت مثناة إلى لفظ إحدى الطائفتين، وذلك مثل قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ و﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾، وعادت ضمائر الفئة الباغية إليها مفردة فقال: ﴿بَغَتْ﴾و﴿تَبْغِى﴾ و﴿تَفِىٓءَ﴾ و﴿فَإِن فَآءَتْ﴾(٢)، أما الطائفتان أثناء الاقتتال فقد جاء الضمير عائدا إليهما على صيغة الجمع، في قوله: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ .

فالحال بين الطائفتين اقتتال واقع، ثم إصلاح من المجتمع استدعاه هذا الواقع، ثم قتال الباغية إذا لم ترجع، فإن رجعت فصلح وقسط.

ففي لحظة اقتتال الطائفتين جاء ضمير الجمع مصورا الأعداد المشتركة في هذا القتال من كل طائفة، ليبين ما قد يترتب على ذلك من خسارة فادحة.

وفي المقابل أعلى الله شأن المصلحين فعاد الضمير إليهم جمعا، حثا على تكثيرهم، وحضا لهم على السعي بما يصلح به شأن الطائفتين، وجاء في هذا الحال الضمير عائدا إلى الطائفتين بالتثنية فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ولم يقل: بينهم، لبعث روح الأمل لدى المصلحين كي يحققوا بغيتهم في الصلح، فالطائفتان كالاثنين، يقوي هذا القول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:١٠] وهذا أيسر للصلح، ولوجاء الضمير جمعا لاستُشعر منه مشقة الصلح بين هذه الأعداد الكثيرة لصعوبة الوفاق بينهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، (ص: ٦٥٧) رقم الحديث: ٢٦٩١.

(٢) ومعلوم الفرق بين اسم الشر (إذا) وبين (إن)، فالأولى لما يمكن وقوعه، والثانية لما في وقوعه صعوبة أو استحالة، والأغلب أن الباغي لا يرتدع إلا بالقوة.

ولما أراد الله أن يصور الفئة الباغية فقد أعاد الضمائر إلى هذه الفئة الباغية مفردة، مع أن هذه الفئة تضم أفرادا، فلم تجمع ضمائرها عودا على المعنى تأكيدا على أن البغي يقلل صاحبه، ويضعف قوته، بينما يجد الباحث ضمير الجمع في قوله: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ والأمر للمجتمع، وفي العادة يكونون من غير الطائفتين، فأسند الله فعل الأمر إلى الجماعة، بعد أن بغت إحدى الطائفتين ولم ترض بالصلح، وفي واو الجماعة حث على تكثير الواقفين ضد الظلم كثر أهله أم قلوا.

ونخلص من هذا أن الضمير العائد على الطائفتين جمعا هو ما أسند إليه الفعل: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ أما الأفعال الأخرى وهي ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ و﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ و﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ و﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ فهي للمصلحين من عامة المجتمع، وأهل الكثرة والغلبة، وفي الأشهر هم من غير الطائفتين، والصلح على أيديهم أكثر توفيقا، واستنادا إلى سبب النزول فقد يكون واو الجماعة في هذه الأفعال تعظيما لأول المخاطبين وهو النبي -ﷺ- ثم تعميما وتكليفا لأمته من بعده ﷺ.

كما أن الفعل ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾: في إسناده إلى واو الجماعة تفصيل بعد إجمال، فضمير الجمع عاد إلى أفراد كل طائفة لاشتراكهم بالقتال، ثم جاء الجمع في فعل الأمر بالصلح، ومقاتلة الباغية، ثم الصلح بعد رجوعها إلى الحق، والقسط؛ لأن كل قادر مكلف بذلك؛ ولأن إصلاح الأرض واجب جماعي.

ولا يغني ما ذهب إليه الباحث عن استعراض أقوال علمائنا الأفذاذ -رحمهم الله رحمة واسعة- ومن أولئك الفراء الذي قال: ولو قيل: اقتتلتا في الكلام كان صوابا[١]، وهي في قراءة عبد الله[٢].

(١) معاني القرآن للفراء (١/٢٨٥).

(٢) المصدر نفسه(٣/٧١).

وعلى هذا المعنى سار كثير من أهل اللغة والتفسير، فقال الزمخشري: أنه حمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس[1]، وذكر أبو حيان أن الضمير عاد مجموعا على المثنى باعتبار أن المثنى تحتهما أفراد كثيرة هي في معنى الجمع[2].

أما الألوسي فقد ذكر لطيفة في العدول فقال:" والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى، فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقد روعي في الطائفتين معناهما أولا ولفظهما ثانيا، على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل: إنهم أولا في حال القتال مختلطون؛ فلذا جمع أولا ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثني الضمير"[3].

ويأتي الجمع باعتبار أفراد كل جنس وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن:٣١-٣٥]، فبدأت الآية الأولى بضمير الجمع في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ مع أنها أعقبت بالتثنية لفظا في قوله: ﴿الثَّقَلَانِ﴾ ثم جاءت الأفعال: ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾ و﴿تَنفُذُوا﴾ و﴿فَانفُذُوا﴾ و﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ مسندة إلى ضمير الجمع مع أنها مسبوقة بلفظي جنس هما: ﴿الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ ثم عدل عن هذا الإسناد فاستبدل به ضمير التثنية بقوله: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ و﴿تَنتَصِرَانِ﴾[4] ولعل البلاغة في أن كل ضمير استعمل في مكانه المناسب، فضمائر الجمع جاءت عائدة على جميع أفراد الجنسين من الجن والإنس، وهذا أظهر في عجزهم وأبلغ، فكل فرد مخاطب أن ينفذ إن استطاع

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣٦٤/٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥٥٩/٣).

(٣) روح المعاني للألوسي (٣٠٠/١٣-٣٠١).

(٤) ينظر ضمير التثنية بعد الجمع في (ص:١٦٣-١٦٤) .

"والنفاذ هو مجاوزة الشيء والخلوص"[1] ، ولن يستطيعه أحد أبدا، وتقديم الجن في هذه الآية على الأنس لما يمتلكونه من سرعة في التنقل لا يمتلكها الأنس، فهم الذين كانوا يقعدون مقاعد للسمع، ومع ذلك فكل واحد منهم عاجز عن النفوذ، فثبوت العجز لهم هو إثبات للأنس من باب أولى[2]، فكان الجمع أبلغ من التثنية لشموله كل فرد؛ لأن التثنية قد تحتمل أن كلا الجنسين مخاطبان جملة، لا أفرادا، فلو أن فردا استطاع أن ينفذ قيل الخطاب للكل، ولكن تركت التثنية دفعا لهذا الوهم.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج:١٩].

فقوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ كقوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فعاد ضمير الجمع الذي أسند إليه المسند الفعلي ﴿ ٱخْتَصَمُوا۟ ﴾ إلى المثنى ﴿ خَصْمَانِ ﴾، وليتضح السبيل فإن على الباحث أن يورد سببا لنزول هذه الآية.

فمن ذلك ما روي عَنْ أَبِي ذَرٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ:" نَزَلَتْ ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ فِي سِتَّةٍ مِنْ قُرَيْشٍ عَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ"[3].

---

(١) العين، باب الذال والنون والفاء، معهما ن ف ذ" يستعمل فقط،(١٨٩/٨). ولسان العرب، فصل النون، مادة نفذ،(٥١٥/٣) .

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣٦٢/٢٩)، الذي أشار إلى بلاغة التقديم، مع زيادة معنى بلفضه من الباحث غرضها توضيح الفكرة.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قَتْل أَبِي جَهْل (ص: ٩٧٤) رقم الحديث: ٣٩٦٦. وينظر: صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (٢٣٢٣/٤) رقم الحديث ٣٠٣٣. وراية مسلم فيها قسم أبي ذر على ذلك.

ومن ضوء سبب النزول يتبين أن الخصمين ليسوا اثنين بل كل خصم فريق، فريق مؤمن، وفريق كافر، فعاد ضمير الجمع مفسرا، فكان بالضمير الموجز تفصيل وبيان، فحمل ضمير الجمع معنى لن يبينه ضمير الاثنين، وما هذا إلا دليل على حسن الاختيار للفظ الموحي، فظاهر السياق يتطلب ضمير الاثنين لكن المعنى هو غرض المتكلم فطلب ضمير الجمع فاتسع المعنى بذلك واتضح.

ومن القرائن التي تضاف إلى سبب النزول لتتظافر مع أحقية واو الجماعة بالذكر قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فدلّ على أن المقصود ليسوا اثنين، بل فريقان، وأحد الفريقين كافر كما نصت على ذلك، فتبين بذلك أن "ثلاثة منهم مؤمنون وثلاثة كافرون"[1].

وقيل الخصم مصدر الأغلب فيه التوحيد والتذكير، ويجوز أن يثنى ويجمع، وعاد إليه الضمير جمعا مراعاة للمعنى، لأن كل خصم يضم أشخاصا[2]، ويطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا اتحدت خصومتهم[3]، وذكر الزمخشري ووافقه الرازي أن الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق، وقوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ للفظ، واختصموا للمعنى[4]،فلمراعاة تثنية اللفظ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى، ولمراعاة العدد أتي بضمير الجماعة[5].

وقد تنبه ابن عاشور إلى الدلالة المعنوية من وراء اسم الإشارة ﴿هَٰذَانِ﴾ إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطبين، فنزل حضور قصتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة[6].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس(٣٧١/٤).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤٦/١٤).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٦/١٧) .

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٤٩/٣)، ومفاتيح الغيب للرازي (٢١٤/٢٣).

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٦/١٧).

(٦) المصدر نفسه (١٦٦/١٧).

وهذا التحول في الضمائر يورث في الخيال مشهدا، يصور الحدث، والأنصار والمعارضين، فبذلك أضاف التلوين صورة خيالية حامية.

وتسهم الضمائر في تحول مرجعها من اللفظ إلى المعنى أو العكس، وبالتالي اختلاف عدد الضمير، يسهم في الحركة المتخيلة والتي ترسم صورة دقيقة لمشهد كأنه يرى رأي العين، ففي قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص:٢١-٢٣].

ففي الصورة الأولى يتجلى ضمير الجمع: ﴿الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ وفي الصورة الثانية اللفظ المثنى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ وفي الصورة الثالثة الضمائر المفردة لدعوى بين اثنين: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ فصورت ضمائر الجمع شدة الخصومة، حتى وصل بهم الأمر أن تسوروا المحراب، فدخل بهيأة دخولهم الفزع إلى نبي الله داود؛ لأن ما يشاهده صورة غير معهودة، ثم لا ريب أن الخصومة قد ولّدت صخبا وتعالي أصوات.

وتحليل ذلك - والله أعلم- أن ضمير الجمع العائد إلى الخصم - مع أن الخصم مصدر يأتي للواحد وغير الواحد إذا اتحدت خصومتهم كما مرّ من قبل- حمل بلاغة في كونه صوّر لكل مدع أنصاره، فكونوا بذلك أعدادا، لكل مدع فريقه ومناصروه.

ثم تأتي الصورة الثالثة: حيث الهدوء الذي يتبعه البيان والإيضاح، فيجتمع أنصار كل مدع لتحديد الاثنين الذين هما طرفا القضية: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾، ففي التثنية تهوين الأمر كيلا يعتري نبي الله خوف.

ويتضح من الصورة الثالثة أن نبي الله داود عليه السلام قد ترك مناصري كل مدع، وجعل القضية بين اثنين ليسمع دعواهما ويقضي بينهما، ثم قضى بينهما بقوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ الآية.[ص:٢٤].

فبمجموع الصور الثلاث، وبحركة الضمائر في داخل القصة، وتحولها من جمع إلى تثنية ثم إلى مفرد، ترتسم صورة القضية، ذلك أن طرفي القضية رجلان بينهما الدعوى، ثم تفاقم الأمر وأصبح لكل طرف أنصار، ثم وصلوا إلى محل القضاء بصورة مفزعة من حيث كثرة العدد وهيأة الدخول، فأعاد القاضي داود – عليه السلام – القضية إلى طرفيها الرجلين، واستبعد غيرهما، وقضى بينهما.

ومن المحتمل أيضا – والله أعلم – أن يكون الخصمان اثنين فقط، فجمع ضميرهما في الأولى لأن دواد –عليه السلام– فزع منهم، فجاء الضمير مناسبا لمقتضى الحال؛ فجاءت ضمائر الجماعة ملحقة بتلك الألفاظ وهي: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿قَالُواْ﴾، فلما جاءت لحظة البيان اقتضى الحال التفصيل حسب الواقع ليطمئن داود –عليه السلام– فقالا: ﴿خَصْمَانِ﴾، فلما هدأ روع داود – عليه السلام – بهذا البيان، جاء الإفراد المناسب؛ لأن كل واحد منهما طرف في القضية، فسمع دعوى المدعي:﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ فجاء اسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ ثم ياء المتكلم في أربعة ألفاظ ثم ضمير الغائب في ﴿لَهُۥ﴾ وغيره؛ لتحديد المدعي والمدعَى عليه؛ لأن ذلك أول أسس الفصل، فجاء المعنى مقتضيا هذا الإفراد في هذه الضمائر، فكانت نتيجة القضاء موافقة مشتملة على ضمائر الإفراد، ليبيّن صاحب الحق، ولو جمع لكان في ذلك إبهام لصاحب الحق، فجاءت الضمائر في كل موضع مناسبة لما استدعاه المعنى، وإن كانت مخالفة لمقتضى الظاهر فيما يبدو من أول وهلة.

وتحليل الباحث الأخير أساسه ما ذهب إليه الطبري من أنه عني بالخصم في هذا الموضع ملكان، وعلل مجيء الخصم على لفظ الواحد لكونه مصدرا[1]، وذكر الرازي قولين، الأول: أنهما كانا ملكين نزلا من السماء، والثاني: أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل، وأورد لكل قول حججه[2]، وبعض العلماء يرى أن ضمير الجمع عائد إلى الخصم لكونه جمعا في المعنى؛ أو لأنه مثنى والمثنى جمع في المعنى[3]،

ويطمئن الباحث في تحليله الأول لقول الرازي:" فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان، قالوا: فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان والجواب: لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين، لأنا بيّنّا أن الخصم إذا جعل اسما فإنه لا يثنى ولا يجمع"[4].

وعند السبكي أن ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ تعبير بالجمع عن التثنية، وذكر أن لذلك أوجها منها قصد المبالغة بتقسيم كل من الشيئين إلى أشياء، أو تكون قصدت المبالغة فى أحدهما بتقسيمه دون الآخر؛ لأن الجمع يحصل بثلاثة، ثم ذكر أن طائفة من الناس ذهبت إلى أن الجمع يطلق على الاثنين حقيقة، بل وقيل على الواحد[5].

وعاد ضمير الجمع إلى من يعود إليهما الضمير في الظاهر مثنى في قصة حكم داود وسليمان عليهما السلام، فقال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٨] .

ففي قوله تعالى: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ عاد إلى داود وسليمان -عليهما السلام- وحقهما في الضمير التثنية، اتباعا لسنن اللغة في الظاهر، وسيرا على ما أسند إليه

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٥٢/٢٠).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣٨٢/٢٦-٣٨٣).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٩٥/١٦).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي (٣٨٢/٢٦).

(٥) ينظر: عروس الأفراح للسبكي (٢٧٢/١).

الفعل﴿ يَحْكُمَانِ ﴾ لكن مخالفة المرجع في ضمير الجمع وإن كان في الظاهر مخالفا لمقتضى الظاهر إلا أن هذا العدول جاء لبلاغة لا تتحقق بضمير التثنية، فلما كان الله مشاهدا لحكمهما وهو المفهم سليمان – عليه السلام- لقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء:٧٩]، جيء بضمير الجمع فنالا شرفا وعظمة؛ لأن من كان الله مشاهدا لأمره مشاهدة عناية فهو الكثير وإن كان قليلا، فكان هذا المعنى طالبا ما يدل على هذه العظمة، وهو كقول الله تعالى:﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٥]، فلما كان الله معهما، وحال موسى – عليه السلام – المضطربة تستدعي ما يؤنسه ويثبته جاء ضمير الجمع للتكثير، ومن كان الله معه فهو المنصور والغالب(١).

أما الأمر الآخر، فإنه يحتمل أن يكون ضمير الجمع جاء تعظيما لدواد عليه السلام؛ لئلا ينتقص في حكمه، ويعظم ابنه سليمان الذي فهمه الله فأصاب الحكم؛ مراعاة لحق النبوة والأبوة، والله أعلم.

ويستأنس الباحث بهذ التأويل الأخير بقول ابن عاشور فيما ذيلت الآية به، فقال: "وجملة: ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء:٧٩]، تذييل للاحتراس لدفع توهم أن حكم داود كان خطأ أو جورا؛ وإنما كان حكم سليمان أصوب"(٢).

وذكر ابن أبي الأصبع النكتة في الآية "إذ جمع الضمير الذي أضيف إليه الحكم، ومن حقه أن يكون مثنى لعلمه سبحانه أن الحكم من نوادر الأحكام المعادلة، ومثله يتّبع ويعمل به، فأخبر أنه سبحانه شهد عليهما في هذا الحكم، وعلى كل من يحكم به

---

(١) ينظر: تحليل قوله تعالى: ﴿ مَعَكُمْ ﴾ في (ص:١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٧/١٧).

تشريفاً لحكم العدل، وإن كان شهيداً على العدل والجور، ولكنه سبحانه يخص العدل بشهادته تشريفاً للعدل"[١].

وقد تباينت آراء العلماء في مرجع ضمير الجمع؛ فذكر العكبري أن الضمير في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ للذين اختصموا في الحرث. وقيل: الضمير لهم، ولداود، وسليمان. وقيل: هو لداود وسليمان خاصة، وجمع لأن الاثنين جمع[٢]، وقال الزركشي بالقول الأخير[٣] ومثله أبو الحسن القيرواني[٤]، وكذلك السيوطي[٥]، وتؤيده قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (لحكمهما)[٦]، وزاد عبد القاهر الجرجاني بأن الضمير عائد إلى داود وسليمان وقومهما[٧]، وأورد ابن عرفة احتمال أنْ يريد بالضمير الفاعل والمفعول معا، أي الحاكم والمحكوم عليه، وهو رأي ابن عطية وغيره[٨]، ثم ذكر ابن عرفة أنّ ابن التِّلِمْسَانِي[٩] رد هذا الرأي[١]؛ لأنه يجعل الضمير فاعلا ومفعولا في حالة واحدة؛ فيكون مرفوعا منصوبا[٢]، وذكر جميع الأوجه ابن عادل[٣].

---

(١) تحرير التحبير ابن أبي الأصبع(ص: ٣٤٧).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٩٢٣/٢).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي(٣٢/٤).

(٤) ينظر: النكت في القرآن (ص :٥٠١).

(٥) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣٤/٣).

(٦) ينظر روح المعاني للألوسي (٧١/٩).

(٧) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (١٢٣١/٣).

(٨) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٩٣/٤)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤٥٥/٧)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٨٧/١٧).

(٩) ابن التِّلِمْسَانِي: هو عبد الله بن محمد بن علي، أبو محمد، شرف الدين الفهري التلمساني ولد عام ٥٦٧هـ، فقيه أصولي شافعيّ.أصله من تلمسان اشتهر بمصر، وتصدر للإقراء. وصنف كتبا، منها " شرح المعالم في أصول الدين "و " شرح التنبيه " في فروع الفقه، سماه " المغني " ولم يكمله، و " شرح خطب ابن نباتة " توفي: ٦٤٤هـ. وقال ابن قاضي شهبة توفي: ٦٥٨هـ، وذكر من مصنفاته: وصنف في الخلاف كتابا سماه "إرشاد السالك إلى أبين المسالك" و"شرح الجمل في النحو" للجرجاني ينظر: طبقات الشافعية لابن قاضي =

وفي موضع آخر يأتي الضمير عائدا إلى المعنى مع جواز عوده إلى اللفظ فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:٢٧].

يترآى أمام النظر مجيء الفعل: ﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ الذي جاء فيه المسند إليه عائدا إلى بني آدم وهذا جاء مطابقا لمقتضى الحال، ولكن الضمير الذي وقع في محل النصب جاء عائدا على المتعاطفين ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي الشيطان وقبيله، وهما مثنى بالنظر إلى لفظهما، فما سرّ العدول عن ضمير التثنية الذي فيما يظهر أنه مطابق لمقتضى الحال اللفظي؟

والجواب على ذلك – والله أعلم – أن ضمير النصب عاد جمعا إلى الشيطان وقبيله؛ لأنهم كثر، وإعادة الضمير إليهم مجموعا يوحي بخطرهم لكثرتهم، إضافة إلى قدرتهم على رؤيتنا، وعدم قدرتنا على رؤيتهم، فخطرهم متمثل بكثرتهم وقدرتهم على أمور سلبت منا، ولكن حصانتنا بإيماننا، وقد اختلفت آراء المفسرين في معنى (قبيله) اختلاف تنوع، يثري الدلالة المعنوية.

=

شهبة (١٠٧/٢). والأعلام للزركلي (١٢٥/٤)، وينظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل البغدادي (٤٦٠/١-٤٦١)، وللمزيد: ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي (١٦٠/٨).

(١) قال الألوسي: في توجيه قول من قال إن ضمير الجمع للحاكمين، وللمحكوم عليهم، حيث إن إضافة المصدر نفسهلفاعله حقيقة، ولمفعوله مجاز، ونص الألوسي على أنه لا خلاف في جواز الجمع إذا كان المجاز عقليا لا لغويا ينظر: روح المعاني للألوسي (٧٢/٦) (و٧١/٩). ومن رد هذا القول أجاب بأن أقل الجمع اثنان فلذلك قال: (لحكمهم) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٧٢/١٠).

(٢) ينظر: تفسير الإمام ابن عرفة (٥٧٤/٢).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٥١/١٣).

فيرى الطبري أن قبيله: يعني صنفه وجنسه الذي هو منه، واحد جمعه (قُبُل) وهم الجن[1]، وفسر النحاس القبيل بالجنود[2]، وقال الثعلبي: قبيله خيله وجنوده وهم الجن والشياطين[3]، وروى الرازي أقوالا فذكر أن أبا عبيدة روى عن أبي زيد[4]، أنه الجماعة يكونون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى، وجمعه قبل. والقبيلة: بنو أب واحد. وقال ابن قتيبة قبيله أصحابه وجنده وقال الليث: هو وقبيله أي هو ومن كان من نسله[5]، وعند ابن منظور ﴿هُوَوَقَبِيلُهُۥ﴾؛ أي جيله، ومعناه جنسه[6].

وفي قصة هبوط آدم وحواء من الجنة عاد الضمير إليهما بعد التثنية جمعا فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣]، ففي هذه الآية جاء التلوين بين الضمائر، ففي العدول عن ضمير التثنية إلى ضمير الجماعة مخالفة لمقتضى الحال في الظاهر، وذلك في قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾ وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ﴾ و﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾، فجاء التحول من ضمير التثنية إلى ضمير الجمع.

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٠/١٣٦).

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس (٣/٢٤).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٤/٢٢٦).

(٤) أبو زيد : هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، كان إماما نحويا، صاحب تصانيف لغوية روى عن أبي عمر بن العلاء، وروى له أبوداود، والترمذي، وجده ثابت شهد أحدا وأحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من تصانيف أبي زيد كتاب النوادر، ولغات القرآن، واللامات، والمقتضب، توفي تقريبا ٢١٥هـ بالبصرة، ينظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٥٨٣/١، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزبادي (ص:١٤٣).

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٤/٢٢٣-٢٢٤).

(٦) لسان العرب، فصل الجيم، مادة (جيل)، (١١/١٣٤).

ولمعرفة ذلك فلا بد من الاستضاءة بأقوال المفسرين، والمفسرون مختلفون في عود الضمير فمنهم من قال يعود على: آدم وحواء وإبليس والحية كالسيوطي(١).

ولقد عرض الدكتور المطعني إلى مواضع اختلاف إسناد الأمر بالهبوط إلى ضمير الجمع في بعض السور، أو إلى ضمير التثنية في موضع آخر، معللا كل أسلوب، فذكر أنه جاء الأمر بالهبوط بصيغة الجمع في البقرة والأعراف لأن المخاطب ثلاثة: آدم وزوجه وإبليس، أما التثنية في سورة طه فلأن المأمور بالهبوط فريقان: آدم وزوجه فريق، وإبليس فريق آخر(٢).

ولقد وجه العلامة الشنقيطي مجيء أمر الهبوط مسندا إلى واو الجماعة في سورتي البقرة والأعراف، والتثنية في سورة طه:" أن التثنية باعتبار آدم وحواء فقط، والجمع باعتبارهما مع ذريتهما"(٣).

والذي يراه الباحث في إسناد الفعل إلى واو الجماعة مع أن الهابط اثنان هو اعتبار ما سيكون، وهذا من باب المجاز المرسل، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢]، فهو خطاب لآدم وحواء وذريتهما كما هو رأي الفراء (٤) وإلى هذا القول ذهب الزمخشري؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم(٥) وذكر الألوسي جميع الاحتمالات الآنفة ومال إلى أن الخطاب لآدم وحواء وجمع الضمير لتنزيلهما منزلة البشر كلهم(٦)؛ ولأن إهباط الأبوين إهباط لنسلهما كما قال بذلك ابن عاشور(١).

---

(١) مفحمات الأقران في مبهمات القرآن للسيوطي (١/١٢).

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (١/٣٥٩).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤/١٢٠).

(٤) معاني القرآن للفراء (١/٣١).

(٥) الكشاف للزمخشري (١/١٢٨).

(٦) روح المعاني للألوسي (١/٢٣٧).

وإذا كان القول بأن إبليس مخاطب بالهبوط عاضده قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٣] فإن قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣]، يخالفانه؛ لأن الهابط مأمور باتباع الهدى إذا أتى، لكن إبليس قد حكم عليه بالشقاء الأبدي وأن مصيره النار، وبذلك فلا معنى للقول بأنه مخاطب باتباع هدى الله الذي يأمن صاحبه من الخوف والحزن والضلال والشقاء. كما أن قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف:٢٥]، دليل على أن المخاطب آدم وزوجه وذريتهما.

ومن المواضع التي جاء فيها ضمير الجمع عائدا إلى المثنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النساء:٢٠]، ففي هذه الآية يجد الباحث ضمير الجمع الذي وقع في محل المضاف إليه في قوله: ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ عائدا إلى المذكورين في قوله: ﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ فأصبح المذكوران زوجين، ومع ذلك يعود ضمير الإناث ولا يستبدل به ضمير التثنيه كما يستدعي ذلك السياق في ظاهر الأمر، لكن ضمير الإناث –والله أعلم– يكشف عن بلاغة لطيفة، والقرينة التي تكشف هذا السر هي قوله تعالى: ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾ فهي الكلمة التي تبين أن هذه الزوجة المستبدل بها الزوجة الجديدة هي الرابعة، فلابد من طلاق إحدى زوجاته لتحلّ له الزوجة الجديدة بعد تمام عدة المطلقة، لذلك جاء الضمير عائدا إلى جميع الزوجات اللآتي فهم وجودهن

=

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٤٢٠).

من السياق، ولم يكن عائدا إلى المذكورتين، فأخذ حق إحداهن ظلم لأي سبب كان، سواء أكان بحجة الاستبدال أم بحجة أخرى، وهنا يتبين لنا شيء مما في هذا الضمير من بلاغة، وأن الضمائر تسهم في بيان المعنى وتفسيره.

وقد يكون سبب مجيء ضمير الجمع هو أن المخاطبين بذلك الأزواج بقرينة: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ ولكل رجل زوجة، ولذلك جاء ضمير الجمع. وقد نبه العكبري إلى ضمير الجمع في الآية فذكره ضمن إشكالين ثم أجاب عنهما: "أحدهما: أنه جمع الضمير، والمتقدم زوجان. والثاني: أن التي يريد أن يستبدل بها هي التي تكون قد أعطاها مالا، فينهاه عن أخذه، فأما التي يريد أن يستحدثها فلم يكن أعطاها شيئا حتى ينهى عن أخذه، ويتأيد ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ والجواب عن الأول أن المراد بالزوج الجمع؛ لأن الخطاب لجماعة الرجال، وكل منهم قد يريد الاستبدال. ويجوز أن يكون جمعا؛ لأن التي يريد أن يستحدثها يفضي حالها إلى أن تكون زوجا، وأن يريد أن يستبدل بها كما استبدل بالأولى، فجمع على هذا المعنى. وأما الإشكال الثاني ففيه جوابان: أحدهما: أنه وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل آتيتموهن. والثاني: أن المستبدل بها مبهمة، فقال إحداهن إذ لم تتعين حتى يرجع الضمير إليها"(١).

ورأى السمين الحلبي الملقب بشهاب الدين أن العكبري طول من غير فائدة، فقال:"وقد طول أبو البقاء هنا، ولم يأت بطائل"(٢). ثم ذكر كلام العكبري الآنف كاملا بالإشكالين والإجابة عنهما، وأردف السمين الحلبي قائلا: وفي قوله: "وضع

(١) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٣٤٢/١).

(٢)الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٦٣٣/٣)، وقد أورده صاحب اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٤/٦).

الظاهر موضع المضمر نظر؛ لأنه لو كان الأصل كذلك لأوهم أن الجميع آتوا الأزواج قنطارا كما تقدم، وليس كذلك"(١).

وأورد السمين الحلبي توجيهه قائلا: "والمراد بالزوج هنا الجمع، أي: وإن أردتم استبدال أزواج مكان أزواج وجاز ذلك لدلالة جمع المستبدلين، إذ لا يتوهم اشتراك المخاطبين في زوج واحد مكان زوج واحد، ولإرادة معنى الجمع عاد الضمير من قوله: إحداهن على (زوج) جمعا. والتي نهى عن الأخذ منها هي المستبدل مكانها؛ لأنها آخذة منه بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا إنما هو في القديمة لا في المستحدثة، وقال: ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ليدل على أن قوله ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ المراد منه: وآتى كل واحد منكم إحداهن أي: إحدى الأزواج ولم يقل: (آتيتموهن قنطارا)، لئلا يتوهم أن الجميع المخاطبين آتوا الأزواج قنطارا، والمراد: آتى كل واحد زوجه قنطارا، فدل لفظ ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ على أن الضمير في (آتيتم) المراد منه كل واحد واحد كما دل لفظ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ على أن المراد استبدال أزواج مكان أزواج، فأريد بالمفرد هنا الجمع لدلالة ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ وأريد بقوله: (وآتيتم كل واحد واحد) لدلالة إحداهن - وهي مفردة - على ذلك، ولا يدل على هذا المعنى البليغ بأوجز ولا أفصح من هذا التركيب"(٢).

ومما تقدم يظهر أن ما ذكره العلماء سببا لمجيء نون النسوة مع أنه مسبوق بما ظاهره التثنية، حيث الزوج المستبدلة والزوج المستحدثة، وهو ميم الجمع في قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ هو كون الخطاب للأزواج، ولكل زوج زوجة، فنشأ من هنا سبب مجيء ضمير النسوة.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٦٣٤/٣)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٤/٦).

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٦٣٢/٣-٦٣٣)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٣/٦)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥٧٢/٣).

أما السبب الآخر فهو ما انفرد به الباحث وهو أن لفظة ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾ توحي بأن الزوج المستبدلة هي الزوج الرابعة، وإلا لو لم تكن الرابعة لما جاء لفظ الاستبدال لاسيما أن الشرع لا يحبذ الطلاق مع حلِّه، فجاءت نون النسوة لتعدد الزوجات اللآتي تم الإفضاء إليهن.

وفي سورة الرحمن يذكر الله الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف مقامه بقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم تعود الضمائر على هاتين الجنتين مثناه في قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ [الرحمن:٥٠]، وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن:٥٢]، وكل هذا جاء موافقا للقواعد المشتهرة في اللغة، ولكن يتجلى الالتفات عن ضمير المثنى إلى ضمير النسوة، في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن:٥٦].

فيرى الزمخشري أن الضمير في﴿فِيهِنَّ﴾ يعني في هذه الآلاء المعدودة؛ من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى[1]، ويرى الرازي أن ضمير الجمع لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة، وروى أقوالا: منها أنه للجنتين؛ لاشتمال الجنتين على قصور ومنازل، أو هو للمنازل والقصور التي دل عليها ذكر الجنتين، أو لمجموع الجنان، أو للفرش لأنها الأقرب[2]. وذكر السمين الحلبي نحوا مما سبق وزاد تعليلا وهو أن أقل الجمع اثنان، وقد يكون لكل فرد جنتان، فصح أنها جنات[3]. وأجاز العكبري رجوع الضمير إلى منازل الجنتين، أو إلى الفرش، أي: عليهن[4].

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٤٥٣).

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص :٥٠٠)، وينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٩/٣٧٤).

(٣) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص :٥٠٠).

(٤) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (١٠/١٨١).

وفي قول من قال أن ضمير الجمع عائد إلى الفرش لدى الباحث فيه نظر، ذلك لأن الأسلوب تكرر في الجنتين الأخريتين ولم يسبق بذكر الفرش، فقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]، فدل ذلك على أن المقصود غير الفرش، ولعل المقصود أنه لما اشتملت كل جنة على مواضع كثيرة للحور، جاء ضمير الجمع إشارة إلى تكثير مواضعهن في الجنة، وكثرة المحالّ تدل على كثرة الحالّين فيها، فكان ضمير الجمع أبلغ لغرض بيان الكثرة، وتمام النعمة، فالجنتان أصبحتا كالجنان، وتأويلات العلماء الأخرى حسنة.

ومما يدل على أن الجنة تشتمل على جنان لكن اتصال هذه الجنان صيرهن كجنة واحدة لكمالها، ماذكره الله في قصة صاحب الجنتين، فعند الهلاك لم تذكر إلا جنة واحدة لاشتمال الهلاك عليها فلم يفرق بينهما، ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ [الكهف:٤٠]، فجاءت النتيجة، بقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾ [الكهف:٤٢]، فعاد الضمير مفردا، وهما جنتان، لأن الهلاك أتى عليهما ولم تميز حدودهما، والله أعلم.

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾ [الرحمن:٧٠]، لكن لا مجال للقول بأن الضمير عائد إلى الفرش لأنها لم يسبق لها ذكر في السياق، وللفراء قول في هذا الضمير، فقال: "رجع إلى الجنان الأربع: جنتان، وجنتان، فقال: فيهن"(١)، وقال بمثل هذا الإمام الطبري(٢).

---

(١) معاني القرآن للفراء (١٢٠/٣).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٢٦٢/٢٢).

وفي قول الفراء ومن تبعه نظر؛ ذلك لأن هذا الأسلوب ليس هو الأول في سياق الجنان، بل سبقه قوله: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ ولم يسبق الضمير بأربع جنان، مع ما بين هذه الجنان الأربع من تباين، ولذلك فقوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ هو عائد إلى الجنتين اللتين أقل وصفا من سابقتيها، بدليل قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الرحمن:٦٢]، ثم إن هذه الخيرات الحسان بينهن الله بقوله: ﴿ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن:٧٢]، وليس المقصورات كقاصرات الطرف، ثم ما في الوصفين من تفاوت، فالحور في الأوليتين خير منهن في الأخريتين، لذلك لا يرى الباحث عود ضمير الجمع إلى جميع الجنان الأربع، وإلا فما فائدة التفاوت بين ما في تلك الجنان؟

ولما جاء الوصف مفيدا العموم بين وصفين متضادين هو المؤمن والفاسق؛ عاد إليهما الضمير جمعا، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨] .

فقد ذكر الله سبحانه وتعالى: وصفين﴿ مُؤۡمِنٗا ﴾ و﴿ فَاسِقٗا ﴾ ثم قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ فلم يسند الفعل إلى ضمير التثنية، وظاهر السياق يقتضي ذلك، وكذلك سبب النزول الذي سينقله الباحث عن الواحدي فيما يأتي، ولعل البلاغة واضحة في كون الضمير عاد إلى المعنى لأهميته، فالحكم ليس على فردين؛ بل تحت كل وصف موصوفون بتلك الصفة، والحكم على جميع الأفراد، يؤيد ذلك الإطناب الذي كان طريقه التفصيل بعد الإجمال، وذلك عندما قال الله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة:١٩-٢٠]، فدلت الآيتان على أن المقصود ليسوا اثنين، بل الحكم

عام لكل متصف بأحد الوصفين، وفي إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة بدلا من ضمير الاثنين إيجاز لا يخفى.

أما الواحدي فيذكر أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب - رضي الله عنه — والوليد بن عقبة، وذلك فيما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه: أنا أحد منك سنانا، وأبسط منك لسانا، وأملا للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزل - أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون - قال: يعني بالمؤمن عليا، وبالفاسق الوليد بن عقبة[1].

ويرى الفراء أن الله لم يقل: يستويان لأنها عام، وإذا كان الاثنان غير مصمودين لهما[2] ذهبا مذهب الجمع[3]، ووافقه الثعلبي الذي علل مجيء الجمع بأنه لم يرد بالمؤمن مؤمنا واحدا، وبالفاسق فاسقا واحدا، وإنما أراد جميع الفساق وجميع المؤمنين، ثم يردف رأيه بقول الفراء الآنف[4]. ورأى الرازي وابن عادل أن واو الجماعة عائد إلى مَنْ[5].والعلماء مطبقون على أن واو الجماعة أريد به الفريقين[1].

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص: ٣٤٩- ٣٥٠)، وينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٠٥/٤)، وهو ضعيف. ينظر تخريجه في: الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر (٧٣/٣-٧٤)، وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٤/٢١).

(٢) أي غير مقصود؛ صَمَدَه يَصْمِدُه صَمْداً، وصَمَد إِليه؛ كلاهما قَصَدَه، وصَمَدَ صَمْدَ الأَمْر قَصَدَ قَصْدَه، واعتمده. ينظر: لسان العرب، فصل الصاد المهملة، مادة (صمد)، (٢٥٨/٣).

(٣) معاني القرآن للفراء (٣٣٢/٢).

(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٣٣٣/٧)، و اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١/٦).

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤١٦/٩)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١/٦).

ونظير ذلك في إفادة العموم، لكنه في وصف المؤمنين، قوله تعال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب:٣٦]. وقبل الوقوف على البلاغة في مجيء ضمير الجمع في قوله: ﴿لَهُمُ﴾ وقوله: ﴿أَمْرِهِمْ﴾، وهل الأخير يعود إلى الله والرسول، أم إلى الله، لا بد من استعراض شيء مما روي حول سبب النزول، وأقوال أهل العلم في الضميرين.

فقيل نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش -رضى الله عنها- عندما خطبها النبي -ﷺ- لمولاه زيد بن الحارثة -رضي الله عنه- فغضبت، فأنزل الله هذه، الآية فرضيت، على اختلاف في ألفاظ الروايات، وسندها[٢].

ومما روي عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ -رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ : خَطَبَنِى عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -ﷺ- فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ أُخْتِى أُشَاوِرُهُ فِى ذَلِكَ قَالَ :" فَأَيْنَ هِىَ مِمَّنْ يُعَلِّمُهَا كِتَابَ رَبِّهَا وَسُنَّةَ نَبِيِّهَا ". قَالَتْ : مَنْ؟ قَالَ :" زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ". فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ : تُزَوِّجُ بِنْتَ عَمِّكَ مَوْلاَكَ ثُمَّ أَتَتْنِى فَأَخْبَرَتْنِى بِذَلِكَ فَقُلْتُ أَشَدَّ مِنْ قَوْلِهَا وَغَضِبْتُ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قَالَتْ : فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ زَوِّجْنِى مَنْ شِئْتَ قَالَتْ: فَزَوَّجَنِى مِنْهُ فَأَخَذْتُهُ بِلِسَانِى فَشَكَانِى إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -ﷺ- :"أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ثُمَّ أَخَذْتُهُ بِلِسَانِى فَشَكَانِى إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ-وَقَالَ: أَنَا أُطَلِّقُهَا؛ فَطَلَّقَنِى، فَبَتَّ

=

(١) للمزيد ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٦٢٤/١٨)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١/٦)، نظم الدرر للإمام البقاعي (٢٢٧/١٥).

(٢) للمزيد ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣٨٦/٤)، والكشاف للزمخشري (٥٣٩/٣)، والاستيعاب في بيان الأسباب سليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر (١١٤/٣- ١١٧).

طَلاَقِى، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِى لَمْ أَشْعُرْ إِلاَّ وَالنَّبِىُّ -ﷺ- وَأَنَا مَكْشُوفَةُ الشَّعَرِ فَقُلْتُ : هَذَا أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بِلاَ خُطْبَةٍ وَلاَ شَهَادَةٍ قَالَ :" اللَّهُ الْمُزَوِّجُ وَجِبْرِيلُ الشَّاهِدُ " (١).

ويفهم الباحث من تفسير الزمخشري للآية أنه جعل الضمير في أمرهم لقضاء رسول الله، لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله، وليس للمؤمنين أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه، ثم قال الزمخشري في ضمير الجمع الأول:" فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا. قلت: نعم، ولكنهما وقعا تحت النفي، فعمّا كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ "(٢).

وتتبع الطِّيبِيُّ قول الزمخشري: "فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ" فقال الطيبي:" لم يذكر الفائدة في العدول عن الظاهر، ولعل الفائدة فيه الإيذان بأنه كما لا يصح لكل فرد من المؤمنين أن يكون لهم الخيرة؛ كذلك لا يصح أن يجتمعوا ويتفقوا على كلمة واحدة؛ لأن تأثير الجماعة واتفاقهم أقوى من تأثير الواحد، فجمع في الآية المعنيين معا "(٣).

وذكر أبو حيان أن ضمير الجمع عاد إلى المعنى؛ لأن قوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، يعم في سياق النفي، ثم قال في قول الزمخشري: "حق الضمير أن يوحد" قال: " ليس كما ذكر، لأن هذا عطف بالواو، فلا يجوز إفراد الضمير إلا على تأويل الحذف أي:

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، جماع أبواب اجتماع الولاة، وأولاهم، وتفرقهم، وتزويج المغلوبين على عقولهم والصبيان وغير ذلك، باب لا يرد نكاح غير الكفؤ إذا رضيت به الزوجة، ومن له الأمر معها وكان مسلما، (١٣٦/٧) رقم الحديث: (١٣٧٨٢). قال ابن التركماني: (إسناده لا تقوم بمثله حجة)، وقال: وكذا فى الحديث ابنة عمك، والصواب ابنة عمتك.

(٢) الكشاف للزمخشري (٥٤٠/٣).

(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب لشرف الدين الطِّيبِيّ (٤٢٧/١٢).

ما جاءني من رجل إلا كان من شأنه كذا، وتقول: ما جاء زيد ولا عمرو إلا ضربا خالدا، ولا يجوز إلا ضرب إلا على الحذف، كما قلنا."(١).

وذكر الألوسي أن جمع الضمير في قوله: ﴿لَهُمُ﴾ رعاية للمعنى؛ لأنهما نكرتان وقعتا في سياق النفي، وفهم من تفسير الزمخشري أن "جمعه في ﴿أَمْرِهِمْ﴾ مع أنه للرسول - ﷺ - أوّله: ولله عزّ وجلّ، للتعظيم على ما قيل"(٢).

ثم أردف الألوسي قول القائلين بأن ضمير الجمع في قوله: ﴿أَمْرِهِمْ﴾عائد إلى ما عاد إليه الأول، لعدم التفكيك، مع أن الألوسي يرى أن ضمير الجمع عائد إلى الرسول -ﷺ- أي: أمره، ولا يمانع أن يكون المعنى ما كان للمؤمنين أن يكون لهم اختيار في شيء من أمورهم، إذا قضى الله ورسوله لهم أمرا، ولا يسلم أن ما عد مانعا مانع(٣).

ولعل ما خلص إليه الباحث أن ضمير الله جل شأنه لله وحده لا يشرك به أحد، وإذا جمع فذلك للعظمة ولتعدد أسمائه وصفاته، ولأمره على خلقه، وعلى ذلك فالقول بأن ضمير الجمع لله ولرسوله فيه نظر، والذي يراه الباحث أنه للمؤمن والمؤمنة، لأن التفكيك بغير دليل ينشيء اضطرابا بالنظم وهذا منزه كلام الله عنه، والكلام يستقيم بغير التفكيك.

وعلل ابن عادل ضمير الجمع في قوله: ﴿أَمْرِهِمْ﴾ ومابعده بأن المراد بالمؤمن والمؤمنة الجنس(٤). وكذلك ابن عاشور فمن ما يفهم من تفسيره أنه يرى أن ضمير

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٤٨١/٨).

(٢) روح المعاني للألوسي (٢٠٢/١١).

(٣) روح المعاني للألوسي (٢٠٢/١١).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٥١/١٥).

الجمع هنا أيضا عائد إلى مؤمن ومؤمنة فقال: "﴿أَمْرِهِمْ﴾ بمعنى شأنهم وهو جنس، أي أمورهم"(١).

وفي سورة الصافات تأتي الضمائر كلها للاثنين، ويتوسطها ضمير جمع والمرجع لجميع الضمائر مثنى، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات :١١٤-١٢٢] فالكلمات: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا﴾ و﴿وَقَوْمَهُمَا﴾ و﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾ و﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ و﴿عَلَيْهِمَا﴾ و﴿ إِنَّهُمَا﴾ بينما يجد الباحث كلمات في آية واحدة توسطت السياق لحقها ضمير الجمع وهي: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ و﴿فَكَانُوا۟ هُمُ﴾ وهذا التلوين في الضمير راجع إلى دقة النظم القرآني، فقد حضر ضمير الاثنين في جميع آيات القصة، ولم يحدث التغيير إلا في موضع واحد، فانصرف فيه من ضمير الاثنين إلى ضمير الجمع ثم عاد السياق إلى ما بدأ به، وذلك لأن ضمير الجماعة يشرك قومهما معهما، أما الأفعال الخاصة بالنبيَين فضمير التثنية فيها حاضر، ومن بلاغة ضمير الجمع أيضا الذي لم يأت للاثنين كسابقه وتاليه هو لفظ ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقيل معناه "هو ما كانوا فيه من المذلة تحت سلطة الفراعنة... على أن الكرب العظيم أطلق على الغرق في قصة نوح السابقة، وفي سورة الأنبياء..."(٢)، وقد دل على شدة خطره كونه كربا ووصف بالعظمة، مما يوحي بقلة الناجين أو انعدامهم، فجاء ضمير الجمع لبيان عظمة النعمة، ولو جاء الضمير للاثنين لما دلّ على تمام النعمة وكمال الانتصار؛ لأنه قد يفهم منه أن بعض القوم لم ينج،

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٨/٢١).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٣).

ولكن جاء ضمير الجمع عائدا على كل من ذكروا قبله إظهارا للنجاة من الغرق، والمذلة، وجاء ضمير الفصل مفيدا القصر ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ تأكيدا، وتعريضا بفرعون وقومه الذين أدركهم الغرق فأهلكهم. وقد يكون من أغراض ضمير الجمع إرادة تعظيم النبيين، فأدخل التابع تحت ذكر متبوعه، فخاطب الرئيس تعظيما له؛ وشمل بالجمع من يتبعونه، ويأتمون بقوله.

وقد ذكر بعض العلماء لطائف في هذا العدول، فأما الفراء فيرى أن هذا من سعة العربية، فالجمع هنا لأنه ذهب بالرئيس إلى الجمع لجنوده وأتباعه(١)، وأما أبو جعفر النحاس فيرى أن ضمير الجمع لموسى وهارون وقومهما(٢)، وفي معاني القرآن علل مجيء ضمير الجمع بدلا من التثنية بأن الاثنين في الأصل جمع، أو أنه كما يخبر عن الواحد بفعل الجماعة، ويرى أن الصواب القول القائل بأن ضمير الجمع يعود إلى موسى وهارون - عليهما السلام - وقومهما(٣)، وقال بالقول الأخير الزمخشري(٤)، وإلى هذا المعنى مال الشنقيطي(٥)، وعليه أغلب أهل العلم ، ويرى أبو حيان أن الضمير في ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ ﴾ عائد على موسى وهارون وقومهما، ونقل القول القائل بأنه عائد على موسى وهارون فقط، تعظيما لهما بكناية الجماعة(٦). وبهذه الأقوال لهؤلاء العلماء الأفذاذ، ثم الرجوع إلى السياق تتجلى الأسرار، وبلاغة الآي أوسع مما وصلت إليه الأفهام.

وفي موضع آخر يأتي الجمع عائدا إلى الاثنين - عليهما السلام -﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/٣٩٠-٣٩١).

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/٣٩٢).

(٣) ينظر: معاني القرآن للنحاس (٦/٥٣).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٥٩).

(٥) ينظر: أضواء البيان (٦/٣٢٠) .

(٦) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/١٢١).

ﵟٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧ﵞ [يونس:٨٧]، فالموحى إليهما بالأمر هما موسى وهارون - عليهما السلام – فما السر في الانتقال من ضمير الاثنين إلى ضمير الجمع في وقوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ فالتثنية لأنهما هما اللذان يوحى إليهما، أما ضمير الجمع فلأن كل مكلف عليه أن يستجيب لما أوحي إلى نبيه[1]، وأن يمتثل الأمر فيصلي في بيته ليأمن من تسلط فرعون وجنوده. ولو جاء بدل ضمير الجمع ضمير الاثنين لحدث اللبس بكون التكليف خاصا بمن أوحي إليهما، فترك ضمير الاثنين واستعمل ضمير الجمع دفعا للتوهم؛ لأن الأمر متعلق بتكليف شرعي، فلا بدّ أن يكون جليا. ويرى القصّاب أن الآية: "حجة في تخلف الخائف عن الجمعة؛ لأن موسى وأخاه وقومهما - لا محالة - كان فرضهم أن يصلوا في مسجد بيوت المقدس"[2].

ويذكر الفراء أن فرعون قد أمر بتهديم المساجد، فأمر موسى وأخوه أن يتخذا المساجد في جوف الدور، لتخفى من فرعون[3].

وقال الزمخشري مجيبا على الانتقال من المثنى إلى الجمع ثم إلى الإفراد:" قلت: خوطب أولا موسى وهارون أن يتبوؤا لقومهما بيوتا ويختاروها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه -الصلاة والسلام- بالبشارة تعظيما لها وللمبشِّر بها"[4].

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٢/١١).

(٢) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصاب (٥٩٥/١).

(٣) معاني القرآن للفراء (٤٧٧/١).

(٤) الكشاف للزمخشري (٣٦٤/٢)، وأنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ١٩١).

ويرى الزركشي أن التثنية جاءت لكونهما المتبوعين، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنه واجب عليهم، ثم خص موسى بالبشارة تعظيما له(١).

وذكر ابن الأثير أن تنويع الخطاب هذا من التوسع في الكلام، "فخاطب موسى وهارون – عليهما السلام – بالنبوة والاختيار، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد، وإقامة الصلاة، كأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى – صلوات الله عليه – بالبشارة التي هي الغرض، تعظيماً له وتفخيماً لأمره، ولأنه الرسول على الحقيقة"(٢).

ويخلص الباحث من ذلك أن جميع أولئك العلماء لاحظوا مجيء ضمير الجمع عائدا إلى الاثنين خلاف الظاهر، وعلموا أن ذلك ما جاء إلا لغرض بلاغي، ينتمي إلى علم المعاني، فتقاربت تأويلاتهم، وظهر الاتساع المعنوي، مع الإيجاز اللفظي.

ولعل البعض يرى أن ذلك سببه كون المثنى هو أول الجمع، مستدلين بقول الاثنين، نحن فعلنا، فالضميران للجماعة ويشترك معهما الاثنان، لكن تبين أن وراء ذلك أغراضا، فيأتي ضمير الجماعة عائدا إلى الاثنين لكثرة منافعهما، وتغيرهما، كما عاد إلى الشمس والقمر، ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾. ويعود ضمير الجمع إلى الاثنين لإيناسهما من فزع، كي يطمئنوا ويثقوا بالقوة الناجمة عن الجمع، من ذلك خطاب الله موسى وهارون –عليهما السلام– ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]، وقد عاد ضمير الجماعة على موسى وهارون بقوله: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾ بعد عدة ضمائر مثناه، كما في: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا﴾ و﴿وَقَوۡمَهُمَا﴾ و﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾ و﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا﴾ و﴿عَلَيۡهِمَا﴾ و﴿إِنَّهُمَا﴾. وذلك لأن ضمير الجماعة يشرك قومهما

(١) البرهان علوم القرآن (٢/٢٤٢).

(٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير (ص: ١٠١)، وينظر: المثل السائر لابن الأثير (٢/٢٨١).

معهما، لا سيما والنعمة على الكل، أو قد يكون الضمير للتعظيم، ونحوه. أما الأفعال الخاصة بالنبيين فضمير التثنية فيها حاضر، وكقوله عن حكم داود وسليمان–عليهما السلام– ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾، فقد جاء ضمير الجمع على التعظيم لأن الله مشاهد لهم. وينتقل الضمير من الاثنين إلى الجمع في مواطن التكليف ليعم الكلّ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، ويعود على اللفظين إذا دلا على الجنس، كما في قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ فعاد الضمير إلى المعنى. ومثل ذلك الطائفتان، وجاءت ضمائر الجمع لتصور مشهد الاقتتال، ثم لتصور مشهد الصلح وتكثير المصلحين حضا لهم على فعل الخير، ومثل ذلك الخصمان، والخصم الذين تسوروا المحراب، فقد رسم التلوين بين الضمائر الحركة المضطربة بين الخصوم، وتصاعد أحداث القضية. ويأتي ضمير الجمع للاثنين إذا كانا مكانين واسعين مشتملين على نعم عديدة ومتنوعة، فأصبح المكانان كالمواضع الكثيرة كقوله تعالى عن الجنتين: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ﴾، و﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾، إلى غير ذلك من الأغراض التي يجليها السياق.

الفصل الثاني : مخالفة الضمير مرجعه في نوع الجنس في القرآن الكريم:

المبحث الأول : عود ضمير المذكر العاقل على غير العاقل

المبحث الثاني : عود ضمير المؤنث العاقل على غير العاقل

المبحث الثالث : عود ضمير المذكر على المؤنث .

المبحث الرابع: عود ضمير المؤنث على المذكر

الفصل الثاني: مخالفة الضمير مرجعه في نوع الجنس في القرآن الكريم :

المبحث الأول: عود ضمير المذكر العاقل على غير العاقل

يراد بالنوع في هذا الفصل المذكر والمؤنث وكذلك العاقل وغير العاقل، ومن المعلوم أن لكل نوع جنس من هذه الأنواع ضمائر تناسبه، لا يصلح أن يستبدل بها غيرها، وإن استبدل بها غيرها عدّ ذلك خطأ إلا أن يحمل الاستبدال بلاغة، فالكلام البليغ إذا عدل بضمير فأعاده إلى مرجع بينهما تخالف في الظاهر، فإن على الباحث أن يغوص في أعماق السياق، ويتشبث بالقرائن الحافة، التي قد تكشف عن تأويل يظهر أن ظاهرة العدول أبلغ من موافقة مقتضى الظاهر، لما يبرزه هذا التأويل من معنى لا يتأتى بغير هذه التي هي في الظاهر مخالفة، فيكون ذلك أدعى لإعمال ذهن المتلقي، ليتلذذ في المعنى المختفي تحت أسرار هذا التركيب البليغ لحظة نيله، والذي لا يتكشف لكل أحد، بل بينه وبين المستعجل حجاب مستور.

وإذا كان الحمل على المعنى(١) أحد السبل التي يُتكأ عليها لبيان سبب مخالفة الضمير مرجعه في التذكير أو التأنيث، أو في رجوع ضمائر العاقل إلى غير العاقل، أو العكس، فلا شك أن ذلك لكون المعنى هو السيد، والألفاظ خدم له، والفضيلة لا تكون في مخالفة مقتضى الظاهر إلا إذا طلبت المعاني ذلك تلبية لما يريده المتحدث.

لذلك فقد رفض الشيخ عبد القاهر الجرجاني من نصر اللفظ على المعنى عند حديثه عن التجنيس وأن اللفظ لا يكتسب فضيلة ذلك إلا بنصرة المعنى(٢)، وإن كان كلام الجرجاني في التجنيس إلا أنه عام لكل أسلوب، فالسيد المعنى، وفي ذلك يقول الجرجاني:" إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقَّة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جِهَته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه"(٣).

---

(١) عقد ابن جني له فصلا، ينظر: الخصائص لابن جني (٢/٤١٣-٤١٧).

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ص: ٨).

(٣) المصدر نفسه(١/٨).

ومن أكثر المواطن التي عاد فيها ضمير العاقل على غير العاقل ما جاء من باب المجاز على سبيل الإدعاء والتخييل، ومن ذلك ما يسمى التشخيص، فإنهم إذا بثوا في الجمادات روحا نادوها، وأعادوا ضمير العاقل إليها، وهي ليست بعاقلة، ولكن لغرض التشبيه، فيجمع بين علم المعاني في إيجازه وبين علم البيان في مجازه، وهذا في كلام العرب أكثر من أن يحصى، ويصدق عليه قول الجرجاني: "فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخُرس مُبينة"(١).

وهذا باب واسع وشواهده مستفيضة، ومن ذلك ما جاء في معلقة امرئ القيس حيث قال:

أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا اِنجَلي ... بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ
فَيا لَكَ مِن لَيلٍ كَأَنَّ نُجومَهُ ... بِكُلِّ مُغارِ الفَتلِ شُدَّت بِيَذبُلِ

فالشاعر هنا يخاطب الليل بضمير خطاب لا يصلح إلا لمن يعقل، وجاز هنا لما فيه من استعارة تدل على التوسع اللغوي، وبث الحياة فيما لا حياة فيه، فكان في ذلك بلاغة وتصوير يسلب الألباب، ويدهش الأسماع.

وقد جاء هذا الأسلوب في القرآن، ولكن ليس على سبيل المجاز بل جاء على الحقيقة لتصريح القرآن بذلك كقوله تعالى إخبارا عن حوار سليمان مع الهدهد، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل:٢٧]، فتاء الخطاب جاء لكون المخاطب يعقل حديث سليمان -عليه السلام- الذي علم منطق الطير.

وفي القرآن الكريم يأتي هذا الأسلوب، ولكن بصورة أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف:١٠١].

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (١/٤٣).

والظاهر أن الضمائر عائدة إلى القرى وقد فهم الباحث هذا من تأويل الزمخشري[1] وابن عاشور[2]، وغيرهم، وصرح الألوسي بأن الضمائر الثلاثة متوافقة في المرجع[3]، وقال يمان بن رئاب[4]: إن الضميرين الأولين لأهل القرى، والضمير في كذبوا لأسلافهم[5] وكذا جوزه ابن عطية ضمن أربعة أوجه، أي: فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء[6] ورفض هذا القول الألوسي ووسمه بالتعسف[7].

ومقتضى الظاهر في هذه الآية أن يعود الضمير لغير العاقل فيقال: جاءتها، بدلا من: ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾، وكذلك الضمائر الأخرى، لتعود إلى القرى، لكن جاء ضمير العاقلين ليفسر المحل بالحالّ، على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، لأن ما أصاب المحلّ كان بذنوب الحالّ، وفي ذكر القرى إفادة العموم، واللفت إلى ما أصاب القرى من هلاك لإعراض أهلها، وأن غضب الجبار يشمل المكان والسكان، ويبرز عظمة مهلكها، مع أن ما قص هو بعض أنباء القرى، وذلك يشمل كل قرية وأهلها، فهو أوسع من الاقتصار على الأهل، فأثر الهلاك من الأنباء واضح، فأشير إليه باسم الإشارة﴿تِلۡكَ﴾، مع أن المذكور المحلّ والمراد الحالّ لكونه السبب، فهيأ ضمير العاقلين

---

(١) الكشاف للزمخشري (١٣٥/٢)، وينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب لشرف الدين الطِّيبِيّ(٤٩٥/٦).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٨/٨-٢١٩).

(٣) روح المعاني للألوسي (١٧/٥).

(٤) يمان بن رئاب: هو يمان بن رئاب خراساني قال الدارقطني: ضعيف من الخوارج، وقال ابن حزم الفقيه: يمان، وهارون، وعلي بنو رئاب، فهارون من أئمة السنة، ويمان من أئمة الخوارج، وعلي من أئمة الروافض، وكانوا متعادين، ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٤/٥)، وينظر: المغني في الضعفاء، للذهبي (٧٦٠/٢).

(٥) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٤٢/٩)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٢٤/٥).

(٦) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية(٤٣٤/٢)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٤٢/٩).

(٧) روح المعاني للألوسي (١٧/٥).

للحديث عن أهل القرية، فعادت الضمائر الثلاثة إلى العاقلين مع أن المذكور القرى؛ فالعدول فسر وأفاد وأوجز، وبما أن ذكر أهل القرى تكرر قبل هذه الآية في عدة مواضع منها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف:٩٦]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ (٩٧)﴾ [الأعراف:٩٧]، وقوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ [الأعراف:٩٨]، فأصبح المقصود مفهوما، فقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف:١٠١]، فضمير القرى، وضمائر العاقلين جمعت المحلّ والحالّ وابتديء بضمير القرى أولا لأنه أثر مشاهد، ثم عاد الضمير إلى العاقلين لأنه خبر، فجمع بين المحلّ والحالّ لكونهما محل الاعتبار، وقال ابن عاشور:" والمراد بالقرى وضمير أنبائها: أهلها"(١)، وأضاف أن هذه القرى لما تكررت بالتعيين والتعميم صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة فصلح الإشارة إليها ب(تلك)(٢).

ويذكر الألوسي لهذا العدول نكتة بلاغية فيقول:" وتصدير الكلام بذكر القرى وإضافة الأنباء أي: الأخبار العظيمة الشأن إليها؛ مع أن المقصود أنباء أهلها وبيان أحوالهم حسبما يؤذن به قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لما ذكره شيخ الإسلام من أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال، بحيث يشمل أماكنهم أيضا بالخسف والرجفة وبقائها خاوية معطلة أهول وأفظع"(٣).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ [هود:١٠٠-١٠١]، فقد أعاد الله -سبحانه وتعالى- ضمير العاقلين في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ وما بعده

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٧/٨).

(٢) المصدر نفسه(٢١٦/٨-١١٧).

(٣) روح المعاني للألوسي (١٥/٥-١٦).

إلى القرى، فلم تأت الضمائر عائدة إلى لفظ القرى كما عاد الضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾، بل جمع هذا الضمير وضمائر العاقلين المحلّ والحالّ، وأثر المحلّ أطول بقاء من الحالّ المخبَر عنه، وأيضا ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود:١٠٠]، لذلك بديء بضمير القرى، ثم عدل إلى ضمير العاقلين، وقيل: التقدير أهل القرى، يؤيده قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾، فعاد الضمير على ذلك المحذوف[(١)]، وقال ابن عاشور: وضمير الغيبة في ﴿ظَلَمْنَاهُمْ﴾ عائد إلى ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ باعتبار أهلها لأنهم المقصود[(٢)]، والذي أميل إليه هو أن الضمير لا يعود على محذوف، بل يعود إلى القرى المذكورة على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، والقول في ذلك كالقول في نظيره في الآية السابقة.

وقد يسند ما يكون للعاقلين إلى غير العاقلين مجازا، ومن ذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢] فأسند ما يكون للبشر إلى القرى، من باب المجاز العقلي[(٣)]، وذلك لأن الظلم استشرى بها، فكأن كل بقعة ظالمة، لكونها تحمل ظالما، والضمير (هي) وإن كان عاما للعاقل وغير العاقل، إلا أن قوله: ﴿ظَٰلِمَةٌ﴾ يجعل الضمير للعاقل. ومن هنا أستخلص نتيجة مهمة وهي أن عود الضمير العاقل على غير العاقل يترتب عليه في الغالب مجاز مرسل أو مجاز عقلي.

ومن مواطن عود ضمير المذكر العاقل العائد إلى غير العاقل ما جاء في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة:٣١]، فالأسماء كلها تنقسم قسمين: منها ما هو اسم لمسميات عقلاء، ومنها - وهو الأغلب- لغير العقلاء، فعاد ضمير الغائب في

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٦/٢٠٧).
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/٣٢٦).
(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (٢/٣٥٠).

﴿كُلَّهَا﴾ على كل اسم لمسمى، وهي دائرة يعز ما فيها على الحصر، وقد علم الله آدم جميع هذه الأسماء، ثم عرض مايختص بالعقلاء، وذلك في قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ فضمير الجمع هنا للعقلاء وهو شامل لهم ولغيرهم من باب التغليب، أو لأنهم بعض ما خلق الله، فكون الملائكة جهلوا أسماء أولئك فجهلهم لما سواه أظهر، أو أن الأسماء عرضت على شكل شخوص كما ذكر الفراء.

فقال الفراء: "فكان عرضهم على مذهب شخوص العالمين وسائر العالم، ولو قُصِد قَصْد الأسماء بلا شخوص جاز فيه عرضهنّ وعرضها"[(١)].

وقال أبو عبيدة: أي عرض الخلق[(٢)]، وعند ابن قتيبة أنها أسماء ما خلق الله في الأرض، والمعروضون أعيان الخلق[(٣)]، وأورد الجرجاني تأويلات منها أنها أسماء جميع المخلوقات وقيل:أسماء الملائكة، وقيل: أسماء ذريته، وقيل: أسماء آحاد الجنس دون المشتركة، وقال: "ولم يقل: عرضها لتغليب العقلاء كالعالمين"[(٤)]، وبهذا التعليل علل الزمخشري ضمير العقلاء[(٥)]، وزاد ابن عاشور "لأن أشرف المعروضات ذوات العقلاء وصفاتهم"[(٦)] وجمع ابن عادل تأويلات كثيرة[(٧)]، وقال البقاعي: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي الأشياء[(٨)] ثم أورد الجرجاني قولا للحرالي وفيه[(٩)]: وأجرى على الجميع ضمير (هم)

---

(١) معاني القرآن للفراء (٢٦/١).

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣٦/١).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص (٤٥-٤٦).

(٤) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (١٤٠/١-١٤١).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٢٦/١).

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٩٣/١).

(٧) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥١٣/١-٥١٤).

(٨) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٤٣/١).

(٩) الحرالي هو: أبو الحسن، علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الأندلسي، مفسر، فقيه، أصولي، من علماء المغرب، وأخذ النحو عن ابن خروف، لهج بالعقليات، وكتب في المنطق، ومن كتبه "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" في التفسير، مخطوط، توفي في الشام بحماة =

لاشتمال تلك الكائنات على العاقلين وغيرهم؛ وبالتحقيق فكل خلق ناطق حين يستنطقه الحق، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥]، وإنما العجمة والجمادية بالإضافة إلى ما بين بعض الخلق وبعضهم. ا.هـ.(١).

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة، قول من قال في قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة، دون سائر أسماء أجناس الخلق. وذلك أن الله تعالى ذكره قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ يعني بذلك أعيان المسمَّين بالأسماء التي علمها آدم. ولا تكاد العرب تكني بالهاء والميم إلا عن أسماء بني آدم والملائكة. فأما إذا كنَتْ عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفنا، فإنها تَكْني عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، فقالت: عرضهن أو عرضها"(٢).

ولما ذكر الله العاقل بين مذكورات غير عاقلة، لا يدرك الإنسان لها عقلا، قال الله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور:٤٥]، فجاء في السياق عاقلا بين غير العقلاء، فالناس هم الصنف الذين يمشون على رجلين، وهم يمثلون نسبة قليلة مما خلق الله، أما من يمشي على بطنه، أو يمشي على أربع فأكثر، فهي حيوانات لا يحصي عدها سوى الله، والضمير الذي خالف مقتضى الظاهر هو عود ضمير الغائبين (هم) الخاص بالعقلاء إلى الأصناف الثلاثة في مواضعها الثلاثة،﴿ وَمِنْهُم ﴾ جاء

=

سنة ٦٣٧هـ، وقيل ٦٣٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي(٣٠٩/١٦)، ومعجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض (٣٥٢/١-٣٥٣).

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٤٣/١).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٥١٨/١).

الضمير مناسبا لأكرم مذكور، فجاء ضمير العقلاء عائدا إلى العاقل وغير العاقل تغليبا وتكريما للعاقلين، وإظهارا لقدرة الله -سبحانه وتعالى- في الجميع، فبقدرته عقل أمره ما يظهر للعقلاء أنه غير عاقل، فسبح وسجد، فعاملها الله بما يعلمه، لا بما نعقله، فسبحان الله.

ويرى الباحث أن الله لما قدم الأعجب(١) في إظهار القدرة فبدأ بمن يمشي على بطنة، وكان في ذلك تأخير للإنسان مع كونه أشرف المذكورات لما منّ الله عليه به من العقل، استدعى ذلك الإتيان بضميره في جميع المواطن، تشريفا و"تغليبا لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم" (٢) .

وقد رد الباقلاني على الملحدين القادحين بالقرآن لأنه قال: ﴿فَمِنْهُم﴾، وهذا كناية عن العقلاء، وقوله: كل دابة يدخل فيها ما يعقل وما لايعقل؟ فقال: فأما قولهم فمنهم فإن ابتدأ فقال كل دابة وهو لفظ يصلح تناوله للناس وغيرهم، ويجب عند قوم تناوله لذلك، ثم فصل وذكر الناس منهم فقال منهم: فكنى عنهم كناية العقلاء... وكذلك العرب تعبر عما لا يعقل إذا ذكر مع العاقل في اللفظ الموضوع لما يعقل فيقولون: الرجل وإبله مقبلون، ولا يقولون ذلك في الإبل وحدها، ويقولون في الإنسان وغيره هذان مقبلان، وهذان الشخصان مقبلان، ولا يقولون ذلك في اثنين لا عاقل فيهما، وإذا كان ذلك كذلك بطل ما قالوه"(٣).

---

(١) ينظر: تحرير التحبير ابن أبي الأصبع(ص :١٩٢)، والمثل السائر لابن الأثير (١٨٣/٢)، والطراز للعلوي (٤٢/٢).

(٢) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني (ص: ١٣)، وينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٢٥)، وينظر: روح المعاني للألوسي (٣٨٥/٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٣/١٨).

(٣) الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني (٧٥٤/٢-٧٥٥).

وجوز المبرد هذا الأسلوب؛ لأنه قد خلط مع الآدميين غيرهم[1]، زاد العكبري (من) فيهما لما لا يعقل؛ لأنها صحبت (من) لمن يعقل؛ فكان الأحسن اتفاق لفظهما. وقيل: لما وصف هذين بالمشي والاختيار حمله على من يعقل[2].

وذكر الطبري -كما سبق كلامه- أن العرب إذا ذكرت أصناف المخلوقات ومن بينها بنو آدم، أو الملائكة، فإنها تكْني بالهاء والنون، أو الهاء والألف وربما كنت بالهاء والميم، كما في الآية السابقة[3].

ولما أنبأ الله عن تسبيح جميع المخلوقات أعاد إليها ضمير العاقلين، فقال سبحانه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٤]، ففي قوله: ﴿ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ عاد ضمير العاقلين إلى كل شيء يسبح، وأكثر المخلوقات ليس في عداد العقلاء، فما سر هذا الضمير؟ ولعل الجواب في كون جميع المخلوقات تعقل التسبيح فتسبح، لكن الإنسان لا يدرك ذلك، فأعاد الله إليها ضمير العاقلين تشريفا، وقد يكون في ذلك تعريض بمن لا يسبح من البشر، وبمن يصف الله بما لا يليق، فعبد من ينزه الله ويسبحه، فكان المعبود من دون الله أوعى من العابد المشرك.

وقد ذكر الرازي أن التسبيح يقصد به التنزيه، والكفار يضيفون إلى الله الزوج والولد وهم بذلك لا ينزهون، وذكر من آرائه أن التسبيح بلسان المقال يكون من المؤمنين، والتسبيح بلسان الحال يكون من جميع الموجودات؛ لأنها دالة على وجود الصانع وعظيم قدرته، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه، فيرى بذلك أن التسبيح حقيقة ومجاز، والمجاز حاصل من الجميع [4].

---

(١) ينظر: المقتضب للمبرد (٥٠/٢).

(٢) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٩٧٥/٢) .

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٥١٨/١).

(٤) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص :٢٧٩-٢٨٠).

وفي رأيه القائل أن التسبيح بعضه على غير الحقيقة نظر؛ لأنه يخالف صريح الآية، ولا يلجأ للتأويل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة بينة، ولما نفي الفقه عن العقلاء لم يدل على أن ذلك مجاز؛ لأنه لا لوم على من لم يفقه ما ليس بحقيقة، بل البشر لا يفهمون بعض لغات البشر، لكن سليمان - عليه السلام - تجاوز ذلك وعلم منطق الطير ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، فلا غرابة حينئذ في حقيقة هذا التسبيح الذي لا نفقهه، ومثله قول الله في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور:٤١]. فقدرة الله في تكلم الجمادات ظهرت أمام الملأ في حنين الجذع.

فعَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ"(١).

ومثل ذلك: حديثُ جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ قالَ : قالَ رسُولُ اللهِ -ﷺ- : "إنِّي لأعْرِفُ حَجَرًا بمَكَّةَ كَانَ يُسَلِمُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ أُبْعثَ إنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ"(٢).

ومن أشراط الساعة تكلم الحجر، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ "تَقْتَتِلُونَ أَنْتُمْ وَيَهُودُ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِى تَعَالَ فَاقْتُلْهُ"(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النُّبوَّة فِي الإِسلام (ص: ٨٨٣) رقم الحديث: ٣٥٨٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (١٧٢٨/٤) رقم الحديث: ٢٢٧٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ، برقم (٢٩٢١)، (٢٢٣٨/٤).

وبعد هذه النصوص الصحيحة ليس لأحد أن يصرف المعنى بالتأويل وهو بيّن على ظاهره، وستمرّ جملة من الآيات التي تثبت النطق لبعض ما يُرى في الأعين جماد.

وتسبيح السموات والأرض حقيقة في نظر الباحث بعد هذه الأدلة، وقد وجد أن الزمخشري يرى أن تسبيحها بلسان الحال[١]، وعلق الطِّيبي على ذلك بقوله:"الأشياء كلها تسبح له، ويسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار، ولا خلاف أن السماوات والأرض والدواب مسبحات بالتسخير، من حيث أحوالها تدل على حكمة الله تعالى، وإنما الخلاف في السماوات والأرض هل تسبح بالاختيار؟ والآية تقتضي ذلك بما ذكرتُ، والله أعلم"[٢].

وذكر الرازي بتفسيره أن المكلف يسبح بوجهين : الأول بالقول، والثاني: بدلالة أحواله على التوحيد، وغير المكلف يسبح بالطريق الثاني[٣]، وذكر الألوسي أن الأكثرين من العلماء ذهبوا إلى أن التسبيح حالي لا قالي[٤]، لكن الأولى عنده أن يلتزم حمل التسبيح على ما هو الأعم من الحالي والقالي ويثبت كلا النوعين لكل شيء[٥]، وأنكر ذلك ابن تيمية والشنقيطي، وهما ينكران المجاز عامة، وفي هذه الآية خاصة[٦] والصواب: عدم النفي مطلقا، وقد عرض لهذه المسألة الدكتور محمد أبو موسى في

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٦٦٩).

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب لشرف الدين الطِّيبِيّ(٩/٣٠٦).

(٣) ينظرك مفاتيح الغيب للرازي (٣/ ٣٤٧).

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤/١٣٩).

(٥) ينظر: المصدر نفسه(٨/٨٣).

(٦) ينظر: المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (ص:٦١). وينظر: منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشنقيطي(ص: ٢٦).

صدر كتابه التصوير البياني(1)، فقال كلمة موجزة: "أنه من الممكن أن نعتقد مذهب السلف في الأسماء والصفات وهو مذهب قويم وسليم من دون أن ننكر المجاز"(2).

ويأتي ضمير العاقل عائدا إلى غير العاقل في مواطن الحجج، لينزل المتكلم نفسه مكان أصحاب الاعتقاد، كي ينفذ من ذلك إلى ما يعتقد، ومن ذلك محاجة إبراهيم -عليه السلام- لقومه، فإنه لما كان يشترط في المعبود أن يكون عاقلا جاء اسم الفاعل مناسبا لذلك فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام:٧٦]، فاسم الفاعل ﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾ له معمول تقديره (هم)، والمشار إليه كوكب، وتأويل ذلك أن في هذه الآية المعبود مذكر ولا بد أن يكون عاقلا أي يكون عالما، ولكن المشار إليه ليس بعاقل ولا عالم، فكيف عومل معاملة العاقلين؟ ولعل الجواب بما كان يعتقده إبراهيم -عليه السلام - في الظاهر أمام قومه، فجعل ذلك مكيدة لهم وحجة عليهم؛ ليبين لهم نقص معبودهم، فيتضح جهلهم، فهو لم يعامل الكوكب على أنه كوكب، لكنه عامله على أنه رب، نزولا إلى ما يعتقده قومه في النجوم، فوافقهم ليصغوا إليه، ثم ليصل إلى بطلان قولهم بالبرهان النابع من المناظرة، ومثل ذلك تذكيره للشمس وهي مؤنثة، فجاء الأسلوب مناسبا للمعتقد الذي يزعمه، وفي قوله: ﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾ قدح في كل معبود من دون الله يغيب وإن كان عاقلا، فنال القدح عبادة الأصنام لأنها تأفل وليست بعاقلة، فجمعت بين النقص والاختفاء، وتسيير غيرها لها.

ويضاف إلى قول الباحث ما علل ابن عاشور به مجيء اسم الفاعل للعقلاء بقوله:" وجاء بـ ﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾ بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقلاء بناء على

(١) ينظر: التصوير البياني، د.محمد أبو موسى (ص: ١٠-١٥).

(٢) المصدر(ص:١١).

اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبودا إلا وهو عالم"(١).

وكثيرا ما يعود ضمير العقلاء إلى الأصنام لما يعتقده عبادها بها من نفع وضر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء:٥٨].

ففي هذه الآية عاد ضمير العقلاء على الأصنام المكسرة مرة واحدة، وذلك في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾، وعاد على الصنم الكبير مرة واحدة فقال: ﴿كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ والذي يتضح للباحث من الضميرين أنهما لم يأتيا للعاقل لكونهما معبودين فحسب، لكن وراء هذين الضميرين تشنيعا وتقبيحا بعاقل ذُلّ ولم يرفع يدا لدفع الضر عن نفسه، بل أصبح جُذاذا، وتشنيع أشد على متروك كبير لم يدافع عمن معه، بل لم يفرّ بنفسه وهو يرى ما حلّ بمن حوله، فرسم الضميران صورتين قبيحتين لهوان مدمَّرٍ، وهوان باقٍ.

وعلل النحاس تذكير الأصنام بقوله:" فجاء مذكرا لأنهم جعلوا الأصنام بمنزلة ما يعقل في عبادتهم إياها"(٢).

وقال بن عاشور:"وأجري على الأصنام ضمير جمع العقلاء محاكاة لمعنى كلام إبراهيم؛ لأن قومه يحسبون الأصنام عقلاء"(٣).

ويوافق ما ذهب إليه النحاس وغيره ما جاء على لسان قومه – عليه السلام- بعد أن رأوا ما حلّ بأصنامهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء:٦٠]، ويوافق رأي الباحث التسميات التي سمى بها إبراهيم آلهتهم فقد سماها تماثيل وأصناما، وهم يسمونها آلهة.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٨/٦).

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٥٢/٣)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٢٥/١٣).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٢/١٧).

إضافة إلى ما رد به إبراهيم عليهم حيث قال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٣]، ثم الاستفهام الإنكاري بعد أن أثبتوا عجز الصنم عن النطق، حيث قال: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٦]، فمن عجز عن نفع نفسه ودفع الضر عنها، فهو عن نفع سواه أعجز، فتبين بذلك أن ضمير العقلاء الذي جاء على لسان المشركين ما جاء إلا موافقة لما يعتقدونه بما يعبدون، لكن هذه الضمائر جاءت على لسان إبراهيم –عليه السلام– استهزاء وتقبيحا.

وإلى هذا المعنى يشير مجمل قيل السيوطي:" ومقصوده بذلك تبكيتهم؛ لإقامة الحجة عليهم، كأنه يقول: إن كان إلهاً فهو قادر على أن يفعل، وإن لم يقدر فليس بإله، ولم يقصد الحقيقة المحْضة"(١).

وقد جاء واو الجماعة عائدا إلى غير العقلاء، لكنها متحركة، وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٣].

فالسباحة للإنسان، وبعض الحيوانات، ولما اشترك الإنسان في هذه كان ذلك سببا لتغليب العقلاء، واستعمالها في الأجرام السماوية على سبيل الاستعارة المكنية، فلما استعير ما هو للعقلاء أسند المستعار إلى وواو الجماعة، وهذه الأجرام تسير بنظام باهر، فهي بعلم الله طائعة مذعنة، فاستحقت بذلك إسناد فعلها إلى ضمير العقلاء تشريفا وتعظيما، والله أعلم.

وقد ذكر المطعني أن ذلك من إجراء غير العاقل مجرى العاقل (٢)، فمرجع ضمير العاقل غير عاقل: "يعني الشمس والقمر والنجوم" (٣) فقد أسند الفعل (يسبح) إلى واو

(١) معترك القرآن في إعجاز القرآن (٣/٧٢).

(٢) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (١/٣١٥).

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٦٥).

الجماعة، مع أن هذا الضمير عائد إلى غير عاقل، ومذهب سيبويه أنه لما خبر بفعل من يعقل، وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل خبر عنهن بالواو والنون(١)، فعلل الفراء ذلك بأن السباحة من أفعال الآدميين(٢)، "وقال الكسائي يسبحون لأنه رأس آية"(٣).

ويضيف السامرائي معنى لطيفا، يذكر فيه أن كونها تسبح في فلك خاص لا تتعداه جعلها كشخص عاقل ملتزم بماحُدّ له، فهو لا يتعدى حدوده، ولا يخرج عن مداره، ولا يبغي بعضه على بعض، ...فإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء كأن فيه إشعارا بالأمان للناس من فوقهم، فلا ترجمهم، ولا تنقضّ عليهم فتهلكهم(٤).

وقد تعاضدت تأويلات العلماء؛ لتبين البلاغة من عود ضمير العاقل على غير العاقل، واتسعت الدائرة لأقوالهم اليقظة، غير أن ما ذهب إليه الكسائي لن يكون سببا لذاته، بل هو تبع لسبب، فالفاصلة لا تأتي إلا لتخدم المعنى، ولم تأت لغرض لفظي محض مجرد عن المعنى، ولم تكن الفاصلة في القرآن الكريم سائرة على نسق واحد بل تتغير متى ما طلب المعنى ذلك، بل يعدل عن الفاصلة إذا لم تخدم المعنى، والأمثلة كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ ﴾ [الفلق:٣]، فلم يقل: إذا غسق، كما قال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق:٥]، مع أن الآيتين الأوليتين كانت القاف فاصلة لهما(٥).

(١) ينظر: الكتاب (٢/٤٧)، وإعراب القرآن للنحاس (٣/٥٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/٢٠١).

(٣)إعراب القرآن للنحاس (٣/٥٠).

(٤) ينظر: على طريق التفسير البياني، د. فاضل صالح السامرائي (٢/١٤٠).

(٥) ينظر: ملتقى أهل التفسير، الفاصلة القرآنية، د.أبو عائشة، ١٤٢٥/٦/٢٥هـ، تم النقل ١٤٣٧/٤/٣ http://vb.tafsir.net/tafsir2371/#.WDmKJ7kvj3o

وقد حرر العلماء ذلك فيقول ابن سنان:" فأما قول الرماني: أن السجع عيب، والفواصل بلاغة[1] على الاطلاق فغلط؛ لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف فذلك عيب، والفواصل مثله"[2].

وابن سنان الخفاجي يرى جواز إطلاق السجع على الفواصل، فيقول :"...وجميع هذه السورة على هذا الازدواج، وهذا جائز أن يسمى سجعاً؛ لأن فيه معنى السجع، ولا مانع في الشرع يمنع من ذلك"[3].

ورد عليه السبكي بقوله:"ونحن لا نوافقه على ذلك، وليس الخفاجى ممن يرجع إليه فى الشرعيات"[4].

ولعل مقصود الرماني أن مصطلح الفاصلة مصطلح خاص بالقرآن الكريم، وكلما في القرآن فهو بليغ، وإن قصرت عن بلاغته الأفهام، لكن لا يقبل تعميمه الحكم على كل سجع. وهذا المعنى الأول ليس بغائب عن الخفاجي الذي يقول:" وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً؛ رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم ،وهذا غرض في التسمية قريب"[5].

---

(١) علل الرماني ذلك بقوله:" وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، أما الأسجاع فالمعاني تابعة لها".ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (ص: ٩٧).

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص:١٧٣- ١٧٤).

(٣) المصدر نفسه(ص:١٧٣).

(٤) عروس الأفراح للسبكي (٢/٣٠٢).

(٥) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص: ١٧٤).

وتقول بنت الشاطئ:" أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضي لفظُها في سياقه دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه قد نصل إلى تدبره فنهتدي إلى سرّه البياني، وقد يغيب عنا فنقرُّ بالقصور عن إدراكه"(١).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾ [يس: ٤٠].

فقد أسند الفعل يسبح إلى ضمير العقلاء، فجاء هذا الأسلوب على غرار نهج الآية السالفة، والقول في ذلك كالقول في سابقه.

وعلل الدكتور المطعني ذلك بقوله: "عامل الشمس والقمر، والليل والنهار معاملة جمع المذكر العاقل، فأجرى عليها ضميره؛ لأن الدقة والنظام اللذان يُشاهَدان في سير هذه الكواكب والظواهر الكونية خليق أن يأتي من حكماء العاقلين، لا من أجرام وظواهر"(٢).

ثم يورد المطعني قاعدة عامة هي خلاصة ما جاء على هذا الأسلوب فقال:"والخلاصة أن ما يجرى مجرى العقلاء في القرآن الكريم إنما هو للمبالغة فى المعنى لتأكيده وتقريره، وأن كل موضع وردت فيه هذه السمة، اشتمل المقام فيه ما يسوغ هذا الصنيع في حكم البلاغة؛ ليكون المعنى أوقع في النفس، وأيسر في الفهم، وأمثل للنظر، وليس في هذا الاستعمال مخالفة للوضع اللغوي أو العُرف البياني، وإنما هو مسلك البلغاء الفاقهين لأسرار المعنى وتصاريف الأساليب، وهو في القرآن على أسمى وجه وأرفع منزلة"(٣).

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق لبنت الشاطئ (ص: ٢٧٨).

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (١/٤٨٠).

(٣) المصدر(١/٤٨٠).

ونظير ذلك مما جاء فيه إجراء غير العاقل مجرى العاقل[1]، حيث مجيء ضمير العقلاء الغائبين عائدا إلى غير عاقل، ثم متبوعا بحال على صيغة اسم فاعل لا تكون إلا للعاقل، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف:٤] فضمير المفعول في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ عائد إلى غير عاقل، مما هيأ لمجيء اسم الفعل بصيغة لا تكون إلا للعاقلين فقال: ﴿سَاجِدِينَ﴾ وهذا الأسلوب لا يصح إلا إذا كان المرجع عقلاء، أما غير العاقل فيقال: رأيتها لي ساجدة، لكن الأسلوب الذي جاء في هذه الآية مخالفا لمقتضى الظاهر هو يحمل معنى لا يتأتى بغير هذه الصورة، فالآية تقص رؤيا يوسف التي قصها على أبيه يعقوب - عليهما السلام — والرؤيا تحمل دلالة جاء ضمير العاقل ليسهم في تعبيرها، وقد فهم ذلك يعقوب -عليه السلام- ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥]، فالكواكب الأحد عشر، والشمس والقمر ما هم إلا رموز لعقلاء، هم أسرة البيت، الأخوة والأبوان[2]، فجاء الضمير مناسبا للمعنى لا إلى ظاهر اللفظ، وفي نهاية القصة يتبين هذا السجود بقوله تعالى: بعد أن استغفر يوسف لأخوته ودخل الأخوة والأبوان مصر:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف:١٠٠].

وقد بين العلماء أن صيغة جمع المذكر السالم في سنن كلام العرب لا تكون إلا للعاقلين، فقال الفراء:" فإن هذه النون والواو إنما تكونان في جمع ذكران الجن والإنس وما أشبههم. فيقال: الناس ساجدون، والملائكة والجن ساجدون: فإذا عدوت هذا صار المؤنث والمذكر إلى التأنيث. فيقال: الكباش قد ذُبِّحن وذبِّحت ومذبَّحات. ولا يجوز مذبَّحون"[3].

---

(١) ينظر: المصدر(١/٣١٥).

(٢) قيل: إن أمّ يوسف متوفاه، والمذكورة زوجة أبيه، لذا جاءت دقة التعبير بلفظ الأبوين.

(٣) معاني القرآن للفراء (٢/٣٤-٣٥).

ثم وجه العلماء الأجلاء هذا العدول الحاصل في لفظة(ساجدين) والتي تحتاج لمعمولها لكونها اسم فاعل متحققة فيه شروط العمل، فقال الفراء: لأن السجود من أفعال الآدميين(١).

وقد اتخذ القاضي الجرجاني هذا الأسلوب حجة في دفاعه عن المتنبي فقال:"العرب إذا وصفت الشيء بصفة غيره استعارت له ألفاظه، وأجرته في العبارة مجراه، وإن كان لو انفرد انفرد عنه بصفته، وتميز دونه بعبارته؛ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ لما وصفهما بالسجود جمعهما بالياء والنون، ولا يجمع بهما إلا جنس من يعقل"(٢).

ولعل ما ذكره العلماء له أهميته، غير أنه لا ينبغي إغفال كون ضمير جمع المذكر السالم والجمع قد أسهم في تعبير الرؤيا، وأن هذه الكواكب ما هي إلا رموز لعقلاء، فجاء الضمير خادما للمعنى.

ولما خاطبت النملة جنسها بلغتها، وجنسها يعي مقالها جاء الفعل مسندا إلى واو الجماعة، فقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل:١٨]، هذا من كلام عربي حكاية بالمعنى عما أفهمت النملة أخواتها(٣)، ويتضح من ذلك أن لكل جنس لغة خاصه، وجميع أفراد هذا الجنس يعقل لغته، فالخطاب معقول، فمثلا الطير له منطق علمه الله سليمان عليه السلام، ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ ﴾ [النمل:١٦]، بخلاف البشر فبينهم لغات متباينة، وهذا التفاهم بين جماعات النمل، والدقة في العمل ملاحظ، فكان هذا العمل بهذا النظام الدقيق سببا لكونها عاقلة ومتعاونة في مجال احتياجاتها، ومما يدل على صراحة كلامها بلغتها الخاصة فهم سليمان

(١) ينظر: المصدر نفسه(٢٠١/٢)، و (٣٥/٢).

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (ص: ٤٣٩).

(٣) أشار ابن عاشور إلى ذلك، ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٠/٢٦).

- عليه السلام- كما وصف الله ذلك بقوله: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل:١٩]، مما يدل على الحقيقة من غير حمل على مجاز، والذي أنطقها هو الله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١].

ولقد وصف الجاحظ الذرة بما يدل على ما أودع فيها من سر يسلب اللب، فقال:" وقد علمنا أن الذرة تدخر للشتاء في الصيف، ... ثم يبلغ من تفقدها وحسن ... أنها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف، أن تعفن وتسوس، فتنقلها من بطن الأرض، فتخرجها إلى ظهرها؛ لتيبسها ... فإن كان مكانها نديا وخافت أن تنبت نقرت موضع القطمير من وسط الحبة... فهي تفلق الحب كله أنصافا. فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة، فلقته أرباعا، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب"(١).

ثم يأت بكلام نفيس نابع من مشكاة تأمل في هذه الآية، فيذكر أنا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها، ثم رأيناها راجعة إلا لقِيتها ذرة، فواقفتها ساعة وخبرتها بشيء، ومن العجب أنك تنكر أنها توحي إلى أختها بشيء، والقرآن قد نطق بما هو أكثر من ذلك أضعافا، فقد أخبر القرآن أنها قد عرفت سليمان وأثبتت عينه، وأن علم منطقها عنده، وأنها أمرت صويحباتها بما هو أحزم وأسلم. ثم أخبر أنها تعرف الجنود من غير الجنود، وقد قالت: وهم لا يشعرون(٢).

" وهذا ما أثبتته الابحاث الحديثة بوسائلها العلمية الدقيقة عن حياة النمل الاجتماعية القائمة على التفاهم فيما بينها، وأن مجتمع النمل له كما لسائر الكائنات الحية لغة، وأنها تتجاذب بها أطراف الحديث بكلام خاص، أو بإشارات مسموعة "(٣).

---

(١) الحيوان للجاحظ (٢٦٢/٤-٢٦٣).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٢٦٣/٤-٢٦٤).

(٣) القرآن وإعجازه العلمي لمحمد إسماعيل إبراهيم (ص :١٥٥).

وذكر الفراء تعليلا لمجيء ضمير العقلاء كتعليله في المواطن السابقة وأن ذلك جاء لكونه مواقعا لفعل الآدميين[1]، وعدّ أبوعبيدة هذه الآية من مجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس[2]، وقال: "والمستعمل: أدخلن مساكنكن لا يحطمنكن سليمان"[3].

ويفهم الباحث مما ذكره الجاحظ وغيره، أن النمل أعجوبة في صفاتها، ففي الآية نادت، ونصحت، وعرفت، وميزت، وحذرت، وأعذرت، وهي أفعال لا تصدر إلا من عاقل، تغيب عن الناس ويعقلها العاقل، فجاء الضمير مسندا إلى ضمير العقلاء تشريفا وتكريما.

ولذلك قال أبو حيان معللا:" وجاء الخطاب بالأمر، كخطاب من يعقل في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ وما بعده؛ لأنها أمرت النمل كأمر من يعقل، وصدر من النمل الامتثال لأمرها"[4].

وإذا كانت النملة قد نادت النمل وأسندت فعل الأمر إلى واو الجماعة للجمع والتذكير فإن الله قد أوحى إلى جنس النحل وحي إلهام[5]، فأسند أفعال الأمر إلى ياء المخاطبة بصيغة الإفراد والتأنيث فقال: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩]، فالنملة أمرت بصيغة الجمع؛ لأن الخطر القادم لا ينتظر خطاب كل واحدة،

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/٣٥).

(٢) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (ص: ١٠-١١).

(٣) المصدر نفسه(ص: ٢٧٦).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٨/٢٢٠).

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/١٠٩)، والبحر المحيط لأبي حيان (٦/٥٥٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/١٦٤) العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير لمحمد الأمين الشنقيطي (٤/٢٥٢).

فكان التحذير للجماعة طلبا للاستجابة السريعة، أما النحل فمع أن اللفظ للجنس فقد جاء فعل الأمر مسندا إلى ياء المخاطبة، في قوله: ﴿ٱتَّخِذِى﴾ و﴿كُلِى﴾ و﴿فَٱسْلُكِى﴾ليكون هذا الوحي إلهاما فطريا ألهمت كل نحلة إياه، فلهذا أسند الفعل إلى ياء المخاطبة، تشريفا لها وتعظيما لما أودع الله فيها من أسرار.

وإذا كان الإنسان لايدرك عقل النحل إلا أنه يشاهد بعض أسرارها، لكن النحل يعقل إلهام ربه فيأتي مفطورا على ذلك، ويسير تبعا لتلك الغريزة، لذلك خاطبها الله بما يعظّم أمرها، لكونها آية دالة على قدرة الله سبحانه، "فإنها تبني بيوتا بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع، بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات...ثم تغشي على سطوح المسدسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنية متميعة أقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدا تحت بطن النحلة العاملة، فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها، وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض؛ لبناء المسدس المسمى بالشهد؛ لتمنع تسرب العسل منها..."(١).

وقد ذكر الأخفش أن الخطاب جاء: "على التأنيث في لغة أهل الحجاز وغيرهم، يقول: هو النحل، وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء نحو: البر والشعير، هو في لغتهم مؤنث"(٢).

وقد سخر الله الجبال والطير لترديد تسبيح داود -عليه السلام- فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، وقال ابن قيتبة: أي سبحن معه (٣)، وقال الجرجاني: سبِّحي معه كل النهار إلى الليل ورجعي

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/١٦٥).

(٢) معانى القرآن للأخفش الأوسط (٢/٤١٧).

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:٧٥).

بالتسبيح[١]، فجاء فعل الأمر (أوّب) مسندا إلى ياء المخاطب، وياء المخاطب تتطلب عاقلا، والله عليم بخلقه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤]، والجبال الجامدة والطير غير المدربة لا يعقل الإنسان وسيلة تخاطب معها، إلا سليمان – عليه السلام – أوتي ذلك فقال الله فيه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص:٣٦]، روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : "كان داود عليه السلام يوضع له ستمائة ألف كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس حتى يجلسوا مما يلي الأيمن ، ثم يجئ أشراف الجن حتى يجلسوا مما يلي الأيسر، ثم يدعوا الطير فتظلهم، ثم يدعوا الريح فتحملهم، فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر..." [٢].

ولقد تساءل الرازي عن مخاطبة من لا يعقل بمثل هذ الأسلوب، فأجاب وسمّى هذا الخطاب خطاب التحويل والتكوين ولا يختص بمن يعقل[٣]، وأدرجها الزركشي تحت خطاب الجمادات خطاب من يعقل[٤]، وذكر ابن عطية اختلاف الناس في هذه المقالة ... فقالت فرقة: نطقت حقيقة، وجعل الله تعالى لها حياة وإدراكا يقتضي نطقها، وقالت فرقة: هذا مجاز؛ وإنما المعنى أنها ظهر منها من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة لقول ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٥] والقول الأول أحسن؛ لأنه لا شيء يدفعه وإنما العبرة به أتم، والقدرة فيه أظهر[٦].

---

(١) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (٤/ ١٤٢٩)، وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٩/ ٢٢١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفضائل، باب: ما أعطى الله داود عليه السلام (٦/ ٣٣٦)، رقم الحديث: ٣١٨٥٢.

(٣) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ٣٣٩).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي(ص: ٢/ ٢٤٦).

(٥)[فصلت:١١].

(٦) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٧).

وأما الرازي فيرى أن الجبل مع كونه جمادا لا يمتنع أن يقال: إنه تعالى خلق في ذات الجبل الحياة والعقل والفهم واستدل بالآية﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾ وكونه مخاطبا بهذا الخطاب مشروط بحصول الحياة والعقل فيه(١).

ويرى أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع، وهاهنا لا مانع، فوجب إجراؤه على ظاهره(٢).

وقال أبو السعود:"وفي تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لأمره –تعالى- المذعنين لحكمه المشعر بأنه ما من حيوان وجماد وصامت وناطق إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى وكمال كبرياء سلطانه مالا يخفى على أولي الألباب"(٣).

والذي يذهب إليه الباحث هو أن خطاب الله للجمادت هو خطاب لمن أودع الله فيه الامتثال لأمر سيده، بطريقة تخفى على البشر، ولذلك برز في بعض هذه المواطن ضمير العقلاء.

ومثله خطاب الله للنار بقوله: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فما يراه البشر جمادا هو بعلم الله حي، يدرك خطاب الله له، وهذا النداء وضمائر المخاطبة شاهدة بذلك على قدرة الله وحده، فكل شيء يسجد، وكل شيء يسبح، والحجارة تهبط من خشية الله، والإنسان لا يفقه ذلك كله، فضعف عقل الإنسان مع كماله عن إدراكها.

لكن الرازي يرى غير ذلك فيرى أن الخطاب خطاب تحويل وتكوين لا يختص بمن يعقل(٤).

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣٥٦/١٤)، و(٥٤٩/٢٧).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٥٤٩/٢٧).

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٢٤/٧).

(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ٣٣٩).

ومثل ذلك يقال في خطاب الله للأرض والسماء، وإسناد فعل الأمر إلى ياء المخاطب، فقال: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود:٤٤]، فهل الأمر على الحقيقة أم على المجاز؟ والذي يراه الباحث أنه على الحقيقة، كما سبق نظائر هذه الآية، وليس في السياق قرينة تصرف الأمر عن حقيقته إلى المجاز، وبناء على ذلك فإن الفعلين: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾ خطاب من الله -سبحانه وتعالى- لمن يعقل بعلم الله، ويخفى ذلك على البشر؛ لأن إدراكهم لا يصل إلى ذلك. وعدّ المطعني الفعلين من باب الاستعارة(١)، على أن الفعلين جاءا على سبيل الاستعارة المكنية؛ لأن المشبه به محذوف، ولكن الباحث يعتقد أن الفعل على حقيقته، ولم تأت قرينة تصرفه إلى المجاز.

وهذه الآية من الآيات التي درسها الشيخ عبد القاهر الجرجاني وبيّن حسن نظمها، للإيضاح وجه الإعجاز، فكان مما قال:" ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء (بيا) دون (أي)، نحو (يا أيتها الأرض)، ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف)، دون أن يقال: (ابلعي الماء)، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك، بما يخصها"(٢).

وقال أبو موسى معلقا على ما رقمه الجرجاني، فقال: " ولا شك أنه ليس كل نداء للأرض وأمرها وإضافة الأشياء إليها مما يورث الكلام فخامة وشرفا، فضلا عن الإعجاز الذي بهر وقهر"(٣).

ثم يردف قائلا:" لا أشك في أن عبد القاهر الجرجاني كتب هذه الخصوصيات، والسياق الذي شرحنا جزءا منه حاضر في نفسه، انتصاب الأرض والسماء؛ امتثالا

(١) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم المعطني (٤٦٢/٢) وتحرير التحبير ابن أبي الأصبع(ص:٦١١).

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص: ٤٥-٤٦).

(٣) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني لأبي موسى (ص: ٢٤١).

لأمر ربها، لا تفتر الأرض تتفجر عيونا، والسماء مفتحة أبوابها بماء منهمر، والاضطراب الذي زلزل قوم نوح"(١).

ويأتي بنكت بلاغية تبين حقيقة الأرض والسماء، وانقيادها لخالقها، فيقول: "ثم لم يقل: يا أيتها الأرض؛ لأن في هذه الصيغة من التوكيد والاحتفال ما ليس في يا أرض، وحسبها أن يقول لها الحق: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ هكذا بالتنكير الدال على أنها في ملكوت ذي الملكوت نكرة تائهة كقطرة في يمّ...قلت: إنه لم يقل بلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء؛ لأن هذا أمر من له الأمر، فلا يجوز أن تتصور بعد قوله: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ إلا أن تكون قد بلعت، ولا تتصور بعد قوله: ﴿أَقۡلِعِي﴾ إلا أن تكون قد أقلعت "(٢).

لكن الرازي ذكر رأيا هنا خالف ما ذهب إليه في تفسيره لقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾، ومضمون قوله هنا تعليل لخطاب الله للأرض والسماء وهما لايعقلان بحسب رأيه، وعلل ذلك بأمرين: الأول الخطاب لهما في الصورة، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلة بتدبيرهما، الثاني: أن هذا أمر إيجاد وكل الأشياء مطيعة منقادة، لا أمر إيجاب، ولا يشترط العقل والفهم(٣).

أما السكاكي فقال :" إن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته إيجادا وإعداما، ولمشيئته فيها تغييرا وتبديلا ،كأنهما عقلاء مميزون وقد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحكمه..." (٤).

ويرى السكاكي أن الآية بنيت على التشبيه لهذا المعنى، وأن خطاب الأرض والسماء الجامدتين من المجاز، ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع، الذي هو إعمال

---

(١) المصدر نفسه (ص: ٢٤١-٢٤٢).

(٢) المصدر نفسه (ص: ٢٤٣).

(٣) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص: ٢٠١).

(٤) مفتاح العلوم للسكاكي (ص :٤١٨).

الجاذبة في المطعوم، واستعار الماء للغذاء؛ لأن الأرض تقوى به بالإنبات، والقرينة ابلعي، وخاطب في الأمر ترشيحا لاستعارة النداء، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع[1].

وإلى نحو من قول السكاكي ذهب العلوي، وزاد على ذكر الاستعارات أن ذلك على جهة التشبيه لما جعلا بمنزلة مَن عقل الأمر، وفهم عظم الاستيلاء، ثم إنه وجه الخطاب لها بالأمر على جهة الاستعارة، حيث نزلها منزلة العقلاء الذين تسربلوا سرابيل المهابة، وتلفعوا بأردية التّذلل منقادين فى حكمة القهر عليهم ببؤس الاستكانة، وضرع الاستسلام والذلة[2].

وقد أثبت الله لهما القول بعد أمره لهما في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت:١١]، وفي هذه الآية يرى قوله: ﴿ طَآئِعِينَ ﴾، جمع مذكر عاقل عاد على مؤنث غير عاقل، ناهيك بأن المرجع اثنان هما السماء والأرض، وفي ذلك يظهر خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وما يحمله من أسرار بلاغية.

فاسم الفاعل ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ يعمل عمل فعله في هذا الموطن، ويقدر فاعله (هم) والمرجع ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾و﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ فما سر مجي اسم الفاعلين؟

وقد فسر الفراء قولهما بأن المعنى أتينا بما فينا من الخلق طائعين[3]، ولا شك أن العقلاء في السماء، وكذلك في الأرض مع بقية مخلوقات الله التي هي الأكثر، ولكن ضمير العقلاء جاء تشريفا للعقلاء، أو لأن هذه المخلوقات مدركة أوامر ربها تعقل بحسب حالها، فلما استجابت اعتلت فجاء ضمير العاقل تشريفا وتكريما، كما مر من قبل، أما الجمع فلأن السماء جنس وكذلك الأرض، والمقصود سبع السماوات وسبع الأراضين، والله أعلم.

---

(١) ينظر: المصدر.

(٢) ينظر: الطراز للعلوي (١٢٩/٣).

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء (٣١/١)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي(٣٠٦/٣).

وذكر الفراء أن الله لم يقل: طائعتين، أو طائعات؛ لأنه ذهب به إلى السموات ومن فيهنّ[1]، وقول الفراء هذا لا يستقيم لأن المخاطبتين السماء والأرض، وإذا كان في أحدهما مجموعة عقلاء صح التغليب، سواء أقيل في السموات والأرض، أم أفردتا؟

ويرى ابن عاشور أن جمع طائعين جاءت لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات، وبينت ذلك الآية التالية، والامتثال صادر منهن، وأما كونه بصيغة جمع المذكر فلأن السماء والأرض ليس لهما تأنيث حقيقي. وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة[2].

وعدّ عبد العزيز عتيق هذه الآية من باب الاستعارة المكنية ثم توسع وجعلها مندرجة تحت قول قدامة بن جعفر حيث يقول:" ومن الاستعارة ما قدمناه من إنطاق الربع، وكل ما لا ينطق، إذا ظهر من حاله ما يشاكل النطق"[3]. قاصدا بذلك الاستعارة المكنية التي عرفت بهذا المصطلح فيما بعد، بيد أن قدامة عرض أمثلتها ولم يسمها.

أما من ناحية حقيقة كلام السماء والأرض أو مجازه، فقد رأى أبو عبيدة أن كلام السماء والأرض على المجاز، ويلمح إلى أن مجيء الحال على صيغة ما للعقلاء على تقدير فعل الآدميين[4]، وأوّل ابن قتيبة استجابتهما بأنه عبارة عن تكوينه لهما[5]، وقدر الزركشي طائعين بطائعة، ولما كانت ممن يقول وهي حالة عقل جرى الضمير على ذلك[6].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (١٣/٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢/٢٥).

(٣) ينظر: علم البيان، عبد العزيز عتيق (ص:١٧١)." ولم أعثر على هذا النص الذي عزاه إلى قدامة في نقد الشعر".

(٤) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٠/١)، وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/٢٥).

(٥) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:٧٥)، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للمطعني (٤٧٧/١).

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢٤٦/٢).

وبما طرح من آراء يكون سبب مجيء اسم الفاعل ﴿طَآئِعِينَ﴾، والذي يحتاج إلى فاعل تقديره (هم) إما لكون فعل الطاعة والقول مما هو للآدميين فجاء ذلك مجازا، أي: تشبيه الجماد بالإنسان على سبيل الاستعارة المكنية، أو أن صيغة العقلاء جاءت تغليبا لمن في السماء والأرض من العقلاء المكلفين، أو أن قولها وطاعتها على الحقيقة، فلا مجاز حينئذ، وتكون قد خوطبت لكونها تدرك بهيأة يعلمها الله وتخفى على البشر، وهو الأظهر للباحث، فخاطبها المخاطِب بالصيغة التي تبين علمه لإدراكها، وتجلي عظمته وقدرته سبحانه، والاختلاف فيما سبق ناشيء عن الاختلاف في كلام السماء والأرض، أهو على الحقيقة أم على المجاز؟ ورجح ابن عطية الأول[1]، ويذهب الباحث إلى أن كلامها على الحقيقة ولا داعي للتأويل، وذلك أدل على قدرة الله وعظمته، كما ذكر من قبل، وإن كان كثير من العلماء يرون أن الأمر للتكوين؛ فإن هناك من حمل الأمر على حقيقته، فذكروا أن القول والسجود ونحوه مما أثبته الله للجمادات حقيقة، وكل يأتي به بحسبه، ومن أولئك ابن جرير، وابن كثير[2] ومال الرازي إلى القائلين بأن ذلك غير مستبعد، وذكر" أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع، وهاهنا لا مانع، فوجب إجراؤه على ظاهره "[3] وقال الشيخ الشعراوي:" إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب، لا يقدح في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود"[4].

بل إن الله جعل اللسان آلة تحدُثٍ لدى الإنسان، لا ينوب عن ذلك أي عضو من أعضاء الجسد، لكن الأمر يختلف يوم القيامة، فإن الجوارح ستكون هي الناطقة أما الفم فلا طاقة له بالحديث لما اعتراه من الختم، فتتحدث حينئذ الجلود: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٧/٥)، و البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢٤٦/٢).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٣٩١/٢).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٤٩/٢٧).

(٤) تفسير الشعراوي الخواطر، محمد متولي الشعراوي (٤٢٦٧/٧).

تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت:٢١]، فيلاحظ في الآية عود ضمير الجمع الخاص بالعقلاء على الجلود، وهي فيما يظهر للإنسان أنها ليست عاقلة، ويتيقن أنها غير ناطقة في الحياة الدنيا، لكن شهادتها تدل على إدراك غير ملحوظ لدى البشر، لذلك عندما أسند الله الشهادة إلى ضميرها، وكذلك النطق، جاء المسند إليه للعقلاء؛ لأن الشهادة لا تصدر إلا من عاقل، وكذلك الأيدي والأرجل كما قال تعالى:﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس:٦٥].

وذكر كثير من المفسرين واللغويين أن المقصود بالجلود في الآية الفروج[١]، على سبيل الكناية، وذكر الزمخشري قولين أحدهما أنها الجوارح، والآخر الفروج[٢]، لكن النظام -بحسب ما ذكر الجاحظ- رأى أن ذلك من مزالق بعض المفسرين فقال بمن هذا قوله: "كأنه كان لا يرى أنّ كلام الجلد من أعجب العجب"[٣]، ويرى ابن عطية أن جمهور الناس يرون أنها الجلود المعروفة[٤]، وهو ما يفهم من كلام الرازي[٥]، وصرح به أبو حيان[٦]، ووافقهم الألوسي، وذكر الألوسي أن أكثر المفسرين يرون أنها الفروج، وخالفهم إلى القول بأنها الجلود المعروفة[٧]، وقال ابن عاشور بقول من قال إنها للفروج؛ إن هذا تعنت لا محل له[٨].

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٤٠٦/٢٠)، وروح المعاني للألوسي (٣٦٧/١٢)، الكامل (٩٨/٢)، و (٢١٩/٢)، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (٣١٣/١)، الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني (ص:٢٠٠-٢٠١)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي(٣٠٥/٢).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٩٥/٤).

(٣) ينظر: الحيوان للجاحظ (٢٢٩/١).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١١/٥).

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٥٦/٢٧).

(٦) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٩٨/٩).

(٧) ينظر: روح المعاني للألوسي (٣٦٧/١٢).

(٨) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٨/٢٥).

والباحث يميل إلى القول بأن الجلود لم ترد للكناية كما ذكر، ولكنها أوسع من ذلك فهي تشمل كل جلد في جسد الإنسان، ولا يخلو موضع من جلد، فكانت الشهادة تخرج بهذا المعنى من الإنسان من كل موضع من جسده، فهي لا تقارن بالسمع والبصر واللسان.

وقريب من هذا المعنى قول الألوسي:" فإن جلد الإنسان الواحد لو جزىء لزاد على ألف سمع وبصر، وهو يدافع عن كل جزء، ويحذر أن يصيبه ما يشينه، فكانت الشهادة من الجلود عليهم أعجب وأبعد عن الوقوع"[١].

واستعرض الرازي معنى النطق والشهادة فرد على المعتزلة مذهبهم، وبين أن الأصل حمل الكلام على ظاهره، فقال:" أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم؛ لأن عندنا البنية ليست شرطا للحياة ولا للعلم ولا للقدرة، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء"[٢].

ويرى أبو حيان أن سبب مخاطبة الجلود بما يخاطب به العاقل هو أنه:" لما صدر منها ما صدر من العقلاء، وهي الشهادة، خاطبوها بقولهم: لم شهدتم؟ مخاطبة العقلاء"[٣].

وعلل الألوسي ذلك بقوله:" وصيغة جمع العقلاء في ﴿شَهِدتُّمْ﴾ وما بعد مع أن المراد منه ليس من ذوي العقول؛ لوقوع ذلك في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء" ثم أردف قائلا:" فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر، وكذا الشهادة"[٤].

وقال ابن عاشور:" لأن التحاور معها صيرها بحالة العقلاء"[٥].

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٢/٣٦٧).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٥٥٦).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٩٩).

(٤) روح المعاني للألوسي (١٢/٣٦٨).

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٣٨).

ومن هنا يظهر أن ضمير العاقل جاء لتعظيم هذه الجلود التي تحاورهم وتفضح أمرهم، فهي تثير الدهشة المفزعة في نفوس المشهود عليهم، فضمير العقلاء رسم صورة ذلك الحوار والنزاع المفضي إلى الخسران.

والقردة معدودة في غير العقلاء، وفي مسخ الله اليهود قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة:٦٥]، وقال: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٦].

فيلفت ذهن الباحث مجيء لفظة﴿ خَٰسِـِٔينَ ﴾ على صيغة خاصة بالعقلاء، وذلك بعد لفظة قردة، ولأن اسم الفاعل يعمل عمل فعله، فإن له فاعلا تقديره (هم) ويتبادر إلى ذهن الباحث سؤالا عن البلاغة وراء جمع المذكر السالم، بدلا من قوله: قردة خاسئة، ولعل البلاغة تتبين إذا علم أن مجيء اسم الفاعل على صيغة جمع العقلاء يجعل العذاب بالمعذبين ألصق، فيبرز ما في جوف اللفظ من شدة وغلظة، وهذه الغلظة تخف لو جاءت لفظة (خاسئة) بدلا من (خاسئين) لأنها تكون حينئذ نعتا للقردة والقرد خاسئ، فاجتمع لهم بذلك الخسة الحالية وخسة من مسخوا على صورته، وهذا دال على دقة اختيار الكلمة الموحية، وهذه العناية التي تحمل أسرارا بليغة تجلي بلاغة هذا الكتاب المنزل وإعجازه.

وللجرجاني تقدير في قوله تعالى:﴿ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾:" تقديره: خاسئين قردة وإلا يقال: قردة خاسئة، لكن التقديم والتأخير لوفق رؤوس الآي"[(١)].

وما أحسن قول ابن جني! الذي أتى بأوجه إعراب لم تخل من بلاغة فقال: "ينبغي أن يكون ﴿ خَٰسِـِٔينَ ﴾ خبرًا آخر ل﴿ كُونُوا۟ ﴾، والأول ﴿ قِرَدَةً ﴾ ، فهو كقولك: هذا حلو حامض وإن جعلته وصفًا ل﴿ قِرَدَةً ﴾ صغر معناه، ألا ترى أن القرد لذل هو صغاره خاسئ أبدًا، فيكون إذًا صفة غير مفيدة، وإذا جعلت ﴿ خَٰسِـِٔينَ ﴾

(١) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (١/١٩٦).

خبرًا ثانيًا حسن وأفاد حتى كأنه قال:﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ وكونوا﴿ خَاسِئِينَ ﴾...العامل فيهما جميعًا واحد"(١).

وجعل العكبري ﴿خَاسِئِينَ ﴾ صفة لقردة، وأجاز وجوها أخرى(٢)، ولم يجز ابن جني مثل هذا الإعراب؛ لأن الأخلق أنها لو كانت صفة أن تأتي (قردة خاسئة)، إلا إذا كانت صفة على المعنى، إذا كان المعنى أنها هي هم في المعنى(٣).

وأورد الألوسي الاعتراض على القائلين بأن خاسئين صفة للقردة، وذكر أنه أجيب عن ذلك" بأن ذلك على تشبيههم بالعقلاء، كما في السَّاجِدِينَ، أو باعتبار أنهم كانوا عقلاء، أو بأن المسخ إنما كان بتبدل الصورة فقط"(٤).

ومما تقدم من شواهد وآراء تبين أن أكثر المواطن التي عاد فيها ضمير العاقل المذكر على غير العاقل ما جاء من باب المجاز على سبيل الإدعاء والتخييل في كلام العرب، فأحيا الجمادات وخاطبها بخطاب العقلاء، لكن القرآن جاء بذلك على وجه الحقيقة لا الخيال، فخاطب بعض الجمادات والحيوانات وهي واعية عاقلة لخطاب ربها الذي أقدرها على ذلك بطريقة تخفى على البشر، وذلك كخطابة للنحلة، والطير والجبال، والسماوات والأرض، والنار، ومن القدرة التي ملكّها الله أحد البشر، تلك المعجزة الباهرة، معجزة سليمان -عليه السلام- فقد خاطب الهدد، وفهِم خطاب النملة لجنسها، وخطابه حقيقة لا خيال، وذلك من مواطن عود ضمير العاقل على غير العاقل. ويندرج تحته ضمير العاقل الذي عاد إلى مكان، فعاد إلى الحالّ والمذكور المحلّ، كقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ ومثل هذا كثير وهو

---

(١) الخصائص لابن جني (٢/١٦٠-١٦١).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (١/٧٣).

(٣) ينظر: الخصائص لابن جني (٢/١٦٠-١٦١).

(٤) روح المعاني للألوسي (١/٢٨٤)، وينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي شهاب الدين الخفاجي (٢/١٧٤).

على سبيل المجاز المرسل، ومنها ما هو على سبيل المجاز العقلي كقوله: ﴿ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﴾، ويعود ضمير العاقل إلى أصناف أكثرها غير عاقل لتشريف العقلاء وتغليبهم، أو لأن المتكلم الله؛ وخلقه يعقل قوله سبحانه. وعلى ذلك جعل لبعض مخلوقاته أفعالا لا تكون إلا من العقلاء، كسباحة الأجرام السماوية في الفلك، والتي تسير بنظام دقيق فلا ينحرف بعضها إلى مسار بعض، وكذلك الاستجابة، والكلام، ككلام النملة التي حذرت وأنذرت وأعذرت وعرفت القادم، فخاطبت بضمير العقلاء. والتسبيح كقوله: ﴿ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾، فجمع غرضين الأول مكانة المسبحين وإن كانت عجماوات أو جمادات، فمن سبح استحق التشريف، والثاني: أن في ضمير العقلاء تعريض بعاقل في نظر البشر لا يسبح، بل يضيف إلى الله ما تنزه الله عنه. فتبين بذلك أن تسبيح السموات والأرض وغيرها حقيقة الله يعلمها، ولا يعقلها البشر، مع أن بعض أهل العلم ذهب إلى جعله من المجاز أو بلسان الحال والتكوين والتسخير.

ويعود ضمير العاقل إلى غير العاقل في الحجاج، كما في محاجة النبي قومه بعبادتهم للأصنام، فيأتي ضمير العاقل عائدا إلى الصنم؛ نزولا إلى ما يعتقده عبادها بها؛ ولينفذ من ضوء ذلك إلى ما يريد من بيان الحق، وقد جرى ذلك على لسان إبراهيم — عليه السلام- كثيرا. علما أن بعض مواطن عود ضمير العقلاء إلى الأصنام كانت لغرض التشنيع والتقبيح والسخرية، وبيان حقيقتها في عدم دفع الضر عنها، كما جاء ذلك على لسان إبراهيم عندما كسر الأصنام وترك كبيرها.

ويعود ضمير العقلاء إلى غير عاقل لكونه لم يأت على حقيقته، بل هو رمز لعاقل، كرؤيا يوسف؛ فالكواكب والشمس والقمر هم أخوته وأبواه؛ فلذلك عاد الضمير عاقلا لغرض التفسير والتعبير، ولكون السجود من أفعال العقلاء، والله أعلم.

المبحث الثاني : عود ضمير المؤنث العاقل على غير العاقل

من السنن اللغوية لدى العرب -كما مر من قبل- أن يوافق الضمير مرجعه في العدد والنوع والجنس، ولا يعدل عن ذلك إلا لبلاغة تبينها القرائن، ويكشف عنها السياق، فإن كان المرجع مذكرا غير عاقل لكون تذكيره مجازيا عاد الضمير إليه مفردا سواء أكان مفردا أم جمعا، مثل: رأيت بحرا أمواجه عنيفه، وبحورا أمواجها عنيفة؛ أما ضمائر العقلاء فهي خاصة بهم، ولا يعدل إلا لغرض بليغ، وإذا كان جمع المذكر السالم، وكذلك ضمير المخاطب وواو الجماعة خاصة بالعقلاء، فإنه قد تبين مجيء ذلك في المبحث السابق لغير العقلاء حقيقة، أو حسب ما يظهر للبشر، وتبين ما وراء ذلك من أغراض، وإذا كان من المعلوم أن اللغويين يطلقون على واو الجماعة هذا الاسم قاصدين تخصيصه بالعاقلين، فإن جلّهم لا يطلقون هذا الوصف على نون النسوة، فلا يسمونها بنون النسوة كما سموا واو الجماعة بذلك، بل يسميها بعضهم نون الإناث غالبا[(١)]، ووجد من يسميها نون النسوة أو جماعة النسوة، وبعضهم يسميها نون النسوة إذا كان المرجع أو الحديث عن العاقلات، ونون الإناث إذا كان عن غير العاقل أو مشتركا بينهما؛ ليكون أعم، وأكثر النحاة لم يفصّل بكونها مختصة بالعاقلات أم أنها تشمل غير العاقل[(٢)]، لكن الخضري تنبه لذلك فقال:" قوله: (نونُ إِنَاثٍ) أُولى من نون النسوة؛ لأن هذه لا تشمل غير العاقل، والمراد الموضوعة لذلك. وإن استعملت في

---

(١) أغلب النحاة يسمونها نون الإناث، وقد ذكر ذلك في ثنايا كتبهم، ينظر: مغني اللبيب(ص: ٤٤٩)، أوضح المسالك (٦٢/١)، وهمع الهوامع(٥٨٦/٢)، وشرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الجرجاويّ الأزهري (٨٢/١)، وحاشية الصبان على شرح الأشمونى(٨٧/١)، وغير ذلك.

(٢) يستنتج الباحث أن بعض النحاة سماها نون النسوة سواء أكانت عائدة إلى عاقلات أو غير عاقلات؟ ومنهم من لايطلقه إلا إذا كانت عائدة إلى عاقلات، وقد وجد ذلك في ثنايا كتبهم، ينظر: أسرار العربية(٢٦٦/١)، والنحو الوافي، لعباس حسن (٨٢/١)، وسماها الأنباري ضمير جماعة النسوة ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين لأبي البركات الأنباري (١١/١)، وغير ذلك.

الذكور مجازاً"[1]. وسبب هذا مجيئها للصنفين، فهي تعود إلى المؤنث سواء أكان عاقلا أم غير عاقل؟ ولكن لما كان الأشهر أن يعود ضمير نون النسوة إلى العاقلات، والأشهر أيضا أن يعود ضمير الغائبة إلى جمع المؤنث غير العاقل، وبناء على ذلك فإن الباحث سيبحث فيما خالف الأشهر، والكشف عن أسرار ذلك، وقد وجد آيات من القرآن الكريم عاد فيها ضمير الإناث الذي هو نون النسوة إلى غير عاقل، وكان هذا مدعاة لبحث ما وراء ذلك من سر بلاغي، ليس لأن ضمير الإناث مختصا بالعاقلات ولكن لأنه لم يعرف أنه عاد ضمير الغائبة على جماعة النسوة، بل يعود ضمير النسوة هنّ، أو أنتنّ، أو نون النسوة، إذا استدعاه التركيب، أما جمع المؤنث غير العاقل فإن الأغلب أن يعود إليه ضمير الغائبة، وقد عاد في بعض المواطن الضمير (هن) ونون النسوة إلى غير عاقل في نظر البشر، أما الضمير (أنتنّ) فلم يعد إلا إلى العاقلات ولذلك فلن يُعرض لمجيئه لما هو له.

ونون النسوة جاء في القرآن الكريم عائدا إلى العاقلات في أكثر من تسعين كلمة، وإلى غير العاقل في اثنتي عشرة كلمة مما سيتناوله الباحث فيما يأتي[2]. وقد عاد الضمير(هنّ) متصلا أو منفصلا للدلالة على غير العاقل في واحد وثلاثين موضعا، وورد متصلا أو منفصلا عائدا إلى العاقل في تسع وسبعين ومئة موضع[3]، وفي أكثر المواطن فإن الضمير الذي يعود إلى الجمادات هو ضمير الغائبة كقولي: السماء هي سقفنا، والسماوات هي سقفنا، فعاد ضمير الغائبة على المفرد والجمع غير العاقل ولم يعد نون الإناث. ولكن يعود ضمير الغائبة إلى المفردة العاقلة الغائبة، مثل: فاطمة هي التي

---

(١) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، للشيخ محمد الخضري (١/٣٠).

(٢) ينظر: نون النسوة وواو الجماعة لغير العاقل في القرآن الكريم، د. سمية محمد عناية، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٢٠، (ص: ١٦٤-١٦٥) السنة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

(٣) ينظر: المصدر نفسه(ص: ١٧٥).

تفوقت، أما نون النسوة والضمير (هن) فلا يعود إلى العاقلات سواهما[١]، -إضافة لضمير أنتنّ- فهما بالعاقلات ألصق وألزم.

فنون النسوة في القرآن تعود إلى العاقلات بنسبة لا تقارن بعودها على غير العاقلات، وهذا لا يختلف عليه اثنان، كما سبق إحصاء ذلك تقريبا، وأما الضمير الآخر فهو (هُنّ) للغائبات العاقلات، وهو نظير الضمير(أنتنّ) الذي لم يأت إلا للمخاطبات العاقلات، ويأتي لغير العاقلات من باب المجاز، وقد جاء الضمير(هُنّ) كنون النسوة أو الإناث، فجاء في القرآن الكريم عائدا إلى غير العاقل، مع كونه قد اشتهر عوده إلى العاقل[٢].

ويأتي المرجع غير العاقل ، ويأتي التلوين بين الضميرين، فيجتمع ضمير الغائبة العائد إلى الأكثر، وضمير الإناث العائد إلى الأقل في هذا الموطن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ ﴾ [التوبة:٣٦]، ففي هذه الآية ورد الإفراد في قوله: ﴿مِنۡهَآ﴾ مع أنها مسبوقة باثني عشر شهرا، بينما يأتي ضمير الجمع المؤنث عائدا إلى الأقل وهي الأربعة الحرم؛ لعظمتها في الجاهلية والإسلام، وازدادت في الإسلام عظمة، فلما زاد الأقل تفضيلا ناسبه عود الضمير عليه على صيغة نون الجمع للإناث، أما بلاغة الإفراد فلمراعاة الأغلب وخولف بين الضميرين تمييزا للأشهر الحرم، أما الأشهر الأخرى فلما كان أغلبها غير معظم بتعظيم خاص، استعمل فيها عود ضمير الإفراد.

---

(١) خص الباحث هذين الضميرين لمجيئهما لغير العاقلات، على خلاف (أنتنّ) الذي لم يأت إلا للعاقلات.

(٢) وينظر: نون النسوة وواو الجماعة لغير العاقل في القرآن الكريم، د. سمية محمد عناية، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٢٠، (ص: ١٥٨-١٧٧) السنة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

وقد اختلفت أقوال العلماء في عدم تطابق الضمائر فقال السيوطي: "وقد يخالف بين الضمائر حذرا من التنافر نحو: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الضمير للاثني عشر ثم قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ أتى بصيغة الجمع مخالفا لعوده على الأربعة"(١).

وفي موضع آخر استند على التقعيد فقال:" وأما غير العاقل فالغالب في جمع الكثرة الإفراد وفي القلة الجمع وقد اجتمعا في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ إلى أن قال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فأعاد منها بصيغة الإفراد على الشهور وهي للكثرة ثم قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ فأعاده جمعا على " أربعة حرم " وهي للقلة.

وذكر الفراء لهذه القاعدة سرا لطيفا وهو أن المميز مع جمع الكثرة هو ما زاد على العشرة لما كان واحدا وحد الضمير، ومع القلة وهو العشرة فما دونها لما كان جمعا جمع الضمير"(٢).

وإن كان الباحث لا يخالف هذه القاعدة، إلا أن رأيه يقضي بأن ضمير الإناث جاء لغرض التعظيم، فوافق القليل لعظمته، والله أعلم.

ولإثبات ما سبق يجد الباحث أن أكثر الضمائر العائدة إلى الجبال -مثلا- في القرآن الكريم جاءت على صيغة ضمير الغائبة، ولم يأت ضمير الإناث إلا في ثلاثة مواطن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٩] ، وقوله الله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص:١٨]، وسيأتي الموطن الآخر في آية عرض الأمانة، فقد عاد ضمير الإناث إلى الجبال في هذه المواطن، لكن بقية المواطن إذا عاد فيها الضمير إلى الجبال فإنه يعود على الإفراد أي: بضمير الغائبة، فإذا بُحِث عن هذه المواطن التي ذكرت فيها الجبال

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٣٩/٢).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٤١/٢-٣٤٢).

وعاد إليها ضمير الغائبة برز للمتتبع قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طـه:١٠٥]، قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير:٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الغاشية:١٩].

ففي آيتي الأنبياء وص يأتي الفعل مسندا إلى نون الإناث فقال: ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾، فإذا وسّعت الدائرة برزت آيات عاد الضمير فيها إلى الجبال على صيغة ضمير الغائبة، وليس على صيغة نون الإناث، وذلك في المواطن الخمسة الماضية فقال: ﴿ يَنسِفُهَا ﴾، ﴿ تَحْسَبُهَا ﴾، ﴿ وَهِىَ ﴾، ﴿ أَلْوَٰنُهَا ﴾، ﴿ سُيِّرَتْ ﴾، ﴿ نُصِبَتْ ﴾، فلم يقل: (ينسفهنّ)، (تحسبهنّ)، (وهنّ)، (ألوانهنّ)، (سيرنَ)، (نصبنَ) وبذلك يتبين أن العدول عن الأغلب جاء لغرض بلاغي، يتجلى بعد إنعام نظر، ومزيد تأمل.

وعند العود إلى الآيات السابقة يجد الباحث أن الجبال لما سبحت عظمت، فعادت إليها نون الإناث تعظيما، أما المواطن الأخرى فلا مجال لتعظيم الجبال فيها، فما أهونها وأعظم قدرة الله إذ نسفت، ولا عظمة لها في مرورها مرّ السحاب ولكن العظمة للمتصرف فيها، ويوم القيامة تسير الجبال فلا حول لها ولا قوة، وفي سيرها تعظيم لخالقها تذهل منه العقول، وفي نصبها على الأرض إظهار لعظمة الخالق سبحانه حيث ثبات الأرض واستقرارها، وكذلك الأمر في اختلاف ألوانها، لكن التسبيح استدعى التعظيم، وهو من أفعال العاقلين.

وعلى ذلك يقال أنه لما أسند فعل التسبيح إلى ما لا تعلم عقولنا إدراكه، عاد ضمير النسوة تكريما وتشريفا، فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾، فجاء الفعل: ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ وهذا الإسناد لا يراه الباحث من قبيل المجاز، بل هو إسناد فعل لمدرك بعلم الله وقدرته، وإن قصرت الأفهام عن إدراك ذلك، وقد برهن

الباحث على ذلك بالأدلة القاطعة من قبل[1] ومثل ذلك يقال في آية [ص:١٨] السابقة.

وينوه الباحث إلى أن هذا الأسلوب قد استعمله العرب في منظومهم ومنثورهم، حقيقة ومجازا، فيقول امرؤ القيس في معلقته[2]:

فَعَنَّ لَنا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعاجَهُ عَذارَى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ

فَأَدبَرنَ كَالجِزْعِ المفَصَّلِ بَينَهُ بجيدٍ مُعَمٍّ في العَشيرَةِ مُخْوَلِ

فلما شبه النعاج بالعذارى أعاد ضمير الإناث إلى النعاج للمشابهة، ومثل هذا الأسلوب كثير في كلام العرب، ويأتي للتشبيه، أو للتعظيم، أو للتهويل، ونحو ذلك.

ومن ذلك ما جاء في معلقة عنترة وهو يشبه محبوبته فيقول[3]:

أَو رَوضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبتَها غَيثٌ قَليلُ الدِّمنِ لَيسَ بِمَعلَمِ

أوْ عَاتقًا من أذْرِعاتِ مُعَتَّقًا ممّا تُعتِّقُهُ مُلُوكُ الأعْجَمِ

جادَت عَليها كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدِرهَمِ

فأسند الفعل (ترك) الذي لا يكون إلا للعاقل إلى نون الإناث، وهو عائد إلى (كل عين) فعاد الضمير الذي اشتهر مجيئه للعاقلات إلى غير عاقل للتعظيم، فلما عظم الفعل عظم الفاعل، ومثل هذا كثير في منظوم العرب ومنثورهم.

وبذلك يتبين أن القرآن الكريم قد سار على سنن اللسان العربي لكنه ملك هامة البيان، وأعجز كل لسان. ونظير الآيات السابقة قوله تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢]، فقد أتت الأفعال الثلاثة مسندة إلى نون النسوة وذلك في

---

(١) ينظر: (ص: ٣٥١).

(٢) ديوان امريء القيس، (ص:٦٠-٦١).

(٣) شرح ديوان عنترة، للخطيب التبريزي (ص: ١٥٧).

قوله: ﴿فَأَبَيْنَ﴾ و﴿يَحْمِلْنَهَا﴾ و﴿وَأَشْفَقْنَ﴾، فقد يكون حديث الله عنهن بنون العاقلات لكونهن يدركن خطاب الله، ويعقلنه بطريقة لا يفقهها البشر، كما قال: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، فهنّ بنظرنا غير عاقلات، فعاملهن الله بما يعلمه فيهن، "فأبين إباء إشفاق لا إباء إستكبار"[١]، وامتناعهن لم يقلل شأنهنّ، بل إنهنّ مع وصفهن بالعظمة يمتنعن عن الأمانة لكون الأمانة أعظم، ثم إن في الآية إطنابا سبيله ذكر الخاص بعد العام، "فإن الجبال داخلة في جملة الأرض، لكن لفظ الأرض عام، والجبال خاص، وفائدته ههنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليه، وتفخيم أمرها"[٢]، وتعظيم الأمانة؛ وحمل الإنسان لها دل على ظلمه وجهله. فدل المسند إليه في الأفعال الثلاثة على عظمة السماوات والأرض والجبال، فإن قيل كيف يكون ذلك وقد أبين وأشفقن، قال الباحث: لأنهن يعظمن خالقهن على الدوام، لكن الإنسان حملها لأنه موصوف بالظلم والجهل.

"وقال قتادة[٣] في قوله: ظَلُومًا، أي لنفسه جَهُولًا بما حمل، أي: جهولًا بثقل ماحمل"[٤]. ويذكر الثعلبي أن الإنسان الذي حمل الأمانة قابيل[٥]، وذكر النحاس أن قتادة قال:عرضت الفرائض على الخلق فأبين إلا آدم ﷺ[٦].وقيل المقصود جنس الإنسان[٧]. واختلف في العرض والكلام وقيل: هو إما حقيقة وإما تمثيل وتخييل[١].

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (١٧٣/٣).

(٢) المثل السائر لابن الأثير(١٦١/٢).

(٣) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي، أبو الخطاب الضرير الأكمة ولد سنة ٦٩هـ، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين، روى عن أنس بن مالك وغيره، توفي١٢١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، دار الحديث، (٤٧١/٥).

(٤) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (١٤٢٦/٣).

(٥) الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٥٠/٤).

(٦) ينظر: معاني القرآن للنحاس(٣٨٥/٥)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٩٧/١٩)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٩٦/١٥).

(٧) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٧٠/١١).

وجماع ذلك ما ذكره ابن عادل في اللباب حيث قال:" وقال بعضهم: ركّب الله (عز وجل) فيهن العقل والفهم حين عرض الأمانة عليهن حتى عقلن الخطاب، وأجبن بما أجبن. وقيل: المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهل السموات عرَضها على من فيها من الملائكة. وقيل: المراد المقابلة أي قابلنا الأمانة مع السموات فرجحت الأمانة، وهي الدين والأول أصح، وهو قول أكثر العلماء"(٢).

وقال الشنقيطي:" فتصريحه جلّ وعلا بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت، أي: خافت، دليل على أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه هو -جل وعلا- ونحن لا نعلمه"(٣). وعلل مجيء الضمير كضمير الإناث بكون جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وإن كان مذكرا، لئلا يتوهم أنه قد غلب المؤنث - وهو السموات - على المذكر وهو الجبال(٤).

وغرض الباحث من إيراد أقوال العلماء، هو لأنه إذا ثبت أن الكلام والإشفاق والتسبيح ونحوه حقيقة كما ذهب إليه الباحث، فذلك دال على أن ضمير العاقلات مستعمل فيما يقتضيه المقام لأن المتكلم هو الله، وإن جهل البشر حقيقة ذلك، وإسناد فعل العقلاء إلى ضمير الإناث دال على التعظيم، لاسيما أن القول لا يكون إلا من عاقل.

لكن في مواضع أخر يعود ضمير النسوة أو الضمير (هن) إلى السماوات، أو إلى السماوات والأرض، ففي قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ ﴾ [مريم:٩٠] ثم عاد في موضع آخر، وتلاه الضمير (هنّ) وكلا

=

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٩٦/١٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٥١٠/٨).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٩٧/١٥).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٣٣٩/٣).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٩٧/١٥)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (١٤٥/٩).

الضميرين عائدان إلى السماوات، من ذلك قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الشورى:٥].

وقبل البدء بالتحليل البلاغي، يقف الباحث على السياق الحالي لنزول هذه الآية، فآية سورة مريم ذكر الرازي في نزولها أن اليهود قالت عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله في[التوبة:٣٠]، وقالت العرب الملائكة بنات الله، والكل داخلون في هذه الآية، ومنهم من خصها بالعرب(١). أما تفطر السماوات في سورة الشورى فقد يكون سببه هذه الكلمة الشنعاء في حق الله، كما في آية سورة مريم، أو الثقل؛ لكونها تحمل العرش وغيره، ورجح الألوسي الأخير(٢).

وبعد هذا الجو الدلالي المحيط بالآيتين، يُرى أن الفعل يتفطر جاء مسندا إلى ضمير النسوة أو ضمير الإناث في الآيتين، وفي الآية الثانية جاء الضمير (هنّ) عائدا بعد ذلك في قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾، ويرى البقاعي وتبعه الألوسي أن الضمير عائد إلى جهة السماوات الفوقانية؛ لأن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال كالعرش والكرسي والملائكة من تلك الجهة، أو الجهة التحتانية للسموات التي هي فوق الأرض كالسقف؛ لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثرت من جهة الفوق فلأن تؤثر من جهة التحت أولى. وقيل لجماعات الكفار الملحدة؛ وفيه ما فيه. وقيل: الضمير للأرض، أي: لجنسها فيشمل السبع؛ ولذا جمع الضمير وهو خلاف الظاهر(٣). ويرى

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٦٦/٢١).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٣/١٣).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٤٢/١٧)، وروح المعاني للألوسي (١٣/١٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣٢٣/٩)، والكشاف للزمخشري (٢٠٩/٤)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٢/٢٥).

السيوطي أن المقصود أعلى السماوات مبالغة في التهويل، واستبعد أن يعود الضمير إلى الأرض أو إلى جماعات الكفار(١).

أما الرازي فذكر أوجها وبيّن فسادها. وذكر أوجها أيضا تحتملها الآية، منها: أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات، وكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك فقلب، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق، وقيل: من فوق الأرضين، وقيل: من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها، وتلك الجهة هي فوق، فقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾، أي: من الجهة الفوقانية التي هن فيها(٢).

والباحث يرجح كون الضمير عائدا إلى الأرض فيكون عود الضمير إلى غير الأقرب؛ لما في قوله: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [الشورى:٤]؛ ولأن الأرض هي موطن الكلمة الشنعاء، ثم عددهن سبعة لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]، والسماء كالسقف للأرض، فالمعنى أن تتفطر السماوات فوق الأرضين لعظمة الأمر، وممن حسّن عوده إلى الأرض البقاعي(٣).

وهذا التفطر هو نتيجة تأثير شعوري، وإدراك لعظمة الخالق، فهو تفطر من خشية الله كقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١]، فالتفطر في السماء والتصدع في الجبل. فالسماء -كما ذكر- تكاد تتفطر إما هيبة وإجلالا لله الذي تقدم وصفه، وأنه هو الموحي لهذا الكتاب، أو لادعائهم الولد لله كما في آية مريم، والشركاء هاهنا، كما ذكر الرازي ورجح الأول(٤)،

(١) ينظر: معترك القرآن في إعجاز القرآن(٤١١/٣).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٧٧/٢٧)، وينظر الكشاف للزمخشري (٢٠٩/٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٤٣/١٧).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٧٧/٢٧-٥٧٨).

وزاد الألوسي أن التفطر من الثقل، ورجح الألوسي هذا على القول بالولد والشريك؛ لأن الكلام مساق في عظمة الله سبحانه[1].

ويستنتج الباحث أن نون الإناث جاءت تعظيما لعظمة الله، فالسماوات كدن يتفطرن تعظيما وإجلالا لله، والذي يراه الباحث أن التفطر سببه الكلمة الشنعاء من أهل الأرض، كما دلت على ذلك آية سورة مريم، التي فسرت آية سورة الشورى، والقرينة الأخرى في آية سورة الشورى هي تسبيح الملائكة واستغفارهم لمن في الأرض، فلذلك استحقت السماوات هذه العظمة فاختير لهن ضمير الإناث بدلا من ضمير الغائبة، وفيه تعريض بمن له عقل ظاهر ونسب إلى الله صفة نقص، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

والسماوات والأرض أعظم ما يراه الإنسان دالا على قدرة الله، وكثيرا ما يعود الضمير بصيغة التثنية إليهما[2]، وذلك في مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧] وغيرها، وقد جاء ضمير الاثنين عائدا إلى السماوات والأرض في أربع وعشرين موضعا تقريبا[3].

ولكن يجد الباحث العدول عن ضمير المثنى إلى ضمير العاقلات في مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٩]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٣/١٣).

(٢) ينظر مبحث عود ضمير الاثنين إلى الجمع (ص:١٦٥ وما بعدها).

(٣) ينظر: [المائدة:١٧]، [المائدة:١٨]، [الحجر:٨٥]، [مريم:٦٥]، [طه:٦]، [الأنبياء:١٦]، [الفرقان:٥٩]، [الشعراء:٢٤]، [الروم:٨]، [السجدة:٤]، [الصافات:٥]، [ص:١٠]، [ص:٢٧]، [ص:٦٦]، [الزخرف:٨٥]، [الدخان:٧]، [الدخان:٣٨]، [الأحقاف:٣]، [ق:٣٨]، [النبأ:٣٧]، [سبأ:٢٢]، [الشورى:٢٩]، [الشورى:٥]، [فاطر:٤١].

تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:١٢]، فجاء الضمير (هنّ) متصلا في الفعل: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ و﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ فالضمير الذي وقع في محل مفعول هو ضمير اشتهر استعماله عائدا إلى العاقلات، وقلّ عوده إلى غير العاقلات وحلّ محله ضمير الغائبة في الغالب، ولعل الذي دعا إلى عوده على السماوات في هذا النظم هو قرينة التصريح بالعدد ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الدال على منتهى العظمة، فالسماء الواحدة عظيمة؛ فكيف بسبع؟ فاجتمع في الفعل ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ معنيان دالان على العظمة، الأول: ضمير الإناث، والثاني: هو أن ضمير الإناث وقع ضمير شأن مفيدا التفخيم والتعظيم، قال ابن هشام:" ضمير مبهم وسبع سموات تفسيره ...وقيل راجع إلى السماء، والسماء في معنى الجنس"[(١)].

ولقد مال القاضي الجرجاني إلى أن نون النسوة للعاقلات وذلك من خلال تأويله بقوله: "لما حكى عنهما النطق والقول والطاعة والائتمار أجرى الكلام على ذلك فقال: فقضاهن" [(٢)].

ويخلص الباحث بعد تتبع مثيلات الآية إلى أنه إذا ورد لفظ سبع سموات، أو لفظ السماوات السبع فإن الضمير لا يعود إلا بصيغة الجمع (هنّ): قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٩] وقوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت:١٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

(١) ينظر: مغني اللبيب(ص: ٦٣٨).

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (ص: ٤٣٩).

ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح:١٥-١٦]، وكذلك إذا وردت السماوات السبع فإنه لا يعود إليهن إلا الضمير (هن) قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٤].

والعدد سبعة له مكانه وسرّه في الشريعة، ويأتي كثيرا مفيدا التعظيم في مواطن؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف:٤٣] وقوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف:٤٨]، وبذلك يضيف العدد (سبعة) -سواء أكان معرفا بأل أم مضافا- معنى القدرة والعظمة، كما في لفظ السموات أو سموات، ويفيد التهويل كما في سبع بقرات، وسبع شداد، لكن ضمير (هن) لم يأت عائدا إلى أيام الريح ولياليها مع أن عدد أيامها سبع، ولياليها ثمان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة:٧] فلم يقل: فيهن، ولعل الجواب عن ذلك هو لأن الضمير غير عائد إلى المعدود، مع أن هناك من قال أن الضمير في (فيها) "للأيام والليالي، أو للبيوت أو للريح، والأول أظهر لقربه؛ ولأنه مذكور"[(١)]، والذي يراه الباحث أن الضمير عائد إلى مكانهم، ووجاهة هذا القول نابعة من حرف العطف الذي يفيد الترتيب والتعقيب، فدل على أن الرؤية كانت بعد انقضاء الليالي السبع والأيام الثمانية، إضافة إلى أن أيام الريح ولياليها لا يمكن أن يرى من خلالها الصرعى. ودليل آخر من سورة الأحقاف حيث قال: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف:٢٥]،

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١٨/١٩)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٤٢٥/١٠).

ويتكيء الباحث أيضا على ما قاله ابن عطية: "والضمير في قوله: ﴿فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يحتمل أن يعود على دارهم وحلتهم؛ لأن معنى الكلام يقتضيها وإن لم يلفظ بها"(١)، وبذلك لا تنقض هذه الآية ما قعّد له الباحث.

وإذا كان جمع القلة محصورا بين العدد ثلاثة إلى العشرة، وجمع الكثرة غير محصور؛ بل هو ما زاد عن العشرة إلى ما لا نهاية، فإن التمييز في القرآن الكريم يأتي مناسبا للمعدود حسب ما يقتضيه المقام، فمثلا العدد سبعة جاء في موطن تعظيم يفيد التكثير المطلق، فجاء تمييزه على صيغة منتهى الجموع، وذلك في مقام الإنفاق في سبيل الله(٢)، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١]، فهذه السنابل عظيمة لما حلت فيها من البركة، ففي كل سنبلة مئة حبة، وقد تضاعف، فجاء التمييز مناسبا للمقام، لذلك لم يقل: سنبلات؛ لأن ذلك يحدث تضاربا بين الإجمال والتفصيل، فالإجمال في صيغة منتهى الجموع، والتفصيل بما بين بعدها. ويختلف الأمر إذا لم يقصد التعظيم المطلق بل قصد تمييز العدد، وذلك في مثل مجيء العدد سبع مميزا ببقرات، وسبع مميزا بسنبلات فأفاد المعدود القلة، لكن لما عظم الفعل مع قلة المعدود استدعى ذلك ضمير العاقلات فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف:٤٣]، فقال: سبع سنبلات لإفادة التقليل، وإذا أعيد النظر في قوله: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ فإنه يُعلم أن المعدود يفيد القلة، لكن هذا التقليل يكتنفه أمر مهول، يثير الدهشة لسيره على غير سنن الحياة، فيأتي الفعل المتعجب منه مسندا إلى ضمير الإناث فقال: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ لأنه ليس كأي أكل، بل هو مشهد يصور العجاف تأكل السمان، فجاء ضمير الجمع ليصور هذا المشهد الغريب.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٣٥٧).

(٢) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص:٣٩-٤٠).

ثم يأتي تعبير يوسف -عليه السلام- بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [يوسف:٤٨]، ولكونه يعي التعبير وخطر المستقبل فقد جعل تمييز العدد سبعة من جموع الكثرة، حيث جاء المعدود ﴿شِدَادٌ﴾ على وزن فِعَال، ثم جعل الفعل يأكل مسندا إلى نون النسوة للتشبيه وتعظيم الهول، فالتهويل والتعظيم ظاهر من العدد، والمعدود والإسناد، فهنّ سبع موصوفات بكونهنّ شدادا مرهقات، وأنهنّ يأكلنَ بجشع، فاختلفنَ بهذا الوصف عمّا سواهنّ من السنين، أما المشابهة فنابعة من تشبيه السنين بالحيوان الجشع الذي يأكل ولا يشبع، على سبيل الاستعارة المكنية، وقد يكون مجازا عقليا علاقته الزمانية، فأهلها آكلون والسنون مأكول فيها "فيجعل أكل أهل تلك السنين مسندا إلى السنين"(١) فكان هذا الإسناد على طريق المجاز، بخلاف التسبيح والانفطار الذي هو حقيقة فيمن أثبته الله لهم.

ومن المفسرين ابن عطية الذي يرى أن الضمير (هنّ) خاص بالعاقلات، وذلك مفهوم من تفسيره لقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٤].

فقد ذكر ابن عطية أن الضمير (هنّ) للعاقل وأعيد إلى السماوات والأرض لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح(٢)، ولم يوافقه أبو حيان وابن عادل والسمين الحلبي على ذلك(٣)، وقال أبو حيان:" ويعنى بالضمير في قوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ وكأنه تخيل أن

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٤٦٥/١٨)، وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢٨٣/٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٥٨/٣).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٥٥/٧)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٩٦/١٢)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٣٦٢/٧).

(هنّ) لا يكون إلا لمن يعقل من المؤنثات؛ وليس كما تخيل، بل (هنّ) يكون ضمير الجمع المؤنث مطلقا"[1].

وفي موضع آخر يلفت الله انتباه المتلقي إلى أن المشركين مدركون عظمة السماوات والأرض وذلك بما اختاره الله جوابا لهم واصفا ذلك بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف:٩] فقولهم: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ هو إقرار منهم دال على ما استقرّ في نفوسهم من تعظيم هذا المخلوق الدال على عظمة خالقه، فنون الإناث كشفت اعتقاد أولئك في السماوات والأرض.

وهذه العظمة التي اتسمت بها السماوات والأرض تتطلب الإصلاح لذلك لم يتبع الحق أهواءهم كيلا تفسدان، فيعم الفساد كل شيء فيعظم الخطب، ويكون الهلاك، فقال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون:٧١][2].

"قال بعض المفسرين: الحق هو الله تعالى؛ أي: لو اتبع الله أهواءهم"[3] فجاءهم بالشرك لفسدت السماوات والأرض، وهو كقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢][4]، ومن هنا يتبين أن الضمير (هنّ) جاء مبينا الاتساع الذي سيفسد باتباع أهوائهم، وهنا يظهر أن الغرض من ضمير(هنّ) هو التهويل وتصوير فداحة الكارثة.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٥٥/٧).

(٢) جرى الحديث عن هذه الآية في (ص: ١٦٨).

(٣) الوجوه والنظائر،لأبي هلال العسكري (٣٦٣/١).

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٥٢/٩).

وهذا ما أشار إليه البقاعي بقوله: "﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾على علوها وإحكامها ﴿ وَٱلْأَرْضُ ﴾ على كثافتها وانتظامها ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم، بسبب ادعائهم تعدد الآلهة"(١).

ولما ذكر الله آياته ومنها الشمس والقمر، وهذه الآيات عظيمة في حركتها، ودقة نظامها، كان ذلك مدعاة لتعظيمها، فجاء الاحتراز من التعظيم الذي يرفع المعظَّم عن مكانه كيلا يتوهم متوهم استحقاقه للعبادة، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت:٣٧](٢)، فأثبت الله العظمة بقوله: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾، لكن هذا التعظيم ليس بشيء مقابل من خلقهن، فخالق العظيم أعظم، وحينئذ لا يسجد إلا للعظيم الذي خلقهن، فإذا امتنع ذلك على ما فيه عظمة فما دونه من باب أولى.

ومن العلماء من لم يتعرض إلى سر ذلك؛ لأنهم يرون ذلك من السير على قواعد اللغة، فلذلك علل الزمخشري مجيء ضمير جمع الإناث بقوله:" لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث، يقال: الأقلام بريتها وبريتهن"(٣).

ونقل أبو حيان قول الزمخشري وتعقبه بقوله:" يريد ما لا يعقل من الذكر، وكان ينبغي أن يفرق بين جمع القلة من ذلك فإن الأفصح أن يكون كضمير الواحدة، تقول: الأجذاع انكسرت على الأفصح، والجذوع انكسرن على الأفصح. والذي تقدم في الآية ليس بجمع قلة، أعني بلفظ واحد، ولكنه ذكر أربعة متعاطفة، فتنزلت منزلة الجمع المعبر عنها بلفظ واحد"(٤).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١٦٧/١٣).

(٢) جرى الحديث عن هذه الآية (ص:٣٠٦-٣٠٧)

(٣) الكشاف للزمخشري (٢٠٠/٤).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣٠٧/٩).

والقول بأن الأفصح أن يأتي ضمير الإناث عائدا على جمع القلة فيه نظر، وذلك لأن القرآن - وهو الأفصح – جاء على غير تلك القاعدة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٣]، فكلمة أعين من جموع القلة على وزن أفْعُل، ومع ذلك جاء الفعل بعدها مسندا إلى ضمير الواحدة المقدر، فلم يقل: يفضن. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧]، فجاءت أفئدة على وزن أفْعِله وأسند الفعل ﴿تَهۡوِيٓ﴾ إلى ضمير الواحدة المقدر.

ومما عظّم في القرآن أشهر الحج فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧]

فلما جاءت أشهر على صيغة جمع القلة أفعل جاء في السياق ما يبين شأن وعظمة هذه الأشهر وأن التقليل ما هو إلا للتيسير، فجاء الضمير (هنّ) في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ من باب الاحتراز وإثبات التعظيم لهذه الأشهر المعلومة، ومما يدل على التعظيم الإظهار في موضع الإضمار، فقد ذكرت الحج ثلاث مرات، فجاء التعظيم بهذه الأساليب المتنوعة.

ومذهب كثير من اللغويين –كما سبق– أن جمع القلة يعامل معاملة جمع الإناث على الأفصح، وإلى هذا أشار ابن عادل بقوله:" والضمير في ﴿فِيهِنَّ﴾يعود على

﴿أَشْهُرٌ﴾ وجيء به كضمير الإناث، لما تقدم من أن جمع غير العاقل في القلة يعامل معاملة جمع الإناث على الأفصح؛ فلذلك جاء ﴿فِيهِنَّ﴾ دون (فيها)"(١).

وقال القرطبي:" وقال: ﴿فِيهِنَّ﴾ ولم يقل: فيها، فقال قوم: هما سواء في الاستعمال. وقال المازني أبو عثمان: الجمع الكثير لما لا يعقل يأتي كالواحدة المؤنثة، والقليل ليس كذلك، تقول: الأجذاع انكسرن، والجذوع انكسرت"(٢).

والجوارح جمع كثرة، ولما ارتقت بعض الجوارح بالتعليم كان ذلك شرفا لهن، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة:٤] فجاء الضمير (هن) في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ ونون النسوة في قوله: ﴿أَمْسَكْنَ﴾ عائدا على جمع كثرة لا قلة، فكان في اختيار هذين الضميرين دون ضمير الغائبة دلالة على ارتقاء هذه الكلاب والطيور المعلمة عن التي ليست معلمة، ولكن الجميع ارتقى لما كان مسبحا، كما مرّ من قبل. ويرى ابن عطية أن ضمير الجمع جاء مراعاة للفظ الجوارح، إذ هو جمع جارحة(٣).

وقد اجتمع ضمير الغائبة وضمير جماعة الإناث بعودهما على مرجع واحد، وذلك بقول لبيد بن ربيعة وهو يصف ولد بقرة وحشية ضيعته أمه فأكلته السباع، وجعلت الأم تبحث عنه بين الرمال(٤):

خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الفَرِيرَ فَلَم يَرِمْ عُرُضَ الشَقائِقِ طَوفُها وَبُغامُها
لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنازَعَ شِلوَهُ غُبْسٌ كَواسِبُ لا يُمَنُّ طَعَامُها

---

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣/٣٩٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٤٠٦).
(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢/١٥٨).
(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص: ١١١).

صـادَفنَ مِنهـا غِـرَّةً فَأَصَبنَها　　　إِنَّ المَنايـا لا تَطـيشُ سِـهامُها

فعاد الضمير على كواسب مرتين: الأولى ضمير الغائبة في قوله: طعامها، والثانية: ضمير جمع الإناث في قوله: صادفنها، وأصبنها. فعاد ضمير جمع الإناث على جمع الكثرة لأن في الموقف تهويل واعتداء، وعاد في الأولى ضمير الغائبة استجابة للقافية.

ولما كان الإتيان فعلا حقيقيا للإبل فإن إسناد فعلها إلى نون النسوة في قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج:٢٧] "بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم"[(١)]، ثم أسند الفعل يأتي إلى نون النسوة العائدة إلى كل ضامر فقال: ﴿يَأْتِينَ﴾، "قيل: ﴿يَأْتِينَ﴾ فجمع لأنه أريد بكل ضامر النوق، ومعنى الكل الجمع"[(٢)] فلما قدم الراجلين تشريفا، أعلى مكانة كل ضامر، فلم يقل: تأتي[(٣)]، ولكن قال: يأتين فدلّ نون النسوة على الجمع والتشريف الشامل، فالاستجابة وضمور الراحلة، والفج العميق، كلها من موجبات الامتداح، فهذا الوصف خاص بما امتطي للحج، وهذه الإبل قد عظمت عن غيرها لهذا الغرض العظيم الذي امتيطت وضمرت من أجله، فأتت من فجاج عميقة، وفي تعظيمها وهي غير عاقلة دلالة على عظمة من امتطاها؛ استجابة لأمر الله، قاصدا الحج، فعظّم المحلّ والحالّ، وتلك هي البشارة الخفية تحت استعمال ضمير النسوة، فمدح المطي مدح للممتطين، فبذلك عظم الراجل والراكب، والله أعلم.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٠/٢٣).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥١٤/١٦).

(٣) يرأى الفراء أن الأغلب أن يوحد الفعل لأن كلّ أضيفت إلى واحدة، وقليل في كلام العرب أن يقولوا: مررت على كل رجل قائمين وهو صواب، ينظر: معاني القرآن للفراء(٢١٩/٢)، ويرى الطبري جوازه، وأن قلة هذا الأسلوب مما زعمه الفراء، ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥١٤/١٦).

ومما يلاحظ أن ضمير العاقلين قد تعود إلى الأصنام نزولا عندما يعتقده فيها عابدوها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٦]، فالضميران: (هنّ)، ونون النسوة عادا إلى الأصنام وهي غير عاقلة، وأسند إلى ضميرها الفعل الذي لا يسند إلا لعاقل أو لضميره، لكنه أسند إلى الأصنام من باب المجاز العقلي، وهو إضافة الفعل إلى غير فاعله، وقد يكون من باب الاستعارة المكنية، "فإضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة، ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم"(١)، فلشدة تأثر العاقل بها أصبحت كأنها هي المؤثرة، مع كونها مسلوبة الإرادة، وفي إسناد فعل العاقل إليها مع كونها مسلوبة الإرادة تصغير وتحقير لعابدٍ يملك عقلا لم يصرفه عن عبادة من لا يضر ولا ينفع، بل ولا يدفع عن نفسه الضر، فكان هذا المعبود خير من عابده؛ لأنه عبد وهو جماد مسبح، فكان في ذلك استحقار وتصغير لعقل من عبده من دون الله، فكان الجماد بذلك أعلى شأنا لأنه مسبح سيتبرأ من عابديه.

ويرى أبو حيان والألوسي أن قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ [نوح:٢٤]، أي: الأصنام، عاد الضمير عليها كما يعود على العقلاء، كقوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٣٦]، أضاف الألوسي: "ضمير العقلاء لتنزيلها منزلتهم عندهم وعلى زعمهم"، وعوده على الرؤساء أظهر لديهما(٢). ويرى ابن عادل أن ضمير جماعة الإناث عاد على الأصنام؛ لأنها جمع تكسير غير عاقل(٣).

---

(١) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٢٤٢)، وروح المعاني للألوسي (٢٢٢/٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٨٧/١٠)، وروح المعاني للألوسي (٨٧/١٥).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٩٥/١١).

ويلتمس الباحث مما سبق أن أبا حيان والألوسي مع كونهما يريان أن الضمير (هن) وضمير جمع الإناث ليسا خاصين بالعاقل؛ إلا أنهما في هذا المقام جعلا آية سورة إبراهيم شاهدا على مجيئه للعاقل.

ومثل ذلك يأتي في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر:٣٨]، فالاسم الموصول (ما) جاء للدلالة على غير العاقل، ومع ذلك عاد ضمير الإناث ﴿هُنَّ﴾ ثم أظهر الضمير مرة أخرى وكان مقتضى الظاهر الإضمار، ولعل هذا الضمير يشير إلى مكانة هذه الأصنام في نفوس عابديها، ولكن هذه المكانة تبرز حقيقتها ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ﴾ وقوله:﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ﴾ ليخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي هو الإنكار. فأبطل الله تعظيمها بالبرهان، فتبين بذلك أن الغرض من ضمير العاقلات هو زيادة توبيخ لمن عبد من لا يدفع ضر ولا يجلب نفعا.

وهذا كإضافة الشركاء لياء المتكلم العائدة على الله في قوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل:٢٧]، فليس الغرض من الإضافة التشريف بل الغرض التوبيخ كما قال ابن عاشور: " وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة زيادة في التوبيخ؛ لأن مظهر عظمة الله تعالى يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك، فالمخاطبون عالمون حينئذ بتعذر المشاركة"[(١)].

ولعل تأنيث ضمير الأصنام نابع من اعتقاد أهل الجاهلية، فقد "روي عن الحسن: أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه، ويسمونه أنثى بني فلان؛ لأنهم

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/١٠٩).

يجعلون عليه الحلي وأنواع الزينة كما يفعلون بالنسوان، أو لما أن أسماءها مؤنثة- كما قيل- وهم يسمون ما اسمه مؤنث أنثى"(١).

وأكثر المفسرين ذكروا الرواية بعد قوله تعالى:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ [النساء:١١٧]، وفسر الزمخشري الإناث بأنها اللات والعزى ومناة(٢)، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم:١٩-٣٠]، ولعل هذه الأسماء المؤنثة دالة على اعتقادهم، فجاء ضمير الإناث كما يعتقدون، وجاء الاسم الموصول لغير العاقل موافقة للحق.

وجعل الرازي -ومن قبله الزمخشري- التأنيث في قوله: ﴿ كَٰشِفَٰتُ ﴾ وقوله:﴿ مُمْسِكَٰتُ ﴾ تنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة(٣).

ولكن ما ذهب إليه الرازي والزمخشري لا يتفق مع ما كان الجاهليون يسمون به أصنامهم كما سبق، فمن المعلوم أنهم لم يختاروا الاسم المؤنث طلبا للنقص، وإلا لما عبدوها.

وقال ابن عاشور:" وضمير ﴿ هُنَّ ﴾ عائد إلى ما الموصولة، وكذلك الضمائر المؤنثة الواردة بعده ظاهرة ومستترة، إما لأن ما صدق ما الموصولة هنا أحجار غير

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٤٢/٣)، وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٤٨٨/٧)، وإعراب القرآن للنحاس(٢٣٨/١)، ومفاتيح الغيب للرازي (٢٢١/١١)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢١/٧).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٥٦٦/١).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٥٥/٢٦)، والكشاف للزمخشري (١٣٠/٤).

عاقلة، وجمع غير العقلاء يجري على اعتبار التأنيث؛ ولأن ذلك يصير الكلام من قبيل الكلام الموجه بأن آلهتهم كالإناث لا تقدر على النصر"(١).

وقد وقف الدكتور فاضل السامرائي على هذه الآية فأشار إلى دلالة الاسم الموصول على الذات غير العاقلة، وذكر أن الضمير (هن) إما أن يكون للإناث، أو يستعمل لجمع غير العاقل مذكرا أو مؤنثا، وهو هنا مستعمل لغير العاقل ومناسب للاسم الموصول(٢).

وعاد ضمير النسوة إلى الحسنات وهي غير عاقلة كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤] فقال: ﴿ يُذۡهِبۡنَ ﴾ فأسند الفعل إلى نون النسوة الذي اشتهر عوده إلى العاقلات، ولم ترد لفظة الحسنات معرفة بأل في القرآن الكريم إلا في هذا الموطن، وفي موطن آخر وردت نكرة، فكان للحسنات هنا تمييز خاص، فأعيد إليها ضمير العاقلات إجلالا وتعظيما، غير أن الباحث لما تتبع لفظة السيئات وجدها ذكرت في القرآن الكريم في أربعة عشر موطنا(٣)، ولم يعد إليها ضمير جماعة الإناث أبدا بل عاد إليها ضمير الغائبة في موضع واحد وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٣]، فلم يقل: من بعدهنّ، ولعل السبب في ذلك كون المقام مقام توبة وغفران، فلذلك قلّلت ترغيبا بالتوبة، ورحمة من الله بعباده.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٤/٢٤).

(٢) ينظر: على طريق التفسير البياني د. فاضل صالح السامرائي(٧٩/٢).

(٣) [النساء:١٨]، [الأعراف:١٥٣]، [يونس:٢٧]، [هود:١٠]، [هود:٧٨]، [هود:١١٤]، [النحل:٤٥]، [القصص:٨٤]، [العنكبوت:٤]، [فاطر:١٠]، [غافر:٩] مرتين، [الشورى:٢٥]، [الجاثية:٢١] .

وعندما وصف الله آية من آياته وهي الجواري في البحر بوصف خاص، دل الموصوف على قدرة الواصف، فناسب ذلك التعظيم، فقال تعالى:﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى:٣٢-٣٤][1] فجاء الفعل مسندا إلى نون النسوة فقال: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ ثم جاء الضمير (هنّ)، وكلا الضميرين يعودان إلى الجواري، ولم يعد ضمير العاقلات إلا في هذا الموضع، وعاد مرة واحدة إلى الفلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢]، فالمذكور هنا جنس الفلك الدال على الجمع، ثم وصف المؤثرات الخارجية التي ولدت الاضطراب حيث الخطر المحدق، ثم النجاة.

وذكرت الفلك بما يقرب من واحد وعشرين موضعا[2]، فعاد ضمير الغائبة إليها في ثلاثة مواطن؛ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقوله في سفينة نوح عليه السلام، وهي مفردة: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ

(١) قال: قال أحمد بن المنيّر: "وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذابا، بخلاف الرياح. وهذه الآية تخرم الإطلاق، فان الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة". ينظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف (٢٢٧/٤). ويرى الباحث صواب ما ذكره ابن المنير إلا أنّ الآية هذه لا تصلح للاستشهاد على ذلك؛ لأن الريح هنا للعذاب فإسكان الريح أو عصفها عذاب، والصواب الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، والله تعالى أعلم.

(٢) [الشورى:٣٢]، [الرحمن:٢٤] .

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان:٣١]، ففي هذه الآيات يعود ضمير الغائبة إلى الفلك فأسند الفعل (تجري) في الموضع الأول والثالث إلى الضمير (هي)، وفي الموضع الثاني يأتي الضمير في قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ للإفراد، على خلاف الموضعين الآخرين، فقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ إجمال لجميع أحوال الفلك في البحر وأن ذلك بأمر الله سبحانه، وقوله:﴿ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ إجمال للرحمة، وذلك هو الإيجاز، ويأتي الإطناب الباعث على مزيد من التأمل في آيتي الشورى ويونس حيث التفصيل المبين.

ولما جاء الوصف المفصّل، المليء بالحركة، تغيرت الضمائر، فجاءت ضمائر العاقلات، ولم تأت نون النسوة عائدة إلى الجوار إلا في الموضع السابق في سورة الشورى، في قوله: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ وكذلك الضمير (هنّ) في قوله: ﴿ يُوبِقْهُنَّ ﴾، وأما الآية الأخرى ففي سورة يونس في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ ﴾ وعندما يتتبع الباحث المواضع في السورتين -يعني سورة يونس وسورة الشورى- يجد أنها اتفقت على وصف خاص، ومشهد دقيق يبعث على مزيد من التأمل والتفكر، ويدل على قدرة الخالق سبحانه، حيث المسخِّر والمسخَّرات والمسخَّر لهم، فالوصف في الموضعين متقارب، فلك أو جوار كالجبال العالية "وعدل عن: الفلك إلى (الجواري) إيماء إلى محل العبرة؛ لأن العبرة في تسخير البحر لجريها، وتفكير الإنسان في صنعها"(١)، والمكان البحر بأمواجه المتلاطمة، والأجواء إما ريح طيبة منجية، أو ريح عاصف موبقة، ولو شاء الله لأسكن الريح فصرن الجواري "ثوابت مستقرات من غير سير"(٢)، والمتصرف في كل الله، والنجاة أو الهلاك بما اقترف العباد، ورحمة الله حاضرة.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٥/٢٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٣١٩/١٧)، وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣٣/٨).

فوصف المركبين، والظهْر المحدقة به الأخطار، والطقس النافع أو الضار، والسبب لكل مسبَّب، ولم يحدث هذا التفصيل إلا في آيتي سورة الشورى وآية سورة يونس، فلما انفردت هذه المواضع عن بقية المواضع التي ذكرت الجواري أو الفلك بالتفصيل وتصوير المشاهد المحيطة والمؤثرة بهذا الوصف الباعث على التأمل، وقدرة الخالق -سبحانه- كان ذلك داعيا لانفرادها في الضمير الذي يعلي شأنها، فاستدعى المقام ضمير النسوة، والضمير (هنّ)؛ فجاءت الأفعال: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ و﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، ﴿وَجَرَيْنَ﴾ لتمام العظمة، وليدرك المتلقي القدرة والنعمة المستحقة للشكر في القول والعمل، ولم يأت ضمير الغائب كما في مواضع أخر؛ لأن ضمير الغائبة لا يفي بما يفي به ضمير النسوة والضمير (هنّ) في هذا المقام، والله أعلم.

أما ضمير الغائب في قوله تعالى﴿جَآءَتۡهَا﴾ من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس:٢٢]. فذكر عبد القاهر الجرجاني أنه عائد إلى الفلك، وقيل: إلى الريح الطيبة(١)، والذي يراه الباحث أنه عائد إلى الريح الطيبة لسببين، الأول: كونها الأقرب. والثاني: كون الضمير الذي عاد إلى الفلك هو نون النسوة وما يحمله من معنى أكمل من ضمير الغائب.

ومثل هذه القدرة الإلهية المتمثلة في تسخير الفلك وجريانها في الماء، وتسخير البحر لها، وتسخير الطقس، تظهر صورة سباحة أخرى لكنها في الجو، وتلك تتمثل في طيران الطير فقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل:٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك:١٩]، ويتجلى الفعل﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾ ومفعوله في الآيتين، وقوله: ﴿وَيَقۡبِضۡنَ﴾ حيث المسند الفعلي والمسند إليه، فالضمير (هنّ) في الموضعين، ونون النسوة، عادا إلى الطير في حالة

(١) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني(٣/ ٩٤٤).

من حالاته، والطير ذكر في القرآن خمس عشرة مرة(١)، على صيغة الجنس والإفراد، وعاد الضمير إليه مفردا بضمير الغائب في موطنين للإفراد(٢)، وفي ضمير المخاطبة في موطن(٣)، وفي موطن جاءت الطير للجنس ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص:١٩] ويحتمل اسم المفعول معمولا تقديره (هي) يعود إلى الطير؛ لأن المقام مقام تطويع وتذليل لانظمامها تحت ملك سليمان – عليه السلام- فليس في المقام تعظيم لها، وجاء ضمير الجمع المؤنث للطير في أربعة مواضع؛ في الموضعين السابقين ، وموضع سبق في آية تسبيح الطير(٤)، والموضع الرابع سيأتي، أما المواطن الباقية فلم يعد إليه فيها ضمير.

وفي آيتي سورتي النحل والملك السابقتين؛ يجد الباحث أن المقام مقام إبراز قدرة الله الخارقة، فالذي أمسك الفلك في البحر، هو الذي أمسك الطير في جو السماء، فجاء الضمير (هن) ونون النسوة مكمّلات المشهد الدال على كمال عظمة الخالق المتبينة في عظمة هذا المخلوق، فالطير لا يسقطن لحظة الصفّ، ولا يسقطن لحظة القبض؛ لأن الممسك بهن الله سبحانه ليس الصفّ ولا القبض.

---

(١) [البقرة:٢٦٠]، [آل عمران:٤٩]، [المائدة:١١٠]، [يوسف:٣٦]، [يوسف:٤١]، [النحل:٧٩]، [الحج:٣١]، [الأنبياء:٧٩]، [النور:٤١]، [النمل:١٦]، [النمل:١٧]، [النمل:٢٠]، [سبأ:١٠]، [ص:١٩]، [الملك:١٩].

(٢) في قوله تعالى: ﴿ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٤٩]، وقوله: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة:١١٠].

(٣) ينظر تحليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠]، (ص: ٣٦٣).

(٤) ينظر تحليل الآية (ص: ٣٨٠).

ووصف الرازي هذه القدرة العجيبة بقوله:" هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، فإنه لولا أنه -تعالى- خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران، وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه؛ لما أمكن ذلك، فإنه -تعالى- أعطى الطير جناحا يبسطه، مرة ويكسره أخرى، مثل ما يعمله السابح في الماء، وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا. وأما قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فالمعنى: أن جسد الطير جسم ثقيل، والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقا من غير دعامة تحته، ولا علاقة فوقه، فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى، ثم من الظاهر أن بقاءه في الجو معلقا فعله، وحاصل باختياره"(١).

وأضاف الألوسي لطيفة في دلالة الاسم والفعل في ذلك، فقال: "ولما كان أصل الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل فيها مد الأطراف وبسطها، وكان القبض طارئا على البسط للاستظهار به على التحرك، جيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، وبما هو أصل بلفظ الاسم"(٢).

وفي الموضع الرابع الذي جاء فيه الضمير (هنّ) ونون النسوة عائدين إلى الطير، في تصوير آخر لقدرة الله -عز وجل- على البعث، إذ يقول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠] ففي هذه الآية تكرير للضمير (هُنّ) ثلاث مرات، وذلك في قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ و﴿مِّنْهُنَّ﴾ و﴿ادْعُهُنَّ﴾ ثم يأتي أيضا نون النسوة حاضرا في قوله: ﴿يَأْتِينَكَ﴾ فما السر وراء اختيار هذه الضمائر التي هي بالعاقلات ألصق؛ والعدول عن ضمير الغائبة الذي مجيئه مع غير العاقل أشهر؟

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٥٢/٢٠).

(٢) روح المعاني للألوسي (١٩/١٥).

لا شك أن وراء هذا الاختيار دلالة بلاغية، كما مرّ من قبل، وكلام الله أوسع مما تصل إليه المدارك، لكن الذي يتبين للباحث في هذا الموطن أن هذه الضمائر جاءت لتسهم في تصوير هذه العملية المدهشة التي فيها التهويل في القتل، ثم الخلط ثم التفريق، ثم عودة الحياة برجوع كل جزء إلى محله، ثم دعاؤهن ومجيئهن سعيا، فمع أن الطير أعجوبة في طيرانه كما مرّ آنفا فإنّ هذه الصورة أعجب من ذلك فجاءت حافلة بهذه الضمائر.

وقد فسر أبو عبيدة قوله تعالى: ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ بأحد معنيين؛ الأول: ضمهن إليك ثم قطعهنّ، والثاني: قطعهنّ ثم فرقهنّ[1].

والخيل ذكرت في القرآن الكريم مع غيرها، وعاد الضمير إلى الجميع مفردا، وذلك في قوله: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل:٨]، فلم يقل: لتركبوهنّ.

وكذلك عندما ذكرت في مقام ألهت فيه نبي الله سليمان –عليه السلام– عن العبادة، فقال الله في ذلك: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص:٣١-٣٣] فقال: ﴿ تَوَارَتْ ﴾ و﴿ رُدُّوهَا ﴾ ولم يأت نون النسوة أو الضمير هنّ بديلا لضمير الغائب؛ لأن المقام مقام غضب على ما أشغله، وقرينة ذلك قوله: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .

غير أن نون النسوة أسند إليها فعل الخيل في وصف يدل على تعظيمها فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾ [العاديات:١-٥]، فجاء الفعلان مسندين إلى نون النسوة في

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (ص: ٨٠).

قوله: ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾و﴿ فَوَسَطْنَ ﴾ والمقام مقام تعظيم، ولا أدلّ على ذلك من أن الله أقسم بها، ثم أردف ما يدل على عظمتها، ومن ذلك إثارتها للغبار(١)، فوسطن جمع المشركين فأغاروا بجمعهم(٢)، فدخلت في وسط ذلك الجمع لشجاعتها وقوتها وطواعيتها وشجاعة فرسانها(٣). وبالقسم والأوصاف العظيمة يأتي الضمير مناسبا في دلالته على التعظيم.

ولما عظمت الكلمات التي ابتلى الله بهنّ إبراهيم – عليه السلام- جاءت بالتنكير وعاد إليها ضمير العاقلات فقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤]، ولقد ذكرت لفظة كلمات ولفظة كلماته في عدة مواضع(٤)، ولم يعد إليها في جميع المواضع أي ضمير، سوى الآية السابقة فقد عاد إلى كلمات ضمير (هنّ).

ومما يدل على تعظيم هذه الكلمات أولا: التنكير، ثانيا: تأليف الآية حيث قدم المفعول وأخر الفاعل -جلّ شأنه- ثم أعاد الضمير الذي أضيف إليه لفظ الرب إلى إبراهيم عليه السلام لما فيه من معنى اللطف والتقريب، ثالثا: أن الله ابتلى إبراهيم بهنّ، رابعا: أتمهن إبراهيم عليه السلام، "أي: وفّى بهنّ... وقيل أراد بالكلمات الدعوات"(٥)، خامسا: ترتب على إتمامهنّ أن جعله الله للناس إماما. سادسا: ثم أثنى الله عليه في

---

(١) معاني القرآن للفراء(٣/٢٨٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٢/٢١٢).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٢/٢١٣).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، باب الكاف، (ك ل م) (ص: ٦٢١).

معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/٩)، والدعوات: هي أدعية إبراهيم -عليه السلام- في بناء البيت، وبعثة النبي محمد ﷺ وغير ذلك.

قوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم:٣٧][(١)]، فكل ذلك يدل على المزية الخاصة لهذه الكلمات فعاد إليها الضمير (هنّ) على سبيل التعظيم.

والمتتبع للفظة آيات في القرآن الكريم يجد ضمير الواحدة هو الذي يعود إليها، وهذا جاء في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة:٩٩]، وقوله:﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢٥٢]، وقوله: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ [النساء:١٤٠]، وغير ذلك كثير، ولم يعد ضمير العاقلات إلى لفظة آيات إلا في موضع واحد وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧]، فلمكانة الآيات المحكمات جاء ضمير العاقل(هن) عائدا إليهن في قوله: ﴿هُنَّ﴾ وضمير الفصل هنا جاء للتعظيم، يدل عليه قوله: ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأم الشيء أصله[(٢)]. واستعارة الأم لها دلالة تعظيم استدعت ضمير العاقلات، وعظمت الآيات إذ وصفها بالمحكمات؛ لكونها إيجازا، وإطنابه أن من "محكمات القرآن: ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يؤمن به ولا يعمل به"[(٣)]، وذلك قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود:١].وقيل المحكمات: "ما أوقف الله الخلق على معناها، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه"[(٤)]. وقيل: "المحكم ما

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/٥٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/١٨٤).

(٢) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٣/٩)، وروح المعاني للألوسي (٢/٧٨).

(٣) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥/٣١).

(٤) المصدر نفسه(٥/٣١).

لا يحتمل من التأويل غير وجه، والمتشابه ما احتمل أوجها"[١]. واختيار اللفظ وتركه في موضع آخر أو أن يستبدل به غيره كل ذلك له دلالات تفصح عنها القرائن المتظافرة لبيان الدلالة، لكن"من حيث إنه كلام الله لا مزية لشيء منه على شيء"[٢].

وقد ذكر ابن عاشور كلاما نفيسا يدل على عظمة هذه الآيات المحكمات فقال: "وإنما أخبر عن ضمير آيات محكمات، وهو ضمير جمع، باسم مفرد ليس دالا على أجزاء وهو (أَمْ)، لأن المراد أن صنف الآيات المحكمات يتنزل من الكتاب منزلة أمه، أي: أصله ومرجعه الذي يرجع إليه في فهم الكتاب ومقاصده، والمعنى: هن كأم للكتاب"[٣].

ويستنتج الباحث مما مضى في هذا المبحث أن الضمائر التي تعود إلى جماعة النسوة هي: هنّ، وأنتنّ، ونون النسوة، ويسمى الأخير بنون الإناث لإشراك جمع المؤنث غير العاقل لجواز مجيئه مرجعا له، ولم يعد على جماعة النسوة ضمير الغائبة أبدا، أما جمع المؤنث غير العاقل فالأشهر عود ضمير الغائبة إليه.

وجاءت شواهد لعود ضمير العاقلات إلى غير عاقل في إدراك البشر، واجتهد العلماء بالتقعيد لذلك، وترادف قولهم بأن هذه الضمائر مشتركة بين العاقلات وغير العاقلات، إلا أن الباحث وجد لبعض أولئك عبارات توحي بأن هذين الضميرين للعاقلات، وذلك جاء في تفسير لابن عطية[٤]، وأبي حيان والألوسي[٥] مع أنهم من القائلين بالقول السابق.

ومن ضوء النظائر يجد الباحث مثلا الجبال ذكرت في القرآن في مواطن عدة، وعاد إليها ضمير الغائبة، ولم يعد ضمير الإناث إلا في ثلاثة مواضع؛ عندما ذكر أنها

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١/٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٤٤٠/١).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/٣).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٥٨/٣).

(٥) ينظر:البحر المحيط لأبي حيان (٢٨٧/١٠)، وروح المعاني للألوسي (٨٧/١٥).

تسبح مع سليمان، في الأنبياء وص، فقال: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وعند عرض الأمانة، فاستحقت التعظيم؛ لأنها تعقل بقدرة الله، فأسند إليها ما يسند للعقلاء في نظر البشر. وكذلك السماوات في قوله:﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ [مريم:٩٠]، [الشورى:٥] لأنهن نزهن الله من كلمة النقص. وكثيرا ما يعود الضمير إلى السموات والأرض على صيغة المثنى إلا أنه عدل إلى ضمير العاقلات في مواضع سبقت، وإذا ورد لفظ سبع سموات، أو لفظ السماوات السبع فإن الضمير لا يعود إلا بصيغة الجمع (هنّ)، لدلالتها على قدرة الله المتناهية، ولعظمتها، فإظهار القدرة يناسب تعظيم المقدور عليه. وأما الخيل فقال الله فيها لما أشغلت سليمان: ﴿ تَوَارَتْ ﴾و﴿ رُدُّوهَا ﴾ فعاد ضمير الغائبة إليها، ولما أقسم الله بها أعاد ضمير الإناث للتعظيم، فقال: ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾و﴿ فَوَسَطْنَ ﴾. ولفظة آيات عاد إليها ضمير الغائبة في مواضع كثيرة، ولم يعد ضمير العاقلات إلا في موضع واحد وذلك في قوله: ﴿ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والتعظيم واضح، من الصفة، وضمير العاقلات، وكونها أم، وأم الشيء أصله.

وقد يجمع الإسناد بين التشبيه والتهويل على سبيل المجاز كما في رؤيا الملك وتعبير يوسف في قوله: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾، و﴿يَأْكُلْنَ﴾. ومما يؤيد التعظيم عود ضمير الإناث على الأشهر الحرم فقال: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ أما الأشهر الاثنا عشر فعاد ضمير الغائب إليها فقال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، وذكر السيوطي أن المخالفة للحذر من التنافر. وقيل صيغة الإفراد عادت إلى الكثرة، وصيغة الجمع عادت إلى القلة، وجعلت هذه قاعدة لغوية، ومثلها أشهر الحج قلّت لكنها عظمت فقال الله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، وعظم ما يمتطى للحج، وأسند الإتيان إلى ضميره، فقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾، والجوارح جمع كثرة وارتقت بالتعليم، فعظمت، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾، ويستدرك الباحث على قول من قال: إذا جاء جمع القلة فإن الأفصح

عنده أن يعود إليه ضمير الإناث، أما الكثرة فالأفصح أن يعود إليها ضمير الواحدة، ومثّل بقوله: الأجذاع انكسرت على الأفصح، والجذوع انكسرن على الأفصح. لكن الباحث وجد القرآن وهو الأفصح يقول: ﴿ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ ﴾، فكلمة أعين من جموع القلة على وزن أفْعُل، ومع ذلك جاء الفعل بعدها مسندا إلى ضمير الواحدة المقدر فلم يقل: يفضن. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ ﴾.

ومن هنا يظهر أن ضمير العاقلات يعود إلى غير العاقل على أربعة أغراض:

الأول: على الحقيقة، فيكون مرجع هذا الضمير مما صرح الله له بفعل، أو قول كتسبيح الجبال.

الثاني: على سبيل المجاز كما في باب الاستعارة المكنية، كما في رؤيا الملك وتعبير يوسف.

الثالث: لغرض التعظيم من غير تشبيه.

الرابع: قد يعود ضمير الإناث للمشاكلة[1]، كما عاد على الشياطين في الحديث: "اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ ..."[2]. والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٣/ ٥٩٧).

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم،كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب التأمين، (٢/ ١١٠) رقم الحديث: ٢٤٨٨.

المبحث الثالث: عود ضمير المذكر على المؤنث .

من قوانين اللغة وسننها مطابقة الضمير لمرجعه في أمور كثيرة، من أهمها التذكير والتأنيث، ومن هنا درس أهل اللغة المذكر الحقيقي والمذكر المجازي، والمؤنث الحقيقي والمؤنث المجازي، وتكلموا عن تذكير الفعل وتأنيثه بين الجواز والوجوب، واشترطوا لكل شروطا، وبما أنه قد استقرت ضمائر تختص بالمذكر، وضمائر تختص بالمؤنث، وضمائر مشتركة كضمير المثنى، فإن مما يثير انتباه الباحث عود بعض الضمائر التي تختص بالمؤنث إلى المذكر، وبعض الضمائر المختصة بالمذكر قد تعود إلى المؤنث لغرض، ولقد جاء مثل ذلك في كلام العرب، وجاء القرآن بهذا الأسلوب على أكمل وجه وأبلغه.

ويرى سيبويه أن المؤنث فرع من المذكر، فالمذكر هو الأصل فقال:" وإنما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكر؛ لأن الأشياء كلها أصلها التذكير ثم تختص بعد، فكل مؤنث شيء، والشيء يذكر، فالتذكير أول، وهو أشد تمكنا، كما أن النكرة هي أشد تمكنا من المعرفة؛ لأن الأشياء إنما تكون نكرة ثم تعرف"[١].

وقال ابن جني:" وتذكير المؤنث واسع جدًّا؛ لأنه ردّ فرع إلى أصل. لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب"[٢].

وعلق الشيخ خالد الأزهري على قول سيبويه قائلا:"ولما كان التأنيث فرع التذكير لأن الأصل في جميع الأشياء التذكير -كما قاله سيبويه- احتاج المؤنث لعلامة تميزه من المذكر"[٣].

وقبل أن يدلف الباحث إلى شواهد ذلك من القرآن الكريم فإنه سيعرج على بعض مواطن هذا التغاير في كلام العرب وسيقف على سر ذلك، بإذن الله.

لأن هذا التنظير يحتاج إلى تطبيق يبين عن المقصود، فإبراهيم -عليه السلام- ذكّر الشمس وهي مؤنثة؛ ليناسب التذكير ما أوهم قومه أنه يعتقده، فالتذكير هنا خدمة

(١) الكتاب(٢٤١/٣).

(٢) الخصائص لابن جني (٤١٧/٢).

(٣) شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الجرجاويّ الأزهري٤٨٧/٢).

للاعتقاد المزعوم، فقد عزل الشيء عن حقيقته وأشار إليه بما هو للمذكر ليناسب كون المشار إليه ربا، فقال الله عنه: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام:٧٨].

وذكر الثعلبي تأويلين لسبب تذكير اسم الإشارة مع الشمس، فقال: "قال محمد بن مقاتل الرازي[١]: إنما قال: هذا، ولم يقل: هذه؛ لأنه رأى ضوء الشمس ولم ير عين الشمس. فرده إلى الشعاع. وقال الأخفش: أراد هذا الطالع ربي، أو هذا الآتي أراه ربي"[٢]. وأضاف ابن حيان أن التأنيث هو المشهور، والتذكير على اللغة القليلة جاء مراعاة ومناسبة للخبر[٣].

وما نقله الثعلبي هو في غاية الوجاهة، فإبراهيم رأى ضوء الشمس ولم ير عينها فرد التذكير إلى الشعاع، وهذا تأويل موفق جدا، ويتناسب مع قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ والبزوغ هو ابتداء طلوع الشمس، ومع ابتداء طلوع الشمس لايرى منها إلا شعاع ظنه إبراهيم -عليه السلام- نور الله. وأرى أيضا سببا أخر وهو أن إبراهيم لما أظهر لقومه أنه يعتقد أن المشار إليه ربا ذكّره؛ ليناسب ذلك ما ادّعاه، فالتذكير باعتبار أن الرب مذكر، وليس لحقيقة المشار إليه.

ومن كلام العرب الذي عاد فيه ضمير المذكر على مؤنث قول الحطيئة[٤]:

فَإِيّاكُم وَحَيَّةَ بَطنِ وادٍ ... حديدَ النابِ لَيسَ لَكُم بِسِيِّ

فَحُلّوا بَطنَ عُقمَةَ وَاتَّقونا ... إِلى نَجرانَ في بَلَدٍ رَخِيِّ

(١) محمد بن مقاتل الرازي لا المروزي، حدث عن وكيع وطبقته، تكلم فيه ولم يترك، روى عنه محمد بن جرير الطبري، وغيره، وسمع منه البخاري ولم يحدث عنه، بل رفض حديثه، توفي سنة ٢٤٨هـ. ينظر: لسان الميزان لابن حجر (٥/٣٨٨).

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٤/١٦٥).

(٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/٥٦٦).

(٤) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت (ص :١٩٠).

ويشرح البغدادي ذلك فيقول: "وأراد الحطيئة بالحية نفسه، يعني أنه يحمي ناحيته ويتقى منه، كما يتقى من الحية الحامية لبطن واديها، المانعة منه...وقوله: ليس لكم بسي؛ هذا يدل على تذكير الحية فإن ضمير (ليس) عائد إلى الحية، ولو أراد المؤنث لقال ليست. والسِي بكسر السين المهملة: المِثْل، أي: لا تستوون معه بل هو أشرف منكم"(١).

ولذلك فإن العدول عن الضمير الأنسب في الظاهر وهو ضمير التأنيث كان لغرض أراده المتحدث، فهو لا يصف الحية بذاتها فهي معروفة، لكنه أراد أن يجعلها مثالا لنفسه، فأعاد الضمير على نفسه المتوارية وراء المعنى، لكن العدول عن ضمير التأنيث إلى ضمير التذكير كشف الستار، ففسر الضمير المذكر مراد الشاعر، وتحقق الغرض بتعظيم المتكلم نفسه.

وقد يعود الضمير غير مطابق لمرجعه إذا كان من المتعاطفات، وقد ورد أن رؤبة بن العجَاج أنشد بيتا قال فيه(٢):

فِيها خُطُوطٌ مِنْ سَوادٍ وَبَلَقْ　　　كَأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

"فالخطوط مؤنثة، والسواد والبلق اثنان، ثم قال:كأنه فى الجلد توليع البهق، قال أبو عبيدة: فقلت لرؤبة: إن كانت خطوط فقل كأنها، وإن كان سواد وبلق فقل: كأنهما، فقال: كأنّ ذاك، ويلك توليع البهق، ثم رجع إلى السواد والبلق والخطوط فقال:يحسبن شاما أو رقاعا من بنق"(٣).

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي (٥/٩٦-٩٧).

(٢) وهو مروي بالديوان "كأنها" ينظر" مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجَاج (ص: ١٠٤).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/٤٣-٤٤)، ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني(٢/١٥٣)، والكشاف للزمخشري (١/١٤٩)، خزانة الأدب للبغدادي(١/٨٩)، ومجالس العلماء لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي (ص:٢١١-٢١٢)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٨٨٨).

وروى هذا الخبر أيضا ابن جني عن شيخه أبي علي: ثم أردف: ولو قال قائل : إن الهاء في (كأنه) عائدة على (البَلَق) وحده لكان مصيبا؛ لأن في البلق ما يُحتاج إليه من تشبيهه بالبَهَق، فلا ضرورة هناك إلى إدخال السواد معه(١).

ويظهر من تعليل رؤبة لسؤال أبي عبيدة أن سبب تذكير الضمير هو الإيجاز، وذكر المتكلم ما حقه التأنيث ليدل المتلقي على المعنى، أي كأن ذاك، أو كأن ما ذكر، فلذلك قال: كأنه.

وهذا دال على أن الضمير كسائر الألفاظ التي توثق علاقة كلمات الجملة فيما بين الكلمة والأخرى، وأن هذا الترتيب والتلوين جاء لغرض في نفس المتكلم.

وهذا الاختيار يندرج تحت ما ذكره الجرجاني عند حديثه عن اللفظ والمعنى في قوله:"والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"(٢).

وفي القرآن الكريم يعود ضمير المذكر إلى المؤنث لأغراض بلاغية استدعت العدول عن المطابقة بين الضمير ومرجعه من حيث التأنيث والتذكير، ولبيان البلاغة من مخالفة الظاهر يقف الباحث على الشواهد القرآنية التي تجلي تلك الأغراض.

وقد يكون مما سبق موطن وافق الضمير غير الأقرب وهو أحد المتعاطفات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر:٢٨]، يبرز ضمير الغائب المذكر في قوله: ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ وقد سبق بثلاثة مراجع ﴿ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وأقرب المراجع مؤنث، وكذلك الأكثر، فالدواب والأنعام لها حكم المؤنث، أما الناس فقد ورد تذكير الفعل بعدها في جميع مواطن ذكرها في القرآن الكريم، واللافت الذهن مجيء ضمير المذكر مخالفا لمقتضى الظاهر، فلم يأت على التأنيث مراعاة للأقرب أو الأكثر،

(١) ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني(١٥٣/٢)

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر للجرجاني (ص:٤).

بل جاء مذكرا مفردا، ولم يأت جمعا، وهذا يستدعي البحث حول البلاغة الكامنة وراء هذا الاستعمال، وقد يوحي ذلك بأغراض منها، تشريف الناس وتكريمهم، أو لغرض الاكتفاء، حيث دل الضمير المذكر على بقية المتعاطفات، أو أن الضمير عائد إلى مقدّر، أي مختلف ألوان ماسبق، أو مختلف ألوان ذالك، فتحققت بذلك بلاغة الإيجاز.

ولم أجد من العلماء من أشار إلى الاكتفاء أو التقدير، وقد روى النحاس عن الضحاك ما يشير إلى أن الضمير عائد إلى الناس أي: من الناس الأبيض والأحمر والأسود(١)، وإلى هذا القول يميل الزمخشري(٢)، وقياسا على ماسبق من أقوال العلماء فإن الضمير وإن كان مطابقا للناس لكونه مذكرا؛ إلا أن جميع المتعاطفات الثلاثة مرادة بذلك، كما رمى إلى هذا المعنى ابن عاشور حيث قال:" ومجموع المختلفات كله هو الناس كلهم وكذلك الدواب والأنعام"(٣)، ولكن ذكّر الضمير تشريفا للإنسان.

وبهذا الغرض صرّح الرازي فذكر أن تذكير الضمير جاء لكون الإنسان من جملة المذكورين، وكون التذكير أعلى وأولى(٤).

ويؤيد ما ذهب إليه الرازي أن الآية ذيلت بوصف خاص للعلماء، وجاءت الآية التالية تصف عامة الناس، فالناس وأوصافهم أكثر حضورا في هذه الآيات، فلذلك عاد الضمير مطابقا لهم في التذكير، فاجتمع للناس فضل تذكير الضمير وقصر الخشية على العلماء منهم، ثم ذكرت طاعاتهم وجزاءهم.

وقال ابن عطية:" وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ قبله محذوف، إليه يعود الضمير، تقديره والأنعام خلقٌ مختلف ألوانه. والدواب يعم الناس والأنعام لكن ذكرا تنبيها منهما"(٥).

---

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس(٥/٤٥٣).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/٦١٠).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢/١٥٧).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٦/٢٦٣) .

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٤٣٧)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/٣٠).

ولا يرى الباحث مثل هذا التقدير -الذي قدره ابن عطية آنفا، ورآه أبو حيان[1]- لما يظهر فيه من مخالفة لأسلوب الآية التي قبل هذه، فلو سلّم الباحث لهذا التقدير، فهل سيقدر (خلقٌ) مع قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر:٢٧]؟ فلو قدر (خلقٌ) في هذه الآية في الموضعين لحدث التنافر بين المذكر المقدّر والضمير المؤنث في ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾، فدلّ ذلك على عدم صحة المقدر في الآية الثانية.

ولعل من باب ماسبق رجوع الضمير المذكر المفرد إلى أشياء متعاطفة كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام:٤٦]، فلم يعد الضمير على الأقرب فيكون مؤنثا، ولم يعد على الجميع فيكون مؤنثا كذلك، لكنه جاء مذكرا ولم يسبق بمذكر، ولعل الضمير عاد إلى ما ذكر، أو على تقدير فمن يأتيكم بذلك، والغرض منه الإيجاز.

وهذا رأي الزمخشري حيث جعل الضمير المفرد بمعنى: يأتيكم بذاك، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه[2]، وبالأخير قال الرازي فعنده هذه الهاء تعود على معنى الفعل. والتقدير: من إله غير الله يأتيكم بما أخذ منكم[3].

وذكر ابن عاشور بلاغة تذكير الضمير والعلة من عدم التأنيث، فقال:" والضمير المجرور بالباء عائد إلى السمع والأبصار والقلوب، على تأويلها بالمذكور فلذلك لم يقل:

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/٣٠).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (١٢/٥٣٦).

بها. وهذا استعمال قليل في الضمير، ولكنه فصيح... وإيثاره هنا على أن يقال: يأتيكم بها، لدفع توهم عود الضمير إلى خصوص القلوب"(١).

وقال الشنقيطي:" يجاب عنه بجوابين أحدهما: أن قوله: ﴿بِهِ﴾ أي: بما ذكر، أي: بذلك الشيء المأخوذ، وهذا معروف في كلام العرب... الوجه الثاني: هو ما عرف في القرآن وفي لغة العرب أنه قد تأتي المتعاطفات سواء كانت متعاطفات بـ (واو)، أو متعاطفات بـ (أو)، أو متعاطفات بـ (فاء)، ويرجع الضمير على واحد منها، وتكون الأخر مفهومة من ذلك ؛ لأنه لما رجع على واحد فهم أن الباقي مثله، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب(٢).

وقد يكون المرجعان المتعاطفان بأو أحدهما مذكر والآخر مؤنث، ففي هذا الصورة "قال النحاة: إذا تقدم متعاطفان ب (أو) مذكر ومؤنث كنت بالخيار، بين أن تراعي المتقدم أو المتأخر، فتقول: (زيد أو هند قام) وإن شئت: (قامت)"(٣).

قال الطبري مجيبا على مطابقة الضمير أحد المذكورين:" إن من شأن العرب إذا قدمت ذكر اسمين قبل الخبر؛ فعطفت أحدهما على الآخر بأو ثم أتت بالخبر أضافت الخبر إليهما أحيانا، وأحيانا إلى أحدهما، وإذا أضافت إلى أحدهما، كان سواء عندها إضافة ذلك إلى أي الاسمين اللذين ذكرتهما إضافته، فتقول: من كان عنده غلام أو جارية فليحسن إليه، يعني: فليحسن إلى الغلام، وفليحسن إليها، يعني: فليحسن إلى الجارية، وفليحسن إليهما "(٤).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٥/٦).

(٢) ينظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير(٢٧١/١-٢٧٢).

(٣) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٢٧/٦)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥٤٧/٣).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٤٨٤/٦-٤٨٥)، وينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٧٠/٣).

ومما عدل فيه عن المطابقة في الظاهر ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر:٥٦]، ثم بعد ذلك قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٩].

ففي آية الزمر السالفة عاد الضمير مذكرا إلى النفس، حيث تتحسر النفس على تفريطها فيأتيها الجواب المخزي، فالملاحظ أن الله سبحانه قال: ﴿نَفْسٌ﴾والرد جاء بمخاطبة هذه النفس بضمير المذكر فقال: ﴿جَآءَتْكَ﴾لكن هناك قرائن جاءت فاصلة في الآيات التي بين هاتين الآيتين[1]، مهدت لمخاطبة النفس بالتذكير وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلم تأت فواصل الآيات على هيأة جمع المؤنث كما تقتضيه كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ في الظاهر، وهذه الفواصل مهدت للتذكير فجاء ضمير المخاطب المذكر في قوله: ﴿جَآءَتْكَ﴾ فدل هذا الضمير على أنه راعى المعنى الذي هو أبلغ من التأنيث؛ لإفادة العموم للجنسين، سواء أكان مذكرا أم مؤنثا، فتبين أن تذكير الضمير جاء عائدا إلى الإنسان المفهوم من كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ فأسهم الضمير بالتفسير والإيضاح بأسلوب موجز.

وقد تنبه العلماء لذلك فذكر الفراء أن الكاف خفضت على التأنيث وحسّن هذا الوجه لأنه يخاطب النفس، لكنه ذكر أن القراء مجمعون على نصب الكاف والمخاطب

---

(١) الآيات قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

ذكرٌ، ولم يعلل[1]، وقال بذلك الطبري[2]، وقال نحوا من ذلك النحاس[3]، أما الزمخشري فاختار أن تكون هذه النفس النكرة مرادا بها بعض الأنفس؛ وهي نفس الكافر، وجوّز أن يقصد بها نفس معينة، ومميزة بلجاج في الكفر، أو بعذاب عظيم، وكأن الزمخشري يلمح بذلك إلى سبب التذكير[4]، وذكر الأنباري أن التذكير للحمل على المعنى؛ لأن النفس في المعنى إنسان[5] وقال بمثل ذلك العكبري[6]. وعلل الرازي ذلك بقوله: "لأن النفس تقع على الذكر والأنثى، فخوطب المذكر"[7].

وقال المبرد:" وتقول عندي ثلاثة أنفس، وإن شئت قلت ثلاث أنفس، أما التذكير فإذا عنيت بالنفس المذكر، وعلى هذا تقول عندي نفس واحد، وإن أردت لفظها قلت عندي ثلاث أنفس؛ لأنها على اللفظ تصغر نفيسة"[8].

وللشيخ محمد محمد أبي موسى كلام في إسناد الفعل إلى المفرد في قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ ويعتقد الباحث أن الشيخ في كلامه كان يستحضر قوله: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ ﴾[9]، حيث الانتقال من خطاب الجماعة إلى المفرد، فيعلل عدم قوله: أن تقولوا يا حسرتنا؛ ليكون الحديث عن الجماعة الذين هم عباده المسرفون على أنفسهم؛ ليخلص بفائدة من هذا الإسناد؛ فيجد أن الإسناد إلى المفرد فيه إشارة إلى أن هذا الفيض من سعة العطاء والرحمة من شأنه أن يستجيب له عباده الذين أسرفوا على أنفسهم، فتستجيب الأنفس، ولا يتخلف إلا القليل المعبر عنهم ب(نفس) على الإفراد،

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٤٢٣/٢).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن(٢٣٨/٢٠).

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(١٥/٤).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٣٦/٤).

(٥) ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث لأبي البركات الأنباري (ص: ٦٧).

(٦) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١١١٢/٢).

(٧) مفاتيح الغيب للرازي (٤٦٧/٢٧).

(٨) المقتضب للمبرد (١٨٦/٢).

(٩)[الزمر:٥٣].

بناء على أن التنكير للتبعيض كما فسره المفسرون، ثم يذكر الشيخ رأيا آخر للمفسرين الذين قالوا: بأن التنكير للتكثير(١).

أما الحديث عما يخص المبحث حيث الانتقال من التأنيث إلى التذكير، فالتأنيث في قوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ انتقل منه إلى التذكير في قوله: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ﴾ فالشيخ -أطال الله عمره على الخير- ذكر أن كاف الخطاب قرئت بالكسر للتأنيث، وبالفتح للتذكير، ولم يتحدث عن التلوين من التأنيث إلى التذكير، لكنه عقد مقارنة بين الآيات التي تسبق هذه الآية؛ ليخلص إلى أن المسألة ليست في علاقة المعنى بالذي قبله، وإنما علاقة المعنى بمكونات السورة(٢)، فيقول في المقارنة: "راجع هذه الآية(٣)، تجد أن لبناتها مستخرجه من الآية قبلها(٤)، وأول ذلك ﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وهذا مستخرج من ﴿ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ ﴾ ؛ لأن من كذب على الله، وكذّب بالصدق صنوان كما جاء في الآية الأسبق ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر:٣٢]، ومن أجل أن تتأكد لنا العروة الممسكة بالآيات جاء هناك ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ وجاء هنا ﴿ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي ﴾ ثم إن كلمة ﴿ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٥) مستخرجة

(١) ينظر: الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى (ص:٣٦٠).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(ص:٣٧٦) .

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر:٦٠] .

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر:٥٩] .

(٥) الآية: [الزمر:٣٢].

من كلمة ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾... وهي بمثابة الخيوط التي تشد المعاني وتمسكها في نسيج بناء السورة"(١).

وجاءت صفة نفس على التذكير؛ لأنها حملت على معنى الإنسان، وذلك كما في حديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ- ﷺ- قَالَ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"(٢).

فلم تؤنث الصفة؛ لأنه – والله أعلم- ذهب بالموصوف إلى إرادة الإنسان، فجاءت الصفة مذكرة لتذكير المراد.

وهو المعنى الذي قال الله فيه: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة:٣٢] فلم يقل كمن قتل الأنفس جميعا تبعا لما بدأ اللفظ به؛ لأنه محمول على المعنى أي من قتل إنسانا واحدا، فجاء التعبير مناسبا للمعنى فقال: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾.

ومن مواضع عود ضمير المذكر على المؤنث ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة:٢٧١].

فالضميران ﴿هِيَ﴾ و﴿هُوَ﴾ مختلفان في التذكير والتأنيث، والظاهر أن يكون مرجعهما واحدا، فإذا قيل: إن الضمير ﴿هِيَ﴾ عائد إلى الصدقات؛ لكونه مؤنثا وهي

(١) الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى (ص:٣٧٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميا من غير جرم (ص:١٧١٠) رقم الحديث: ٦٩١٤.

الأقرب، فسيتبادر إلى الذهن سؤال حول مرجع الضمير ﴿ هُوَ﴾ والبلاغة وراء تذكيره. لاسيما أن مقتضى الظاهر أن يأتي مؤنثا كسابقه؛ ليعود إلى ما عاد إليه الأول، لكن تتجلى بلاغة للباحث في هذه المخالفة، فإذا كان الضمير ﴿هِيَ﴾ عائدا إلى الصدقات، فإن الضمير المذكر ﴿ هُوَ﴾ عاد إلى الإخفاء؛ امتداحا لكيفية هذا الإيتاء؛ ليكون الضمير الأول فيه اهتمام بالمفعول لا الفعل، أما الضمير الثاني فاهتمام بكيفية الفعل حيث جمع بين الإخفاء والإيتاء، فجاء العدول للفت الانتباه للأفضل، وصرح بذكر الفقراء لحاجتهم والإخفاء في حقهم أولى، فظهر من ذلك أن الضمير ﴿هِيَ﴾ فيه مدح للصدقات، ولم ينساق المدح إلى الإبداء؛ لذلك لم يذكّر الضمير؛ ثم ذكّر الضمير الثاني ترغيبا في الإخفاء؛ وإظهارا لكونه خيرا من الإبداء، لأنه لا يسبب حرجا للمعطَى، وهو أقرب إلى الإخلاص، ويندرج المدح على الصدقات؛ لأن ذلك مفهوما من عود الضمير إليها في صدر الآية وعدم عوده إلى الإبداء، والله أعلم.

ويرى السيوطي -رحمه الله- أن الظاهر عود الضمير ﴿هِيَ﴾ إلى الإبداء؛ مسترشدا بعود الضمير ﴿ هُوَ﴾ إلى الإخفاء[1]، وهو قول لابن هشام - من قبل- علله بكون الحديث عن الإبداء لا عن الصدقات، وقدّر حذف مضاف[2]، ولكن الباحث يرى خلاف هذا وقد بين وجه رأيه آنفا، وهو رأي يوافق قول ابن عادل الذي أجاز عدم تقدير المضاف، أي: إبداؤها، وجعل الضمير عائدا إلى الصدقات[3]، وتبعه السمين الحلبي[4]، وكذلك الألوسي الذي أعاده إلى الصدقات أيضا[5].

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/٣٦٧٩).

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٣٩٠)، وينظر: حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك(١/ ٢٢٦).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤/ ٤٢٤).

(٤) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٢/ ٦٠٩).

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢/ ٤٣).

ومثل ذلك يجري على قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١٢]، فيجد الباحث أن ضمير الغائب في قوله ﴿وَلَهُۥٓ﴾ قد سبقه مرجعان الأول: رجل وهو مذكر، والثاني: امرأة، وهي مؤنثة، لكن الضمير راعى المتقدم فجاء مذكرا مع كون الضمير شاملا للاثنين، لكن عوده إلى المذكر جاء من باب التغليب، ولأن المال في الأغلب يكون للرجال؛ لأنهم هم القادرون على الكسب ومشاق جلبه، وقد يكون من النساء من تملك مالا، ولكن الكثير منهن لا يملكن ما يذكر، إضافة إلى أن نصيبهما متساو فوحد ضميرهما، وهذا الضمير يذكّر الباحث في مجيء قوله تعالى:﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بعد نصيب النساء، ولم يذكر بعد نصيب الرجال، مع أن الحكم شامل للفريقين، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء:٧]، ولعل مجيء ذلك بعد نصيب النساء فيه إشارة إلى ضعفهن في الأغلب، واستسلامهن للجَور، والخجل من الترافع لدى من يأخذ لهن حقهن، فيكون حينئذ ضياعه ظلما، وهذه الصورة قد تكون لدى بعض الرجال، ولكن ليست هي الأغلب، فجاء الحكم للأغلب مع دخول غيره فيه.

وللعلماء في ذلك توجيهات منيرة، فيقول الفراء: "وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ ولم يقل: ولهما؛ وهذا جائز إذا جاء حرفان في معنى واحد (بأو) أسندتَ التفسير إلى أيهما شئتَ. وإن شئت ذكرتهما فيه جميعا، تقول في الكلام: من كان له أخ أو أخت فليصله، تذهب إلى الأخ، وفليصلها تذهب إلى الأخت، وإن قلت: (فليصلهما) فذلك جائز"(١).

وإذا كان اللغويون والمفسرون يرون أن الإتيان بالضمير يكون تخييرا بين ثلاث حالات إما عوده مذكرا، أو عوده مؤنثا، أو عوده مثنى، إلا أن البلاغة تطلب في بعض

---

(١) معاني القرآن للفراء(١/٢٥٧-٢٥٨).

السياقات صورة دون أخرى، فما يصلح لسياق قد لا يصلح لأي سياق، ولا شك أن المختار في القرآن الكريم هو الأبلغ، وعلى الباحث أن يغوص ليستنبط من وجوهه البلاغية ما أمكن.

ويرى ابن عطية أن الضمير في ﴿وَلَهُۥ﴾ عائد على الرجل، واكتفى بإعادته عليه دون المرأة، إذ المعنى فيهما واحد، وحكى الإجماع على أن نصيب الأنثى والذكر في هذه النازلة سواء، وشركتهم في الثلث متساوية وإن كثروا (١).

وجمع الألوسي في ذلك أقوالا فقال:" ﴿وَلَهُۥ﴾ أي الرجل، وتوحيد الضمير لوجوبه فيما وقع بعد، ... وأتى به مذكرا للخيار بين أن يراعي المعطوف أو المعطوف عليه في مثل ذلك، وقد روعي هنا المذكر لتقدمه ذكرا وشرافة، ويجوز أن يكون الضمير لواحد منهما، والتذكير للتغليب، وجوز أن يكون راجعا للميت، أو الموروث ولتقدم ما يدل عليه، وأبعد من جوز أن يكون عائدا للرجل، وضمير المرأة محذوف. والمراد وله أو لها أخ أو أخت، أي: من الأم فقط- وعلى ذلك عامة المفسرين- حتى إن بعضهم حكى الإجماع عليه"(٢).

ومن باب التغليب أيضا عود ضمير جماعة الذكور على الأخوة لأم في قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ [النساء:١٢]، والمقصود بهم "الإخوة والأخوات أكثر من ذلك"(٣) والإخوة والأخوات من الأم المدلول عليهم بما تقدم، والتذكير لتغليب المذكر على المؤنث(٤).

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١٩/٢).

(٢) روح المعاني للألوسي (٤٤٠/٢).

(٣) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني(٥٧٧/٢).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥٤٨/٣)، اللباب في علام الكتاب(٢٢٨/٦)، روح المعاني للألوسي (٤٤٠/٢).

وقد يكون في الكلام عدة متعاطفات فيعود الضمير إلى أحدها وإن اختلفت الأجناس ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة:٥٧]، ففي الآية مذكران توسطهما مؤنث وهي: ﴿مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ والملجأ قيل: إنه الحرز أو الحصن أو المهرب، والمغارات جمع مغارة وهي الغار ويجمع على غيران، والمدَّخل قيل: السرب تحت الأرض، وقيل: كنفق اليربوع، وللألفاظ تأويلات أخر[1]، فعاد الضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ مذكرا، ولم يقل: إليها من باب جمع المذكورات، أو مراعاة جمع المؤنث، وقد يكون السبب هو التغليب ومراعاة الأكثر، أو أن تذكير الضمير جاء ليتناسب مع ﴿ مُدَّخَلًا ﴾؛ ليدل على هروبهم ولو إلى أضعف الأماكن وأخسها، فبدأ القرآن بأشدها حصانة وهي الملاجيء ثم مادونها وهي المغارات ثم أضعفها وأحقرها، والمحلّ الحقير دال على حقارة الحالّ به، فجمعوا بذلك الجبن ودناءة المفرّ، وقد تندرج هذه الحالة تحت قاعدة عود الضمير على المتعاطفين بأو والمختلفين بالجنس الآنفة.

وتترادف الألفاظ المبينةُ ذلتَهم في كلمة: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ ﴾ ثم ترتيب المتعاطفات وختمها بأخس المواقع: ﴿مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ ثم الضمير العائد على الأخس مع شموله لما قبله، ثم كلمة: ﴿لَّوَلَّوْا﴾ و﴿يَجْمَحُونَ﴾ فقد فقدوا عقولهم وتركيزهم، فحقروا أنفسهم، ولم يجدوا إلا أردى الخيارات، فرسمت هذه الألفاظ ذلهم وهوانهم.

ولقد أعجب الباحث ما سطره البوطي واصفا حالهم إذ يقول: "فتأمل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة، وأخرج هذا المعنى الفكري في صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما سيطر عليها من الرعب، فهي تتقذف هنا وهناك بحثا عن المأمن والمهرب في حركات عجيبة غريبة. وقد يحسب صاحب النظرة

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٤٣٧/٥).

العجلى أن هذه الكلمات الثلاث: ﴿ مَلْجَـًٔا ﴾، ﴿ مَغَـٰرَٰتٍ ﴾، ﴿ مُدَّخَلًا ﴾ مترادفة المعنى. ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، بل كلّ منها تصوّر في الذهن شكلا معينا للملاذ الذي يبحث عنه المنهزم والخائف، بدءا من الشكل الطبيعي المألوف، وهو الملجأ العادي من دار أو غرفة أو جماعة من الناس، إلى الشكل الذي لا يألفه ويرضيه إلا من اشتد خوفه، وهو المغارة في باطن الأرض أو بطن الجبل، إلى الشكل الذي هو أبعد في القبول والإلف من كليهما وهو: المدّخل، أي المكان الضيق الذي لا يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد، ولا يكاد أن يستقر فيه إلا تضاؤلا والتصاقا. وانظر كيف تؤدي كلمة ﴿ مُدَّخَلًا ﴾ هذه الصورة وتجسمها في الحسّ بوزنها وجرسها وشدة الدال فيها، ثم تأمل فيما تصوره في خيالك كلمة: ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ ﴾. ثم فيما تتركه كلمة: ﴿ يَجْمَحُونَ ﴾ من الصورة الضاحكة الساخرة"(١).

وعاد ضمير المذكر على المؤنث في القرآن على غير ما سبق، ففي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزمر:٤٩-٥٠]، ففي هذه الآية يظهر عود ضمير المذكر الواقع مفعولا في قوله: ﴿ أُوتِيتُهُۥ ﴾ إلى ﴿ نِعْمَةً ﴾ وهي مؤنثة؛ ولا شك أن وراء هذا الانزياح أو التلوين بلاغة لا يبرزها مطابقة مقتضى الحال، يتبين ذلك إذا عُلم أن تذكير الضمير العائد إلى المؤنث جاء على لسان الإنسان الجاحد نعمة ربه، ولتصوير مدى ما وصل به الجحود فقد ذكر ما حقه التأنيث، فأسهمت هذه المخالفة اللفظية، بما اقترفه هذا الجاحد من مخالفة شرعية، حيث خالف أمر الله، الذي رزق ليُشكر، فتبين بعد ذلك أن ضمير التذكير كشف عن حقيقة هذا الجاحد، وتذكير الضمير هنا، كتذكير اسم الإشارة في قوله:

---

(١) من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، محمّد سَعيد رَمضان البوطي (ص: ١٧٣-١٧٤).

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ ﴾ [فصلت:٥٠]، فأوحى اسم الإشارة بمجاوزة الحدّ لافتقاده تعيين المشار إليه، فذكّر المشار إليه وهو الرحمة، فبيّن الاختلاف بين المشار إليه واسم الإشارة بطلان قول القائل بتكبره من غير بيّنه، وهذا ظاهر بمخالفة الضمير لمرجعه، واسم الإشارة للمشار إليه.

ولما جاء رد الله عليه قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ فجاء الضمير العائد إلى النعمة مؤنثا، مطابقا لمقتضى الحال، فأعاد الله الضمير مناسبا لمرجعه، لأنه سبحانه هو مسدي هذه النعمة، وفي مجيء الضمير موافقا لمرجعة تعريض بهذا الجاحد الذي خالف اللفظ والشرع، والله أعلم.

ومن جميل القول في ذلك ما ذكره الشيخ محمد محمد أبو موسى بعد استعراضه لقول الزمخشري، حيث ذكر أن قول الزمخشري جاء ليبين صحة الضمير وليس بيانا لسرّه، ثم يردف الشيخ سرا بلاغيا في مخالفة الضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ فيقول: "وربما أراد المبْطل بالتذكير صرف الضمير عن كلمة النعمة؛ لأن النعمة تشير إلى المنعِم جلّ وتقدّس، والمبطل يصرف هذا ويقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، ويبالغ في ذلك الصرف باستعمال كلمة إنما، التي تفيد أنّ ما أفادته من القصر معلوم، لايجهله أحد ولا ينكره"[(١)].

وللعلماء فيما سبق توجيهات فالطبري قدر المعنى بقوله: "إنما أعطيت الذي أعطيت من الرخاء والسعة"[(٢)]، فكأنه يلمح إلى تذكير الضمير للاسم الموصول، أما

(١) الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى (ص:٣٢١).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري (٢٠/٢٢٠).

الزمخشري فيرى أن الضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ ذهب به إلى المعنى، على تقدير شيئا من النعم وقسما منها، واحتمل عوده على ما إذا كانت موصولة لا كافة[1]، والرازي أتى للنعمة بعدة معاني مذكرة كالمال والرخاء والكسب والسعة والصحة، ولذلك علل تأنيث ضمير النعمة بقوله: "فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر، فلا جرم جاز الأمران"[2]. فيفهم الباحث من تعداد معاني النعمة أن التذكير جاء لما تحمله النعمة من معاني مذكرة وغير مذكرة والتذكير للتغليب، وذكر ابن عاشور أن تذكير الضمير على تأويل حكاية مقالتهم بأنها صادرة منهم في حال حضور ما بين أيديهم من أنواع النعم، فهو من عود الضمير إلى ذات مشاهدة، فالضمير بمنزلة اسم الإشارة[3]، لكن الذي يميل إليه الباحث ما صدّر تحليله به في أول كلامه على الآية. أما تأنيث الضمير﴿هِىَ﴾ فيرى الفراء أنه لتأنيث فتنة، ولو ذكّر الضمير كان صوابا[4]، واستفهم الزمخشري ثم أجاب قائلا: " فإن قلت: كيف ذكّر الضمير ثم أنثه؟ قلت: حملا على المعنى أولا، وعلى اللفظ آخرا، ولأن الخبر لما كان مؤنثا -أعني فتنة- ساغ تأنيث المبتدأ لأجله؛ لأنه في معناه"[5]. وقال الرازي عندما فسر الضمير في قوله: ﴿هِىَ﴾ أي: النعمة فتنة وابتلاء[6].

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٣٣/٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٥٩/٢٦).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٨/٢٤).

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء(٤٢١/٢).

(٥) الكشاف للزمخشري (١٣٤/٤).

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٥٨/٢٦).

ويذكر الشيخ محمد محمد أبو موسى أن الضمير ﴿هِيَ﴾ عائد إلى النعمة، وجملتها موجزة، و﴿بَلْ﴾ تفيد الإضراب الإبطالي الذي يبطل ما مضى؛ لتأتي بالحقيقة الناصعة التي تدحض الباطل قبلها(١).

وفي الآية السابقة عود الضمير في قوله: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ إلى غير مذكور، وتقدير ذلك: قد قال هذه الكلمة، وحذف المرجع للإيجاز؛ ولأنه لا يضيف ذكرها معنى، وليس في حذفه تعمية على المتلقي، بل المتكلم على علم بأن المتلقي لن يجهل المعنى، ولا يجرؤ على حذف إلا بليغ، كما أن القرآن قد صرح بالمحذوف في بعض مواطن ذكره في القرآن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٧٤]، وقوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:١٠٠]، والقرآن يفسر بعضه بعضا.

وقال الفراء في ذلك:" أنثت إرادة الكلمة ولو قيل: قد قاله الذين من قبلهم كان صوابا"(٢). ويظهر من تصويب الفراء لضمير التذكير أن ذلك على تقدير القول بدلا من تقدير الكلمة.

ومن المعلوم أنه يجب تأنيث فعل المؤنث المجازي إذا أسند إلى ضمير يعود إلى المؤنث المجازي، "وإنما وجب تأنيث الفعل في ذلك لئلا يتوهم أن ثم فاعلا مذكرا منتظرا"(٣). وعند الوقوف على قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل:١٨]، يجد الباحث أن اسم الفاعل من الفعل غير الثلاثي لم يؤنث، ومن

(١) ينظر: الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى (ص: ٣٢١).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(٤٢٢/٢)، والكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٤٠/٨)، وإعراب القرآن للنحاس(١٣/٤).

(٣) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الجرجاويّ الأزهري (٤٠٧/١).

المعلوم أن اسم الفاعل ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ يعمل عمل فعله لتحقق الشروط؛ ولأنه مذكر فإن فاعله سيكون ضميرا مستترا تقديره (هو) يعود إلى السماء، والسماء مؤنثة ولم تذكر في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع، وذكر الفراهيدي أن السماء سقف فوق الأرض واستدل بالآية(١)، وعند الفراء أن من دلالة تذكيرها هنا حذف تائها وتذكير فعلها، وأن من العرب من يذكرها(٢). قال ابن سيده: والتذكير قليل(٣).

ويروي أبو عبيدة أن أبا عمرو(٤) علل إلقاء الهاء بأن مجازها السقف، تقول: هذا سماء البيت، وقد تلقى العرب من المؤنث الهاءات استغناء، يقال: مهرة ضامر، وأدرج أبو عبيدة هذه الآية شاهدا على مجاز ما أظهر من لفظ المؤنث، ثم جعل بدلا من المذكر فوصف بصفة المذكر بغير الهاء؛ لأن السماء هنا جعلت بدلا من السقف، بمنزلة تذكير سماء البيت(٥).

---

(١) ينظر: كتاب العين، باب: باب القاف والسين والفاء معهما س ق ف، ف س ق، س ف ق، ف ق س، ق ف س مستعملات، مادة: سقف (٨١/٥).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (١٢٧/١-١٢٨) وينظر: نفسه(١٩٩/٣).

(٣) ينظر: المخصص لابن سيده، السفر السابع عشر، باب ما يذكر ويؤنث (١٤٦/٥).

(٤) أبو عمرو بن العلاء ، أحد القراء السبعة، ولد بالحجاز، وسكن البصرة، وهو إمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة، أخذ عن جماعة من التابعين وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد، وروى عن أنس بن مالك وأبي صالح السمان وعطاء وطائفة مات بالكوفة سنة ١٥٤هـ وقيل: ١٥٩، وعمره ٨٦ سنة . ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢٣١/٢-٢٣٢)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لابن يعقوب الفيروزآبادي (١٣٩/١).

(٥) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٥/١) و(٢٧٤/٢)، وينظر: فقه اللغة وأسرار العربية (ص: ٢٣١)، ومفاتيح الغيب للرازي (٦٩٢/٣٠).

ورأى الرازي أن التذكير على النسب: أي ذات انفطار، وروى أقولا منها أنه على معنى السقف، أو أن معناه؛ السماء شيء منفطر به، وقيل: السماء تذكر وتؤنث(١).

وقد جمع الزركشي في تذكير منفطر خمسة أقوال: منها أن السماء تذكر وتؤنث، ومنها أنه اسم جنس واسم الجنس يذكر ويؤنث، أو حملا على معنى السقف، أو على معنى النسب، أو أنه صفة لخبر محذوف تقديره شيء، ثم عزى كل قول إلى أصحابه(٢).

واستنبط الألوسي من التذكير بلاغة فقال:" وكان الظاهر السماء منفطرة بتأنيث الخبر؛ لأن المشهور أن السماء مؤنثة لكن اعتبر إجراء ذلك على موصوف مذكر فذكّر، أي: شيء منفطر به، والنكتة فيه التنبيه على أنه تبدلت حقيقتها، وزال عنها اسمها ورسمها، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء"(٣).

ولعل البلاغة بعد هذه التأويلات من أولئك الأفذاذ تدل على أن الضمير أيضا يحمل سعة دلالية، ولما عاد مذكرا فسر المرجع بتفسيرين؛ الأول: السماء الحقيقة، وهذا دلّ عليه اللفظ، والآخر السقف دل عليه التذكير، فكان في دلالة اللفظ وتذكير الضمير إيجاز عجيب؛ ليشمل الانفطار كل سماء وكل سقف، "وكل ما علاك وأظلك فهو سماء"(٤)، وهذا المعنى لم يكن لو عاد الضمير موافقا لظاهر المرجع، فظهر وراء الألفاظ المختارة، أو العدول إلى أسلوب معنى مقصود، وغرض منشود، والله أعلم.

ويظهر أيضا للباحث أن تذكير الخبر في قوله: منفطر، فيه موافقة المبنى للمعنى، فالأحوال في ذلك اليوم متغيرة، فالشيء قد تغير عن أصله وما عهد عنه في العادة، وهذا يشاكل الآية التي سبقت هذه الآية، حيث قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ

---

(١) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٥٤٣)، والتعليقة على كتاب سيبوية للفارسيّ (١/٢٤٧).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/٣٦٢).

(٣) روح المعاني للألوسي (١٥/١٢١-١٢٢).

(٤) ينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٣١).

يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل:١٧]، فهذا اليوم جعل الولدان شيبا، وجعل خبر السماء مذكرا، فوافق المبنى المعنى.

فعندما يخالف اللفظ سواء أكان وصفا أم ضميرا مرجعه من حيث التذكير أو التأنيث؛ فإن هذه المخالفة تستدعي حضور الذهن؛ كيلا يمر اللفظ عابرا، لكنه يستوقف ذهن السامع فيعيه، فتذكير خبر السماء ﴿مُنفَطِرٌ﴾ يجعل المستمع يتنبه أن مخالفة مقتضى الظاهر جاءت لغرض لا يتحقق بغيره، فهو بغرضه أبلغ من مطابقة الظاهر، فالضمير الذي هو معمول اسم الفاعل ﴿مُنفَطِرٌ﴾ عاد إلى المعنى لأنه هو الأهم، فالمنفطر هنا هو السقف، وكأنها إشارة إلى الخطورة والحدث الجلل في انفطار السقف الذي سيجعله يخر فوق الرؤوس، فهذا التعبير أبلغ وهو ما فهم من تذكير الصفة.

وجاء التعبير بالمشتق المذكر بدلا من المؤنث في قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:٢٠] بخلاف قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة:٧]، ولا شك أن التباين بين الكلمتين ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ و﴿خَاوِيَةٍ﴾ من حيث التذكير والتأنيث يخضع إلى اختيار اللفظ المناسب في مكانه المناسب، والقرآن الكريم بليغ في دقة اختيار الكلمة ونظمها وتأليفها، يبرهن ذلك السياق، والمشتق المذكر ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ يحتمل معمولا مذكرا جاء هنا ضميرا مقدرا، والمرجع في كلتا الآيتين أعجاز، وهي مؤنثة، فلم يقل: منقعرة كما قال خاوية في الأخرى.ولم يقل: خاو كما قال: منقعر، وقد يكون المرجع النخل وهو يؤنث ويذكر.

ولمعرفة سبب التذكير في آية سورة القمر والتأنيث في آية سورة الحاقة يحتاج إلى الوقوف على القرآئن والفوارق بين الآيتين ليتبين السبب.

وقبل الوقوف على ذلك تحسن الإشارة إلى أن النزع هو القلع، والأعجاز هي أصول النخل، والمنقعر المنقطع الساقط، وقعرته فانقعر أي قلعته فسقط، وقد بين ذلك

ابن قتيبة[1]، وفسر ابن عاشور المنقعر بغير ذلك واستضاء بقولهم: قعر البئر إذا انتهى إلى عمقها، أي كأنهم أعجاز نخل قعرت دواخله، وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا[2]، ومن المفسرين من وجه التشبيه بفصل الفرع عن الأصل، فالريح كانت ترمي رؤوسهم من أجسادهم، فتبقى أجسام بلا رؤوس[3]، فتصبح كالأعجاز، وفي اللسان يقال: خوت الدار تهدمت وسقطت، والأرض الخاوية الخالية من أهلها، وخاوية على عروشها أي خالية، وقيل: ساقطة على سقوفها[4].وإشارات ابن قتيبة وغيره تفتح النافذة إلى التحليل البلاغي فآية القمر ذكرت النزع، والنزع يقع على الأعجاز لكونها تنزع من الأرض، وهي تصور حال القوم في يوم قال الله فيه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴾ [القمر:١٩]، ولم يذكر عدد الأيام والليالي، وسورة القمر بنيت على فاصلة الراء، فاجتمع بتذكير الاسم المشتق بلاغة المعنى واللون البديعي المتمثل في الفاصلة الموافقة لرؤوس الآيات، ولم يذكر الاسم المشتق هنا لمجرد الجواز، بل وراء هذا الاختيار دلالة بلاغية، وإن كان النخل اسم جنس يذكر ويؤنث، فآية سورة القمر تبين حال النزع في أول أيام العذاب لذلك ذكر﴿مُّنقَعِرٖ﴾؛ لأنه يعود إلى النخل، فأول نزع للناس يرَون ملقين على الأرض كأنهم النخل المنقعر، لأن الفروع ما زالت باقية، فالمشهد في أول لحظاته.

أما آية سورة الحاقة فلم تذكر النزع، لكنها ذكرت سبعة ليال وثمانية أيام، وهذا التفصيل لا يوجد في آيات سورة القمر، وهذه الليالي والأيام تخلف أجسادا ممزقة، لم تبق إلا أصولها الخاوية، فالفروع تبترت، وأصبحت أشلاء، فذكْر العدد استدعى صورة

---

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٣٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٦/٢٧).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٣٦/٤)، الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (١٦٦/٩)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١٨/١٩)، وروح المعاني للألوسي (٨٦/١٤).

(٤) ينظر: لسان العرب، فصل الخاء المعجمة، مادة: خوا، (٢٤٥/١٤).

أوسع من منقعر، فجاءت لفظة خاوية والتي تصور مشهد النخل الملقى على الأرض من جذوعه من غير فروع، وأعجازه قد انفصل عن فروعه، فاعترى بعض أجزائه تكسر وانفصال، وهذه الصورة تناسب صورة الأجساد الملقاة على الأرض والتي مرّ عليها ليال وأيام فتمزقت، وفصلت عنها بعض أشلائها، والخاوي هو شيء مدمر فسقط على أركانه، وقد ذكرت ﴿خَاوِيَةٌ﴾ على هذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع فجاءت متبوعة (بعروشها) وغير متبوعة بها في موضعين، وجميع الآيات الخمس تتحدث عن هلاك فقال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف:٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج:٤٥] إضافة إلى أن سورة الحاقة بنيت فاصلتها على الياء والتاء فكان في اختيار اللفظ﴿خَاوِيَةٌ﴾ جمال بديعي لمناسبة الفاصلة القرآنية لفاصلة الآيات السالفة واللاحقة، ولذلك جاء التذكير مناسبا في موضعه، والتأنيث مناسبا في موضعه، وليس ذلك لكون الاختيارين جائزين، بل لأن كل كلمة لا تصلح إلا بالمكان الذي نظمت فيه، مع أن النخل تذكر لفظا وتؤنث معنى؛ لأنها اسم جنس، قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق:١٠]. إلا أن الباحث يرى أن (منقعر) صفة للنخل بأعجازه، أما خاوية فهي صفة للأعجاز المتبقية من أجزاء النخلة، والمناسب لحالتهم في هذه الأيام والليالي، والله اعلم.

فالوصف بسورة الحاقة أشد من الوصف في سورة القمر، يدل على ذلك ذكر عدد الأيام والليالي، والزيادة بوصف الريح بأنها عاتية ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، وهذا الوصف لم يأت في القمر، والصرعى في الحاقة أكثر؛ لذلك قيل: إن التاء في خاوية للتكثير، لأن المشهد الذي يرى هو جميع ما خلفته هذه الريح من دمار فترى المنقعر والخاوي الذي فرغ بطنه من أحشائه، وأصابه التقطع والتمزق، وعلى هذا فسورة القمر ذكرت أول فعل الريح، وسورة الحاقة صورت نتيجة

الريح من أول يوم وحتى اليوم الآخر، وسورة القمر نزلت قبل الحاقة فجاءت الحاقة لتتم المشهد المفزع، فيجتمع في السورتين تصوير المشهد وفعل الريح من أول وهلة حيث النزع، وآخر أيام الدمار حيث الأجساد المتعفنة المتمزقة الخاوية مما في البطون، وكأنهم قد تفجروا من شدة النزع والإلقاء، والله أعلم.

وتحليل الباحث بعضه مستوحى من أقوال العلماء في هذين الموضعين، ولهم فيه مزيد بيان، فقد أشار أبو عبيدة إلى أن النخل يذكر ويؤنث(1)، وذكر ابن سيده أن لفظ ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ جاء على تذكير اللفظ وإن كان المعنى الجمع(2)، والتأنيث على معنى الجماعة، والتذكير على معنى الجمع، وقال جماعة من أهل اللغة في تذكير هذا الضرب وتأنيثه أنهما سواء في الاستعمال والكثرة(3)، وبيّن السيوطي أن النخل من أسماء الأجناس، ويجوز فيها التذكير حملا على الجنس، والتأنيث حملا على الجماعة(4)، وقد أوثر تذكيره في آية سورة القمر وتأنيثه في آية سورة الحاقة (5). قال الكفوي في ذلك:"والأغلب على أهل الحجاز التأنيث، وعلى أهل نجد التذكير"(6)، وذكر صاحب اللباب أن بني تميم ونجد يذكِّرون النخل، والحجاز يؤنثونه(7)، وذكر أن التذكير في سورة القمر والتأنيث في الحاقة جاء مراعاة للفواصل في الموضعين(8) .

---

(1) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٨٨/٢)، ودرة الغواص في أوهام الخواص للحريري (ص: ٧٣).

(2) ينظر: المخصص لابن سيده، كتاب: الدهور والأزمنة والأهوية والرياح، باب: في أثمار الشجر والنبات (١٥٢/٣).

(3) ينظر: المصدر، كتابك المقصور والممدود، باب: دخول التاء الاسم فرقا بين الجمع والواحد منه (٦٨/٥).

(4) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٤٥/٢).

(5) ينظر: المصدر نفسه(٣٤٠/٣).

(6) الكليات لأبي البقاء الكفوي(ص: ٣٣١).

(7) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٦/١٦).

(8) ينظر: المصدر نفسه(٢٥٦/١٨).

ويظهر من أقوال العلماء أنهم يرون أن موصوف الصفتين ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ و﴿خَاوِيَةٌ﴾ هو النخل في الآيتين[1] والباحث يرى كما سبق أن موصوف الصفة ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ هو النخل، وأن موصوف الصفة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ هو الأعجاز[2]، فالانقعار كان في أول الأمر وهو للنخل، ففقدت الأعجاز تماسكها وقوتها، فأصبحت خاوية؛ لأنها فقدت فروعها وجذورها، وهذا المشهد كان في نهاية أيام العذاب، والله أعلم .

وهاتان الآيتان من شواهد المبرد على قوله:" واعلم أن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه جار على سنة الواحد وإن عنيت به جمع الشئ؛ لأنه جنس من أنثه فليس إلى الاسم يقصد، ولكنه يؤنثها على معناه؛ كما قال عز وجل: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؛ لأن النخل جنس وقال:﴿ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾؛ لأنه جمع نخلة فهو على المعنى جماعة"[3].

وقد ذكر الدكتور عبد السلام أحمد الراغب أن تصوير الإهلاك بأعجاز النخل المنقعر، يتناسق مع السياق الذي يتحدث عن بداية إهلاكهم، ولما حدد الزمن في سورة الحاقة جاء الحديث عن منتهى إهلاكهم وتدميرهم فأجسادهم هنا فنيت، وتآكلت أجوافها، حتى صارت خاوية، فالنخل المنقعر، تصوير لبداية التدمير والإهلاك، ثم النخل

---

(١) للاستزادة ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٤٩٧)، ومفاتيح الغيب للرازي (٣٠٥/٢٩)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٦/١٦)، و(٢٥٦/١٨)، وروح المعاني للألوسي (٨٦/١٤)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٢٧/١)، و خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية(٣١٣/١).

(٢) وهو أحد أقوال د. عبد العظيم المطعني، ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢٣٢/٢) .

(٣) المقتضب للمبرد(٣٤٦/٣).

الخاوية، هي الصورة الأخيرة للإهلاك والإفناء فالصورة الثانية، تكمل التصوير في الصورة الأولى، وليست منفصلة عنها[1].

وعاد ضمير المذكر على جمع التكسير في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنبياء:٥٩-٦٠].

فالآلهة يعود إليها الضمير مؤنثا، لكنه عاد في الآية بضمير العاقل المذكر، وقد بين الباحث ذلك من قبل[2]، ولكن المقام هنا للكشف عن سبب عود ضمير المذكر إلى الآلهة، ولعل الغرض إبراز مكانة هذه الأصنام عند المتكلمين، فهم ذكّروها تشريفا، وأعادوا ضمير العاقل للتعظيم، ولإدعاء التصرف منها، أو أتوا بضمير العاقل المذكر لأنهم حملوا اللفظ على معنى رب، فذكّروا لذلك.

وفي مواضع يجد الباحث مخالفة الصفة المشتقة للموصوف في مواضع ثلاثة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف:١١]، وقوله تعالى: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق:١١]، وهذه الصفة المشبهة: ﴿ مَّيْتًا ﴾ في المواضع الثلاثة تحتمل فاعلا لها تقديره (هو) لكن اللافت النظر أن الصفة وضميرها المقدّر قد خالفا الموصوف (المرجع)، فلم يقل: بلدة ميتة؛ ويكون تقدير فاعلها حينئذ (هي)، لكن عدل عن ذلك إلى التذكير المخالف الموصوف المؤنث، فما البلاغة وراء مخالفة مقتضى الظاهر؟

ولا شك أن في العدول سعة معنوية، فالحياة لم تقتصر على البلدة المقطونة؛ ولكن رحمة الله وسعت كل مكان، فجاء تذكير الصفة للدلالة على الاتساع كيلا تكون

---

(١) ينظر: وظيفة الصورة الفنية، عبد السلام أحمد الراغب (ص: ١٤٥-١٤٦).

(٢) ينظر: (ص: ٣٩٦) ومابعدها، وفيه بيان سبب تأنيث الآلهة.

محصورة على البلدة، لأن الحياة في المكان حقيقة وفي البلدة مجاز[1]، أو على سبيل المجاز المرسل حيث ذكر المحلّ وأراد الحالّ، أو على سبيل الجزئية فالبلدة جزء من المكان الواسع الذي أحيي، فالعدول عن تأنيث الصفة وضميرها المقدر ناسب الحقيقة وأفاد كون رحمة الله واسعة فجاء صفة للمكان الذي أحياه الله، والأرض كلها مكان، وكل بلدة مكان وليس كل مكان بلدة. ومن هنا تتبين السعة الدلالية وراء الصفة غير المطابقة ومعمولها المقدر، يؤيد ما ذهب إليه الباحث أن لفظة بلد ذكّرت في القرآن وجاءت صفتها مناسبة لها، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾ [فاطر:٩] ثم جاءت قرينة تفيد الشمول وهي قوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ فالأرض دلت على أن الغيث أوسع من أن يكون على بلد، ولكن تخصيص البلدة أو البلد جاء لقربه من أعين الناظرين، وهذا المشهد مع ما فيه من النفع والحياة إلا أنه باعث على التفكر في إحيائنا بعد موتنا، كما جاء التذييل بقوله:﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فتلك مما يشاهده الناس وتحمل وراءها دلالات عقائديه يعيها المتأمل، فهم يرون موتها وحياتها؛ من أجل ذلك ذكر البلد والبلدة لأن المشهد على قرب من الرائي. والمعنى أوسع من البلدة بدلالة مخالفة الصفة للموصوف وأن آية سورة الفرقان اختتمت بقوله: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ وهنا يتبين الفرق بين الآيات الثلاث الأول، وهذه الآية الأخيرة، فالأُوَل جاءت الصفة غير المطابقة للموصوف والمشتملة على ضمير يقع فاعلا لها مفيدة شمول السقيا لكل مكان، أما في هذه الآية الأخيرة لما جاءت المطابقة بين الصفة: ﴿مَّيِّتٖ﴾ وبين الموصوف: ﴿بَلَدٖ﴾ جاء التصريح بالأرض ليفيد الشمول. والدليل الآخر للباحث أن الأرض لما جاءت موصوفة في موضع آخر جاء الصفة مطابقة للموصوف لاشتمال المعنى على كل الأرض فقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ

---

(١) إلى هذا ألمح السكاكي في علوم المفتاح(ص: ٣٩١).

ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يس:٣٣] فكانت المطابقة بين الصفة والموصوف؛ لأن مخالفة الصفة للموصوف في هذا المقام يقلل سعة الغيث.

وقد علل أبوعبيدة مجيء الصفة على التذكير بأن المعنى وقع على المكان والعرب تفعل ذلك(١)، ووافقه الرازي(٢) والزركشي(٣) وغيرهم(٤) وقال الزمخشري: هي بمعنى البلد(٥) وبين ذلك ابن عاشور، فذكر أن تذكير الصفة على تأويله بالبلد؛ لأنه مرادفه، وبالمكان؛ لأنه جنسه(٦)، ويرى ابن جماعة أن التذكير تارة يكون باعتبار اللفظ وتارة باعتبار معناه، وأن ما لا روح فيه يقال فيه ميت، وما فيه روح يقال له ميتة(٧)، وعند ابن سيده أن تاء التأنيث حذفت للتخفيف(٨).

قال الألوسي:" وتذكير صفتها لأنها بمعنى البلد؛ أو لأن ميتا من أمثلة المبالغة التي لا تشبه المضارع في الحركات والسكنات وهو يدل على الثبوت فأجري مجرى الجوامد"(٩).

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٧٦/٢).

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٣٦٤).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣٥٩/٣).

(٤) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني(ص: ١٩٦)، وفقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٣١)، والكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (١٤٠/٧)، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١٩٦/١)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢١/١٨).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢٨٤/٣).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤٤/٢٦).

(٧) ينظر: كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لابن جماعة (ص: ٢٧٤).

(٨) ينظر: المخصص لابن سيده، كتاب: المقصور والممدود، باب: التاء التي تلحق الحروف وأسماء الأفعال (١١١/٥).

(٩) روح المعاني للألوسي (٣١/١٠).

ومن المواضع التي خالفت الصفة المشتقة موصوفها ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦]، والصفة المشتقة ﴿قَرِيبٌ﴾ تعمل عمل فعلها، وتقدير الفاعل (قريب هو) لكن المثير الانتباه الإخبار عن المؤنث بمذكر، واشتمال هذا المذكر على ضمير مذكر يعود على المؤنث ﴿رَحْمَتَ﴾ والذي يراه الباحث أن البلاغة وراء تذكير الصفة سببه الاقتطاع[١]، وهو أحد أنواع الإيجاز ، فلم تكتمل الكلمة فيقال: قريبة، ولكن تم اقتطاع تاء التأنيث في الصفة، ولعل ذلك للدلالة على أن رحمة الله أسرع من تمام الكلمة، هذا في الكلام، وكذلك في سرعة نزول الرحمة، ليوافق المبنى المعنى.

وللعلماء في ذلك أقوال منها أن الفراء قال: "ذكرت قريبا لأنه ليس بقرابة في النسب"[٢]، وأما أبو عبيدة فقال: "هذا موضع يكون فى المؤنثة والثنتين والجميع منها بلفظ واحد، ولا يدخلون فيها الهاء؛ لأنه ليس بصفة، ولكنه ظرف لهن وموضع، والعرب تفعل ذلك فى قريب، وبعيد"[٣]. وردّ ابن الشجري قول أبي عبيدة أن التذكير للمكان، أي: مكانا قريبا، قال ابن الشجري إنه لو أريد هذا لنصب قريب على الظرف[٤].

---

(١) الاقتطاع: هو حذف بعض حروف الكلمة أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة، تخفيفا على مخارج الحروف، أو لداعي السرعة، أو لأجل القافية في الشعر، أو الفاصلة في النثر، أو التجبب في النداء، أو نحو ذلك من دواعي بلاغية، فمن أمثلة حذف الحرف حذف نون يكون المجزوم في قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة:٣٧]، ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٤٦/٢).

(٢) ينظر.: معاني القرآن للفراء(٣٨٠/١).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٦/١) .

(٤) أمالي ابن الشجري (ص:٥٨٩/٢).

وروى ابن جني أنه قيل: إنه أراد بالرحمة هنا المطر، وجوز أن يكون التذكير هنا إنما هو لأجل فَعِيل مثل صديق[1].

وقال الأخفش: "فذكّر (قريب) وهي صفة (الرحمة) وذلك كقول العرب ريح خريق، وملحفة جديد، وشاة سديس"[2]. وهذا أحد قوليه.

ومن الممكن تلخيص أقوالهم بما يلي:

١- أن لفظة قريب تأتي للدلالة على قرابة النسب أو لقرب المسافة، أي مكان قريب، فإن دلت على قرابة النسب أنثت بلا خلاف، أما إن دلت على قرب المسافة فيجوز فيها التأنيث والتذكير وهذا ما ذكره الفراء[3].

٢- قريب على وزن فعيل، وفعيل تأتي على ضربين أحدهما: بمعنى فاعل كقدير وسميع، أي: قادر وسامع، والثاني: بمعنى مفعول كقتيل وجريح، أي مقتول ومجروح. فما جاء بمعنى الفاعل فحقه إلحاق تاء التأنيث مع المؤنث، كجميل وجميلة، وما جاء بمعنى مفعول فلا يخرج عن حالين: إما أن تكون الصفة مصاحبة للموصوف وحينئذ يستوي فيها المذكر والمؤنث، فتقول: رجل قتيل، وامرأة قتيل. وأما إن لم تكن الصفة مصاحبة للموصوف فإنها تؤنث إذا جرت على مؤنث نحو قتيلة بني فلان، ثم رُجح أن قريب على وزن فعيل بمعنى فاعل، وليس المراد أنه بمعنى قارب بل بمعنى اسم الفاعل العام[4]، وقد تكون قريب محمولة على أن معناها مقروب إليها. وذكر ابن أبي الحديد أن وزن فعيل هنا للمبالغة والكثرة فصار كالمصادر يأتي مفردها خبرا للجماعة، فيشترك في ذلك المفرد والجمع والمذكر والمؤنث[5].

٣- وقيل: قريب مصدر وحق المصدر التذكير.

---

(١) ينظر: الخصائص لابن جني (٢/٤١٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن للأخفش(١/٣٢٧).

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء(١/٣٨٠).

(٤) ينظر: التفسير القيم لابن القيم (ص:٢٦٨-٢٦٩).

(٥) ينظر: الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (٤/٢٧٢).

٤- وقيل: قريب من الألفاظ التي يستوي فيها المذكر والمؤنث والشواهد كثيرة منها قول امريء القيس[(١)]:

لَـهُ الوَيـلُ إن أَمسـى وَلا أُمُّ هاشِـمٍ   قَريـبٌ وَلا البَسباسَـةُ اِبنَـةَ يَشـكُرا

فيلاحظ أن قريب ذكّرت مع أنها خبر لمؤنث حقيقي.

٤- المؤنث المجازي يجوز تأنيث خبره وصفته على حد سواء ويجوز التذكير، وهذا قول للجوهري في تذكير (قريب) هنا[(٢)]، وقد رد هذا القول ابن هشام بقوله:" وأما قول الجوهري إن التذكير لكون التأنيث مجازيا فوهم، لوجوب التأنيث في نحو الشمس طالعة، والموعظة نافعة، وإنما يفترق حكم المجازي والحقيقي الظاهرين لا المضمرين"[(٣)].

٦- ويجوز أن تؤول الرحمة والساعة بمرادف مذكر، يكون تذكير الخبر (قريب) دالا عليه، وقال بهذا الزمخشري، ونص قوله: "وإنما ذكّر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم"[(٤)]، وأول الأخفش الرحمة هاهنا بالمطر[(٥)]. وذكر الجوهري أنه أراد بالرحمة الإحسان، وهذا أحد قوليه[(٦)].

٧- وقد يكون (قريب) صفة لخبر محذوف تقديره شيء قريب أو أمر قريب. وهذا أحد آراء الزمخشري [(٧)].

٨- وقيل هو من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر، ويفهم هذا من قول ابن القيم:" أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها. فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك

---

(١) ديوان امريء القيس(ص:٩٧).

(٢) ينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، فصل القاف، مادة:قرب (١٩٨/١).

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (٦٦٦/١).

(٤) الكشاف للزمخشري (١١١/٢).

(٥) ينظر معاني القرآن للأخفش(٣٢٧/١).

(٦) ينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، فصل القاف، مادة: قرب (١٩٨/١).

(٧) الكشاف للزمخشري (١١١/٢).

وتعالى أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين... ففي حذف التاء هاهنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة... وذلك يستلزم القربين قربه وقرب رحمته. ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم، لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك "(١).

وهذه اللمسة الدقيقة من الإمام ابن القيم تقرب هذه الآية من أسلوب الاحتباك(٢)، فتذكير قريب، يدل على اللفظ غير المذكور وهو الله، وتأنيث الرحمة يدل على خبر مؤنث غير مذكور دل عليه الخبر المذكر المذكور.

وهذه التوجيهات السابقة تناسب (قريب) في الآية السابقة، والآية اللاحقة التي هي نظيرة لما سبق فيقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب:٦٣]، فلم يقل -سبحانه-: قريبة، ولكن قال: قريبا وهذه الصفة مشتقة ولها فاعل مقدر ب(هو) فكيف كانت الصفة المذكرة وضميرها المذكر للموصوف المؤنث، والذي يراه الباحث أن الذي حدث هو احتزاء مناسب مباغت يصور مجيء الساعة بغتة، فالساعة أسرع من تمام الكلمة، هذا من ناحية اللفظ.

أما من ناحية الأفعال فقد صورها الحديث المروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ

(١) التفسير القيم لابن القيم (ص:٢٨١-٢٨٢).

(٢) الاحتباك عرفه السيوطي بقوله: "أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول" ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/٢٠٤)، وسماه الزركشي بالحذف المقابلي ينظر:(٣/١٢٩)، وينظر عند المعاصرين: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (ص: ٢/٥٤-٥٦) وغيرها.

كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾[1] وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا"[2].

فهذا الحديث جاء ليبين أن الساعة تأتي بغتة، فتفصل فعلا عن تمامه القريب منه، وجاءت هذه الآية – والله أعلم – ليصور الكلام سرعة الفعل، وذلك أن المتحدث قد يتكلم بالكلمة فلا يتمها، فأصبح الوقوف على الحرف الذي قبل تاء التأنيث دالا على تلك المباغتة وسرعة الحدث. ومثل ذلك – والله أعلم – يقال في آية الرحمة السابقة، فكلمة (قريب) هي نفسها وردت في الآيتين وفي كلا الموضعين وقع عليها الاقتطاع؛ للإشعار–والله أعلم– بأن إرادة الله أقرب لنا من تمام الكلمة، فلذلك لم تأت تاء التأنيث.

وقد تحذف كلمة من سياق كثر وجودها بأمثاله؛ لأن في حذفها غرضا بلاغيا لا يكون مع الذكر، ويكشف عنه هذا السياق الخاص، فمثلا في كل آية يسألونك، أو يسألك ويأتي بعدها جواب فإنه يسبق ب(قل) إلا في موضع واحد حذفت وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فلم يقل: فقل

---

(١) [الأنعام:١٥٨].

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل:٧٧] (ص: ١٦١٧-١٦١٨) رقم الحديث (٦٥٠٦).

إني قريب، لأن المقام مقام دعاء، والله أقرب من كلمة قل، وليس بيننا وبينه واسطة [1]، ولذلك تركت (قل) التي لزمت الجواب عن (يسألون ويسألك) في غير هذا الموضع[2].

ومثله حذف جمل لأن حذفها يسهم في تصوير السرعة، وذكرها لا يتناسب مع هذه السرعة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠] فقال: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا ﴾ على سبيل الإيجاز بالحذف؛ لأن ذلك أبلغ في تصوير

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥/٢٦٤).

(٢) وذلك في قوله تعالى: وقوله: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٍ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ ﴾ [البقرة:٢١٥]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقوله: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ [البقرة:٢١٩]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٌ لَّهُمۡ خَيۡرٌۖ ﴾ [البقرة:٢٢٠]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ ﴾ [المائدة:٤]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ ﴾ [الأنفال:١]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف:٨٣]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه:١٠٥]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٣].

السرعة، ولو ذكر أن الذي عنده علم من الكتاب انطلق فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه لكان في التعبير إطناب لا يتناسب والسرعة.

وقد يعود الضمير المؤنث إلى مجاز مؤنث، ثم يعدل عنه إلى ضمير مذكر لكونه انصرف عن المجاز إلى الحقيقة المذكرة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [النساء:٤٧]، فلما كان الطمس خاصا بالوجه عاد الضمير في قوله: ﴿ فَنَرُدَّهَا ﴾ و﴿ أَدۡبَارِهَآ ﴾ إلى ﴿ وُجُوهٗا ﴾ والوجوه جاءت على سبيل المجاز المرسل وعلاقتها الجزئية، وذكر الوجه لأنه الأشرف، ووقوع الطمس عليه أبلغ في الإهانة النفسية والجسدية، ولذلك عاد الضمير إلى ﴿ وُجُوهٗا ﴾ مؤنثا، ثم بعد ذلك عدل عن الضمير العائد إلى المجاز إلى الضمير العائد إلى الحقيقة فقال: ﴿ نَلۡعَنَهُمۡ ﴾ ولم يقل: نلعنها؛ لأنه عاد إلى ذوات الكلّ، فتحول من ضمير الغائبة إلى ضمير الذكور، ولعل هذا الضمير يجعل اللعن واقعا عليهم لا على جزء من أجزائهم، وهذا أبلغ في الردع والزجر، وفيه تهيأة لتشبيه لعنهم بلعن أصحاب السبت، أي لعن أصحاب الوجوه بلعن أصحاب السبت، وبذلك لا يتأتى تشبيه لعن الوجوه بلعن أصحاب السبت، وبما أن لعن أصحاب السبت كان في مسخهم، فكذلك لعن أولئك سيكون بمسخهم قردة وخنازير(١)، وذكر الرازي وأبو حيان قول من قال: مسخهم قردة، ثم أردفا: أن الأظهر حمل الآية على اللعن المتعارف(٢)، وقيل الطمس مسخ،

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٢٠/٧)، الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٣٢٤/٣)، والكشاف للزمخشري (٥١٩/١)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٢٩٦/٥)، وروح المعاني للألوسي (٤٩/٣).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٩٧/١٠)، والبحر المحيط لأبي حيان (٦٦٨/٣).

واللعن طرد وذل وخزي، أو العكس[1]، والمسخ أو اللعن يقعان على كامل الجسد لا على الوجه فحسب ولذلك عدل عن إعادة الضمير إليه، والله أعلم.

وذكر الزمخشري والرازي والسمين الحلبي أن الضمير في ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ يعود على الوجوه، (على حذف مضاف إليه) ، أي: وجوه قوم، أو على أن يراد بهم الوجهاء والرؤساء، أو يعود على الذين أوتوا الكتاب[2].

ومن المعهود في أسلوب القرآن الكريم أن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ تأتي على هذه الصورة ويعقبها ضمير الغائبة في ﴿فِيهَا﴾ وذلك في أربعين موضعا، منها ما هو في سياق الحديث عن الجنة ونعيمها، ومنها ما هو في سياق الحديث عن النار وجحيمها، فعاد الضمير في كل هذه المواضع مؤنثا[3]، إلا أنه في موضع واحد عاد مذكرا وذلك في قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾ [طه:١٠١]، والذي حمل الباحث على بحث هذا الضمير مع كونه عائدا إلى الوزر؛ لأن الوزر محمول، والمحمول يكون على الحامل ليس الحامل فيه، ولا شك أن هذا التذكير لبلاغة، وعدل فيه عن الأسلوب العام للقرآن الكريم لسرّ عظيم لا يوصل إليه بغير هذا الأسلوب، فالضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٠/٤).

(٢) ينطر: الكشاف للزمخشري (٥١٩/١)، ومفاتيح الغيب للرازي (٩٧/١٠)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي(٧٠١/٣).

(٣) [البقرة:١٦٢]و[آل عمران:١٥] و[آل عمران:٨٨] و[آل عمران:١٣٦] و[آل عمران:١٩٨] و[النساء:١٣]و[النساء:٥٧] و[النساء:١٢٢] و[النساء:١٦٩] و[المائدة:٨٥] و[المائدة:١١٩] و [الأنعام:١٢٨] و[التوبة:٢٢] و[التوبة:٦٨] و[التوبة:٧٢] و[التوبة:٨٩] و[التوبة:١٠٠] و[هود:١٠٧] و[هود:١٠٨] و [إبراهيم:٢٣] و[النحل:٢٩] و[الكهف:١٠٨] و[طه:٧٦] و[الفرقان:٧٦] و[العنكبوت:٥٨] و[لقمان:٩] و [الأحزاب:٦٥] و[الزمر:٧٢] و[غافر:٧٦] و[الأحقاف:١٤] و[الفتح:٥] و[الحديد:١٢]و[المجادلة:٢٢] و[الحشر:١٧] و[التغابن:٩] و[التغابن:١٠] و[الطلاق:١١] و[الجن:٢٣] و[البينة:٦] و[البينة:٨].

عائد إلى الوزر الذي أصبح محمولا، ليس إلى النار، لكن الوزر ليس ظرفا فيخلد فيه، "ولكن جاء هذا الأسلوب على سبيل المجاز المرسل الذي العلاقة فيه السببية، فأراد العقاب المتسبب عن الوزر"(١)، والنار من ذلك العقاب وهي ظرف للحال بها، وقد يكون هذ الوزر قد أحاط بالحامل من كل جانب فأصبح كالوعاء للحامل فساء حملا، فصور ذلك الثقل بتصوير مفزع غير معهود في الدنيا؛ لأن الحامل في الدنيا لا يحيط به الحِمْل من كل جانب.

وقد يجد الباحث في النظم كلمة لها معناها المعجمي، أو معناها السياقي، ولها مترادفات لغوية، ثم يجد في نفس التركيب ضميرا يعود إلى ذلك المرادف لا إلى الكلمة الظاهرة في النظم؛ لكون الضمير مخالفا في المطابقة، فقد تكون الكلمة مؤنثة والضمير العائد مذكرا، أو العكس، فتظهر بتلك المخالفة كثافة دلالية، وسعة معنوية، فيعين ذلك على سعة التفسير، وبهاء الإيجاز بعدم تكرار الكلمتين المترادفتين، مع ما في عود الضمير إلى الرديف الخفي من تحريك للذهن، يبعث على وقفة تأمل تكشف ما وراء هذا الأسلوب من غاية، وقد وجد الباحث ذلك في قضايا مهمة كقضية الصداق والوصية من القضايا المالية؛ لما في الضميرين المذكر الذي عاد على مؤنث، أو المؤنث الذي عاد على مذكر من الإحاطة بأسماء ومعاني هذا اللفظ؛ لكيلا يتوهم أحد أن وقوع التحريم على شيء بذكر اسم من أسمائه يحلله إذا اختير له اسم آخر، أو وضع له اسم مستحدث، فاختلاف الأسماء لا يغير الحكم على العين المسماة بذلك، كما قال ﷺ: "إِنَّ أُنَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا "(٢).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش (٦/ ٢٤٦)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ٣٨١).

(٢) مسند الإمام أحمد، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٩/ ٦١٥) رقم الحديث: ١٨٠٧٣.

وقد يكون للاسم الذي جاء مرجعا للضمير المخالف مرادفا لغويا، فيعود الضمير إلى ذلك المرادف اللغوي الذي لم يذكر بالنظم، للإحاطة بجميع مرادفاته، وذلك لعظيم دلالة السياق، والترادف اللغوي هو تعدد الأسماء للشيء الواحد [١].

وقريب من هذا النحو -والله أعلم- جاء قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾﴾ [النساء:٤]، فالضمير في قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ مسبوق بمرجع مؤنث وهو قوله تعالى: ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ لكن هذا الضمير لم يوافق المرجع من حيث التأنيث بل جاء مذكرا، فجاء تذكيره ليتسع لمعنى آخر قريب هو ردف للفظ المذكور أو جزء منه، وتذكير الضمير دال عليه، وقد تتسع دائرة التحريم، ويشير الباحث إلى أن الإيتاء جاء مفعوله جمعا فقال: ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾، أما الأكل بعد طيب النفس فجاء بقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾، فكأن في الجمع الإشارة إلى أن يوتين كل حقوقهنّ، أما قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ في الهبة ففيه إرشاد إلى أن يهبن من بعضه حفظا لحقوقهن، وهذا من دلالة تذكير الضمير، وأيضا عود الضمير مذكرا دل على أن هذا اللفظ له معنى مذكر أوسع من الصدُقات، بل يشمل الصداق والمهر وسائر أمواهنّ، لعموم الحديث الذي رواه أَبُو حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ عَمِّهِ [٢]، وفيه قال -ﷺ- "إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ" [٣].

---

(١) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح (ص:٣٠٢).

(٢) اختلف في اسم أبي حرة واسم عمه، فقال ابن حجر: حنيفة أبو حرة الرقاشي بفتح الراء والقاف مشهور بكنيته، وقيل اسمه حكيم ثقة من الثالثة، ينظر: تقريب التهذيب لابن حجر (ص:١٨٤). وقيل: اسم عمه حذيم ابن حنيفة، وقيل: عمر بن حمزة صحابي، أفاده ابن فتحون. ينظر: تقريب التهذيب لابن حجر (ص:٧٣٩)، وقيل اسم عمه: حنيفة. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٢١/٢). أما أبو حُرّة بضم أوله وتشديد الراء البصري، اسمه واصل بن عبد الرحمن. ينظر: تقريب التهذيب لابن حجر (ص:٦٣٢) وهو ليس من رواة هذا الحديث.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، حَدِيثُ عَمِّ أَبِي حرَّةَ الرَّقَاشِيِّ (٢٩٩/٣٤) برقم (٢٠٦٩٥).

ولمزيد من البيان في ذلك يذكر الباحث مما ذكره العلماء من أوجه لمرجع هذا الضمير المذكر في قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ وجاءت آراؤهم على النحو الآتي[1]:

الأول: أنه يعود إلى الصداق المفهوم من الصدُقات قاله النحاس[2]، وابن عطية[3]، وهو أحد أقوال الزمخشري[4] ثم قال: "ويجوز أن يكون تذكير الضمير لينصرف إلى الصداق الواحد، فيكون متناولا بعضه، ولو أنث لتناول ظاهرهُ هبةَ الصداق كله؛ لأن بعض الصدقات واحدة منها فصاعدا"[5]، والرازي ذكر هذا المرجع وأردف:" أن الفائدة في تذكير الضمير أن يعود ذلك إلى بعض الصداق، والغرض منه ترغيبها في أن لا تهب إلا بعض الصداق"[6]، وإليه أيضا أعاده أبو حيان وزاد أنه "حسن تذكير الضمير، لأن معنى: فإن طبن، فإن طابت كل واحدة، فلذلك قال منه أي: من صداقها"[7]، وإليه أعاده البقاعي وزاد:"ولم يقل: منها، لئلا يظن أن الموهوب لا يجوز إلا إن كان صداقاً كاملاً فقال: ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: الصداق"[8].

الثاني: أنه يعود إلى المهر، وهذا أحد الأقوال التي ذكرها الرازي[9].

الثالث: أنه يعود إلى الصدقات ذكره الرازي [10].

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٧٣/٦-١٧٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس(١٧/٢-١٨)،

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٩/٢).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٧٠/١).

(٥) ينظر: المصدر نفسه(٤٧١/١).

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٩٣/٩).

(٧) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥١١/٣).

(٨) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١٩٣/٥).

(٩) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٩٣/٩).

(١٠) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٤٩٣/٩).

الرابع: قال الزمخشري: "الضمير في: ﴿مِّنْهُ﴾ جار مجرى اسم الإشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك"[1]، وذكر ذلك الرازي[2]، ورواه أبوحيان فقال:"وقيل: يعود على صدقاتهن مسلوكا به مسلك اسم الإشارة"[3]. ورجحه ابن عاشور[4]، واحتج الزمخشري وابن عاشور بالشاهد الذي جاء في خبر سؤال أبي عبيدة لرؤبة بن العجَاج، وقد ورد تمام الخبر في صدر هذا المبحث[5].

الخامس: أنه يعود على الإيتاء وهو أحد الأقوال التي ذكرها ابن عطية[6].

وهذه الأقوال بما فيها من تنوع، وكون بعضها أقوى من بعض، تدل على السعة الدلالية التي أضافها هذا الضمير، فكان في العدول عن ضمير التأنيث إلى ضمير التذكير إيجاز يحمل في طياته معاني كثيفة ذكرها العلماء.

فمخالفة الضمير مرجعه تدل على أن هناك مرجعا محذوفا دل عليه المذكور بالتضمين، والتضمين أحد أقسام الحذف غير أن كثيرا من البلاغيين ركزوا في حديثهم عنه على تعدية الفعل بغير ما هو له ليضمن معنى فعل آخر، وذكر حبنكة في بلاغته كلاما نفيسا فقال:" وهذا التضمين فن رفيع من فنون الإيجاز في البيان، وهو لا يخضع لقواعد الاستعمالات العربية الجامدة التقليدية، التي قد يتقيد بها النحاة، بل هو لمح ابتكاري يلاحظه البليغ، إذ يرى فعلين متقاربين، أو نحوهما، وهو يريد استعمال كل منهما في كلامه، وهذا يقتضي منه أن يصوغهما في جملتين، ويعطي كلا منهما تعديته التي تلائمه، لكنه يرى ما هو أبدع من ذلك وأخصر، وأرفع أسلوبا في أداء بياني جميل، يحرك ذهن المتلقي لفهمه، ويعجب لماحي الذكاء من البلغاء، وهو أن يختار أحد الفعلين

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/٤٧٠).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٩/٤٩٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/٥١١).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤/٢٣).

(٥) ينظر: الخبر بتمامه (ص:٤١١)

(٦) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٩).

بفنية، فيذكره بلفظه، ثم يأتي بما يتعدى إليه الفعل الآخر، أو يعمل فيه، فيذكره، ويحذف معمول الفعل الذى ذكره، إذا كان له معمول، سواء أكان مفعولا به، أم غير ذلك، ويستغني بذكر جملة واحدة عن جملتين "[١].

وفي السورة ذاتها يأتي ضمير مخالف في الظاهر مرجعه وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء:٨]، فالضمير في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ مسبوق ب ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾ لكن الضمير جاء مذكرا مخالفا بذلك مرجعه المؤنث ليدل بعدوله عن هذا اللفظ إلى معناه أو إلى مرادفه وهو الإرث، وقد يتسع ليشمل المال، فالقسمة في مال مقسوم، فعاد الضمير مذكرا والله أعلم إلى المال؛ ليكون إعطاء الأقارب واليتامى والمساكين مندوبا إليه في كل وقت، وليس محصورا في إرث وإن كان الندب سببه قسمة الإرث، غير أن مخالفة جنس الضمير لجنس المرجع وسع الدلالة؛ ليدل على أن الإرث الذي ينتظره الوارثون، قد حث الله على إعطاء الحاضرين من الأقارب واليتامى والمساكين منه وهم ليسوا من أهل القسمة، فغيره من المال من باب أولى، لذلك جاء التذكير كيلا يحصر هذا الرزق على هذه القسمة فحسب، والله أعلم.

وقد ذكر بعض أهل العلم أوجها لمرجع الضمير المذكر، فذكر أنه حُمِل على الإرث يعني الميراث، أو لأن القسمة المقسوم في المعنى[٢]، وعند الزمخشري والزركشي وابن عاشور يعود الضمير إلى ما تركه الوالدان والأقربون[٣]. وذكر الثعلبي أنه أراد

---

(١) ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/ ٥٠).

(٢) ينظر: المخصص لابن سيده، كتاب: المقصور والممدود، باب: ما يتفق أوله بالفتح والكسر والمدّ (٥/ ٥٦) ، والبرهان في علوم القرآن(٣/ ٣٥٩).

(٣) ينظر:الكشاف للزمخشري (١/ ٤٧٧)، والبرهان في علوم القرآن(٤/ ٢٦). والتحرير والتنوير لابن عاشور (ص: ٢٣٢).

بالقسمة الميراث أو المال[1] وذكر العكبري أن الضمير يرجع إلى الْمَقَسَّمِ؛ لأن ذكر القسمة عدل عليه[2].وأعاده الألوسي إلى المقسوم أو المال[3].

ومما تقدم يظهر أن مرجع هذا الضمير المذكر في أحد ثلاثة أوجه[4]:

أحدها: أنه يعود على المال؛ لأن القسمة تدل عليه بطريق الالتزام، وهو ما رجحه الباحث.

الثاني: أنه يعود على (ما) في قوله :﴿ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ [النساء:٧]، أوما تركه الوالدان والأقربون.

الثالث: أنه يعود على نفس القسمة، وإن كان مذكرا مراعاة للمعنى إذ المراد بالقسمة الشيء المقسوم.

وقد عاد ضمير المذكر إلى المؤنث ليحمل معنى أوسع وأبلغ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ فإذا نظر إلى الضمير في قوله: ﴿ بَدَّلَهُۥ ﴾ و﴿ سَمِعَهُۥ ﴾ و﴿ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ فمخالفة الضمير لما يظهر أنه مرجع له لا تأت إلا لسعة في المعنى، فالضمير على إيجازه أضاف معنى وتفسيرا جديدا، فضمائر الغائب في الكلمات السابقة سبقت بمؤنث وهي ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ لكن تذكير الضمير قد جاء ليحيط بمعانيها كالإيصاء، والمعروف، والموصى به، والمكتوب، والقول، وغيره كما سيأتي من أقوال العلماء، أو أن الضمير المذكر لفت الانتباه إلى مزيد تأمل يبين حكم هذه الوصية، وأنها حق على المتقين[5]،

---

(١) ينظر:الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٤١/٤).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء للعكبري (٣٣٣/١).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤٢٢/٢).

(٤) وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٩٨/٦).

(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء الكبري (١٧٤/١).

فعاد الضمير مذكرا إلى الحق في قوله: ﴿حَقًّا﴾؛ تعظيما لهذه الوصية، وفي هذا مخالفة لمقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر يستدعي تأنيث الضمير ليعود على الوصية، فيقال: بدلها، سمعها، يبدلونها، ولكن عدل عن ذلك إلى ضمير التذكير؛ لأنها جعلت حقا، فعاد الضمير إلى حكمها لأهميته، فأصبح ذلك تعظيما لها وتحذيرا من تبديلها، وتنكيلا بمبدلها.

وفسر ابن قتيبة ذلك بقوله:" أي بدّل الوصية"(١)، ولقد مال الشيخ عبد القاهر الجرجاني إلى أن ضمير المذكر هنا عائد إلى الحق أو الوصية(٢)، وأوّل الثعلبي والزمخشري الوصية بمعنى الإيصاء، ولذلك عاد الضمير مذكرا إليها، وأجاز ذلك ابن عادل، والبقاعي وتبعهم الألوسي(٣)، وروى الثعلبي تعليلا قيل فيه: لأن الوصية قول فذهب إلى المعنى، وترك اللفظ(٤)، ورجح ابن عاشور التوجيه الأخير وقد أكد ذلك بما دل عليه قوله: ﴿سَمِعَهُۥ﴾ إذ إنما تسمع الأقوال، وروى قول من قال أنه عائد إلى الإيصاء أو إلى المعروف(٥).

وذكر العكبري عدة أوجه منها أن الضمير المذكر هو ضمير الإيصاء؛ لأنه بمعنى الوصية، وقيل هو ضمير الكتب، وقيل هو ضمير الأمر بالوصية، أو الحكم المأمور به، وقيل هو ضمير المعروف، وقيل ضمير الحق(٦).

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٧٤).

(٢) ينظر: درْج الدرر في تفسير الآي والسور(١/٣٤٢).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢/٥٨)، والكشاف للزمخشري (١/٢٢٤)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣/٢٤٤)، نظم الدرر(٣/٣٦)، وروح المعاني للألوسي (١/٤٥٢).

(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢/٥٨).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/١٥٠).

(٦) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١/١٧٤).

وذكر الرازي في تذكير الضمير والوصية مؤنثة توجيهات منها: أنها بمعنى الإيصاء، وقيل الهاء راجعة إلى الحكم والفرض والتقدير فمن بدل الأمر المقدم ذكره، أو أن الضمير عائد إلى ما أوصى به الميت فلذلك ذكره، أو يعود إلى معنى الوصية وهو قول أو فعل، أو أن تأنيث الوصية ليس بالحقيقي فيجوز أن يكنى عنها بكناية المذكر(1).

وردّ أبو حيان الوجه الأخير القاضي بأن الوصية ليست مؤنثا حقيقيا فجاز عود الضمير إليها مذكرا، وأشار إلى وجوب تأنيث الضمير في هذه الحالة، لأن الجواز لا يراعى في الضمائر المتأخرة عن المؤنث المجازي، بل يستوي المؤنث الحقيقي والمجازي، ورجح أبو حيان عود الضمير إلى معنى الوصية وهو الإيصاء(2).

وقد جمع ابن عادل أيضا أقوالا في ذلك، وجوز أن يعود الضمير على الوصية، وإن كان بلفظ المؤنث؛ لأنها في معنى المذكر، وهو الإيصاء، وقيل: تعود على الأمر، أو الفرض الذي أمر الله به وفرضه، وقيل: تعود إلى معنى الوصية، وهو قول، أو فعل، وكذلك الضمير في ﴿سَمِعَهُۥ﴾ والضمير في ﴿إِثْمُهُۥ﴾ يعود على الإيصاء المبدّل، أو التبديل المفهوم من قوله: ﴿بَدَّلَهُۥ﴾ وقيل: الضمير في ﴿بَدَّلَهُۥ﴾ يعود على الكَتْب، أو الحق، أو المعروف (3).

وهذه الاختلافات بين العلماء هي اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فدل على أن هذا الضمير الموجز قد احتمل سعة دلالية، ولم يكن ذلك لو لم يخالف الضمير مقتضى الظاهر عند من رأى ذلك، فظهر أن عدم مطابقة الضمير لمرجعه يأتي لغرض الإشارة إلى معنى المرجع، أو حكمه.

وفي سياق الحديث عن حالة الجاهلي المبشر بالأنثى يقول الله: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥/٢٣٥).

(2) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/١٦٥).

(3) ينظر اللباب في علو الكتاب(٣/٢٤٤).

[النحل:٥٩]، فيجد الباحث أن ضمير الغائب الذي وقع في محل نصب في قوله: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ قد جاء مذكرا ليعود إلى لفظ الاسم الموصول ﴿مَا﴾(١)، وعاد مذكرا مع أن المقصود في الهاء الأنثى، ولم يأت الضمير مؤنثا بل جاء مذكرا، وكذلك الحال في ضمير النصب في قوله: ﴿يَدُسُّهُۥ﴾ ولاشك أن وراء مجيء الضمير مذكرا بلاغة عظيمة، ولعل مما تبين للباحث في ذلك أن تذكير الضمير يربط المستمع بقول الله تعالى:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف:١٧]، ويجعله يستحضره، ففي تذكير الضمير تبكيت لهم، فالمثل الذي ضربوه للرحمن هو قولهم: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل:٥٧-٥٨]، كما أن في تذكير الضمير دلالة على الحالة النفسية المصاحبة للمبشَّر والتردد في مصيرها هل تبقى ويبقى الذل، أم يدفنها؟ فجاء ضمير التذكير ليصور حالة المبشر حيث هذا الذي يتستر بضمير المذكر لإخفاء جنس هذه المولودة وعدم الاعتراف بكونها أنثى، لذلك جاء التذكير ليجعل القارئ يتأمل نفسية المبشَّر، وليكشف الستار عن أعماقها المضطربة، يؤيد هذه الحالة ما يعقبها من حركة سلوكية حيث يتوراى المبشَّر من الناس لما يشعر به من الذل والعار، الذي يفضي به إلى وأد هذه المولودة، فالتواري باللفظ أتى بضمير المذكر والتواري بالفعل أتى السياق به صراحة، فقال: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾، والله أعلم.

وقد يكون في تذكير ضمير النصب في قوله: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ و﴿يَدُسُّهُۥ﴾ تبكيت لهم بكون اللفظ جاء بخبرهم مذكرا كما يريدون، وهم أساءوا صنعا عندما نسبوا البنات لله صراحة، فكفى بما قالوه قبحا وخسة طبع.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٠/٢٢٥)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٢/٨٩)، وروح المعاني للألوسي (٧/٤٠٨) .

وقد ذكر جملة من المفسرين أنها قرئت أيمسكها أم يدسها مراعاة للأنثى، أو مراعاة لمعنى (ما) الموصوله(١).

وقد يؤيد هذا قول البقاعي:" قال المفسرون: كانت المرأة إذا أدركها المخاض احتفرت حفيرة وجلست على شفيرها، فإن وضعت ذكراً أظهرته، وظهر السرور على أهله(٢)، وإن وضعت أنثى استأذنت مستولدها، فإن شاء أمسكها على هون وإن شاء أمر بإلقائها في الحفيرة ورد التراب عليها وهي حية لتموت"(٣).

وإذا كان يجب تأنيث الفعل إذا سبق بمؤنث حقيقي أو مجازي، وتأنيثه يقتضي ضميرا يكون فاعلا مؤنثا مناسبا لمرجعه، فإن الفعل قد ذكّر وحقه في الظاهر التأنيث، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة:٧٠]، ففي هذه الآية جاء الفعل﴿تَشَٰبَهَ﴾ مذكرا، وهو يقتضي مجيء فاعله ضميرا مقدرا مذكرا(٤)، وهذا الفعل قد سبق بكلمة ﴿ٱلْبَقَرَ﴾ والبقر يؤنثها العرب في أغلب كلامهم، وقد جاء في حديث أصحاب الغار الطويل عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عَنْ النَّبِيِّ –ﷺ– وفيه"وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَةٍ، فَأَعْطَيْتُهُ وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ، فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ قَالَ: فَقُلْتُ: مَا

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٠٢/٣)، والكشاف للزمخشري (٦١٣/٢)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢٠٤/٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٨٩/١٢)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي(٢٠٤/٣).

(٢) لعل في النص سقط، والصواب: وظهر السرور على أهله.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١٨٥/١١).

(٤) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الجرجاويّ الأزهري(٤٥١/٢).

أَسْتَهْزِئُ بِكَ، وَلَكِنَّهَا لَكَ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا؛ فَكُشِفَ عَنْهُمْ"(١).

ومثله حديث في فرار المسلمين يوم غزوة حنين وفيه"...فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- :"أَي عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَ-كَانَ رَجُلاً صَيِّتًا- فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِى: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِى عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا. فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ..."(٢).

وبعد هذا العرض يلتمس الباحث دلالة بلاغية من وراء تذكير الفعل في قوله تعالى عنهم: ﴿تَشَٰبَهَ﴾، ولم يقولوا: البقر تشابهت، وبما أن الآيات في سياق بيان عناد اليهود وضلالهم، وتتابع استفهاماتهم عن حقيقتها، ولونها، فمن عنادهم قوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ثلاث مرات، ولم يقولوا ربنا، ثم أنهم لم يستجيبوا للأمر من أول وهلة، بل شددوا فشدد الله عليهم بأوصاف كلفوا أنفسهم بها، وبعد هذا كله يلتمس الباحث في قولهم: ﴿تَشَٰبَهَ﴾ ملمحا بلاغيا يدل حيث يغوص هذا الفعل المذكر إلى أعماق دواخلهم فيكشف مزيد عنادهم، فهم مأمورون بذبح بقرة مؤنثة، أيَّ بقرة شاءوا (٣)، لكن سؤالهم الوصف واللون ضيق الأمر وحدده بمعين، فذكّروا الفعل وكأنهم لا يرون إلا بقرا ذكرا، لذلك لم يقولوا: تشابهت؛ لأنهم لو أنثوا الفعل كان ما اشتبه عليهم مقبولا الاشتباه فيه، ولكنهم ذكّروا فكان عنادا غير مقبول، فأسهم تذكير الفعل بما تنطوي عليه سرائرهم من عناد، والله أعلم.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي (ص: ٥٢٧-٥٢٨) رقم الحديث: ٢٢١٥.

(٢) ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٣٩٨/٣) رقم الحديث: ١٧٧٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٤٤/٣).

ويرى الأخفش أن سبب تذكير الفعل جعل ﴿ٱلۡبَقَرَ﴾ مذكرا مثل التمر والبسر[1]، واكتفى بتعليل ذلك بقوله:" كل ما كان من نحو ﴿ٱلۡبَقَرَ﴾ ليس بين الواحد والجماعة فيه إلا الهاء، فمن العرب من يذكره، ومنهم من يؤنثه، ومنهم من يقول: هي البر والشعير" [2].

وذكر النحاس أن التذكير للبقر جاء لكونه بمعنى الجميع[3]، وذكر الطبري أن من شأن العرب تذكير كل فعل جمع كانت وحدانه بالهاء وجمعه بطرح الهاء وتأنيثه[4]. ومن تفسير الزمخشري للآية يظهر أنه جعل مرجع الضمير مؤنثا، فقال:" أي إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح"[5].

وقال الألوسي:" والبقر اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء، ومثله يجوز تذكيره وتأنيثه"[6].

وذكر السيوطي أنها قرئت تشابهت، وعلل تذكير الفعل في هذا الموطن بأن كل أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير حملا على الجنس، والتأنيث حملا على الجماعة[7].

وإذا كان هؤلاء العلماء الإجلاء قد اجتمعوا على جواز التذكير والتأنيث؛ استنادا إلى ما جرى عليه الكلام العربي، فإن الباحث يسعى ليلتمس ملمسا بلاغيا يبين سبب اختيار أحد الوجيهن دون الآخر، لا سيما إذا كان المختار ليس هو الأشهر في

---

(١) ينظر: معاني القرآن للأخفش(١/ ١١١).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(١/ ١١٢)، وينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٧١).

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(١/ ٦٠).

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/ ١٠٤).

(٥) الكشاف للزمخشري (١/ ١٥١).

(٦) روح المعاني للألوسي (١/ ٢٨٩).

(٧) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٤٥)، و البرهان في علوم القرآن(٣/ ٣٦٨)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/ ٤٧١).

الاستعمال العربي، وهذا هو الذي حمل الباحث على وجه التذكير به في صدر تحليل هذه الآية.

والأنعام مؤنثة ولقد عاد إليها الضمير مذكرا في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾ [النحل:٦٦]، فجاء الضمير في قوله:﴿ بُطُونِهِ ﴾ مذكرا ومرجعه مؤنث وهي:﴿ الْأَنْعَامِ ﴾ فما السر في مخالفة ما يقتضيه الظاهر؟ لا سيما أن مطابقة ما يقتضيه الظاهر جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾[المؤمنون:٢١].

وقد وقف العلماء على هذا التلوين بين الموضعين، فعلل الفراء ذلك في قوله: ﴿ بُطُونِهِ ﴾ بقوله: "ولم يقل: ﴿ بُطُونِهَا ﴾ والأنعام هي مؤنثة؛ لأنه ذهب به إلى النّعم، والنّعم ذكرٌ. وإنما جاز أن تذهب به إلى واحدها؛ لأن الواحد يأتي في المعنى على معنى الجمع"[(١)].

وذكر أبو عبيدة أن الأنعام يذكر ويؤنث[(٢)]، ويرى ابن قتيبة مثل رأي الفراء بأنه ذهب إلى النعم، والنعم تذكر وتؤنث[(٣)]، وكذلك قال الزركشي وأضاف أنه حمل على معنى الجمع، وذكر قولا للكسائي أي بطون ما ذكرنا[(٤)]،و ذكر الألوسي أن الضمير للأنعام وهو اسم جمع يذكر ويؤنث[(٥)].

أما العكبري فقد ذكر ستة أوجه لمرجع الضمير: الأول: أن الأنعام تذكر وتؤنث، فذكّر الضمير على إحدى اللغتين. والثاني: أن الأنعام جنس، فعاد الضمير إليه على

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(١/١٢٩).

(٢) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/١٥).

(٣) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٢٤٥).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/٣٦٠)، و(٣/٣٦٤).

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٧/٤١٤).

المعنى. والثالث: أن واحد الأنعام نَعَم، والضمير عائد على واحده، الرابع: أنه عائد على المذكور، فتقديره: مما في بطون المذكور، والخامس: أنه يعود على البعض الذي له لبن منها. والسادس: أنه يعود على الفحل؛ لأن اللبن يكون من طرق الفحل الناقة، فأصل اللبن ماء الفحل ؛ وضعفه؛ لأن اللبن وإن نسب إلى الفحل فقد جمع البطون، وليس فحل الأنعام واحدا، ولا للواحد بطون(1).

وهناك قول يقارن بين الآيتين ففي آية النحل قال: ﴿بُطُونِهِۦ﴾؛ لأنه لم يذكر إلا اللبن، واللبن يخرج من بعض الإناث ليس من كلها، فعاد الضمير مذكرا، والتقدير: وإن لكم فى بعض الأنعام. أما آية المؤمنون فإنها لم تصرح باللبن وصرحت بأن في كل الأنعام نفعا، ومنها ما يؤكل، وهذا يقع على كل الأنعام، فإنه لما عطف ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض أنث الضمير؛ ليعود إلى كل الأنعام(2).

وبعد أن استضاء الباحث في آراء العلماء المتنوعة، فإنه سيوسع دائرة السياق فيقارن بين آيات النحل وآيات المؤمنون؛ ليستنبط سبب تذكير الضمير في قوله: ﴿بُطُونِهِۦ﴾ في النحل، وتأنيثه في المؤمنون بقوله: ﴿بُطُونِهَا﴾ فيلحظ أن المذكورات في سورة النحل أعجب من المذكورات في سورة المؤمنون، ففي سورة النحل قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٦-٦٩].

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(٢/٨٠٠-٨٠١)، وينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٠/٢٣٢)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٣/٤٠٥).

(٢) ينظر: أسرار التكرار في القرآن للكرماني (ص:١٦٢)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لابن يعقوب الفيروزآبادي (١/٢٨٥).

أما في سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون:١٩-٢١].

فأولا في آيات سورة النحل: النعمة المذكورة عجيبة في تكوينها، فمن بين فرث ودم يخرج لبنا سالما من رائحة الفرث، وحمرة الدم، ومصدره الأول هو الفحل بدلالة الضمير المذكر فترادفت بذلك العجائب. وثمرات النخيل والأعناب تتحول إلى سكَرا، فيأتي الضمير المذكر ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ مخالفا للثمرات المؤنثة، ليعود إلى "فِحَال النخل"[(١)] وهو ذكران النخل؛ أو إلى طلعه الذي تأبرت منه النخلة. وما تأكله النحل تخرجه عسلا فيه شفاء مخالفة في ذلك جميع الحيوانات.

ثانيا في آيات سورة المؤمنون: فجنات النخيل والأعناب تخرج فواكه كثيرة ولم يذكر سكَرا، وشجرة الزيتون تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، والأنعام نسقى مما في بطونها وفيها منافع ومنها ما يؤكل، ولم تذكر النحل، فكانت آيات سورة النحل أعجب؛ لأن اللبن والسكَر والعسلَ عجيب في تكوينه ومصدره. وهذه الغرابة تجعل الباحث يميل إلى أن اللبن سببه الفحل، كما أن السكَر سببه فحال النخل، فعاد الضمير مذكرا، لأن الآيات اشتملت على ما يثير العبرة من أصله، ثم إلى ما آل إليه، أما آيات المؤمنون فقد جاء كل شيء على طبيعته فالنخيل والأعناب تخرج فواكه، والأنعام تخرج اللبن مع أنه لم يصرح به، وفيها منافع ومنها يؤكل، وهذا أمر ظاهر فعاد الضمير مؤنثا إلى الظاهر على نسق ما جاءت به الآيات.

وبصورة أخرى؛ يرى الباحث أن كل آية من آيات سورة النحل المذكورة جاءت على ثلاث مراحل، أما آيات سورة المؤمنون فجاءت على مرحلتين فقط.

(١) روى ابن سيده: أنه لا يقال: فحل إلا في ذي روح؛ ينظر: المخصص لابن سيده، كتاب النحل، لقاح النخل وفحاله، (٢١٤/٣).

فآيات سورة النحل خرج الحليب من الأنعام، ثم سببه الفحل فعاد الضمير إليه مذكرا، واتخذ السكر من ثمرات النخيل والأعناب، وسببه الفحال، وكذلك يخرج العسل ومصدره النحل ثم الثمرات، عاد الضمير إلى بطون النحل مؤنثا فقال: ﴿بُطُونِهَا﴾ لأن العبرة هنا، في كون الخارج من بطنها شراب فيه شفاء، بخلاف غيرها. أما آيات سورة المؤمنون فعلى مرحلتين فقط فالنخيل والأعناب تنتج فواكه، والزيتون ينتج دهنا وصبغا، والأنعام تنتج لبنا مفهوما من السياق، فقوّت المراحل الثلاث عود ضمير التذكير إلى الفحل والفحال، والله أعلم. وقد يعود ضمير التذكير على الثدي فيصبح هو المرحلة الثالثة؛ وذلك لأنه لما صرح بذكر اللبن في آية سورة النحل عاد الضمير مذكرا إلى الضرع؛ لأنه وعاء اللبن، والتقدير من بطون ضرعها، ولما لم يصرح بذكر اللبن في آية سورة المؤمنون عاد الضمير مؤنثا إلى الأنعام.

ويستأنس الباحث بما ذكره الرازي عن ابن عباس رضي الله عنه:" أنه قال: إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثا وأعلاه دما وأوسطه لبنا، فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو"(١).

وقد ذكر الأخفش تعليلا لتذكير الضمير العائد إلى الثمرات في آية النحل في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ فقال: "ولم يقل: منها، لأنه أضمر (الشيء) كأنه قال: ومنها شيء تتخذون منه سكرا"(٢). وذكر الطبري هذا القول وعدل عنه إلى قوله: "وهو عندنا عائد على المتروك، وهو (ما)"(٣). والتقدير عنده أي ما تتخذون منه، وذكر أبو حيان أن حذف ما لا يجوز على مذهب البصريين، وذكر أن الزمخشري أجاز أن يكون هناك موصوف محذوف صفته تتخذون(٤). وعند الزمخشري محذوف تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا؛ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٠/٢٣٢).
(٢) معاني القرآن للأخفش(٢/٤١٧).
(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٤/٢٧٥).
(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٦/٥٥٧)، و الكشاف للزمخشري (٢/٦١٧).

من بعضها السكر، ثم أرجع الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير[1]، وأما البيضاوي فيرى أن الضمير ذكر لأجل المضاف المحذوف الذي هو العصير أو لأن الثمرات بمعنى الثمر[2].

أما الألوسي فقدر ثمرا، أي ثمر تتخذون منه، وجعل ضمير التذكير عائدا إلى هذا المقدر أو إلى الثمرات المؤولة بالثمر؛ لأنه جمع أريد به الجنس، وذكر أن فائدة الصيغة الإشارة إلى تعداد الأنواع[3].

وأما مجيء الخبر المشتق خبرا مذكرا تارة، ومؤنثا أخرى في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٩]. فإن ذلك -والله أعلم- راجع إلى كون ما في بطون هذه الأنعام مجهول الجنس، فقد يكون ذكرا أو أنثى، وقد يكون حيا أو ميتا، والخبر يجب أن يطابق المبتدأ من حيث التذكير والتأنيث، والمبتدأ هنا هو الاسم الموصول﴿مَا﴾ ولكن الملاحظ أن اسم الفاعل ﴿خَالِصَةٌ﴾جاء على التأنيث، وجاء الاسم المعطوف وهو اسم المفعول ﴿مُحَرَّمٌ﴾ على التذكير، ثم أعقب ذلك بقوله تعالى عنهم: ﴿يَكُن مَّيْتَةً﴾ فذكّر الفعل، وأنث خبره، فلم تكن المطابقة في الظاهر. ولا شك أن وراء هذا التباين معنى بليغا. ففي قولهم: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أنثوا ﴿خَالِصَةٌ﴾ وذكروا ﴿مُحَرَّمٌ﴾ ليحيطوا بالاحتمالين، سواء أكان ما في البطن ذكرا أم أنثى؛ فهو محرم على الأزواج وحلال على الذكور، فالتلوين بين التذكير والتأنيث كشف الستار عن ظلمهم.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٦١٧/٢).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢٣٢/٣)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٢٥/٥).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤١٧/٧).

ثم قالوا: ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةً فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ فذكروا الفعل الناسخ ﴿يَكُن﴾ وأنثوا خبره ﴿مَّيۡتَةً﴾ ليشمل كلا النوعين، والجمع بين التذكير والتأنيث يبرز جورهم وظلمهم في جميع الأحوال. فالخبر ﴿خَالِصَةٌ﴾ إذا كان ما في البطن مؤنثا، والمعطوف ﴿مُحَرَّمٌ﴾ إذا كان ما في البطن مذكرا، و﴿يَكُن﴾ للمذكر والخبر ﴿مَّيۡتَةً﴾ للمؤنث. فالتنويع بين التذكير والتأنيث الغرض منه شمول الصنفين، والمشتقان يعملان عمل فعلهما فيقدر ضمير مؤنث بعد اسم الفاعل، وضمير مذكر بعد اسم المفعول، وكذلك بعد الفعل الناسخ، والحكم على هذه الألفاظ وضمائرها واحد.

وقد تعددت آراء العلماء في ذلك فأشار الفراء إلى أنها قرئت، خالصا وخالصةُ، وذكر أن تأنيث ﴿خَالِصَةٌ﴾ لتأنيث الأنعام؛ لأن ما فِي بطونِها مثلها فأنث لتأنيثها، ومن ذكّره فلتذكير (ما)[1]. فذكروا أن التاء في قوله: ﴿خَالِصَةٌ﴾ زيدت على التأكيد والمبالغة، كما فُعل ذلك بالراوية والنسابة والعلامة، فأنث للمبالغة في الخلوص[2]، وذكر النحاس ثلاثة أقوال؛ الأول: أن التأنيث على المبالغة وعزى القول للكسائي والأخفش، والثاني: أن التأنيث لتأنيث الأنعام، وخطأ قوم هذا؛ لأن ما في بطونها ليس منها، وليس كقوله: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف:١٠]؛ لأن بعض السيارة سيارة منهم، ولم يلزم النحاس الفراء بذلك؛ لأن ما في بطون الأنعام أنعام، وأما القول الثالث: وهو

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣٥٨/١)، وينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني(٢٣٣/١)، والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٥٤٢/١).

(٢) ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني(٢٣٣/١)، والكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (١٩٦/٤).

الأحسن لدى النحاس؛ هو أن التأنيث على معنى ما، والتذكير على اللفظ، والدليل على هذا أن بعده ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ على اللفظ[1].

وقال ابن عاشور في سبب التأنيث والتذكير: "وتأنيث ﴿خَالِصَةٌ﴾؛ لأن المراد بما الموصولة (الأجنة) فروعي معنى (ما) وروعي لفظ (ما) في تذكير ﴿مُحَرَّمٌ﴾"[2].

وقد يتكرر الضمير بصور متلونة بين تذكير وتأنيث، ويتجلى ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤].

فيلاحظ تلوين الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ و﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ فأنث الضميرين الأخيرين لأن مرجعهما الحجارة وهي مؤنثة، ولكن هذا التأنيث لم يتصف به الضمير الأول، بل جاء مذكرا؛ لأنه لم يعد إلى الحجارة لكنه عاد إلى الاسم الموصول (ما) حملا على اللفظ كما ذكر صاحب اللباب[3]. وقال أبو البقاء العكبري: ولو كان في غير القرآن لجاز (منها) على المعنى[4].

فالحجارة في الآية ثلاثة أنواع:

الأول: ما يتفجر منه الأنهار.

الثاني: منها ما يشقق فيخرج منه الماء.

الثالث: منها ما يهبط من خشية الله.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(٣٤/٢)، والكشاف للزمخشري (٧١/٢).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٣/٧).

(٣) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٨٦/٢).

(٤) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(٧٩/١).

فلما سبق الاسمُ الموصول الضميرَ جاء الضمير مذكرا؛ لأن الاسم الموصول مذكر باللفظ، ولما سبق الضميرُ الاسم الموصول جاء الضمير مؤنثا؛ لأنه عاد إلى الحجارة، ولكن الأفعال التي جاءت بعد الاسم الموصول جاءت مذكرة، فقال: ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ و﴿يَشَّقَّقُ﴾ و﴿يَهْبِطُ﴾، فدلّ ذلك على أن التذكير لأن المرجع (ما) الموصولة.

وذكر الفراء أن تذكير الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ لأن البعض حجر وذلك مذكر، أو أن هذا البعض جمع في المعنى فذكّر بتذكير بعض، وذكَر أنها في قراءة أبي: وإن من الحجارة لما يتفجر منها الأنهار[1].

وعلى قول الفراء فقد يكون تذكير الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ إشارة إلى لفظ حجر، أي من الحجارة حجر، وجاء التذكير لتعظيم هذا الحجر؛ لأن نفعه أعظم من نفع الحجارة الأخرى، أما الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ فقد جاء مرتين عائدا إلى الحجارة؛ ولعل في ذلك معنى تكثير الحجارة التي تتشقق فيخرج منها الماء، والتي تهبط من خشية الله، والله أعلى وأعلم.

وقد جاء الضمير مخالفا لمرجعه في موطن، ومطابق له في موطن آخر وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران:٤٩]، وفي آية المائدة جاء الضمير مؤنثا مطابقا مرجعه فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠]، فيلحظ في الآيتين اختلاف الضمير العائد إلى هيأة، ففي آية سورة آل عمران عاد مذكرا، فقال: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ وفي آية سورة المائدة قال: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ فما السر وراء تذكير الضمير في الأولى، وتأنيثه في الثانية؟

---

(١) معاني القرآن للفراء(١/٤٩).

لا شك أن هذا التلوين دال على دقة اختيار الكلمة، ومن خلال السياق يتبين أن المتحدث في آية سورة آل عمران هو عيسى – عليه السلام – يخاطب قومه، أما المتكلم في آية سورة المائدة فهو الله والمخاطب عيسى –عليه السلام– بدليل قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ [الآية ،المائدة:١١٠]، فعندما كان المتحدث عيسى –عليه السلام– يخاطب قومه، جاء ضمير التذكير ليعود إلى ما آلت إليه الهيأة المخلوقة من الطين؛ لأن ذلك أبلغ في إظهار المعجزة، فالمتحدث هو رسولهم والمعجزة آية من آياته. وعندما ذكّر الله عيسى –عليه السلام– بنعمته عليه جاء الضمير مؤنثا، ليعود على الهيأة المخلوقة من الطين قبل أن تكون طيرا؛ لأن الأبلغ ذكر النعمة في أول أمرها، فالمتحدث هو المنعِم، والمنعَم عليه نبي.

وتلك هي البلاغة فالضمير تغير بتغير المخاطِب والمخاطَب، فذكّر الضمير لما كان المخاطبون منتظرين المعجزة، فجاء الضمير عائدا إلى المنتظَر، فذكّر لأن الطير مذكّر، ولم يعد إلى الهيأة لأن الهيأة لا غرابة فيها، ولكن الغرابة فيما تؤول إليه. ولما كان المخاطَب عيسى – عليه السلام – وهو الذي اصطفاه الله لرسالته ناسب التذكير بالنعمة في أول شأنها؛ لأن المخاطَب نبي لا يجحد من ذلك شيئا، ثم يتكاتف الضميران المختلفان في الآيتين ليبرزا المشهد من أوله حتى نهايته، فتجتمع النعمة والمعجزة.

وقد تحدث العلماء الفضلاء من أهل اللغة والتفسير والبلاغة عن ذلك فمنهم من ذكر أن الضمير المذكر في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى الطين، وممن قال بذلك الفراء(١)، والثعلبي(٢)، وابن عطية وزاد أو فأنفخ في المذكور(٣)، وذكر الرازي أنه عائد إلى الطين المصور(٤) وأعاده النحاس إلى الطير وذكر أنه يذكر ويؤنث(١)، وممن أعاده إلى الطير

(١) ينظر: معاني القرآن(٢١٤/١).

(٢) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٧١/٣).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٣٩/١).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٠/٨).

الطبري[٢] ومنهم من جعله راجعا إلى الكاف من كهيأة الطير، فالكاف الاسمية بمعنى مثل، أي: فأنفخ في ذلك الشيء المماثل فيصير كسائر الطيور، قاله الزمخشري[٣]، ورفضه ابن هشام واحتج بأنه لم يسمع في الكلام مررت بكالأسد[٤] ، واستغرب الكرماني من إعادته إلى الكاف[٥]، وهو قول قال به من بعد الزمخشري البيضاوي[٦] وأبو حيان وذكر أنه يعود على: الكاف، أو على موصوفها وتقدير الموصوف عنده: هيأة مثل هيأة[٧]، وتابعهم الكفوي[٨]، وأبو السعود[٩]، وسبب عدم عوده عندهم على الطير هو أن النفخ ليس في الطير نفسه. وجعله الألوسي عائدا إلى الهيأة ولكن بمعنى الشيء المهيأ[١٠]، وهذا ما أختاره الكرماني من قبل[١١]، وقال ابن عاشور يعود إلى عائد إلى ذلك الموصوف المحذوف الذي دلت عليه الكاف ويعني بذلك هيأة، أي هيأة مثل هيأة الطير[١٢]، وأما ضمير التأنيث في آية المائدة في: ﴿فِيهَا﴾ فقد ذكر البعض أنه

=

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(١/١٦٠).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥/٤٢٠).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/٣٦٤).

(٤) قال ابن هشام: وأما الكاف الاسمية الجارة فمرادفة لمثل، ولا تقع كذلك عند سيبويه والمحققين إلا في الضرورة ... وقال كثير منهم الأخفش والفارسي: يجوز في الاختيار، فجوزوا في نحو زيد كالأسد أن تكون الكاف في موضع رفع، والأسد مخفوضا بالإضافة... ولو كان كما زعموا لسمع في الكلام مثل مررت بكالأسد. ينظر: مغني اللبيب(ص: ٢٣٨-٢٣٩).

(٥) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١/٢٥٦).

(٦) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/١٨).

(٧) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/١٦٣).

(٨) ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص: ٧٥٥).

(٩) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢/٣٩).

(١٠) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢/١٦١).

(١١) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١/٢٥٦).

(١٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/١٠١).

ذهب به إلى الهيأة، فأنث لتأنيثها ذكره الفراء[1]، والطبري[2]. وعند ابن عطية يحتمل أن يعود على الهيأة، أو على تأنيث لفظ الجماعة[3]، وقد ذكر ابن عطية اضطرابات المفسرين في الضميرين عند وقوفه على موضعه في المائدة[4]، وذكر الألوسي أن الضمير ذكّر في آل عمران مراعاة للمعنى، كما أنث في المائدة مراعاة للفظ، قيل: وصح هذا لعدم الإلباس[5].

---

(١) ينظر: معاني القرآن(١/ ٢١٤).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٥/ ٤٢٠).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٩).

(٤) فقال ابن عطية في هذه الاضطرابات:" قال مكي: هو في آل عمران عائد على الطائر، وفي المائدة عائد على الهيأة، قال ويصح عكس هذا، قال غيره: الضمير المذكر عائد على الطين. قال القاضي أبو محمد: ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطير ولا على الطين ولا على الهيأة؛ لأن الطين والطائر الذي يجيء على الطين على هيأة لا نفخ فيه البتة، وكذلك لا نفخ في هيأته الخاصة بجسده وهي المذكورة في الآية، وكذلك الطِّينِ المذكور في الآية إنما هو الطين العام ولا نفخ في ذلك. وإنما النفخ في الصور المخصوصة منه التي رتبتها يد عيسى –عليه السلام– فالوجه أن يقال في عود الضمير المؤنث: إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة، وذلك أن قوله : ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ يقتضي صورا أو أجساما أو أشكالا، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي يقتضيه ﴿تَخۡلُقُ﴾ ، ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف في معنى المثل؛ لأن المعنى وإذ تخلق من الطين مثل هيأة، ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيمن يجوّز أن يكون اسما في غير الشعر، وتكون الكاف في موضع نصب صفة للمصدر المراد تقديره، وإذ تخلق خلقا من الطين كهيأة الطير". ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٢٥٨).

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢/ ١٦١).

وروى الكرماني أقوالا في توجيه الضمير المذكّر، فروى أنه يعود إلى الطير، وقيل إلى الطين، وقيل إلى المهيأ، وقيل إلى الكاف؛ فإنه في معنى مثل، وفي المائدة يعود إلى الهيأة[1].

وقد أعاد الرازي الضمير المذكر في آل عمران إلى الطين المصور[2]، فقد ذكر عند وقوفه على ضمير التأنيث في المائدة الفرق بين تذكير الضمير في آل عمران وتأنيثه في المائدة فذكر:" أن قوله: كهيأة الطير؛ أي هيأة مثل هيأة الطير، فقوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ تغير الضمير للكاف، لأنها صفة الهيأة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيأة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء. إذا عرفت هذا فنقول: الكاف تؤنث بحسب المعنى لدلالتها على الهيأة التي هي مثل هيأة الطير، وتذكّر بحسب الظاهر. وإذا كان كذلك، جاز أن يقع الضمير عنها تارة على وجه التذكير، وأخرى على وجه التأنيث"[3].

وجمع ابن عادل ستة أوجه في مرجع الضمير، الأول: أنه يعود على الكاف عند من يرى أنه اسم. الثاني: أنه عائد إلى معنى الهيأة وهو الشيء المهيأ فعاد إلى المعنى دون اللفظ. الثالث: أنه عائد على ذلك المفعول المحذوف، أي: فأنفخ في ذلك الشيء المماثل لهيأة الطير. الرابع: أنه عائد على ما وقعت عليه الدلالة في اللفظ. وهو أني أخلق. ويكون الخلق بمنزلة المخلوق. الخامس: أنه عائد على ما دَلَّت عليه الكاف من معنى المثل، أي أخلق من الطين مثل. السادس: أنه عائد إلى الطين[4].

والباحث رأى أن اختلاف الضميرين، حيث التلوين في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ و﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ راجع إلى تغير المتكلم والمخاطَب، في الآيتين فالمتكلم في آل عمران

(١) ينظر: أسرار التكرار في القرآن(٨٩-٩٠).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٠/٨).

(٣) ينظر: المصدر نفسه(٤٦٠/١٢).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٤٣/٥).

عيسى، والمتكلم في آية المائدة الله جلّ جلاله، وبالضميرين يكتمل المشهد، حيث صور البداية والنتيجة.

وفي موضع آخر تجمع الظهور وتضاف إلى ضمير الواحد، وليس للواحد إلا ظهر واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]، ولما كان لكل مركوب ظهر واحد، فقد جاء على خلاف الظاهر تذكير الضمير الذي يقتضي التأنيث، وكذلك مخالفة الجمع لمقتضى الظاهر في إضافته لضمير الواحد، في هذه الآية.

ومن هذا المعنى قد يظهر للناظر من أول وهلة أن الضمير في قوله: ﴿ ظُهُورِهِۦ ﴾ جاء مخالفا لمرجعه، فجاء مذكرا، وقد سبق بالفلك والأنعام وهما مؤنثتان[1]، وأن هذا

---

(١) أنثت الفلك في مواضع من القرآن في المفرد والجنس وذلك في قوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٧]، وقوله: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:٤٢]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس:٢٢]، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقوله: ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم:٤٦]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ [لقمان:٣١]. أما الأنعام فقد أنث في جميع مواضعها التي عاد الضمير إليها فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٣٩]، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل:٨٠]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [غافر:٧٩]، وغير ذلك، وقد بين الباحث مجيء الضمير ﴿ بُطُونِهِۦ ﴾ [النحل:٦٦]، من قبل.

الضمير المفرد أضيف إليه ما لا يكون إلا للجمع. وأجيب عن تذكير الضمير بأن مرجعه الاسم الموصول ﴿مَا﴾ فاكتسب الضمير التذكير منه، وستأتي أقوال العلماء فيه.

لكن الملاحظ في هذه الآية أنه لم يضف الظهر مفردا إلى ضمير الواحد أو الواحدة، ولم تضف الظهور إلى ضمير غير العاقلات فتضاف إلى ضمير الغائبة العائد إلى معنى الاسم الموصول، حيث أن الفلك والأنعام مؤنثتين، فما قيل: ظهورها، كما قال: ﴿وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام:١٣٨]، بل قال جلّ شأنه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ وقال: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فتكرير الضمير المفرد المذكر، وجمع الظهور، يحتاج إلى وقفة من الباحث بعد استضاءة بأقوال العلماء.

فمنهم من تكلم عن سبب تذكير الضمير، ومنهم من تكلم عن سبب إضافة الظهور إلى الضمير المفرد، فذكر أبو عبيدة أن تذكير الضمير لما[(١)]، أي: ما الموصولة. وقال بهذا القول الثعلبي[(٢)]، وعبد القاهر الجرجاني[(٣)] والرازي[(٤)]، والألوسي[(٥)]، وكذلك علل الأخفش تذكير الضمير بجواز عوده إلى الاسم الموصول(ما) في قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾[(٦)]، وقال في موطن آخر أي: على ظهور هذا الجنس[(٧)]. ويؤول ذلك الفراء بأن ضمير المفرد بمعنى الجمع كالجنود والجيش، فجاءت الظهور للمعنى[(٨)]، وقال به الطبري[(٩)]، ومال عبد القاهر إلى مثل ذلك في تفسيره[(١)]، وأشار إليه الرازي[(٢)] وذكره

---

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٠٢/٢).

(٢) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٣٢٩/٨).

(٣) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني(١٥٢١/٤).

(٤) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٢٥٩).

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٦٧/١٣).

(٦) ينظر: معاني القرآن للأخفش(١٣/٤).

(٧) ينظر: المصدر نفسه(٣٣٩/٦).

(٨) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢٨/٣).

(٩) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥٥٧/٢٠).

الألوسي[٣]، وعند ابن عادل أن جمع الظهور فيه مراعاة لمعنى (ما) وتوحيد الضمير مراعاة للفظ(ما)[٤]. وذكر الطبري اختلافات أهل العربية في توجيه الهاء، حيث قيل يعود على(ما)، وقد يعود على الأنعام والأنعام تذكر وتؤنث، وقيل الواحد بمعنى الجمع كالجنود والجيش، وبذلك يرى أن جمع الظهور كان مراعاة للمعنى حيث الجنس. وقيل جمع الظهور لأن الفلك بتأويل الجمع، ووحد الهاء لأن أفعال كل واحد تأويله الجمع توحد وتجمع مثل: الجند منهزم ومنهزمون[٥].

وجميع هذه التأويلات محتملة وأقواها عود الضمير إلى الجنس، ولكن الباحث لديه تأويل لم يكن ماثلا في زمن أولئك العلماء الإجلاء، بل أنجبته الثورة الصناعية المتطورة في الزمن الحاضر، ولعل برهان ما سيذهب إليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل:٨]، فالمركوب في عصر الأوائل ليس له إلا ظهر واحد، فهو إما بعير أو حصان أو بغل أو حمار، أما اليوم فقد وجد المركوب الذي له عدة ظهور، ويجتمع فوق ظهوره خلق كثير، وهذا متمثل في الفلك التي لها أداوار وطوابق كثيرة، وهي نوع من الفلك، دلّ عليه:﴿ مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾، ويستوي عليه جماعة بدلالة قوله: ﴿ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وفي هذا إعجاز مستقبلي أفصحت عنه الأزمنة القادمة، حيث وجد في هذا العصر المركوب الذي له عدة ظهور، وهو من خلق الله سبحانة وتسخيره لعباده، ثم الضمير الآخر لم يعد إلى الظهور في قوله: ﴿ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فلم يقل: عليها، ولكن جاء الضمير المذكر ليعود إلى عين المركوب الذي له ظهور؛ لأنه محل الإعجاز، ثم جاء بميم الجمع، ليكشف لنا أن هؤلاء الجماعة

=

(١) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني(٤/١٥٢١).

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٢٥٩).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٣/٦٧).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٨/٤٦٣).

(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن(٢٠/٥٥٧).

يركبون مركوبا واحدا بدلالة ضمير الإفراد في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ وهذا المركوب له عدة ظهور، فيخلص الباحث إلى أن الضمير عاد إلى (ما) الموصولة، أو إلى المركوب المفهوم من اللفظ، لذلك ذكّر، وتعدد ظهوره إشارة إلى موطن الإعجاز، فالفلك اليوم أصبحت ذات أدوار، وكل طابق يركب عليه هو بمثابة الظهر بالنسبة للدابة، ويظهر في هذا جمال الاستعارة ودورها في تقريب الصورة، والله أعلم.

والأفعال المعتلة الآخر والتي أصل حرف علتها واو؛ تتحد في البنية سواء أأسندت إلى واو الجماعة أم إلى نون النسوة، والقرينة هي المعول عليها في معرفة المسند إليه؛ ولأن ذلك مما يحصل فيه اللبس وهو لا يخالف مقتضى الظاهر فإن الباحث سيمثل عليه بما يتيسر، فالفعل﴿ يَرْجُونَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور:٦٠] قال الرازي قوله تعالى في النساء: ﴿ لَا يَرْجُونَ ﴾ كقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾[١]، فالفعل: ﴿ يَرْجُونَ ﴾ قد يُظَن أنه أسند إلى واو الجماعة الخاصة بالعقلاء في أول نظرة، لكن النظر إذا أعيد في السياق تبين أن القرائن اللفظية لا تتوافق مع النظرة الأولى، فالقرائن ومنها ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ ﴾ و ﴿ ٱلنِّسَآءِ ﴾ تكشف أن الفعل أسند إلى نون النسوة وأما الواو فواو الفعل، على خلاف قوله تعالى: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤]، فإن الفعل أسند إلى واو الجماعة، والقرينة أنه خطاب للمجاهدين، وأسندت الأفعال الأخرى إلى واو الجماعة، وبذلك يتضح أن الفعل لم يخالف مقتضى الظاهر فتمخض عن ذلك كلمة متحدة البنية في الإسنادين، والقرينة تبين المرجع.

ومثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ [البقرة:٢٣٧] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٤/٤٢٠).

أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣] فالفعلان ﴿يَعْفُونَ﴾ و﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ مسندان إلى نون النسوة، والقرينة للأول أن المال للمطلقات والحديث عنهن، والقرينة في الثاني: حالية ولفظية فحديث النسوة نتج عنه جمعهن، وإكبارهن يوسف، واعتراف امرأت العزيز بمراودته وإصرارها على تنفيذه أمرها أو يسجن. وجاء ضمير النسوة؛ والمراوادة واحدة وهي امرأة العزيز؛ لأن النسوة أكبرن يوسف، وعذرن المرأة، فلذلك ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف:٣٢]، ثم صرحت بالمراودة والاستمرار مع الإصرار، وهذا التصريح مضمونه قبول النسوة الأمر وميلهن إلى ذلك، فجاءت نون النسوة لتبين الشراكة في ابتغاء السوء، والتي تفهم من ظل السياق.

وقال السيوطي في قوله تعالى:﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ [البقرة:٢٣٧]" فإنه قد يتوهم أن الواو في ﴿يَعْفُونَ﴾ ضمير الجمع فيشكل إثبات النون وليس كذلك، بل هي فيه لام الكلمة، فهي أصلية والنون ضمير النسوة، والفعل معها مبني ووزنه: "يفْعَلْن" بخلاف ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ ﴾ فالواو فيه ضمير الجمع وليست من أصل الكلمة"(١).

وقال ابن الشجري:" والنون ضمير جمع المؤنّث، تثبت فى الأحوال الثلاث، ألا تراها ثبتت فى موضع النصب، فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ فيعفون هاهنا: يفعلن"(٢).

ومما سبق من شواهد ودراسة يلاحظ الباحث أن من أغراض تذكير ضمير المؤنث التفسير كما في بيت الحطيئة، أو عوده إلى المعنى المقدر باسم الإشارة، أي: "كأنّ ذاك"

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣١٨/٢).

(٢) أمالي ابن الشجري(١٥٣/٢).

كما في بيت رؤبة؛ وذلك لغرض الإيجاز، ومنه في القرآن: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾، فالهاء عائدة إلى ماذكر، أو إلى اسم الإشارة ذاك. ولم يأت الضمير مؤنثا كيلا يتوهم عوده إلى القلوب كما سبق من قول ابن عاشور، وألمح الشنقيطي حسب معنى أحد قوليه أنه من باب الاكتفاء.

وفي آية الزمر قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ ثم انتقل منه إلى التذكير في قوله: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ﴾؛ لإرادة الإنسان المسرف، والنكرة أفادة الكثرة وضمير المخاطب جاء للواحد مما يدل على سعة رحمة الله، فأغلب المسرفين استجابوا كما ذكر أبو موسى. ومثل ذلك حديث" مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا" فخالفت الصفة الموصوف؛ لتكون صفة للمرادف الإنسان، ومما يدل على ذلك قول الله في سورة المائدة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا ﴾ ثم قال: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾،

وقد يعدل عن جنس الضمير المذكور الموافق لمرجعه إلى ضمير آخر مخالف لسابقه إشادة بمرجع الأخير لأهميته، وذلك كما في قوله: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فعدل عن الضمير ﴿هِىَ ﴾ العائد إلى الصدقات، إلى الضمير ﴿ هُوَ﴾ العائد على كيفية إيتاء الصدقة لكونه الأفضل؛ لجمعه بين الصدقة وفضل الإخفاء فجاء العدول للامتداح.

كما أن المتحدث بالخيار في إعادة الضمير مؤنثا أو مذكرا على أحد المتعاطفين بأو، إذا كان أحدهما مذكرا والآخر مؤنثا، على سبيل الاكتفاء، وهو إيجاز بالحذف لدلالة الضمير المذكور على غير المذكور، ومثاله السابق: من كان عنده غلام أو جارية فليحسن إليه، وفليحسن إليها، وفليحسن إليهما، وفي القرآن كقوله: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾.

وتأتي مخالفة الضمير لمرجعه لإثبات بطلان حجة الجاحد، وذلك كما في قوله في سورة الزمر: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ بعد قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠]. وقد تأتي المخالفة للحمل على المعنى؛ ولكون اللفظ في المجاز أوسع دلالة مما وضع له في الحقيقة، وذلك في مثل: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾، فالسماء يشمل السماء المعروفة، وكل سقف، فأفادت مخالفة الضمير لمرجعه في الظاهر اتساع الدلالة، أو ليوافق المبنى المعنى، فالسماء تغيرت من تأنيث خبرها إلى تذكيره، كما أن الولدان شابت، وكذلك الضمير خالف مرجعه فتغير. وكثيرا ما تسهم مخالفة الصفة المشتقة لموصوفها بالاتساع الدلالي، فاتساع المكان مثلا؛ برز من تذكير الصفة المشتقة في قوله: ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ في ثلاث آيات، وفي موضع قال: ﴿بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ لأن هذا التذكير موافق لتذكير المكان الواسع، والقرينة بعده قوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾.

ويأتي الاقتطاع لتصوير السرعة، فيظهر المؤنث بصورة مذكر كما في قوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ ومثله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

ويأتي ضمير المذكر العاقل عائدا إلى الآلهة التي تعبد إذا كان المتكلمون عابديها، أو كان ذلك جاريا على لسان المنكر على وجه المحاجّة والمناظرة؛ حيث ينزل الكلام حسب معتقدهم، لينفذ بعد ذلك إلى بطلان مذهبهم واحتقار المعبود لكونه جمادا لا ينفع ولا يضر.

ويتلون الضمير المؤنث من عوده على المؤنث المجازي إلى الضمير المذكر لعوده إلى المذكر الحقيقي، والمؤنث المجازي جزء منه، كقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾، ثم قال: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾، فالطمس على الوجوه وهي جزء، واللعن على الكلّ، فانتقل من العذاب الشديد إلى الأشد، ويخالف الضمير مرجعه المؤنث إذا عاد

على مرادف لغوي مذكر غير مذكور في السياق، أو إلى واحد المذكور جمعا أو جزئه، كقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا ﴾، فتذكير الضمير عائد إلى الصداق الواحد، أو بعضه، أو المهر، وقد يتسع الأمر ليشمل الحكم على المال كله، ومثله عود الضمير في ﴿مِّنۡهُ﴾ مذكرا وقد سبق ب﴿ٱلۡقِسۡمَةَ﴾، وقد يعدل عن المرجع المؤنث الذي يرى أنه المرجع في الظاهر بدلالة الضمير المذكر المخالف لجنس ذلك المرجع ليكشف عن مرجع ذكر فيه عبرة دلّ عليه السياق، وذلك كما في قوله: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، بعد ذكر الأنعام، و﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾، بعد ذكر الثمرات.

وكذلك التلوين في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ و﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ حيث تغير الضمير بتغير المخاطِب والمخاطَب، وبالضميرين المختلفين في النوع يكتمل المشهد، وقد يأتي التلوين بين التذكير والتأنيث للإحاطة بالاحتمالين، الذي يكشف ما في صدور القائلين من ظلم وجنف، كما في تأنيث ﴿خَالِصَةٞ﴾، وتذكير ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾، وكذلك تأنيث الفعل: ﴿يَكُن﴾، وتذكير خبره ﴿مَّيۡتَةٗ﴾. ومثل ذلك عناد اليهود عندما أمروا بذبح البقرة فقالوا: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ﴾ فتذكير الفعل يكشف إصرارهم على العناد.

وهناك أفعال تتحد صورتها في إسنادها إلى نون النسوة أو إلى واو الجماعة، وهي الأفعال المعتلة الآخر بحرف علة أصله واو، والقرينة في السياق تبين المرجع، ومما ورد مسندا إلى نون النسوة قوله: ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا ﴾ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾، والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع: عود ضمير المؤنث على المذكر

إذا كان التفريق بين الأسماء التي للمذكر والأسماء الخاصة بالمؤنث ناشئا من الوضع اللغوي، فإن ذلك يعني أن لكل نوع جنس ضميره الذي يناسبه، وقد كتب الأنباري بما يؤنث وبما يذكر، وبما يؤنث ويذكر[١]. وقد تبين في المبحث الآنف أنّ عود الضمير إلى المؤنث مذكرا تعدّ مخالفة في الظاهر، تستوجب البحث في الكلام البليغ لإبراز بلاغته؛ لأن هذا العدول مقصود. وفي جميع مواضعه افتنان في الكلام، وإثارة لانتباه المتلقي، مع ما يكتنف ذلك من أغراض يبينها السياق والقرائن، وفي هذا المبحث سيقف الباحث – بإذن الله– على شواهد عود ضمير المؤنث على المذكر، ليميط السياق اللثام عن غرض كل عدول، مع الاهتداء بأقوال العلماء النجباء.

وتجدر الإشارة بعد التتبع إلى أن عود ضمير المؤنث على المذكر قليلة شواهده جدا، أما عود ضمير المذكر على المؤنث فكثيرة، لأن المؤنث فرع من المذكر، فالمذكر هو الأصل كما مر في أول المبحث السالف من قول سيبويه.

ويقول ابن جني: "وتذكير المؤنث واسع جدًّا؛ لأنه ردّ فرع إلى أصل. لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب"[٢].

والحمل على المعنى من أحد أسباب العدول، وبذلك يقول الثعالبي: "من سنن العرب ترك حكم ظاهر اللفظ وحمله على معناه، كما يقولون: ثلاثةُ أنفس، والنفس مؤنثة وإنما حملوه على معنى الإنسان، أو معنى الشّخص... وقال عزَّ اسمه: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾[٣] ولم يقل ميتة لأنه حمله على المكان."[٤].

---

(١) للاستزادة؛ ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث لأبي البركات الأنباري (ص: ٦٥-٨٨).

(٢) الخصائص لابن جني (٢/٤١٧).

(٣) [سورة ق:١١].

(٤) فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٣٠)، وينظر: كلام المبرد في المقتضب (٢/١٨٦).

وليس في شاهد الثعالبي الأول شاهد على عود ضمير مذكر على مؤنث ولا العكس، ولكن فيه تأويل احتيج إليه لجعل الكلام موافقا لسنن اللغة، وذلك في تأويل المعدود ليناسب العدد، أو تأويل الصفة لتناسب الموصوف كما مرّ في المبحث الآنف، ويجري مثل هذا ليناسب كل تابع متبوعه، وهكذا، ولكن مادام أن هذا ثابت فإن الضمير ليس بمعزل عن هذا الحمل إذا استدعى النظم ذلك، لما فيه من الإثراء المعنوي الموجز.

وعلى ذلك فإن كلّ شواهد الثعالبي من كلام العرب لا تندرج تحت البحث لخلوها من الضمير، إلا بيتا ذكره للأعشى إذ يقول(1):

لِقَومٍ فَكانوا هُمُ المنفِدينَ ... شَرابَهُمُ قَبلَ إِنفادِها

قال الثعالبي: "فأنَّث الشراب لما كان الخمر المعني؛ وهي مؤنثة"(2). وهذا كثير في كلام العرب.

وقال ابن جني: "وتذكير المؤنث واسع جدًّا؛ لأنه ردّ فرع إلى أصل. لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب"(3).

فعد ابن جني تأنيث المذكر فيه تناكر وإغراب، ولعل ذلك ناشئ من كونه رد أصل إلى فرع، وهو ليس كتذكير المؤنث الذي كثر في كلام العرب.

وفي القرآن الكريم يعود الضمير المؤنث إلى النفس مؤنثة فيطابق الضمير مرجعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ ﴾ [القيامة:٢]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨]، وقوله:

(1) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ص:٧١).

(2) فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٣٠)، وللمزيد ينظر: الخصائص لابن جني (٢/٤١٣-٤١٧).

(3) الخصائص لابن جني (٢/٤١٧).

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦﴾[طـه:٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وهناك ألفاظ تذكّر وتؤنث ويعود إليها الضمير في بعض مواطنها مذكرا وفي مواطن أخرى مؤنثا، ومن هذه الكلمات السبيل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ [النحل:٩]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف:١٤٦].

وكثيرا ما يذكر العلماء في مثل هذه الألفاظ أنها من الألفاظ التي تذكر وتؤنث، ولكن مما لاشك به أن تذكيرها في بعض المواطن وتأنيثها في مواطن أخرى راجع إلى غرض مقصود، فهذه الألفاظ تأتي على الحقيقة والمجاز، فالسبيل تأتي بمعنى الملة كما ذكر أبو هلال العسكري(١) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، واكتفى أبوعبيدة هنا بأن السبيل تذكر وتؤنث(٢)، وفسرها السيوطي بأنها دعوتي(٣). وتأتي بمعنى الجمع كما في آية النحل السابقة، دلّ على ذلك قوله: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ فدلّ على أن هذه السبيل المذكوره معناها الجمع، فعاد الضمير إلى معناها لا إلى لفظها.

وقد ذكر أبو هلال العسكري أن السبيل تذكر وتؤنث وأصلها الامتداد وجاءت في القرآن على ثلاثة عشر وجها، منها الطاعة كقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٩٥]، والبلاغ كقوله: من استطاع إليه سبيلا، والمخرج، كقوله: ﴿فَلَا

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر(ص: ٢٦٤).

(٢) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣١٩/١)، والمخصص لابن سيده، السفر السابع عشر، باب: مايذكر ويؤنث (١٤٢/٥)، البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث لأبي البركات الأنباري (ص: ٦٩).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٦٣/٢).

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء:٤٨]، والصنيع، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء:٢٢]، والعلة، كقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:٣٤]، والدِّين، كقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، أي: غير دينهم، وقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل:١٢٥]، والهدى، كقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [النساء:٨٨]، والحجة، كقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، أي: حجة، والطريق، كقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء:٩٨]، والانتقام، كقوله: (﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الشورى:٤٢]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة:٩٣]، والملة، كقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف:١٠٨]، أي: ملتي وديني، وغير ذلك[1].

أما سبيل الرشد وسبيل الغي فالمقصود به الدين الحق والكفر، وكلاهما مذكر فعاد الضمير إلى اللفظين مذكرا، وتفسير ذلك قول تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٦] [2].

وكذلك الطاغوت فقد جاء مذكرا ومؤنثا فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر:١٧]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠]، ويأتي على الجمع فيعود إليه ضمير العقلاء كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة:٢٥٧]، ولعل هذا التنوع بين التذكير

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري(ص :٢٦١-٢٦٤)

(٢) ينظر: المصدر نفسه(ص :٢٦١-٢٦٤)

والتأنيث والجمع والإفراد يوحي بسعة دلالة الطاغوت، لأنه "مصدر مثل الرحموت والملكوت ... وهذه المصادر تدل على سعة المعنى، فالرحموت واسع الرحمة، والملكوت واسع الملك، والطاغوت واسع الطغيان، وسمي به الشيطان، أو الصنم أو كل معبود بالباطل مبالغة؛ لأن التسمية بالمصادر تفيد المبالغة في معناها"(١).

أما الطاغوت فقد يطلق على الأصنام وهي مؤنثة فيعود الضمير مؤنثا، وقد يطلق على عاقل نصب نفسه للحكم بغير ما أنزل الله فيأتي الضمير عائدا إلى هذا المعين المذكر مذكرا.

ويدل على هذ مارواه الطبراني في معجمه فعن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ(٢) كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِ، فتنافرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾(٣).

والطاغوت في آية البقرة السالفة ليس واحدا، بل اسم جنس اندرج تحته مجموعة من الأولياء الذين يدعون إلى الضلال، فعاد إليه الضمير مذكرا بصيغة الجمع.

وهذا المعنى؛ أي: إعادة الضمير إلى أحد معاني الكلمة المذكورة، أو إلى استعمال لها مجازي حسب ما يريده المتكلم؛ ألمح إليه الفراء عندما ذكر أن اللسان يذكّر، وربما

---

(١) الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى (ص: ١٢٧).

(٢) أبو برزة هو نَضْلة بن عبيد أبو بَرَزة الأسلمي، صحابي مشهور بكنيته، أسلم قبل الفتح وغزا سبع غزوات ثم نزل البصرة وغزا خراسان ومات بها بعد سنة ٦٥هـ ينظر: تقريب التهذيب لابن حجر (ص:٥٦٣).

(٣) المعجم الكبير، لأبي القاسم الطبراني (٣٧٣/١١) رقم الحديث: ١٢٠٧٤.

أنث إذا قصدوا باللسان قصد الرسالة، أو القصيدة... فأما اللسان بعينه فلم يسمعه من العرب إلا مذكرا[1].

فدلّ ذلك على أن هذه الألفاظ قد تستعمل حقيقة أو مجازا، ويخضع تذكير الضمير أو تأنيثه إلى المعنى، بغرض التفسير، فيأتي الضمير المختار ليبين ما أراده المتكلم، فيكون الضمير مفسرا.

فتبين للباحث من ذلك أن تلون جنس الضمير العائد إلى الطاغوت، واختلاف عدده، ومجيئه لغير العاقل أو للعاقل؛ سببه سعة دلالة هذه الكلمة بتطور معانيها، فهي لكل ما يعبد من دون الله، سواء أكان جمادا، أم عاقلا، ذكرا كان أم أنثى، أفرادا كانوا أو جماعات، فاختلاف الضمير في المواطن المختلفة ولد ثراء معنويا استوعب ذلك كله.

فقد يسهم جنس الضمير من حيث تأنيثه وتذكيره بالدلالة على المعنى المقصود من بين معاني هذا المشترك اللفظي[2]، فيكون جنس الضمير كالقرينة، و"المشترك اللفظي في القرآن الكريم، وضعت له مسمّيات أخرى، مثل الأشباه والنظائر، أو الوجوه والنظائر أو التصاريف"[3].

ومن المواطن التي عاد فيها ضمير المؤنث إلى المذكر ما جاء في قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان:١١-١٢]، فالسعير اسم من أسماء جهنم كما قال تعالى: ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧]، وقال الجوهري: السعير النار[4]، واختاره الزبيدي، وروى أنه قيل: لهبها[5]، وقال ابن فارس السعير سعير

(١) ينظر: المذكرّ والمؤنث، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ص: ٦٤-٦٥).

(٢) ينظر تعريف المشترك اللفظي (ص:٢٠٨).

(٣) المشترك اللفظي في الحقل القرآني، عبد العال سالم مكرم ص:١٢٩).

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، فصل السين، مادة: سعر (٦٨٥/٢).

(٥) تاج العروس، باب الراء، مادة: سعر (٢٩/١٢).

النار[1]، وقال: "السين والعين والراء أصل واحد يدل على اشتعال الشيء واتقاده وارتفاعه. من ذلك السعير: سعير النار. واستعارها: توقدُّها"[2]، والسعير مذكر ولكن الضمير عاد إليه مؤنثا فقال: ﴿رَأَتْهُم﴾ وإذا عُلم أن لهذا النوع من العذاب أسماء أشهرها النار أو جهنم زال الاستغراب؛ لأن الضمير عاد إلى المرادف اللغوي الأشد إيلاما، فإذا كان السعير هو اللهب، فإن ضمير التأنيث يوحي بمرجع أشد من السعير وهو جهنم، لا سيما أن هناك آيات كالقرائن على ما ذهب الباحث إليه، حيث اشتمل نظمها على اسم النار جهنم، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك:٦-٧] وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء:٥٥].

وتظافر هذه النصوص يدلّ على أن الضمير عندما عدل به عن التذكير إلى التأنيث دل على أن الضمير رجع إلى أصل المذكور المذكر أو مرادفه، فالسعير أصله جهنم أو هي رديف لغوي له لكنها أشدّ، فعاد الضمير مؤنثا إليها لما في ذلك من بلاغة تبرز كون الأصل أشد توقدا من اللهب.

وذكر أبو عبيدة أن تأنيث الفعل كان لأجل المعنى، ويندرج تحت ذلك تأنيث الضمير وإن لم يصرح به، فقال: "والسعير مذكر، وهو ما تَسعّر من سُعار النار، ثم جاء بعده فعل مؤنثة مجازها أنها النار، والعرب تفعل ذلك، تظهر مذكرا من سبب مؤنثة، ثم يؤنّثون ما بعد المذكر على معنى المؤنثة"[3].

وقد ذهب مذهب أبي عبيدة الثعالبيُّ[4]، وقال به السيوطي[1]، والألوسي [2]، وذكر ابن عطية أن الضمير عائد إلى جهنم والسعير طبق من أطباقها[3]. وقال ابن

(١) مجمل اللغة لابن فارس، باب السين والعين وما يثلثهما، مادة: سعر (٤٦١/١).
(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، باب السين والعين وما يثلثهما، مادة: سعر(٧٥/٣).
(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٧٠/٢).
(٤) ينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص: ٢٣١).

عاشور: "وأجري على السعير ضمير﴿رَأَتْهُم﴾ بالتأنيث؛ لتأويل السعير بجهنم إذ هو علم عليها بالغلبة"[4] وإلى هذين القولين الأخيرين في مرجع الضمير ذهب الباحث، وساق الأدلة المعاضدة لرجحان هذا المذهب.

ومثل ذلك جاء في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [المعارج:١٥]. بعد قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ [المعارج:١١]، واختلف المفسرون في هذا الضمير على أقوال ثلاثة [5]: أحدها: أنه ضمير النار، وإن لم يجر لها ذكر لدلالة لفظ عذاب عليها. والثاني: أنه ضمير القصة[6] وأجاز الفراء ذلك[7]، وذكر الراغب الأصفهاني أن لظى اسم لجهنم[8]. الثالث: أنه ضمير مبهم يترجم عنه الخبر أو ضمير القصة، قاله الزمخشري[9]، ورفضه أبو حيان بقوله:" ولا أدري ما هذا المضمر الذي ترجم عنه الخبر؟ وليس هذا من المواضع التي يفسر فيها المفرد الضمير، ولولا أنه ذكر بعد هذا أو ضمير القصة، لحملت كلامه عليه"[10]. ويظهر أن

=

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٣٦٧).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٩/٤٣١).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٢٠٢).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩/٢١).

(٥) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٣٦٧)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٩/٣٦٣-٣٦٤).

(٦) ينظر: النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني(ص: ٥١٧)، وتصحيح الفصيح وشرحه لابن دُرُسْتَوَيْه (ص: ٤١٢).

(٧) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣/١٨٥).

(٨) ينظر: المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهان (ص: ٤٧٠).

(٩) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٦١٠).

(١٠) البحر المحيط لأبي حيان (١٠/٢٧٤).

الزمخشري يرى أن هناك ضميرا مبهما يفسره ما بعده وليس هو من الشأن أو القصة، بدليل أنه أشار إلى قوله تعالى:﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٢٩]، بدليل أن هذا الضمير لم يفسر بجملة مصرح بجزأيها ولكن فسر بمفرد لا يعمل عمل الفعل فخرج عما اشترطه الكوفيون.

والذي يميل الباحث إليه هو أن الضمير في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ عائد إلى العذاب ولكنه لم يعد إلى اللفظ المصرح به ولكن عاد إلى الأصل وهي النار أو جهنم، لكون الأصل أشد وأقسى، فجاء الضمير مؤنثا إشارة إلى محل العذاب، وقرينة ذلك ذكر العذاب في قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ [المعارج:١١]، ولقوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل:١٤]، وقد قال أبو حيان موجها: فتعيّن أن يكون لظى خبرا لأن، والضمير في إنها عائد على النار الدال عليها عذاب"[1]. وأحد أقوال الزمخشري أن الضمير للنار، ولم يجر لها ذكر؛ لأنّ ذكر العذاب دل عليها[2]، وهذا أحد أقوال البيضاوي[3]، وذكر ابن عاشور أن الضمير عائد إلى ما يشاهده المجرم قبالته من مرأى جهنم[4]، وبناء على قراءة حفص وتوجيه هؤلاء العلماء، وما مال إليه الباحث من قرائن فإنه لا يرى أن يكون الضمير ضمير القصة؛ لأن لظى ليس اسما لجهنم، ولا يمال الى ضمير القصة إلا إذا لم يتأت غيره، وذكر العذاب صارف ذلك عن القول بأنه ضمير القصة، وضمير الشأن لا يرى بعض النحويين مجيء خبره إلا جملة، فلا تكون لظى هنا خبر ضمير القصة كما قيل؛ لكونها مفردة، ولكن خرج بعض المفسرين إلى أن مفسر ضمير القصة

---

(١) المصدر نفسه(١٠/٢٧٤).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٦١٠).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٥/٢٤٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/١٥١).

هنا الجملة المكونة من المبتدأ والخبر لظى نزاعة[1]، وذلك لا يتوافق مع قراءة حفص؛ لأنه قرأ نزاعةً على النصب على ثلاثة أوجه: الأول؛ قال الزجاج إنها حال مؤَكَّدة، ورفض ذلك أبو علي الفارسي وقال: حمله على الحال بعيد؛ لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، ويرى أن لظى علَم وليس بمعنى التلظي والتلهب[2]، وذهب الطبري إلى القول بأن لظى اسم من أسماء جهنم، وذكر أن الاختيار أن تكون لظى خبرا، ونزاعة حالا، ومن رفع استأنف، وصوب رفع نزاعة على الابتداء، ولم يجز النصب، وذكر أن له وجها في العربية [3]. وروى الرازي عن الأخفش والفراء والزجاج أن من رفع نزاعة رفعها على الذم[4]. والثاني: أن تكون لظى اسما لنار تتلظى تلظيا شديدا، فيكون هذا الفعل ناصبا، لقوله: نزاعة. وثالثها: أن تكون منصوبة على الاختصاص، والتقدير: إنها لظى أعنيها نزاعةً للشوى، ولم تمنع، واختُلف في إعراب اللفظين فمنهم من قدّر: أن النار لظى نزاعة، فجعل لظى خبرا أول؛ ونزاعة خبرا ثانيا[5]، وهذا على قراءة من رفع نزاعة، وقيل نزاعة صفة للظى، ولظى ليست علَما بل بمعنى اللهب، وأنث النعت لأن اللهب بمعنى النار، أو رفع على التهويل، أي: هي نزاعة. وقرئ نزاعةً، بالنصب على الحال المؤكدة، أو على أنها متلظية نزاعة، أو على الاختصاص للتهويل كما ذكر الزمخشري[6].

وعلى نحو ما ذكر يقال في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ**

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦٤٢/٣٠)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧٤/١٠)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٦٤/١٩).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦٤٢/٣٠)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٦٤/١٩).

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٠/٢٣).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦٤٢/٣٠).

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦٤٣/٣٠)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣٦٣/١٩).

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري (٦١٠/٤).

عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشورى:٤٤-٤٥].

وفي موطن آخر يُرى أن المشتق الذي وقع خبرا قد خالف المبتدأ في الظاهر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة:١٤]، ففي قوله تعالى: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ تأنيث للمشتق، والمشتق هنا يعمل عمل فعله، وفاعل الفعل المؤنث أو المشتق المؤنث مونث، فلذلك كان لزاما الوقوف على سبب التأنيث لهذ الكلمة.

وقبل هذا الوقوف يحاول الباحث استعراض ما قاله العلماء في ذلك، فيجد أن لهم في ذلك أقوالا مستفيضة، وهي كما يلي:

١- قيل: قصد شهادة جوارحه، قاله: ابن قتيبة(١) وذكره الجصاص(٢)، وقال به الثعلبي(٣)، وقال الزركشي: الإنسان بصير بشهادة جوارحه عليه(٤) وذكر الكفوي مثل ذلك (٥).

٢- قيل: المعنى بل الإنسان على نفسه من نفسه بصيرة؛ لأنها منه، فأقامه مقامها ذكره ابن قتيبة(٦) ورواه القصّاب، وفسر ذلك بقوله:"كأنه يذهب به إلى الاعتبار بما يراه منها، ومن أحوالها" ويستدل بقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٥٠٠).

(٢) ينظر: أحكام القران للجصاص (٣/٦٣٢).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (١٠/٨٦).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/٢٨١).

(٥) ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي(ص: ٢٥١).

(٦) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٥٠٠) ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٢٢).

[الذاريات:٢١][١] وذكر الجصاص أنه روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: " شاهد على نفسه"[٢].

٣- قال الأخفش: الإنسان هو البصيرة،كقولك للرجل: أنت حجة على نفسك[٣].

٤- وقيل: المقصود بل الإنسان على نفسه بصير، والهاء دخلت للتأكيد والمبالغة، مثل؛ علامة ونسابة، ويكون على بمعنى الباء، ذكر ذلك وأجازه القصاب[٤]، قال الكرماني والجمهور على أن الهاء للمبالغة أي ذو بصيرة، وذو حجة [٥].

٥- وذكر ابن خالوية أن النحويين إذا أدخلوا الهاء في الممدوح ذهبوا به مذهب الداهية ذي الإربة، مثل علامة ونسابة. فإذا أدخلوا الهاء في المذموم ذهبوا به مذهب البهيمة، ومثّل بقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة:١٤] والهاء للمبالغة [٦].

٦- وقيل تاء التأنيث للمبالغة، أو لأن المعنى بل الإنسان حجة على نفسه، قال بذين النحاس[٧]، وقال بالأول السيوطي[٨].

٧- قيل: بصيرة صفة لمحذوف تقديره: عين بصيرة، وقال بهذا التقدير السجستاني، وأول هذه العين بالجوارح التي تشهد، ثم ذكر التأويلات السابقة[٩]، وقدّر ذلك السيوطي وفسر العين بالجوارح التي تشهد [١]، وبتقدير الموصوف جاء عن أبي الحسن

(١) ينظر:النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصاب(٤/٤٥٠).

(٢) ينظر: أحكام القران للجصاص (٣/٦٣٢).

(٣) ينظر: معاني القرآن للأخفش(٢/٥٥٧) .

(٤) ينظر:النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصاب (٤/٤٥١).

(٥) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (٢/١٢٨١).

(٦) ينظر:كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لأبي عبدالله بن خالويه، (ص: ١٨٠).

(٧) ينظر:إعراب القرآن للنحاس(٥/٥٤).

(٨) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٢/٨٨).

(٩) ينظر:غريب القرآن للسجستاني(ص:١٢٣).

(١) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٢/٨٨).

القيرواني، وهو ثالث أقواله في ذلك، يضاف إليه القولان المعزوان إلى النحاس(1)، وأما ابن عادل فذكر تأويلها بجوارح بصيرة(2).

٨- وقيل: المعنى ملائكة بصيرة وهم الكاتبون والتاء على هذا للتأنيث، ذكره ابن عادل(3)، وذكر ذلك الألوسي (4).

٩- أما الشريف الرضي فجعل هذا من باب الاستعارة، ومعناه أن الإنسان حجة على نفسه في يوم القيامة، وشاهد عليها بما اقترفت من ذنب واحتملت من وزر(5).

وبين ابن عاشور أن ﴿بَصِيرَةٌ﴾ على التأنيث تفيد معنيين:

الأول: بمعنى مبصر شديد المراقبة؛ فتكون خبرا عن الإنسان، وعدّي بالحرف(على) لتضمينه معنى المراقبة في قوله:﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤]، وهاء ﴿بَصِيرَةٌ﴾ تكون للمبالغة مثل هاء علامة ونسابة، أي: الإنسان عليم بصير، قوي العلم بنفسه يومئذ.

والثاني: أن يراد بالبصير قرين الإنسان من الحفظة، أو يقدر موصوف محذوف بحجة بصيرة، وتكون بصيرة مجازا في كونها بينة(6).

ولقد ذهب الشيخ الأمين الشنقيطي إلى أن هذه الآية يفسرها قوله تعالى:﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤] (1).

---

(١) ينظر:النكت في القرآن الكريم(ص: ٥٢٧).

(٢) ينظر:اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٥٦/١٩).

(٣) ينظر:المصدر نفسه(٥٥٦/١٩).

(٤) ينظر:روح المعاني للألوسي (١٥٦/١٥).

(٥) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضى(٢٥٥/٢).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٢٢/٢٩).

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٣٧٣/٨).

ومع تنوع أقوال العلماء الأجلاء والتي تنبيء عن كثافة دلالية أنجبها التأنيث، فإن الباحث يرى أن الإنسان هنا يراد به النفس لغرض التعيين؛ لأن الإنسان يراد به الواحد والجنس، فأتت الصفة المؤنثة لتدل على هذه النفس، التي حل الإنسان بالنظم محلها، وعاد الضمير إليها لا إلى الملفوظ به، يؤيد ذلك أن الإنسان ذكر مرتين؛ الأولى: قد تكون لإفادة الجنس، والثانية: لإفادة الواحد، فجاء الخبر مفردا مؤنثا؛ ليتوافق مع النفس التي دل الإنسان عليها، ففسر المراد بالتأمل والقرائن في ضوء قوله: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة: ١٣-١٤]. والأدلة على أن المقصود النفس أولها تأنيث الخبر، ودليل ثان: أن هذا تؤيده آية الإسراء التي وردت بنفس رقم آية القيامة فقال: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤]، فإن قيل: كيف تكون نفسه على نفسه بصيرة؟ قيل: كقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١]. ودليل ثالث: أنه لما كانت الجوارح تشهد وهي جزء، جاء الأمر بأعظم من ذلك فالنفس على نفسها بصيرة، ودليل رابع: أن النفس جاءت في القرآن مرادا بها الإنسان كما مرّ من قبل(١)، والله تعالى أعلم.

وعاد الضمير مؤنثا إلى الاسم الموصول المذكر بدلالة تذكير الحال كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ فضمير النصب في قوله: ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ عائد إلى الاسم الموصول ﴿ مَا ﴾ الذي يشمل الذكر والأنثى، لكنه هنا مراد به الذكر بدلالة تذكير الحال؛ ولأن امرأة عمران تريده ذكرا بدلالة قوله: ﴿ مُحَرَّرًا ﴾. لكونه لا يخدم القدس إلا ذكر(١)، لكن جاء الضمير مؤنثا لمناسبته للموضوعة، ولم يأت

(١) ينظر صدر هذا المبحث : (ص:٤٢١) وما بعدها.

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:١٠٤)، وروح المعاني للألوسي (٢/١٢٩).

مذكرا لأن الحمل علم جنسه بعد الوضع، ولم يوافق المدعو به، والضمير في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ إشارة إلى علم الله –سبحانه– للموضوعة قبل علم الوالدة بجنسها بعد الوضع، لذلك لم يقل: فلمّا وضعت. وقال الزمخشري: أنث على المعنى؛ لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله[1]، وهذا من كمال علم الله وإعجازه – والله أعلم – فسبق علم الله رؤيتها للموضوعة، وهذه –والله أعلم– فائدة من تقدم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ على قولها: ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ ﴾ بعد الرؤية على سبيل خروج الخبر إلى التحسر، فسبق علم الله تحسرها، لأنه هو الخالق والعالم سبحانه، فجاء قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تأكيدا على ذلك، و"لعلمه أنه سيظهر من هذه الأنثى العجب العجاب"[2]، وهذا من إعجاز القرآن.

وذكر الرازي في مرجع ضمير النصب في قوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ عدة احتمالات؛ فإما أن يكون عائدا إلى الأنثى التي كانت في بطنها، وكان عالما بأنها كانت أنثى، أو يقال: إنها عادت إلى النفس، والنسمة، أو يقال: عادت إلى المنذورة[3].

وقال الألوسي: "الضمير لما، ولما علم المتكلم أن مدلولها مؤنث جاز له تأنيث الضمير العائد إليه وإن كان اللفظ مذكرا"[4].

ويعود الضمير مؤنثا لأجل الملابسة ، علما أن مقتضى الظاهر أن يكون مذكرا كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات:٤٦] ففي قوله: ﴿ضُحَىٰهَا﴾ جاء الضمير مؤنثا لأجل الملابسة، لكونهما من نهار واحد، وهما طرفاه، ولم يجعل الضمير عائدا إلى اليوم مباشرة للدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/٣٥٥.)

(٢) روح المعاني للألوسي (٢/١٣٨).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٨/٢٠٣)، وينظر: الكشاف للزمخشري (١/٣٥٥).

(٤) روح المعاني للألوسي (٢/١٢٩).

يوما كاملا، فهو كقوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف:٣٥] [1]. وليس للعشية ضحى، بل ضحى يومها[2]، والقرينة أن الجزء وهو الضحى يدل على الكل وهو اليوم. وذكر الرازي أن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، وأردف الرازي لطيفة وهي أن زمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى[3]، وقيل: أضاف الظرف إلى ضمير الظرف الآخر اتساعا[4]، فلذلك يعود الضمير المؤنث إلى اليوم المذكر، لكنه جاء مؤنثا لملابسته للعشية وهي مؤنثة ولا يخفى ما في المشاكلة من بديع بليغ.

والإضافة إلى ضمير الملابِس لأجل الملابسة لها نظائرها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [النازعات:٩]، فالضمير عاد إلى القلوب المذكورة في قوله: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ [النازعات:٨] لأجل الملابسة، ولم يقل أبصارهم مع أن الأبصار لأصحاب القلوب لدلالة القلب عليهم، فهو جارحة من جوارحهم[5].

وقد يكون من بلاغة الضمير في قوله: ﴿ضُحَىٰهَا﴾ التحرس من أن يفهم ما يناقض المراد، وذلك أنه لما كان العشي بعد الضحى، وذكر الضحى في السياق بعد العشي جيء بالهاء لكي لا يحتمل المعنى ضحى يوم غد، فيصبح الزمن أطول من المراد، بل المقصود عشية هذا اليوم وضحاه الذي سبق العشي، لا ضحى يوم قادم، كما أن الضحى أقصر من العشي فختم بالأقصر، مع ما تضفيه الهاء من جمال صوتي في الفاصلة التي تناسب الآيات الأخر، والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٦٩٩) ، وهمع الهوامع(٢/٥٠٠).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/٣٣٧).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣١/٥١).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٠/١٥١)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون(١٠/٦٨٤).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٦١).

وهذه الفائدة ذكرها الألوسي حيث قال:" إنك إذا قلت (لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى) احتمل أن تكون العشية من يوم والضحى من آخر فيتوهم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم الآخر، أما إذا قلت عشيته أو ضحاه لم يحتمل ذلك ألبتة وفي قولك ضحى تلك العشية ما يغني عن قولك عشية ذلك النهار أو ضحاه"(١).

وقد يكون ضمير التأنيث راجعا إلى غير الأقرب أي: راجع إلى السماء وذلك لقوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾[النازعات:٢٨-٢٩]، وقد تضاف إلى سبب كما قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾ [الشمس:١] "لأن الأوقات تعرف بمسير الشمس"(٢)، وقد يكون المراد بالضحى هنا الضوء والنور، أو النهار كله؛ لأنه من نور الشمس(٣).

وهذا من التفنن بالكلام والإتيان به على طرق متنوعة، تنشط الذهن، وتحيي التدبر في الزمن وتقلباته وأجزائه وظرفه وسببه.

وجماع ما سبق أن عود الضمير المؤنث إلى المرجع المذكر قليلة شواهده لغرابته، على عكس عود ضمير المذكر إلى المؤنث الذي كثرت شواهده باعتباره عود أصل على فرع، من أغراض عود ضمير المؤنث على المذكر إرشاد المتلقي إلى المعنى، أو المرادف اللغوي، أو إلى أحد معاني المشترك اللفظي، فيكون الغرض من الضمير التفسير والافتنان في تغيير نمط الكلام مما يثير انتباه المتلقي، ومما جاء عائدا إلى المرادف اللغوي التلوين في بيت الأعشى، حيث أعاد الضمير مؤنثا إلى الشراب؛ لإرادة الخمر، وإذا كان قد مر بنا في المبحث الثالث من هذا الفصل تأنيث الإنسان لإرادة النفس فقد جاء في هذا المبحث العكس فيذكَر الإنسان ويراد به النفس كقوله: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾، فتذكير بصيرة دل على إرادة النفس بدلا من الإنسان. ومما كثر تناوب ضمير

(١) روح المعاني للألوسي (٢٣٩/١٥).

(٢) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري(ص:٢٩٣).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٧٤/٣١).

التأنيث والتذكير عليه في مواطن مختلفة لفظة السبيل والطاغوت، وهما من المشترك اللفظي الذي تعددت معانيه، وكل واحد منهما يختلف معناه باختلاف سياقاته. وذلك كما في لفظة الطاغوت، فقد عاد عليه الضمير مذكرا، ومؤنثا، وجمعا على هيأة ضمير العاقل، وهذا التلون لأنه قد يقصد بالطاغوت الصنم، أو مَن يحكم بغير ما أنزل الله، أو الشياطين، ونحو ذلك. وقد يكون تلوين الضمير سببه المجاز، كما أن اللسان يؤنث إذا قصد به الرسالة أو القصيدة، على سبيل المجاز، ويذكّر على الحقيقة إذا قصد اللسان بعينه.

وقد يعود الضمير مؤنثا للملابسة كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، مع كونه مسبوق بمذكر وهو اليوم. مع دلالات سبق ذكرها، والله أعلم.

الفصل الثالث : المخالفة في الرتبة في القرآن الكريم :

المبحث الأول: عود ضمير الشأن على متأخر

المبحث الثاني : عود ضمير القصة على متأخر .

المبحث الثالث : عود الضمير على غير الأقرب .

الفصل الثالث: المخالفة في الرتبة في القرآن الكريم :

المبحث الأول: عود ضمير الشأن على متأخر.

اختلفت مسميات ضمير الشأن بين البصريين والكوفيين، فالبصريون يسمونه ضمير الشأن والقصة والحديث(١)، وأما الكوفيون فيسمونه الضمير المجهول(٢)، ومنهم من يسميه ضمير الأمر(٣). والكوفيون السابقون كانوا لا يفرقون بين ضميري الشأن والفصل، ويعدونهما شيئا واحدا يسمونه العماد، يدل على ذلك قول الفراء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء:٩٧]، قال: تكون (هي) عمادا يصلح في موضعها (هو) فتكون كقوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨﴾ [النمل:٩](٤).

وإذا كان من خصائص الضمير أن يكون له مرجع يسبقه فإن ضمير الشأن قد خالف عامة الضمائر في ذلك، فهو ضمير يسبق مرجعه، وله صفات معينة(٥)، فإذا كان الضمير مذكرا سمي بضمير الشأن، وإذا كان الضمير مؤنثا سمي بضمير القصة، والشأن هو الخطب(٦) والأمر والحال، والجميع شؤون(٧).

---

(١) ينظر: همع الهوامع(٢٧٢/١)، والخصائص لابن جني (١٠٥/١-١٠٦).

(٢) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش(٢٠٧/١) و(٣٣٤/٢).

(٣) ينظر: المحتسب لأبي الفتح بن جني(٣٢/٢)، وشرح الرضي على الكافية (٤٦٥/٢).

(٤) معني القرآن للفراء (٢١٢/٢) .

(٥) ينظر: المبحث(ص:٤٥-٤٦)، و(٩٨).

(٦) ينظر: همع الهوامع(٢٧٢/١)، والخصائص لابن جني (١٠٥/١-١٠٦).

(٧) العين، مادة(شأن) باب الشين والنون و (و ا ي ء) معهما ن ش و، ن وش، ش ي ن، ش نء، شء ن، ن شء، نء ش، ء ش ن مستعملات،(٢٨٧/٦). ولسان العرب، فصل الشين المعجمة، مادة: شأن (٢٣٠/١٣).

قال ابن الحاجب:"ويتقدم قبل الجملة ضمير غائب يسمى ضمير الشأن، يفسَّر بما بعده ويكون منفصلا، ومتصلا بارزا ومستترا،... نحو: هو زيد قائم، وكان زيد قائم، وإنه زيد قائم، وحذفه منصوبا ضعيف، إلا مع (أنْ) إذا خففت فإنه لازم"(١).

قال الرضي في الشرح:" وليس بمشهور إضمار الشأن، من أفعال المقاربة، إلا في (كاد) ومن الأفعال الناقصة إلا في (كان) و (ليس)" (٢).

وكذلك اسم (أنْ) المفتوحة المخففة وفيه خلاف، قاله الرضي، وقال: "ومنع أبو علي في المكسورة المخففة المهملة، من تقدير ضمير الشأن بعدها وجوز ذلك بعضهم قياسا على المفتوحة... وحكى بعض أهل اللغة إعمالها في المضمر في السعة نحو قولهم: أظن أنك قائم، وأحسب أنه ذاهب، وهذه رواية شاذة غير معروفة"(٣). وكذلك في كأنّ إذا خففت فالأصح إلغاؤها وفيها ضمير شأن مقدر عندهم، كما في أن المخففة(٤).

أما ابن هشام فقد تعرض لقول كثير من النحويين الذين يرون أنّ اسم (أنْ) المفتوحة المخففة ضمير شأن فقال:"والأولى أن يعاد على غيره إذا أمكن، ويؤيده قول سيبويه في ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾(٥) إن تقديره أنك "(٦).

وهو لا يرى حمل الضمير على الشأن إذا أمكن غيره، ولذلك فقد خالف الزمخشريَّ الذي يرى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا**

(١) شرح الرضي على الكافية(٤٦٤/٢).

(٢) المصدر نفسه(٢١٨/٤).

(٣) شرح الرضي على الكافية(٣٦٨/٤).

(٤) المصدر نفسه(٣٧٠/٤).

(٥) [الصافات:١٠٤-١٠٥].

(٦) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٦٣٨)، وينظر: الكتاب(١٦٣/٣).

تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، ضمير الشأن، لكن ابن هشام ضعف ذلك وقال هو ضمير الشيطان(١).

ولذلك فالباحث سيقتصر على ضمير الشأن البارز مع أن هناك من بعض أهل اللغة من توسع في ذلك كما ذكر ابن هشام آنفا.

أما أغراضه فمنها التعظيم البارز من المصطلح، وأشار الرضي إلى بعض أغراضه ومنها؛ أنه كأنه راجع إلى المسؤول عنه بسؤال مقدر "تقول مثلا هو الأمير مقبل، كأنه سمع ضوضاء وجلبة، فاستبهم الأمر فسأل: ما الشأن ؟ فقيل: هو الأمير مقبل، أي: الشأن هذا"(٢). وأردف الرضي قائلا:" والقصد بهذا الإبهام ثم التفسير: تعظيم الأمر"(٣).

ولأهمية هذا الضمير فإنه لا يكون مضمون مفسره غير ذي بال، بل لا بد أن يكون له شأن إذ اختير له هذا الأسلوب لذلك "فلا يقال: هو الذباب يطير"(٤).

وذكر العلوي فائدة ضمير الشأن فقال: "فاعلم أن ضمير الشأن والقصة على اختلاف أحواله، إنما يرد على جهة المبالغة فى تعظيم تلك القصة، وتفخيم شأنها، وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولا، وتفسيره ثانيا؛ لأن الشيء إذا كان مبهما فالنفوس متطلعة إلى فهمه، ولها تشوق إليه؛ فلأجل هذا حصلت فيه البلاغة؛ ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرِد إلا فى المواضع البليغة المختصة بالفخامة"(٥).

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٦٣٧-٦٣٨)، وينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٩٨).

(٢) شرح الرضي على الكافية(٢/٤٦٤).

(٣) المصدر نفسه(٢/٤٦٥).

(٤) شرح الرضي على الكافية(٢/٤٦٥).

(٥) الطراز للعلوي (٢/٧٦).

وقال الكفوي:" وإنما سمي ضمير الشأن؛ لأنه لا يدخل إلا على جملة عظيمة الشأن نحو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فإن أحديته جليلة عظيمة"[(١)].

وتبين أن ضمير الشأن أو القصة تفسره الجملة بعده، قال الرضي في الشرح: قصدهم لتفخيم الشأن بذكره مجملا ثم مفصلا[(٢)].

وأنكر د. فوزي أن يكون الغرض من ضمير الشأن التفخيم، مدللا على ذلك بالمثل الذي يضرب للكذاب: هو يلطم عين مهران، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فلا فخامة في عدم فلاح الظالمين[(٣)].

والذي يراه الباحث أن قول الدكتور لا يستقيم، فالمثل ظاهره المدح، وهو كناية عن الذم حيث صفة الكذب، فوافق الضمير ظاهره؛ ثم هوى به في منزلة المذموم فكان ذلك أبلغ في ذمه، فكأن المذكور ارتفع في صيغة الكلام ثم هوى في مكان سحيق، فهوى والناس إلى عاقبة أمره متطلعون.

ويرى بعض الباحثين أن المستشرق الألماني برجشتراسر[(٤)] ذكر في محاضراته أن لضمير الشأن إذا جاء اسما لأنّ أو إنّ فائدة في هذا التركيب؛ ذلك لأنه يمكّن الناطق

---

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص: ٥٧٠).

(٢) شرح الرضي على الكافية (٢/٤٠٧).

(٣) ضمير الشأن والفصل دراسة ومقاربة لسانية، د. فوزي حسن الشايب، منشورة في مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية السابعة والعشرون، جامعة الكويت، ، عدد الرسالة (٢٤٩)، (ص:١٦-١٧)١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٤) برجشتراسر: مستشرق ألماني مشهور، ولد في عام ١٨٨٦م ونال درجة الدكتوراه من جامعة ليبزج سنة ١٩١١م، برسالته عن استعمال حروف النفي في القرآن الكريم، وحاضر في جامعات: ليبزج، وبرسلاو، وهيدلبرج، واستقر به المطاف أخيرا في ميونخ سنة ١٩٢٦م، وانتخب عميدا لكلية الآداب بها سنة ١٩٢٨م. وفي العام الدارسي ١٩٢٩-١٩٣٠م، دعته كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة، لإلقاء محاضرات في النحو المقارن بعنوان: التطور النحوي للغة العربية، وقد طبعت في مصر سنة ١٩٣٠م، ثم دعته الحكومة المصرية مرة ثانية، في العام الدراسي ١٩٣١- ١٩٣٢م؛ =

من إدخال إنّ أو أنّ على الجملة الفعلية نحو: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١]، وهذا مما يشهد بمزية العربية(١).

ومن أولئك الباحثين د.فوزي الذي ذكر أن المستشرق الألماني ذكر أن هذا الأسلوب فيه تكتيك لغوي، وهي مزية اختصت بها العربية دون أخواتها(٢).

والذي يجب على الباحث أن يبينه هو أن هذا المعنى نال قصب سبقه الشيخ عبد القاهر الجرجاني قبل برجشتراسر، حيث قال الجرجاني عند حديثه عن خصائص إنّ:" ومن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللطف ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، وقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:٦٣] ... "(٣).

فقد ألمح الجرجاني من لازم قوله إلى أن هذا الحرف الناسخ لا يصلح دخوله على الجملة الفعلية إلا بضمير الشأن، فضمير الشأن جلب لها الحسن واللطف، ولا يستقيم ذلك لو لم تدخل على ضمير الشأن، ثم استشهد بجملة من الشواهد التي بدأت بفعل أجاز دخول إنّ وضمير الشأن عليها ليحولها إلى جملة اسمية.

=

ليلقي محاضرات في الجامعة عن: نقد النصوص ونشر الكتب، وقد طبعت في كتاب بالقاهرة سنة ١٩٦٩م، في مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية. قضى شهورا في الشام ووضع أطلسا لغويا لسوريا وفلسطين، لقي حتفه إثر تسلق جبل في أغسطس سنة ١٩٣٢م. ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب (ص:١٥٨-١٥٩).

(١) ينظر: التطور النحوي للغة العربية، المستشرق الألماني برجشتراسر (ص:١٣٩).

(٢)ضمير الشأن والفصل دراسة ومقاربة لسانية، د. فوزي حسن الشايب، منشورة في مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية السابعة والعشرون، جامعة الكويت، ، عدد الرسالة (٢٤٩)، (ص: ٢١) ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص:٣١٦).

وبناء على ماسبق فقد آن تحليل الآيات التي ورد فيها ضمير الشأن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] فالضمير في قوله: ﴿أَنَّهُ﴾ ضمير الشأن، قال بذلك العكبري(١)، وابن عادل(٢)، وابن عاشور، وقال:"أي كتبنا عليهم شأنا مهما؛ هو مماثلة قتل نفس واحدة بغير حق لقتل القاتل الناس أجمعين" (٣).

ويلاحظ من بلاغة هذا الضمير أنه جاء كجواب عن سؤال مقدر في الذهن كأنه قيل: ماذا كتب؟ فتمكن الكلام حق التمكن، لكون الضمير مسبوقا بما يؤكده؛ لوقوعه اسما لأنّ، ثم بكونه جاء مبهما ينتظر المستمع بيانه، فلا تتملكه الغفلة، بل يكون حاضر الذهن منصتا لمفسر هذا الضمير، فتأتي الجملة الفعلية العظيمة المجرّمة قتل النفس المحرمة، ناهيك بأن هذه الجملة الفعلية حولها الناسخ واسمه إلى جملة اسمية. وضمير الشأن ليس كأي ضمير بل له صفات خاصة به، تفرق بينه وبين ضمائر الغائب الأخرى(٤)، واختياره دون ما عداه من الضمائر دلّ على أن وراء ذلك بلاغة؛ وذلك لأن الشأن عظيم.

وبذلك يظهر أن ضمير الشأن قد سبق مرجعه، ومرجعه هنا الجملة المفسرة ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ الآية؛ كما ذكر ابن عاشور(٥)، وهذا الضمير يلفت الانتباه واستحضار جميع وسائل الإدراك لأمر عظيم سيأتي، فقاتل النفس الواحدة بغير حق

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٤٣٣/١).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٩٩/٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٨/٥).

(٤) ينظر: صفاته بالمبحث ص(٤٥-٤٦).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٨/٥).

عليه إثم من قتل الناس جميعا، فالجرم فضيع، فجاء بيان جسامة الأمر بضمير الشأن وتفسيره؛ لأن قتل النفس التي حرم الله من الكبائر.

ولما كان الشرك أيضا من الكبائر جاء على هذا الأسلوب على لسان عيسى – عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢]، فالضمير المتصل الواقع اسما للناسخ هو ضمير الشأن كما ذكر الجرجاني، وابن عاشور، وهو من كلام عيسى –عليه السلام- في أحد القولين(١)، زاد ابن عاشور غرضا آخر لضمير الشأن هنا فقال:" يدل على العناية بالخبر الوارد بعده"(٢). وإذا كان المتكلم عيسى – عليه السلام- فإن ضمير الشأن جاء ليبين خطورة الأمر، لاسيما أن الشرك أكبر الكبائر، وتقدير ذلك؛ الشأن من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، وهذه الجملة الشرطية بعده مفسرة له، فجاء الإبهام في دلالة الضمير ثم البيان في الجملة المفسرة ليكون فيه تشويقا للمخاطبين يدعوهم إلى انتظار تفسير الضمير المبهم، فإذا فسّر استقرّ في مداركهم فكان حجة عليهم.

ومثل ما جاء على لسان عيسى – عليه السلام- جاء على لسان يوسف – عليه السلام- مخاطبا إخوته، فقال الله في خبره: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠]، فالضمير في قوله:﴿إِنَّهُۥ﴾ ليس له مرجع يسبقه، بل هو مبهم تتبعه الجملة التي تفسره وهي الجملة الشرطية. وهو ضمير الشأن كما ذكر العلوي الذي ذكر أن من خصائص إنّ؛ أنها تكسو ضمير الشأن أبهة وبلاغة يعرى

---

(١) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (٦٨٣/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٠/٥-١٧١).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧١/٥).

عنها إذا هو فارق ظلها(١)، وممن سماه ضمير الشأن النويري(٢)، وفسره عبدالرحمن حسن حبنكه بقوله:"إن الشأن العظيم الذي يعظم لدى أولي الألباب هو ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ...﴾"(٣). وهذا الكلام جاء على لسان يوسف - عليه السلام- الذي خاطب أخوته وقد بدر منهم ما تحسروا عليه، فقدم الضمير المبهم ليقع مفسره من نفوسهم موقعه؛ فقد بلغ هذه المنزلة بأمرين: التقوى في موقفه من امرأة العزيز حيث لا يصمد فيه إلا الأتقياء، والصبر على السجن، وكلا الأمرين لهما شأن عظيم، فجاء ضمير الشأن تعظيما لمفسره المرتقب، وتفسير الضمير بمن يتق ويصبر، فيه تأمين للجناة، وختم الآية بالمحسنين دلت على أن هاتين الصفتين شملت حقوق الله وحقوق خلقه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤]، فدلّ ذلك على أن ضمير الشأن قد جاء مفسره جامعا مكارم الأخلاق، فقد تقدمت صفات لها شأن عظيم. ويقوي ذلك ما ذكره ابن عاشور من كون مجيء المحسنين من باب وضع الظاهر موضع المضمر، فلم يقل: فإن الله لا يضيع أجرهم(٤)، بل ذكر الصفة الجامعة الموجزة، والله أعلم.

ومثل ذلك قول السحرة الذين سجدوا إيمانا برب موسى وهارون(٥)، وكان من قولهم: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ ﴾ [طه:٧٤]، وقد صدروا هذا القول بضمير الشأن، وممن ذكر أنه ضمير الشأن أبو علي الفارسي(١) وابن

---

(١) ينظر: الطراز للعلوي (١٠٩/٢).

(٢) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري(٨١/٧) .

(٣) البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٥٠٧/١) .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١١٣/١٢) .

(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن(١١٩/١٦)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٣/٤).

(١) ينظر: التعليقة على كتاب سيبوية للفارسيّ (١١٤/١).

دُرُسْتَوَيْه[1] والرازي[2] والعكبري وغيرهم[3]. ولا شك أن هذا الأسلوب من أنسب الأساليب التي تدل على يقين السحرة بعد إيمانهم، بدليل قوله: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه:٧٢]، فقابلوا تهديد فرعون بهذا الأسلوب المفاجيء، فقدموا ضمير الإبهام، المتصل بالناسخ المؤكد، ثم يأتي المفسر ليستقر في ذهن هذا المجرم؛ حاملا بين حروفه الردع والزجر، فهو موصوف بالإجرام ومتوعد بجنهم لا يموت فيها ولا يحيى، فلم يأت ضمير الشأن هنا على لسان السحرة المؤمنين إلا لأن الأمر جلل والمآل خطير، وإيمانهم ويقينهم قد جرأهم على ذلك، فلم يخشوا فرعون بهذا الأسلوب.

ويقوي فخامة المواجهة، اختلاف أسلوبهم عند حديثهم عمن يأتي ربه مؤمنا فذكر الله قولهم: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه:٧٥] فاستعمل الأسلوب المباشر من غير إبهام في ضمير ينتظر المتلقي بيانه.

ومثل ذلك التهديد العظيم الذي يجذب انتباه السامع، فيبين له بجملة بعد ضمير مبهم، جعل السامع يستجمع فكره، وينتظر تفسير هذا الضمير، فإذا تفسيره تهديد ووعيد يقيم الحجة عليه، قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ [التوبة:٦٣]، فاجتمع في هذا الأسلوب حرف أنّ الذي يفيد التوكيد، ثم ضمير الشأن الذي يحمل صفات لا يشترك معه سواه من الضمائر، مع ما في هذا الضمير من الإبهام على شريطة التفسير، هذا الأسلوب الذي يشوق المتلقي إلى الخبر ذي الشأن العظيم، فيفاجأ بخبر قاصم فيه تهديد ووعيد عظيم لمن يحادد الله ورسوله، فلا تنصرف الأذهان إلا وقد بلغ الخبر فيها مبلغه، فقامت الحجة المدوية.

---

(١) ينظر: تصحيح الفصيح وشرحه لابن دُرُسْتَوَيْه (ص:٤١٢).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٧٨/٢٢).

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(٨٩٨/٢).

فلا يؤتى بهذا الضمير المبهم إلا إذا كان مفسره له شأن عظيم، ومعاداة الله عز وجلّ ورسوله -ﷺ- من أعظم ما يحذر عنه، لما يترتب على المتصف بذلك الخلود في جهنم والخزي العظيم. فهذا المفسر له شأن؛ فهو تصدر ما يستحق التحذير منه، والتقدير في ذلك أنه من الممكن حذف ضمير الشأن، ووضع لفظة الشأن بدلا منه، فيقال هنا: الشأن من يحادد...، والشأن لا يكون إلا في أمر عظيم، وخطب جسيم.

وقد أشار العلماء -من قبل- إلى الحسن الذي تضيفه (أنّ) في دخولها على ضمير الشأن، وهذا اللطف لا يرى إذا هى لم تدخل عليه، وقد ذكر ذلك الجرجاني وتبعه بعض من جاء بعده وأضاف الزركشي وغيره أن يكون مفسر ضمير الشأن جملة شرطية[1]، واستدرك الزركشي أن حسنها بدونها في قوله تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١]؛ لفوات الشرط[2].

وأشار الرازي إلى أهمية ضمير الشأن في هذه الآية، وقلة التأثير لو اقتصر على أنّ واسمها وخبرها بدون هذا الضمير، فقال الرازي:" فالضمير في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ ضمير الأمر والشأن، والمعنى: أن الأمر والشأن كذا وكذا. والفائدة في هذا الضمير هو أنه لو ذكر بعد كلمة (أنّ) ذلك المبتدأ والخبر لم يكن له كثير وقع. فأما إذا قلت الأمر والشأن كذا وكذا؛ أوجب مزيد تعظيم وتهويل لذلك الكلام"[3].

وقال ابن عاشور:"والضمير المنصوب ب﴿أَنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، وفُسر الضمير بجملة ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ إلى آخرها. والمعنى: ألم يعلموا شأنا عظيما؟ هو من يحادد الله ورسوله له نار جهنم"[1].

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص: ٣١٧)، وينظر: الطراز للعلوي (١١٧/٢)، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٨١/٧)، والبرهان في علوم القرآن(٤٠٧/٢).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٤٠٧/٢).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٩٢/١٦) .

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٨/١٠) .

ومما أرشد الله إليه نبيه - ﷺ - قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام:٥٤]، فقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا﴾ اشتملت على ضمير الشأن الواقع اسما لأن الناسخة[(١)]، وفي التفسير بعد الإبهام معنى البشارة ببيان سعة رحمة الله، وقبوله توبة عبده، وهذا له شأن عظيم، يدخل الطمأنينة على المتلقي، فالأمر والشأن ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾...، وقد ذكر الجرجاني أن أن الناسخة بدخولها على ضمير الشأن أضافت عليه حسنا ولطفا، ولا يصلح حيث صلح إلا بها[(٢)]. ولا يعني ذلك أن ضمير الشأن لا يصلح إلا بها على الدوام؛ لأنه قد صلح بدونها في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

ولخطر الشيطان فقد جاء ضمير الشأن[(٣)] في صدر التحذير منه فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٤] وأعاد ابن عطية وابن عاشور الضمير في ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ إلى الشيطان[(١)]، والباحث يرى في ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأولى ضمير الشأن، فالآية بدأت بما يوحي بالوجوب والقضاء تصريحا، ثم جاء الإبهام بضمير الشأن؛ لأن الشأن من تولاه فأنه يضله، وهذا التحذير أشد من

(١) ينظر: دلائل الإعجاز(ص: ٣١٧)، الطراز للعلوي (٢/١١٧)، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري(٧/٨١) .

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز(ص: ٣١٧).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٩/١١٠)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٤/١٥)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٨/٢٣٠)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/٦٤).

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/١٠٧)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/١٤١).

الاكتفاء بالحرف الناسخ، واجتماع الحرف الناسخ وضمير الشأن يناسب شدة الخطر، فبدا بلفظة كتب، ثم التوكيد، ثم الإبهام وما يحدثه من ترقب لدى المتلقي، ثم يلقى إليه الخبر المفسر ليتمكن في ذهن المتلقي خير تمكن، فيكون في ذلك تأكيد وتفسير بعد إبهام، وهذا أبلغ في إدراك السامع للخبر.

وإذا كان الأسلوب الذي ورد فيه ضمير الشأن فيما مضى مشتملا على جملة شرطية، فقد ورد في مواطن من القرآن خلوا من الشرط، ومكتفيا بحرف التوكيد الناسخ، وضمير الشأن، وذلك في آيات ذيلت بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ... ﴾ وإذا استعرض الباحث سياق ذلك في مواطنه المختلفة يجد أن أغلبه جاء محكيا على لسان نبي أو موجها به، ففي الأنعام جاء في سياق الحديث عن توجيه الله لنبيه -ﷺ- في محاورته للمشركين المكذبين بنبوته[1] فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١]. وكذلك الآية ١٣٥ من الأنعام التي اشتمل آخرها على ضمير الشأن فقد جاءت توجيها من الله لنبيه محمد ﷺ [2]؛ ليقول لقومه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام:١٣٥]. وأما ختام الآية ١٧ من سورة يونس فجاء كذلك على لسانه -ﷺ- بعد قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٦-١٧].

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن(١٨١/٩).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(٥٦٧/٩).

وفي سورة يوسف فقد جاء على لسان نبي الله يوسف- عليه السلام- ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣]، وفيها ضميران للشأن.

وكذلك مما جاء على لسان نبي ما قاله موسى –عليه السلام – لفرعون وقصه الله علينا في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [القصص:٣٧].

إلا أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧]، مع كونه مذيلا بضمير الشأن لم يأت على لسان بشر، بل كلام خالص لله سبحانه وتعالى في قضية هي كبرى القضايا وأهمها وهو التوحيد.

والذي يريد الباحث أن يخلص إليه بعد أن ساق هذه الآيات المتشابهة، ووقف على ختمها بضمير الشأن المسبوق بحرف التوكيد، هو القول بأن جميع هذه المواضع جاءت على ألسنة أنبياء؛ يستثنى من ذلك ما ذيلت به الآية التي حرمت الإشراك لكونه يحبط عمل المشرك كائنا من كان، وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧]، ولم يأت هذا على لسان نبي لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥]، فجاء هذا الأسلوب في النهي عن الشرك، واستعمل هذا الأسلوب لعظيم معناه، فحكم الله عام على جميع خلقه، واستعمل هذا الأسلوب الأنبياء أيضا لعظم شأنه إضافة لكونه مسبوقا بالتوكيد؛ لما في هذا الأسلوب من إقامة الحجة على المدعوين، فجاءوا بأسلوب له شأن؛ يملك ذهن المتلقي بالضمير المبهم ضمير الشأن؛ ثم يعلمه الخبر بعد التنبيه إليه. وهذا متمثل فيما ذيلت به الآيات السالفة وتصدره ضمير الشأن مسبوقا بالمؤكِّد، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾[الأنعام:١٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس:١٧]، وقوله:﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:٢٣]. قال النحاس:"الهاء كناية عن الحديث، والجملة خبر"[1]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾ [القصص:٣٧]. فهذا الأسلوب اجتمع فيه مما يقيم الحجة على المتلقي أساليب عدة، أولها التوكيد بحرف التوكيد، ثم ضمير الشأن المنفرد في صفاته عن جميع الضمائر؛ الذي ينبه إلى متحَدَّث عنه سيأتي الإعلام به، مما يوجب استحضار ذهن المتلقي، ثم يأتي المفسر مصرحا به بعد إبهام، ومذكورا بعد توطئة، فيأتي هذا الخبر جملة لا يستغنى بأحد ركنيه عن الآخر، ليستقر مكتملا في ذهن المتلقي، يدركه حق الإدراك؛ فتقوم عليه الحجة بذلك، فسبحان من أبهر كلامه الحاذقين، وقصر عن الإتيان بمثله لسان الخطيب المِصقَع والشاعر المِفْلِق.

وقد قال شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني مشيدا بهذا الأسلوب أنه:" يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين، ما لو قيل: (إن الكافرين لا يفلحون) لم يستفد ذلك. ولم يكن ذلك كذلك، إلا أنك تعلمه إياه من بعد تقدمةٍ وتنبيه، أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطّد، ثم بنى ولوّح ثم صرّح. ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق"[2].

فيفهم من كلام الجرجاني الذي برهن على صحة ما ذهب إليه بعد وقوفه على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الحج:٤٦][3]، ثم الآية التي ذكرها الباحث في قول الجرجاني؛ لمناسبتها للمبحث، ففُهم من قوله السابق أن تقديم الضمير المبهم في هذه الآيات هو أبلغ من الاكتفاء بحرف التوكيد الناسخ، مع أنه يفيد التوكيد والاستغناء

---

(١) إعراب القرآن للنحاس(٢/١٩٩).

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص:١٣٣).

(٣) ينظر كلام الجرجاني على هذه الآية والذي تكتمل الفائدة به في موطنه من المبحث اللآتي (ص: ٥٢٨).

عن الضمير المبهم، والتنبيه بضمير الشأن إلى الخبر القادم يجذب الأذهان؛ لانتظار تلقي البيان والتفسير، فإذا جاء الإعلام بعد التنبيه كان أثبت وآكد، فضمير الشأن كالمقدمة لمفسره، تقدم منبها وممهدا لمفسره، فيكون ذلك أقوى لثبوته في ذهن المتلقي. وهذا لا يكون لو قدم الخبر دون التوطئة إليه، فالمعنى المنشود لا يكتمل إلا بهذا التركيب القرآني؛ ليؤدي المعنى المقصود في الآية، ولو عدل عنه إلى غيره لاختلّت القوة أو أُتي بدلالة غير المرادة، فالمراد تمكن وثبات الخبر ذي الشأن العظيم في أذهان المتلقين؛ لإقامة الحجة عليهم. وهذه القوة التي نالها المعنى بذلك التركيب، لا تتوفر في المثال الذي ضربه الجرجاني (إن الكافرين لا يفلحون) فهذا مجرد خبر مؤكد، والمتلقي محل نظر الجرجاني، فتركيب الآية أشد تمكنا وثباتا في نفس المتلقي من المثال الذي قارنه الجرجاني بالآية؛ ليبين الميزة والشرف لها.

وقال ابن عاشور متكئا على كلام الجرجاني:"وموقع (إنّ) في هذا المقام يفيد معنى التعليل للجملة المحذوفة، كما تقرر في كلام عبد القاهر، وموقع ضمير الشأن معها أفاد الاهتمام بهذا الخبر اهتمام تحقيق؛ لتقع الجملة الواقعة تفسيرا له في نفس السامع موقع الرسوخ"(١).

واستكمالا لأحد ضميري الشأن الذي جاء على لسان نبي الله يوسف – عليه السلام- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:٢٣]، وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، قال الفراء: "يعني مولاه الذي اشتراه. يقول: قد أحسن إليّ فلا أخونه"(٢). وقيل عني الله –عز وجلّ- أو الملك(٣). وإذا كان الرب هنا هو الله فلا ضمير شأن حينئذ؛ لأن هذا الضمير بهذا المعنى يعود إلى لفظ الجلالة قبله، والذي يراه الباحث أن الضمير ضمير الشأن؛ فالأقرب أن الرب هنا هو العزيز، وهو

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦/٥٠).

(٢) معاني القرآن للفراء(٢/٤٠).

(٣) ينظر: معاني القرآن للنحاس(٣/٤١٠)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٣/٢٣٣).

الذي سخره الله لتربيته، والتي تراود زوجته يوسف. وبهذا المرجع قال كثير من المفسرين[1]، وهو القائل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف:٢١]، ومن قال إن الضمير عائد إلى زوج المرأة المراودة فقد جعل الضمير للشأن، وهو الصواب والله أعلم.

فاستعمل يوسف-عليه السلام- ضمير الشأن لأن الشأن عظيم، واستعماله لهذا الضمير مناسب لجسامة الطلب مقارنة بعظيم الإحسان الذي لايخان، فقوله: ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ منبيء عن قرار عظيم سيأتي يتطلب انتظاره، ثم يردفه بضمير شأن آخر هو بمثابة التعليل لهذا الامتناع، فحمل ضمير الشأن معنى تفخيم الأمر وتهويله، حيث حفظ النعمة وعدم خيانة صاحب الإحسان، وختم بمراقبة الخالق سبحانه.

قال أبو السعود في ذلك:" والضمير للشأن، ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره، وفائدة تصدير الجملة به للإيذان بفخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر، فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن، فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا، ... وفيه إرشاد لها[2] إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه"[3].

ويقول الألوسي:" والضمير للشأن، وفي تصدير الجملة به من الإيذان بفخامة مضمونها ما فيه، مع زيادة تقريره في الذهن، أي: إن الشأن الخطير هذا، أي: هو ربي، أي: سيدي العزيز أحسن تعهدي، حيث أمرك بإكرامي على أكمل وجه، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه؟! وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه"[1].

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٣/٧٨)، والكشاف للزمخشري (٢/٤٥٥)، ومفاتيح الغيب للرازي (١٨/٤٣٨)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١١/٥٨-٥٩).

(٢) أي لامرأة العزيز.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٤/٢٦٥).

(١) روح المعاني للألوسي (٦/٤٠٢).

وجاء ضمير الشأن على لسان يعقوب-عليه السلام- في قول الله -عز وجلّ- في خبره: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف:٨٧]، إن الأمر والشأن لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون[١]، فمَنْ يرجو مَنْ يأس مِن فضل الله؟ ويظهر في هذا أن ضمير الشأن جاء مفصحا عن شأن عظيم، حقه أن يعتقد حق الاعتقاد، فلذلك أبهم هذا الشأن ثم بينه، فوعاه السامع وعيا تاما، والذي دعاه إلى استعمال هذا الأسلوب الدال على الفخامة والشأن العظيم هو فقدان ابنيه؛ ولأن اليأس من روح الله أعظم خسران في الدنيا والآخرة.

ولما سار موسى بأهله متجها إلى نار رآها سمع كلاما أوله: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [النمل:٩]، فتبين أن الضمير ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ لم يسبق بكلام لحظة الحدث، فلا مرجع له قبله، فتعين بذلك أنه ضمير الشأن، ولا شك أن الله هو أعظم العظماء، والتقدير: الشأن أنا الله، ولكل قارىء أن يتخيل ذلك المشهد الذي يكتنف نبي الله موسى -عليه السلام- وتلك الفرحة التي جاء بها الخبر المكون من الجملة الاسمية، والتي تفيد الثبات، فقد فسرت ضمير الشأن المبهم، فبهذا الأسلوب المشوق تملك موسى -عليه السلام- الأنس والطمأنينة، وكفى بهذا المقام تعظيما وتشريفا وتفخيما.

وقد ذكر الفراء صفات هذا الضمير ليقرر أنه ضمير الشأن[١]، وصرح الطبري والعكبري وغيره بأنه ضمير الشأن[٢]، وقال ابن عاشور :"لأن ضمير الجلالة شأنه عظيم"[٣].

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (١٣١/٢).

(١) معاني القرآن للفراء(٣٦١/١).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن(١٣/١٨)، والكشاف للزمخشري (٣٠٥/٣)، ومفاتيح الغيب للرازي (٥٤٤/٢٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢١٢/٨)، والتبيان في =

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩]، فالتوحيد هو أهم المهمات وأوجب الواجبات؛ لذلك جاء النظم على هذا الأسلوب الذي يستحضر الذهن؛ قبل أن يلقي الخبر إليه، فإذا سمعه بعد انتظار وعى المقصود، وبلغ مبلغه.

وسورة الجنّ اشتملت على ضمير الشأن في غير موضع، ولعل ذلك لما تحمله هذه السورة مما يستدعي الدهشة، حيث اتصال غيبي بنبي أنسي من جنّ يتوارون عن الأنظار، وتعز رؤيتهم على الأعين، فلم يرهم -ﷺ- ولم يعلم تجمعهم إلا بالوحي؛ ولما تحمله هذه السورة من الأخبار ذات الفخامة، فقد تكرر فيها ضمير الشأن، فتبدأ السورة بذلك حيث قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ [الجن:١]، قال ابن عاشور:" وضمير ﴿أَنَّهُ﴾ ضمير الشأن وخبره جملة ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وفي ذلك زيادة اهتمام بالخبر الموحى به"[٢]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن:٣]،كما ذكر ابن عاشور[١]، وفي هذا الأسلوب دلالة على ما يعتقده هؤلاء الجنّ في ربهم، صرحوا به في وقت نسب كفار قريش لله -عز وجل- الولد والصاحبة، فهو تعريض بأولئك. أتى الجنّ بضمير الشأن المؤكد ﴿أَنَّهُ﴾؛ لأن المفسر له شأن عظيم ويشتمل على أمر مدهش يثير العجب، فجاء التفسير بقوله: ﴿ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، جاء بعظمته بعد

=

إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١٠٠٥/٢)، وروح المعاني للألوسي (١٥٧/١٠)،و اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١١٥/١٥)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي(٥٧٥/٨) .

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٩/٢٠).

(٢) المصدر: (٢٠٤/٢٩).

(١) المصدر: (٢٠٧/٢٩).

الضمير المبهم، وفيه تعريض بمن لم يؤمن من الإنس فجادل وتولى، فهذا التركيب يجعل المتلقي إذا سمع الضمير ينتظر مفسره في كل شوق ولهفة فإذا سمعه وعاه حق الوعي، جاء هذ التركيب بشأن عظيم يخالف ما يعتقده كفار العرب، وما أجمل هذا التركيب الذي يقرع آذان كفار العرب لينفذ إلى أذهانهم فتقوم عليهم الحجة بذلك! ثم يأتي الأسلوب نفسه ويتكرر على لسان الجنّ؛ فيقول سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾[الجن:٤]، وسفيههم هو إبليس ومردته، قال بذلك غير واحد من المفسرين(١)، وذكر الكرماني وابن عادل في اللباب أن الهاء في ﴿ وَأَنَّهُۥ ﴾ للأمر أو الحديث(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن:٦]، ويظهر أن الغرض من ضمير الشأن هنا هو التهويل والتفضيع.

وورد في هذه السورة ضمير شأن مستتر اسم لأنْ المخففة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الجن:٥]، وقوله: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الجن:١٢]، وقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾ [الجن:٧] قال الألوسي:" وأنْ مخففة من الثقيلة؛ اسمها ضمير الشأن، والجملة بعدها خبر وجملة"(١). وضمير الشأن هنا محذوف كما ذكر ابن عاشور(٢).

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٩/٤٣).

(٢) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (٢/١٢٦١)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٩/٤١٥).

(١) روح المعاني للألوسي (١٥/٩٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/٢١٠).

ويتكرر هذا الأسلوب في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجن:١٦]، وكذلك قوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن:٢٨].

وورد ضمير الشأن أيضا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن:١٩] وذكره جمع من العلماء(١)، ويحتمل أن يكون خطابا من الله تعالى، ويحتمل أن يكون إخبارا عن الجن(٢)، ورأى الزمخشري أنه واقع في كلام النبي عن نفسه، جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل(٣). وهذا التركيب يصور مشهد تعظيم الجن للنبي -ﷺ- لما قام يدعو الله، ولم يعلموا أنه نبي، ولم يكن في ذلك المقام مرسلا إليهم، ولذلك سماه الله عبد كما قال الرازي(٤)، ولما مرّوا به عظموه، فكان أنسب تصوير لهذا التعظيم أن يؤتى بالتركيب على ما جاء عليه في الآية، فبدأ بالحرف الناسخ يتلوه ضمير الشأن الذي يفيد الإبهام المتبوع بما يفسره؛ لأن المقام كبير والشأن عظيم، وهو يناسب عدم معرفة الجن بعبد الله، ثم تمكنوا من خبره، وأْتموا به، فناسب التركيب حيث الإبهام ثم البيان.

وجاء في اللباب تصوير هذا المشهد العظيم الذي صوره التركيب بضمير الشأن، فقال الزبير بن العوام -رضي الله عنه-: هم الجن حين استمعوا القرآن من النبي -ﷺ- أي: كاد يركب بعضهم بعضا ازدحاما عليه، ويسقطون حرصا على سماع القرآن

---

(١) ينظر: الطراز للعلوي (٧٦/٢)، والبرهان في علوم القرآن(٤١٠/٢).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٨٣/٥).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٦٣٠/٤).

(٤) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٥٤٢).

العظيم. وقيل: كادوا يركبونه حرصا، قاله الضحاك. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما-: رغبة في سماع القرآن، وذكر أنه من قول الجنّ لما رجعوا إلى قومهم[1].

فسورة الجنّ سورة حافلة بضمير الشأن، حيث جاء على صورتين:

الصورة الأولى: أتى ضميرا بارزا بعد الحرف الناسخ الذي أكّده.

الصورة الثانية: جاء بعد أنْ المخففة من الثقيلة، وجاء في هذه الصورة مستترا.

ولعل السبب كون هذه السورة سورة الجنّ تحمل أخبارا غريبة على البشر، حملت أخبار الجن الذين يعز على الإنس رؤيتهم، واعتقد بهم الأنس في ذلك الوقت اعتقادات باطلة، وحملت من الأخبار إيمان هؤلاء الجنّ بهذا الدين، وتوحيدهم، وتسفيههم من قال على الله غير الحق، وأنهم منعوا من استراق السمع، ونحو ذلك من الأخبار العظيمة، التي لا يفي بقوة معناها إلا هذا التركيب المشتمل على ضمير الشأن، بصورتيه المذكورتين. ووراء ذلك تبكيت لكفار الأنس الذين رآهم النبي -ﷺ- وجالسهم هاديا فلم يهتدوا. فبذلك كثرت الأغراض، وتنوعت المواطن.

والغرض من وضع ضمير الشأن موضع الاسم الظاهر التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان في حق الكفار، أو نحو ذلك كما سبق، وهذا من خصائصه في أصل الوضع اللغوي واستعمالات العرب له [2].

ويأتي ضمير الشأن على ألسنة الملائكة وهم يخاطبون إبراهيم - عليه السلام- وقد بلغ منه الروع مبلغة، وذهب بالبشرى الخارقة للعادة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾ [هود:٧٦].

فضمير الشأن في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ﴾ يحمل تفخيما وتعظيما لما سيكون، ولعل فيه إزالة اللبس كيلا يظن أن الضمير عائد إلى اسم الإشارة، فالضمير مبهم وبيانه أن

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٩/٤٣٤)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن(٢٣/٣٤٣-٣٤٤)، و الكشاف للزمخشري (٤/٦٣٠).

(٢) البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١/٥٠٨).

الشأن قد جاء أمر ربك، فهذا الخطب المحدق بهم، والعذاب الذي لا يرد عظيم شأنه؛ لذلك أبهم الضمير ثم فسر؛ كي يستقر الخبر ويتأكد وقوعه، وحينئذ يذهب الروع عن إبراهيم- عليه السلام- ويوقن بالنصر من الله، وفي إضافة الأمر إلى قوله:﴿ رَبِّكَ ﴾ تأمين له عليه السلام.

ويلاحظ أن ضمير الشأن هذا الذي من صفاته الإبهام ثم بيان الجملة المفسرة له يناسب حال إبراهيم -عليه السلام- لما أصابه الروع، فالحدث مبهم أدخل عليه الفزع، ثم تبين بالبيان أنه خير له، فهم ملائكة مبشرون، فالإبهام ثم التفسير في التركيب اللفظي يناسب الإبهام والتفسير في المشهد الذي تمثل في حال نبينا إبراهيم، عليه السلام.

ويتكرر ضمير الشأن في السورة نفسها في تخصيص امرأة لوط بالذكر، وأنه سيصيبها ما أصاب القوم، فقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾[هود:٨١]، وممن صرح بأنه ضمير الشأن ابن أبي الحديد[(١)]، وابن عادل[(٢)]، والسمين الحلبي[(٣)]، وأبو السعود وقال:"وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم"[(٤)]، والألوسي وقال:"وفي الإبهام واسمية الجملة والتأكيد ما لا يخفى"[(٥)].

وفي ضمير الشأن من التهويل ما فيه، فهو إبهام ينتظر تفسيره، فتأتي جملة ﴿ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾؛ لتفسر هذا الضمير المبهم بهذا الخبر الذي هو كالصاعقة، خبر تركب من الجملة الاسمية فزادت التوكيد توكيدا، واستقر ذلك الشأن وتأكد وقوعه.

(١) ينظر: الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (٢٥٥/٤).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٤٠/١٠).

(٣) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٣٦٩/٦).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢٣٠/٤).

(٥) ينظر: روح المعاني للألوسي (٣٠٨/٦).

ويأتي ضمير الشأن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٩]، وبيّن الطبري أن هذه الهاء في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ هي الهاء التي يسميها أهل العربية المجهولة(١) وكذلك ابن عطية وذكر أن الآية تقال للكفار على جهة التوبيخ(٢)، وسماه البيضاوي ضمير الشأن(٣). وذكر ابن عاشور أن الجملة مؤكدة بإن وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم(٤).

وإبهام الضمير ثم تفسيره بحال فريق من عباد الله كان يسخر منهم أولئك؛ فيه توبيخ وتبكيت شديد لهؤلاء الساخرين، فهم ينتظرون بعد ضمير الإبهام ما فيه نجاتهم، فيفاجؤون بمفسر فيه ما يسوؤهم، ويؤيسهم ويزيد حسرتهم حسرة.

ويأتي ضمير الشأن خاليا من أنّ أو إنّ الناسخة، ومن الجملة الشرطية وذلك في مثل قوله تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾[الإخلاص:١]، وهذا ما أشار إليه الجرجاني بقوله: "قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرى من العوامل" وذكر أن بعضهم جوز أن لا يكون الضمير للأمر(٥)، ومن لم يجعلوه ضمير شأن أعربوه مبتدأ بمعنى المسؤول عنه(١). والأغلب على أنه ضمير شأن، وبناء على ذلك فمرجع الضمير ﴿ هُوَ ﴾ تالٍ له، وهي الجملة الاسمية ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وفي ذلك خلاف. ولا شك أن هذه السورة جواب عن سؤال سأله المشركون النبي ﷺ. فعن أبي بن كعب رضي الله

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٢٥/١٧)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٤/١٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٥٧/٤).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٩٦/٤).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٥/١٨).

(٥) دلائل الإعجاز للجرجاني(ص:٣١٧).

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (١٣٠٩/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٥٣٦/٣٠).

عنه: أن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص:١-٢][(١)].

وقال فيه الشيخ محمد محمد أبو موسى:" هو ضمير الشأن ومفسره الجملة بعده، وواضح أن مضمونها معنى كبير هو محور الصراع في تاريخ البشرية، ولو قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، لما وجدت للكلام هذا الأثر، وهذه القوة التي تحسها النفس من هذه التهيأة المؤذنة بأن ما سيأتي بعدها كلام له خطر عظيم"[(٢)].

ويندرج هذا تحت ما ذكره الرضي في ضمير الشأن بقوله:" تقول مثلا هو الأمير مقبل، كأنه سمع ضوضاء وجلبة، فاستبهم الأمر فسأل: ما الشأن ؟ فقيل: هو الأمير مقبل، أي: الشأن هذا"[(٣)].وأردف الرضي قائلا:"والقصد بهذا الإبهام ثم التفسير: تعظيم الأمر "[(٤)].

وفيما سبق رد على ما ذهب إليه الدكتور فوزي الذي فكك التركيب ليفسد فضيلة ضمير الشأن، بقوله: إن الآية جواب عن سؤال، فناسبت الآية المناسبة، وقوله هذا حجة عليه لا له، بل هو معنى قول الرضي الآنف، الذي جعله برهانا على فخامة الجملة المفسرة[(١)] ناهيك بأن التقديم والتأخير وطريقة التأليف والسبك لا يكون جزافا، ولكن تابع لما تكون في نفس المتكلم البليغ من معنى، وهذا يفسد التفكيك التي جعلها إحدى أدواته.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، من كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، تفسير سورة الإخلاص (٥٨٩/٢) رقم الحديث: ٣٩٨٧.

(٢)خصائص التراكيب لأبي موسى (ص: ٢٤٢).

(٣) شرح الرضي على الكافية(٤٦٤/٢).

(٤) المصدر نفسه(٤٦٥/٢).

(١) ضمير الشأن والفصل دراسة ومقاربة لسانية، د. فوزي حسن الشايب، منشورة في مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية السابعة والعشرون، جامعة الكويت، ، عدد الرسالة (٢٤٩)، (ص:٢٢-٢٣) ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

وواضح في الآية الأولى أن الضمير ﴿هُوَ﴾ لم يعد على مرجع يسبقه لا لفظا ولا معنى إلا ما بينه سبب النزول، لكنه في النظم متبوع بما يفسره، وما أخر المفسر إلا لنكتة بلاغية، ويظهر أن الداعي إلى هذا الأسلوب الفريد هو سؤال السائلين، فجاء الجواب مبدوءا بضمير هو ضمير الشأن ويفيد القصر، ومفسره جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، فهو الإله الحق على الدوام، والقصر ينفي الألوهية عن غيره، والضمير المبهم يتبعه شأن عظيم، ومفسر هو سبب الخلق والإيجاد؛ ولتوحيده أرسل الرسل وأنزل الكتب.

قال الدكتور فاضل السامرائي: "المشهور أن ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن خبره الجملة بعده وهي: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومعلوم أن ضمير الشأن يؤتى به في مواطن التفخيم والتعظيم، فدل ذلك على جلالة ما بعده وفخامته"(١).

واستشهد السكاكي بهذه الآية على وضع الضمير موضع الشأن، وذكر أن بلاغته في كونه يتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، وذلك أن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظرا لعقبى الكلام، كيف تكون؟ فيتمكن المسموع بعده فضل تمكن في ذهنه، وهو السر في التزام تقديمه(٢).

وفسر الدسوقي معنى هذا التمكن في حاشيته على مختصر المعاني فقال: "السامع متى سمع الاسم المظهر فهم منه مدلوله ولو إجمالا، بخلاف الضمير الغائب فإنه لا يفهم منه إلا أن له مرجعا في ذهن المتكلم، وأما أن ذلك المرجع فما هو؟ فلا يفهم من نفس ذلك الضمير بحسب الوضع، فلم يشتد الإبهام في الاسم المظهر مثل الضمير، وحينئذ فلم يتحقق فيه التشوق، ثم إن ما عللوا به التمكن من الانتظار والتشوق إنما يتحقق

(١) على طريق التفسير البياني، د. فاضل صالح السامرائي(١/٥٩).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ١٩٨)، والإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (٢/٨٢)، والطراز للعلوي (٢/٧٦)، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة(١/١٣٤)، عروس الأفراح للسبكي (١/٢٦٥)، والبلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١/٥٠٧).

عند وقوع مهلة بين ذكر الضمير ومفسره مثلا، ولا قائل بأن مفسر الإضمار قبل الذكر يتوقف على السكوت بعد ذكر الضمير، وبه يعلم أن هذه ملح وطرف تجب مراعاتها، ولو لم تحصل بالفعل، ويؤخذ من هذا أن ما يراعيه البليغ يكفي تخيل وجوده،... وجه الأعزية أن فيه أمرين: لذة العلم، ولذة دفع ألم التشوق، بخلاف المنساق بلا تعب، فإن فيه الأول فقط، ولا شك أن اللذة المشتملة على دفع الألم أحلى من اللذة الموجودة بدونه"(١).

وقال ابن يعقوب المغربي:"وإنما يوضع الغيبة مكان المظهر (ليتمكن ما يعقبه) أي: ليتمكن ما يجيء عقب على عقب الضمير (في ذهن السامع) وإنما اقتضى الإضمار قبل الذكر التمكنُ؛(لأنه) أي: لأن السامع (إذا لم يفهم منه) أي من الضمير (معنى) لكونه ضمير غيبة لم يتقدم له معاد، (انتظره) أي: انتظر السامع ما يعقب الضمير، وهو ما يعين المراد منه، فإذا جاء بعد الانتظار والتشوق كان أوقع في النفس؛ وذلك لأن حصول العلم بعد التشويق فيه لذة العلم، ودفع ألم الشوق، واللذة المشتملة على دفع الألم أحلى من مجرد اللذة الحاصلة بدونه، وهذا ظاهر ضمير الشأن"(٢).

وهذا الإبهام ثم التفسير له أثر في ثبوته في ذهن السامع، وهو ما أشار إليه البلاغيون ومنهم العلوي الذي يقول:" فاعلم أن ضمير الشأن والقصة على اختلاف أحواله، إنما يرد على جهة المبالغة فى تعظيم تلك القصة، وتفخيم شأنها، وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولا، وتفسيره ثانيا؛ لأن الشيء إذا كان مبهما فالنفوس متطلعة إلى فهمه، ولها تشوق إليه؛ فلأجل هذا حصلت فيه البلاغة؛ ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرد إلا فى المواضع البليغة المختصة بالفخامة"(١).

ومن خلال ما سبق من شواهد ودراسة، تبين للباحث في هذا المبحث أن ضمير الشأن يسميه البصريون ضمير الشأن والقصة والحديث، وأما الكوفيون فيسمونه الضمير

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني للتفتازاني(٤٥١/١).

(٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (٤٥٠/١-٤٥١).

(١) الطراز للعلوي (٧٦/٢).

المجهول، ومنهم من يسميه ضمير الأمر، والسابقون منهم كالفراء يطلقون العماد على ضمير الشأن والفصل.

ومن أغراض ضمير الشأن التفسير بعد الإبهام للتعظيم، ولا يكون إلا لذي بال؛ لأن النفوس تتطلع وتتشوق إلى فَهْم ما أُبهَم، وقد يكون ضمير الشأن جوابا لسؤال مقدّر تقديره؛ ما الشأن؟ فيقال: هو كذا وكذا. فلذلك لا يأتي إلا في سياق الفخامة؛ لتكون الجملة المفسرة له عظيمة، فجاء هذا التركيب للاعتناء بالخبر المفسّر، ومن أغراضه أنه يمكّن من دخول أنّ وإنّ على الجملة الفعلية كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الآية. ومثله كثير، وقد جاء هذا الأسلوب في عدم فلاح الكافرين، وآية القتل، والشرك، والتقوى والصبر، والإجرام، ومحادة الله ورسوله، والتوبة ، ووحدانية الله، والتحذير من الشيطان، وفي عدم فلاح الكافرين والمجرمين والظالمين، وفي امتناع يوسف عندما راودته من هو في بيتها-كما مرت شواهد هذه الموضوعات بين ثنايا هذ المبحث- وجاء في خطاب الله لموسى -عليه السلام- والمرئية نار وهي مؤنثة فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فكانت هي البشارة من الله، فالجملة الاسمية المفسرة، أعظم شأنا يسعد موسى. ومثله خطاب الله لنبيه محمد -ﷺ-: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لكون التوحيد أهم المهمات. وحفلت سورة الجنّ بكثرة ضمير الشأن في نظمها، لأن الخبر والقصة شأنه عظيم، وجاء على أمر غير معتاد فأورث العجب، من الجن والإنس، وصرح به الجنّ في أول السورة.

ولقد تكرر ما ذيلت به غير آية مما جاء على ضمير الشأن وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ...﴾ فإما أن يكون الفاعل الظالمون، أو المجرمون، أو الكافرون، وهذه الجملة لعظمتها جاءت على ألسنة الأنبياء، قالوها أو أمروا بقولها، إلا موضع واحد قاله الله تحذيرا من الشرك لجميع عباده؛ لأن من أشرك حبط عمله سواء أكان ملكا مقربا أم نبيا مرسلا، أو من هم دون ذلك.

كما أنه لا بد من الإشارة إلى ثلاث صور للنظم يأتي عليها ضمير الشأن:

الصورة الأولى: ضمير الشأن متبوعا بمفسره.

الصورة الثانية: ضمير الشأن مسبوقا بإنّ أو أنّ المؤكدتين، فاكتسب مع التعظيم التوكيد، وصلح الحرف الناسخ للدخول على الجملة الفعلية، وقيل: حسن ضمير الشأن بها، لكن الشواهد أثبتت أنه جاء في القرآن بدونها، لكن يقلّ تأثير الحرف الناسخ إذا خلا التركيب من ضمير الشأن.

الصورة الثالثة: ضمير الشأن مسبوقا بإنّ أو أن المؤكدتين، مع اشتمال الجملة المفسرة على شرط.

ولقد سمي هذا الضمير ضمير الشأن لكونه مذكرا، أما إذا كان مؤنثا فإنه يسمى بضمير القصة، وهذا ما سيدرس في المبحث القادم بإذن الله.

المبحث الثاني : عود ضمير القصة على متأخر

الحديث عن ضمير القصة هو نفسه الحديث عن ضمير الشأن، فهو ضمير مبهم لم يسبقه ما يزيل إبهامه؛ لذلك أثار التطلع لدى المتلقي حتى إذا سمعه ثبت ورسخ في ذهنه. إلا أن هذا الضمير يسمى ضمير الشأن إذا كان مذكرا كما سبق، ويسمى ضمير مؤنث إذا كان مؤنثا كما سيأتي، والأصل أن يذكّر ضمير الشأن إلا إذا ورد في السياق مؤنث ليس بفضله، فإذا أنّث حينئذ يسمى ضمير القصة[1]،قال الرضي:"ويختار تأنيث الضمير لرجوعه إلى المؤنث، أي: القصة، إذا كان في الجملة المفسرة مؤنث؛ لقصد المطابقة، لا لأن مفسره ذلك المؤنث "[2].

ويختار تأنيثه إذا كان فيها مؤنث غير فضلة، نحو: هي هند مليحة؛ لقصد المطابقة لا لرجوعه إليه[3]، والأغراض من ضمير القصة هي نفسها الأغراض التي أتى من أجلها ضمير الشأن في مختلف سياقاته.

ومن الايات التي وردت على هذا النحو قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾** ﴾ [الحج:٤٦]، فيلاحظ في الآية ضمير القصة الواقع اسما لإنّ، وهوضمير لم يتقدم عليه مرجع، فلذلك احتاج إبهامه إلى ما يفسره، والمتلقي إذا سمع الضمير المبهم ترقب مفسره، "وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه؛ بأن يذكر أولا مبهما، ثم يفسر"[1]. والتقدير: إن القصة لا تَعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، والظاهر أن العمى للأبصار لكن القرآن يجلي هذه الحقيقة لما هو أبعد من ذلك، فعمى البصر هين ولكن الأفضع عمى القلب، وعلل ابن عاشور

---

(١) ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص:٥٧٠).

(٢) شرح الرضي على الكافية(٢/٤٦٧).

(٣) ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي(ص: ٥٧٠).

(١) البرهان في علوم القرآن(٢/٣٤١).

التوكيد بكونه جاء لغرابة الحكم، لا لأنه مما يشك فيه(١). فيفخم الضمير المبهم ما يفسره ويعظمه بأسلوب يملك سامعه حتى تمام بيانه، فهذه الحقيقة التي قررها القرآن جاءت بأسلوب فريد في تركيبه، وما يحمله من مؤكدات، فالبلاغة في ضمير القصة هنا هو الإبهام ثم التفسير الذي يحظى بعناية سببها ترقب المتلقي للمفسر، حتى يستقر الخبر في ذهنه في قرار مكين، ثم إن هذا الأسلوب أتى لأمر عظيم فجاء بضمير منفرد في صفاته عما اتصفت بها الضمائر الأخرى، وكذلك نقل هذا الضمير الجملة من الفعلية إلى الاسمية حيث دلالة الثبوت والتمكن، والتوكيد بالحرف الناسخ، والتوكيد عن طريق تفسير المبهم، حيث الإطناب البليغ. فليس العمى بالحدقة التي في المحاجر بل في القلوب التي في الصدور، فنفى وأثبت، بأبلغ تركيب يحوي أساليب بلاغية متنوعة.

وما أجمل كلام الشيخ عبد القاهر عن هذا الأسلوب حيث يقول:" إنّ الشيء إذا أضمر ثم فسّر، كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمةِ إضمار. ويدلّ على صحة ما قالوه أنّا نعلم ضرورة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج:٤٦]، فخامة وشرفا وروعة، لا نجد منها شيئا في قولنا: (فإن الأبصار لا تعمى)، وكذلك السبيل أبدا في كل كلام كان فيه ضمير قصّة"(١).

وقد جاء ضمير القصة على لسان لقمان –عليه السلام– في وصيته لابنه، في أمر مهم، وأهميته تكمن في كونه لب العقيدة، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان:١٦] فالضمير في قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ لم يسبق بمرجع، وفي ذلك أصبح مخالفا لمقتضى الظاهر، ولما عليه بقية الضمائر، لكن مفسره يأتي بعده ودل على سعة علم الله وقدرته، فهو العالم بما دقّ ولطف في أي مكان كان.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/٢٠٩).

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص:١٣٢-١٣٣).

وسبب الإبهام ثم التفسير لأنه يعز على العين أن ترى هذه المتناهية بالصغر لكن ذلك لا يخفى على الله، قال أبو السعود:" أي فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقماءة في أخفى مكان وأحرزه"(١). ويجوز أن يذكّر الضمير المبهم في مثل هذا ولكن حسن التأنيث لكونه وليه فعل بعلامة تأنيث(٢)، وجوّز ابن مالك التأنيث، وجوّده؛ لأن مع التأنيث مشاكلة تحسّن اللفظ مع كون المعنى لا يختلف، إذ القصة والشأن بمعنى واحد (٣).

قال ابن عاشور في قيمة هذا التركيب:" وهو يفيد الاهتمام بإقبال المخاطب على ما يأتي بعده، فاجتمع في هذه الجملة ثلاثة مؤكدات: النداء، وإنّ، وضمير القصة، لعظم خطر ما بعده المقيد تقرير وصفه تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات من الكائنات، ووصفه بالقدرة المحيطة بجميع الممكنات، بقرينة قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾... فذكر أدق الكائنات حالا من حيث تعلق العلم والقدرة به، وذلك أدق الأجسام المختفي في أصلب مكان، أو أقصاه وأعزه منالا، أو أوسعه وأشده انتشارا؛ ليعلم أن ما هو أقوى منه في الظهور والدنو من التناول أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته"(١).

وضمير القصة هنا اكتسب التأنيث من الحبة المؤنثة، مع أن مثقال مذكر كما ذكر الفراء(٢) ولكن السمين الحلبي ألمح إلى أن إيثار التأنيث سببه أن مثقال بمعنى زنة(٣).

وفي تأويل بعض النحاة التي رواها الطبري إشارة إلى أن الضمير عائد إلى غير مذكور، فالهاء عائدة إلى المعصية، والخطيئة، وعزاه الطبري إلى البصريين، وأما بعض

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٧٢/٧).

(٢) ينظر: الدرر المصون في علم الكتاب المكنون(٢٨٨/٨).

(٣) ينظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك (١٦٤/١-١٦٥)، وهمع الهوامع(٢٧٣/١).

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٧/٢١).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣٢٨/٢)، والبرهان في علوم القرآن(٣٦٦/٣).

(٣) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٦٤/٩).

نحويي الكوفة فذكروا أن هذه الهاء عماد؛ لأنه يراد بها الحبة[1]. وجوز الزمخشري في ضمير (إنها) أن تكون للهنة من الإساءة والإحسان[2]، وذكر النحاس أن الضمير عن القصة أو عن ما سأل عنه ابن لقمان[3]. وذكر الطبري قولا يروى عن ابن عباس – رضي الله عنه– أنه عنى بها الصخرة التي عليها الأرض؛ وهي صخرة خضراء[4].

ومن العجيب ما ذكره السامرائي، في حذف نون تكن ثم إثباتها، فذكر أن النون حذفت؛ لأنه لم يعين مكان حبة الخردل، فقال: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ فلما عيّن مكانها فيما بعد أثبتت النون فقال:﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

ويأتي ضمير القصة غير مسبوق بحرف ناسخ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء:٩٧]، فالضمير ﴿هِيَ﴾ لم يسبق بمرجع ليعود إليه هذا الضمير، فتبين للسامع أن هذا الضمير مبهم لا بد من انتظار مفسره، وما أبهم إلا لأهميته وليحظى بمكانه اللائق في ذهن المتلقي فيتمكن حق التمكن، ويحدد المفسِّر ما كان واسعا، فلا يذهب ذهن السامع حينها إلا إلى ما أفاده المفسر. وهذا الضمير يشخص حالة خاصة تحمل معاني عظيمة، فيأتي أولا بالضمير المبهم المسبوق بإذا الفجائية، ثم يتبعه بلفظة ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ التي لا تستعمل إلا وصفا للعين، ليأتي

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٨/٥٥٤)، والكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٧/٣١٤).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٣/٤٩٥.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(٣/١٩٤)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٥/٤٤٧).

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٨/٥٥٦).

(١) ينظر: على طريق التفسير البياني، د. فاضل صالح السامرائي (٢/٣٢٣).

المفسِّر متدرجا بما يتشوق إليه المتلقي، ويثير ذهنه لانتظار تمامه، ثم يتبعه فاعل المشتق الذي أومأ إليه المشتق قبل نطق فاعله، ثم يضاف ذلك إلى فئة من الناس هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ليفيد اختصاص هذا المشهد بالذين كفروا دون غيرهم، وشخوص الأبصار كناية عن الأمر المهول، ومن هنا يتبين أن ضمير القصة ﴿هِيَ﴾ قد أفاد أغراضا عدة؛ أهمها تعظيم الأمر المبهم كما سبق، "ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة وكان يستغنى عن الضمير؛ لأن هذا لا يفيد اختصاص الذين كفروا بالشخوص"(١).

ومثل ذلك قاله العلوي:"قدم الضمير فى قوله؛ ليدل به على أنهم مختصون بالشخوص دون غيرهم من سائر أهل المحشر"(٢).

وقال ابن عاشور فيما حوته الآية من أساليب بديعة:" وقد مثّلت حالة الكافرين في ذلك الحين بأبلغ تمثيل وأشده وقعا في نفس السامع، إذ جعلت مفرعة على فتح يأجوج ومأجوج، واقتراب الوعد الحق للإشارة إلى سرعة حصول تلك الحالة لهم، ثم بتصدير الجملة بحرف المفاجأة والمجازاة، الذي يفيد الحصول دفعة بلا تدرج ولا مهلة، ثم بالإتيان بضمير القصة؛ ليحصل للسامع علم مجمل يفصله ما يفسر ضمير القصة"(١).

وضمير القصة هنا تفسره الجملة بعده(٢)، ورأي الكوفيين أن ضمير الشأن وضمير القصة يفسر عندهم بالمفرد، فروي عن الفراء أنه قال: "﴿هِيَ﴾ ضمير الأبصار تقدمت لدلالة الكلام ومجيء ما يفسرها"(٣). ومثله قول الزمخشري:" ﴿هِيَ﴾ ضمير مبهم توضحه الأبصار وتفسره"(٤).

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢٧٦/٣).

(٢) الطراز للعلوي (٣٩/٢).

(١) التحرير(١١١/١٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤١٤/٨)، والتحرير(١١١/١٧).

(٣)الدر المصون (٢٠٣/٨)، روح المعاني للألوسي (٨٨/٩) .

(٤) الكشاف للزمخشري (١٣٥/٣).

وذكر ابن الأثير غرضين من عدم قوله: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة، فتقديم شاخصة فيه تخصيص الشخوص بالأبصار دون غيرها، ولو أخرت شاخصة لجاز أن يوضع بدلها حائرة أو مطموسة أو غير ذلك، وأما الثاني: فإنه لما أراد أن الشخوص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولًا، ثم بصاحبه ثانيا، كأنه قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم، ولولا أنه أراد هذين الأمرين المشار إليهما لقال: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة؛ لأنه أخصر بحذف الضمير من الكلام(١).

واختلف بالضمير الذي فسره ما بعده في الظاهر، لكن مفسره ليس بجملة، وليس بمفرد مشتق ليكون مما أجازه الكوفيون، فمنهم من لم يدخله تحت ضمير القصة، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام:٢٩]، وممن أجاز أن يكون ضمير قصة العكبري الذي قال: هي كناية عن الحياة، ويجوز أن يكون ضمير القصة(١)، ولعل من أجاز ذلك هو من سار على مذهب الكوفيين وما صرح به الفراء أن ضمير القصة قد يكون مفردا كما سبق. ولعل قولهم هذا يكون لو ردوا إلى الدنيا، وهذا ما رآه الزمخشري حيث قال: "﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على ﴿لَعَادُواْ﴾(٢)، أي: ولو ردوا لكفروا، ولقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا، كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة"(٣).

وهذا الضمير الذي قد لا يندرج تحت ضمير القصة مع إبهامه، لكن لعلهم بدأوا قولهم: ﴿هِيَ﴾ الذي لم يسبق بمرجع ملفوظ، لكنه عاد إلى ما استقر في أذهانهم وكثر

---

(١) ينظر: المثل الأثير (١٧٦/٢-١٧٧).

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(٤٨٩/١)، والبرهان في علوم القرآن(٢٩/٤).

(٢) من قوله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام:٢٨] .

(٣) الكشاف للزمخشري (١٦/٢).

حديثهم عنه، فلا يذهب الضمير إلى غير الحياة، لأن كفرهم بالبعث هو قضيتهم وإن ردوا إلى الدنيا بعد بعثهم. وذلك لبيان شدة إنكارهم مع ثبوت الأدلة لهم، فأتوا بالضمير المبهم ليكون مفسره ﴿حَيَاتُنَا﴾ وهو ليس جملة لذلك لا يعد الضمير المبهم ضمير قصة إلا عند من أجاز تفسيره بمفرد كما في هذه الآية.

وابن عادل تحفظ على القول القائل بأن الضمير مبهم يفسره ما بعده، وذكر أن لقائل أن يقول:﴿هِيَ﴾ تعود على شيء دل على سياق الكلام، كأنهم قالوا: إن العادة المستمرة، أو إن حالتنا وما عهدنا إلا حياتنا الدنيا لأن الجملة المفسرة لا بد أن يصرح بجزأيها، ورد على من يقول بأن الكوفيين يجيزون تفسيره بالمفرد بأنهم أجازوا تفسيره بمفرد عامل عمل الفعل مثل: إنه قائم زيد[1].

ويرى ابن عطية وكذلك الرازي أن قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ابتداء كلام وإخبار عنهم بهذه المقالة على تأويل الجمهور[1]، وهما بذلك يخالفان الزمخشري بقوله السابق، لكن ابن عاشور أجاز عطفها على ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أو إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾[الأنعام:٢٥][2]، وعند أبي حيان أن هي ضمير الحياة، وفسره الخبر بعده، والتقدير وما الحياة إلا حياتنا الدنيا[3]، ونفى ابن عاشور عن هذا الضمير كونه ضمير قصة أو شأن، والضمير بعدها مبهم يفسره ما بعد الاستثناء المفرغ، قُصد من إبهامه الإيجاز اعتمادا على مفسره، وما بعد ﴿إِلَّا﴾ في حكم البدل من الضمير[4].

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٩٩/٨).

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٣/٦).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤٧٩/٤).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٣/٦).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٧]، فالتركيب واحد وإن اختلف السياق، فهو تركيب جملة اسمية، اشتملت على القصر بطريق النفي والاستثناء ثم الإبهام وتفسيره، والإيجاز وتفصيله؛ ليستقر في الأذهان ما استقر في قلوبهم.

فقال ابن عاشور:"وضمير ﴿هِيَ﴾عائد إلى ما لم يسبق في الكلام بل عائد على مذكور بعده قصدا للإبهام ثم التفصيل ليتمكن المعنى في ذهن السامع. وهذا من مواضع عود الضمير على ما بعده إذا كان ما بعده بيانا له، ولذلك يجعل الاسم الذي بعد الضمير عطف بيان... وليس هذا الضمير ضمير القصة والشأن لعدم صلاحية المقام له. ولأنه في الآية مفسر بالمفرد لا بالجملة"(١).

لكن ابن عاشور ذكر قولا مختلفا لأقواله السابقة بعد وقوفه على قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية:٢٤]، فاستشهد بالموضع المشابه في سورة الأنعام فقال بعده: "وضمير ﴿هِيَ﴾ضمير القصة والشأن، أي: قصة الخوض في البعث تنحصر في أن لا حياة بعد الممات، أي: القصة هي انتفاء البعث كما أفاده حصر الأمر في الحياة الدنيا، أي الحاضرة القريبة منا، أي: فلا تطيلوا الجدال معنا في إثبات البعث، ويجوز أن يكون ﴿هِيَ﴾ضمير الحياة باعتبار دلالة الاستثناء على تقدير لفظ الحياة فيكون حصرا لجنس الحياة في الحياة الدنيا"(١).

---

(١) ينظر: المصدر(١٨/٤٦).

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٣٧٧).

ولعل قول ابن عاشور لا تضارب بينه وبين ما سبق من كلامه على الآيات الأخر لكنه رأى أن قوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة، ودليله قوله:" وجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مبينة لجملة ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾"[1].

ولعل الباحث يرى أن الضمير عائد إلى ما استقر في الأذهان فأغنى الضمير عن إظهاره لاشتهاره، وجاء لفظ الحياة بيانا له، والضمير يحوي بعنادهم، وتمسكهم بقرارهم، وكثرة الجدل حتى كأن هذا الضمير لا يغادر ألسنتهم، فأغنى ذلك عن ذكر مرجعه.

وتبين بعد هذه الشواهد أن ضمير القصة يأتي مؤنثا لاشتمال مفسره على مؤنث ليس بفضلة؛ لقصد المطابقة لا لأنها مفسرة له، وأن أغراضها كأغراض ضمير الشأن، ولا يفسر إلا بجمله خلافا للكوفين الذين أجازوا تفسيره بمفرد، والله أعلم.

---

(١) ينظر: المصدر(٣٧٧/٢٥).

المبحث الثالث : عود الضمير على غير الأقرب

الأصل أن يعود الضمير إلى الأقرب، ولكنه قد يعود إلى غير الأقرب لقرينة، "فالمفسر هو الأقرب لا غير، نحو: جاءني زيد وبكر فضربته، ومع القرينة يكون للأبعد نحو: جاءني عالم وجاهل فأكرمته"(١). أو يعود لغير الأقرب؛ لأن غير الأقرب هو المتحدث عنه، أو لكونه أجمع من الأقرب وشاملا له.

وقد ورد في القرآن اسمان لمسمى واحد على سبيل الترادف اللغوي، وعادت الضمائر بالتناوب من غير مراعاة للأقرب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف:٧٠]، وقوله: ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يوسف:٧٢]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف:٧٥]، ثم قال تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦]، فالمفقود ورد ذكره بلفظين الأول: السقاية، والثاني: صواع الملك حيث الإضافة الموحية بالجبروت، وجاءت الضمائر بعد الصواع مذكره لتعود إلى الصواع، فالهاء في قوله:﴿بِهِۦ﴾، والضمير الذي أسند إليه الفعل: ﴿وُجِدَ﴾ كلها مذكرة عائدة إلى الصواع، إلا أن ضميرا واحدا جاء بعد ذلك ليعود إلى ما بدأت به الحيلة، فجاء الضمير المفعول في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا ﴾ ليعود إلى السقاية لا إلى الصواع القريب، ولعل البلاغة في ذلك هو ربط ذهن المتلقي بالحيلة لتحقيق الهدف، وهي ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى

---
(١) شرح الرضي على الكافية (٢/٤٠٤).

رَحْلِ أَخِيهِ﴾، فلو قال استخرجه لأدى الغرض؛ لكنه قد ينفصل الذهن عن كونها حيلة، أما السقاية فإنها تربط الذهن في أول حدث.

واختار الفراء عود ضمير التأنيث على السرقة، واحتمل أن يعود على الصواع إذا كان بمعنى الصاع فيؤنث، أو لتأنيث السقاية(١)، واختار الأخير ابن سيده، ولم يرجع الضمير إلا إلى السقاية(٢)، وأورد الاحتمالات السابقة أبو حيان(٣)، وكذلك الألوسي(٤)،وقال الأخفش عني بتذكير الضمير في قوله:﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ الصواع وهو يذكر ويؤنث، وعني بضمير التأنيث في الفعل﴿ ٱسْتَخْرَجَهَا ﴾ السقاية، وهما اسمان لشيء واحد(٥). وأما الرازي فذكر أن الصواع مذكّر لا يكنى عنه بالتأنيث، وأوّل الضمير المؤنث بأنه عائد إلى المعنى وهو المشربة(١). وفي موطن آخر روى أن ضمير التأنيث عائد إلى السقاية، أو إلى الصواع، على أنه يذكر ويؤنث، وجوز ذلك، وقيل: لعل يوسف كان يسميه سقاية، وعبيده صواعا، وجميع هذه الاحتمالات التي رواها الرازي هي قول الزمخشري(٢)، وصرح ابن عاشور بأنه عائد إلى السقاية، وهو كرد العجز على الصدر(٣).

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٢/ ٥٢).

(٢) ينظر: المخصص لابن سيده، كتاب: الدهور والأزمنة والأهوية والرياح، باب الآنية للخمر وغيرها (٣/ ٢٠٠).

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٥٢).

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (٧/ ٢٧).

(٥) ينظر: معاني القرآن للأخفش(٢/ ٥٣).

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٩/ ٥٠٤). والمشربة إناء يشرب فيه، ينظر: كتاب العين، للفراهيدي، باب: باب الشين والراء والباء معهما ش ر ب، ش ب ر، ب ش ر، ب ر ش، ر ب ش مستعملات، مادة: شرب، (٦/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٩١)، وينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٨/ ٤٨٨).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢/ ٩٩).

وأرجح أحد آراء الرازي والرأي الذي صرح به ابن عاشور في كون الضمير المؤنث عائدا إلى السقاية المذكورة، ولا أرى أن هناك حاجة إلى إعادته إلى السرقة المفهومة من السياق ما دام السياق فيه لفظ يصح إرجاع الضمير إليه، كما أن في إعادته إلى السقاية دون الصواع تذكير بأن هذه حيلة محكمة ألهمها الله يوسف، وقد يؤيد هذا الرأي ما ذهب إليه الزمخشري آنفا من أن يوسف -عليه السلام- يسميها سقاية، والعبيد يسمونها صواعا، كما جاء على لسان المؤذن، لكن الذي يراه الباحث أن السقاية ذكرت لما كانت في بداية الحيلة وبعد النتيجة؛ لما في لفظها من رفق بأخ يوسف، أما الصواع فاختير ليضاف إلى الملك ويؤذن بذلك، وذلك يجلب الفزع في نفوس الحاضرين، بخلاف السقاية فاستعمل كل لفظ في مقامه، أي أن السقاية ذكرت في أول أمر الحيلة، ولحظة استخراجها. فجمعت السقاية وضميرها المتأخر بداية الحيلة وختامها حيث تحقيق الهدف، فاكتمل بذلك المشهد.

وقد يسبق الضمير بمرجع يطابقه لكنه لم يعد إليه؛ بل عاد إلى غير الأقرب ،كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الرعد:٢]، وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان:١٠]، فالضمير المنصوب في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ لمرجعه وجهان حسب إعراب جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ التي ينبع من وجهي إعرابها معاني نحوية تدل على معاني محتملة هي مزية من مزايا النظم التي أنجبتها نظرية عبد القاهر الجرجاني؛ مما يؤدي إلى تعدد عطاءات الآية تبعا لتعدد مواقع الكلمة الواحدة، وهذا من إعجاز القرآن، فإما أن يعود الضمير المنصوب إلى الأقرب فيحمل معنى مقتضاه وجود العَمَد لكنها لا ترى فتكون جملة ترونها نعت للعمد في محل جر، لكن الأرجح أن تكون جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ حالية، ويكون الضمير عائدا إلى السموات التي لا يرى لها عَمَد؛ لأنه ليس لها عمد، وفي هذا إعجاز كشفه العلم الحديث، وقد ذهب إليه الدكتور حسن محمد باجوده الذي ذكر أن العلم الحديث قد كشف عن هذه القدرة المبدعة، التي رفعت السماوات والأرض كذلك، دون عمد ظاهرة وباطنة، إن هذه القدرة مصدرها الجاذبية، بمعنى أن يتساوى بقدرة الله تعالى الشد والجذب من جانبي الكوكب بواسطة كواكب

أخرى، فيظل الكوكب الثابت أو المتحرك معلقا، وتطّرد هذه الظاهرة بشأن كل الأجرام السماوية(١).

فعلى هذا المعنى الضمير يعود إلى السماوات فينفي عنها وجود العَمَد وبرهان ذلك رؤيتهم لها بدون عمد، فيصبح الفعل والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدا للنفي.

قال الفراء: "جاء فيه قولان. يقول: خلقها مرفوعة بلا عمد، ترونها: لا تحتاجون مع الرؤية إلى خبر. ويقال: خلقها بعمد لا ترونها، لا ترون تلك العمد. والعرب قد تقدم الحجة من آخر الكلمة إلى أولها: يكون ذلك جائزا"(٢).

ونفى النحاس الأعمدة بثلاثة أوجه؛ جعل في وجهين ضمير النصب عائدا إلى السماوات وفي وجه إلى الأعمدة، فقال:" ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في موضع نصب على الحال أي رفع السماوات مرئية بغير عمد، ويجوز أن يكون مستأنفا أي رفع السموات بغير عمد ثم قال: أنتم ترونها، ويجوز أن يكون ترونها في موضع خفض أي بغير عمد مرئية، أي لو كانت بعمد لرأيتموها لكثافة العمد"(١).

وذكر ابن عطية وأبو الحسن القيرواني جوابين: أحدهما: أنها بغير عمد ونحن نراها كذلك، قال أبو الحسن القيرواني: وهو قول قتادة(٢) وإياس بن معاوية(٣) وذكر ابن عطية أنه قول الجمهور، والثاني: أنها بعمد لا نراها، قال أبو الحسن القيرواني: وهو قول ابن عباس ومجاهد(٤).

---

(١) تأملات في سورة الرعد، د. حسن محمد باجوده (ص:٢٧).

(٢) معاني القرآن للفراء (٢/٥٧).

(١) إعراب القرآن للنحاس (٢/٢١٨).

(٢) سبقت ترجمته في ص: ٣٨١ .

(٣) إياس بن معاوية قاضي البصرة، العلامة أبو واثلة، روى عن أبيه عن أنس، وغيرهما، يضرب به المثل في الذكاء، توفي سنة ١٢١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، دار الحديث(٥/٤٧١).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٢٩١)، والنكت في القرآن الكريم(ص: ٢٧٠).

قال الزمخشري: "ترونها الضمير فيه للسماوات، وهو استشهاد برؤيتهم لها، غير معمودة على قوله بغير عمد كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني"[1].

وقال بهذا المعنى السيوطي[2] وصرح ابن عاشور في عود الضمير إلى السماوات وقال:" لا شبهة في كونها بغير عمد"[3].

وبناء على ماسبق فلعل الأظهر عود ضمير النصب إلى السماوات وليس إلى العمد، وتلك المعجزة! وعاد ضمير النصب لغرض تأكيد النفي، ولمجيء جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قائمة مقام الحجة عليهم لعدم رؤية العمد، والله أعلم.

ومن المواضع التي اختُلف فيها بتعيين مرجع الضمير اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر:١٦]، حيث إن هناك من رأى أن الهاء عائدة إلى البروج باعتبارها الأقرب، ومنهم من رأى أنها عائدة إلى السماء، وكلا الوجهين محتملان فالبروج هي الأقرب، والذي يميل إليه الباحث أنها عائدة إلى السماء؛ لأنها وإن كانت غير الأقرب إلا أنها هي المتحدث عنها، ومن القرائن على ذلك الآية الثانية حيث قوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٧]، فالمحفوظة هي السماء، ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك:٥]، ومن إعجاز القرآن الكريم ارتباط فهم بعض آياته بآيات أخر، فجمع أساليبه بين الإيجاز والإطناب، والإبهام والبيان، في موضع دون موضع حسب ما يقتضيه المقام، ولعل من أغراض مثل هذا الأسلوب تنشيط الذهن، وإحياء التأمل بالمواطن المفسرة، فالقرآن يفسر بعضه

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٩٢/٣).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢٦٣/٣).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٧/١٢).

بعضا، كما أن هناك ثراء دلاليا لكون الضمير صالحا للاثنين. فقد تكون البروج زينة؛ لأنها شابهت أشياء وجعلوا لها أسماء تلك الأشياء التي شبهوها بها، وأضافوا البرج إليها كالأسد، والحمل، والثور(١)، وقد ذكر ابن عاشور أن "هذه البروج العظيمة الصنع قد جعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة"(٢). ومن المرجعين المحتملين بالأدلة والقرائن، يظهر للباحث كثافة دلالية لا تتعارض مع السياق، فالبروج زينة، والسماء بها مزينة.

وللعلماء في ذلك آراء؛ فيرى الثعلبي أنه يعود إلى السماء(٣)، أما أبو حيان فقد خالف الجمهور والظاهر عنده أن الضمير في ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ عائد على البروج؛ لأنها المحدث عنها، والأقرب في اللفظ. وبين أن الجمهور قالوا إنه يعود إلى السماء(٤)،و كذلك تبعهم النسفي في عود الضمير إلى السماء(١).وعند ابن عادل أنه يعود إلى السماء، ثم ذكر أنه قيل: أنه يعود إلى البروج(٢).

ويعود الضمير على غير الأقرب إذا كان في السياق قرينة لفظية لا تكون إلا لغير الأقرب ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان:١٠]. فالضمير الذي وقع في محل جر في قوله: ﴿فِيهَا﴾ جاء على التأنيث ليكون مرجعه مؤنثا، لكنه سبق بمؤنث قريب هو ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ومؤنث غير قريب وهو ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، لكن في السياق قرينة تقوي أحد المرجعين، وهذه القرينة اللفظية

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٣).

(٢) المصدر(٢٤/١٣).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٣٣٣/٥).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤٧١/٦).

(١) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي(١٨٦/٢).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤٣٨/١١).

هي ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ والتي لا تجعل للضمير مرجعا سوى الأرض، فالسماء وإن كانت هي الأقرب إلا أنها ليست محلا للإنبات، فانتفى اللبس، وظهرت دقة التركيب، وجمال النظم.

وقد أشار ابن عاشور إلى أن الضمير عائد إلى الأرض[1]، وعاد الضمير إلى الأرض كما عاد في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر:١٩]، وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾﴾ [ق:٧]، وقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس:٢٧].

ولم يعد الضمير مذكرا إلى الماء كما عاد إليه في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل:٦٠]، وقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق:٩]، وفي مرجعي الضمير في الآيات المختلفة بيان لمكان الإنبات وسببه، فمكانه الأرض، وسببه الماء، فبيّن ذلك اختلافُ مرجع الضميرين وجنسهما، واجتمعت الفائدة باختلاف المرجعين، وفي هذا فائدة تبعث على التفكر.

ويعود الضمير على غير الأقرب لقرينة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٣-٥٥] ففي قوله: ﴿مِنۡهَا﴾، ﴿وَفِيهَا﴾ التي وردت في الآية الأخيرة ضمير يعود إلى الأرض، ولا يعود إلى الآيات ولا إلى الأنعام، ولا إلى السماء، والقرينة في ذلك الخلق والإخراج لأنه قد تقرر في النقل والعقل أنه من الأرض، والإعادة كذلك إلى الأرض، فلا يذهب الذهن بعد هذه القرائن إلى غير الأرض، فالأرض ظرف

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/٩٣).

للأموات، فلمّا ترادفت القرائن أمن اللبس وجاء هذا الأسلوب ثقة بفهم السامع المقصود.

وقد عاد الضمير إلى غير الأقرب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ [الأنعام:٩٩]، ففي هذه الآية التي يبين الله فيها مراحل خلقه للنبات، بصورة تدل على كمال عظمته – سبحانه – جاء الضمير الواقع في محل جر في قوله: ﴿ بِهِۦ ﴾ لتكون الباء سببية، فيعود الضمير إلى الماء، ثم يأتي الضمير نفسه بعد حرف الجر من، فيقول الله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ واختلف في مرجع هذا الضمير؛ فمن أهل العلم من جعل مرجعه الأقرب؛ ليعود إلى ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كالألوسي[١]، ومنهم من جوز عوده إلى ﴿ مَآءً ﴾، ومنهم من صوبه.

وممن يرى أن الضمير عائد إلى الماء الطبري حيث قال:" ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ يعني من الماء الذي أنزلناه من السماء؛ خضرا رطبا من الزرع"[١].

ومن الذين جوزوا ذلك العكبري حيث فسر قول الله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ بأن الضمير عائد إلى الماء، فقال:" أي: بسببه،...ويجوز أن تكون الهاء في منه راجعة على النبات، وهو الأشبه. وعلى الأول يكون ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بدلا من ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ الأولى"[٢].

وإذا كان الألوسي يرى الضمير عائدا إلى النبات، فإنه ساق تجويز العكبري الآنف، ثم أردفه بفائدة تتمخض عن جعل مِنْ سببية، وحينئذ يعود الضمير إلى الماء،

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤/٢٢٥).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٩/٤٤٤).

(٢) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١/٥٢٤).

فقال:" وجوز عود الضمير إلى الماء ومِنْ سببية، وجعل أبو البقاء(١) هذا الكلام حينئذ بدلا من ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ الأول، وذكر بعض المحققين أن في الآية على تقدير عود الضمير إلى الماء معنى بديعا، حيث تضمنت الإشارة إلى أنه –تعالى- أخرج من الماء الحلو الأبيض في رأي العين أصنافا من النبات والثمار، مختلفة الطعوم والألوان"(٢).

أما الضمير الثالث فقد أرجعه الرازي إلى الخَضِر، فقال:" وقوله: ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ يعني يخرج من ذلك الخضر حبا متراكبا، بعضه على بعض..." (٣).

وبعد هذه الآراء يتبين للباحث أن الضميرين الواقعين في محل جر في قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ وقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ كلاهما عائدان إلى الماء، ويدلان على عظمة الخالق سبحانه، بأن جعل الماء ينبت الخَضِر، ومن الخضر نبات كل شيء، بأصنافه المختلفة ومذاقاته المتباينة، وثمارة المتنوعة، فسبحان الله(١)، ولعل ما يؤيد أن أول مرحلة للنبات هي الخَضِر، ثم الحب، ثم الجنات، قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يس:٣٣-٣٤]، فإذا كانت آية الأنعام قد أثبتت أن الخَضِر يخرج منه حبا متراكبا، فإن آية يس قد أثبتت أن الحب أخرج منه ما نأكل فجعلت منه الجنات، فدل الموضعان على أن الماء يخرج منه الخَضِر، ومن الخضر يخرج الحب المتراكب، ومن الحب المتراكب أخرج نبات كل شيء ومنها الجنات.

ويغوص الباحث على معنى كثيرا ما يرتبط بهذه الصورة، فالأرض الميتة أحييت بالنبات من الخَضِر، وحياة البشر الأموات من عجب الذنب، وبينهما تقارب، وكلاهما

(١) هو العكبري.

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٢٥/٤).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٨٥/١٣).

(١) ينظر: مبحث عود ضمير الإفراد إلى المثنى حيث حللت به هذه الآية (ص: ٨٣).

خارج من الأرض بالماء، فسبحان الله، لذلك قال الله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم:١٩].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؛ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؛ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

ولما كان الفضل من الله وحده، ولا لبس في ذلك، فقد عاد الضمير الذي أضيف إليه الفضل إلى غير الأقرب؛ ليعود إلى الله -سبحانه- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة:٧٤]، فلم يعد الضمير إلى الأقرب؛ لأن الفضل من الله وحده، والرسول -ﷺ- قاسم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ مَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ، إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ"(١).

والقرينة في ذلك العلم بأن الفضل من الله، وقرينة أخرى لفظية في الآية التالية حيث قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التوبة:٧٥]، وعود ضمير الفضل جاء عائدا إلى الله – عز وجلّ-

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ زُمَرًا، (ص: ١٢٥٣) رقم الحديث ٤٩٣٥.

(١) المصدر، كتاب فرض الخُمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني للرسول قسم ذلك قال رسول الله ﷺ إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي (١٢٤/٨) رقم الحديث: ٣١١٧.

في سبعة وعشرين موضعا[(١)]، فتبين بذلك أن الضمير في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ عاد للمفرد وهو الله توحيدا وإفرادا.

وفي أسلوب الحوار يوضع المضمر محل المظهر بدلا من ذكر المتحاورين بعد التصريح بهم أولا؛ لئلا يطول الكلام، ولما في السياق من بيان، وهذا كثير ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة:١٢٦]. ففاعل الفعل قال الأول هو إبراهيم عليه السلام، وأما قال الثانية فذكر الطبري اختلاف أهل التأويل في قائل هذا القول على قولين أحدهما أنه الله جلّ شأنه، والثاني أنه على وجه الدعاء من إبراهيم ربه لهم والمسألة، والصواب في رأي الطبري أن القائل هو الله[(٢)].

وقال الزمخشري بأن الفعل ﴿كَفَرَ﴾ معطوفا على الفعل ﴿ءَامَنَ﴾ [(١)]، ورفض هذا القول أبو حيان؛ لأنه يتنافى في تركيب الكلام؛ لأنه يصير المعنى: قال إبراهيم: وارزق من كفر، وذكر أن الزمخشري ناقض نفسه بقوله: والمعنى: وأرزق من كفر فأمتعه... فظاهر قوله يدل على أن الضمير في ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ عائد على الله، وقد أشار أبو حيان من قبل أن هناك قراءة تجعل كلا القولين لإبراهيم[(٢)].

أما ابن عاشور فقال:" وجملة ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ جاءت على سنن حكاية الأقوال في المحاورات والأجوبة مفصولة، وضمير ﴿قَالَ﴾ عائد إلى الله، فمن جوز أن

(١) وينظر تحليل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾[التوبة:٥٩](ص:٧٧-٧٨).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/٥٤٤-٥٤٧).

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/١٨٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٦١٤-٦١٦)، ينظر: الكشاف للزمخشري (١/١٨٦).

يكون الضمير في ﴿قَالَ﴾ لإبراهيم وأن إعادة القول لطول المقول الأول فقد غفل عن المعنى، وعن الاستعمال وعن الضمير في قوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ "[1].

وفي ضوء سياق الآية وما تحمله من قرائن وما صوبه الطبري وغيره يظهر أن الضمير في ﴿قَالَ﴾ الثانية ليس للمتحدث عنه إبراهيم؛ بل لله –سبحانه– ومن القرائن الدالة على ذلك﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ و﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ فهذه الأفعال ليست إلا لله، ولعل عدم التصريح باسم الله عز وجل هو اقتصار رحمته عليهم في الدنيا، أما في الآخرة فلهم عذاب النار.

وبلاغة التركيب في كون فاعل الفعل جاء مضمرا غير عائد إلى المتحدث عنه، للقرائن الصارفة؛ ليدل على الإيجاز، والاستجابة لإبراهيم –عليه السلام– بدلالة أن الرحمة في الدنيا شملت من كفر، وهم الذين لم يدع لهم إبراهيم عليه السلام، وخلو السياق من اسم الرب فيه إعراض عن الكفار؛ لأن مصيرهم في الآخرة النار.

وجاء على هذا النحو قول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣٣] ، فأقرب مذكور لقال الثانية هو آدم عليه السلام، لكن القرائن اللفظية دلت على أن الضمير لا يعود إلا إلى الله سبحانه بقرينة ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لكن هذا أسلوب حواري يفيد الإيجاز، فجاء المضمر مكان المظهر خشية الإطالة والسآمة؛ لأن السياق يكشف الستار عن صاحب الضمير بالقرائن اللفظية أو الحالية، فيكون التركيب اللغوي على أجمل نظم وأبهاه.

ومن المواضع التي عاد فيها الضمير على غير الأقرب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٦٩٧).

﴿أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ [الأنعام:٣١]، فالضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ أقرب مذكور له ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ لكن القرينة تصرف الضمير عن الأقرب ليعود إلى غير الأقرب وهي الحياة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام:٢٩]، ولعل في الأسلوب مشاكلة لقولهم في هذه الآية الأخيرة، لأنهم بدأوا كلامهم بضمير مبهم﴿هِيَ﴾ من غير ذكر سابق للدنيا بل جاءت الدنيا بعده لبيانه كما مرّ من قبل، فجاء الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ ليعود على مرجع غير قريب، وهذا المرجع هو الذي فسر الضمير المبهم الذي جاء في قولهم: ﴿إِنۡ هِيَ﴾ وفي هذا تذكير وتبكيت لهم جاء على هيأة قولهم. ويستأنس بقول ابن عطية:" والإشارة بهذه الآية إلى الذين قالوا إنما هي حياتنا الدنيا"(١)، ويقوي القول بأن الضمير عائد إلى الحياة الدنيا مجيء ذكرها في الآية التالية حيث قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ [الأنعام:٣٢]، ولعل المشاكلة اللفظية واقعة بين عنادهم في قولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، فجاء بعد ضمير الإبهام مفسرة ترسيخا لقولهم المستقر في أذهانهم، فلمّا وقعت الحسرة بعد اليقين قالوا: ﴿فِيهَا﴾ من غير ذكر قريب للدنيا، بل أعقب قولهم بقول الله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ فزادت المشاكلة الأثر النفسي المربوط بتذكيرهم بقولهم الأول في الدنيا بعد أن رأوا مصيرهم فجاء الضمير على ذلك النحو للربط بين الموقفين، والله أعلم.

ومما يؤيد ما ذهب إليه الباحث بكون الضمير يعود إلى الحياة الدنيا وليس إلى الساعة، هو أن التفريط في العمل زمنه الحياة الدنيا؛ لأن الآخرة لا تكليف فيها؛ ولكون الساعة جاءت بغتة، وهذا لا يتناسب مع قوله: ﴿فَرَّطۡنَا﴾، لأن الفرط الفارط:

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٢٣٨).

المتقدم السابق، فرط يفرط فروطا[١]، ومنه قول القرطبي: "فقولهم: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي: قدّمنا العجز. وقيل: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي: جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلفنا. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الدنيا بترك العمل للساعة"[٢].

وقد اختلف العلماء الإجلاء بتعيين مرجع الضمير، فروى الكرماني أن الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ أنه في الدنيا، وقيل: في القيامة، أي في التقدمة لها[٣].

واختار الزمخشري عوده إلى الحياة الدنيا أو إلى الساعة فقال:" الضمير للحياة الدنيا، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها"[٤].

وذكر الرازي أربعة أوجه في مرجع الضمير؛ منها أن ابن عباس قال في الدنيا، وحسن الرازي ذلك؛ لأن موضع التقصير ليس إلا الدنيا، ثم روى أقوالا بأنها تعود إلى الساعة، أو الأعمال، أو الصفقة [١] والأخير قول الطبري[٢].

وقال السيوطي:" الضمير بـ﴿فِيهَا﴾ للحياة الدنيا؛ لأن المعنى يقتضي ذلك، وإن لم يَجْرِ لها ذكر، وقيل: للساعة، أي: فرطنا في شأنها والاستعداد لها، والأول أظهر"[٣].

ويرى أبو حيان أن الضمير عائد إلى الساعة، وروى قولا بأنه عائد إلى الصفقة، أو إلى الحياة الدنيا[٤]، وذكر العكبري أنه يعود إلى الساعة، وقيل إلى الأعمال ولم يجر له

---

(١) لسان العرب، فصل الفاء، مادة: فرط (٣٦٦/٧) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(٤١٣/٦).

(٣) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (٣٧٥/١).

(٤) الكشاف للزمخشري (١٧/٢).

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥١٤/١٢).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (ص: ٢١٤-٢١٥).

(٣)معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١٤٣/٣).

صريح ذكر(٢). وأعاده إلى الساعة الألوسي(٣)، ويرى أبو السعود أنه يعود إلى الساعة، ثم يروي قولا بأن الضمير للحياة الدنيا(٤). واختار ابن عاشور عوده إلى الساعة وجوز عوده إلى الدنيا، وفرق بين (في) في الموضعين فإذا كان الضمير عائدا إلى الساعة (ففي) تعليلية، وإذا كان عائدا إلى الدنيا فهي ظرفية(٥).

ويعود الضمير على غير الأقرب مع وجود قرينة دالة وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧٣]، فالضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ عائد إلى الليل مع أن النهار هو الأقرب، ولم يخلّ ذلك في الفصاحة؛ لأن السكن قرينة تصرف عود الضمير إلى النهار، وهذا ما قررته القرآئن في مواضع منها التصريح في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم:٢٣]، وأعيد الضمير إلى الليل في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [غافر:٦١] ويلاحظ أن الضمير ﴿فِيهِ﴾ في آيتي سورة يونس وسورة غافر جاء وفق ما يقتضيه ظاهر الحال، بينما يتغير النظم في آية سورة القصص عنه في الآيتين الأخريتين، ولا شك أن ذلك تنوع في الأساليب على سبيل اللف والنشر المرتب(١)، فوقع الضمير في النشر"من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلا منهما على ما هو له"(٢) وهو ما يسميه

=

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/٤٨٢).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١/٤٩٠).

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤/١٣٣).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣/١٢٥).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٦/٦٦-٦٧).

(١) ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني(ص: ٦٥٤)، وعلم البديع، عبد العزيز عتيق (ص:١٧٦)

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ٤٢٥).

أبو هلال العسكري بصحة التفسير[١]، فذكر الليل ثم النهار، ثم الضمير الذي لليل وليس للأقرب ثم ذكر ما للنهار، فجمع الأسلوب اللف والنشر المرتب، والمقابلة، والإيجاز فحذف الضمير وجارّه إيجازا؛ اعتمادا على المقابلة، والتقدير: ولتبتغوا من فضله فيه[٢]، هذا الأسلوب الذي يأسر الأذهان ويوقظ الفكر، بعدما تقرر المعنى في أكثر من موضع وأمن اللبس.

قال المبرد: "والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد إلى كلٍّ خبره"[٣].

وقال القصاب في بلاغة ذلك: "حجة في اختصار الكلام، والإشارة إلى المعنى؛ لأنه - جل جلاله - ذكر الليل والنهار، ثم ذكر السكون فيه، ولم يقل: في الليل، وذكر الابتغاء من فضله، ولم يقل: في النهار استغناء - والله أعلم — بما ذكره في موضع آخر"[١].

لكن الفراء والنحاس أضافا معنى دللا به على سعة فضل الله وامتنانه، فقال الفراء في الضمير:" وإن شئت جعلت الليل والنهار كالفعلين؛ لأنهما ظلمة وضوء، فرجعت الهاء في ﴿فِيهِ﴾ عليهما جميعا، كما تقول: إقبالك وإدبارك يؤذيني؛ لأنهما فعل والفعل يرد كثيره وتثنيته إلى التوحيد، فيكون ذلك صوابا"[٢].

---

(١) ينظر: الصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٣٤٥) .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠١/٢٠) .

(٣) الكامل(١٠٧/١).

واللف والنشر: هو أن تلف شيئين ثم تأتي بتفسيرهما جملة؛ ثقة بأن السامع يرد إلى كل واحد منهما ما له. معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، باب اللام، اللام مع الفاء، اللف والنشر، (ص:١٦٢).

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصاب (٥٧٤/٣).

(٢) معاني القرآن للفراء(٣١٠/٢)، وينظر: معاني القرآن للنحاس(١٩٥/٥).

ولعل الظاهر عوده إلى الليل دون النهار لأن هذا الضمير فسر في آيات سبق عرضها بعد الآية المحللة، ويتضح بعد هذا العرض أن عود ضمير الهاء إلى غير الأقرب جاء ثقة بأن السامع سيدرك مرجعه، مع ما في ذلك من التفنن البديعي البالغ الغاية في الحسن.

وعاد الضمير إلى غير الأقرب وإلى غير المتحدث عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى:٤٤]، فالمتحدث عنه هو الاسم الموصول، والأقرب هو الولي، لكن الضمير في قوله: ﴿بَعْدِهِۦ﴾ لم يعد إلى أحد الاثنين، بل عاد إلى الله سبحانه وتعالى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [الجاثية:٢٣]، فالضمير في قوله: ﴿بَعْدِهِۦ﴾ فسره المظهر في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ في سورة الجاثية، ومن البلاغة في ذلك أن هذا الكلام يفسر بعضه بعضا، فتارة يباشر المتلقي بالمعنى، وتارة يحوجه إلى التفكير في السياق، أو إلى موضع آخر في القرآن، يجد الباحث عن المعنى فيه بغيته.

وللمفسرين في عود الضمير أقوال، فممن قال أنه عائد إلى الله الألوسي وأجاز عوده إلى الخذلان المفهوم من ﴿يُضْلِلِ﴾ (١)، أما ابن عاشور فقال:" وضمير ﴿بَعْدِهِۦ﴾ راجع إلى اسم الجلالة، أي: من بعد الله، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في [الجاثية:٢٣]، ومعنى بعد هنا؛ معنى دون، أو غير، استعير لفظ بعد؛ لمعنى دون؛ لأن بعد؛ موضوع لمن يخلف غائبا في مكانه أو في عمله "(٢).

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٣/٥٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/١٨١).

وأوله الزمخشري بقوله: "أي من بعد خذلانه"(١) وكذلك البيضاوي إلا أنه قال بخذلان الله إياه(٢) ومثله أبو السعود(٣)، أما أبو حيان فقال: "أي من بعد إضلاله"(٤).

وقد يأتي الضمير عائدا إلى غير ما اشتهر عوده إليه، ومن ذلك ما يلحظ من أن الآيات التي اشتملت على قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جاءت في ستة وعشرين موضعا، وجاءت آيات أخر أفردت فيها الجنة المعرفة بأل أو المضافة، أو ذكرت الغرف(٥)، والضمير في جلّ تلك المواضع عاد إلى الأقرب فوافق تركيب الجملة مقتضى الظاهر، لكن الأمر اختلف في ثلاث آيات ليست مما سبق عاد فيها الضمير إلى أهل الجنة وليس إلى الجنة، مع أن الجنة هي الأقرب في موضع كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٣١]، وليست هي الأقرب في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَن

(١) الكشاف للزمخشري (٢٣١/٤).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٨٣/٥) .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٣٥/٨).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣٤٦/٩).

(٥) ينظر: [البقرة:٢٥]، [آل عمران:١٥]، [آل عمران:١٣٦]، [آل عمران:١٩٥]، [آل عمران:١٩٨]،[النساء:١٣]،[النساء:٥٧]،[النساء:١٢٢]،[المائدة:١٢]،[المائدة:٨]، [المائدة:١١٩]،[التوبة:٧٢]،[التوبة:٨٩]،[الرعد:٣٥]،[إبراهيم:٢٣]،[النحل:٣١]، [طه:٧٦]،[الحج:١٤]،[الحج:٢٣]،[الفرقان:١٠]،[العنكبوت:٥٨]، [الزمر:٢٠]، [محمد:١٢]،[الفتح:٥]،[الفتح:١٧]،[الحديد:١٢]،[المجادلة:٢٢]، [الصف:١٢]، [التغابن:٩]،[الطلاق:١١]،[التحريم:٨]،[البروج:١١]،[البينة:٨].

هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣]، ولم تذكر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس:٩].

ففرق بين أنهار تجري من تحت الجنات أو الجنة أو الغرف، وأنهار تجري من تحت أهل الجنات، فالأخيرة توحي بالفضل العظيم الذي حباهم الله، ففيه "زيادة في لذتهم وسرورهم"[(١)]، فالأنهار بين أيديهم، كما جمع الضمير بين الأنس بأهل الجنة والتلذذ بخيراتها وبالنظر إلى المنظر البهي، أما الأنهار التي تجري من تحت الجنات ليس فيها معنى القرب منهم ولا البعد، لكن قوله: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ صرحت بهذا الفضل العظيم، والجنات التي تجري تحتها الأنهار واسعة، فقد يكون في قوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ معنى أوسع من قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ والأخير مندرج تحت الأول وليس العكس؛ لأن الأولى توحي بكثرة الأنهار فهي بين يدي أهل الجنة وهم كثر، مع ما في ذلك من إكرام أهل الجنة وتجميل المكان لهم، كما أن قوله: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ فيها معنى التمكين، وهذا مستفاد من قوله تعالى في القرون المهلكة: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام:٦]، مع الاختلاف بين الحالين.

ويظهر من جميع ما سبق كرم الله، فالأنهار تجري من تحت الجنات، ومن تحت الغرف، ومن تحتهم، فتنوع بذلك أساليب تصوير فضل الله عليهم.

قال الرازي: "المراد منه أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين، والأنهار تجري من بين أيديهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢٢٨/٣).

[مريم:٢٤]، وهي ما كانت قاعدة عليها، ولكن المعنى بين يديك... وكذا قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف:٥١]"(١).

قال الألوسي في تفسيره لآية سورة الأعراف السابقة: "المراد تجري من تحت غرفها مياه الأنهار زيادة في لذتهم وسرورهم"(٢). وقال في تفسيره لآية سورة يونس:" أي من تحت منازلهم أو من بين أيديهم"(٣) والأخير قول شهاب الدين من قبل(٤).

ولابن عاشور إضاءة عند تفسيره لآية سورة الكهف حيث قال: "ووجه إيثار إضافة تحت إلى ضميرهم دون ضمير الجنات؛ زيادة تقرير المعنى الذي أفادته لام الملك، فاجتمع في هذا الخبر عدة مقررات لمضمونه، وهي: التأكيد مرتين، وذكر اسم الإشارة. ولام الملك، وجرّ اسم الجهة بمن، وإضافة اسم الجهة إلى ضميرهم، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتم تقرّر"(١).

واختلف في الضمائر الواردة(٢) في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه:٣٩] فهل هذه الضمائر الغائبة عائدة إلى مرجع واحد؟ وهل هي عائدة إلى موسى المولود والمتحدث عنه أم إلى التابوت؟ أم منها ما هو لموسى ومنها ما هو للتابوت؟ فتعود حينئذ إلى مرجعين.

والجواب عن هذا من وجهة نظر الباحث أن جميع الضمائر تعود إلى موسى لأهميته، وليس منها ضمير عاد إلى التابوت الذي ليس إلا ظرفا، رغم كونه الأقرب

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢١٤/١٧).
(٢) روح المعاني للألوسي (٣٦٠/٤).
(٣) المصدر(٧١/٦).
(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي شهاب الدين الخفاجي (٨/٥).
(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٠/١٥).
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣٥/٤).

لضمير الغائب في قوله:﴿ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ ﴾ فالمقذوف موسى - عليه السلام- وليس التابوت، والقرائن في ذلك أن موسى هو المتحدث عنه، وهو أهم مذكور في القصة، ولا قيمة للتابوت سوى كونه ظرفا، فلا يعود الضمير إلى غير الأهم، ولا يشتت الضمير بكثرة مراجعه ما دام السياق يحتمل ذلك ويقويه؛ لأن "الأصل توافق الضمائر في المرجع حذرا من التشتيت"[1]، كما أن هناك ضمير يقوي ماذهب إليه الباحث، وهو قوله: ﴿ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ ﴾ فلا يقبل أن يعود الضمير إلى التابوت مع كونه أقرب مذكور؛ لأن العداوة بين فرعون والتابوت معدومة، لكنها ستكون بين فرعون وموسى عليه السلام.

وللعلماء في مرجع هذه الضمائر المتعاقبة أقوال؛ فيرى ابن عطية أن الأول لموسى، والثاني للتابوت، مع جواز كونه لموسى[1]، ولم يوافقه أغلب المفسرين على ذلك، فرجح أبوحيان عود جميع الضمائر إلى موسى[2]، وكذلك ابن عادل؛ وروى تجويز البعض أن يكون الضميرين الغائبين اللذين بعد التابوت للتابوت[3]، ورأى الألوسي عود الضمائر كلها إلى موسى – عليه السلام- وذكر أنه قيل: الضمير الأول لموسى -عليه السلام- والضميران الأخيران للتابوت، ومتى كان الضمير صالحا لأن يعود على الأقرب وعلى الأبعد كان عوده على الأقرب راجحا، كما نص عليه النحويون[4] وأجاز ابن عاشور عود الضمائر الثلاثة المنصوبة إلى موسى لكونه حاضرا في ذهن أمه، ويجوز عنده جعل الضميرين الأخيرين عائدين إلى التابوت ولا لبس في ذلك[5].

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/٣٣٨)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/٤٦٦)، وينظر: البرهان في علوم القرآن(٤/٣٥).

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٤٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٧/٣٣٠).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٣/٢٣٤).

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي (٨/٥٠٢).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦/١١٨).

ولكن أبا حيان يرى أن الأرجح عوده إلى المتحدث عنه وإن لم يكن الأقرب، وذكر قاعدة ذلك فقال:" ولقائل أن يقول إن الضمير إذا كان صالحا لأن يعود على الأقرب وعلى الأبعد؛ كان عوده على الأقرب راجحا، وقد نص النحويون على هذا؛ فعوده على التابوت في قوله: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ﴾ راجح، والجواب أنه إذا كان أحدهما هو المحدَّث عنه، والآخر فضلة كان عوده على المحدث عنه أرجح، ولا يلتفت إلى القرب"[1].

ويفرد الباحث قول الزمخشري لكونه لقي قبولا عند كثير من المفسرين حيث قال:"والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة؛ لما يؤدى إليه من تنافر النظم. فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم، الذي هو أمّ إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسّر"[1].

وقد تعود الضمائر إلى المتعاطفين بضمير المفرد؛ ليناسب كل ضمير مرجعه حسب ما تقرر في العقيدة، بعد أن أُمن اللبس، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح:٩]، فقد أمن اللبس لاسيما أن الآية في سورة مدنية، نزلت في السنة السادسة بعد صلح الحديبية، وبعد أن استقرت قواعد الدين[2]، وبذلك يعلم أن التعزير والتوقير للنبي- ﷺ - فعادت الضمائر إليه؛ للقرينة المعنوية في اللفظ؛ ولكونه الأقرب، لكن قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لم يعد ضميره الذي وقع في محل مفعول إلى مرجع الضميرين في الفعلين الذين سبقاه، لكنه عاد إلى غير الأقرب في النظم، فعاد إلى المعطوف عليه وهو لفظ الجلالة الله،

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٧/٣٣٠-٧٣٣١).

(١) الكشاف للزمخشري (٣/٦٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/٤٨٢) .

فالتسبيح عبادة لا تصرف إلا له سبحانه، فقد استقر ذلك في النقل والعقل؛ فأمن اللبس لثبات قواعد العقيدة في نفوس المؤمنين، ومن الأدلة في النقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]، فالضمائر في : (تعزروه) و (توقروه) راجعة إلى أقرب مذكور؛ وهو الرسول -ﷺ- فالتوقير والتعزير في حقه واجب على كل مسلم، بخلاف الضمير في (تسبحوه) فهو راجع إلى الله - عز وجل - لأن التسبيح في حقه -ﷺ- مخالف لما رسخته قواعد الدين.

ومن الذين قالوا إن ضميري النصب الأولين عائدان إلى الرسول -ﷺ- وضمير النصب في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ عائد إلى الله؛ الثعلبي، وصرح بالوقف التام قبل ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾[(1)]، وابن عطية يصرح بأن قول الجمهور في: تعزروه وتوقروه؛ أنهما للنبي-عليه السلام- وتسبحوه هي لله، ويروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وقتادة أن معناه: تنصروه بالقتال، ونسب القول بأن الضمائر كلها لله إلى بعض المتأولة[(1)]، وممن صرح بأن هذا رأي الجمهور الكرماني، وتعجب ممن جعل جميع الضمائر للرسول ﷺ، ولم يرتضه[(2)]، وكذلك ابن عادل رأى التفريق؛ على أن يكون الضميرين الأولين للرسول -ﷺ- والثالث لله، وقرر الوقف كما قرره الثعلبي[(3)]، ومنهم

(١) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٤٤/٩) .

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٢٩/٥) .

(٢) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١١١٢/٢).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤٨٦/١٧).

أيضا أبو الحسن القيرواني(١)، والزركشي(٢)، ووافق أولئك الشنقيطي(٣)،أما الطبري فصرح بأن الهاء في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من ذكر الله وحده دون الرسول، ولم يصرح بما قبله(٤).

أما منهج الزمخشري فهو عدم تشتيت الضمائر بتفريق مرجعها؛ لذلك فالضمائر عنده كلها لله، ويرى أن من فرّق فقد أبعد(٥)، وتبعه بعض من جاء بعده فالرازي يرى أن ضمائر النصب راجعة إلى الله تعالى، أو إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- والأصح عنده الأول(٦)، والظاهر عند أبي حيان أن الضمائر لله، وأن تفريق الضمائر يجعلها للرسول -ﷺ- وبعضها لله تعالى(٧)، والسيوطي قال بأن جميع الضمائر لله(٨)، وروى الألوسي القولين، ورجح كون الضمائر كلها لله لئلا يلزم فك الضمائر(١) ومثلهم ابن عاشور جعل الضمائر كلها لله؛ لأن إفرادها يجعلها عنده لأحد المتعاطفين فأعادها لله لقرينة﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، والنبي أحد المخاطبين بذلك. وروى أن ابن عباس جعل ضميري النصب الأولين عائدين إلى الرسول(٢)، ويرى الباحث أن القول بأن الضمائر كلها عائدة إلى الله قد لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧]

---

(١) ينظر: النكت في القرآن الكريم(ص: ٥٣٦).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن(١/ ١٢٤).

(٣) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي(٧/ ٤٠٢).

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢١/ ٢٥٣).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/ ٣٣٥).

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٨/ ٧٣).

(٧) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/ ٤٨٦) .

(٨) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٣٨)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/ ٤٦٦).

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٣/ ٢٥١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ١٣٢).

وقوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة:١٢]، لكن مجيء التسبيح لله لا سيما بتحديد الوقتين وارد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]، حيث جاء التعزير والنصرة مثبتين في حق النبي -ﷺ- على المؤمنين، وفي حق الرسل - عليهم السلام - على أقوامهم، والتسبيح بكرة وأصيلا لله سبحانه، كما أن حجة من لم يفرقوا بين الضمائر هي أنهم يرون الاختلاف في مرجع الضمائر يحدث تشتيتا وبعدا، ومنهم من رأى أن المذكورين اثنان، وأن الضمير مفرد لا بد أن يعود إلى أحدهما، لكن الباحث تبين له في مباحث سبقت أن ضمير الله أفرد في مواطن مع كون الرسول-ﷺ- معطوفا عليه، وذلك لإفراد الله سبحانه وتوحيده، والأدلة النقلية تفسر المراد بغير منهجهم، رحم الله هؤلاء الأفذاذ وغفر لهم، والله أعلم.

وعلق الدكتور عبد العظيم المطعني والدكتور فريد النكلاوي على الاختلافات في مرجع هذه الضمائر، وقالا بعد أن ذكرا رأي الزمخشري:"فالأمران جائزان، ولا مانع منهما شرعا، ومن جعل الضميرين الأولين للرسول -ﷺ- فليس بمتكلف، والنظم الحكيم لا يأباه، وسبب نزول هذه السورة يرجح جعل الضميرين الأولين له عليه السلام؛ لأن الصحابة لما رأو اشتطاط مشركي مكة في شروط الصلح، ونزول الرسول -ﷺ- على رغبتهم، لم تسترح أنفسهم لما جرى، وأخذوا يتساءلون ألسنا على الحق... فعلام نعطي الدّنية؟ وعظم عليهم الأمر لولا منزلة الرسول عندهم، فكانوا في حاجة إلى ترويض وتوجيه، فناسب ذلك أن يأمرهم الباري عز وجل بالالتفاف حول الرسول، ومساندته وتوقيره واحترامه، مهما بدا لهم من الأمر"[(١)].

ثم يذكران الفن البديعي، وبعض اللطائف في ذلك فيقولان: "وإذا صح هذا الفهم، وما هو من الصحة ببعيد، فإن في النظم الكريم فنا بديعيا هو المسمى باللف والنشر، وهو أن تذكر أمرين، أو أمورا ثم تعيد الحديث عنهما بما يناسب كلا منهما،

---

(١) من أسرار النظم القرآني في سورتي الفتح والواقعة، أ.د: عبد العظيم إبراهيم المطعني، وآخر، (ص: ٤٦-٤٧).

فإن جعلت أول الحديثين المعادين لأول المذكورين فهو اللف والنشر المرتب، وإن عكست كان غير مرتب، وهذا منه، فالضمير الأول والثاني للرسول، وهو ثاني المذكورين، والثالث لله وهو أولهما، ويكون في إيلاء الرسول -ﷺ- ما يجب له على المؤمنين من المساندة والتوقير اتصال للحديث عنه -عليه السلام- وأخر التسبيح الخاص بالله؛ ليجاور الفاصلة ويكون بكرة وأصيلا معمولين له"(١).

وقد اتخذ أحد القسيسين الحاقدين من الآية مطعنا ليطعن به في القرآن الكريم(٢)، وفحوى كلامه أنه يرى أن في الآية اضطرابا؛ لكون الضمائر إن عادت جميعها إلى الرسول -ﷺ- فقد يكون ذلك كفرا؛ لأنه لايسبح إلا الله، وإذا عادت الضمائر المنصوبة إلى الله كلها فإن ذلك أيضا كفر؛ لأن الله لا يحتاج إلى من يعزره ويقويه، وإذا جعل الضميرين الأولين للرسول والأخير لله فقد وقع الاضطراب.

وقد رد الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي على ما احتواه كتاب القسيس من أباطيل ومن بينها رده على هذا الكلام بعد أن نقله برمته، ومن رده أن تعزير الله وتوقيره ليس كفرا، فالتعزير بمعنى النصر، والتوقير بمعنى الإجلال والتعظيم، والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد:٧]، ولقد ذم الله الكفار الذين لم يقدروا الله قدره فقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام:٩١]، ثم ذكر قولين في مرجع ضمائر النصب، أحدهما: أن الضميرين

(١) من أسرار النظم القرآني في سورتي الفتح والواقعة، أ.د: عبد العظيم إبراهيم المطعني، وآخر، (ص: ٤٦-٤٧).

(٢) هو القسيس عبدالله الفادي وقد يكون الاسم مستعارا، وكتابه المنسوب إليه هو: هل القرآن معصوم؟، صدر عن مؤسسة تنصيرية في النمسا، اسمها: ضوء الحياة، صدر بثلاث لغات: الألمانية والإنجليزية والعربية، ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤م، وتوزعه هيئات ومراكز التبشير النصرانية، ينظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص:٤- ٥)و(ص: ١١)، وقد ضمن كتاب القسيس المشتمل على مئة سؤال آخر هذا الكتاب.

الأولين عائدان إلى الرسول، والضمير الثالث عائد إلى الله، وثانيهما: أن ضمائر النصب عائدة إلى الله على نحو ما فسر من قبل، ورجح الأخير، ثم جهّل الفادي[(١)].

وقد سبق أن عرض الباحث رأيه بكون ضمير النصب الأولين للرسول -ﷺ- وضمير النصب الثالث لله سبحانه، واستدل بالقرائن، والأدلة النقلية من القرآن الكريم، ثم ما قرره أغلب العلماء الذين وقف على قولهم.

وقد يتعاقب الضميران في النظم، ولكل ضمير مرجعه الذي حدده المقام ولا يختلّ في ذلك نظم، كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف:٢٢]، فالضمير في قوله: ﴿ فِيهِم ﴾ عائد إلى أهل الكهف، والضمير في قوله: ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ للمتكلمين بعدتهم سواء أكانوا نصارى نجران كما قال الفراء[(٢)] أم اليهود كما روى الزركشي والسيوطي عن ثعلب والمبرد[(١)]، وهو قول لابن عطية[(٢)] وقال الزمخشري لأهل الكتاب[(٣)]، وقال ابن عاشور يعود إلى الضمير في ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ ﴾[(٤)].

---

(١) ينظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان د صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص:٣٦٦-٣٦٧).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(١٣٨/٢).

(١) البرهان في علوم القرآن(٣٦/٤)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٤٦٦/٣).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٧/٣).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٧١٢/٢) .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٦/١٥).

فالعلماء لم يضطرب قولهم في مرجعي الضميرين؛ لأن السياق القصصي كشف عن ذلك، واختلافهم في الخائضين في عدد أهل الكهف لا يعد اختلافا في مرجع الضمير الثاني، فالضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ للمتكلمين في زمن النبي ﷺ.

ومثل ذلك يأتي في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣]، فقد اختلف في مرجع ضمير الرفع وضمير النصب في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ على قولين:

الأول: ضمير الرفع عائد إلى الفئة التي تقاتل في سبيل الله، وضمير النصب عائد إلى الفئة الكافرة، ويكون المعنى أن المسلمين يرون الكفار مثليهم، أي: مثلهم ثلاث مرات.

الثاني: ضد ما سبق فضمير الرفع عائد إلى الفئة الكافرة، وضمير النصب عائد إلى الفئة التي تقاتل في سبيل الله، والمعنى أن الكفار أفزعهم رؤيتهم المسلمين أضعافهم ثلاث مرات، وكان ذلك سبب هزيمتهم.

والعجيب أن القول الأول يتوافق مع العدد الحقيقي للجيشين، وهو ما ذكره ابن الأنباري عند تفسيره للآية حيث قال:" معناه يرى المسلمون المشركين ضعفيهم، أي ثلاثة أمثالهم؛ لأن المسلمين كانوا يوم بدر ثلثمائة وأربعة عشر رجلا، وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا، فكان المسلمون يرون المشركين على عددهم ثلاثة أمثالهم"(١).

أما القول الثاني فيتوافق مع المعجزة التي كانت سبب انتصار المسلمين على الكافرين مع أن عدد الكفار ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، لكن الله جعل المسلمين في أعين الكافرين أمثالهم ثلاث مرات، فجبن الكافرون ومنوا بالهزيمة.

(١) الأضداد لأبي بكر الأنباري (ص: ١٣٢).

ويقويه ما ذكره الثعلبي بقوله:"كان المشركون يرون المسلمين مثليهم، فلما أسروهم سألهم المشركون كم كنتم؟ قالوا: ثلاثمائة وبضعة عشرة، قالوا: ما كنا نراكم إلا تضاعفون علينا، قال: وذلك مما نصر به المسلمون"(١).

وذكر الفراء وجهين فقال: " زعم بعض من روى عن ابن عباس أنه قال: رأى المسلمون المشركين فى الحزر ستمائة وكان المشركون تسعمائة وخمسين، فهذا وجه. وروى قولَ آخرٍ كأنه أشبه بالصواب: أن المسلمين رأوا المشركين على تسعمائة وخمسين، والمسلمون قليل؛ ثلاثمائة وأربعة عشر"(٢).

أما السهيلي -الذي لم يرتض ما ذكره الفراء- بين أنها نزلت في بني قينقاع، وذكر وجوها للمعنى؛ قائلا: "فمن قرأه يرونهم بالياء؛ فمعناه أن الكفار يرون المؤمنين مثليهم، وإن كانوا أقلّ منهم لما كثرهم بالملائكة. فإن قيل: وكيف وهو يقول في آية أخرى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال:٤٤] ؟ قيل: كان هذا قبل القتال، عندما حَزَر الكفار المؤمنين فرأوهم قليلا، فتجاسروا عليهم ثم أمدهم الله بالملائكة فرأوهم كثيرا فانهزموا، وقيل: إن الهاء في يرونهم عائدة على الكفار، وإن المؤمنين رأوهم مثليهم، وكانوا ثلاثة أمثالهم فقللهم في عيون المؤمنين. وأما من قرأها بالتاء فيجوز أن يكون الخطاب لليهود، أي: ترون المشركين يوم بدر مثلي المؤمنين، وذلك أنهم كانوا ألفا، فانخذل عنهم الأخنس بن شريق ببني زهرة(١)، فصاروا سبعمائة أو نحوها، ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين، أي: ترون أيها المشركون المؤمنين مثليهم، حين أمدهم الله بالملائكة، فيعود الكلام إلى المعنى الأول، الذي قدمناه في قراءة من قرأ بالياء. وفي الآية

(١) الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٢/٣).

(٢) معاني القرآن للفراء (١٩٤/١).

(١) الأَخْنَس بن شريق بن عمرو الثقفي حليف بني زهرة، كان من المؤلفة، وشهد حنيناً ومات في أول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٩٢/١).

تخليط عن الفراء أضربنا عن ذكره، وجُلّ ما ذكرناه آنفا مذكور في التفاسير بألفاظ مختلفة"[1].

وأما الضمير المجرور في قوله: ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ فقد يكون معناه مثلي الفئة الرائية، أو مثلي الفئة المرئية، سواء أكانت الفئة الرائية هي الفئة المؤمنة، أم الفئة الكافرة؛ ولعل الأقوى أن تكون الفئة المرئية مثلي الفئة الرائية؛ لأنه إذا كانت الفئة الرائية هي الفئة الكافرة فإن مثلي المسلمين لا يمثل فزعا لهم، ولكن الذي يفزعهم كون المسلمين مثلي المشركين عددا.

وكثير من المفسرين ذكروا القولين ومنهم الطبري[2]، وابن عطية[3]، وابن عادل[4]، والأصح عند الزمخشري والرازي وابن عاشور أن الرائين هم المشركون، والمرئيين هم المؤمنون، والمعنى أن المشركين كانوا يرون المؤمنين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين وهو ستمائة، وذلك معجز[5]، وخالف أبو حيان قول الرازي ورأى أن الأبلغ في الآية أن يعود ضمير الرفع إلى المؤمنين، فيكونون هم الذين رأوا الكافرين مثلي أنفسهم في العدد ومع ذلك نصرهم الله[1].

وتقليل العدد في الرؤية ثابت في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال:٤٤].

---

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية للسهيلي (٤/٢٤٧-٢٤٨).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥/٢٤٥).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/٤٠٧).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥/٦٢-٦٣).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/٣٤١)، ومفاتيح الغيب للرازي (٧/١٥٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٣٤).

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/٤٦-٤٧) .

وتقليل العدو سبب من أسباب النصر قال تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال:٤٣].

وقد يعود الضمير إلى غير الأقرب؛ لكونه هو الأهم أو لأنه سبب الكلام ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة:١١]، فقد عاد الضمير في قوله: ﴿إِلَيْهَا﴾ إلى ﴿تِجَٰرَةً﴾ ولم يعد إلى ﴿لَهْوًا﴾ مع كونه الأقرب، وقرينة المرجع مجيء الضمير مؤنثا، وهو لا يتوافق مع ﴿لَهْوًا﴾ المذكر، ولعل البلاغة في ذلك تكمن في أمور أربعة:

الأول: كون الانفضاض إلى التجارة هي مناسبة الآية، وسبب نزولها(١).

الثاني: أن كلّ ما ألهى عن العبادة فهو معدود من اللهو(٢)، فالدنيا بنفائسها حقيرة، ومن اللهو إذا ألهت عن عبادة، لقوله: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور:٣٦-٣٧]، فعدت التجارة والبيع من اللهو إذا ألهت عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

الثالث: أنه إذا حرم الانفضاض إلى التجارة مع ما فيها من نفع مرجو، وترْك النبي – ﷺ – قائما، فتحريم الانفضاض إلى اللهو الذي لا فائدة من ورائه من باب أولى.

الرابع: أن غالب من يهتمون بالتجارة هم المكلفون فاستوجب ذلك تنبيههم، أما اللهو فأغلب أتباعه من غير المكلفين، فأشير إليه لاحتماله، وذكرت التجارة وضميرها في صدر الآية من باب التوكيد، لأنها بذلك ذكرت مرتين، بخلاف اللهو الذي لم يذكر في صدر الآية إلا مرة.

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/١٢٦) و(٤/٣١).

(٢) ينظر: غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول، د. محمد إبراهيم شادي (ص:٤٣٤) .

وللعلماء في ذلك وقفات فجعل أبو عبيدة هذا الضمير من مجاز ما جعل الخبر للأول منهما أو منهم[١]، وذكر الفراء وابن قتيبة: أنه لو قال: (إليهما) أو (إليه) لكان جائزا[٢]، وقدّر الثعالبي بتثنية الضمير[٣]، ويرى الباحث أن تجويز تثنية الضمير يذهب النكتة من وراء تأنيث الضمير مع إفراده، أما ابن رشيق فجعل هذا من باب الاتساع؛ لأنه أخبر عن أحدهما دون صاحبه[٤]، وقدّر الزمخشري ذلك بقوله:" تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهوا انفضوا إليه: فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه"[٥]. وبمثل هذا قال الرازي[٦]، والسيوطي[٧]، وأما ابن عادل فعلل إفراد الضمير بكون العطف ب (أو) فيجب الإفراد، لكن المراد أنه ذكر الأهم من الشيئين، فهو نظيرها من هذه الجهة[٨]، وذكر الزركشي لطيفة فقال: لأن التجارة أجذب للقلوب وأنفع، وهي الأصل واللهو تبع لها؛ لأنه ضرب بالطبل لقدومها، ومعنى هذا القول ذكره الفراء من قبل[١]، وقد يكون هذا مستبعدا لقول سيأتي. وتكلم الدكتور فاضل السامرائي عن بلاغة تقديم التجارة على اللهو في صدر الآية وتأخيرها عنه في آخر الآية، فذكر أن التقديم لكون التجارة هي سبب الانفاض، وذلك سبب مجيء ضميرها فقط، أما تأخيرها فلكون اللهو أعم فقدم، وأكثر الناس يلهون، وأخرت التجارة لكون التأخير مناسبا لقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[٢].

---

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ١٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣/ ١٥٧)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٦٦).

(٣) ينظر:فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص:٢٢٦).

(٤) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني (٢/ ٢٢٧).

(٥) الكشاف للزمخشري (٤/ ٥٣٧).

(٦) ينظر:أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل(ص: ٥١٩).

(٧) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٢/ ٤٥١).

(٨) ينظر:اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢/ ٣٣).

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٤/ ٣٢)، ومعاني القرآن للفراء(٣/ ١٥٧).

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل(ص:١٧٥-١٧٦).

وذكر الدكتور محمد إبراهيم شادي في رجوع الضمير إلى التجارة دون اللهو قولا نفيسا فقال:" فالظاهر –والله أعلم– أن اللهو هنا لا يراد به اللهو الحقيقي من مزامير وغيره؛ لاستبعاد أن يحدث هذا مرورا بالمسجد عند صلاة الجمعة، ولو حدث فرضا فمن المستبعد أن يخرج إليه صحابة رسول الله تاركين رسولهم قائما على المنبر، وإنما الصحيح الوارد في البخاري هو الخروج لشراء الطعام(1)، فذلك هو المقبول، وقد ذكر اللهو في الآية على عد التجارة من اللهو بالقياس إلى ما عند الله، من صلاة وسماع الخطبة من رسول الله –ﷺ– كقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾(2) ويدل على هذا من النظم ما سبق من ذكر ضمير التجارة وحدها"(3).

ومما يؤيد كلام الدكتور هو تصريح القرآن بذلك، فقد قال الله في المساجد:﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور:٣٦-٣٧]، فسمى الله التجارة لهوا إذ أشغلت عن ذكر الله والصلاة.

ولما ذكر الله حال الكافرين يوم القيامة وجزاءهم؛ فصل بذكر حال المتقين وجزائهم على هيأة جملة معترضة؛ لغاية معينة، ثم أعاد الضمير إلى الكافرين، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا

---

(١) يقصد حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ– ﷺ– إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ تَحْمِلُ طَعَامًا، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا حَتَّى مَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ– إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾". ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة فصلاة الإمام ومن بقي جائزة (ص: ٢٢٦) رقم الحديث: ٩٣٦.

(٢) [محمد:٣٦].

(٣) غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول، د. محمد إبراهيم شادي (ص:٤٣٤) .

يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان:١٥-١٧]، فضمير جمع الغائبين في قوله: ﴿ يَحۡشُرُهُمۡ ﴾ عائد إلى غير الأقرب؛ وهم الذين كفروا وكذبوا بالساعة، بقرينة: ﴿ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وما بعدها، والفصل بذكر حال المتقين وإضافة الجنة إلى الخلد -والله أعلم- فيه مزيد إيلام للذين كفروا، وتقريع وتبكيت، بدليل قوله: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.

ويأتي الضمير غير عائد إلى الأقرب؛ لكون الجملة اعتراضية؛ جاءت لتحقيق غاية معينة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ فالمتكلم هو الملك، وياء المتكلم وضمير المتكلم المستتر في قوله: ﴿ أَسۡتَخۡلِصۡهُ ﴾ ثم الضمير الذي تظهر فيه عظمة الملوك حيث قال: ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ كلها عائدة إلى ملك مصر، لكن تأتي آية مستأنفة بمثابة الاعتراضية لا يعود فيها ضمير العظمة إلى ملك مصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَكَّنَّا ﴾ فأسند الفعل إلى ناء العظمة العائدة إلى ملك الملوك -سبحانه- الذي سخر ملك مصر لتنفيذ إرادته، فقد جاء قوله تعالى: ﴿ مَكَّنَّا ﴾ حيث العظمة المطلقة التي تتلاشى أمامها عظمة ملك مصر، لكونه عبدا نفذ إرادة الله، فالمسند إليه في قوله: ﴿ مَكَّنَّا ﴾ ليس راجعا إلى ما رجع إليه الضمير في قوله: ﴿ لَدَيۡنَا ﴾؛ لاشتمال السياق على قرائن تمنع من ذلك، كما أنّ لفظة ﴿ مَكَّنَّا ﴾ في هذا المقام تربط الأذهان في قوله: ﴿ مَكَّنَّا ﴾ الذي بدأ أول القصة به في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١]، فاجتمع في الضمير الذي لم يعد إلى الأقرب في السياق بل عاد إلى الأقرب في كل حال، صاحب العظمة والإرادة سبحانه، وما ملوك الدنيا إلا عبيد له سبحانه، فيوسف سأل الملك أن يجعله على خزائن الأرض، وجاء التمكين من الله، ولم تأت إجابة ملك مصر. كما أن في ضمير التمكين دلالة على أن يوسف -عليه السلام- مكّن من خزائن الأرض. وقد ذكر مرجع الضمير في قوله: ﴿ مَكَّنَّا ﴾ في قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢] أو قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف:٥٣].

قال الألوسي: " ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة، ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه -عليه السلام- من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها؛ له غاية جميلة وعاقبة حميدة، وأنه -عليه السلام- محسن في أعماله، لم يصدر عنه ما يخلّ بنزاهته"(١).

ويشير الباحث إلى أن الضمير يعود في كثير من المواطن إلى المعطوف عليه لا إلى المعطوف الذي هو الأقرب، وذلك بقرينة تصرفه عن المعطوف، ويكثر ذلك إذا كان المعطوف الرسول -ﷺ- والمعطوف عليه لفظ الجلالة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾[النساء:١٣]، فالضمير المفرد في قوله تعالى: ﴿ يُدۡخِلۡهُ ﴾ عائد إلى الله سبحانه وتعالى، فهو فعل له وحده. وفي هذه الآية الضمير عاد إلى غير الأقرب في اللفظ وذلك ثقة بأن السامع يعلم أن هذا الفعل لا يكون إلا لله فجاء الكلام مطابقا لمقتضى الحال؛ مراعيا فهم المتلقي، مرسخا حق الله في التوحيد والإفراد، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ [الحديد:٧] ، والجاعل هو الله، كما قال:

---

(١) روح المعاني للألوسي (٤٠١/٦).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور:٥٥] وأمثال هذه الآية كثير، والقرائن الصارفة الضمير إلى المعطوف عليه بينة.

وإذا كان الأمر متعلق بعبادة لله سبحانه فإنه سبحانه يظهر المرجع في موضع الإضمار ولا يكتفي في ذكر المتعاطفين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور:٥٢] فلم يقل ويخشه لأن الأمر متعلق بالله وحده، واللبس يضر في العقيدة، فأعيد لفظ الجلالة مظهرا مكان المضمر؛ لإبعاد الشبهة ودحضها؛ لكيلا يتوهم أحد عود الضمير على المعطوف؛ لأن العقيدة أهم المهمات، ولذلك لم يأت الفعل ﴿وَيَخْشَ﴾ في الآية التالية متصلا بالضمير؛ لأن الخشية لا تكون إلا لله، فهي عبادة؛ لذلك أظهر لفظ الجلالة ولم يكتف بالمتعاطفين؛ لما قد يقع في إضماره من اللبس. وجاء بعدها الفعل ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ متصلا بالضمير؛ لأن اللبس قد زال بعد الإظهار ولا لبس في الإضمار حينئذ.

وقد يعود الضمير إلى المعطوف بقرينة الفعل؛ لأنها لا تتوافق مع المعطوف عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال:٢٠]، فالتولي يكون بعد المواجهة على الحقيقة، ولذلك فالضمير المفرد في قوله: ﴿عَنْهُ﴾ عائد إلى الرسول -ﷺ- لأنه هو الذي يقابل الناس ويسمعون منه، وقد يتولون عنه، ومن تولى عن رسول الله فقد تولى عن الله، ولم يأت ضمير المثنى عائدا على المتعاطفين تنزيها لله، كيلا يشرك وغيره بضمير واحد[1].

ويعود الضمير إلى غير الأقرب بدليل خارج عن السياق ففي قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ

(١) درس الباحث هذا الشاهد وأمثاله في مبحث عود ضمير المفرد على المثنى (ص: ٧٥-٧٦).

تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الطارق:٥-١٠]، يجد الباحث اختلاف المفسرين في مرجع الضمير المستتر في قوله:﴿ يَخْرُجُ ﴾ فمنهم من قال إنه عائد إلى الأقرب وهو: ﴿ مَّآءٍ ﴾ ومن أولئك الكفوي(١)، والسيوطي(٢)، وابن عادل(٣)، وابن عاشور(٤)، واحتمل ابن عطية عوده إلى الماء أو إلى الإنسان(٥)، ومنهم من رأى أنه يعود إلى غير الأقرب؛ ليعود إلى ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ وهو أحد أقوال ابن عطيه، ولم يجزه السيوطي ووصفه بأنه بعيد جدا(٦).

والأرجح أن الذي يخرج هو الإنسان؛ لأن النطفة تتكون في الصلب والترائب، وهو أمر لم يدركه العلماء إلا حديثًا(١)، فالماء لا يخرج من بين الصلب والترائب، بل النطفة، كما في قوله:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقوله : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ [النساء:٢٣](٢)، ولم يرد في القرآن فعل (الإخراج) متعلقا بالمني. وقد شغل موضوع عود الضمائر المحققين فحرره جلهم استنادا على السياق، أما الحقيقة العلمية فهي أن الأصول الخلوية للخصية في الذكر، أو المبيض في الأنثى؛ تجتمع في ظهر الأبوين خلال نشأتهما الجنينية، ثم تخرج من الظهر، من منطقة بين بدايات العمود الفقري وبدايات الضلوع؛ ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب

---

(١) ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي(ص:٨٧٣).

(٢) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/٤٤٢).

(٣) ينظر: اللباب في علوم القرآن(٢٠/٢٦٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٢٣٤).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٤٦٥).

(٦) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/٤٤٢).

(١) ينظر: دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي (ص: ٣٢٥).

(٢) وينظر: الأدلة على أن الخلق في ظهر آدم (ص:١٨٠-١٨١).

الرحم، وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل[١]، ومن ذين يتكون الإنسان؛ لذلك الأقرب عود الضمير إلى المذكور الأبعد ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ لامتناع عودها على الأقرب وهو الماء.

وكذلك اختلفوا في مرجع الضميرين في قوله: ﴿رَجۡعِهِۦ﴾ وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ فمنهم من جعله راجعا إلى ﴿مَّآءٖ﴾ أي رد الماء في الإحليل، وذكر النحاس ذلك وجعل الصحيح خلافه وجعله للإنسان، وذكر أقوالا في مرجع الضمير[٢]، ومنهم من رأى أنه يعود إلى غير الأقرب؛ ليعود إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، وأن الله على رده لقادر، ومن أولئك الفراء[١]، وصحح النحاس ذلك وبين أن معناه بعث الإنسان[٢]، وقال بذلك الزمخشري[٣]، وهو أول آراء ابن عادل[٤]،وأرجعه الحسن القيرواني إلى الإنسان في حالين وإلى الماء في حالة، وهي رجع الإنسان إلى الماء، أو على رجع الماء في صلبه، أو في إحليلة، أو على رجع الإنسان بعد الإحياء من الموت[٥] ورأي البيضاوي أنه للإنسان[٦]، وأبو السعود[٧]، وابن عاشور[٨]، وكذلك الثعلبي وذكر أن الضمير في ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ يعود على الإنسان الكافر[٩]، ورأى مثله أبو السعود[١٠].

---

(١) ينظر: أصول نشأة الإنسان من معجزات القرآن(٣/٣) ، د. محمد بن إبراهيم دودح، مؤسسة الإسلام اليوم، ٢٠١٦م، لايوجد تأريخ نشرها، وتم النقل منها ١٤٣٧/٥/١٤هـ
https://www.islamtoday.net/bohooth/services/printart-86-3450.htm

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(١٢٥/٥).

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٢٥٥/٣).

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(١٢٥/٥).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٧٣٦/٤).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٥/٢٠).

(٥) ينظر: النكت في القرآن الكريم(ص: ٥٥٠).

(٦) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٣٠٣/٥).

والأقرب أنه يعود إلى الإنسان استنادا إلى ما رآه أكثر أهل العلم، وإن لم يكن الأقرب في التركيب، ولأن المقصود بالرجع هو البعث، والله أعلم.

والمضاف إليه هو الأقرب للضمير من المضاف، وقد ورد عود الضمير إليه في مواضع من القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٧]، فبعد قوله: ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ في الموضعين جاء الضمير الغائب في قوله: ﴿لَأَظُنُّهُۥ﴾ عائدا إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ الذي وقع مضافا إليه، ولم يعد إلى المضاف: ﴿إِلَٰهِ﴾ ولعل في ذلك لمسة بلاغية تزيل الستار عما يجول في نفس فرعون من ادعاء للألوهية، حيث قال الله عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، فلم يجعل الضمير عائدا إلى ﴿إِلَٰهِ﴾ كيلا يسيء إلى نفسه، لذلك أعاده إلى موسى، والله أعلم.

بينما يأتي الضمير في موضع آخر عائدا إلى المضاف كما في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٣] فعاد الضمير إلى ﴿نِعْمَتَ﴾ بقرينة تأنيث الضمير في قوله: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ ولعل السبب في ذلك هو كون النعمة هي المحدّث عنها.

=

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٤١/٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٦/٣٠).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (١٨٠/١٠).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٤٢/٩).

وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤]، يطالعنا الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ وليس في السياق قرينة لفظية تبين المرجع، فالضمير مذكر ويطابق جميع أسماء الأنبياء الواردة، ولكن قد تكون القرينة من خارج السياق، وعلى ذلك فقد اختلف في مرجع الضمير على قولين:

١- أنه يعود إلى نوح لسببين؛ الأول: أنه الأقرب، وهذا يتوافق مع قواعد اللغة، وجاءت علامة الوقف لذلك، والثاني: أن لوطا ليس من ذرية إبراهيم، عليه السلام.

٢- أنه يعود إلى إبراهيم -عليه السلام- لثلاثة أسباب؛ الأول: أنه هو المتحدث عنه، والذي ذكرت هذه النعم من أجله، والثاني: أن جملة نوح اعتراضية، والثالث: أنهم أجابوا عن كون لوط ليس من ذرية إبرهيم بقولهم: إن إبراهيم عمّ للوط، والله سمى العمّ في القرآن أبا[1]، وقيل للتغليب، وهذا ملخص ما سيأتي من أقوال العلماء.

ويتبين ذلك بعد إلقاء النظر على ما دونوا - رحمهم الله - من آراء؛ فالفراء يرى أن الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ عائدا إلى نوح[2]، وكذلك الطبري[3]، واختاره ابن عطية[4]، والجرجاني[5]، والعكبري وضعّف عوده إلى إبراهيم[6]، أما الرازي فإنه يميل إلى القول بأنه

---

(١) قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣] وإسماعيل، عمّ يعقوب -عليهما السلام- وسماه القرآن أبا.

(٢) ينظر: معاني القرآن (٣٤٢/١).

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٨١/٩).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣١٦/٢).

(٥) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني (٧٢٣/٢).

يعود إلى إبراهيم في أكثر من موضع(٢)، وفي موضع ذكر القولين وحججهم وابتدأ القول بأنه يعود إلى نوح، ثم ذكر القول الآخر، وساق حجج الفريقين التي سبق ذكرها(٣)، أما ابن عادل فذكر أنه عائد إلى إبراهيم، وهو جد لعيسى من جهة الأم(٤)، واحتمل الزمخشري عوده إلى نوح أو إلى إبراهيم من غير ترجيح(٥)، ومال الأخفش إلى عوده إلى إبراهيم(٦)، وقال الألوسي - وسبقه إلى هذا المعنى وسوق الحجج ابن عادل والسمين الحلبي وغيرهم-: أنه يعود إلى إبراهيم عند جمع؛ لأنه هو المتحدث عنه، والله يذكر نعمه عليه، ومن ذلك هبة الأولاد الأنبياء، وذكر أن آخرين اختاروا كونه لنوح -عليه السلام- لأنه الأقرب، وأن لوطا ابن أخ إبراهيم -عليه السلام- والعرب تسمي العمّ أبا وبه جاء القرآن(١).

وجعل الإمام البقاعي الضمير عائدا إلى إبراهيم، ويرى أن إدخال لوط -عليه السلام- تحت ذرية إبراهيم - عليه السلام- من باب التغليب فقال:" ولما كان السياق كله لمدح الخليل، وكان المذكورون - إلا لوطاً - من نسله، وكان التغليب مستعملاً شائعاً في لسان العرب، لاسيما ولوط ابن أخيه ومثل ولده؛ حكم بأن الضمير لإبراهيم عليه السلام، وقول من قال: إن يونس - عليه السلام- ليس من نسله، غير صحيح، بل هو من بني إسرائيل، وهو أحد من ذكر في سفر الأنبياء"(٢).

=

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١/٥١٥).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٨/٢٤٨)، و(١٣/٣٣) و(١٣/٥١).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٣/٥٢).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٨/٢٣٤).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٤٣).

(٦) ينظر: معاني القرآن للأخفش(١/٣٠٦).

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤/٢٠٢)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/٥٧٤)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٨/٢٦٥)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٥/٢٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٧/١٧٢).

ويرى الباحث أن الضمير عائدا إلى إبراهيم – عليه السلام- لكونه هو المتحدث عنه والسياق في ذكر فضل الله عليه، و"لأن إبراهيم كونه من أولاد نوح أحد موجبات رفعة إبراهيم"(١)، ولذلك جيء بذكر نوح جملة اعتراضية، لأن ذرية إبراهيم هم ذرية لنوح وليس كل ذرية نوح – عليه السلام- ذرية لإبراهيم- عليه السلام- والمعنى أن الهداية متأصلة في أصل إبراهيم وفي ذريته، عليهم السلام، وهذا كله من تمام فضل الله على إبراهيم، عليه السلام، والله تعالى أعلم.

وأخيرا؛ فقد خلص الباحث مما سبق إلى أن الأصل عود الضمير إلى الأقرب إلا بقرينة صارفة، ومن القرائن كون غير الأقرب هو المتحدث عنه، وقد يرد في السياق مترادفان لغويان فيعود الضمير إلى الأبعد لغرض معين، ومن ذلك ذكر ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ و ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ مع ما تشعره الإضافة إلى الملك من الفزع والرهبة، على عكس المرادف الأول، ثم مجيء الضمير عائدا إلى أقرب مذكور، وهو الصواع في قوله:﴿بِهِۦ﴾ و﴿وُجِدَ﴾، ثم يتلون جنس الضمير من التذكير إلى التأنيث في قوله: ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾؛ ليعود على المرادف الأبعد؛ لما في ذلك من ربط ذهن المتلقي بأول أمر الحيلة؛ ولأن السقاية لفظ لا يجلب الخوف، بل يناسب الرفق مع أخيه.

وقد يطابق الضمير المرجعين المحتملين، لكنه يعود إلى الأبعد بقرينة معنوية ليست لفظية، فالهاء في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قرينة عودها معنوية وهي الرؤية. وقد تكون القرينة الصارفة لفظية كما في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، فالضمير في ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى الأرض؛ لكونها محل الإنبات بقرينة لفظية هي﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، وقد يعطف لفظ النبي –ﷺ- على لفظ الجلالة، ويعود الضمير على المعطوف عليه؛ لكون الفعل فعله، والفضل فضله، وإفراده توحيد له، ولم تأت تثنية الضمير مع الله، منعا من

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٢/١٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٥/٨).

اللبس المفضي إلى الإشراك كما في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، وأسلوب الحوار يقتضي إضمارا في مواطن الإظهار؛ طلبا للإيجاز بعد التصريح بالمتحاورين في أول الحوار، ويعرف كل مرجع ضمير من السياق.

وقد يأتي الضمير لغير القريب للمشاكلة، فبما أن الكافرين قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ فجاءوا بضمير مبهم بينه ما بعده، فقد جاء الضمير في ﴿فِيهَا﴾ للمشاكلة؛ لذلك الضمير يعود إلى الحياة التي صرحوا بها بعد إبهام ضميرها، وليس إلى الساعة القريبة، وذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾.

ويعود الضمير إلى غير الأقرب لوقوعه في النشر المرتب بعد اللف، مع وجود القرينة الصارفة عن الأقرب، كما في قوله: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، أو واقع في اللف والنشر غير المرتب كما في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾. وقد تتوفر القرائن ويتكأ في تعيين مرجع الضمير على موضع آخر مبين يقوي القرائن، فالضمير في الآية قبل السابقة يفسره قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [غافر:٦١]، وقد يفسر موضع موضعا خلا سياقه من القرائن المبينة مرجع الضمير، فتأتي القرينة من خارج السياق كما في قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [الشورى:٤٤]، فالمتحدث عنه هو الاسم الموصول، والأقرب هو الولي، لكن الضمير في قوله: ﴿بَعۡدِهِۦ﴾ لم يعد إلى أحد الاثنين بل عاد إلى الله سبحانه وتعالى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقد يأتي الضمير عائدا إلى غير الأقرب الذي كثر عوده إليه، كما في عوده إلى أهل الجنات في ثلاثة مواضع؛ تكريما وتمكينا، بدلا من عوده إلى الجنات كما هو الأكثر.

والأرجح عود الضمير إلى الأقرب إلا إذا كان غير الأقرب محدّثا عنه، فإنه يعود إليه، كما عادت جميع الضمائر إلى موسى لأهمية خبره في قوله: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ولا داعي للتشتيت مادام السياق يعين على عدم التشتيت، أما إذا أسهمت القرائن بإعادة كل ضمير إلى مرجعه فاتباع ذلك هو الصواب كما في قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾، فالآية مدنية والتسبيح قد استقرّ عند المسلمين أنه لله سبحانه، أما التعزير والتوقير فلرسوله، فأمن بذلك اللبس، وعادت كل هاء فعل إلى من هي له، وتظافرت الأدلة على هذا المعنى، وعود هذه الضمائر على ما ذهب إليه الباحث واقع في اللف والنشر غير المرتب.

وقد يعود الضمير إلى غير الأقرب في مقام التحذير لكونه الأخطر، والنهي عنه نهي عما دونه، وذلك هو الإيجاز، ومنه قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ فعاد الضمير إلى التجارة، وعدّت لهوا لما صدّت عن الذكر، وما سواها من باب أولى. وقد يعود الضمير إلى غير الأقرب بعد الجملة المعترضة كما مرّ في قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بعد ذكر جزاء المتقين مباشرة. وقد يكون الضمير العائد إلى غير الأقرب سببه كون الجملة اعتراضية كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ حيث ضمير العظمة العائد إلى الله، وقد كان المتكلم في الآية التي سبقتها ملك مصر.

والضمير يأتي عائدا إلى المعطوف أو المعطوف إليه، وإلى المضاف أو المضاف إليه، كما مرت شواهد ذلك.

الفصل الرابع : مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمير على ما لم يصرح بلفظه في القرآن الكريم :

المبحث الأول : عود الضمير على المصدر الذي فسره فعله .

المبحث الثاني : عود الضمير على مفهوم من المعنى .

الفصل الرابع : مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمير على ما لم يصرح بلفظه في القرآن الكريم :

المبحث الأول : عود الضمير على المصدر الذي فسره فعله.

من قواعد اللغة العربية أن يعود الضمير إلى اسم ظاهر، سواء أكان هذا الاسم قريبا أم بعيدا؟ أم محذوفا يفهم من السياق بالقرائن؟ لكن الضمير لا يكون مرجعه فعلا ولا حرفا، ولكن في هذا المبحث سيعرض الباحث لشواهد لا يعود فيها الضمير إلى اسم مصرح به، ولم يسبق هذا الضمير إلا بفعل يدل على الحدث وزمنه، مما يدل على أن هذا الفعل ضمّن مصدرا صالحا لعود الضمير إليه.

وهذا الأسلوب استعمله العرب في كلامهم، إلا أن القرآن الكريم تفوق في استعماله، ومناسبة هذا الأسلوب لسياقه لذي جاء به، ومما جاء على هذا النحو من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة حيث قال[1]:

وَمَا الحَرْبُ إِلّا ما عَلِمتُم وَذُقتُمُ ... وَما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ

فالضمير هو ليس له مرجع مصرح بذكره، لكن في السياق ما يدل على المرجع، فضمّن الفعل علمتم مصدرا تقديره العلم، فدلّ الضمير (هو) على المرجع الذي فسره الفعل علمتم، فأصبح المعنى وما العلم عنها بالحديث المرجم "لأنه لما قال: إلا ما علمتم؛ دل على العلم" كما قال الشيباني[2]، وكذلك التبريزي[3]، وقال بهذا البغدادي ورواه عن غير واحد من أهل اللغة والأدب[4]، وقال الزوزني: يعود إلى القول، أي وما هذا الذي أقول بحديث مرجّم عن الحرب[5]، ولعل بلاغة الضمير العائد إلى المصدر

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص: ١٠٧).

(٢) شرح المعلقات التسع، لأبي عمرو الشيباني (ص:٢٠٠).

(٣) ينظر: شرح القصائِد العشر للتبريزي (ص:١١٦).

(٤) ينظر: خزانة الأدب للبغدادي (٣/ ١٠).

(٥) ينظر: شرح المعلقات السبع، حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، (ص:١٤٣).

تكمن فيما استقرّ في الأذهان، من العلم بالحرب لا سيما أنها استمرت زمنا طويلا، فأغنى ذلك عن التصريح بالمصدر.

والفعل الذي يفسر المصدر المفهوم بدلالة الضمير عليه أتى على جميع صور الأزمنة الثلاثة، فجاء بصورة الماضي والمضارع والأمر.

أولا: الفعل الماضي المفسر للمصدر، حيث يعود الضمير بعده إلى المصدر المفهوم من هذا الفعل المصرح به، كما في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة:١٩٨]، فالضمير في قوله: ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد إلى المصدر المأخوذ من الفعل ﴿هَدَاكُمْ﴾ وهو الهدى[1]، ويؤيد هذا قرينة أخرى هي ذكر الضلال الذي هو ضد الهداية، وذكر الرازي في مرجع الضمير وجهين أحدهما عوده إلى الهدى، والآخر عوده إلى القرآن[2].

فبانت عظمة الإيجاز بذكر الفعل والضمير الذي لا يعود في هذا السياق إلا إلى اسم، وهو المصدر الذي فسره هذا الفعل المذكور، مع مكانة الفعل ودلالته، والمصدر المفهوم ودلالته، حيث يدل على الثبوت والاستمرار، مع تأكيد المصدر للفعل، وتأكيد الضمير للمصدر.

ولعل التعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿هَدَاكُمْ﴾ حمل دلالة بلاغية؛ منها أنه يفيد تمام الحدث، وصدور هذا الفعل من الله لغرض الامتنان، وهذا المعنى لا يتأتى لو

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥٢٤/٣)، الكشاف للزمخشري (٢٤٧/١)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣٠٠/٢)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٣٣٤/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٧/٢).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣٣٠/٥).

عبر بالمصدر، ولا يتأتى بالفعل المضارع، فعبر بالماضي؛ لتمام الحدث، والتحقق من وقوعه، والإشارة إلى فاعله؛ وليتناسب ذلك مع قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾.

وقد يعود الضمير إلى المصدر غير المصرح به بل المفهوم من الفعل، وفي عدم التصريح به دلالة على عدم تأثيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٣] فضمير الغائبين في قوله: ﴿فَزَادَهُمۡ﴾ يعود إلى المقول أو إلى القول(١)، والأغلب على أنه يعود إلى القول، وهذا القول مصدر فهم من الفعل المذكور ﴿قَالَ﴾، ودلّ عليه الضمير بحاجته إلى المرجع، ولعل عدم التصريح به مناسب لأثر هذا القول في نفوس المؤمنين، فلم يأبهوا به، بل زادهم إيمانا وقوة من الله، فحذْف المصدر مناسب لهذا المعنى، حيث أسهم في التقليل والتهوين من شأن هذا الكلام الذي قيل، والله أعلم، فلم يضعفهم بل زادهم قوة.

ثانيا: الفعل المضارع المفسر للمصدر، ومما جاء مفسرا المصدر على صورة هذا الفعل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]، فالفعل ﴿يَبۡخَلُونَ﴾ جاء بصيغة الحاضر؛ لاستحضار صورة وشناعة البخل؛ "لأن الاستحضار من شأنه أن يكون للحال، الذى من شأنه أن يعبر عنه بالمضارع"(١)، والضمير ﴿هُوَ﴾ عائد على

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (٤١٥/٢)، والكشاف للزمخشري (٤٤٢/١)، ومفاتيح الغيب للرازي (٤٣٣/٩)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٨/٦)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٤٨٨/٣)، وروح المعاني للألوسي (٣٣٨/٢)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١١٤/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٦/٣).

(١) عروس الأفراح للسبكي (٣٥٧/١).

البخل، وقد يكون في عدم التصريح به دلالة على تقبيحه، وإهماله، ليكتفى بالفعل الذي في النظم.

فالضمير ﴿هُوَ﴾ كشف الستار عن مرجعه الذي كان منطويا تحت الفعل، فبينه الفعل ﴿يَبْخَلُونَ﴾، فاجتمع بهذا التركيب الإيجاز، ودلالة الضمير على المصدر الذي أكد الفعل، ودلالة المصدر على الثبوت والاستمرار، كما أن الضمير أكد هذا المصدر، أما الفعل فأنجب المصدر، ودلّ على الحدوث والتجدد.

وجاء هذا التركيب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠]، والتقدير: التعظيم خير له[1]، فدلّ الضمير على المصدر الذي فسره الفعل ﴿يُعَظِّمْ﴾، لكن مجيء هذا التعبير فيه بلاغة لا تتحقق لو صرح بالمصدر بدلا من الضمير، فالضمير يحرك الفكر للتأمل بدلالته على مرجعه، فهو ضمير هدى إلى المصدر المختبيء تحت الفعل المفسر، مما يحرك الذهن وينمي مهارة التأمل للغوص إلى اللفظ المراد، فالفعل والمصدر والضمير تحقق فيه ما لا يمكن أن يتحقق في غيره، فالمصدر أكد الفعل، والضمير أكد المصدر، وإذا دلّ الفعل على التجدد والحدث، فالاسم قد دل على الثبوت والدوام، لا سيما والمحرمات طارئة ومتجددة، لكن التعظيم مستمر على الدوام؛ لأن "المضارع قد لا يلحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار"[2]، فأتى المضارع ليحيي الصورة الحاضرة في الذهن لهذا التعظيم.

قال ابن الأثير في دلالة الفعل الماضي والمضارع:" إن التخيل يقع في الفعلين معا، لكنه في أحدهما- وهو المستقبل- أوكد وأشد تخيلا؛ لأنه يستحضر صورة الفعل حتى

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٥٤/٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٧٩/١٤)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٠٥/٦)، وروح المعاني للألوسي (١٤١/٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٥٦/٥).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤٩٨/٧).

كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه، ألا ترى أنه لما قال تأبط شرا: (فأضربها)[1]، تخيل السامع أنه مباشر للفعل، وأنه قائم بإزاء الغول، وقد رفع سيفه ليضربها، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلا قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه، وهذا لا خلاف فيه، وهكذا"[1].

وذكر البقاعي قولا يشبه الاحتباك لو كان في جملة واحدة، فقارن بين قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج:٣٠]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢]، فقال:" وقد علم بما ذكرته أنه حذف من هذه [2] جملة الخير، ومن قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبب كونه خيراً له، وهو التقوى، ودل على إرادته هناك بذكره هنا، وحذف هنا كون التعظيم خيراً، ودل عليه بذكره هناك، فقد ذكر في كل جملة ما دل على ما حذف من الأخرى"[3].

---

(١) يقصد قول تأبط شرا:

بِأَنّي قَد لَقيتُ الغُولَ تَهوي ... بِسَهبٍ كَالصَحيفَةِ صَحصَحانِ
فَقُلتُ لَها كِلانا نِضوُ أَينٍ ... أَخو سَفَرٍ فَخَلّي لي مَكاني
فَشَدَّت شَدَّةً نَحوي فَأَهوى ... لَها كَفّي بِمَصقولٍ يَماني
فَأَضرِبُها بِلا دَهَشٍ فَخَرَّت ... صَريعاً لِليَدَينِ وَلِلجِرانِ

ينظر: ديوان تأبط شرا وأخباره (ص: ٢٢٤-٢٢٥).

(١) المثل السائر لابن الأثير(٢/ ١٤).

(٢) يقصد قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢].

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(١٣/ ٤٥).

ولمعرفة مزيد من هذا الأسلوب في القرآن الكريم أقف على قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة:٩٦].

وأقف على قول الزمخشري:" والضمير في ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ لأحدهم، وأن يعمر فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدُهم بمَنْ يزحزحه من النار تعميرُه. وقيل: الضمير لما دل عليه يعمر من مصدره، وأن يعمر بدل منه. ويجوز أن يكون (هو) مبهما، و﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ موضحة"(١).

واهتداء بأسلوب القرآن في قوله: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر:٧] فقد صرح بالمصدر الذي أنجبه الفعل ﴿ تَكْفُرُوا۟ ﴾ بقوله: ﴿ ٱلْكُفْرَ ﴾ ومن هذا الباب أجد الزمخشري في رأيه السالف ذكر وجهين عود الضمير إلى أحدهما أو التعمير المفهوم؛ والذي أراه هو أن الضمير ﴿ هُوَ ﴾ لا يصلح أن يعود على الاسم الظاهر ﴿ أَحَدُهُمْ ﴾ الذي هو الرأي الأول للزمخشري رحمه الله، بل الأرجح عندي ما رواه الزمخشري رأيا ثانيا، فإني لما بحثت عن مرجع آخر لم أر إلا الفعل﴿ يُعَمَّرُ ﴾ الذي لا يصلح أن يكون مرجعا للضمير، لكن هذا الفعل يفسر مصدرا يصح أن يكون مرجعا للضمير، فالفعل﴿ يُعَمَّرُ ﴾ يستخلص منه مصدرا تقديره التعمير، والتقدير: وما التعمير بمزحزحة، ولا يخفى ما في ذلك من الإيجاز، وتحريك الذهن لربط اللفظ بمرجعه، مما يجعل المتلقي يقظا لذلك، فالفعل ذكر صراحة، والضمير رجع إلى مصدر يفسره الفعل المذكور، فجمع بين التجدد الحاصل في الفعل، والثبوت والاستمرار الحاصل من المصدر الذي فسره الفعل لاحتياج الضمير إلى ذلك.

فتبين أن هذا الضمير محل اختلاف العلماء، تحت عدة أقوال أهمها:

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٦٨/١).

الأول: قول من قال عائد إلى المصدر الذي يفسره الفعل المذكور ﴿يُعَمَّرُ﴾ وهو ما مال إليه الفراء بقوله: فالمعنى- والله أعلم- ليس بمزحزحه من العذاب التعمير، ورفض أن يكون الضمير عمادا(١)، وذكر الطبري أنه يعود إلى التعمير أو العمر المفهوم من الفعل، كأنه قيل وما ذلك العمر بمزحزحه، وجعل أن يعمر مترجما عن هو، لكن الطبري جعل الأصوب كونه عمادا (٢).

الثاني: قول من قال هو عائد إلى ﴿أَحَدُهُمْ﴾.

الثالث: قول من قال أنه عماد أي: ضمير شأن.

الرابع:من قال: إنه عماد(١)، يعنون به ضمير الفصل عند البصريين، لا ضمير الشأن.

وأغلب العلماء تدور أقوالهم على القول الأول والثاني من غير ترجيح لأحدهما كالرازي، والحسن القيرواني، والعكبري، والألوسي، وزاد الرازي؛ ولما ذكر الحسن كونه للعماد، ذكر أن الزجاج استبعده لدخول الباء على خبر ما، وهذا لا يجوز عند البصريين(٢).

وقد يكون الفعل الذي فسر المصدر هو فعل الأمر، حيث يعود ضمير الغائب إلى المصدر امفهوم منه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، فقد عاد الضمير ﴿هُوَ﴾ إلى المصدر المفهوم من الفعل ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ وهو العدل،

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(١/ ٥١).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/٢٧٩-٢٨٠).

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢/٣٠٤-٣٠٥)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي(٢/١٤-١٥).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣/٦١٠)، والنكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني(ص:١٤٦-١٤٧)، التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١/ ٩٦)، و ينظر: روح المعاني للألوسي (١/ ٣٣٠-٣٣١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٦٠١).

فاستخراج مرجع الضمير من الفعل فيه موافقة لتصوير استخراج العدل وإن استكرهت النفس ذلك؛ لاسيما مع الأعداء، فالضمير مفسر بالمصدر الذي دل عليه الفعل المذكور، وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ولم يقل هو التقوى؛ لأن النفس قلّ أن تتخفف من الأضغان التي قد يكون لها أثر، أو لأن حكم القاضي ليس بالضرورة أن يكون هو الحق، ولكنه اجتهاد أقرب إلى الحق، فمدار الحكم على حجج المتخاصمين، وقد يكون عند الآخر حجة لو قالها لغلب، لكن حسْب القاضي أنه يسعى للعدل.

ويرى الباحث أن في عود الضمير على المصدر الذي دل عليه الفعل المذكور بلاغة تكمن في الإيجاز، ثم لكون اللفظ المذكور وهو الفعل ﴿ٱعْدِلُواْ﴾ يستحضر فيه لفظه ومعناه، فلفظه صُرِّح به، ومعناه دلّ عليه الضمير﴿هُوَ﴾ الذي لا يعود إلا إلى الاسم، وهذا المصدر فسره الفعل المصرح به؛ لأنه لا يصلح أن يعود الضمير إلا إلى اسم، وهناك بلاغة أخرى تكمن في الفعل المصرّح به، والمصدر الذي دلّ عليه الضمير، وذلك في كون الفعل يدل على الحدث والزمن والتجدد، كما أن فعل الأمر هنا دلّ على الإلزام، والاسم يدل على الثبوت والاستمرار؛ ليكون العدل ملازما في كل حال لا يؤثر عليه غلّ أو عداوة، فاجتمعت هذه المعاني في الفعل المذكور، والمصدر المفهوم بالتضمين، حيث ضمن الفعل ذلك بدلالة حاجة الضمير إلى مرجع، كما أن المصدر يؤكد الفعل، وذلك الإيجاز.

وقد قال الشيخ محمد محمد أبو موسى في دلالة الفعل والاسم حيث قال: "وقد يذكر ليتعين بالذكر كونه فعلا، فيفيد التجديد والحدوث؛ لأن الفعل في أصل وضعه يدل على التجدد والحدوث، أو ليعين كونه اسما، فيفيد الثبوت والدوام"[١].

وقد ذكر القزويني أن سبب تعريف المسند إليه بالإضمار هو لأن المقام مقام الغيبة، ولكون المسند إليه في حكم المذكور لقرينة، وقد قدّر مرجع الضمير بالعدل[٢]. وبينه الصعيدي بأن الضمير لمصدر ﴿ٱعْدِلُواْ﴾، وهو العدل[٣].

(١) خصائص التراكيب لأبي موسى (ص: ٢٩٠).

وقد أجمع أهل العلم على تقدير المصدر مرجعا للضمير، وهو قول الطبري[٣]، والزمخشري[٤]، والسيوطي[٥]، والزركشي[٦]، وأبو حيان، وابن عاشور [٧].

ولأن الأمر للإلزام فقد جاء ضمير الفصل العائد إلى المصدر المفهوم من الفعل، ليدل على التأكيد، بينما لم يأت ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ولم يأت ضمير يعود إلى المصدر يفهم من ﴿تَعْفُوٓاْ﴾ فيكون مقدرا بالعفو؛ لأن هذا العفو ليس إلزاما بل مندوبا إليه.

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، فمجيء الضمير بعد الفعل وعدم مجيء اسم يرجع إليه الضمير دلّ على أن الفعل يفسر مصدرا يكون مرجعا للضمير، فمرجع الضمير هو المصدر المأخوذ من الفعل ﴿ٱرْجِعُواْ﴾، وهو الرجوع؛ والضمير أغنى عن التصريح بالمصدر، فأكد المصدرُ الفعل، وجاء الضمير ليدل على معنى الحصر، فضمير الفصل قد يفيد التأكيد وقد يفيد الاختصاص[١]، فاجتمعت بذلك معاني منها الإلزام الذي دل عليه الإنشاء الطلبي المتمثل بفعل الأمر، مع ما يدل عليه الفعل من معنى التجدد، ودلّ المصدر على الثبوت والاستمرار، "فصيغة الاسم تدل على الثبوت من غير إفادة

=

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١٠/٢).

(٢) ينظر: بغية الإيضاح(١٧/١).

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢٢٤/٨).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٦١٣/١).

(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٣٤/٢)، وهمع الهوامع(٢٦٣/١).

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٢٦/٤).

(٧) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٩٦/٤)، وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٦/٥).

(١) ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١٩٠/١).

التجدد، وصيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد"(١)، ودل الضمير على بيان الكثافة الدلالية بمرجعه المستنبط من الفعل، مع ما في الفعل ومصدره من الدلالة على التأكيد.

قال القزويني في الجملة الواقعة مسندا:" وفعليتها لإفادة التجدد. واسميتها لإفادة الثبوت، فإن من شأن الفعلية أن تدل على التجدد، ومن شأن الاسمية أن تدل على الثبوت"(٢).

وهذا الحكم لا يقتصر على الجملة، وبذلك يقول الشيخ محمد محمد أبو موسى:"فإذا كان الفعل يفيد التجدد، والحدوث فكذلك الجملة الفعلية، وإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام، فكذلك الجملة الاسمية"(١).

وقال عبد العزيز عتيق في دلالة الاسم والفعل: "فإن كان فعلا فهو يدل بأصل وضعه على التجدد والحدوث؛ مقيدا بأحد الأزمنة الثلاثة بطريق الاختصار. وإن كان اسما فهو يفيد بأصل وضعه كذلك الثبوت، من غير دلالة على الزمان"(٢).

وزادت البلاغة في كون المصدر أكّد الفعل، والضمير أكّد المصدر، وتوكيد ضمير الفصل للمسند إليه يقويه.

ولا يفيد ضمير الفصل التخصيص إلا إذا كان المسند إليه والمسند معرفتين، فالتخصيص يستفاد من تعريف طرفي الإسناد(٣).

وقد يجتمع في السياق أكثر من قرينة تدل على المصدر المفهوم من الفعل كقوله: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾

(١) خصائص التراكيب لأبي موسى (ص:٢٩٦).

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١٣٣/٢).

(١) خصائص التراكيب لأبي موسى (ص:٣٠٠).

(٢) علم المعاني، عبد العزيز عتيق (ص:١٣٥).

(٣) ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٤٧١/١).

[الزمر:٧]، فالضمير في قوله: ﴿يَرۡضَهُ﴾ عائد إلى الشكر[1]، المصدر الذي ضمن الفعل ﴿تَشۡكُرُواْ﴾، فهذا الفعل قرينة أولى، أما القرينة الثانية فهي نمط التركيب في صدر الآية فقال: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ ثم قال: ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾. والاكتفاء بالفعل دون المصدر الذي دلّ عليه الضمير وفسره الفعل فيه إشارة إلى تجدد النعم ليتجدد الشكر، والمصدر الذي يفسره الفعل دال على توكيد الفعل مع دلالته على الثبوت والدوام، ليكون الشكر حال العباد على كل حال.

ولعل بلاغة التصريح بذكر المصدر في قوله: ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ لئلا يلتبس بضمير الشكر، فيظن ظان أن الضميرين مرجعهما واحد، فلذلك صرح بالكفر تحذيرا منه وليعلم أنه مضاد للإيمان الذي من معانيه الشكر، "وقد قابل الكفر بالشكر وليس بالإيمان؛ لأن الشكر لا يكون إلا من الذي آمن، وإيثار الشكر هنا -والله أعلم- ليناسب النعم السابقة، وهي تسخير الشمس والقمر، وخلقكم من نفس واحدة طورا بعد طور، في ظلمات ثلاث، وإنزال الأنعام الثمانية ..."[1]. وهذا الطباق يقبح الكفر، ويظهر مكانة الشكر، ويكفي أن الله يرضاه لعباده، فلما زال اللبس جاء الضمير العائد على المصدر الذي فسره الفعل﴿تَشۡكُرُواْ﴾.

وعاد الضمير إلى المصدر المفهوم من الفعل في قوله تعالى: ﴿ **بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦** ﴾ [آل عمران:١٢٥-١٢٦].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٢/٤١٥)، وإعراب القرآن للنحاس(٤/٤)، والكشاف للزمخشري (٤/١١٤)، وخزانة الأدب للبغدادي (٥/٢٢٨)، وروح المعاني للألوسي (١٢/٢٣١)،

(١) الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى (ص: ٦٧).

فالضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ وهو الإمداد وإلى هذا ذهب أغلب من وقفت على قولهم من العلماء[1] ومال الطبري إلى عود الضمير إلى الوعد بالمدد[1]، وروى أبو حيان وابن عادل وجوها منها عوده على التسويم، أو على النصر، أو على التنزيل، أو على العدد، أو على الوعد[2]. ولم يصرح بالمصدر بل صرح بالفعل المضارع ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾؛ لأن الآية مبنية على الشرط[3]؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، وجواب الشرط مستقبل زمنه، لا يكون إلا بعد فعل الشرط، لذلك جاء بالفعل المستقبل لاستحضار البشارة.

وهذا المصدر المنسبك من الفعل هو نفسه المصدر المنسبك من اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال:٩-١٠] وذكر الزمخشري عود الضمير في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ لأنه بمعنى القول لأنه مفعوله، أو إلى الإمداد

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤١٢/١)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٥/١)، ومفاتيح الغيب للرازي (٣٥٤/٨)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣٣٥/٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٢٤/٥)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١١/٣)، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية(١٦٩/٢).

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٣٨/٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣٣٥/٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٢٥/٥).

(٣) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية(١٦٩/٢).

الذي دل عليه اسم الفاعل ﴿مُمِدُّكُم﴾[1]، وروى أبو حيان وجوها محتملة في مرجع الضمير ثم رأى أن الأظهر عوده إلى الإمداد كما قال الزمخشري[2].

ويرى الباحث أن عدم التصريح بالمصدر أثبته الضمير وفسره الفعل ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ واسم الفاعل ﴿مُمِدُّكُم﴾ مناسب للمعنى، ذلك لأن البشارة لم تقع بعد، مع ما في هذا الأسلوب من إحياء روح التأمل والتدبر لدى التالي كتاب الله، فالضمير يحتاج إلى مرجع، فدلّ ضميره عليه، وفسر الفعل مرجع هذا الضمير، والبحث عن مرجعه يزيد الأسلوب سعة مع ما فيه من الإيجاز، ولا يجرؤ على الإيجاز إلا بليغ، وكم من مريد له قصر عن المقصود؟

ويخرج الباحث من هذا المبحث بأن المستقرّ في اللغة أن مرجع الضمير لا بد أن يكون اسما، ولكن قد يخلو النظم المشتمل على فعل من الاسم الذي يكون مرجعا للضمير؛ لكون الفعل قد ضمن مصدرا غير مصرح به، يهدى إليه الضمير المذكور لحاجة الضمير إلى مرجع، ولا يكون المرجع إلا هذا المصدر المنسبك من الفعل بإحدى صوره الثلاث. أو من اسم الفاعل كما جاء في قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾؛ لعدم وجود مرجع صالح سوى المصدر المفهوم من اسم الفاعل، وبلاغة الضمير في هذا التركيب هي في إحياء روح التأمل؛ لتدبر كلام الله سبحانه، فحاجة الضمير إلى مرجع دعت إلى هذا التأمل، كما أن ذلك فيه من السعة الدلالية ما يبينه السياق، وهذا الضمير يتجاوز هذا الغرض ليؤكد المصدر، أما المصدر الذي دلّ عليه الضمير وأنجبه الفعل فهو أيضا مؤكد للفعل في جميع سياقاته، ولا يخفى ما في هذا التركيب من إيجاز حذف، يتمثل في دلالة الضمير على المصدر غير المذكور، والفعل والمصدر المنسبك منه لكل دلالته فالفعل فيه التخيل سواء أكان بصورة حاضرة في الذهن ومباشرة أم ليست مباشرة، كما أنه يدل على التجدد والحدث، أما الاسم الذي يمثله المصدر هنا فدلالته على الثبوت والدوام

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/٢٠٢).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/٢٨٠).

غير خافية، واجتماع هذه المعاني الكثيرة تحت هذا التركيب القليل الكلمات هو سنام الإيجاز البليغ، الذي لم يبلغ ذروته سوى هذا الكتاب العزيز. ومما مر مبينا لذلك قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ حيث إنه أسلوب موجز بأبلغ كلام، ففعل الأمر دل على الإلزام، والزمن المستقبلي، مع ما يفيده الفعل من تجدد، أما الضمير ﴿هُوَ﴾ فقد كشف عن حاجته إلى ضمير تضمنه فعل الأمر، فكان المصدر العدل هو المرجع، والاسم يدل على الثبوت والاستمرار؛ ليكون العدل في كل حال، فلا ظلم حينئذ، فاجتمعت هذه المعاني في الفعل المذكور، والمصدر المفهوم بالتضمين، كما أن المصدر يؤكد الفعل، وضمير الفصل مؤكد للمسند إليه، وهذا الضمير يحرك الفكر للبحث عن مرجعه. والمبنى يدل على المعنى فاستخراج المصدر من جوف الفعل، كاستخراج العدل من أعماق النفس وإن استكرهت ذلك، لا سيما إذا كان المقضي له عدوا. ومن المتشابه قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، فلم يأت ضمير الفصل كما جاء في سياق العدل؛ لأن العدل واجب فجاء فيه أسلوب القصر، أما العفو فمندوب إليه.

وقد يجتمع في الدلالة على المصدر الذي في الفعل أكثر من قرينة كما في قوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فالضمير في قوله تعالى : ﴿يَرْضَهُ﴾ عائد إلى الشكر المفهوم من الفعل ﴿تَشْكُرُوا۟﴾، دل على ذلك قرينتان، الأولى: الضمير المذكر في ﴿يَرْضَهُ﴾، والثانية: جاء الفعل في قوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ ثم صرح بالمصدر بعده بقوله: ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ تحذيرا منه. ولعل الاقتصار على فعل الشكر المفهوم منه مصدره هو كون النعم متجددة، والشكر يتجدد. وصرح بالمصدر ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ لئلا يلتبس بضمير الشكر، والله أعلم.

وقد يعود الضمير على المصدر المستخرج من اسم الفاعل كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾، فقد عادت الهاء في موضعيها إلى الإمداد. والله أعلم.

المبحث الثاني : عود الضمير على مفهوم من المعنى .

إذا كان الضمير في المبحث السابق قد عاد إلى مصدر مفهوم فسره الفعل المذكور؛ فإن هناك ضميرا لا يفسِّر مرجعه الفعل، بل هو أدق مسلكا من سابقه؛ لأن مرجع الضمير محذوف يفهم من المعنى، لا يشتق من لفظ موجود، بل محذوف لا تدل عليه إلا قرائن السياق، ولا يجرؤ عليه إلا بليغ علم حال المخاطب، فترك من الكلام ما يثق بأن المخاطَب سيدركه، وتلك هي البلاغة، وهذا أسلوب عربي طرقه الشعراء وألفوه، ولا يعز على أهل النباهة فهم مقصود قائله، وإن لم يذكر مرجع الضمير، وهذا يستدعي وقفة على أقسام الحذف وهو عند البلاغيين أحد نوعي الإيجاز(١)، وينقسم خمسة أقسام(٢):

القسم الأول: الاقتطاع(٣).

القسم الثاني: الاكتفاء(٤).

القسم الثالث: التضمين(٥)، ومنه عند الباحث عدم مطابقة الضمير مرجعه إذا أريد تضمينه معنى آخر موافقا له غير المذكور، لكن المذكور دلّ عليه.

---

(١) الإيجاز نوعان: إيجاز قِصر، وإيجاز حذف. ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٢٩).

(٢) ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٤٦).

(٣) الاقتطاع: سبق تعريفه ب (ص: ٤٤٠).

(٤) الاكتفاء: سبق تعريفه ب (ص: ٩٩)

(٥) التضمين: هو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعل الكلام بعدها مبنيا على الكلمة غير المذكورة، كالتعدية بالحرف المناسب لمعناها، فتكون الجملة بهذا التضمين بقوة جملتين، دل على إحداهما الكلمة المذكورة التي حذف ما يتعلق بها، ويقدر معناه ذهنا، ودل على الأخرى الكلمة التي جاءت بعدها المتعلقة بالكلمة المحذوفة الملاحظ معناها ذهنا. مثل قول تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]، فالفعل يشرب يعدى بحرف الجر (من)، لكنه عدي هنا بالباء؛ لكونه ضمّن معنى (يتلذذ) أو (يرتوي) الذي =

القسم الرابع: الاحتباك[1].

القسم الخامس: الاختزال[2].

ومما ورد فيه الحذف قول حاتم الطائي:

أَمـاوِيُّ مـا يُغـني الثَـراءُ عَـنِ الفَـتى ... إِذا حَشرَجَت يوْمًا وَضاقَ بِها الصَدرُ

وهـذا البيـت روي في الـديوان بإبـدال (نفـس) ب(يومـا) [1]، خـلاف الروايـات المشهورة، وإذا سلم بذلك فإنه لا يكون الضمير المستتر عائدا إلى مفهوم من المعنى غير مذكور، بل يعود إلى نفس التي ذكرت. وقد ذكر المحقق أن الرواية المشهورة (يوما) [2]، وبناء على الرواية المشهورة فإن الضمير يعود إلى مفهوم من المعنى لم يذكر لفظه، لكن السياق دل عليه، فكلمة (حشرجت) و (الصدر) يدلان على أن ضمير الرفع المستتر بعد هـذين الفعلين عائد إلى الروح المفهومة من القرائن والسياق، وهـذا من الإيجاز

=

يعدى بحرف (الباء) فعدي تعديته، ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٤٩-٥١).

(١) سبق تعريفه في (ص: ٤٣٥) وينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٤٦).

(٢) الاختزال: هو كل حذف في الكلام لا يدخل في واحد من الأقسام الأربعة السابقة "الاقتطاع – الاكتفاء – التضمين – الاحتباك".ويكون في ثمانية عشر نوعا: في حذف المضاف، أو المضاف إليه، أو المبتدأ، أو الخبر، أو الموصوف، أو الصفة، أو المعطوف عليه، أو المعطوف مع العاطف، أو المبدل منه، أو الفاعل، أو المفعول به، أو الحال، أو المنادى، أو العائد، أو الموصول، أو الفعل، أو الحرف، أو حذف أكثر من كلمة، وقد تبلغ جملا كثيرة، وأحداثا طويلة من قصة .ينظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٥٧-٥٨).

(١) ينظر: ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي (ص:١٩٩).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(ص:١٩٩)، وهو بالرواية المشهورة من شواهد: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٢٤٠). وأمالي ابن الشجري (١/٩٠)، والمثل السائر لابن الأثير(٢/٢٣٢)، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري(٣/٦٧)، وخزانة الأدب للبغدادي (٤/٢١٢).

الداعي إلى التأمل، ولا يستغلق على متأمل؛ لأن المتكلم يثق بأن المتلقي قادر على فهم المحذوف، وهذا مسلك لا يسهل إلا على متحدث بليغ، ويعز على من سواه.

قال الشيخ محمد محمد أبو موسى: "أراد إذا حشرجت الروح، والحشرجة صوت يردده المريض في حلقه. وهو مأخوذ من الحشر نظرا لضيق مكان النفَس في هذه الحال، والحذف هنا أيضا لشدة ظهور المحذوف، وللإشارة السابقة؛ ولأن الشاعر يصف مقام ضيق وشدة، والحذف فيه أدل على قصر النفس، وأكثر وحيا بمعنى الحشرجة" (1).

وكقول حميد بن ثور(1):

وَصَهباءَ مِنها كالسَّفينةِ نَضَّجَت ... بِهِ الحَملَ حَتى زادَ شَهراً عَديدُها

ولأن جامع الديوان صرح بأن الأبيات غير مرتبة فسيكتفي الباحث بما قال أبو علي الفارسي، حيث قال:" قال: صهباء: ناقة. ومنها؛ يعني من الإبل، أضمرها ولم يجر لها ذكر. وهذا وإن لم يكن فاعلا، فالفاعل في حكمه، والحمل منصوب، ولم يجر في البيت ذكر أمها، فقد أضمرها، ولم يجر لها ذكر"(2).

وقول لبيد بن ربيعة العامري(3):

حَتّى إذا أَلقَت يَداً في كافِرٍ ... وَأَجَنَّ عَوراتِ الثُغورِ ظَلامُها

فضمير الرفع المستتر بعد (ألقت) يعود إلى الشمس وإن لم يجر لها ذكر، كما قال أبو هلال العسكري، والأنباري والزوزني، والتبريزي(4) قال الشيباني وابن قتيبة: والكافر الليل(5).

---

(1) خصائص التراكيب لأبي موسى (ص: ١٧٨).

(1) ديوان حميد بن ثور الهلالي (ص:٧٣).

(2) كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، لأبي علي الفارسيّ (ص:٤٥٤).

(3) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص:١١٤).

(4) ينظر: الصناعتين لأبي هلال العسكري (ص: ١٨٥)، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري (ص: ٥٨١). وشرح المعلقات السبع للزَّوْزَني (ص:١٩٥)، وشرح القصائد العشر التبريزي (ص: ١٦٥).

وقول طَرَفة بن العبد[٢]:

عَلى مِثلِها أَمضي إِذا قالَ صاحِبي   أَلا لَيتَني أَفديكَ مِنها وَأَفتَدي

يصف طرفة ناقته، وضميرها في قوله: (على مثلها)، لكنه أعاد الضمير (مِنها) إلى غير مذكور، ومن السياق تبين أن الضمير للفلاة، لما فيها من مشقة تستوجب الفداء، فلما كان المراد مفهوما من السياق كان من الحذف البليغ لما فيه من الإيجاز مع ما فيه من دعوة إلى إعمال الفكر.

قال أبو عمرو الشيباني:" أي على مثل هذه الناقة أسير وأمضي، إذا قال صاحبي من خوف الفلاة[١]، وقوله: ألا ليتني أفديك؛ معناه من الفلاة، فجاء بمكنيها، ولم يجر لها ذكر لدلالة المعنى عليها"[٢].

وكقول الحطيئة[٣]:

أَلا طَرَقَتنا بَعدَما هَجَدوا هِندُ   وَقَد سِرنَ غَوْرًا واسْتَبَانَ لَنَا نَجدُ

فالحطيئة أعاد واو الجماعة إلى أصحابه من غير ذكر لهم، وأعاد نون التأنيث إلى المطايا ولم يسبق لهنّ ذكر، لأن البيت أول القصيدة[٤].

=

(١) ينظر: شرح المعلقات التسع(ص: ٢٩٥)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٧/١).

(٢) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م،(ص:٢٣).

(١) أي: قال صاحبي إنا هالكون من خوف الفلاة. ينظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري (ص:١٨٢)، وشرح القصائِد العشر للتبريزي (ص: ٧٥).

(٢) ينظر: شرح المعلقات التسع (ص: ٥٦)، وينظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري (ص:١٨٢)، وشرح المعلقات السبع (ص:١٠٣).

(٣) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت (ص:٧١).

(٣) أمالي ابن الشجري(٩٠/١).

(٤) أمالي ابن الشجري(٩٠/١)، ورواه:

أَلا طَرَقَتنا بَعدَما هَجَدوا هِندُ   وَقَد سِرنَ خَمساً وَاتلَأَبَّ بِنا نَجدُ

(٤) المصدر نفسه(٩٠/١).

وكقول جنوب الهذلية[1]:

وَقَــد عَلِــمَ الضَيــفُ وَالمرمِلــونَ ... إِذا اغبَــرَّ أُفــقٌ وَهَبَّــت شَمــالا

ونسب ابن الشجري هذا البيت لكعب بن زهير -رضي الله عنه- وليس في ديوانه[1]. والحاصل أن لفظة هبّت بعدها ضمير رفع مستتر عائد إلى غير مذكور؛ ثقة بأن السامع سيعلم المراد، فالمتروك معلوم بقرينة هبّت شمالا. فالتي تهب شمالا هي الرياح[2]، فأغنى ذكر القرائن عن ذكر مرجع الضمير، وهذا مع كونه إيجازا إلا أن فيه قوة لثقة قائله بخلوه من التعمية، لأنه ليس كل متروك مفهوما.

وقد يعود الضمير إلى غير مذكور لدلالة المناسبة عليه،ومن ذلك قول النبي -ﷺ- عام الفتح عندما دفع إلى عثمان بن طلحة -رضي الله عنه- المفتاح، فقد روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- :"خُذُوهَا يَا بني طَلْحَةَ خَالِدَةً تالدةً لا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلا ظَالِمٌ" يَعْنِي حِجَابَةَ الْكَعْبَةِ [3].

فالمعطَى المفتاح لكن الضمير عاد إلى ما يدل عليه المفتاح، فهو يعني الحجابة فعاد الضمير إليها ثقة بأن المقصود لا يختلف عليه اثنان. ومثله مارواه أبو هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في كفارة من وقع على امرأته وهو صائم في رمضان، وفي آخره "فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ، وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ، قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ

(١) الحماسة البصرية لأبي الحسن علي بن أبي الفرج (٢٢٥/١). وينظر: خزانة الأدب للبغدادي (٣٨٣/١٠).

(١) ينظر: أمالي ابن الشجري (١٥٣/٣). وينظر: ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد السكري، شرح ودراسة د. مفيد قميحة، لم يعثر الباحث على ذلك به.

(٢) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني (ص: ٢٠٢).

(٣) المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني، رقم الحديث(١١٢٣٤) عُبَيْدُ بْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (١٢٠/١١). وينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، غزوة رسول الله -ﷺ- عام الفتح، (١٠٤/٢).

لَابَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. فَضَحِكَ النَّبِيُّ -ﷺ- حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ"(١).

فالضمير في قوله: (لَابَتَيْهَا) لم يأت له مرجع، ولم يُسأل عن ذلك؛ لأن المرجع مفهوم قد جرى مجرى المثل، فأغنى فهم المتلقي عن ذكره.

ولقد جاء القرآن الكريم بليغا في جميع أساليبه، وفي مواضع كثيرة يعود الضمير إلى غير مذكور في السياق لكنه حاضر في الأذهان، إما للمناسبة التي أنزلت الآية بسببها، أو لقضية لا يجهلها أحد، وفي السياق قرينة دالة على المرجع، وأكثر ذلك في الضمير العائد على القرآن الكريم، ففي مواضع كثيرة جاء الضمير عائدا إلى القرآن الكريم من غير ذكر سابق له، وما هذا إلا لعظمة ما اشتهر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر:١]، فهذه الآية الأولى في سورة القدر، ولم يسبق الضميرَ مرجعٌ ملفوظ، لكن السياق دلّ عليه، فقرينة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ دالة على أن الضمير راجع إلى المنزَّل؛ وهو القرآن الكريم، وفي هذا الأسلوب تعظيم لعلو شأنه؛ لأن ضميره أصبح كالعَلم عليه؛ لاشتهاره ولقوة العلم به، فلا لبس حينئذ، فقد علم المتكلم بإدراك المتلقي لذلك، والعلم بحالة المتلقي؛ ثم إرسال الكلام فصيحا مناسبا لحاله هي البلاغة.

والضمير في الآية يعود إلى القرآن الكريم قال السيوطي: لأن الإنزال يدل عليه التزاما(١)، وروى في موطن آخر أن ضمير الغائب في قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فيه الإشارة إلى قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ من سورة العلق التي تسبق سورة القدر في ترتيب المصحف(٢)، فمجيء سورة القدر عقب العلق مباشرة يؤميء بأن الضمير يعود إلى القرآن الذي ابتديء نزوله

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فَتُصُدِّقَ عليه فليكفِّر (ص: ٤٦٦) رقم الحديث: ١٩٣٦.

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٣٥/٢)، وينظر: البرهان في علوم القرآن(٢٧/٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٨٣/٣).

بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[1]. وذكر الزركشي فيما رواه عن ابن الأنباري أن هذا الضمير يوحي بالفخامة بشأن صاحبه، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته[2]، وتظهر البلاغة أيضا بكون الله قد "خص لفظ الإنزال دون التنزيل؛ لما رُوي أن القرآن أنزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزّل نجما نجما بحسب المصالح"[1].

ولما ذكر الرازي أن ضمير الغائب عائد إلى القرآن الكريم بالإجماع قال: "ولكنه تعالى ترك التصريح بالذكر؛ لأن هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة أوجه؛ أحدها: أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره. والثاني: أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر؛ شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح، ... والثالث: تعظيم الوقت الذي أنزل فيه"[2].

وتأليف هذه الآية قوي في نظمه، دقيق في تنوع أساليبه البلاغية التي يوحي جميعها بالعظمة، وبذلك يقول الألوسي في معرض حديثه عن الضمير العائد إلى القرآن: "التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره تعظيم له، أي: تعظيم لما أنه يشعر بأنه -لعلو شأنه- كأنه حاضر عند كل أحد، فهو في قوة المذكور، وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين، وتأكيد الجملة"[3].

وقال الباقلاني في عود الضمير إلى غير مذكور :" وهذا أجمع، سائغ مستحسن في اللغة، ومعروف عند أهلها، وليس لأحد أن يقول: إن هذا كلام ناقص مبتّر غير مفيد، إذا كانت المقاصد به معروفة، والعادة باستعمال أمثاله جارية مألوفة"[4].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٠٢/٣٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٢٤/٤).

(١) وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لابن يعقوب الفيروزآبادي (٤٠/٤).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٨/٣٢)، وينظر: الكشاف للزمخشري (٧٨٠/٤).

(٣) روح المعاني للألوسي (٤١٢/١٥).

(٤) الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني (٥٧٥/٢).

ولشهرة القرآن الكريم وعظمته فكثيرا ما يعود الضمير إليه من غير ذكر للفظه؛ لأن ضميره في الحضور كحضور اسمه، فأصبح كالعلم عليه، كما مرّ في الشاهد الآنف، ومثله قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج:١٦]، فلم يسبق ضمير الغائب في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بأي مرجع، لكن المرجع مفهوم كما سبق في مثله.

قال ابن عطية في ذلك: "والضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ عائد على القرآن، وجاءت هذه الضمائر هكذا وإن لم يتقدم ذكر لشهرة المشار إليه"(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات:٩]، أي: يصرف عن القرآن عند من جعل الضمير للقرآن، كالفراء وزاد ثانيا وهو الإيمان(٢)، وكابن قتيبة(٣)، والنحاس وزاد الإيمان (٤)، وقال العكبري عائد إلى الدين(٥)، وذكر الزمخشري أنه عائد إلى القرآن أو إلى الرسول ﷺ(٦)، وروى الألوسي أنه للإيمان؛ لدلالة الكلام السابق عليه، أو للرسول ﷺ، أو للقرآن وقال به غير واحد(٧).

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١١٢/٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(٨٣/٣).

(٣) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٤٢٠).

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (١٥٨/٤).

(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(١١٧٨/٢).

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣٩٦/٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤٣٩/٧).

(٧) ينظر: روح المعاني للألوسي (٦/١٤)، وللتوسع ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٦٣/١٨)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٤٢٠/٣-٤٢١).

وذكر الدكتور أحمد سعد ناجي في مجلة كلية اللغة العربية أن المراد يصرف عن الإيمان بما كلِّفوا الإيمان به، لدلالة الكلام السابق عليه، والضمير في الجار والمجرور (عنه) إما للرسول ﷺ وإما للقرآن الكريم(1).

وذكر في موضع آخر الغرض من قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ وأنه تسلية للنبي ﷺ أي: فما من أحد كفر بك إلا لسابق كفره أزلا، فلا تحزن واستمر على ما أنت فيه(1).

وهذا الاختلاف في مرجع الضمير اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وكل ما ذكر محتمل، فأفاد هذا الضمير بلاغة الإيجاز وسعة الدلالة، فهم قد صرفوا عن القرآن وعن النبي وعن الدين.

ويذكر عبد العزيز عتيق ما يشير إلى أن النحاة يسمون مرجع الضمير إذا لم يذكر لاشتهاره بالغائب المعلوم(2).

ويأتي الضمير عائدا إلى القرآن الكريم بعد ذكر آيات غيبية؛ هي جزء من هذا القرآن العظيم من غير ذكر له، على وجه العظمة والامتداح بعد التوكيد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩]، فالضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ في الآيتين عائد إلى القرآن الكريم(3)، ولم يسبق بمرجع ملفوظ، إلا أنه سبق في الموضعين بقسم، والقسم لا يكون إلا لأمر عظيم الشأن. وسبق القسم بأخبار غيبية تبهر العقول، فجاء الضمير للامتداح

(١) خصائص النظم القرآني في سورة الذاريات دراسة بلاغية، د. أحمد سعد ناجي، دراسة منشورة في مجلة كلية اللغة العربية، كلية اللغة العربية- إيتاي البارود، جامعة الأزهر، العدد ٢٢، الجزء الأول، (ص: ٤٩) ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(١) المصدر نفسه(ص: ٥٢).

(٢) ينظر: علم البيان، عبد العزيز عتيق (ص:٢٠٨).

(٣) ينظر: دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني(١٦٥٧/٤)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٧/٢٩).

والتعظيم، وهذا القول المضاف إلى الرسول هو قول الله[1] وما الرسول إلا مبلغ والإضافة للملابسة. لكن المرجع مفهوم لاشتهاره، وأقوى شهرة أن يكون الضمير علما على مرجعه؛ لكون هذا المرجع ملأ أذهان الناس، فهو حاضر في ذهن كل واحد في كل لحظة. والقرينة في سورة الحاقة قوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة:٤٣]، وفي التكوير قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) ﴾ [التكوير:٢٧]، مع لفظة قول؛ التي جاءت خبرا للناسخ في الموضعين.

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) ﴾ [الطارق:١٣]، فضمير الغائب للقران[1]، والقرآن معلوم مشتهر، لاسيما أن الآية بعد آيات تخبر عن مغيبات لا يعلمها بشر إلا بوحي، والآيات جزء من القرآن، فجاء الضمير للامتداح من غير ذكر لمرجعه؛ لأن المتلو جزء منه، وغياب المعلوم في السياق أوجز من ذكره وأبلغ؛ لكونه حاضرا في الذهن، فقد أصبح حديث البر المتعبد، والفاجر المنبهر، لاسيما ورود هذه الآية بعد أخبار غيبية تبهر العقول، ثم أنها سبقت بقسم، والقسم لا يكون إلا لأمر عظيم، ولا كلام أعظم من كلام الله.

وقد تفتتح السورة بذكر القرآن الذي سيكون مرجعا بعيدا لضمير في آخر السورة، ثم يأتي الضمير عائدا إليه من غير ذكر له بعد طول فصل؛ لكونه أهم المهمات، وأكبر القضايا، وحديث الناس الحاضر في أذهانهم، وهذا في مثل الضمير من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء:١٩٢]، فالضمير في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ للقرآن الكريم، ولم يجر له ذكر[2]، إلا ما جاء في أول السورة حيث قال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٤٨٤).

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٦٩/٢٠)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٧/٣٠).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (١٠٠٠/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٣/١٩).

﴿ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الشعراء:٢]، وذلك لاشتهاره وقد تظافرت القرائن؛ للدلالة عليه، فهو تنزيل من رب العالمين، فاجتمع بذلك ماهيته، ومصدره، والمستهدفون به، وهم العالمون على التغليب، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧﴾ [التكوير:٢٧]، ثم هذا الضمير جاء بعد قصص متفرقة لا يحاط بها إلا بوحي؛ لكونها في الزمن الغابر؛ ليدل هذا الضمير – والله أعلم – على الامتداح والتعظيم، يؤيده هذا التوكيد، وتنكير تنزيل الذي يفيد التعظيم أيضا، ثم إضافته إلى الرب، واشتهاره في كون هذا القرآن حاضرا في الذهن، بل حاضرا في كتب الأولين فيأتي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء:١٩٦]، بضمير الغائب العائد إلى المعلوم من غير ذكر له، فالقرآن عظيم في كل شيء في لفظه وتأليفه ومعانيه وأخباره.

قال الألوسي:" وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلخ؛ عود لما في مطلع السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن العظيم، ورد ما قال المشركون فيه، فالضمير راجع إلى القرآن، وقيل: هو تقرير لحقية تلك القصص، وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحيا من الله عز وجل"(١).

ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، فلم يذكر مرجع لضمير الغائب في قوله: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾، وقوله: ﴿مِّثۡلِهِۦٓ﴾ سوى ما ذكر في مطلع السورة في قوله: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ [الطور:٢]، ولكن ذكرت قرائن كقوله: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ و﴿بِحَدِيثٖ﴾، فتحتم عود الضمير إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر قريب؛ لأنه حديث الساعة، وشهرة ضميره كشهرة اسمه، كما أن ذلك دال على تعظيمه، مع ما اتسم به السياق من إيجاز بليغ.

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (١١٨/١٠).

وقد يأتي الضمير عائدا إلى غير مذكور للمناسبة الحالية المغنية عن ذكره؛ لأن الذهن قريب عهد به، ولا ينصرف عنه إلى غيره، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩].

فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضِيَ اللهُ عنه- فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُحَرِّكُهُمَا، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا؛ فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرَؤُهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَام- اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ -ﷺ- كَمَا أَقْرَأَهُ"[(١)].

فضمائر الغائب في هذه الآيات للغائب المعلوم، لدلالة المعنى والمناسبة؛ كما في الحديث المبين سبب النزول، فدل على أن الضمير للقرآن الكريم، ولم يجر له ذكر.

واستشكل السيوطي مناسبة هذه الآيات لما قبلها، وحكى استشكال غيره لذلك، وقال:" فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جدا"[(٢)].

فردّ السامرّائي على ذلك ردا ثمينا، فذكر أن السورة مبنية على ما ابتدأت به من القسم، فهي مبنية على أحوال يوم القيامة، وعلى النفس، ولا تكاد تخرج عن ذلك، وأن

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ وفعل النبي -ﷺ- حين ينزل عليه الوحي... (ص: ١٨٥٩) رقم الحديث: ٧٥٢٤. وصحيح مسلم، كتابك الصلاة، باب: الاستماع للقراءة(١/٣٣٠) رقم الحديث: ٤٤٨.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/٣٧٦).

قسم الله بالنفس اللوامة لأن الإنسان يلوم نفسه لأحد سببين: إما أن يتعجل فيفعل ما لا ينبغي له فعله فيندم على ذلك، فيبدأ يلوم نفسه، لم فعلت ذاك؟ لم لم أترو؟ وإما أن يتراخى عن فعل كان الأولى له أن يفعله، وأن يغتنم الفرصة التي سنحت له، ولكنه قعد عن ذلك مسوفا ففاته نفع كبير، وقد لا تسنح له فرصة كالتي فاتت، فيبدأ بلوم نفسه. لم تباطأت، لم لم أفعل؟ لم لم أغتنم الفرصة؟ ونحو ذلك. فالسورة مبنية على ما ابتدأت به(١).

ومن المواطن التي عاد فيها الضمير إلى القرآن الكريم الذي لم يجر ذكره في تركيب قريب إلا ما ورد في فواتح السورة قول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم:٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان:٥٨]. وهذا الضمير العائد بعد فصل طويل لا يختلف على مرجعه اثنان في كونه عائدا إلى القرآن الكريم الذي اشتهر بين الناس أمره، وأصبح حديث مجالسهم، وحالا في أذهانهم، لعظمته وبيانه، ولذلك أصبح الإضمار أبلغ من الإظهار.

ولم يأت هذا الأسلوب أعني عود الضمير إلى ما لم يجر ذكره عائدا إلى القرآن الكريم فحسب، بل جاء عائدا إلى الأرض في غير موضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل:٦١] فالضمير في قوله: ﴿ عَلَيْهَا ﴾ هو عائد إلى الأرض التي لم يجر ذكرها(٢)، ولكنه مفهوم بالمعنى، وبالعقل،

---

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل(ص: ٢٠٤).

(٢) ينظر: النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصاب (٧٧/٢)، والكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٤/٦)، والانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني (٥٧٥/٢)، والكشاف للزمخشري (٦١٣/٢)، وأسرار التكرار في القرآن(ص: ١٦٠).

وبالدليل الشرعي حيث يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر:٤٤-٤٥].

ومثل ذلك في قوله: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٦-١٠٧] فالهاء عائدة إلى الأرض كذلك[١]، بقرينة القاع الأملس. والصفصف المستوي[٢] وهي موطن الحشر، قال العكبري:" الضمير للأرض؛ ولم يجر لها ذكر، ولكن الجبال تدل عليها"[٣]. وذكر الزمخشري وأبو حيان احتمال عود الضمير إلى الجبال أو إلى الأرض[٤].

والذي يراه الباحث أن الضمير عائد إلى الأرض للقرائن المذكورة، ولأنها موطن الحشر، ومن صفاتها القاع والاستواء ولايعود إلى الجبال، بل نسف الجبال يجعلها أرضا مستوية، والله أعلم.

ويعود الضمير إلى الأرض من غير ذكر لها في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦]، والعرب تقدم على مثل هذا توسعا واقتدارا واختصارا؛ ثقة بفهم المخَاطَب[٥]، وهذا من كمال الإيجاز[٦].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/١٠٠).
(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/٧١).
(٣) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري(٢/٩٠٤)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٣/٣٨٨).
(٤) الكشاف للزمخشري (٣/٨٨)، والبحر المحيط لأبي حيان (٧/٣٨٣).
(٥) فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي(ص:٢٢٢)، وينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/٣٣٥).

قال الكرماني في عود الضمير على ما لم يجر ذكره: "والعرب تجوز ذلك في كلمات منها الأرض، تقول: فلان أفضل مَن عليها، ومنها السماء؛ تقول: فلان أكرم مَن تحتها، ومنها الغداة؛ تقول: إنها اليوم لباردة، ومنها الأصابع؛ تقول والذي شقهن، خمسا من واحدة، يعني الأصابع من اليد، وإنما جوزوا ذلك لحصولها بين يدي كل متكلم وسامع..."(١).

ولما كانت الروح معلوما وصفها أضمرت في مواضع؛ الأول: في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة:٨٣]، والثاني: قوله تعالى: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الواقعة:٨٧]، والثالث: في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القيامة:٢٦]، فالحلقوم والتراقي عضوان تمر بهما الروح للصعود إلى باريها سبحانه؛ لتودع الجسم جسدا ميتا، ففي الآية الأولى ذكر المسند الفعلي وأضمر المسند إليه ولم يجر ذكر مرجعه، والمسند إليه ركن في الجمله، فإن لم يكن المسند إليه اسما ظاهرا قدر بضمير يعود إلى الاسم الظاهر، سواء أكان الاسم الظاهر مذكورا في التأليف أم مفهوما من فعل مفسر، أو لم يجر ذكره، وتركه نابع من قوة العلم به، وحذف المعلوم قد يكون أبلغ من ذكره؛ لما في ذلك من الإيجاز وإدراك حالة المخاطَب، وانه سيتمكن من إدراك المتروك، وهذا لا يتقنه كلّ متكلم إلا أن يكون بليغا.

ومن الباحثين من جعل المحذوف فاعلا، فالدكتور عبد العظيم المطعني وفريد الكيلاني جعلا في الآية إيجازا بحذف الفاعل، أي: النفس، أو الروح(٢).

لكن الباحث يرى أن المسند إليه هنا ضمير تقديره (هي) حلّ محّل الفاعل، وبذلك لا يقال إن الفاعل محذوف، بل جاء ضميرا مستترا، وهو من الإضمار في

=

(١) الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي (ص:١٩).

(١) أسرار التكرار في القرآن للكرماني (ص: ١٦٠).

(٢) من أسرار النظم القرآني في سورتي الفتح والواقعة، أ.د: عبد العظيم إبراهيم المطعني، وآخر، (ص:٢٢٦).

موضع الإظهار، فالمسند إليه ركن لا يحذف، وإذا لم يكن الفاعل ظاهرا فلا بد أن يكون مضمرا. وهذا يؤيده الضمير الذي وقع في محل مفعول به في قوله: ﴿ تَرۡجِعُونَهَآ ﴾ فالضمير هنا جاء بارزا، على عكس الضميرين المستترين في الآيتين الأخريتين.

ومن هنا يعلم أن المسند الفعلي ﴿بَلَغَتِ﴾ في الآيتين أسند إلى ضمير تقديره (هي) يعود إلى غير مذكور، لكنه مفهوم من السياق وهي الروح[1]، والقرينة في ذلك ذكر الحلقوم والتراقي، وما يعقب ذلك من آيات تدل على انقضاء الأجل. وتعقب آية الواقعة بقوله: ﴿ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الواقعة:٨٧]؛ ليعود ضمير الغائب أيضا على الروح التي ذكرت قرائنها[2]، ولم يذكر لفظها، ولعل البلاغة في عدم ذكر الروح؛ لأنها لحظة وداع سيخلُ الجسم منها فخلا السياق منها؛ ليوافق المبنى المعنى - والله أعلم- فناسب الحذف دلالة الكلام، ولأنها مما استأثر الله بعلمها، فصار الموت وسكون الجسم عن الحركة قرائن خروجها، فسبحان من أعجز قوله كل بليغ!.

وجاء على هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فالهاء في قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾ لم يعد على مذكور، بل عائد إلى مفهوم لم يجر ذكره، لكن كشفت عنه المناسبة، فلا خلل في تركه؛ للعلم به، فهو يعود إلى القضية[3]، أو

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(١٣٠/٣)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ومفاتيح الغيب للرازي (٢٢٨/٣٢)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٣٥/٢)، البرهان في علوم القرآن(٢٦/٤)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣٣١/٢٩)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية(٣٢/٢).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٧٠/٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٩٤/١٠).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢٨٥/٦)، وتحرير التحبير(ص:٣٤٨)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٧٣/٣)، والبلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٤٢٠/٢).

الحكمة[1]، أوللحكومة أو للفتوى[2]، وقال الألوسي والضمير للحكومة أو الفتيا المفهومة من السياق[1] ويظهر من هذا كثافة الدلالة الصالحة لأن تكون مرجعا للضمير.

ولقد اجتمع في عدم ذكر مرجع الضمير أمران: الأول: الإيجاز؛ لأن المتكلم على علم بحال المتلقي وأنه يعلم المرجع، فالمرجع مفهوم من المناسبة وإن اختلف تقدير العلماء له، فاستغني عن ذكره بفهم المتلقي له. الثاني: أن صواب الفتوى في القضية لما خفي على دواود -عليه السلام- ناسب التركيب اللغوي تلك الحالة، فترك ذكر مرجع الضمير لخفائه على داوود لحظة الحكم، ولأن تفهيم سليمان كان توفيقا ربانيا؛ فناسب المبنى المعنى.

ولما كان هناك إرث يدلّ على وجود ميت بالالتزام، فقد قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾ [النساء:١١]، فهذه الآية اشتملت على عدة ضمائر منها المسند إليه؛ وهو الضمير بعد المسند الفعلي: ﴿تَرَكَ﴾ وبعد المسند الفعلي ﴿يُوصِي﴾ وكذلك الضمير في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ و﴿لَهُۥ﴾ و﴿وَوَرِثَهُۥٓ﴾ وغيرها. فضمير الغائب عائد إلى الميت[2]، ولم يجر ذكره، ليناسب الضمير الغائب الميت الغائب، فناسب المبنى

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٣/٢٦٢).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/١٢٨)، والبحر المحيط لأبي حيان (٧/٤٥٥).

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٩/٧١).

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (٢/١٠)، وروح المعاني للألوسي (٢/٤٣٠)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢/١٤٩).

المعنى، والإرث قرينة دالة على الميت، ولم يذكر للإيجاز؛ وللثقة بأن المخاطب لايخفى عليه مرجع الضمير، والله أعلم.

وقد يخص نوع غير مذكور من جنس مذكور فيعود الضمير إلى ما لم يجر ذكره، اكتفاء بذكر جنسه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ ﴾ فالمسند إليه بعد المسند الفعلي في قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ﴾ يعود إلى الإبل، ولم يجر لها ذكر، لكن ذكرت قرائن لا تكون إلا لها، فالحمل الثقيل عليها وبلوغ المكان البعيد الشاق من منافعها، وهذا من لطيف الإيجاز. والأنعام جنس عام، وهي ثلاثة: الإبل. والبقر. والغنم[1]، فرجع الضمير إلى الإبل لمزيد مكانة وتشريف، ولكون الإبل من أشهر الأنعام وأنفعها، ولا تخفى بعد هذه القرائن وإن لم يجر ذكرها. ولم يقصد غيرها – والله أعلم- لأنه الله –سبحانه- بعد ذلك ذكر بعض المركوبات فقال: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ ﴾ [النحل:٨]، ولم يذكر الإبل اكتفاء بذكرها في الاية السابقة، والله أعلم.

وقال ابن العربي:" خص الإبل ههنا بالذكر في حمل الأثقال؛ تنبيها على ما تتميز به على سائر الأنعام؛ فإن الغنم للسرح والذبح، والبقر للحرث، والإبل للحمل"[2].

وقال ابن عاشور:" المراد: لم تكونوا بالغيه لولا الإبل أو بدون الإبل، فحذف لقرينة السياق"[3].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٩/١٧٥).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٢٠).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/٨٥).

وقد يحفل السياق بقرائن تكشف عن الذي لم يذكر، فتتظافر لبيانه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص:٣١-٣٢]، ففي قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أسند المسند الفعلي ﴿ تَوَارَتْ ﴾ إلى ضمير ما لم يجر ذكره، وهي والشمس(١)، واستدل العلماء على ذلك بقرينة العشي، وبقرينة الحجاب، وفوات الصلاة، وأن الصلاة التي انشغل عنها حتى غربت الشمس هي صلاة العصر(٢)، فما أبلغ هذا الإيجاز الذي يدرب العقل على التأمل والاستنباط بعد هذه القرائن، التي خدمت المعنى وقدحت في ذهن المتلقي، فاهتدى إلى المعنى، وتبين له معنى نظمه.

وبما أن المرجع غير المذكور في النظم هي الشمس، وهي فاعل وقدر محلها بضمير، وبما أن بعض العلماء يرى أن الحذف وقع على الفاعل؛ فإن أبي الحديد جعل هناك ضابطا خاصا بحذف الفاعل فقال:" وقد تقدم أن قوة العلم بالفاعل في بعض المواضع تقوم مقام ذكره، أو ذكر ما يدل عليه، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾وقول حاتم:(إذا حشرجت)(٣)، والضابط في ذلك ألا يزيد ذكر الفاعل في قوة العلم به على ما يحصل

---

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٨٢/٢)، معاني القرآن(٢٨٥/٣)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٤٣)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٣٥/٢)، والبرهان في علوم القرآن(١٤٤/٣).

(٢) ينظر: النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصاب (٧٥٧/٣-٧٥٨)، وخزانة الأدب للبغدادي (٤٥/٩).

(٣) يقصد قول حاتم الطائي:

أَماوِيُّ ما يُغني الثَّراءُ عَنِ الفَتى ... إِذا حَشرَجَت يوْمًا وَضاقَ بِها الصَدرُ

وهي الرواية المشهورة، ينظر: تعليق محقق ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره (ص:١٩٩)، ومن شواهد: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٤٠/١)، وأمالي ابن الشجري(٩٠/١)، والمثل السائر لابن الأثير (٢٣٢/٢)، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٦٧/٣)، وخزانة الأدب للبغدادي (٢١٢/٤).

من قوة العلم وهو غير مذكور، كما في الآية والبيت، فإنه لو ذكر الشمس والنفس(1) لم تزد قوة العلم على ما نجده الآن وإن لم يذكرهما، وهذا هو الفرق بين حذف الفاعل وحذف غيره، فإن هذا الضابط غير معتبر في شيء من المواضع، إلا في الفاعل إذا لم يذكر"(1).

وقد ذكر محمد محمد أبو موسى لطيفة من لطائف حذف المرجع هنا فقال:"وأراد حتى توارت الشمس بالحجاب، فحذفت الشمس لبيان المراد؛ ولأنها توارت فلاءم الحذف دلالة الكلام"(2).

واختلف في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ ﴾ [الشمس:3]، فضمير النصب عند كثير من العلماء عائد إلى ما لم يجر ذكره، واختلفوا في المرجع فذكر الفراء أنه عائد إلى الظلمة(3)، وعند ابن قتيبة في غريب القرآن أنه يعود إلى الظلمة أو الدنيا(4)، وفي تأويل مشكل القرآن قال: إلى الدنيا أو الأرض؛ وهو مضمون قول أبي هلال العسكري(5)، وعند الباقلاني يعود إلى الدنيا(6).

واستبعد النحاس قول الفراء، وأعاده إلى الشمس المذكورة(7)، ويرى الثعلبي أنه عائد إلى الشمس وحينئذ يكون عائدا إلى مذكور، وذكر القول بأنه عائد إلى الظلمة وعزاه إلى الفراء وجماعة من العلماء(8) وعوده إلى الشمس هو الأولى عند الزمخشري، مع

---

(1) يقصد في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ ﴾ [الواقعة:83].

(1) ينظر: الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (4/281).

(2) ينظر: خصائص التراكيب لأبي موسى (ص:178).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء(3/266).

(4) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:529).

(5) ينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:143)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:184).

(6) ينظر: الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني (2/574).

(7) ينظر: إعراب القرآن للنحاس(5/145).

(8) ينظر:الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (10/212).

أنه ذكر جميع الاحتمالات السابقة(١)، وتبعه الألوسي(٢) وهو الظاهر عند ابن عاشور(١)، ولعل الظاهر لدى الباحث أن عود الضمير إلى الشمس المذكورة أولى، ولأن نظم الآيتين اللتين قبلها اشتمل على ضمير راجع إلى الشمس كما في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[الشمس:١-٢]، وهو من عود الضمير موافقا لمقتضى الظاهر، والله أعلم.

وعندما يصف الله العاديات؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤﴾ [العاديات:٤]، فيقف القارئ على ضمير الغائب متأملا مرجعه، والمرجع غير مذكور، وتحديده راجع إلى معنى حرف الجر، فقيل: إنه عائد إلى الحافر ولم يجر له ذكر، وهذا -والله أعلم- عند من جعل الباء سببية، وقيل الضمير عائد إلى الوادي وهذا -والله أعلم- عند من جعل الباء للظرفية المكانية، أي بالوادي ولم يجر للوادي ذكر(٢).

فالفراء يذكر حجته بجعل الوادي مرجعا لهذا الضمير فيقول:"يريد بالوادي، ولم يذكره قبل ذلك، وهو جائز؛ لأن الغبار لا يثار إلا من موضع وإن لم يذكر، وإذا عرف اسم الشيء كُنّي عنه وإن لم يجر له ذكر"(٣).

ولعل عدم ذكر مرجع الضمير يدل على عظمة المتحدث عنه؛ ليذهب المتلقي إلى كل مرجع يحتمله الضمير تعظيما للعاديات، سواء أعاد إلى العاديات أم إلى سنابكها أم إلى فعلها. كما أن في حذف المرجع دلالة على عنصر المفاجأة، التي تضافرت

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٧٥٨/٤).

(٢) ينظر:روح المعاني للألوسي (٣٥٨/١٥).

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٢٤/٣٠) .

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢٨٥/٣)، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص:١٤٣)، والصناعتين لأبي هلال العسكري(ص:١٨٤)، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني(٢٧٨/٢) ، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٥٢/٢).

(٣) معاني القرآن للفراء(٢٨٥/٣)، وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٥٨٠/٢٤).

الفاءات الموحية بتتابع الأحداث بسرعة هائلة، بداية من الضبح حتى توسط الجمع، فأسهم حذف المرجع بتصوير المفاجأة، فالضمير أسرع نطقا من التصريح بالمرجع، فناسب ذلك السرعة، لا سيما أن الحدث كان صبحا، حيث فوجيء العدو قبل استعداده.

وبنت الشاطيء تنبهت إلى أن موقف المباغتة يلائمه قصر الآيات بما فيه من حسم، وسرعة الانتقال، وتلاحق الأحداث ما بين العدو، وإيراء القدح، وإثارة النقع وتوسط الجمع، فما إن تعدو الخيل ضبحا، موريات قدحا، مغيرات صبحا، حتى تكون قد توسطت الجمع في النقع المثار[1].

والأقرب عود الضمير إلى الوادي؛ لأنه لو عاد إلى الحوافر فسيكون الضمير مؤنثا لكثرة الحوافر، لكن الضمير للمكان ومما يؤيد كونه للمكان الآية التالية التي جاءت على هذا النسق وهي قوله تعالى: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾ [العاديات:٥]، وهنا يتبين أن الضمير عائد إلى مكان.

فلم يجر ذكر مرجع الضمير لكونه معلوما، ولأن ما يخطر بالبال محتملا وصالحا، فقد يجمع هذا الضمير بين السبب والمكان، أي بحوافرها أثارت الغبار بالودي، وقد يكون في عدم ذكر مرجع الضمير دلالة على الإطلاق، أي في كل مكان صالح لعدو الخيل الذي تحقق به هدفها بسرعة تفاجيء بها العدو، فدل على أن التعظيم ملازم لها في كل مكان، وكل عدو، وكل وقت، وهذا أوسع للدلالة مع إيجاز في التركيب.

ومن العلماء من غاير بين مرجعي الضمير في قوله:﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾ [العاديات:٤]، وقوله:﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾ [العاديات:٥]، فالزركشي جعل الضمير في الأولى عائدا إلى الحوافر، وفي الثانية عائدا إلى الإغارة، أومكان الإغارة[2].

---

(١) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت عبد الرحمن؛ بنت الشاطيء، دار المعارف ، ط٦، د.ت،(١/ ١٠٦).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٢/ ٢١٢) و(٤/ ٢٧).

بل إنه مع الاتفاق على أن المرجع غير مذكور، إلا أنهم قد اختلفوا في تقدير المرجع، وقد روى الرازي أوجها في مرجع ضمير الغائب في قوله:﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾: أحدها: وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذي تقع فيه الإغارة. وثانيها: إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة، أي: فأثرن في ذلك الوقت نقعا. وثالثها: وهو قول الكسائي أنه عائد إلى العدو، أي: فأثرن بالعدْو نقعا[١].

وأشار الزمخشري في مرجع الضمير في قوله: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ ﴾ إلى عوده إلى النقع، أى: وسطن النقع الجمع. أو فوسطن ملتبسات به جمعا من جموع الأعداء، وقيل: لمكان الغارة. وقيل: للعدْو، ويجوز أن يراد بالنقع: الصياح[٢].

وذكر أبو الحسن القيرواني أنه يعود إلى المكان الذي أغيرت فيه، أو الوادي، وقيل: يعود على فرس المقداد بن الأسود[٣]؛ لأنه كان أشد الخيل ذلك اليوم [٤].

ورجحت بنت الشاطيء -بعد أن ذكرت رأي الزمخشري- عود الضمير إلى مفهوم مما سبق وهو الإغارة، والقدح والعدْو[٥].

ومن جعل الضمير يعود إلى النقع فقد أعاده إلى مذكور، وحينئذ لا يدخل في هذا المبحث؛ لكون المرجع مذكورا وهو الأقرب؛ لكون النقع مذكورا في الآية التي سبقت هذه، ومتى أمكن إعادة الضمير إلى المذكور كان ذلك أولى.

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٣٢/٢٦٠-٢٦١).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٧٨٧، ومفاتيح الغيب للرازي (٣٢/٢٦١).

(٣) المقداد بن الأسود الكندي، هو ابن عمرو بن ثعلبة، تبناه الأسود بن عبد يغوث الزهريّ، وبعد آية تحريم التبني قيل له: المقداد بن عمرو، واشتهرت شهرته بابن الأسود، وتزوج ضباعة بنت الزّبير بن عبد المطّلب، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا والمشاهد بعدها، وكان فارسا يوم بدر، حتى إنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره، توفي سنة ٣٣هـ في زمن عثمان، وعمره ٧٠، ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦/١٥٩- ١٦١).

(٤) النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن القيرواني(ص: ٥٦٩-٥٧٠).

(٥) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطىء(١/١٠٨).

ومن مواطن عود الضمير إلى غير مذكور عوده إلى مضاف محذوف، نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠]، فاختلف في مرجع الضمير الواقع في محل نصب في قوله:﴿يَغْشَىٰهُ﴾ فقد يكون عائدا إلى المكان أو إلى صاحب الظلمات، والأخير أقرب لقرائن منها قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فالمسند الفعلي ﴿أَخْرَجَ﴾ و﴿يَكَدْ﴾ يحتاجان مسندا إليهما يقدر بضمير؛ لعدم وجود الاسم الظاهر، ولم يسبق له ذكر، لكن هذا الضمير يعود إلى الواقع في ظلمات البحر(١)، حسبما دلت القرائن على ذلك، فالإخراج واليد والرؤية قرائن لمن بني عليه هذا التشبيه، ومثل ذلك يقال في الضمير في قوله: ﴿يَدَهُۥ﴾ ولعل سبب اختفاء صاحب الظلمات من السياق مناسب لاختفائه عن الأنظار في ظلمات البحار، فهو لا يُرى، ولا يرَى يده ولو قربها من عينيه، فكيف يرى باقي أعضائه التي لا يستطيع أن يقربها من عينيه؟ وقد نفى الفراء الرؤية، وروى ذلك عن بعض الفقهاء؛ لأنها لا ترى فيما هو دون هذا من الظلمات، وكيف بظلمات قد وصفت بأشد الوصف(٢)؟ وإلى هذا القول ذهب أبو عبيدة وجعل هذه الآية من مجاز المقدّم والمؤخر، أي: لم يرها ولم يكد(٣). وجعل ابن هشام هذا دليلا على أنه "إذا انتفت مقاربة الفعل؛ انتفى عقلا حصول ذلك الفعل ...ولهذا كان أبلغ من أن يقال لم يرها؛ لأن من لم ير قد يقارب الرؤية"(٤).

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/، ٢٤٤)، التفسير القيم لابن القيم (ص: ٤٠١).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء(٢/ ٧٢)، و(٢/٢٥٥).

(٣) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ١٢)و(٢/ ٦٧)، ودلائل الإعجاز(ص: ٢٧٥)، والكامل في اللغة والأدب للمبرد (١/١٥٧)، والصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس القزويني(ص: ١١٦).

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ص: ٨٦٩).

قال البيضاوي:" والضمائر للواقع في البحر؛ وإن لم يجر ذكره لدلالة المعنى عليه"(١). وقال ابن عادل والسمين الحلبي: " وأما الضميران في ﴿أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ فيعودان على محذوف دل عليه المعنى، أي: إذا أخرج يده مَنْ فيها"(٢).

ويأتي الضمير عائدا إلى غير مذكور لاشتهار القائل بمقالته، وصرف السياق عن ذكره احتقارا له، وإعراضا عنه، ومن ذلك ما جاء كثيرا في أفراد المشركين، وجماعاتهم ومن شابههم، ومن ذلك قوله تعالى:﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ [النازعات:١٠]، فواو الجماعة لا يصح أن يعود إلى القلوب في قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات:٨]، بل واو الجماعة ضمير "عائد إلى معلوم من السياق، وهم الذين شهروا بهذه المقالة، ولا يخفون على المطلع على أحوالهم ومخاطباتهم، وهم المشركون في تكذيبهم بالبعث"(٣).

ومثل ذلك الآية الثالثة في سورة الفرقان التي لم يسبق واو الجماعة فيها بمرجع، لكنه عاد إلى مرجع تدركه الأذهان، وذلك في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان:٣]، فالمسند الفعلي ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أسند إلى ضمير يعود إلى من اشتهروا بهذا الفعل، وهم المشركون لاشتهارهم بهذه الملة، فأغنى ذلك عن ذكرهم من باب الإيجاز والتشنيع عليهم، وللتنويع في الأساليب، وفيه دلالة الانصراف والإعراض عنهم، فوافق المبنى دلالة المعنى.

وقد يؤيد ما ذهب إليه الباحث من دلالة الإعراض عنهم بعد ذكرهم عدم إظهار اسم الله عز وجل في هذه الآية، علما أنه أظهره في سورة يس وسورة مريم، ولعل هذا

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١٠٩/٤).

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤٠٣/١٤)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٤١٤/٨).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦١/٣٠).

من التعريف بهم لقبح قولهم، ثم الإعراض عنهم في هذه الآية، والقرآن يفسر بعضه بعضا(١).

وقد أجاب ابن جماعة عن ذلك فذكر:" أن آية مريم ويس وردتا بعد ضمير المتكلم فناسب الإظهار. وآية الفرقان وردت بعد تكرار ضمير الغائب، فناسب الإضمار للغائب؛ لتناسب الضمائر، والله أعلم" (٢).

وللعلماء في مرجع الضمير أقوال، فذكر أبو حيان أنه عائد على ما يفهم من سياق الكلام؛ لأن في قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ﴾ دلالة على ذلك، لم ينف إلا وقد قيل به. وقال الكرماني: الواو ضمير للكفار وهم مندرجون في قوله للعالمين. وقيل:لفظ (نذيرا) ينبئ عنهم؛ لأنهم المنذرون، ويندرج في ﴿ وَٱتَّخَذُواْ ﴾كل من ادعى إلها غير الله(٣).

وذكر ابن عاشور ان الضمير:" عائد إلى المشركين، ولم يسبق لهم ذكر في الكلام، وإنما هم معروفون في مثل هذا المقام، وخاصة من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾"(٤).

ومما حذف لاشتهاره، ولكثرة مجيء الآيات به ما حذف في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ

---

(١) في قوله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ [مريم:٨١]، فقبلها: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [مريم:٧٧] ، وقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يس:٧٤]، فقبلها: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يس:٥٩]، فمرجع الضمائر مذكور فيما سبق.

(٢)كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لابن جماعة (ص:٣٠٥).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٨١/٨)، وينظر: روح المعاني للألوسي (٤٢٤/٩).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/١٩).

﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢]، وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[آل عمران:٨٧-٨٨]، فالضمير الغائب قي قوله: ﴿فِيهَا﴾ لم يسبق بما يحتمل أن يصلح مرجعا سوى قوله: ﴿لَعۡنَةَ﴾، فاللعنة هنا هي جهنم، وعبر عنها بسببها من المجاز المرسل بعلاقة السببية، فاللعنة ليست محلا للخلود بل سببا من أسبابه، أما الخلود ففي جنة أونار كما تظافرت آيات القرآن الكريم بالدلالة على ذلك، وسياق الآيتين هنا يجعل الخلود في النار، مع أنها لم تذكر ولكن ذكر ما يدل عليها وهو الخلود الذي يقتضي محلا؛ واللعنة وعدم التخفيف، ولعل عدم التصريح بذكرها نابع من كونها مما اشتهرت الأدلة ببيانه، واستقر في أذهان الناس العلم به، فحذف تعظيما لعذابها، وإعراضا عن الملعونين فيها، فلمّا اجتمعت لعنة الله ولعنة الملائكة ولعنة الناس جاء الضمير مشيرا إلى محذوف مبعد، فأبعد المأوى من السياق لبعده عن الرحمة، وعن مأوى من رضي الله عنهم، والحذف مناسب لقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، فكان في حذف المأوى من السياق دلالة على إعراض الخالق والمخلوقين عن أولئك، فوافق المبنى دلالة الكلام.

ومن الذين رأوا أن الضمير عائد إلى جهنم ابن عاشور، فقد ذكر أن الضمير عائد إلى جهنم؛ لأنها معروفة من المقام، وفيه التصريح بلازم اللعنة الدائمة، ثم أجاز عوده إلى اللعنة[1].

ويرى الرازي أن الضمير يعود إلى اللعنة، وقيل إلى النار إلا أنها أضمرت تفخيما لشأنها وتهويلا، وجعل عود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى ما لم يذكر، وأن حمل هذا الضمير على اللعنة أكثر فائدة من حمله على النار؛ لأن اللعنة هي الإبعاد من الثواب، بفعل العقاب في الآخرة وإيجاده في الدنيا، فكان اللعن يدخل فيه النار وزيادة،

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٢/٢).

فكان حمل اللفظ عليه أولى، وخالدين حال، وحمل الضمير على اللعن يكون ذلك حاصلا في الحال، وفي حمله على النار لا يكون حاصلا في الحال، بل لا بد من التأويل فكان ذلك أولى[(١)].

قال الألوسي:" ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: في اللعنة، وهو يؤكد ما تفيده اسمية الجملة من الثبات، وجوز رجوع الضمير إلى النار، والإضمار قبل الذكر يدل على حضورها في الذهن المشعر بالاعتناء المفضي إلى التفخيم والتهويل، وقيل: إن اللعن يدل عليها، إذ استقرار الطرد عن الرحمة يستلزم الخلود في النار خارجا وذهنا"[(٢)].

وقال في آية آل عمران عند وقوفه عليها:" والضمير المجرور- للعنة- أو للعقوبة، أو للنار، وإن لم يجر لها ذكر اكتفاء بدلالة اللعنة عليها"[(٣)].

وقد مال الدكتور حسن محمد باجودة إلى كون المراد بالخلود هنا الخلود في نار جهنم،... فما أكثر المواضع في القرآن الكريم التي تعود فيها الضمائر إلى غير الموجود في السياق لقرينة صارفة المعنى إلى تلك الجهة المعينة... يضاف إلى ذلك دليل آخر وهو أن الخلود في القرآن الكريم، يقترن دائما بنار جهنم، ولم يقترن مرة من المرات باللعنة، ومما يعتبر قرينة أخرى أن الآية تقرر أنهم لا يخفف عنهم العذاب، وإنما يكون العذاب في نار جهنم[(٤)].

ولما عوقب إبليس بالطرد بعد تكبره قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٣]، وقوله: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨]، وقال أيضا: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحجر:٣٤]، وقال: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٤٤/٤)، وينظر: الكشاف للزمخشري (٢١٠/١).

(٢) روح المعاني (٤٢٨/١).

(٣) روح المعاني (٢٠٩/٢).

(٤) ينظر: تأملات في سورة آل عمران، د.حسن محمد باجودة (ص:٢٦٧-٢٦٨).

﴾ ﴿٧٧﴾ [ص:٧٧]، فالضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ في الآيات الأربع عائد إلى غير مذكور، واختلف المفسرون في تحديده، فقيل الضمير عائد إلى السماء وإليه ذهب جماعة، أو إلى زمرة الملائكة، أو إلى الجنة، أي: فاخرج من الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها، واختار الأخير السيوطي، والألوسي، وابن عاشور[(١)]. وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي: "منها من الجنة، وقيل: من السماوات. وقيل: من الخِلقة التي أنت فيها"[(٢)].

وقال الرازي:" فإن قيل: كيف قال تعالى لإبليس: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: في السماء، وليس له ولا لغيره أن يتكبر فى الأرض أيضاً؟ قلنا: لما كانت السماء مقر الملآئكة المطيعين الذين لا توجد منهم معصية أصلاً كان وجود المعصية بينهم أقبح، فلذلك خص مقرهم بالذكر"[(٣)].

وقد يقوي ما ذهب إليه الرازي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وقوله: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت:٣٨] فالملائكة عند الله، والله في السماء لقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦]، وهم لا يستكبرون بل يسبحون ويسجدون من غير سأم، فلما تكبر إبليس أخرج منها.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٤١/١٩)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢١١/٣)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٥٣/٣).

وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢١٧/٣)، وروح المعاني للألوسي (٢٩١/٧)، و(٢١٧/١٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٤٠/١٣).

(٢) الكشاف للزمخشري (١٠٧/٤)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢١١/٣).

(٣) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل للرازي (ص:١٣٧).

واختلاف المفسرين في مرجع الضمير في مواطنه المختلفة لكونه عائدا إلى ما يحتمله السياق، هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، ولعل مجيء الضمير في كل المواطن بقوله: ﴿مِنْهَا﴾ فيه إيجاز، مع ما يوحيبه الضمير التنويه بشأن هذا المرجع، حيث الدلالة على العظمة، والفخامة، مع ما يولده من حسرة لدى إبليس لفقدانه هذه المكانة.

وقد يأتي ضمير الاثنين ولم يتقدمه مثنى يعود عليه هذا الضمير، وكذلك ضمير الجمع الذي لم يتقدمه جمع، ومن ذلك ماجاء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٦] فضمير الاثنين في قوله: ﴿كَانَتَا﴾ وقوله: ﴿فَلَهُمَا﴾، وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟﴾ فالمرجع لضميري التثنية والجمع لم يجر له ذكر، لكن جرى ذكر قرينة تبينه وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ فلفظة أخت قرينة توضح المرجعين الذين لم يذكرا، وعاد إليهما ضمير التثنية ثم ضمير الجمع، فضمير التثنية عائد إلى المفهوم وهي الأختان، بدلالة تثنية الضمير والصفة، أما ضمير الجمع فعائد إلى المفهوم وهم الإخوة والأخوات، فسبك الآية، وتأليفها بهذا الإيجاز البليغ، من غير إخلال في معنى ولا إطالة في كلام، يشيد بعظمة هذا الكتاب المعجز.

وللشيخ الشعراوي قول عجيب؛ فلما رأى أن الآية بينت أن للأختين الثلثين إن لم يكن له ولد، استنتج من ذلك أن البنتين ألصق بالمورِّث، وحقهما كذلك إذا كانت الحالة كذلك(١)، فالآية الحادية عشرة من سورة النساء تكلمت عن إرث البنات(١)، وآخر آية من سورة النساء وهي الآية السالفة تكلمت عن إرث الأخوات.

(١) ينظر: الخواطر (٢٠٢٧/٤-٢٠٢٨).

وقد أردف الشعراوي كلاما عجيبا بين الآيتين ينم عما حباه الله من تأمل فقال: "ومن العجيب أنه جاء بالجمع في الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات، وجاء بالمثنى في الآية التي تورث الأخوات؛ لنأخذ المثنى هناك – في آية توريث البنات – لينسحب على المثنى هناك، لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط"(٢).

واختلف المفسرون في مرجع ضمير الاثنين في قوله: ﴿كَانَتَا﴾ و﴿فَلَهُمَا﴾ فقال الزمخشري: "فإن قلت: إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع في قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ و﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً﴾؟ قلت: أصله: فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين، وإن كان من يرث بالأخوة ذكورا وإناثا: وإنما قيل: فإن كانتا، وإن كانوا، كما قيل: من كانت أمك. فكما أنث ضمير (من) لمكان تأنيث الخبر، كذلك ثنى وجمع ضمير من يرث في كانتا وكانوا؛ لمكان تثنية الخبر وجمعه، والمراد بالإخوة الإخوة لا الأخوات، تغليبا لحكم الذكورة"(٣).

أما أبو حيان فيرى احتمالين:

الأول: أنه لا يعود إلى الأختين بل إلى الوارثتين، فالصفة محذوفة لأنها مفهومة، والتقدير: فإن كانت الوارثتان اثنتين من الأخوات فلهما الثلثان مما ترك؛ ليفيد الخبر ما لا يفيد الاسم.

=

(١) قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١].

(٢) ينظر: الخواطر(٤/٢٠٢٨).

(٣) الكشاف للزمخشري (١/٥٩٩).

الثاني: أن يكون الضمير عائدا على الأختين كما ذكروا، ويكون خبر كان محذوفا لدلالة المعنى عليه، وإن كان حذفه قليلا، ويكون اثنتين حالا مؤكدة والتقدير: فإن كانت أختان له، أي: للمرء الهالك. ويدل على حذف الخبر الذي هو له وله أخت، فكأنه قيل: فإن كانت أختان له(١).

قال أبو حيان: "فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك قالوا: الضمير في كانتا ضمير أختين دل على ذلك قوله: وله أخت"(٢).

ويعود الضمير إلى ما لم يذكر اكتفاء بذكر ما يلازمه، ليكون كالقرينة الداعية إلى ستحضار غير المذكور، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يس:٨]، فالضمير (هي) عائد إلى ما لم يذكر، "فكنى عن هي، وهي للأيمان ولم تذكر. وذلك أن الغُلّ لا يكون إلا باليمين والعنق، جامعا لليمين والعنق، فيكفي ذكر أحدهما من صاحبه"(٣)، والإقماح رفع الرأس وغض البصر، يقال أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه(٤).

وإلى هذا المرجع غير المذكور وهي الأيدي ذهب جمع من المفسرين ومنهم الطبري، والفراء(٥)، وخالفهم الزمخشري وابن القيم وأبو السعود فقد جعلوا الضمير عائدا إلى الأغلال(٦)، فالزمخشري جعل الضمير للأغلال؛ لكونها مذكورة، ورأى أن ذلك هو الأولى، أي: فالأغلال واصلة إلى الأذقان، ملزوزة إليها، والإقماح نتيجة ذلك؛ ولذلك

(١) البحر المحيط لأبي حيان (١٥٢/٤).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (١٥١/٤).

(٣) معاني القرآن للفراء(٣٧٢/٢)، وينظر: خزانة الأدب للبغدادي (٨٣/١١).

(٤) ينظر: لسان العرب، فصل القاف، مادة قمح، (٥٦٥/٢).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(٤٠٣/١٩) ومعاني القرآن للفراء (٣٧٢/٢)، وينظر: خزانة الأدب للبغدادي (٨٣/١١) .

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٥-٦)، والتفسير القيم لابن القيم (ص:٤٤٠)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١٦٠/٧).

ذكر، ولو كان الضمير للأيدى لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرا[1]، ولم يوافقه ابن المنيِّر على هذا القول في الحاشية، فرد عليه قائلا: "قال أحمد:... ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغل يوجب الإقماح، فإن اليد -والعياذ بالله تعالى- تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها ومانعة من وطأتها...فإن اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها، ولعله يتحيل بها على فكاك الغل، ولا كذلك إذا كانت مغلولة..."[2].

وذكر النحاس أن التقدير: "إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا، ... لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد من أن يكون في اليد"[3].

وأما الدكتور حسن محمد باجودة فذهب إلى قول من قال أن الضمير عائد إلى اليدين، أو الأيدي، على الرغم من عدم ذكر الأيدي بصريح اللفظ، ولكن القرينة تقتضي هذا المعنى، ودليله على ذلك لفظة الأغلال ذاتها؛ لأن الغل نوع فريد من القيود، ينفرد بجمعه اليدين إلى العنق وشدهما إليه شدا، وعليه فحينما يذكر الغل يتبادر إلى الذهن اليدان والعنق جميعا، وفي ذكر أحدهما حضور ضروري للآخر[4].

والأقرب – والله أعلم — أن الضمير عائد إلى الأيدي، وهذا بعد الاستئناس بأقوال العلماء السابقة، واسترشادا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء:٢٩]، فما أضمر في آية سورة يس، كشفت عنه آية سورة الإسراء، وهذا يضيف إلى بلاغة الإيجاز، والثقة بكون المتلقي على علم بالذي لم يذكر، بلاغة ارتباط كلام الله بعضه ببعض، وتفسير بعضه بعضا.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٥-٦).

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لا بن المنير (٤/٥).

(٣) إعراب القرآن للنحاس (٣/٢٦٠).

(٤) ينظر: تأملات في سورة آل عمران، د.حسن محمد باجودة (ص:٢٦٧).

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢]، فالضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في رأي الفراء ضم الورثة إلى الوصي ولم يذكروا؛ لأن الصلح إنما يقع بين الوصي والورثة[١]، وذكر الجرجاني أنه كناية عن الأقربين، أو عما لم يسبق ذكره[٢].

والمقصود – والله أعلم- أنه لو جنف المورّث بوصيته بما يضر الورثه، فلا جناح على الموصَى أن يصلح بين المورّث والورثة، فالضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إلى غير مذكور لدلالة الموصِي والموصَى عليه، لاسيما والآية جاءت بعد آية من حضره الموت، فضمير الجمع في قوله:﴿بَيْنَهُمْ﴾ إما أن يعود إلى المورّث وورثته، أو إلى الورثة، وكلا الحالين محتملان فوسعهما الضمير بإيجازه.

فمن العلماء من جعل الضمير عائدا إلى الورثة كالنحاس؛ وقوله أحد الأقوال التي ذكرها الطبري[٣]، ومنهم من روى أن ضمير الجمع عائد إلى الموصِي وورثته كالطبري، ورأى هذا أبو هلال العسكري[٤]، ومنهم من قال الصلح بين الموصِي والموصَى لهم، أو بين الموصَى لهم والورثة قاله البقاعي والألوسي[٥]، وأعاده الزمخشري إلى الموصى لهم وهم الوالدان أي؛ بين الوالدين والورثة[٦]، ورجح الرازي عوده على أهل الوصية لدلالة موص على ذلك، وهو الظاهر عند أبي حيان "إذ يدل على ذلك لفظ: الموصي، لما ذكر

(١) معاني القرآن للفراء (٣٧٢/٢).

(٢) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور لعبد القاهر الجرجاني(٣٤٣/١).

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٩٣/١)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٤٣/٣).

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري١٤٢/٣و١٤٧/٣، والوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري(ص:٩٩).

(٥) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٣٨/٣)، وروح المعاني للألوسي (٤٥٣/١).

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢٢٤/١).

الموصي أفاد مفهوم الخطاب أن هناك موصى له"(١)، وذكر ابن عاشور أنه عائد إلى الموصى لهم ومن نالهم الحيف(٢).

فالآية بضمير الجمع هذا واختلاف العلماء في تحديد مرجعه اختلاف تنوع لاختلاف تضاد، جعل الضمير ذا دلالة واسعة ومتنوعة وكل المراجع المذكورة محتملة، فتوسعت دائرة الصلح، فاجتمع تحت ضمير الجمع هذا معاني كثيرة، فاتسم بالإيجاز. فإما أن يكون الصلح بين المورّث والورثة بأن يأمره الوصِي بالعدل(٣)، أو أن يكون الصلح بين الورثة بعد موت مورثهم، فيرد الولي أو الوصي أو ولي أمر المسلمين الوصية إلى العدل(٤)، فيصلح بين من حيف لهم ومن حيف عليهم.

ومثله أيضا أن تكون الملازمة على طريق الطباق، فيترك المتروك لدلالة ضده المذكور عليه كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر:١١].

فقد ورد الضمير في قوله: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ في سياق الحديث عمّن نقص عمره، وقد سبق هذا الضمير بذكر المعمر فقال: ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ فدل ذلك على أن الهاء في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ عائدة إلى غير المعمّر، كشف عنه ضده المصرح به في الآية وهو قوله: ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ فأصبح الطباق دالا على ما لم يجر ذكره.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥/٢٣٨)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/١٦٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/١٥١).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي(١/٨٩).

(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القران لأبي إسحاق الثعلبي (٢/٥٩).

قال الزركشي: "أي من عمر غير المعمر، فأعيد الضمير على غير المعمر؛ لأن ذكر المعمر يدل عليه لتقابلهما، فكان يصاحبه الاستحضار الذهني"(١).

وقال الألوسي:" فإن ضمير ﴿عُمُرِهِۦ﴾ راجع إلى شخص بدون وصفه بمعمر، إذ لا يتصور نقص عمر المعمر كما لا يخفى"(٢).

ومن تأويلات الطبري بعد أن ساق أثرا يدل على أن من الناس من يعمر ومنهم من يموت بعد أن يولد، أن الضمير يعود على غير المعمر وهو الأرجح عنده، فهو كقولهم: عندي ثوب ونصفه؛ أي ونصف الآخر، أو يعود إلى المعمّر الأول ونقص عمره بذهاب أيامه(٣)، وإلى هذا الأخير ذهب الزمخشري(٤)، وجعل السيوطي الضمير عائدا إلى لفظ المذكور دون معناه، أي معمّر آخر(٥). وذكر ابن عادل تأويلين لمرجع الضمير الأول: أنه يعود إلى معمّر آخر، كما ذكر السيوطي فالمراد الجنس، فهو يعود عليه لفظا لا معنى، فمن كتب له طول العمر لا ينقص، والثاني: أنه يعود على ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ لفظا ومعنى. أنه إذا مضى من عمره حول أحصي وكتب، ثم حول آخر كذلك، فهذا هو النقص(٦)، وذكر الشنقيطي أنه راجع إلى لفظ المعمّر دون معناه التفصيلي، كقولهم: عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر(٧).

ويفسر قول من قال بعود الضمير على اللفظ دون المعنى قول ابن عاشور: "وضمير ﴿مِنۡ عُمُرِهِۦ﴾ عائد إلى ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ على تأويل ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ بـ(أحد)كأنه قيل:

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي(٤/٢٨).
(٢) روح المعاني للألوسي (١٠/١٢٥) وينظر: (١١/٣٥١).
(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري(١٩/٣٤٤).
(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/٦٠٣-٦٠٤) .
(٥)معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣/٤٦٤).
(٦) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٦/١١٣-١١٤).
(٧) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٦/٢٦٠).

وما يعمر من أحد ولا ينقص عمره، أي عمر أحد وآخر. وهذا كلام جار على التسامح في مثله في الاستعمال، واعتماد على أن السامعين يفهمون المراد"(١).

ولفهم رأي الزمخشري ومن نحا نحوه ينقل الباحث كلامه حيث قال: "فإن قلت: ما معنى قوله. وما يعمر من معمر؟ قلت: معناه وما يعمر من أحد. وإنما سماه معمرا بما هو صائر إليه. فإن قلت: الإنسان إما معمر، أي طويل العمر: أو منقوص العمر، أى قصيره. فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صح قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه، ثقة في تأويله بأفهام السامعين، واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلام الناس المستفيض. يقولون: لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق"(٢).

والذي يظهر للباحث اعتمادا على ما رجحه الطبري، وصرح به الزركشي، والألوسي وغيرهم، أن الضمير عائد إلى ما لم يجر ذكره، ويفهم ذلك ممّا يضاد المذكور، فإما أن يكون الإنسان معمرا أو غير معمر، أي: ناقص العمر؛ لموته قبل سن الشيخوخة المعتادة، فدل ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ المذكور على ضده الذي لم يذكر اكتفاء بالمذكور.

وقد ورد مثل هذا في كلام العرب أي دلالة الضد المذكور على الضد المحذوف من الكلام اختصارا؛ لدلالة المذكور عليه، ولأن المتكلم على يقين بإدراك السامع مراده، ومنه ما قاله المثقِّب العبدي(٣):

وَما أَدري إِذا يَمَّمتُ وَجهاً ... أُريدُ الخَيرَ أَيُّهُما يَليني
أَأَلخَيرُ الَّذي أَنا أَبتَغيهِ ... أَمِ الشَرُّ الَّذي هُوَ يَبتَغيني

فذكر الخير ثم جاء بضمير التثنية بعده؛ ثقة بأن السامع سيدرك أن الضمير مراد به الخير والشر، لدلالة الخير على الشر الذي لم يذكر قبل الضمير، والعلم به يغني عن

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢/١٣٤).

(٢) الكشاف للزمخشري (٣/٦٠٣-٦٠٤).

(٣) ديوان شعر المثقِّب العبدي (ص: ٢١٢-٢١٣).

ذكره. وقد تبين تفسير ضمير التثنية في البيت الثاني، وضمير التثنية كاف، مع وجود قرينة التضاد؛ لمابين الخير والشر من تلازم في الكلام بكثرة.

وفي أول آية من سورة عبس، يأتي الفعل مسندا إلى ضمير الغائب، فيقول الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ [عبس:١-٢]، وقد تحدث علماء المعاني عن الالتفات في قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس:٣]، فهو انتقال من صيغة الغائب إلى ضمير المخاطب، ولكن مذهب السكاكي أن الالتفات يبدأ في الآية الأولى(١)؛ لأن مقتضى ظاهر الكلام الخطاب في الموضعين، وضمير المخاطب أعرف الضمائر لدلالته على مخاطبة الحاضرِ المشاهَدِ، فالمخاطَب حاضر مشاهد، ومن هذا المبدأ يجد الباحث أن المسند الفعلي في قوله: ﴿عَبَسَ﴾ قد أسند إلى ضمير الغائب، ولم يسبقه في التأليف ما يدل على المرجع، لكن المناسبة وضمير الخطاب الذي التفت به في الآية الثالثة في قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ قرينتان على أن المراد النبي - ﷺ- وهنا تساؤل عن هذا الاستهلال بضمير الغائب الذي لم يسبقه ذكر مرجعه.

فبلاغة الاستهلال بضمير الغائب بدلا من ضمير الخطاب فيه تلطف بالنبي- ﷺ- كيلا يواجه في العتاب فكأن المتحدَث عنه غيره، وفي الالتفات في الآية الثالثة بصيغة الخطاب فيه تحرس من أن يفهم ضمير الغائب صدًّا عن المتحدَث عنه وإعراضا، فخاطب الله نبيه؛ لإظهار اللطف والعناية العظمى، والله أعلم.

وقد رأى الدكتور محمد شادي أن الغرض من الإخبار بطريق الغائب مع إضمار الفاعل حيث لم يقل: عبست، أو عبس محمد، أن ذلك كان لغاية واحدة هي الإشعار بعدم رضا الله سبحانه عن هذا العبوس، وأردف قول من قال: إنه لتخفيف العتاب، لكن الأول عنده أبين وأولى(٢).

---

(١) ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني (ص: ٢٨٦).

(٢) ينظر: غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول، د. محمد إبراهيم شادي (ص: ٤٤٣).

لكن الباحث يرى أن الغرض من ذلك هو اللطف بنبيه، فلم يواجهه بالعتاب تخفيفا، والدليل على ذلك الالتفات إلى الخطاب في قوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس:٣]، وهذا قريب من رأي بعض العلماء كأبي حيان وسيأتي ذلك.

وللعلماء السابقين ما يثري ذلك، فقد قال الفراء وجملة من المفسرين في سبب نزولها: "ذَلِكَ عَبْد اللَّه بْن أم مكتوم، وكانت أم مكتوم أم أَبِيهِ، آتى رَسُول اللَّه -ﷺ- وعنده نفر من أشراف قريش؛ ليسأله عنْ بعض ما ينتفع بِهِ، فكرِه رَسُول اللَّه -ﷺ- أن يقطع كلامه، فأنزل اللَّه تبارك وتعالى، ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾، يعني: محمدا ﷺ[(١)].

ويذكر الزمخشري أن الآية بدأت بالإخبار عما فرط منه، ثم الإقبال عليه بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار[(٢)]، والإخبار عنه يقتضي المجيء بضمير الغائب.

ويذكر أبو حيان بلاغة البدء بضمير الغائب فيقول: "وجاء بضمير الغائب في عبس وتولى؛ إجلالا له -عليه الصلاة والسلام- ولطفا به أن يخاطبه؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى. وجاء لفظ الأعمى إشعارا بما يناسب من الرفق به والصغو لما يقصده"[(٣)].

وقال ابن عاشور: "افتتاح هذه السورة بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم، فأما الضمائر فيبين إبهامها قوله: ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [عبس:٦]، وأما الحادث فيتبين من ذكر الأعمى، ومن استغنى"[(٤)].

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣/٢٣٥)، وينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٧٠٠-٧٠١)، وروح المعاني للألوسي (١٥/٢٤١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٩٠).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٧٠١).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (١٠/٤٠٦).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/٩١).

وإذا كان مرجع ضمير الغائب الذي لم يصرح به السياق هو الذي يحتاج تأمل، فإن ذلك لكونه لايترك في كلام البليغ إلا لغرض بلاغي، بخلاف ضمير المخاطب فهو بيّن بقرينة الخطاب لحاضر ولمشاهد، وفي هذه الحالة يكون المخاطب معينا، ومن هنا زال اللبس.

ومن الخطاب الذي لم يصرح بمرجعه ولكن فهم من المناسبة، ما في قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم:٤]، وهو الخطاب في قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ فقيل إنه عائد إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما[1]، ومن كمال القرآن وروعة أدبه عدم التصريح باسمي المعاتبَتين، ولعل في ذلك من الستر ما فيه، فلما كان التصريح باسميهما مما لا فائدة شرعية فيه؛ انصرف القرآن عن ذلك، وأتى بالفعل للعبرة والعظة، ومن كمال لطف الله وعنايته بهما أن الله خاطبهما لما عرض التوبة عليهما فقال: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾.

فالحديث عمن بدر منهما هذا الفعل من زوجات النبي -ﷺ- جاء بصيغة الغائب، ولعل البلاغة في ذلك؛ هو رحمة الله بالزوجتين؛ لئلا يوجه إليهما العتاب بصيغة الخطاب، بل جاء كالخبر رحمة بهما -والله أعلم- ولم يأت الخطاب إلا في سياق عرض التوبة عليهما ترغيبا بها وإقبالا عليهما.

ولعدم رجوع ضمير الخطاب المثنى إلى مرجع مصرح به يحدد المخاطبتين من بين زوجات النبي -ﷺ- فإن ذلك يثير تساؤلا لدى المتلقي، ويتمثل ذلك بقول ابن عباس

(١) المخاطبتان: حفصة بنت عمر رضي الله عنهما وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وفيه خلاف، وتنظر القصة باختلافاتها في: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٠/٨-١٨٨)، وينظر: صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إماطة الأذى، (ص: ٥٩٦-٥٩٧)، رقم الحديث: ٢٤٦٨. وصحيح مسلم، كتاب: الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء... (١١٠٥/٢) رقم الحديث: ١٤٧٩.

-رضي الله عنهما- حيث قال: لم أزل حريصا أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي -ﷺ- اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر، وحججت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر، وعدلت معه بالإداوة، فتبرز؛ ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي -ﷺ- اللتان قال الله عز وجلّ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قال عمر: واعجبا لك يا ابن عباس، (قال الزهري: كره والله ما سأله عنه؛ ولم يكتمه) قال: هي حفصة وعائشة..." الحديث[1].

فواضح من هذا الحديث أن عدم تصريح القرآن بالمخاطبتين راجع إلى عدم الحاجة إلى ذلك؛ ولحفظ حق بيت النبي -ﷺ- وحق أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وحق الأبوين الخليفتين الراشدين رضي الله عنهما، بدليل أن عمر -رضي الله عنه- كره سؤال ابن عباس رضي الله عنه، فما ألطف الله!

إلا أن المخاطب قد لا يكون معينا، ويسمى خطاب غير المعين، وقد ورد هذا النوع في القرآن الكريم، فلا يراد بالخطاب شخص بعينه، ولكن صنف من الناس، أو كل الناس، فقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩]، فمما لا يخفى أن هذه الآية يُرى اشتمالها على ضمائر متنوعة بأعدادها ومراجعها، فانتقل بعضها من صيغة إلى أخرى على سبيل الالتفات، وكأن هذا التنوع يصور الحدث وأصله، وركنيه، وأطرافه، فركناه الزوجان، ثم قد يتطور إلى دخول وسطاء أو ترافع إلى الحكام، واستوعبت الآية كلّ ذلك، وصورت الحركة الدخلية، وتأتي الآية لتهذيب النفوس وإحقاق الحق. يُرى ذلك في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء... (١١٠٥/٢) رقم الحديث: ١٤٧٩.

لَكُمْ﴾ خطابا للأزواج، والضمير في قوله: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فضمير النصب للزوجات، والضمير في قوله: ﴿يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا﴾ للزوجين، والضمير في قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ للحكام والمتوسطين، والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمَا﴾ للزوج والزوجة قاله: ابن قتيبة(١). والضمير في قوله: ﴿ٱفْتَدَتْ﴾ للمرأة كذلك قاله ابن قتيبة(٢).

وهذا التوجيه معتمد على السياق، وجوزه كثير من العلماء الأجلاء، فقد تساءل الرازي ثم أجاب فقال:"فإن قيل: لمن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟﴾ فإن كان للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وإن قلت للأئمة والحكام فهؤلاء لا يأخذون منهن شيئا. قلنا: الأمران جائزان فيجوز أن يكون أول الآية خطابا للأزواج، وآخرها خطابا للأئمة والحكام، وذلك غير غريب في القرآن، ويجوز أن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام؛ لأنهم هم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم هم الآخذون والمؤتون"(٣).

وذكر ابن عطية، والزمخشري، وابن عاشور وغيرهم، أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للأزواج بقرينة قوله: ﴿أَن تَأْخُذُوا۟﴾ وقوله: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ والخطاب في قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ للحكام وزاد ابن عطية: والمتوسطين، لأنه لو كان للأزواج لقيل: فإن خفتم ألا تقيموا أو ألا تقيما"(٤).

ونص قول الزمخشري أنه:" يجوز الأمران جميعا: أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره، وأن يكون الخطاب كله

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٨٨).

(٢) ينظر: المصدر نفسه(ص:٨٨).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٤٤٤/٦)، وينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٤٠/٤).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣٠٦/١-٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٢٧٤/١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣٨٨/٢).

للأئمة والحكام؛ لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون"[1].

ويأتي ضمير المخاطبين غير المعينين راجعا إلى غير مرجع الضمير الذي سبقه من غير ذكر لمرجع الأخير؛ ثقة بأن المرجع مفهوم من السياق ولا يلتبس على أحد، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣٢]، فقد بدأ الخطاب للأزواج بقرينة: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ لكن ضمير المخاطبين غير المعينين في قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يجعل دائرة الخطاب أوسع؛ فهو عائد إلى كل عاضل، والأغلب أن لا يعود إلى الأزواج المطلِّقين بل إلى العاضلين، الذين قطعوا حبل المراجعة بين الزوجين، وهم أولياء النساء ولم يجر لهم ذكر، بدلالة قوله: ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم﴾ فلفظ الأزواج مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان، والتراضي يشير إلى إعادة علاقة شرعية سابقة دخلها ما يعكرها، وقد يكون المطلِّق أيضا عاضلا[2]، إذا راجع امراته بعد قرب انتهاء عدتها ليس رغبة بها؛ ولكن للإضرار بها؛ ليطلقها مرة ثانية فتطول عليها العدة، ومن هنا يتبين أن عدم تعيين المرجع في ضمير المخاطب يفيد التعميم ويوسع الدائرة، وهذا من الإيجاز البليغ، فلو حدد العاضل من أحد الفئتين أي من الأزواج أو أهل المرأة ومن لهم ولاية عليها؛ لأصبحت الدائرة ضيقة، ولم تحط بالتحذير من جميع الأضرار المتوقعة من جميع الفئات، لكن بالتعميم وبغير التعيين كمل البيان مع إيجازه .

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/٢٧٤).

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري(ص:٦٢).

وسبب النزول يؤيد ذلك فعَنْ الْحَسَنِ قَالَ حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ[1] أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ: "زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا فَقُلْتُ لَهُ زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ"[2].

وقد اختلف العلماء الإجلاء في مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ فذكر الرازي أن الأكثرين يرون أنه يعود إلى أولياء النساء[3]، واختار آخرون ومنهم الرازي أنه خطاب للأزواج، وذكروا قول من قال للأولياء[4]. وذكر الرازي وغيره المرجِعَين وجمع حجج كل فريق، ثم قوّى عوده إلى الأزواج لكون الأولياء لم

(١) معقل بن يسار: هو معقل بن يسار بن عبدالله المزني، يكنى أبا عبدالله، صحابي جليل أسلم قبل صلح الحديبية، وهو من أهل بيعة الرضوان، حدث عنه الحسن البصري، أمره عمر بن الخطاب على البصرة، وتوفي بها في آخر خلافة معاوية. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/١٠). وسير أعلام النبلاء للذهبي(٢/٥٧٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي... (ص: ١٣٠٨) رقم الحديث: ٥١٣٠.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦/٤٥٤)، وإعراب القرآن للنحاس (١/١١٤)، والوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري(ص:٦١)، والبرهان في علوم القرآن(٢/٢٩٣، و٣/٢٥).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦/٤٥٤)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص:٥٧١)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لابن يعقوب الفيروزآبادي (٤/٦).

يذكروا(١)، وبعضهم جعل الضمير عائدا إلى كل ولي سواء أكان زوجا أم غير زوج، وهو اختيار ابن عطية، والزمخشري، والبقاعي(٢)، وهذا الذي ارتضاه الباحث.

وإذا كان الأصل أن يعود ضمير الخطاب إلى معين، لكون ضمير المخاطب أعرف الضمائر، فإنه قد يخرج الخطاب عن أصله فيخاطب من يلي:(٣):

١- غير المشاهد إذا كان مستحضرًا في القلب، كأنه نصب العين كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

٢- غير المعين إذا قصد تعميم الخطاب، أي توجيهه إلى كل من يتأتى خطابه، وهذا يستعمل على سبيل المجاز، وهذه الصيغة هي خطاب غير المعين لغرض إفادة الشمول، فخطاب غير المعين يفيد العموم، لأنه ليس له مرجع محدد بالسياق، بل يفهم منه أنه مساو خطاب الجمع، وفي هذا النوع يقول الأخضري في منظومته:(٤)

والأَصْلُ في المخاطَبِ التَّعْيينُ ... والتَّـرْكُ لِلشُّمولِ مُسْتَبينُ

ومما ورد منه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الإسراء:٢٣]، فمن المعلوم أن الخطاب ليس للنبي -ﷺ- لأنه يتيم الأب والأم، فتبين بذلك أن الخطاب يفييد العموم والشمول لكل مولود عنده أبواه؛ أحدهما أو كلاهما، وهذا دال على عظم حق الوالدين وإن كانا غير مؤمنين.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٦/٤٥٤-٤٥٥)، والبحر المحيط لأبي حيان(٢/٤٩٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٤/١٦٠-١٦٢).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/٣١٠)، والكشاف للزمخشري (١/٢٧٧)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي(٣/٣٢٣).

(٣) المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عونى (٢/٢٨).

(٤) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون للشيخ عبد الرحمن بن صغير الأخضري (ص: ٢٦).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة:٧]، فلم ير النبي -ﷺ- أو أحد من أهل عصر نزول القرآن هذا الهلاك، فتبين أن الخطاب لغير معين، بل يعم الخطاب كل من يصلح أن يخاطب ويرى؛ ليفتح الآفاق إلى تخيل هذا المشهد الفضيع، فيذهب به إلى كل ما يوحي بالفضاعة المتخيلة لهذا الخبر الحقيقي.

ولابن عاشور كلام جميل على هذه الآية وما شاكلها فقال: "﴿ فَتَرَى ﴾ خطاب لغير معين، أي: فيرى الرائي لو كان راء، وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة، تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة، ويتخيل في المقام سامعٌ حاضرٌ شاهدَ مهلكهم، أو شاهدهم بعده، وكلا المشاهدتين منتف في هذه الآية، ... وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى:٤٥]، وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان:٢٠]، وعلى دقة هذا الاستعمال أهمل المفسرون التعرض له عدا كلمة للبيضاوي"[١].

وقد يكون ضمير الخطاب عائدا إلى النبي -ﷺ- من غير تصريح به، لأن ذلك مفهوم ولا يعز فهمه على أحد، وقد يترك التصريح بالسائل لعدم الحاجة إلى ذكره، بل الحاجة بما يعقب ذلك من فائدة أو حكم، وهذا جاء كثيرا فيما صدّر بقوله عز وجلّ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/١٠٩).

ﵟٱلۡعَفۡوَۗﵞ [البقرة:٢١٩]، وقوله تعالى: ﵟيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَﵞ [المائدة:٤](١)، وقوله تعالى: ﵟيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖﵞ [الأعراف:١٨٧]، وقوله تعالى: ﵟيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖﵞ [الأنفال:١]، وقوله تعالى: ﵟيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ﵞ [النازعات:٤٢]، وغير ذلك من الآيات التي جمعت بين معين وغير معين، فالمسؤول معين، والسائل غير معين، فقد خوطب بها النبي -ﷺ- وهي من خطاب المعين، وقد كثرت شواهد ذلك في القرآن لأنه عليه -ﷺ- أنزل وبه خوطب وأوحي إليه.

وخلاصة ماسبق أنه تبين بعد هذا المبحث وما سبقه من مباحث أن الضمير بحاجة إلى مرجع يزيل إبهامه، وهذا المرجع لا بد أن يكون اسما، والأصل أن يطابقه ضميره في العدد والجنس ونحوه، وقد يخالفه لغرض بليغ لدى المتكلم البليغ، يكشف عن ذلك السياق بقرائنه، وقد يخلو النظم من الاسم الذي يرجع إليه الضمير؛ فيتكأ على فعل سبق الضمير؛ ليفسر مصدرا من مادته يصلح عود الضمير إليه، وقد يخلو النظم من الفعل المفسر والمرجع الظاهر ثقة بإدراك السامع، وعلى هذا مدار هذا المبحث، وبعض النحاة يسمي هذا الضمير بالغائب المعلوم، وغياب المعلوم في السياق أوجز من ذكره وأبلغ؛ لأن مرجع الضمير قد اشتهر أمره فأغنت شهرته عن ذكره، فعاد الضمير بذلك على ما لم يجر ذكره؛ كما في شواهد هذا المبحث، وقد تفتتح بعض السور الطويلة بذكر المرجع، ثم يأتي فصل طويل يتلوه الضمير الذي عاد إلى ما لم يجر له ذكر في آخر السورة. وقد يكون هذا الضمير مسبوقا بمؤكد أو أكثر، فينال التركيب بذلك قوة.

ولا يذكر مرجع الضمير لاعتبارات منها كما يلي:

١- اشتهار المرجع؛ لكثرة حديث الناس عنه، حيث أصبح حديث العصر كالقرآن، كما في أول آية القدر حيث قال: ﵟإِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِﵞ. وشواهده كثيرة.

---

(١) نزلت في عدي بن حاتم الطائي وزيد بن مهلهل الطائي (زيد الخير) رضي الله عنهما، ينظر: أسباب النزول للواحدي (ص: ١٩٢).

٢- دلالة المناسبة عليه كما في حديث "خُذُوهَا" السالف، أي: الحجابة.

٣- ما جرى مجرى المثل كما في الحديث: (مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا) يُرِيدُ؛ الْحَرَّتَيْنِ، والضمير للمدينة النبوية ولم تذكر.

وأغراض عدم ذكر المرجع كثيرة، منها تدريب العقل على التأمل والاستنباط بعد إعانته بالقرائن، ومنها علو شأن الذي لم يذكر؛ لاشتهاره فأغنى ذلك عن ذكره لأن الذهن لا ينصرف إلى غيره فجمع بين علو القدر والإيجاز؛ كما هو الحال في إضمار القرآن في مواضع كثيرة، ومن الأغراض ثقة المتكلم بإدراك المتلقي للمقصود فحقق بعدم الذكر الإيجاز، وقد يكسب هذا الضمير النص ثراء معنويا. وأحيانا لا يذكر المرجع لخفاء فيه فوافقه خفاؤه من النظم، فوافق المبنى المعنى، وهذا كما في الروح الخفية في أمرها وخروجها فناسب ذلك عدم ذكرها لفظا، في قوله: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾، ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾، ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾. وكذلك لما خفيت الفتوى الصائبة على داوود أخفى النظم ذكرها فقال: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا ﴾، وكذلك في عود الضمير على المورّث من غير ذكر له، كما في قوله: ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾، ومثل ذلك ترك ذكر الشمس لغيابها، فقال: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾، وقد يحذف المرجع لتصوير السرعة والمفاجأة كما في آية العاديات، وقد لا يذكر احتقارا له، ومن ذلك ذكر بعض أقوال المشركين من غير تصريح بهم، بل يذكر ضميرهم دون ذكر مرجعه، تحقيرا لهم ولأن فعلهم سيدل عليهم، وهذا كثير مثل: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴾، وقد يترك المرجع اكتفاء بذكر ما يلازمه كما في آية الأغلال، أو لقرينة الطباق كما في قوله: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ فالضمير بقوله: ﴿ عُمُرِهِۦٓ ﴾ عائد إلى غير المعمّر لدلالة المعمّر عليه، أو غير ذلك من القرائن.

وفي القرآن جاء الضمير عائدا إلى ما لم يجر ذكره كالقرآن الكريم، والأرض، والروح، والشمس، والإبل والعاديات، غيرها.

والباحث لا يرى ما ذهب إليه بعض الباحثين في مثل قوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أن فيه دلالة على حذف الفاعل المقدّر بالنفس أو الروح؛ لأن الفاعل إن لم يكن اسما ظاهرا كان ضميرا. ولذلك فالفاعل هنا ضمير تقديره (هي) عاد إلى غير مذكور في السياق، تقديره النفس أو الروح، والمتروك معلوم بالقرائن ولا يخفى على أحد أمره، وإذا كان ضمير الخطاب في الأغلب للمعين، فإنه قد جاءت في القرآن ضمائر خطاب لغير المعين لتفيد التعميم، أو لإحياء التخيل لدى من يصح خطابه، والله أعلم.

الخاتمة والتوصيات

الحمدلله على تيسيره، وأساله مزيدا من توفيقه، فقد منّ عليّ بإتمام هذ البحث الذي استغرق سنوات حتى اكتملت مادته، وأسأله أن يتقبله عملا خالصا لوجهه، وأن يغفر لي فيه زلتي، فكلام ربي أوسع مما أدركته الأفهام، وأحاطت به الأذهان، فقد قصرت عنه همم الحاذقين مع ما استخرجوه من نفائس ودرر، فقد أسر قلوب أهل الفصاحة في عصر نزوله، وفهموا بإدراكهم مكنونه، فهدى وأبهر، ولكن حسب الباحثين أنهم اجتهدوا في بيان عظمة هذا الكتاب سائلين الله العون والصواب.

ومن منهج الباحث قبل تمام بحثه أن ذيّل كل مبحث بأبرز النتائج التي مرّت في ذلك المبحث، وفي هذه الخاتمة سيورد الباحث أبرز النتائج التي ذكرت في ذيل كل مبحث، لتكون كخلاصة الخلاصة، ومنها:

١- التلازم الوثيق بين التركيب اللغوي والدلالة، فالتركيب ليس جامدا، بل ترتب ألفاظه حسب المراد من المعنى، فكل تركيب له روح معنوي، يختلف باختلاف ترتيب ألفاظه.

٢- أن مطابقة الضمير مرجعه هي المشتهرة في قواعد اللغة، لكن القرآن الكريم عدل عن المألوف إلى أسلوب لا يجهله اللسان العربي، فنظمه بأبلغ صورة وأبهى حلة، ليجمع بين إثارة المتلقي ولفته إلى المعنى المراد بافتنان سام.

٣- دلالات عدم المطابقة تكون بمخالفة الضمير مرجعه في الإفراد أو التثنية أو الجمع، وفي التأنيث والتذكير، وفي رجوع ضمائر العاقل إلى غير العاقل، أو العكس، وفي عود الضمير إلى غير الأقرب، وكذلك في التلوين بين الضمائر ذات الصيغة الواحدة.

٤- مرجع الضمير إما أن يكون مذكورا صراحة، أو فسره الفعل المذكور قبل الضمير، أو خلا السياق منه لأغراض منها:

أ-كون المتلقي على عهد بالمتكلّم عنه، فأغنت المناسبة عن التصريح به من باب الإيجاز.

ب-كون المرجع مشتهرا فأغنى اشتهاره عن التصريح به، وأصبح ضميره كالعلم عليه، وهذا يكثر في عود الضمير إلى القرآن الكريم كما في أول سورة القدر وغيره.

ج- وقد يترك المرجع إهمالا لصاحبه، كما في كثير من حديث القرآن عن أقوال المشركين وأفعالهم كما مرّ، أو سترا ؛كما في عدم التصريح بزوجتي النبي-ﷺ- المخاطبتين في سورة التحريم، رضي الله عنهما، ونحو ذلك.

د- وأغراض عدم ذكر المرجع كثيرة، منها تدريب العقل على التأمل والاستنباط بعد إعانته بالقرائن، وثقة المتكلم بإدراك المتلقي للمقصود فحقق بعدم ذكر الغائب المعلوم الإيجاز.

٥- وقد يكون حذف المرجع موافقا للمعنى، والمبنى يدل على المعنى، فالروح الخفية في أمرها وخروجها ناسبها عدم ذكرها لفظا، في قوله: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴾، ﴿ تَرۡجِعُونَهَآ ﴾، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾. وكذلك لما خفيت الفتوى الصائبة على داود أخفى النظم ذكرها فقال: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾، وكذلك في عود الضمير على المورّث من غير ذكر له، كما في قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾، ومثل ذلك ترك ذكر الشمس لغيابها، فقال: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾.

٦- الضمير العائد على فعل يفسر مصدرا؛ يكون هذا المصدر صالحا لعود الضمير إليه، ودليل تفسير الفعل للمصدر قوله تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ فالضمير في قوله تعالى: ﴿يَرۡضَهُ﴾ عائد إلى الشكر المفهوم من الفعل ﴿تَشۡكُرُواْ﴾، دل على ذلك قرينتان، الأولى: الضمير المذكر في ﴿يَرۡضَهُ﴾، والثانية: جاء الفعل في قوله: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ﴾ ثم صرح بالمصدر بعده بقوله: ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ تحذيرا منه. ولعل الاقتصار على فعل الشكر المفهوم منه مصدره هو كون النعم متجددة، والشكر يتجدد. وصرح بالمصدر ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ لئلا يلتبس بضمير الشكر، والله أعلم، وهذه الآية موضحة لما شابهها.

٧- بلاغة الضمير العائد إلى مصدر فسره الفعل في كونه يحيي روح التأمل؛ لتدبر كلام الله سبحانه، لحاجة الضمير إلى مرجع، والضمير يؤكد المصدر، أما المصدر الذي دلّ عليه الضمير وأنجبه الفعل فهو أيضا مؤكد للفعل في جميع سياقاته، كما أن الفعل يحمل دلالة التخيل سواء أكان بصورة حاضرة في الذهن ومباشرة أم ليست مباشرة، كما أنه يدل على التجدد والحدث، أما الاسم الذي يمثله المصدر هنا فدلالته على الثبوت والدوام غير خافية، وتلك بلاغة الإيجاز، التي اجتمعت في هذا الأسلوب.

٨- أن من صور التلوين بين الضمير والضمير الاتحاد في الصيغة والاختلاف في العدد، وهذا لايندرج تحت تعريف الالتفات المشهور؛ لاشتراطه الاختلاف في الصيغتين، أما هنا فينتقل الضمير من صيغة المتكلم الواحد إلى ما جاء على صيغة ضمير المتكلمين أو الفاعلين في الظاهر وهو للواحد سبحانه، أي أنه ضمير لفظه للجمع ومعناه هنا للواحد المعظم نفسه ، ومرجع هذا في أغلب القرآن هو لفظ الجلالة، أو اسم من أسمائه سبحانه، وهكذا في الصيغ الأخرى التي استعرضها الباحث في بحثه.

٩- يأتي ضمير المتكلم الواحد بعد ضمير المعظم نفسه، ومرجعهما إلى الله سبحانه في المعنى أو في اللفظ؛ لغرض التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وليفَسر ما جاء على صورة ضمير الفاعلين أو المتكلمين بأنه لله الواحد المعظم نفسه وحده؛ لعظمته وجبروته، ويأتي هذا في الأفعال العظيمة والأحداث الجسيمة كأحداث يوم القيامة، ومن أمثلة هذا التلوين قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي﴾ و﴿هُدَايَ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْنَا﴾. ومثلها: ﴿بَيْتِيَ﴾ و﴿لَّا تُشْرِكْ بِي﴾ بعد قوله: ﴿بَوَّأْنَا﴾. ومثلها إضافة العباد إلى ياء المتكلم في قوله في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ بعد قوله:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، كقوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾بعد قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾، كما ذكر ذلك من قبل.

١٠- من أغراض المخالفة في الضمير التفسير سواء أكان في موضع واحد كما سبق، أم في مواضع مختلفة مثل: ﴿رُّوحِي﴾ و﴿رُّوحِنَا﴾، وكذلك ﴿عِبَادِي﴾ و﴿عِبَادِنَا﴾ ومثل ذلك كثير. وتبين أن ياء المتكلم في: مثل قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ

مَرۡجِعُكُمۡ﴾ جاءت في ثلاث مواضع كلها تحتمل معنى الرفق، أما إذا كانت في سياق التهديد والوعيد، فإنها تحتمل معنى القوة والجبروت فتأتي ناء المعظم نفسه، في مثل قوله: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾.

١١- إذا أمن اللبس جاء ضمير المعظم نفسه فيما يخص العبادة، فإذا كان يعدل عن ناء العظمة منعا للالتباس المفضي إلى الشرك، فإن لفظة (عبدنا) مثلا جاءت في القرآن الكريم في خمسة مواضع، جميعها في سياق الحديث عن نبي، أما لفظة (عبادنا) فقد وردت إحدى عشر مرة؛ منها ثمان مرات في سياق الحديث عن نبي، وواحدة في قصة العبد الصالح الخضر، أما مع غير الأنبياء فقد ذكرت مرتين في قوله تعالى:﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣]، وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، ففي الآية الأولى يظهر أن هؤلاء العباد قد دخلوا الجنة وتجاوزوا حياة التكليف فلا خطر حينئذ، أما الآية الأخرى فالعباد مصطفون لا خطر عليهم، ولا يلتبس عليهم الإسناد بإشراك لأن الأنبياء والمصطفين من العباد هم أعرف الناس بربهم جل شأنه وأخشاهم له، أما مع غير أولئك فتضاف إلى الياء.

١٢- واستنتج الباحث من قصة هبوط آدم وزوجه إسناد فعل القول إلى صورة ناء الفاعلين التي لفظها للجمع ومعناها للواحد، أو إلى ضمير المتكلم الواحد، فجاء كل واحد مناسب في موضعه، فجاء قوله: ﴿ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ [البقرة:٣٦]، وقوله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ [البقرة:٣٨]. في المقام الذي قبل طلب التوبة فناسبه إسناد الفعل إلى ناء المعظم نفسه، إما لإظهار القوة حيث العظمة والجبروت والأمر النافذ، أو مشاكلة لما سبق من إسناد، بينما يأتي التلوين بالانتقال من ضمير الجماعة إلى ضمير الواحد في سورتي الأعراف، وطه، فقال:﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾ [الأعراف:٢٤]، وكذلك في سورة طه قال: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا﴾ [طه:١٢٣]، وذلك لأن في إسناد الفعل إلى ضمير الواحد معنى الرفق واللطف لمناسبته لمقام طلب التوبة التي سبقت هذا الإسناد

١٣- ويأتي الضمير المفرد عائدا إلى المتعاطفين أو المتعاطفات إذا كان لفظ الله جل شأنه هو المعطوف عليه؛ للإفراد والتوحيد، وهذا يكثر عندما يعطف لفظ النبي -ﷺ- على لفظ الجلالة الله جل شأنه، فيفرد الضمير ليعود إلى الله، مع إرادة النبي، أو ليعود إلى أحدهما بدلالة القرينة، وفي الحديث الصحيح جاء الإنكار على من قال: "وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى"(١)، ومثاله في المتعاطفات إفراد ضمير اسم الفاعل في قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨].

١٤- وقد يكون ضمير الإفراد صالحا عوده إلى أكثر من مرجع، فتزداد بذلك الكثافة الدلالية، من ذلك قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣]، فالكتاب هو الأقرب، وقد سبق بذكر النبيين، ثم لفظ الجلالة الله، والله هو الحاكم. ولكل واحد ما يقويه من الأدلة التي ذكرت في موضع الشاهد من البحث.

١٥- ويعود ضمير الإفراد إلى الجنس وهذا كثير، وإلى الشيئين المتلازمين، أو اللذين أصبحا كشيء واحد لامتزاجهما، وهذا ظاهر في غير شاهد، ومنه عوده إلى الشراب والطعام في قوله: ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾، وإفراد ضمير الجنتين لحظة الكمال وبعد الدمار لتشابكهما في الحالين، وذلك في قوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾، ولم تذكر التثنية إلا في صدر القصة، أو إلى الفعل الذي لا يكون إلا من واحد كالبشارة، فهي لأول من بشّر وليس للثاني فقال الله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس:٨٧] كما مرّ من قبل.

١٦- وعاد الضمير مفردا مذكرا على غير الأقرب، فيظن أنه بتذكيره خالف المرجع لعدم مجيئه على التأنيث ليناسب الأقرب، لكن المخالفة في الظاهر جاءت لتوسع

(١) ينظر: الحديث (ص:٧٤).

دائرة التأمل، كيلا يعود الضمير إلى القريب العجيب بل يعود إلى ما هو أعجب، وهذا جاء في عود الضمير مذكرا إلى الخَضِر بدلا من عوده إلى النخيل والأعناب والزيتون والرمان في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٩]، فعاد الضمير إلى أصل الجميع، لكونه الأعجب والله أعلم، وورد مثل هذا في أكثر من موضع، كتذكير الهاء في قوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ [النحل:٦٦]، وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧].

١٧- ويعود الضمير مفردا تعظيما لمقام من عاد الضمير إليه، وهذا مشتهر كعوده إلى الأمير مع أن معه حاشيته، ومنه في القرآن قوله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥]، أو لتحقير من ينتظر التعظيم كقوله: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾، أو لأن المراد التنبيه إليه في أحد المرجعين ألصق، فعاد الضمير إليه كقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ ﴾ فالضمير للقمر؛ فبالأهلة تعرف بداية الأشهر، وبالأشهر تعرف السنين، أما الشمس فيعرف بها اليوم وأوقاته، ومثله إسناد فعل الشقاء لآدم لكون زوجته تابعة له، ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]، وقد يتبع هذه الأغراض الإيجاز، أو الاكتفاء، أو الفاصلة.

١٨- وقد يعدل عن ضمير الإفراد الدال على الجنس، إلى ضمير الجمع لغرض الإحصاء والإحاطة، فيعود إلى المعنى بدلا من اللفظ.

١٩- أما ضمير الاثنين فيعود إلى الواحد للملابسة ولاشتراكهما بالنفع دون الفعل، كقوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وقد يسند القول لضمير الاثنين وهو لأحدهما، وذلك

لأن الآخر مُقرّ بما قال الأول، وشريك له بالنتيجة، كقوله: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾، ومثله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعي موسى عليه السلام والمؤمّن هارون، وفي ذكر موسى بعد التثنية في قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أغراض منها أن تعيين المسؤول لاختيار غير الأفصح، أو لكون له عليه نعمة، فأظهر الله الحجة لموسى، وغير ذلك مما مرّ. وجرت العادة على خطاب الاثنين والمقصود واحد كقوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، وقيل التثنية لتوكيد الفعل، فهي بمعنى ألق ألق، وغير ذلك من أمثلة وتأويلات.

٢٠- يعود ضمير الاثنين إلى موسى وهارون عليهما السلام عندما يراد تكليفهم، فالتكليف يحتاج التعيين، كقوله:﴿ فَأْتِيَا﴾ بعد ﴿مَعَكُم﴾.

٢١- وقد يضاف إلى ضمير الاثنين ما هو للجماعة،كقوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾، وقوله عن حفصة وعائشة-رضي الله عنهما-:﴿قُلُوبُكُمَا﴾، كما أضيف السوءات إلى ضمير الاثنين فقال: ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وهما لآدم وحواء، وكثر في هذه المواضع الثلاثة التأويل، ومنها أن إضافة المثنى إلى ضمير المثنى تسبب ثقلا فعدل إلى الجمع للتخفيف، ومنها أن المجموع ليس في الإنسان منه إلا واحد فامتنع اللبس بجمعه، وأصبح الجمع كالإفراد، وقيل التثنية جمع. أما الباحث فاستنتج أن جمع الأيدي فيه دلالة على أن من فقد يمينه فكأنما فقد كلتا يديه لأهميتها، ولأن من عاد إلى السرقة فسيكون عرضة لقطع الأخرى بلا رأفة، وفهم من استعمال اسم الفاعل الدلالة على الثبوت والاستمرار، فلما كثرت سرقاته سمي سارقا، ولم يستعمل الفعل: سرق، أونحوه، فكان في الجمع ردع وزجر. أما القلوب فجمعت لتقلبها، أو تعظيما من الله لزوجتي رسول الله-ﷺ- ورضي عنهما، فجعل لهما ما لا يكون إلا للجماعة، لاسيما أن الجمع جاء في سياق التوبة. وجمع السوءات لبيان عظم العقوبة وأنه لاشيء يسترها سوى التوبة.

٢٢- وتبين بشواهد مستفيضة أنه كثيرا ما ترد السماوات معطوفة عليها الأرض ويعود عليهما ضمير الاثنين، والسماوات جمع في لفظها ومعناها، ولعل ذلك يأتي إذا أريد التضييق والإحاطة بمن جاء السياق في شأنهم، كما يدل على أن السماوات

والأرض ما هما إلا كتلتان تحت تصرف الله. على خلاف ضمير الإناث الذي يوحي بالاتساع والكثرة.

٢٣- كما تبين أن صيغة ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في[المائدة:١٢٠]. ووردت ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ مرتين في [الإسراء:٤٤]، وفي [المؤمنون:٧١]، ولم تأت مَن الموصولة إذا عاد ضمير الاثنين إلى السماوات والأرض؛ بل تأتي ما الموصولة على نحو ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ وذلك في مواطن كثيرة. إما لأن مَا الموصولة تشمل جنس العقلاء وغير العقلاء، أو لأن غير العقلاء أكثر.

ولم تعطف السماء المفردة على الأرض في حال عود ضمير التثنية إليهما إلا في موضوعين في [الأنبياء:١٦] و[ص:٢٧] ، فكان الإفراد في هذين الموضعين أبلغ من الجمع لاتساع معناه بدلالته على الجنس، وإذا أريد غير الجنس أتت القرينة كالوصف في قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ [الصافات:٦]، والله أعلم.

٢٤- ويأتي ضمير المتكلم جمعا إذا كان المتحدث عنه زعيما، وكذلك يأتي التعظيم في ضمير خطابهم، كما جمعت ملكة سبأ ضمير سليمان بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾، بعد قولها: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾، أو ليعود إلى أفراد الجنس لتعميم التكليف كقوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾ بعد قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾، وقد يعود ضمير الجماعة إلى النبي ﷺ للتعظيم، أو لإرادة أمته معه، أو في موطن نهي فلم يخاطب النبي مفردا تقدير وإجلالا له عن المنهي عنه كما في قوله في سورة هود: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ ﴾ بعد قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ ﴾ .

٢٥- ويستنتج الباحث أنه عند الحديث عن الأجل فإن الضمير يعود إلى الأمة مفردا ثم يتحول إلى صيغة الجماعة، كما في قوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٣]، والإفراد فيه إشارة إلى انتهاء أجل الأمة بانتهاء آخر رجل

منها، فلا تفاوت حينئذ، أما ضمير الجمع فيعود على الأفراد لما بينهم من اختلاف في آجالهم، أما إذا أضيفت كلّ إلى أمة كما في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤]، فإنه لا يعود الضمير إلا بصيغة الجمع، لما بين الأمم من تفاوت في آجالها.

٢٦- وأتى ضمير الجماعة عائدا إلى الواحد كما في قول إبراهيم: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ فهو عائد إلى إسماعيل بدلالة قوله: ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ وفيها إشارة إلى زواج إسماعيل وإنجابه الذرية، ويشمل هاجر تغليبا، أو على سبيل المجاز المرسل واعتبار ما سيكون، والله أعلم. وقد يأتي للسخرية كقول إبراهيم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٧- أما كلّ فتارة يعود الضمير إلى لفظها فيفرد، وتارة إلى معناها فيجمع، وأن مواضع عوده على لفظها مفردا لا يصلح أن يستبدل به عوده على المعنى ليجمع، وكذلك العكس.

٢٨- أن لفظة: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو ﴿خَٰلِدُونَ﴾ جاءت جمعا ثمان وستين مرة، كلها بعد حقوق الله على خلقه، فجاءت في مواطن الإيمان والكفر، وما تفرع عنهما من اعتقاد وعمل. ولم يخرج عن ذلك إلا آية [آل عمران:١٣٦] فقد جاء الجمع فيها لتعدد الصفات التي قد لا تجتمع في واحد.

أما لفظة ﴿خَٰلِدًا﴾ فقد جاءت في ثلاثة مواطن كلها في حقوق البشر، فذكرت في النساء في موضعين؛ بعد تقسيم الإرث والتحذير من الاعتداء، و بعد بيان جزاء من قتل مؤمنا متعمدا، وذكرت في سورة التوبة بعد عرض أذية المنافقين للنبي ﷺ، ولما كان هذا الاعتداء سببه في الأغلب القوة أو كثرة الأعوان، كان جزاؤه أن تركه الله في النار مخلدا، مستوحشا بانفراده، فلا معين ولا نصير، فكان الجزاء من جنس العمل.

٢٩- وأن ضمير الجمع يعود إلى الاثنين للتعظيم، ولكثرة منافعهما كقوله في الشمس والقمر: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾، ويعود للإيناس والتعظيم كقول الله لموسى وهارون ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]، ولأن من كان الله معه فهو المنتصر، ومثله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾، ويأتي لغرض التعميم ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، أو لإرادة أفراد الجنس كقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾.

٣٠- وإذا كان ضمير العاقل قد عاد إلى غير العاقل في كلام العرب من باب المجاز على سبيل الإدعاء والتخييل في كلام العرب، فأحيا الجمادات وخاطبها بخطاب العقلاء، أو التعظيم استجابة لوجداهم أو لعقائدهم، فإن القرآن جاء بذلك على وجه الحقيقة لا الخيال تعظيما، فخاطب بعض الجمادات والحيوانات وهي واعية عاقلة لخطاب ربها الذي أقدرها على ذلك بطريقة تخفى على البشر، وذلك كخطابة للنحلة، والطير والجبال، والسماوات والأرض، والنار، فكل ذلك على الحقيقة، فأجاز ذلك مجيء ضمير النسوة، والضمير هنّ في مثل: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ لكون المخاطبات عاقلات مراد المخاطِب، ووراء هذا تشنيع بالعاقلين من البشر الذي أساءوا إلى ربهم. فكيف ينكر ذلك وسليمان علم منطق الطير وفهم خطاب النملة، وحن الجذع لنبينا ﷺ ، أما المجاز فما جاء في رؤيا الملك وتعبير يوسف عليه السلام.

٣١- ويعود ضمير العاقل إلى الأصنام على لسان النبي المحاجّ قومه؛ لينفذ من خلاله إلى التشنيع والتقبيح والسخرية، وبيان حقيقتها في عدم دفع الضر عنها، كما جاء ذلك على لسان إبراهيم عندما كسر الأصنام وترك كبيرها.

٣٢- ويعود ضمير العقلاء إلى غير عاقل لكونه لم يأت على حقيقته، بل هو رمز لعاقل، كرؤيا يوسف؛ فالكواكب والشمس والقمر هم أخوته وأبواه؛ فلذلك عاد الضمير عاقلا لغرض التفسير والتعبير، ولكون السجود من أفعال العقلاء، والله أعلم.

٣٣- ويعود ضمير النسوة إلى غير العاقل للتعظيم كقوله في الخيل بعد أن أقسم بها: ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ و﴿ فَوَسَطْنَ ﴾، ولما أشغلت سليمان قال: ﴿ تَوَارَتْ ﴾ و﴿ رُدُّوهَا ﴾، والأمثلة على ذلك كثيرة عرضت في البحث، وتبين أن ضمير النسوة يأتي على الحقيقة في تسبيح المخلوقات ونحو ذلك، وعلى الحقيقة في تخاطب عقلاء المخلوقين فيما بينهم، ويأتي للتعظيم كما في تعظيم الخيل السابق، وعلى سبيل المجاز كما في رؤيا الملك وتعبير يوسف، وفي كثير من كلام العرب، وعلى المشاكلة كما في حديث: "وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ".

٣٤- وكثيرا ما تسهم مخالفة الصفة المشتقة لموصوفها بالاتساع الدلالي، فاتساع المكان مثلا؛ برز من تذكير الصفة المشتقة في قوله: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ في ثلاث آيات، وفي موضع قال: ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأن هذا التذكير موافق لتذكير المكان الواسع، والقرينة بعده قوله: ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾.

٣٥- ويأتي الاقتطاع لتصوير السرعة، فيظهر المؤنث بصورة مذكر كما في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ومثله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾.

٣٦- أن ضمير الشأن لا يأتي إلا لذي بال، ومن أغراضه التفسير بعد الإبهام؛ لأن النفوس تتطلع وتتشوق إلى فَهْم ما أُبهَم، وقد يكون ضمير الشأن جوابا لسؤال مقدّر تقديره؛ ما الشأن؟ فيقال: هو كذا وكذا. فلذلك لا يأتي إلا في سياق الفخامة؛ لتكون الجملة المفسرة له عظيمة، فتستقر في الذهن، فجاء هذا التركيب للاعتناء بالخبر المفسِّر، ومن أغراضه اللفظية أنه يمكّن من دخول أنّ وإنّ على الجملة الفعلية.

٣٧- أن ضمير العاقل يعود إلى غير العاقل ويترتب عليه في أغلب مواضعه المجاز المرسل، أوالمجاز العقلي.

٣٨- أن هذه الدراسة أكدت أن عود ضمير المؤنث إلى المذكر وقع كثيرا؛ لأنه رد فرع إلى أصل، أما عود ضمير المذكر على المؤنث فأمثلته قليلة جدا، وهو تأكيد

لقول سيبويه الذي ذكرته في صدر مبحث عود ضمير المؤنث على المذكر، وقول ابن جني الذي ذكرته في أول مبحث عود ضمير المذكر على المؤنث.

التوصيات

فإذا كان هذا البحث قد تناول الضمير ومرجعه، وتناول التلوين بين الضمائر، والذي هو قريب من الالتفات ولا يستوعبه تعريف الالتفات لدى الجمهور، لكونهم يشترطون الانتقال من صيغة إلى أخرى، أما التلوين هنا فهو بين الضمائر ذات الصيغة الواحدة، وبين الضمير ومرجعه.

وعلى ذلك ومن خلال رحلة البحث تبين للباحث مواضيع تستحق العناية من الباحثين لتوفر شواهدها:

١- انفراد بعض السور بكلمة أو كلمات لا توجد إلا بها، كالنمارق والزرابي في الغاشية، والعبقري في الرحمن، والزمر في الزمر.

٢- دراسة ضمير المعظم نفسه بالقرآن الكريم.

٣- دراسة بيانية توازن بين ضمير المتكلم وضمير المعظم نفسه في القرآن الكريم.

٤- خطاب غير المعين دراسة بلاغية في القرآن والسنة وكلام العرب.

وأخيرا أسأل الله أن يكون قد ألهمني الصواب، وعصمني من الزلل، وقبل اجتهادي وغفر لي، وأستغفر الله من كل هفوة أو خطأ، وأن ينفع بعملي الإسلام والمسلمين، وأن يدحر به أعداء الوحي والدين، وأن يجزي والديّ وكاتبه والمشرف عليه والمناقش، وكل من له فيه سهم خير الجزاء. ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود:٨٨]، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **الإبانة في اللغة العربية**، لأبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي، تحقيق: د. عبد الكريم خليفة، د. نصرت عبد الرحمن، د. صلاح جرار، د. محمد حسن عواد، د. جاسر أبي صفية، وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- **التصوير البياني**، د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م.
- **الإتقان في علوم القرآن**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ– ١٩٧٤ م.
- **أحكام القرآن**، لابن العربي محمد عبد الله الأندلسي، دار الكتب العربيةو بيروت – لبنان، راجعه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، ط٣، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م.
- **أحكام القران**، لأحمد بن علي الجصاص، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط ١٤٠٥، ٤/٣٤٨.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي — بيروت.
- **أسباب النزول**، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح — الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
- **الاستيعاب في بيان الأسباب**، لسليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ.
- **أسرار البلاغة**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ط، د.ت.
- **أسرار التكرار في القرآن**، لأبي القاسم برهان الدين الكرماني، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، تعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، د.ط، د.ت.

- **الأسلوبية والأسلوب**، د. عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، ط٣، د.ت.
- **الأسلوبية النصية من خلال مفهوم الانزياح**، د. جمال حضري، لا يوجد تأريخ نشر، تم الرجوع إليه: ١٤٣٧/٦/١٢هـ، http://uqu.edu.sa/page/ar/146514.
- **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر – القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢م.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
- **أصول نشأة الإنسان من معجزات القرآن(٣/٣)** ، د. محمد بن إبراهيم دودح، مؤسسة الإسلام اليوم، ٢٠١٦م، لايوجد تأريخ نشرها، وتم النقل منها ١٤٣٧/٥/١٤هـ https://www.islamtoday.net/bohooth/services/printart-86-3450.htm
- **الأضداد**، لأبي بكر الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت– لبنان، د.ط، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع بيروت – لبنان، د.ط، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
- **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، لعائشة محمد علي عبد الرحمن، بنت الشاطئ، دارا لمعارف، ط٣، د.ت.
- **الإعجاز والإيجاز**، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، مكتبة القرآن - القاهرة، د.ط، د.ت.
- **إعراب القرآن**، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، قدمت له ووثقت نصوصه: الدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد، مكان النشر غير معروف، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، لمحيي الدين الدرويش، اليمامة – دمشق – بيروت، ودار ابن كثير، دمشق –بيروت، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص – سورية، ط٦، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

- **إعراب القران**، لأبي جعفر النحاس، (المتوفى: ٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
- **إعراب القران**، علي بن الحسين بن علي الباقولي، (المتوفى: نحو ٥٤٣هـ) تحقيق: إبراهيم الإبياري، دارالكتاب المصري - القاهرة ودارالكتب اللبنانية - بيروت - القاهرة / بيروت، ط٤، ١٤٢٠هـ.
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، (المتوفى: ١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين، ط١٥، أيار / مايو ٢٠٠٢ م.
- **الإكليل في المتشابه والتأويل**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد الشيمي شحاته، دار الإيمان ، الإسكندرية- مصر، د.ط، د.ت.
- **أمالي ابن الشجري**، (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩١م.
- **الانتصار للقرآن**، لأبي بكر الباقلاني، (المتوفى: ٤٠٣هـ) تحقيق:د. محمد عصام القضاة، دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم — بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١.
- **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين**، لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبي البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ) المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- **أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل**، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية — الرياض، ط١، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١م.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** ، لجمال الدين عبد الله الأنصاري، (المتوفى: ٧٦١هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.

- **الإيضاح في علوم البلاغة**، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني، (المتوفى: ٧٣٩هـ) تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط٣، د.ت.
- **البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي، (المتوفى: ٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ .
- **البرهان في علوم القرآن**، أبي عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، (المتوفى: ٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧ م.
- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، د.ط، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – لبنان / صيدا، د.ط، د.ت.
- **البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها**، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، (المتوفى: ١٤٢٥هـ) دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت، ط١، ١٤١٦ – ١٩٩٦.
- **البلاغة والأسلوبية**، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٤م.
- **البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث**، لأبي البركات، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله،كمال الدين الأنباري، (المتوفى: ٥٧٧هـ) تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي - القاهرة – مصر، ط٢، ١٤١٧ هـ _ ١٩٩٦م.
- **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- **بنية اللغة الشعرية**، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي، ومحمد العمري، دار توبقال – المغرب، ط١، ١٩٨٦م.
- **البيان والتبيين**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (المتوفى: ٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، ١٤٢٣هـ.

- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، (المتوفى: ١٢٠٥هـ) تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، د.ط، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- **تأملات في سورة إبراهيم تفسير بلاغي تطبيقي**، د. عادل أحمد صابر الرُّويني، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم-وحدة البحوث والدراسات، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م
- **تأملات في سورة آل عمران**، د.حسن محمد باجودة، النادي الأدبي الثقافي-جدة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- **تأملات في سورة الرعد**، د. حسن محمد باجوده، دار الاعتصام، د.ط، د.ت.
- **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، د.ط، د.ت.
- **التبيان في إعراب القرآن**، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى : ٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، لابن أبي الإصبع العدواني، (المتوفى: ٦٥٤هـ) تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- **التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل**، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق:د. حسن هنداوي، دار القلم دمشق، ط١. د.ت.
- **تصحيح الفصيح وشرحه**، لأبي محمد، عبد الله بن جعفر بن محمد بن دُرُسْتَوَيْه، (المتوفى: ٣٤٧هـ) تحقيق: د. محمد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، د.ط، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- **التطور النحوي للغة العربية**، للمستشرق الألماني برجشتراسر، أخرجه وصححه وعلق عليه: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- **التعبير القرآني**، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط٦، ١٤٣٠-٢٠٠٩.

- **التعليقة على كتاب سيبويه**، للحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، (المتوفى: ٣٧٧هـ) تحقيق: د. عوض بن حمد القوزي، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- **تفسير الإمام ابن عرفة**، أبي عبدالله محمد بن محمد ابن عرفة، تحقيق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، ط١، ١٩٨٦م.

- **التفسير البياني للقرآن الكريم**، لعائشة بنت عبد الرحمن؛ بنت الشاطيء، (المتوفى: ١٤١٩هـ) دار المعارف ، ط٦، د.ت.

- **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (المتوفى : ٧٧٤هـ) دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

- **التفسير القيم**، لابن قيم الجوزية، (المتوفى: ٧٥١هـ) كتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ.

- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، لشيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

- **تقريب التهذيب**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد – سوريا، ط١، ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.

- **تلخيص البيان فى مجازات القرآن**، للشريف الرضى، دار الأضواء. بيروت، د.ط، د.ت.

- **تلوين الخطاب في القرآن الكريم**، د.طه رضوان طه، دار الصحابة للتراث–طنطا، ط١، ٢٠٠٧م.

- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف – مصر، ط٣، د.ت.

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر الطبري، (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م.

- **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور**، لابن الأثير الكاتب، (المتوفى: ٦٣٧هـ)تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي د.ط، ١٣٧٥هـ.

- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

- **الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون**، الشيخ: عبد الرحمن بن صغير الأخضري، تحقيق: محمد عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي، د.ط، د.ت.

- **الجيم**،لأبي عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني، (المتوفى: ٢٠٦هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، راجعه: محمد خلف أحمد، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة، د.ط، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤م.

- **حاشية الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، المسماه الانتصاف من الإنصاف**، لمحمد محي الدين عبد الحميد، (مطبعة السعادة – مصر) ط٤، ١٣٨٠- ١٩٦١م.

- **حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين للتفتازاني**، وهو ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ط، د.ت.

- **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، (المتوفى: ١٠٦٩هـ) دار صادر – بيروت، د.ط، د.ت.

- **حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك**، لمحمد بن علي الصبان، (المتوفى: ١٢٠٦هـ) دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط٣، ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م.

- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، لعبد العظيم إبراهيم المعطني، (المتوفى: ١٤٢٩هـ) مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣-١٩٩٢م.

- **خصائص النظم القرآني في سورة الذاريات دراسة بلاغية**، د. أحمد سعد ناجي، دراسة منشورة في مجلة كلية اللغة العربية، كلية اللغة العربية- إيتاي البارود، جامعة الأزهر، العدد ٢٢، الجزء الأول، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

- **حجة القراءات**، لعبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، د.ط، د.ت.

- **الحجة في القراءات السبع**، للحسين بن أحمد بن خالويه، (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق – بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

- **الحجة للقراء السبعة**، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، (المتوفى: ٣٧٧هـ) تحقيق: بدر الدين قهوجي و بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
- **الحماسة البصرية**، لأبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، (المتوفى: ٦٥٩هـ) تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب – بيروت، د.ط، د.ت.
- **الحيوان**، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، (المتوفى: ٢٥٥هـ) دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.
- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، لعبد القادر بن عمر البغدادي، (المتوفى: ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
- **خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، لمحمد محمد أبي موسى، مكتبة وهبة، ط٤ ،١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- **الخصائص**، لابن جني، (المتوفى: ٣٩٢هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط٤،د.ت.
- **الدر المصون في علوم االكتاب المكنون**، لشهاب الدين، أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم ، دمشق، د.ط، د.ت.
- **دراسات في علوم القرآن الكريم**، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط١٤، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- **دراسات في فقه اللغة**، د. صبحي إبراهيم الصالح، دار العلم للملايين، ط١، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- **درة الغواص في أوهام الخواص**، للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبي محمد الحريري البصري، (المتوفى: ٥١٦هـ) تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- **دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسُّور**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، (المتوفى: ٤٧١هـ) تحقيق: وليد بِن أحمد بن صالح الحُسَيْن، وإياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، بريطانيا ،ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

- **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، توزيع : مكتبة الخراز – جدة، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- **ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس**، شرح وتعليق: الدكتور م. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، د.ط، د.ت.
- **ديوان البحتري**، شرح وتعليق: د.محمد التونجي، دار الكتاب العربي، -بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- **ديوان الحارث بن حلزة اليشكري**، تحقيق: مروان العطية، دار الإمام النووي – دمشق، دار الهجرة – دمشق، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- **ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت**، دراسه وتبويب: محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- **ديوان الخنساء**، اعتنى به وشرحه: حمدُو طمّاس، دار المعرفة – بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- **ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني**، حققه: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، ص ٣٠٨.
- **ديوان الفرزدق**، شرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- **ديوان النابغة الذبياني**، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط٣، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- **ديوان الهذليين**، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- **ديوان امريء القيس**، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- **ديوان تأبط شرا وأخباره**، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق: د. وليد عرفات، دار صادر بيروت، د.ط، ٢٠٠٦م.
- **ديوان حميد بن ثور الهلالي**، صنعة الأستاذ: عبدالعزيز الميمني,مطبعة دار الكتب المصرية، مصر-القاهرة، ط١، ١٣٧١هـ-١٩٥١م.
- **ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- **ديوان شعر المُثقِّب العبدي**، تحقيق وتعليق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية معهد المخطوطات العربية،د.ط، ١٣٩١هـ-١٩٧١م .
- **ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره**، صنعه: يحي بن مُدرك الطائي، رواية: هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق: د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني — مصر، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩٠م،
- **ديوان كعب بن زهير**، صنعة الإمام أبي سعيد السكري، شرح ودراسة د. مفيد قميحة، دار الشوّاف للطباعة والنشر — الرياض، ودار المطبوعات الحديثة — جدة، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، اعتنى به: حمدو طمّاس، . دار المعرفة، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- **رجال صحيح مسلم**، لأحمد بن علي بن منجوبة، ت:٤٢٨، تحقيق: عبدالله الليثي، دار المعرفة- بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية — بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
- **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، (المتوفى: ٥٨١هـ) تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- **الزمر – محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان**، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
- **سر الفصاحة**، لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العربية، ط١، ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م.

- **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، د.ط، ١٢٨٥ هـ.

- **سنن ابن ماجة**، لمحمد بن يزيد أبي عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر – بيروت، د.ط، د.ت.

- **السنن الكبرى**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- **سير أعلام النبلاء**، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين أبي عبدالله الذهبي، دار الحديث – القاهرة، د.ط، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- **السيرة النبوية**، لأبي محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

- **شرح أبيات سيبويه**، لأبي محمد السيرافي يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان، تحقيق: الدكتور محمد علي الريح هاشم، راجعه: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، د.ط، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

- **شرح التصريح على التوضيح**، لخالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

- **شرح الرضي على الكافية**، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م.

- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٥، د.ت.

- **شرح القصائِد العشر**، اللإمام الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، إدارة الطباعة المنيرية، ط٢، دت.

- **شرح الكافية الشافية**، لمحمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة، ط١، د.ت.

- **شرح المعلقات التسع**، لأبي عمرو الشيباني، تحقيق وشرح: عبد المجيد همّو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان،ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

- **شرح المعلقات السبع**، حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

- **شرح المفصل للزمخشري**، ابن يعيش، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

- **شرح تسهيل الفوائد**، ابن مالك، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، و د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

- **شرح ديوان عنترة**، للخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه:مجيد طرَاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر –بيروت ، لبنان، د.ط، د.ت.

- **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ١٤٢٣هـ.

- **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، أحمد بن فارس القزويني، تحقيق: محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت. ط٤، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

- **صحيح البخاري**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (ت٢٥٦) دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت٢٦١) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ط، د.ت.

- **الصناعتين**، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، د.ط، ١٤١٩ هـ.

- **طبقات الشافعية الكبرى**، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ.
- **طبقات الشافعية**، لأبي بكر بن أحمد بن محمد، تقي الدين بن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، دار النشر: عالم الكتب – بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- **الطبقات الكبرى**، لابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- **طبقات النحويين واللغويين**، لمحمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: ٣٧٩هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢، د.ت.
- **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العنصرية – بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ.
- **ضمير الشأن والفصل دراسة ومقاربة لسانية**، أ.د. فوزي حسن الشايب، منشورة في مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية السابعة والعشرون، جامعة الكويت، ، عدد الرسالة (٢٤٩)، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦.
- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، بهاء الدين السبكي ، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- **علم البديع**، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د.ت، دط.
- **علم البيان**، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٢م.
- **علم المعاني**، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط: ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

- **على طريق التفسير البياني**، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة الشارقة، د.ط، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- **على طريق التفسير البياني**، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة الشارقة، د.ط، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- **غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول**، د. محمد إبراهيم شادي، دار اليقين-المنصورة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

- **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، لأبي القاسم برهان الدين الكرماني، (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن — بيروت.

- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، النيسابوري، تحقيق: الشيخ: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية — بيروت، ط١، د.ت.

- **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب**، محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة — سوريا، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

- **غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة**، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب**، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطِّيبِيّ. تحقيق: د. عمر حسن القِيّام، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي- الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

- **فقه اللغة وسر العربية** ، أبو منصور الثعالبي، تحيق: عبدالرزاق مهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

- **الفلك الدائر على المثل السائر**، ابن أبي الحديد، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة. القاهرة، د.ط، د.ت.

- **الفهرست**، لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفى: ٤٣٨هـ)، تحقيق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت — لبنان، ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ مـ.

- **الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب**، نور الدين عبد الرحمن الجامي، دراسة وتحقيق: أسامة طه الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤو الدينية، بغداد، د.ط، ١٩٨٣هـ.
- **القرآن وإعجازه العلمي**، محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي - دار الثقافة العربية للطباعة، د.ط، د.ت.
- **القرآن ونقض مطاعن الرهبان**، د صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم – دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ.
- **الكافية في علم النحو**، لابن الحاجب، تحقيق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر مكتبة الآداب – القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
- **الكامل في اللغة والأدب**، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- **كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**، أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، د.ط، ١٣٦٠هـ -١٩٤١م.
- **كتاب الألفاظ**، لابن السكيت، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٨م.
- **كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب**، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- **كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب**، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- **كتاب العين**، لالخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، د.ت.
- **الكتاب**: سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- **الكشاف**، للزمخشري، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.

- **كشف المعانى فى المتشابه من المثانى**، لابن جماعة محمد بن إبراهيم، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء . المنصورة، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م

- **الكشف عن صاحب البسيط في النحو**، حسن موسى الشاعر، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، السنة ٢٠ - العددان ٧٧-٧٨ محرم - جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق الثعلبي، (**المتوفى: ٤٢٧هـ**) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

- **الكليات**، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، د.ط، د.ت.

- **لباب النقول في أسباب النزول**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

- **اللباب في علل البناء والإعراب**، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري تحقيق: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر – دمشق، ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

- **اللباب في علوم الكتاب**، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.

- **لسان الميزان**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، دائرة المعرف النظامية – الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان، ط٢، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م.

- **لطائف الإشارات**، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط٣، د.ت.

- **اللغة العربية معناها ومبناها**، لتمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

- **ليس في كلام العرب**، للحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مكة المكرمة، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة، د.ط، د.ت.
- **مجاز القرآن**، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى – القاهرة، د.ط، ١٣٨١م.
- **المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار**، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
- **مجالس العلماء**، لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- **مجمل اللغة**، لأحمد بن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- **مجموع أشعار العرب** وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجّاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسيّ، دار بن قتيبة – الكويت، د.ط، د.ت.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، . أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د.ط، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٠م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- **مختار الصحاح**، لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- **مختصر المعاني**، مسعود بن عمر التفتازاني، مكتبة البشرى –كراتشي – باكستان، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

- **المخصص**، ابن سيده، (٤٥٨هـ)تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، راجعه: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني**، للدكتور محمد محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- **المذكر والمؤنث**، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، دار التراث – القاهرة .
- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .
- **المسائل الشيرازيات**، لأبي علي لفارسي، تحقيق:حسن بن محمود هنداوي(ط١، كنوز اشبيليا- الرياض) ٢٠٠٤م،
- **المستدرك على الصحيحين** ، لمحمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت – ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١.
- **المشترك اللفظي في الحقل القرآني**، لعبد العال سالم مكرم، موسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ.
- **المصباح المنير**، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، تحقيق : يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية.
- **مصنف ابن أبي شيبة**، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق:كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

- **المطول**، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق: د.عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت.
- **معانى القرآن، الأخفش الأوسط**، لأبي الحسن المجاشعي، تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- **معاني القرآن**، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتى، ومحمد على نجار، وعبدالفتاح إسماعيل شلبى (الدار المصرية للتأليف والترجم–القاهرة، د.ط، د.ت.
- **معاني النحو**، د.فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، الأردن، عمان، ط١،، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.
- **معترك الأقران، في إعجاز القرآن**، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان، د.ط، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ–١٩٨٠م.
- **معجم التعريفات**، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ط، د.ت.
- **المعجم الكبير**، لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٢، د.ت.
- **معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر**، عادل نويهض، قدم له: مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ: حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٩–١٩٨٨م.
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمود فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، د.ط، ١٣٦٤هـ–١٩٤٥م.
- **معجم مقاييس اللغة**، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، لجمال الدين، ابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.

- **المغني في الضعفاء**، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي، تحقيق: د. نور الدين عتر، د.م، د.ط، د.ت.

- **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

- **مفتاح العلوم**، ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبي يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

- **مفحمات الأقران في مبهمات القرآن**، لأبي عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، مؤسسة علوم القرآن، دمشق – بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م.

- **المفردات في غريب القرآن**، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني،تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.

- **المفضليات**، للمفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة، ط٦، د.ت.

- **المقتضب**، المبرد، تحقيق، محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب – بيروت، د.ط، د.ت.

- **مقدمات في علم القراءات**، لمحمد أحمد مفلح القضاة، أحمد خالد شكرى، محمد خالد منصور، دار عمار - عمان (الأردن)، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

- **من أسرار البيان القرآني**، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، عمان- الأردن، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

- **من أسرار النظم القرآني في سورتي الفتح والواقعة**، أ.د: عبد العظيم إبراهيم المطعني، أ.د: فريد محمد بدوي النكلاوي، د.م، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

- **من بلاغة القران الكريم**، لأحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، (ت١٣٨٤) نهضه مصر – القاهرة، د.ط، ٢٠٠٥.

- **من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل**، محّمد سَعيد رَمضان البوطي، موسسة الرسالة – بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- **منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز**، لمحمد الأمين الشنقيطي، إشراف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.
- **المنهاج الواضح للبلاغة**، حامد عونى، المكتبة الأزهرية للتراث، د.ط، د.ت.
- **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح** لابن يعقوب المغربي وهو ضمن كتاب شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- **نتائج الفكر في النَّحو** لأبي القاسم السهيلي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٢ – ١٩٩٢ م.
- **النحو المصفى**، محمد عيد، مكتبة الشباب، د.ط، د.ت.
- **النحو الوافي**، عباس حسن، دار المعارف، ط١٥، د.ت.
- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، د.ط، د.ت.
- **النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**، أحمد بن محمد بن علي الكرجي القصاب، تحقيق: علي بن غازي التويجري وآخرين، دار القيم - دار ابن عفان، ط١، ١٤٢٤،١هـ–٢٠٠٣.
- **النكت في القرآن الكريم**، ابو الحسن علي بن فضال القيرواني، تحقيق: د. عبدالله عبدالقادر الطويل، دار الكتب العربية – بيروت، ١٤٢٨–٢٠٠٧.
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ) دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- **نون النسوة وواو الجماعة لغير العاقل في القرآن الكريم**، د. سمية محمد عناية، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٢٠، السنة ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨م.

- **هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري**، لعبد الفتاح بن السيد عجمي المصري الشافعي، مكتبة طيبة المدينة المنورة، ط٢، د.ت.
- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، لإسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابايي البغدادي، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، ، د.ط، د.ت.
- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي،تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر، ، د.ط، د.ت.
- **الوجوه والنظائر**، أبو هلال العسكري، تحقيق وتعليق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، لأبي الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د.ط، د.ت.
- **وظيفة الصورة الفنية**، لعبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب،ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأبي العباس شمس الدين ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٠٠م.

فهرس الآيات

سورة البقرة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾	[البقرة:٨٠]	٣٧
﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ ﴾	[البقرة:١٧٨]	٣٠
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ ﴾	[البقرة:١٦١-١٦٢]	٦٢١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ ﴾	[البقرة:١٨٣-١٨٤]	٣٧
﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ ﴾	[البقرة:٢١٩]	٧٥ ٦٤١
﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾	[البقرة:٢١٣]	١٣٠
﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾	[البقرة:٤٥]	٨٨
﴿ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ﴾	[البقرة:٢٥٩] [البقرة:٢٥٩]	٩٧ ٤٣٤
﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعًاۖ ﴾	[البقرة:٣٨]	١٠٠ ١٧٦ ٢٤٣ ٣٠٣ ٣٢٦
﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾	[البقرة:٣٠]	١٠٣ ١٧٩
﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾	[البقرة:١٢٥]	١٠٧
﴿ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ ﴾	[البقرة:٢٨٣]	١٢١

مَّقۡبُوضَةٌۖ ﴾		
﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾	[البقرة:٣٤] [الإسراء:٦١] [الكهف:٥٠] [طه:١١٦].	١٧٩ ١٠٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم ﴾	[الآية، البقرة:٢٨٢]	١٢١
﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾	[البقرة:٢٥٥]	١٦٦
﴿ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ ﴾	[البقرة:٣٦]	١٧٧ ٣٠٣
﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾	[البقرة:٣٧]	١٧٧
﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ ﴾	[البقرة:٣٤-٣٥]	١٧٩
﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ ﴾	[البقرة:١٢٧]	١٩٥
﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾	[البقرة:١٢٨]	١٩٥
﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾	[البقرة:١١٩]	١٨٩
﴿ تِلۡكَ أُمَّةٌ قَدۡ خَلَتۡ ﴾	[البقرة:١٣٤]	٢٠٥
﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ ﴾	[البقرة:١٤٤]	٢٣١
﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ ﴾	[البقرة:٤٨]	٢١٥
﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ ﴾	[البقرة:١٢٣]	٢١٦
﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ ﴾	[البقرة:٢٨١]	٢١٨
﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾	[البقرة:٢٧٥]	٢٤٥ ٢٤٦
﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾	[البقرة:١١٢]	٢٤٢
﴿ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾	[البقرة:١٥٩]	٢٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾	[البقرة:٢٧٨]	٢٤٦

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾	[البقرة: ٢٠١-٢٠٢]	٢٨٩ ٢٨٧
﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾	[البقرة:٢٠٠]	٢٨٧ ٢٨٨
﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾	[البقرة:٢٠٣]	٢٨٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ ﴾	[البقرة:٢٦٤]	٢٩٧
﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾	[البقرة:١٧]	٢٧٠
﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾	[البقرة:١٩]	٢٧٢
﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾	[البقرة:١٩٤]	٢٧٢
﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾	[البقرة:٢]	٢٧٣
﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾	[البقرة:٣١]	٣٤٦
﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ ﴾	[البقرة:٦٥]	٣٧٣
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ﴾	[البقرة:٢٩]	٣٨٦
﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾	[البقرة:٢٦١]	٣٨٩
﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾	[البقرة:١٩٧]	٣٩٣
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى ﴾	[البقرة:٢٦٠]	٤٠٤
﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾	[البقرة:١٢٤]	٤٠٦
﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ ﴾	[البقرة:٩٩]	٤٠٧
﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا ﴾	[البقرة:٢٥٢]	٤٠٧
﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾	[البقرة:٢١٣]	١٣٠
﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾	[البقرة:٢٥٩]	٩٧ ٤٢٩
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾	[البقرة:١٨٦]	٤٤٤

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾	[البقرة:٧٤]	٣٥١ ٣٦١
﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾	[البقرة:٧٠]	٤٥٧
﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾	[البقرة:٢٣٧]	٤٧٦ ٥٨٩
﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾	[البقرة:٢٥٧]	٤٨٣
﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	[البقرة:١٩٥]	٤٨٢
﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾	[البقرة:٢٥٦]	٤٨٣
﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾	[البقرة:٢٧١]	٤٨٧
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ﴾	[البقرة:١٢٦]	٥٤٦
﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾	[البقرة:٣٣]	٥٤٧
﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾	[البقرة:٣٥]	١٧٧ ١٧٨ ١٨٥
﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ ﴾	[البقرة:٩٦]	٥٨٦
﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾	[البقرة:٢٣٧]	٤٧٥ ٥٨٩
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾	[البقرة:١٩٨]	٥٨٢
﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾	[البقرة:١٨٢]	٦٢٨
﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾	[البقرة:٢٢٩]	٦٣٥
﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾	[البقرة:٢٣٢]	٦٣٧
﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾	[البقرة:١٨٩]	٦٤٠ ٤٣٩
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾	[البقرة:٢١٥]	٦٤٠

الآية	رقمها	الصفحات
		٣٣٨
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾	[البقرة:٢١٧]	٦٤٠ ٤٣٩
﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ ﴾	[البقرة:٢١٩]	٧٥ ٤٣٩
﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	[البقرة:٢٨٦]	٢٢٢
﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾	[البقرة:٨١]	٢٥٣
﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾	[البقرة:٨]	٢٥٥
﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	[البقرة:٢٣٣]	٢٢١
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾	[البقرة:٢٢٠]	٤٤١
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾	[البقرة:٢٢٢]	٤٤١
سورة ال عمران		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾	[آل عمران:١٨]	١٠٢
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ ﴾	[آل عمران:٨٧-٨٨]	٦٢١
﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾	[آل عمران:٥٥]	١١٠ ٢٦١
﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ ﴾	[آل عمران:١٠٤]	٢٠٥
﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾	[آل عمران:١٣٣]	١٧١
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ ﴾	[آل عمران:٢٥]	٢٢٠ ٢٢٠
﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾	[آل عمران:١٦١]	٢٢٠
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾	[آل عمران:١٣٦]	٢٤٠ ٣٠٥

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾	[آل عمران:١٧٥]	٢٥١
﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾	[آل عمران: ١٧٣]	٢٥٢
﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾	[آل عمران:٨٤]	٢٥٨
﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾	[آل عمران:٥٥]	١١٠ ٢٦١
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾	[آل عمران:٧]	٤٠٧
﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾	[آل عمران:٤٩]	٤٦٧
﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾	[آل عمران:١٣٣-١٣٤]	٥٠٦
﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾	[آل عمران:١٣]	٥٦٣
﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾	[آل عمران:١٨٠]	٥٨٣
﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾	[آل عمران:١٧٣]	٥٨٣
سورة النساء		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾	[النساء:٧٩]	١٠٢
﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾	[النساء:١١]	٣٢ ١٣٨ ٦١١ ٦٢٥
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ .	[النساء:٨٢]	١٠٧
﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾	[النساء:١٣-١٤]	١١٨
﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾	[النساء:١٤]	١١٨
﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا ﴾	[النساء:٩٣]	١٢٠

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾	[النساء:١٣٥]	١٣٣
﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ ﴾	[النساء:١٢]	١٣٨ ١٥٣ ٤٢٣ ٤١٩
﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ ﴾	[النساء:٧]	١٣٧ ٤٢٣ ٤٥٣
﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾	[النساء:١٠٥]	١٨٩
﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾	[النساء:١٦٣]	١٨٩
﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ﴾	[النساء:٢٠]	٣٢٦
:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾	[النساء:١١٧]	٣٩٨
﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾	[النساء:١٤٠]	٤٠٧
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	[النساء:٦٥]	١٣١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ ﴾	[النساء:٤٧]	٤٤٧
﴿ وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾	[النساء:٤]	٤٤٩
﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾	[النساء:٨]	٤٥٢
﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾	[النساء:١٠٤]	٤٧٥
﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا ﴾	[النساء:٦٠]	٤٨٣
﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا ﴾	[النساء:٣٤]	٤٨٣
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾	[النساء:٢٢]	٤٨٣
﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	[النساء:١١٥]	٤٨٣
﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾	[النساء:٨٨]	٤٨٣

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	[النساء:١٤١]	٤٨٣
﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾	[النساء:٩٨]	٤٨٣
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ﴾	[النساء:٦٠]	٤٨٣ ٤٨٤
﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾	[النساء:٥٥]	٤٨٦
﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾	[النساء:١٣]	٥٧٠
﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ﴾	[النساء:٢٣]	٥٧٢
﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾	[النساء:١٧٦]	٦٢٤
﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾	[النساء:٨٨]	٤٨٣
﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾	[النساء:١٤٣]	٢٦٣
﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾.	[النساء:٣]	٥٢
﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾	[النساء:٨٠]	٧٥
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	[النساء:٦٥]	١٣١
سورة المائدة		
﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾	[المائدة:٨]	٢٩ ٣٢ ٥٩٠
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾	[المائدة:٤٤]	١٣٢
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ ﴾	[المائدة:٣٨]	١٥٦
﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾	[المائدة:١٧]	١٦٦ ٣٨٧
:﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ	[المائدة:١٢٠]	١٦٩ ١٦٧

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾		١٧٠ ١٧٣
﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾	[المائدة:١٠٩]	١٦٦
﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾	[المائدة:١١٩]	١٦٧ ٤٤٢ ٥٥٣
﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ ﴾	[المائدة:١٨]	١٦٧ ٣٨٥
﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾	[المائدة:٥٦]	٢٠٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾	[المائدة:٦٧]	٢٣٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾	[المائدة:٦٩]	٢٤٤
﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾	[المائدة:١٠٠]	٢٦٢
﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾	[المائدة:٨٣]	٣٩٤
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾	[المائدة:٤]	٣٩٥ ٦٤٤ ٤٤٢
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾	[المائدة:٤٤]	١٣٢
﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾	[المائدة:١١٠]	٤٦٩
إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى ﴾	[الآية ،المائدة:١١٠]	٤٦٨
﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا ﴾	[المائدة:٣٢]	٤٨٢ ٥٠٦
﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾	[المائدة:٧٢]	٥٠٧
﴿ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾	[المائدة:١٢]	٥٠٧ و٥٦٢
سورة الأنعام		

الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾	[الأنعام:٦]	٥٥٤
﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾	[الأنعام:١٣]	٩٨
﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾	[الأنعام:٢٩]	٤٣ ٤٨٨ ٥١٢ ٥٤٨
﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	[الأنعام:١٤٩]	٧٦
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾	[الأنعام:٩٩]	٨٣ ٥٤٣
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾	[الأنعام:٩٨]	٨٤
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾	[الأنعام:٧٤]	٩٦
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى ﴾	[الأنعام:١٦٢]	١٠٧
﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾	[الأنعام:٢٨]	٥٣٠
﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾	[الأنعام:١٤٥]	١١٥
﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾	[الأنعام:١٥١]	١٨٧
﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾	[الأنعام:١٠٨]	٢٠٩
﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾	[الأنعام:٤٨]	٢٤٣
﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	[الأنعام:١١٦]	٢٦٢
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾	[الأنعام:١٥٣]	٢٦٣
﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾	[الأنعام:٦١-٦٢]	٢٩٩
﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾	[الأنعام:١٣٠]	٣١١
﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾	[الأنعام:٧٦]	٣٥٣

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ ﴾	[الأنعام:٤٦]	٤١٦
﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ﴾	[الأنعام:١٣٩]	٤٦١ ٤٦٩
﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾	[الأنعام:٧٨]	٤١٢
﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾	[الأنعام:٥٤]	٥٠٩
﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾	[الأنعام:١٩]	٥٠٨
﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾	[الأنعام:١٣٥]	٥١٢
﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١٣٥) ﴾	[الأنعام:١٣٥]	٥١٠
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾	[الأنعام:٢٥]	٥٣٣
﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾	[الأنعام:٣١]	٥٤٨
﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ ﴾	[الأنعام:٣٢]	٥٤٨
﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾	[الأنعام:٩١]	٥٦١
﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	[الأنعام:١٥٢]	٢٢١
﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾	[الأنعام:١٣٩]	٤٦١ ٤٦٦
﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾	[الأنعام:١٣٨]	٤٧٣
سورة الأعراف		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾	[الأعراف:١١]	١٠٣ ١٠٤
﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ﴾	[الأعراف:٥٠]	١٣٥
﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾	[الأعراف:٢٤]	١٧٦ ١٧٧ ١٧٨

		٣٠٤
﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾	[الأعراف:٢٣]	١٧٧
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾	[الأعراف:١١]	١٠٣ ١٧٦ ١٨٣
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾	[الأعراف:١٧٢]	١٨٤ ٣٢٥ ٥٧٢
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾	[الأعراف:٣٤]	٢٠٩ ٣٠٤
﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ ﴾	[الأعراف:٣٨]	٢١٠
﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾	[الأعراف:٦]	٢١٤
﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾	[الأعراف:٣٥]	٢٤٣
﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾	[الأعراف:١٧٨]	٢٦٣
﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾	[الأعراف:١٥٦]	١٩٠
﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾	[الأعراف:١٤٦]	١٩١ ٤٨٢
﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾	[الأعراف:٨٠]	٢٧٥
﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾	[الأعراف:٨٢]	٢٧٥
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾	[الأعراف:٨٨]	٢٧٦
﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾	[الأعراف:٨٣]	٢٧٥
﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾	[الأعراف:٢٧]	٣٢٣ ٥٠١
﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾	[الأعراف:١٣]	٣٢٦

		٦٢٢
﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ ﴾	[الأعراف:٢٥]	٣٢٦
﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾	[الأعراف:١٠١]	٣٤٣ ٣٤٥
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾	[الأعراف:٩٦]	٣٤٥
﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾	[الأعراف:٩٧]	٣٤٥
﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾	[الأعراف:٩٨]	٣٤٥
﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾	[الأعراف:١٦٦]	٣٧٣
﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾	[الأعراف:١٥٣]	٣٩٩
﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾	[الأعراف:٥٦]	٤٤٠
﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾	[النحل:٩]	٤٨٢
﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ ﴾	[الأعراف:١٤٦]	٤٨٢ ١٩١
﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾	[الأعراف:٢٧]	٣٢٣ ٥٠١
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾	[الأعراف: ٤٢-٤٣]	٥٥٤
﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ ﴾	[الأعراف:١٥٧]	٥٥٩
﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾	[الأعراف:١٣]	٣٢٦ ٦٢٢
﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾	[الأعراف:١٨]	٦٢٢
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾	[الأعراف:٢٠٦]	٦٢٣
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾	[الأعراف:١٨٧]	٦٤١
﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾	[الأعراف:١٧٧]	٤٣
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾	[الأعراف:٤٢]	٢٢٣

﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ ﴾	[الأعراف:١٨٦]	٢٦٣
سورة الأنفال		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾	[الأنفال:٢٠]	٥٧١ ٧٦
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ ﴾	[الأنفال:٢٤]	٧٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾	[الأنفال:٦٤]	٧٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن ﴾	[الأنفال:٧٠]	٢٣٢
﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ ﴾	[الأنفال:٦٩]	٢٣٢
﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾	[الأنفال:٧١]	٢٣٢
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ﴾	[الأنفال:٦٥]	٢٣٥
﴿ وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ ﴾	[الأنفال:٤٤]	٥٦٣ ٥٦٥
﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾	[الأنفال:٤٣]	٥٦٦
﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ ﴾	[الأنفال:٩-١٠]	٥٩٢
﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ ﴾	[الأنفال:١]	٦٤١
سورة التوبة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ ﴾	[التوبة:٦٢]	٧٣ ٥٧
﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	[التوبة:٣٤]	٢٩
﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾	[التوبة:١١٧].	٦٢
﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ﴾	[التوبة:٥٩]	٧٩ ٥٤٣

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾	[التوبة:٧٤]	٤٢٩ ٥٤٣
﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾	[التوبة:٣٦]	٩١ ٣٧٨
﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾	[التوبة:٦٣]	٥٠٣ ٥٠٧ ١٢٠
﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾	[التوبة:٣٣]	١٩٢
﴿ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا ﴾	[التوبة:٥٧]	٤٢٥
﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾	[التوبة:٩٣]	٤٨٣
﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾	[التوبة:٧٥]	٥٤٥
﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾	[التوبة:١١٤]	٩٦
﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾	[التوبة: ٦١-٦٢]	١١٩
سورة يونس		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ ﴾	[يونس:١٠]	٦٢
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ ﴾	[يونس:٥]	٩٠
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾	[يونس:٨٧]	١١١ ٣٣٨
:﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾	[يونس:٨٣]	١٢٢ ٢٨٧
﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا ﴾	[يونس:٧٨]	١٤٣
﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا ﴾	[يونس:٨٩]	١٤٨

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ ﴾	[يونس:٨٨]	١٤٨
﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ﴾	[يونس:٤٩]	٢٠٩
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾	[يونس:٤٧]	٢١٠
﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ ﴾	[يونس:٦١]	٢٢٣
﴿ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٍ ﴾	[يونس:٣٠]	٢٢٠
﴿ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٍ ﴾	[يونس:٥٤]	٢٢٠
﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ ﴾	[يونس:٢٣]	٢٦١
﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾	[يونس:٧٠]	٢٦١
﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾	[يونس:٢٢]	٤٠٠ ٤٠٢ ٤٦٦ ٣٩٩
﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾	[يونس:١٧]	٥١٢
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ ﴾	[يونس:٦٧]	٥٥٠
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾	[يونس:٩]	٥٥٤
﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ ﴾	[يونس:١٦-١٧]	٥١٠
سورة هود		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ ﴾	[هود:٥٦]	٧٦
﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾	[هود:١١٢-١١٣]	٢٢٦
﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾	[هود:١٢-١٤]	٢٣٦
﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ ﴾	[هود: ١٤]	٢٣٧
﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾	[هود:٢٧]	٢٣٩

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾	[هود:١٠٥]	٢٢٠
﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾	[هود:٤٠]	٢٦٢
﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾	[هود:٤٦]	٢٧٦
﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾	[هود:١٠٠-١٠١]	٣٤٥
﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾	[هود:١٠٠]	٣٤٦
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾	[هود:١٠٢]	٣٤٦
:﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾	[هود:٤٤]	٣٦٦
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾	[هود:١١٤]	٣٩٩ ٢٢٨
﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾	[هود:٧٦]	٥١٩
﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾	[هود:٨١]	٥٢٠
﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ ﴾	[هود: ١٤]	٢٣٧
﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾	[هود:٤٢]	٤٦٧
سورة يوسف		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾	[يوسف:٢١]	٥١٤ ٥٧٠
﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾	[يوسف:٢٦]	٢٩
﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾	[يوسف:٢٥]	٩٣
﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴿٢٣﴾ ﴾	[يوسف:٢٣]	٥٠٨ ٩٣ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ ﴾	[يوسف:٧٥]	٥٣٦
﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ ﴾	[يوسف:٣]	١٨٨
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا ﴾	[يوسف:٤٥]	٢٠٧
﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾	[يوسف:١٠٣]	٢٦٢
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا ﴾	[يوسف:٤٥-٤٦]	٢٨٥
﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾	[يوسف:٤]	٣٥٨
﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ ﴾	[يوسف:٥]	٣٥٩
:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾	[يوسف:١٠٠]	٣٥٩
﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ ﴾	[يوسف:٤٣]	٣٨٨ ٣٨٩
﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ ﴾	[يوسف:٤٨]	٣٨٩ ٣٩٠
﴿ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾	[يوسف:١٠]	٤٦٥
﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾	[يوسف:٣٣]	٤٧٦
﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ ﴾	[يوسف:٣٢]	٤٧٦
﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾	[يوسف:٥٣]	٤٨٢ ٥٧٠
﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	[يوسف:١٠٨]	٤٨٢ ٤٨٣
﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	[يوسف:٩٠]	٥٠٣ ٥٠٥
﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ ﴾	[يوسف:٨٧]	٥١٥
﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ ﴾	[يوسف:٧٠]	٥٣٦

:﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾	[يوسف:٧٢]	٥٣٦
﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾	[يوسف:٧٦]	٥٣٦
:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾	[يوسف:٥٢]	٥٧٠
﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾	[يوسف:٤٤]	٢٨٦
سورة الرعد		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾	[الرعد:٤١]	١٣١
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	[الرعد:٢]	٥٣٨
﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾	[الرعد:٣٣]	٢٦٤
سورة إبراهيم		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ﴾	[إبراهيم:٣٥-٣٦]	١٩٤
﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾	[إبراهيم:٣٧-٣٨]	١٩٥
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى ﴾	[إبراهيم:٣٩]	١٩٧
﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾	[إبراهيم:٤٠]	١٩٨
﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾	[إبراهيم:٤١]	١٩٨
﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾	[إبراهيم:٣٧]	٣٩٣
:﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا	[إبراهيم:٣٦]	٣٩٦
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾	[إبراهيم:٣٢]	٤٠٠ ٤٦٧
سورة الحجر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾	[الحجر:٢٠].	٥٢

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾	[الحجر:٢٦-٢٩]	١٠٣ ١٨٢
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾	[الحجر:٢٨]	١٠٣
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾	[الحجر:٩]	١٨٨
﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾	[الحجر:٢٣]	١٨٨
﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾	[الحجر:٥]	٢٠٨
﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾	[الحجر:١٩]	٥٤٢
:﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾	[الحجر:١٦]	٥٤٠
﴿ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ ﴾	[الحجر:١٧]	٥٤٠
﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾	[الحجر:٣٤]	٦٢٢
سورة النحل		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	[النحل:٧٣]	٣٤
﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ ﴾	[النحل:٨١]	٩٩
﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾	[النحل:١٢٠]	٢٠٨
﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ ﴾	[النحل:١١١]	٤٩٣ ٢١٩
﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾	[النحل:٦٨-٦٩]	٣٦٢
﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ﴾	[النحل:٧٩]	٤٠٢
﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾	[النحل:٨]	٤٠٥ ٤٧٤ ٦١٢
﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ ﴾	[النحل:٥٩]	٤٥٦

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾	[النحل:٥٧-٥٨]	٤٥٦
﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾	[النحل:٦٦]	٤٦٠
﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾	[النحل:٦٦-٦٩]	٤٦١
﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ ﴾	[النحل:٦٧]	٦٤٩
﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾	[النحل:١٢٥]	٤٨٣
﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾	[النحل:٨٣]	٥٧٤
﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ ﴾	[النحل:٦١]	٦٠٧
﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾	[النحل:٢٧]	٣٩٧
﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ ﴾	[النحل:٧٧]	٤٣٩
﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾	[النحل:٨٠]	٤٦٨
سورة الإسراء		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾	[الإسراء:١٢]	٨٢
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾	[الإسراء:٦١]	١٠١
﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ ﴾	[الإسراء:٦٥]	١٠١
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾	[الإسراء:٨٥]	١٠٤ ٤٤٢
﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾	[الإسراء:٤٤]	١٦٩ ١٦٩ ١٧٣ ٣٥٠ ٣٨٢ ٣٩٠ ٣٨٨

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾	[الإسراء:٣١]	١٨٧ ٢٦٩
﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾	[الإسراء:٤٧]	١٨٨
﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾	[الإسراء:٥٨]	١٨٨
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾	[الإسراء:٨٤]	٢١٢
﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾	[الإسراء:٩٧]	٢٦٢ ٤٨٥
﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾	[الإسراء:٢٣-٢٥]	٢٦٧ ٦٣٩
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾	[الإسراء:٣٢]	٢٦٩
﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾	[الإسراء:٣٣]	٢٦٩
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾	[الإسراء:٣٤]	٢٧٠
﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾	[الإسراء:٣٥]	٢٧٠
﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا﴾	[الإسراء:٢٢]	٢٧٠
﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾	[الإسراء:٢٦]	٢٧٠
﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾	[الإسراء:٤٨]	٤٨٣
﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾	[الإسراء:١٤]	٤٩٣ ٤٩٢
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾	[الإسراء:٢٩]	٦٢٧
سورة الكهف		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾	[الكهف:٥]	٤٢
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	[الكهف:٥٠].	٤٢

﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾	[الكهف:٣٣]	٨٩
﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾	[الكهف:٣٢]	٨١
﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ ﴾	[الكهف:٣٥]	٨١
﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾	[الكهف:٤٢]	٨٢
﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾	[الكهف:٦١]	١٣٨
﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾	[الكهف:٦٣]	١٣٨
﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾	[الكهف:٦٤]	١٣٩
﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾	[الكهف:١٣]	١٣٩ ١٨٩
﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾	[الكهف:٢]	٢٥١
﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾	[الكهف:١٧]	٢٦٤
﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ ﴾	[الكهف:٨٢]	٣٠١
﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا ﴾	[الكهف:٤٠]	٣٣٠
﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾	[الكهف:٤٢]	٨٢ ٣٣٠ ٤٣٤
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾	[الكهف:٣١]	٥٥٣
﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ ﴾	[الكهف:٢٢]	٥٦٢
﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾	[الكهف:٨٢]	٣٠١
﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾	[الكهف:١٧]	٢٦٤
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾	[الكهف:٨٣]	٤٤٠
سورة مريم		
الآية	رقمها	الصفحات

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾	[مريم:٤]	٦٩
﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ ﴾	[مريم:٩٣]	١١٠
﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾	[مريم:٧٧]	٦١٩
﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾	[مريم:٨١]	٦١٩
﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ ﴾	[مريم:٩٣-٩٥]	٥٠
﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾	[مريم:١٧]	١٠٥
﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾	[مريم:٩٥]	٤٩ ١١٠
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾	[مريم:٨٩]	١١١
﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾	[مريم:٩٤]	١١١
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ﴾	[مريم:٩٦]	١١١
﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾	[مريم:٦٣]	١٨١ ٣٠٣
﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا ﴾	[مريم:٧٠]	١٨٨
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾	[مريم:٤٠]	١٨٨
﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾	[مريم:٩٠]	٣٨٣ ٤٠٩
﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾	[مريم:٢٤]	٥٥٥
﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾	[مريم:٩٧]	٦٠٧
﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾	[مريم:٤٢]	٩٦
سورة طه		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾	[طه:١٢]	٢٤

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ ﴾	[طه:١١٧]	٩١
﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ ﴾	[طه:١١٧-١٢١]	٩٢
﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾	[طه:٤٧]	٩٥
﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾	[طه:٦٦]	٩٧
﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾	[طه:٨١]	١٠٦
﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾	[طه:٤٩]	١٥١ ١٥٤
قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾	[طه:٤٦]	١٥٢ ٣١٠
﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا ﴾	[طه:١٢١]	١٦٣
﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ﴾	[طه:١٢٣]	٣٠٤ ٣١٠ ٣٢٦ ١٧٧ ١٧٦ ٦٣٦
﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ ﴾	[طه:١٢٢]	١٧٧
﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾	[طه:١٣٢]	١٨٧
﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾	[طه:١٠٤]	١٨٨
﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ ﴾	[طه:١٣٤]	١٩٣
﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾	[طه:٤٤]	٢٠٢ ٢٨٥
﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾	[طه:١٠٠-١٠١]	٢٣٩
﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ ﴾	[طه: ٣٩-٤٠]	٢٨٠

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾	[طه: ٢٤-٢٩]	٢٨٤
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾	[طه:١٠٥]	٣٧٩
﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾	[طه:١٠١]	٤٤٠
﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي ﴾	[طه:٩٦]	٤٨١
﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ ﴾	[طه:٧٤]	٥٠٥
﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾	[طه:٧٢]	٥٠٥
﴿ وَمَن يَأْتِهِ ﴾	[طه:٧٥]	٥٠٥
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ﴾	[طه: ٥٣-٥٥]	٥٤١
﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾	[طه:٣٩]	٥٥٤
﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾	[طه:١٠٦-١٠٧]	٦٠٧
﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾	[طه:٤٠]	٢٨٠
سورة الأنبياء		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ﴾	[الأنبياء:٩٧]	٤٩٨ ٥٢٩ ٦٠٩
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾	[الأنبياء:٣٥]	٤٨ ٤٩
﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾	[الأنبياء:٩١]	١٠٥
﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾	[الأنبياء:١٦]	١٧٠ ١٧٤
﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾	[الأنبياء:٦٣]	٢٠٠ ٣٥٤
﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾	[الأنبياء:٩٣]	٢٦١

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ ﴾	[الأنبياء:٧٨]	٣٢٠
﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ ﴾	[الأنبياء:٧٩]	٣٢١ ٣٧٩
﴿ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ ﴾	[الأنبياء:٥٨]	٣٥٣
﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ ﴾	[الأنبياء:٦٠]	٣٥٤
﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	[الأنبياء:٦٦]	٣٥٤
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾	[الأنبياء:٣٣]	٣٥٤
﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدًا وَسَلَٰمًا ﴾	[الأنبياء:٦٩]	٣٦٤
﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾	[الأنبياء:٢٢]	٣٩١
﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾	[الأنبياء:٥٩-٦٠]	٤٣٦
﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ﴾	[الأنبياء:٥٢]	٩٦
سورة الحج		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ ﴾	[الحج:٢٦]	١٠٦
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ﴾	[الحج:١-٢]	١٢٦
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا ﴾	[الحج:٣٤]	٢٠٩
﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا ﴾	[الحج:٦٧]	٢٠٩
﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾	[الحج:٥]	٢٩٠ ٢٩٢
﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ ﴾	[الحج:١٩]	٣١٦
﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ﴾	[الحج:٢٧]	٣٩٤
﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ﴾	[الحج:٤٥]	٤٣٣
﴿ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾	[الحج:٤]	٥٠٨

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾	[الحج:٤٦]	٥١١ ٥٢٦ ٥٢٧
﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾	[الحج:٣٠]	٥٤٣ ٥٨٣ ٥٨٤
﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾	[الحج:٣٢]	٥٨٤
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ ﴾	[الحج:١٦]	٦٠١
سورة المؤمنون		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾	[المؤمنون:٣٧]	٥٣٤ ٤٣
﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾	[المؤمنون:٥٣]	٢٠٥
﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾	[المؤمنون:٥٠]	٨٢
﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ﴾	[المؤمنون:٧١]	١٦٨ ١٦٩ ١٧٤ ٣٩١
﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾	[المؤمنون:٩٦]	١٨٨
﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾	[المؤمنون:٤٣]	٢٠٩ ٣٠٤
﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾	[المؤمنون:٤٤]	٢١٠
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾	[المؤمنون:٩٩]	٢٥٤ ٢٥٤
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾	[المؤمنون:١١٥]	٢٦١

﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾	[المؤمنون:١٠٠]	٤٢٩
﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ ﴾	[المؤمنون:٢١]	٤٦٠
﴿ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ ﴾	[المؤمنون:١٩-٢١]	٤٦٢
﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾	[المؤمنون:١١٧]	٥١١
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي ﴾	[المؤمنون:١٠٩]	٥٢١
﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾	[المؤمنون:٦٢]	٢٢٢
﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾	[المؤمنون:٢٧]	٤٠١
سورة النور		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ ﴾	[النور:٥٤]	٧٦
﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ ﴾	[النور:٤٨]	٧٧
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	[النور:٥١].	٧٧
﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ ﴾	[النور:٣١]	٢٩٢
﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ ﴾	[النور:٥٩]	٢٩٢ ٢٩٣
﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ ﴾	[النور:٤٥]	٣٤٨
﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	[النور:٤١]	٣٥١
﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾	[النور:٦٠]	٤٧٥
﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾	[النور:٣٦-٣٧]	٥٦٦ ٥٦٨
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾	[النور:٥٥]	٥٧١
﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾	[النور:٥٢]	٧٨ ٥٧١

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾	[النور:٢٨]	٥٨٩
﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾	]النور:٤٠[	٦١٨
سورة الفرقان		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾	[الفرقان:٤٩]	٤٣٧
﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ﴾	[الفرقان:١١-١٢]	٤٨٥
﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ﴾	[الفرقان:١٥-١٧]	٥٦٩
﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾	[الفرقان:٣]	٦١٩
سورة الشعراء		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ	[الشعراء:١٦]	٩٤
﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾	[الشعراء:١٨]	١٥١
﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى ﴾	[الشعراء:٢٩]	١٥١
﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾	[الشعراء:١٥- ١٦]	١٥٥
﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ ﴾	[الشعراء:١٦-٢٢]	٢٠١
﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ ﴾	[الشعراء:٢٢]	٢٠٢
﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾	[الشعراء:١٠-١٣]	٢٠٣ ٢٨٥
﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾	[الشعراء:١٥- ١٦]	٣٠٨
﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴾	[الشعراء:٣٤]	٣٠٩
﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾	[الشعراء:٣٥]	٣٠٩
﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾	[الشعراء:٤٢]	٣٠٩
﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾	[الشعراء:٤٩]	٣٠٩

﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾	[الشعراء:٣٦]	٣٠٩
﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾	[الشعراء:٣٧]	٣٠٩
﴿ قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ ﴾	[الشعراء:٤١]	٣٠٩
﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾	[الشعراء:١٠-١٦]	٣١٠
﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾	[الشعراء:١٥]	٣٢١ ٣٣٩
﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ ﴾	[الشعراء:١٩٢]	٦٠٤
﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ ﴾	[الشعراء:٢]	٦٠٥
﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ ﴾	[الشعراء:١٩٦]	٦٠٥
﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾	[الشعراء:٧٠]	٩٧

سورة النمل

الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧ ﴾	[النمل:٨٧]	٤٨
﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم ﴾	[النمل:٣٥-٣٧]	١٢٣ ١٨٠
﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ ﴾	[النمل:٣٠]	١٨١
﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا ﴾	[النمل:٨٣]	١٨٧
﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ ﴾	[النمل:٥٦]	٢٧٦
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ ﴾	[النمل:٢٤]	٣٠٧
﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ ﴾	[النمل:٢٧]	٣٤٣
﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا ﴾	[النمل:١٦]	٣٥١ ٣٦٠
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾	[النمل:١٨]	٣٦٠

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾	[النمل:١٩]	٣٦١
﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾	[النمل:٨٨]	٣٨٠
﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾	[النمل:٤٠]	٤٤٥
﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾	[النمل:٩]	٤٩٩
﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾	[النمل:٩]	٥١٥
﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾	[النمل:٦٠]	٥٤٢
سورة القصص		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾	[القصص:٢٦]	٢٩
﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾	[القصص:٢٣]	١٤٨ ٢٠٧ ٢٠٨
﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾	[القصص:٥٨]	١٨٩
﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾	[القصص:٤٧]	١٩٣
﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾	[القصص:٢٠]	٢٠٤
﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ ﴾	[القصص:٥٠]	٢٣٧ ٢٣٨
﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾	[القصص:٣٩]	٢٦١
﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾	[القصص:٨]	٢٨٠
﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾	[القصص:١٢]	٢٨٠
﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ ﴾	[القصص:٣]	٢٨١
﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾	[القصص:٣٢]	٢٨٥ ٢٧٨
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ ﴾	[القصص:٣٧]	٥١١

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾	[القصص:٣٧]	٥١٢ ٥٤٩
﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ﴾	[القصص:٧٣]	٥٥٠
﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ﴾	[القصص:٣٨]	٥٧٤
سورة العنكبوت		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ ﴾	[العنكبوت:٢٧]	٢٨
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾	[العنكبوت:٥٧]	٤٨ ٤٩ ٢٢١ ٢٦١
:﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ ﴾	[العنكبوت:٤٥]	٨٨
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾	[العنكبوت:٨]	٢٦٧ ١٠٨ ١٠٩ ٢٦١
﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾	[العنكبوت:١٠]	٢٥٨
﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾	[العنكبوت:٥٦-٥٧]	٢٥٩
سورة الروم		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾	[الروم:٣٢]	٤٨ ٢٠٥
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ ﴾	[الروم:٣٠-٣١]	٢٢٩
﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ ﴾	[الروم:٤١]	٢٤٥

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾	[الروم:٢٣]	٥٥٠
﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾	[الروم:١٩]	٥٤٥
﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾	[الروم:٤٦]	٤٦٦
سورة لقمان		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾	[لقمان:١٤-١٥]	١٠٨
﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾	[لقمان:٢٣]	٢٦١ ١٠٩
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾	[لقمان:١٤]	٢٦١
﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ ﴾	[لقمان:١٥]	٢٦٢
﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ ﴾	[لقمان:٢٨]	٢٩٠
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ ﴾	[لقمان:٣١]	٤٠١ ٤٧٢
﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾	[لقمان:١٦]	٥٢٨
﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾	[لقمان:١٠]	٥٣٨ ٥٤١
سورة السجدة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾	[السجدة:١٢]	٦٧
﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ ﴾	[السجدة:١٧]	٢٢١
﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾	[السجدة:١٨]	٣٣١
﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾	[السجدة:١٩-٢٠]	٣٣١

سورة الأحزاب		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾	[الأحزاب:٣٥]	٢٣ ٣٨
﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾	[الأحزاب:٣١]	٣٤
﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾	[الأحزاب:٧٢]	٤١ ٣٨١
﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾	[الأحزاب:٥٦]	٧٥
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾	[الأحزاب:٢١]	٢٢٦
﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾	[الأحزاب:٥٠]	٢٣١
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾	[الأحزاب:٣٦]	٣٣٣
﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾	[الأحزاب:٦٣]	٤٤٣ ٤٤٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟	[الأحزاب:٤١-٤٢]	٥٥٨ ٥٦٠
سورة سبأ		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾	[سبأ:١٣]	٢٦٢
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾	[سبأ:١٠]	٤٠٣ ٣٦٣
سورة فاطر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾	[فاطر:١١]	٦٢٩ ٣٣

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾	[فاطر:١٢]	١٤٧
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾	[فاطر:٣٢]	١٨١ ٣٠٣ ٦٤٦
﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾	[فاطر:٢٧]	٣٨٠ ٤١٦
﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾	[فاطر:٩]	٤٣٨
﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ﴾	[فاطر:٢٨]	١٨١ ٤١٤
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾	[فاطر:٤٤-٤٥]	٦٠٨
سورة يس		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾	[يس:٨]	٦٢٦ ٣١
﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾	[يس:٥٩]	٦٢٠
﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾	[يس:٤٠]	٣٥٨ ٤٨
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾	[يس:٧٤]	٦٢٠
﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾	[يس:٣٣- ٣٥]	٨٧
﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾	[يس:٥٤]	٢٢٢
﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾	[يس: ٢٠-٢١]	٢٩٣
﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾	[يس:٦٥]	٣٤٨ ٣٧١
﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾	[يس:٣٣]	٤٣٩

الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾	[يس:٣٣-٣٤]	٥٤٤
سورة الصافات		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾	[الصافات:٦]	١٧١ ١٧٤ ٥٤٠ ٦٥١
﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾	[الصافات:١٠٠]	١٩٧
﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾	[الصافات:٨٥]	٩٦
﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾	[الصافات:١٠٤-١٠٥].	٥٠٠
سورة ص		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾	[ص:٣٢]	٣١
﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾	[ص:٧١]	١٠٣
﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ﴾	[ص:٢٧]	١٧٠ ١٧٤ ٦٥١
﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ﴾	[ص:١٣-١٤]	٢١٣
﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ ﴾	[ص:٢٤]	٢٦٢ ٣١٩
﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾	[ص:٢١-٢٣]	٣١٨
﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾	[ص:٣٦]	٣٦٤
﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ ﴾	[ص:١٨]	٣٧٩ ٣٨١

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾	[ص:١٩]	٤٠٣
﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ﴾	[ص:٣١-٣٣]	٤٠٥
﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾	[ص:٣١-٣٢]	٦١٣
﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾	[ص:٧٧]	٦٢٣
سورة الزمر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾	[الزمر:٧٠]	٢١٤ ٢٢٠
﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾	[الزمر:٦٥]	٢٧٠ ٥١١
﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾	[الزمر:٣٣]	٢٩٤ ٢٩٥
﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم ﴾	[الزمر:٣٨]	٣٩٧
﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾	[الزمر:٤٩-٥٠]	٤٢٦
﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ ﴾	[الزمر:٥٦]	٤١٨
﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾	[الزمر:٥٩]	٤١٨ ٤٢٠
﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾	[الزمر:٣٢]	٤٢٠
﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾	[الزمر:١٧]	٤٨٣
﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾	[الزمر:٧]	٥٨٦ ٥٩١
﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾	[الزمر:٢٣]	٢٦٤
﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾	[الزمر:٣٦]	٢٦٤
﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ ﴾	[الزمر:٥٦-٥٩]	٤١٨

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ﴾	[الزمر:٦٠]	٤٢٠
سورة غافر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾	[غافر:١٥]	٢٥١
﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾	[غافر:٦٧]	٢٩٠
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾	[غافر:٦١]	٥٥٠ ٥٧٨
﴿ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾	[غافر:٣٧]	٥٧٤
﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾	[غافر:٣٣]	٢٦٤
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾	[غافر:٧٩]	٤٧٢
سورة فصلت		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾	[فصلت:٥٠]	٤٢٧ ٤٧٨
﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ ﴾	[فصلت:٣١]	١٨٩
﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾	[فصلت:٣٧]	٣٠٧ ٣٩٢
﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾	[فصلت:٢١]	٣٦١ ٣٧١
﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾	[فصلت:١١]	٣٦٨
﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ ﴾	[فصلت:١٢]	٣٨٧
﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾	[فصلت:٣٨]	٦٢٣
سورة الشورى		
الآية	رقمها	الصفحات

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ ﴾	[الشورى:٥]	٣٨٤ ٣٨٣ ٤٠٩
﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	[الشورى:٤]	٣٨٥
:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ ﴾	[الشورى:٣٢-٣٤]	٤٠٠
(﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾	[الشورى:٤٢]	٤٨٣
﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ ﴾	[الشورى:٤٤]	٢٥٢ ٥٥٠ ٥٧٨
﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ ﴾	[الشورى:٤٤-٤٥]	٤٩٠
﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾	[الشورى:٤٦]	٢٦٤
سورة الزخرف		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ ﴾	[الزخرف:٤٦]	٩٥
﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ﴾	[الزخرف:٥٢]	١٥٢
﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم ﴾	[الزخرف:٣٢]	١٨٧
﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا ﴾	[الزخرف:٢٢]	٢٠٧
﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾	[الزخرف:٣٦-٣٨]	٢٤٨
﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم ﴾	[الزخرف:٩]	٣٩١
﴿ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾	[الزخرف:١١]	٤٣٧
:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ﴾	[الزخرف:١٧]	٤٥٦
﴿ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾	[الزخرف:١٢-١٣]	٤٧٢
﴿ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾	[الزخرف:٥١]	٥٥٥

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ﴾	[الزخرف:٢٦]	٩٦
سورة الدخان		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	[الدخان:٣٨]	١٧١
﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾	[الدخان:٣٠-٣١]	١٧١
﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾	[الدخان:٣٧]	١٧١
﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾	[الدخان:٥٨]	٦٠٧
سورة الجاثية		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾	[الجاثية:٢٨]	٢٠٦
﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾	[الجاثية:٢٢]	٢٢٠
﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾	[الجاثية:٢٤]	٥٣٤
﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ ﴾	[الجاثية:٢٣]	٥٥٢ ٥٧٨
سورة الأحقاف		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾	[الأحقاف:٣٣]	١٧١
﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ ﴾	[الأحقاف:٥-٦]	٢٦٥
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾	[الأحقاف:١٥-١٦]	٢٩٨
﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ ﴾	[الأحقاف:١٧-١٨]	٢٩٩
﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ ﴾	[الأحقاف:٢٩]	٣١٢
﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾	[الأحقاف:٣٥]	٤٩٥
﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ ﴾	[الأحقاف:٢٥]	٣٨٨

سورة محمد		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾	[محمد:٢٠]	٢٧٤
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾	[محمد:١٩]	٥١٦
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾	[محمد:٧]	٥٦١
سورة الفتح		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	[الفتح:٩]	٥٥٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾	[الفتح:١٠]	٧٥
﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾	[الفتح:٢٨]	١٩٢
سورة الحجرات		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾	[الحجرات:١٤]	٢٥٨
﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	[الحجرات:٩]	٣١٢
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾	[الحجرات:١٠]	٣١٣
سورة ق		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾	[ق:٢٤]	١٤٠
﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾	[ق:٤٥]	١٨٨
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾	[ق:١٦]	١٨٩
﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾	[ق:٤٣]	١٨٩
﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾	[ق:١٢-١٤]	٢١٣
﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾	[ق:٢١]	١٤٢

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾	[ق:١٠]	٤٣٤
﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾	[ق:١١]	٤٣٧
﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾	[ق:٧]	٥٤٢
﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾	[ق:٩]	٥٤٢
سورة الذاريات		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا ﴾	[الذاريات:٤٧]	١٧١ ١٧٢
﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾	[الذاريات:٢١]	٤٩١
﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾	[الذاريات:٩]	٦٠٢
سورة الطور		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾	[الطور:٣٣-٣٤]	٦٠٥
﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾	[الطور:٢]	٦٠٥
سورة النجم		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾	[النجم:١٩-٣٠]	٣٩٨
وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾	[النجم:٣٧]	٤٠٧
سورة القمر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾	[القمر:٢٠]	٤٣٢
﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾	[القمر:١٩]	٤٣٣
سورة الرحمن		

الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾	[الرحمن:١٣]	١٥٠ ١٦٦
﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾	[الرحمن:٢٢]	١٤٥ ١٥٣ ٣١٢
﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾	[الرحمن:١٩]	١٤٥ ٣١١
﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾	[الرحمن:١٥]	١٥٠
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾	[الرحمن:٣]	١٥٠ ١٨٢
﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾	[الرحمن:٨]	١٨٢
﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾	[الرحمن:١٠]	١٥٠
﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾	[الرحمن:٤٦]	٣٢٩
﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾	[الرحمن:٥٠]	٣٢٩
﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾	[الرحمن:٥٢]	٣٢٩
﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾	[الرحمن:٥٦]	٣٢٩
﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ ﴾	[الرحمن:٧٠]	٣٣٠
﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾	[الرحمن:٦٢]	٣٣١
﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ ﴾	[الرحمن:٧٢]	٣٣١
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾	[الرحمن:٢٦]	٦٠٨
﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾	[الرحمن:٣١]	١٦٥

﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ ﴾	[الرحمن:٣٥]	١٦٤
﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾	[الرحمن:٣٣]	١٦٤ ١٦٥
﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾	[الرحمن:٣١-٣٥]	٣١٥
سورة الواقعة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴾	[الواقعة:٥٢]	٩٦
﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾	[الواقعة:٥٧]	١٨٨
﴿ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ ﴾	[الواقعة:٧٢]	١٨٨
﴿ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾	[الواقعة:٥٩]	١٨٨
﴿ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾	[الواقعة: ٦٤]	١٨٨
﴿ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ ﴾	[الواقعة:٧٣]	١٨٨
﴿ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ ﴾	[الواقعة:٦٩]	١٨٨
﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ ﴾	[الواقعة:٨٥]	١٨٨
﴿ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا ﴾	[الواقعة:٦٠]	١٨٨
:﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴾	[الواقعة:٨٣]	٦٠٩
﴿ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾	[الواقعة:٨٧]	٦٠٩ ٦١٠
سورة الحديد		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ ﴾	[الحديد:٢١]	١٧٢
﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾	[الحديد:٧]	٥٧٠
سورة المجادلة		

الآية	رقمها	الصفحات
﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾	[المجادلة:١٩]	٢٠٥
سورة الحشر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾	[الحشر:١٤]	١١٧
﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾	[الحشر:٢١]	٣٨٥
سورة الممتحنة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾	[الممتحنة:٤]	٩٦
سورة الصف		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾	[الصف:٩]	١٩٢
سورة الجمعة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾	[الجمعة:٥]	٢٧٤
﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ ﴾	[الجمعة:١١]	٥٦٦
سورة المنافقون		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾	[المنافقون:٤]	٢٨٠
سورة الطلاق		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾	[الطلاق:١١]	٤٤٧ ٥٥٣ ٢٤٦

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾	[الطلاق:١٢]	١٦٩ ٣٨٥ ٣٨٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾	[الطلاق:١]	٢٢٩ ٢٣٣
سورة التحريم		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	[التحريم:٤]	٦٣٤ ١٤١ ١٦٠ ٤٦
﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾	[التحريم:١٢]	١٠٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾	[التحريم:١-٢]	٢٣٥
سورة الملك		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾	[الملك:١٤]	٣٦٤
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ﴾	[الملك:١٩]	٤٠٢
﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾	[الملك:٦-٧]	٤٨٦
﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ﴾	[الملك:٥]	٥٤٠
﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾	[الملك:١٦]	٦٢٣
سورة القلم		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	[القلم:٤]	٢٢٧ ٢٧٠

سورة الحاقة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾	[الحاقة:٧]	٦٤٠ ٣٨٨ ٤٣٢
﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا ﴾	[الحاقة:٦]	٤٣٤
﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾	[الحاقة:٤٠]	٦٠٣
﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	[الحاقة:٤٣]	٦٠٤
سورة المعارج		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾	[المعارج:١٩]	٥٧
﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾	[المعارج:٢٢]	٥٧
﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾	[المعارج:٤١]	١٨٩
﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾	[المعارج:١٥]	٤٨٧
﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾	[المعارج:١١]	٤٨٧ ٤٨٨
سورة نوح		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾	[نوح:١٦]	١٤٧
﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ ﴾	[نوح:١٥-١٦]	٣٨٧
﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾	[نوح:٢٤]	٣٩٦
سورة الجن		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾	[الجن:٢٣]	١١٨

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ ﴾	[الجن:١]	٥١٦
﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾	[الجن:١٩]	٥١٨
﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى ﴾	[الجن:٣]	٥١٦
﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ ﴾	[الجن:٤]	٥١٧
﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ ﴾	[الجن:٦]	٥١٧
﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾	[الجن:٥]	٥١٧
﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ ﴾	[الجن:١٢]	٥١٧
﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا ﴾	[الجن:٧]	٥١٧
﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا ﴾	[الجن:١٦]	٥١٧
﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ ﴾	[الجن:٢٨]	٥١٧
سورة المزمل		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾	[المزمل:١٧]	٤٣٢
سورة المدثر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾	[المدثر:٥١]	٢٠٣
سورة القيامة		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾	[القيامة:٣٧]	٤٤٠
﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾	[القيامة:١٤]	٤٩٠ ٤٩١
﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾	[القيامة:١٦-١٩]	٦٠٦
﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾	[القيامة:٢٦]	٦٠٩

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾	[القيامة: ١٣-١٤]	٤٩٣
سورة الإنسان		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾	[الإنسان:٦]	٥٩٥
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾	[الإنسان:٢٣]	١٨٨
﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ ﴾	[الإنسان:٢٨]	١٨٩
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ ﴾	[الإنسان:٢٠]	٦٤٠
سورة المرسلات		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾	[المرسلات:١١]	٣٩
سورة النازعات		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾	[النازعات:٤٦]	٤٩٤ ٣٠
﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾	[النازعات:٩]	٤٩٥
﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾	[النازعات:٨]	٤٩٥ ٦١٩
﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾	[النازعات:٢٨-٢٩]	٤٩٦
﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾	[النازعات:١٠]	٦١٩
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾	[النازعات:٤٢].	٦٤١
سورة عبس		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾	[عبس:٢٧]	٥٤٢

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾	[عبس:١-٢]	٦٣٢
﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾	[عبس:٣]	٦٣٢ ٦٣٣
﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾	[عبس:٦]	٦٣٣
سورة التكوير		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾	[التكوير:٣]	٣٨٠
﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾	[التكوير:١٩]	٦٠٣
﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾	[التكوير:٢٧]	٦٠٤ ٦٠٥
سورة الانفطار		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾	[الانفطار:٢]	٤٠
سورة الطارق		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾	[الطارق:٥-١٠]	٥٧٢
﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ ﴾	[الطارق:١٣]	٦٠٤
سورة الغاشية		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴾	[الغاشية:٢٥]	٢٦١
﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴾	[الغاشية:١٩]	٣٨٠
سورة الفجر		
الآية	رقمها	الصفحات

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾	[الفجر:٢٥-٢٦]	١٠٦
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾	[الفجر:٦-١١]	٢٨٢
﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾	[الفجر:٤]	٢٨٢
﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾	[الفجر:٢٨]	٣٠٠
﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾	[الفجر:٢٧-٢٨]	٤٨١
سورة الشمس		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾	[الشمس:١]	٤٩٦
﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾	[الشمس:٣]	٦١٤
﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾	[الشمس:١-٢]	٦١٥
سورة الليل		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) ﴾	[الليل:١٤]	٤٨٨
سورة التين		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾	[التين:٤-٦]	٢٩٨
سورة القدر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾	[القدر:١]	٦٠٠ ٢٩ ٤٦
سورة العاديات		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾	[العاديات:٦]	٢٩٨

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾	[العاديات:١١]	٢٩٨
﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾	[العاديات:١-٥]	٤٠٥
:﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) ﴾	[العاديات:٤]	٦١٥ ٦١٦
﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) ﴾	[العاديات:٥]	٦١٦
سورة الكوثر		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾	[الكوثر:١]	٢٢ ١٨٩
سورة الإخلاص		
الآية	رقمها	الصفحات
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾	[الإخلاص:١]	٤٣ ٦٢ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥٢١
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾	[الإخلاص:١-٢]	٥٢٢
سورة الفلق		
الآية	رقمها	الصفحات
﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾	[الفلق:٣]	٣٥٦
﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾	[الفلق:٥]	٣٥٦

فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
٣٨	قُولُوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ
٣١٢	لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ
٣٦٤	كان داود عليه السلام يوضع له ستمائة ألف كرسي
٤٠	مأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ
٤٨٤	كَانَ أَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ
٥٩٩	خُذُوهَا يَا بني طَلْحَةَ خَالِدَةً تالدةً
٣٩ ٤١٠	اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ
٢٦٢	كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ -ﷺ- فَخَطَّ خَطًّا
٤٠	خير النساء صوالح قريش
٥٢٢	أن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك
٣٣٣	خَطَبَنِي عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -ﷺ-
١٨٤	إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ
١٨٤	يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى جُعِلْتَ نَبِيًّا
٤٠	لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ
٥٠	كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى
٧٤	أَنَّ رَجُلاً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ -ﷺ-
٧٩ ٥٤٥	قَالَ مَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ
١٢٩	قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ، فَيَقُولُ
١٦١	تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ
٢٢٨	وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي
٢٣٣	يَسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ؛ وَأَبُو الزُّبَيْرِ يَسْمَعُ ذَلِكَ
٢٤٢	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ
٢٤٤	مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ؛ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ
٢٧٢	إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا

مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ	٢٧٢
نَزَلَتْ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾	٣١٦
كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ	٣٥١
إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ	٣٥١
قَالَ "تَقْتَتِلُونَ أَنْتُمْ وَيَهُودُ	٣٥١
لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا	٤٤٣
وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ	٤٥٧
أَي عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ	٤٥٨
مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ	٤٢١
مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ	٥٤٥
بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ- ﷺ- إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ	٥٦٨
فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ	٥٩٩
كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً	٦٠٦
لم أزل حريصا أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي	٦٣٥
زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا	٦٣٨

فهرس الأبيات

البيت	كلمة القافية	الصفحة
وإنّي رأيــتُ الصّــامِرين متــاعَهم	وِعائيا	٣٥
إذا أَنتَ لَم تُقصِر عَنِ الجَهلِ وَالخَنا	جاهِلُ	٢٢
هَــل تَعْــرِفُ الــدارَ يُعَفِّيهــا المــورْ	المورْ	٢٧
أَمــاوِيُّ مــا يُغـني الثَـراءُ عَـنِ الفَتى	الصَدرُ	٢٩ ٥٩٦
ولـوْ حَلَفـتْ بـينَ الصَّـفا أُمُّ مَعْمَـرٍ	يمينُها	٣٠
فإنَّــك والتــأبينَ عُــرْوَة بعــد مــا	شوارِعُ	٣٠
وَمــا أَدري إِذا يَمَّمــتُ وَجهــاً	يَليني	٣١ ٦٣١
سَــادُوا الــبِلادَ وأصْــبَحُوا فى آدَمٍ	فُحُولا	٣٤
لنـا الجَفَنَـاتُ الغُرُّ يلْمعْنَ بالضَّحَى	دَمَا	٣٨
وَلَـو أنَّ مجـدًا أخلَـدَ الـدّهرَ واحِـداً	مُطعِما	٤٤
جــادَت عَليهــا كُــلُّ بِكـرٍ حُـرَّةٍ	كَالدِرهَمِ	٤٩
بِـأَنّي قَـد لَقَــيتُ الغُـولَ تَهــوي	صَحصَحانِ	٥٨٥
جــارَى أبــاهُ فــأقْبَلا وهُمــا	الفَخْر	١١٩

كِلاهُمَا حِـينَ جَـدَّ الجـرْيُ بيْنَهُـمـا	رَابِي	٨٠
إذا نَــزَلَ السَــمَاءُ بِــأَرضِ قَــومٍ	غِضابا	٦٥
فَسَــقى الغَضـا وَالنازِليـهِ وَإِن هُــمُ	وَضُلُوعِ	٦٥
فَجـاءَ بِهـا مـا شِـئتَ مِـن لَطَمِيَّـةٍ	وَيَمُوجُ	١٤٦
أقامـت علـى رَبْعَيهمـا جارَتـا صَفًا	مُصْطَلَاهما	١٥٥
فَتَخالَســا نَفسَــيهِما بِنَوافِــذٍ	لا تُرقَعُ	١٥٧
هُمــا تَفَــلا فِي فِيَّ مِــن فَمَوَيهِمــا	رِجَامِ	١٥٧
يُـزِلّ الغُـلامَ الخِـفَّ علـى صَـهَواتِهِ	الْمُثَقَّلِ	١٧٥
أجارَتَنــا إنَّ الخُطُــوبَ تَنــوبُ	عَسِيبُ	١٧٥
آذَنَتْنَــا بِبَينِهــا أَسْمَــاءُ	الثَّوَاءُ	١٧٦
فَبَــثَّهُنَّ عَلَيــهِ وَاِســتَمَرَّ بِــهِ	الحَرَدِ	٣٠٦
أَلا أَيُّهـا اللَيـلُ الطَويـلُ أَلا اِنجَلـي	بِأَمثَلِ	٣٤٣
فَعَــنَّ لَنــا سِــرْبٌ كَــأَنَّ نِعاجَــهُ	مُذَيَّلِ	٣٨١
أَو رَوضَــةً أُنُفــاً تَضَــمَّنَ نَبتَــها	بِمَعلَمِ	٣٨١

خَنْسَـاءُ ضَـيَّعَتِ الفَريـرَ فَلَـم يَـرِمْ	وَبُغامُها	٣٩٤
فَإِيّـــاكُم وَحَيَّــــةَ بَطــــنِ وادٍ	بِسِيِّ	٤١٢
فِيهـا خُطُـوطٌ مِـنْ سَـوادٍ وَبَلَـقْ	البَهَقْ	٤١٣
لَـهُ الوَيـلُ إِن أَمسـى وَلا أُمُّ هاشِـمٍ	يَشكُرا	٤٤٢
لِقَـــومٍ فَكــانوا هُـــمُ المنــفِدينَ	إنفـــادِها	٤٨١
وَمـــا الحَربُ إِلّا ما عَلِمتُم وَذُقتُمُ	المرَجَّمِ	٥٨١
وَصَـهباءَ مِنهـا كالسَّـفينةِ نَضَّـجَت	عَديدُها	٥٩٧
حَـتّى إِذا أَلقَــت يَــداً في كــافِرٍ	ظَلامُها	٥٩٧
عَلى مِثلِها أَمضي إِذا قالَ صاحِبي	وَأَفتَدي	٥٩٨
أَلا طَرَقَتنـا بَعـدَما هَجَـدوا هِنـدُ	نَجدُ	٥٩٨
وَقَــد عَلِـمَ الضَـيفُ وَالمرمِلــونَ	شَمالا	٥٩٩

فهرس المحتويات

الإهداء... ٤

شكر وتقدير ٥

مستخلص الرسالة ٦

المقدمة ٧

التمهيد النظري: ١٩

المطلب الأول : الضمير تعريفه وأنواعه وأحواله وأغراضه ١٩

أولا: تعريف الضمير:.................................... ١٩

ثانيا: أحوال الضمير:.................................... ٢١

ثالثا: أغراض الضمير: ٢٣

المطلب الثاني:مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات النحوية واللغوية ٢٥

المطلب الثالث: مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمائر في الدراسات البلاغية.. ٥٦

الفصل الأول : مخالفة الضمير مرجعه في النوع أو العدد في القرآن الكريم : ٧٢

المبحث الأول : عود ضمير المفرد على المثنى. ٧٢

المبحث الثاني : عود ضمير المفرد على الجمع ١٠٠

المبحث الثالث: عود ضمير المثنى على المفرد ١٣٣

المبحث الرابع : عود ضمير المثنى على الجمع ١٥٥

المبحث الخامس : عود ضمير الجمع على المفرد ١٧٥

المبحث السادس : عود ضمير الجمع على المثنى ٣٠٦

الفصل الثاني: مخالفة الضمير مرجعه في نوع الجنس في القرآن الكريم.........٣٤٢

المبحث الأول: عود ضمير المذكر العاقل على غير العاقل ٣٤٢

المبحث الثاني : عود ضمير المؤنث العاقل على غير العاقل ٣٧٧

المبحث الثالث : عود ضمير المذكر على المؤنث ٤١٢
المبحث الرابع : عود ضمير المؤنث على المذكر......................٤٨١
الفصل الثالث : المخالفة في الرتبة في القرآن الكريم : ٤٩٩
المبحث الأول: عود ضمير الشأن على متأخر. ٥٠٠
المبحث الثاني : عود ضمير القصة على متأخر ٥٢٨
المبحث الثالث : عود الضمير على غير الأقرب........................٥٣٧
الفصل الرابع : مخالفة مقتضى الظاهر في عود الضمير على ما لم يصرح بلفظه في القرآن الكريم : ٥٨٢
المبحث الأول : عود الضمير على المصدر الذي فسره فعله. ٥٨٢
المبحث الثاني : عود الضمير على مفهوم من المعنى ٥٩٦
الخاتمة والتوصيات...٦٤٦
فهرس المصادر والمراجع...٦٤٧
فهرس الآيات ٦٤٧
فهرس الأحاديث ٦٤٧
فهرس الأبيات ٦٤٧

تم بحمد الله وتوفيقه